



تأليفُ
إبراهيم بن عبد الرحمن الرميجي
غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيهِ وَلِلمُؤمِنِين

﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾

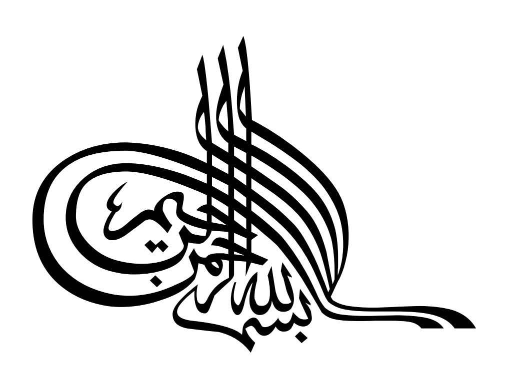
معالِمٌ وتأصيلات

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

عامله الله بعفوه وغفرانه

ووالديه والمسلمين



فهرس المحتويات

تمهيد

الحمد لله العليم الحكيم الرحمن الرحيم، أمر بالاعتصام بحبله المتين والاجتماع، ونهى عن الفُرقة والتنازع والضياع، جَعَلَ أُخوّة الدِّين من الدِّين، وأمر بالموالاة فيه كلَّ حين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلقَ وقدّر، وملك ودبّر، وشرع ويسّر، فله جميلُ الحمدِ مقدّمهُ والمؤخّر، وأشهد أن محمدًا عبدُ الله ورسوله النبيّ الخاتم والناصح المشفق والمصطفى الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد: فإنّ مما يكْلَمُ فؤادَ المؤمن الناظرِ لحال المسلمين في هذا الزمان ويُحيّر لبّه؛ ما يراه من اجتماعِ أصناف الأذى في الدين والدنيا على أمتّنا المحمدية؛ من جهلٍ وفُرقةٍ وتشريدٍ وتجويعٍ وحربِ عقيدة وبدع وشرك وتنصير وإلحاد وغزو فكري وعسكري واحتلال مقدّسات وترويع آمنين وتهجير سكان وذبح أبرياء. وقُلْ ما شئت من ألوان الذّلِّ والهوان التي شربتها الأمة حتى غصّت بها وحشرج حلقها كارهًا لها! ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فهل لهذا الليل من آخر؟! وهل بعد ذا التفرّق في الدين والدنيا من وئام واجتماع؟! وأن عسى أن يكون الفرَج قد اقترب، وما أقربه لأهل اليقين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٣].

إن الأمة في هذا الزمن الذي استدارت على قصعتها أيدي الكفرة والفجرة، ورُميت من نبالٍ عديدة، وانكسرت على كاهلها النصال فوق النصال؛ لهي حقيقةٌ فورًا بنبذ أسباب التفرّق، وتحصيل طرائق الاجتماع، وما ذاك إلا بهُدى الله ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

والمؤمن متفائل مهما رأى من أمارات الفرقة وتسليط الأعداء وتسلّط الهوى، ومهما كثر الخَبثُ فهو إلى سفال ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]. وإن الذنوب هي من أعظم أسباب التفرق، قال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ﴾ [المائدة: ٤٩].

يا أصحابنا: أليس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بيننا؟ ألم يقل الله تعالى عند نزاعنا: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٥٩]؟ متى ننبذ حظوظ النفس الأمارة لهتاف النفس المطمئنة: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣]؟!

ومن يطلب الدنيا يُرَجّيْ نوالها فقد خاب سعْيًا والخواتيمُ تشهدُ

إن داء الأمّة منها، كامنٌ في جوفها، ودواؤها في يدها إن رامت عافية وشفاءً، فمصيبتنا في أنفسنا أعظم من مصيبتنا بأيدي أعدائنا، ولو اعتصمنا بحبل الله حقًّا ما أدالهم الله علينا، لكننا خَذَلْنا دينَنا فخُذلنا، ولو عُدنا لِرحابه ورِياضه كما أُمرنا لعادت لنا عزتنا وشموخنا، ولقد استطال أهلُ النفاق وصالَ أهل الكتاب وشمَتَت أُمم الشرك حتى كادت أن تقول بلسان حالها:

وعَدَلْنا مَيْل بدرٍ فاعتدلْ.

إن الأدواء في جسد الأمة كثيرة ومتشعّبة، قد أعيت من يداويها جملة، ولكن مع فرْزِ كلّ داء وتحجيمه واحتوائه وتوصيفه وتفصيل علاجه والعمل على رفعه؛ نكون قد أصلحنا عضوًا من أعضاء جسدنا المنهك بأمراضه، وبنينا لبنةً في بناء خيريّتنا التي أمرنا الله بها وحثنا عليها ووعدنا بمددٍ ومعونة من لدنه ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

لقد أصبح التنابز بالألقاب بين بعض أهل الديانة سائغًا شائعًا! فمن حذّر من البدع أو فِتَنِ الخروج على الحاكم المسلم؛ وصموه بالإرجاء ومداهنَة السلطان، ومن أنكر المنكرات وبذل جهده في الدعوة الى الله بالإحسان وسعى لجَودة عمله وترتيبه؛ وصفُوه بالحركيّة والحزبية، ومن نادى بالجهاد في سبيل الله والاحتساب على الظالمين الفجرة؛ وصموه بالتكفير والغلوّ، ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، «**وكونوا عباد الله إخوانا**»(١) والمسلم أخو المسلم محب له وناصح وراحم وشفيق.

من غصَّ بالزادِ ساغَ الماءُ غُصَّتهُ ... فكيف يصنعُ من قد غصّ بالماءِ

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بيان العلم في غلطٍ من الأمور العلمية أو العملية إذا تكلم بعلم وعدل وقصد النصيحة فإن الله يثيبه على ذلك»(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) المنهاج (٥/١٤٤).

فيا لَلعجب! لقد ناب بعض قومنا عن الشيطان في تثبيطه عن الخير، فأين الخلل إذن؟ إن الخلل هنا يكمن في غلوّ فئةٍ ما في أمر من أمور الدين وحصر الدين -عمليًّا- عليه، وإسقاط ما عداه ولو بلسان الحال واللزوم.

❋ فنجد مثلًا من يحصر الدين ومسائل العلم النازلة في طاعة ولي الأمر وتحريم الخروج عليه والغلوّ في طاعته، والزيادة على ذلك بتسويغ منكراته واعتبار شهواته هِدايات!

مع شدِّ كتائب حملاته المصميّة على إخوته الدعاة وهدم صروح الدعوة إلى الله وإجهاضها، والفرح -من طرْف خفي- بطمس معالم الدعوة إلى الله، وإن سمّاها بزعمه ما شاء. قال بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا رأيتم الرجل موكلًا بعيوب الناس ناسيًا لعيوبه، فاعلموا أنه قد مُكر به!».

❋ وفي المقابل نرى من قبع متشنّجًا متتبعًا عثرات ولاته وزلات أُمرائه والاشتغال بنشرِها والتشغيبِ عليهم بها عند العامة والخاصة، مُهيّجًا مُحاربًا السلطانَ المسلمَ، مع الإغضاء عن حسناته واستصغارها، والطعن في نيّته بها، وحمل ما ظهر منه على أشنع المحامل وأبشع المطايا، واتّهامه بحرب الدين وولاء الكافرين ونحو ذلك، دون النظر لاعتبارات الحال أو وجود المعاذير أو التثبّت من قالات السوء، فيبتدئون الشبر وينتهون به ميلًا -إن انتهوا!- ولربما كفّروا المسلم بلا مسوّغ كافٍ من الشرع. تقودُه حَمِيّةٌ للدين وحماسةٌ للاحتساب لكنها بلا قيودٍ من الشريعة ولا مراعاة لمقاصدها وكُلّياتها، كذلك التحزّب لغير اسم الإسلام فيتحزبون لجماعة أو لشخص سوى رسول الله

ﷺ فيتنفّسون الجاهلية باسم الدين وهذا لعمرو الله من الضلال، وربما رأى أحدهم القذى في عين أخيه وغفل عن الجذع المعترض في عينه، ومن اشتغل بعيوبه لم يجد لعيوب الناس وقتًا.

أرى كلَّ إنسانٍ يرى عيبَ غيرِهِ ويعمَى عن العيبِ الذي هو فيه
فلا خيرَ فيمن لا يرى عيبَ نفسهِ ولا يعمى عن العيبِ الذي بأخيه

❋ وفي الجانب الثالث نرى من حصر النجاة والفلاح على من كان في جبهات القتال، ملغيًا المفهوم الواسع لباب الجهاد الذي مِنْ أَعظَمِه جهادُ المنافقين بالقرآن العظيم ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢] والجهادُ بالنفقة في سبيل الله تعالى ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١] والتفقه في الدين وتعليمه والدعوة إليه ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] وغير ذلك من أبواب الجهاد الذي من أعظمه قتال الكافرين لإعلاء كلمة الله تعالى، بل الجهاد عند إطلاقه لا ينصرف إلا له بالنفس والمال.

فجاء من لا يرفع رأسًا بالجهاد إلا بالقتال دون جهاد اللسان وغيره، وزاد عليه بأن حصر فتاوى الجهاد ونوازله على أقوال فتيةٍ لم يتمكّنوا من العلم ولم ترسخ أقدامهم فيه، قد غضّ طرْفه عن تمكّنهم العلمي وتأصيلهم الشرعي وسِنّهم المعتبر بالتجارب والنضج وزكاتِهم وورعهم، بل حتى عن معرفة أشخاصهم! وماذا عليهم لو جعلوا القتال مُرجِّحًا عند التكافؤ بين طلبة العلم

لا شرط قبول. وليت شعري هل يغني عملٌ لا ساق لعِلْمه.

وبإزاء هذا النفخ الباطل نراه يُزري ـ بلا مبالاة ـ بمن شابت لحاهم في رياض العلم والتعليم، ورميِ كلّ من لم ينفر أو تكلم في ضوابط الجهاد وتحرَّز في مسالك التكفير والحكم بالتولي يوم الزحف وبالقعود والركون إلى الظالمين والطواغيت، هذا إن سلم من وصمهم بالارتداد عن الملة!

إنّ من شعب التشبه بأهل الكتاب؛ اتهامُ بعض أهل الجهاد أهلَ العلم أو التعبد بأنهم ليسوا على شيء أو العكس. فالدين متين وشعبه وافرة، وكل مُيسّرٌ لما خلق له. أما مقولة: لا يفتي قاعد لمجاهد فهي باطلة، فكثير من أئمة الدين ومنهم أئمة المذاهب الأربعة وأصحاب الكتب الستة لم يجاهدوا بالسيف بل باللسان والقلم والفتيا والدرس والدعوة ونحوها، وهم أهل الفتيا حين تحتدم أمور مسائل المجاهدين، نعم إن جاهد بسيفه مع لسانه من يسّر الله له ذلك كالصحابة وابن المبارك وابن تيمية فنِعِمّا، ومن لم يتيسر له ذلك أو اكتفى بمن يقوم عنه بفرض الكفاية فلا تثريب عليه، خاصة حال قيامه بفرض العين في الفتيا والتعليم، وكلٌّ ميسّرٌ لما خُلق له.

إذن فإذا أردنا تصحيح المسار فلنبدأ بأنفسنا، ولنقم لله تعالى بتهذيبها مما علق بها من مسائل شبهات استبطنتها شهوات رَغَبٍ ورَهَبٍ، والله مع المتقين.

فواجب الوقت: إحسانُ الظن بالله تعالى، وحراسةُ ثغور الإسلام، والعملُ على إطفاء الحرائق التي علِقَت بأطرافِ دين الناس، وإنقاذُ ما يمكن

إنقاذه من بقايا وئامهم وصلاحهم، ودفعُ ورفعُ عادياتِ الشر والفساد عنهم، والاشتغالُ بصيانة المسلّمات الكبرى للشريعة في الأمة، وبناءُ محاضن التربية الجادة والعلم والفكر، والتأكيدُ على امتثال الشريعة معتقدًا وعملًا وسلوكًا وأخلاقًا، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨- ٢٠٩].

ولا بد لكل من تسنّم أمر قِيَادٍ أن يُحسن النصح للناس، وأن يترفّق بهم، وأن يُجهد نفسه لإيصالهم شاطئ الفلاح والسعادة في دار الحسنى والزيادة، وأن يترسّم خطى نبيّه ﷺ في شأنه كله عامّة وفيما أوكل إليه من ثقة الناس خاصة. والرائد لا يكذب أهله والحادب لا يخذل قومه، وكلٌّ مسؤول عما استُرعي.

ويا إخوتاه: لابد من المصارحة وكشف المسألة وإجلاء الأمور المختلفة المسببة لهذه القطيعة الفظيعة بين أهل الجسد الواحد والصف الواحد والمعتقد الواحد والقبلة والواحدة! لابد من الاعتراف بالمشكلة، فهو أول خطوة لحلّها. ولك أن تعلم أن سويسرا تتكوّن من ثلاثة شعوب (ألمانية وفرنسية وإيطالية) وأربع لغات، ومذهبين، مع ذلك فهي من أكثر بقاع الدنيا وئامًا وسلامًا وأمنًا في دنياهم، فيبقى الإنسان إذن هو المشكلة!

إن من أسباب غُثائية أمتنا في هذا الزمان: تشاحنُ وافتراقُ من تأكّدَ عليهم التَّحابُّ والاجتماع! فتفكّكت العُرى الجامعة فأمست أمتنا «**ولكنكم**

غثاء كغثاء السيل»(١).

* هذا وإن كثيرًا من طلبة العلم ـ مع تمكّنهم ـ قد عزف عن الحديث عن هذه القطيعة المخجلة بين طلبة العلم والدعاة بسبب ما يكتنف المجاهِر بخلاف طائفة معينه ـ شديدة البأس اللفظي ـ من هجوم سفهائها عليه واتهامه بأقذع مقذوفات الكَلِمِ ورميه بسهام البهتان المصميّة. وفي الموطأ وعند مسلم(٢) أن رسول الله ﷺ قال: **«إن من شرِّ الناس من اتقاه الناس لشرّه»**. أي قبيح كلامه.

ولو علموا أن السفه والسوء ليس بحاجةٍ لعلم ولا شجاعة ولا فروسية ولا نبالة، إنما يجيده من كانت بضاعته قِلَّة حياء ورِقَّة دين وكثافة جهل وسوء خلق، ولو كان الحياء رجلًا لكان جميلًا ولو كان مَرْكبًا لأفضى مع التقوى

---

(١) أبو داود (٤٢٩٧) وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٩ / ٢٩٧) والمشكاة (٥٣٦٩) والصحيحة (٩٥٨) وسأكثر النقل في التخريج عن الإمام الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعترافًا بفضله، ولعلوّ كعبه وسعة درايته بهذا الفن العزيز "التخريج". وقد حضرتُ لابن باز درسًا فذكر حديثًا وذكر تصحيح الألباني له، ثم قال بالحرف: «صحّحه مُحَدِّثُ الشام، بل محدث الإسلام الألباني». رحمهما الله، علمًا بأنّ ابن باز لا يقلّ رتبة في علم الحديث ورجاله وعِلَلِهِ عنه، ومن براهين ذلك حاشيته على بلوغ المرام. وإنّ من تجديد الإمام ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ طردُ دلائل النص، ورفعُ شأن الفهم الظاهر وإن خالف السائد، مع حفظ الثقل الترجيحي للجمهور، وهذا مسلك عزيز وَوَعِرٌ جدًا.

(٢) الموطأ (١٦٠٥)، مسلم (٢٥٩١).

لفراديس الجنان.

ذلك أن كل فصيلٍ أو فئة. مهما كان صوابُ مُقدَّميها وفضلُهم وورعُهم. فلابد من وجود أتْبَاعٍ رعاعٍ عرَكتْهم الهمجية وأغرَتهم النواعق وأظلمتْ صدورَهم الفتنُ؛ فيصعب أو يستحيل تهذيبهم، إذ هم يطيرون مع كل مطيّر سُوءٍ ومُوقِدِ فتنة.

مَهْلاً بَني عَمِّنَا عَنْ نَحْتِ أثْلتِنا   سِيرُوا رُوَيْداً كما كُنْتُمْ تَسِيرُونَا

فبعضهم يُؤتى من جهله، وبعضهم من سوء طويّته، وإن كان الأول قد يُحطَمُ بالعلم؛ فمن لك بالثاني الذي كمنتْ بين طيّات أعكانِ هواه دغائلُ الحسد وغوائلُ الكبرياء وقروحُ الظلم؟! نَبَتَ فيها صغيرُهم إذ لم يتحاشاها كبيرُهم، وانْجُ سعدٌ فقد هلك سعيدٌ!

فمنهم من تُشفِقُ عليه من نفسه التي بين جنبيه كيف يُطيق سوءَها؟ قد نَظَرَ لنفسه فإذا هو خامل الذِّكر خَفِيَّ الحال صغير القَدْر. ورُبَّ خاملٍ في الدنيا شريف في الآخرة، مجهولٍ في الأرض معروف في السماء. ثم نظر إلى أخيه فإذ هو نابِه الصِّيت باسق القدر واسع الفضل؛ فدبّت في سويدائه دوابُّ إبليس من الحسد والحرص والكبر والحقد، فجرى في عروق روحه سُمّ الحسد الناقع حين بَرَّزَ عليه أخوه المسلمُ بأمرٍ هو محضُ فضل الكريم سبحانه، ولم يُحصّل المخذولُ بحسده وبغيه سوى حصدِ الريح، وقَبْضِ اللا شيء، ولات حين الذي يرجو، ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

لقد كان ميدانُ العلم رحمةً وارفةً فصيّروه ببغيهم خشبًا حريقًا. وماذا على الباغي لو أعان أخاه بصدق ونُصْحٍ، أو تركَه وفرّغ وقته لدعوة العبادِ، ففقأ بذلك عين الرجيم وأرضى الرب العظيم، ومهما دعا الدعاة فالساحة عطشى والميدان واسع والأعداء كُثُرٌ، والأمةُ فيها خير كثير محتاج لمن يحركه ويوجهه لصراط الله الهادي، ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦]، ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١].

وليس هذا الذي حسده لأجله من حطام الفانية وصِيتِها بشيء إزاء حقائق العلم والإيمان، فالأمر الحقيق بالغبطة غدًا هو رضى الرحمن ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] نسأل الله الكريم من فضله.

والعبرة لدى العقلاء إنما هي بفوز الآخرة ورفعتها لا حطام الفانية، فهنا المعيار: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]، وتزداد شناعة الحسد ويعظم خطره إن كان على الدِّين ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] لذلك فسببُ النعمةِ الشكرُ، فإن سُلبتها أو حُرمتها فاتّهم نفسك: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وإنما المُعَوّل على التوفيق والقبول وحسن العاقبة، وكم من صالح ناصح في أعين الناس ساقطٍ في درك الخذلان عند رحيله لربه، اللّٰهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا

وعذاب الآخرة، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

أقول: إذا كان مَنَ مسّ طرَف طائفة بتلميحٍ لم يسلم منهم، فكيف بمن حرّك على نفسه أعشاش الدبابير من مختلف الفئات والجهات جمعاء؟! ولكن: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩] ومن كان مع الله؛ كان الله معه، ومن كان الله معه؛ فمعه القوةُ التي لا تُغلب، والحارسُ الذي لا ينام، والحافظ الذي لا يُضيّعُ، والهادي الذي لا يضلّ. ولكن عليك بتحقيق: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ حتى يوفى لك موعود: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠] والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.

وذلــــك في ذات الإله وأن يشــــأ   يبــارك عــلى أوصــالِ شـلوٍ مُمـزّعِ

والعلمُ أمانةٌ، والكلمةُ أمانة، والنّصحُ أمانة، والتجربة أمانة، والدعوة إلى سبيل الله أمانة. ولِكُلِّ أمانةٍ غدًا من الديّان طالب.

وتدبّر ـ أيها الموفق ـ قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣- ٧٥] اللّهم سلّم سلّم.

❋ ولقد مضى مزيدٌ من ربع قرن وأنا مراقبٌ لهذه التيارات الثائرة، متابعٌ

لكثير من تدويناتهم وأدبياتهم وقالاتهم ومقالاتهم، وقد كتبت لك. رعى الله قلبك. ثمرة ذلك التأمل في هذه الحروف المنثورة بجهد المقلّ وعجزِ الضعيف ونقصِ الجُعبة ومِزودةِ المُمْلِق. فاجْلُ رغوةَ اللبن الصريح بزبدته، وخذها وجبةً فكرية وتجربة دعوية وقواعد شرعية ووصايا تربوية، لك غنمها وبيدك ثمرتها، وليس عليك شيء من غرمها وتبعتها.

هي كلمات اجتهدت أن أقيّدها بما أرانيه ربي حقًّا، ولا أدّعيه حقًّا مطلقًا، فلا عليك أن تدع منه ما تراه للحق مخالفًا. وما كنتُ مريدًا لخوضِ هذا الموضوع، ولكن تفيضُ النفسُ عند امتلائها.

ويا قومي، إنّ الخطب جلل، والقضية خطيرة، فالفُرقة لا يرضاها سوى مرضى القلوب، والحلّ عند النزاع هو الرجوع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

* يا طالب العلم ويا أيها الداعي إلى سبيل ربك ويا أيها الراجي نجاة رأسك غدًا من ظُلَلِ النار: لَكَمْ هو مؤلمٌ ومبكي ومخجلٌ ومُخْزي حينما يكون هذا التراشق والتحريش بين الدعاة بينا هم يرون عيانًا تساقط الأغرار في وحول الشكّ وانجرافهم مع تيار الإلحاد(١) وتلقّف التيارات المنحرفة الغالية

(١) ثمّة تيّار إلحادي شديد يعصف ببعض الشباب عبر بثّه لشبه تتخطف قلوبهم الغريرة التي قلّ فيها العلم بالله وشرعه، فلا نلبث أن نسمع بصريعٍ هنا وصريعة هناك لهذا التيار التدميري، لذلك فلا بد من التنبه والحرص والتحصين والعلاج والمكافحة، فالأمر جدّ خطير. ومما جاء في البروتوكول الرابع من بروتوكولات حكماء صهيون: «يجب علينا أن ننزع فكرة الله ذاتها من عقول غير اليهود، وأن نضع مكانها عمليات
=

لهم.

فبدلًا من أن يُعتنى بهم في محاضن تربوية هادفة جادّة من لدن الدعاة وطلبة العلم نراهم يسيرون حيارى بلا هادٍ يدلّهم ولا ناصح يرشدهم ولا قدوة تأخذ بقلوبهم للصراط المستقيم، والسبب أن فئآمًا من الدعاة. على قِلَّتهم. مشغولون ببعضهم، فهذا يأكل لحم أخيه ويأتدم ببهتانه، وذاك مشغول بالمدافعة عن عرضه وحراسة ميدانه، وثالث أُصيب بالإحباط في مسيرة دعوته، ورابع وقف بين بقيّتهم وبين الشباب المتلهّف للهدى فأخذ بحُجُزهم عنهم ودفْعِهم على ظهورهم لساح الحيرة ووحول الشك ومباءات الضلال! وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا.

وقد نَهْجُو الزمانَ بغيرِ جرمٍ ولو نطق الزمانُ بنا هَجَانا
وليس الذئبُ يأكلُ لحمَ ذئبٍ ويأكلُ بعضُنا بعضًا عِيَانا

إنا لننثر الملح على جراحنا بالكلام حول هذا الأمر، ولكن لا بدّ من مجابهة الأمر بشجاعة ونصح وصراحة وشفقة؛ لعل الله أن يهيئ القلوب للاجتماع على البر والتعاون على الخير، ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]. والمرء بأخيه كثير، وهو بربِّه أكثرُ الكثير.

ومن المبكيات المروّعات ما جرى في إحدى المدارس حين أراد أحد الأساتذة أن يُقيم منشطًا موضوعه تعظيم قدر الصلاة وعظم شأنها، فأتاه من

=

حسابية وضرورات مادية».

الطلاب من سأله بلهفة أن يُحيل ذلك المنشط للحديث عن وجود الله! . نعم عن وجود الله. لأن هناك همسٌ بين بعض الطلاب بالتصريح بالإلحاد المطلق. بل هناك أخبار مؤكَّدة ومتفرّقة لرِدَّة بعض الشباب عن الدين وشكّهم في وجود رب العالمين. ومعلومٌ أنّ الإلحاد المطلق أشدّ الذنوب، قال شيخ الإسلام: «من التزم التعطيل المطلق؛ فهو أعظم جحدًا من إبليس»(١).

أما مسلّمات الدين وكليّات الملّة فقد عصفت بها الكثير من الشبهات بلا كشف لها ولا حراسة منها لدى جمعٍ غير قليل من الناس في عصر وسائل التواصل الاجتماعي.

لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ ... إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

وميادين وسائل التواصل الاجتماعي متجر كبير، كلّ يعرض فيه بضاعته، فكرية كانت أو توعوية أو اقتصادية أو حتى إفسادية، وكلٌّ للآخرة يمضي بربح أو خسار. وحال بعض طلبة العلم كحال ذاك الطبيب الذي يصف دواء رمد العيون لعلاج سرطان الدم، أو دواء الزكام لمن به طاعون، فهل بقي للدعاة عذرٌ في إضاعة جهدهم في هدم بعضهم؟ يا للعار معشر دعاتنا، يا للعار!

أَرى حُللًا تُصانُ على أُناسٍ ... وأخلاقًا تُداسُ فما تُصانُ
يقولون الزمانُ به فسادٌ ... وهم فسدوا وما فسدَ الزمانُ

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٦٥).

إنها الدنيا الفانية وحظوظُ النفس العجلى ورغبةُ الطين المسمومة مهما تلوّنت بأصباغ النصح وتلفّعت بأغطية التأويل، وصدق الناصح إذ هتف بنا:

نُرقّــع دنيانــا بتمزيــق ديننــا فــلا دينُنـا يبقــى ولا مـا نرقّـعُ

ويتفاقم الأمر حين يسكت من لا يحلُّ له السكوت خوفًا من طعن الألسُنِ لعرضه وكلامِ السفهاء في دينه، قد جبُن في وقت الشجاعة وولّى ساعةَ الإقدام، وفرَّ حين الزحف، وما من شيء سوى الجزَع، يحسب خفق الرياح قعقعة الرماح، أو الطمع، وكأنه لم يقرأ قول الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٩- ١٧٠].

يــرى الجبنــاءُ أنّ الجُــبنَ حــزمٌ وتلــك خديعــةُ الطبــعِ اللئــيمِ

وكأنه غير مخاطب بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩- ١٦٠] فالعدل والإنصاف والبيان والدفاع عن الأعراض ونحو تلك المعاني هي من الهدى المُبيّن في الكتاب. ألا حبّذا قرمًا عن الدّين حاميا.

فيا أخي: تفكّر وتدبّر، ثم امضِ بعلم وحلم وعزم وحسن أدب، وقبل ذلك بإخلاصٍ لوجه من لا يبقى إلا وجهه، وكُن أمّةً كأبيك إبراهيم حتى لو

كنتَ على الحق وحدك، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] ولا تعجب للهالك كيف هلك، بل اعجب للناجي كيف نجا، فالقلوب ضعيفة، والشُّبه خطّافة، والشهوات أمّارة، وتدبّر تكرار كلمة ﴿أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ في القرآن العظيم، وستجد أن أغلب ما يأتي بعدها هو: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾، فعلام تحمل همَ كلامهم وهم من قد علمت؟!

ولقد سبقك أسوتك الذي لا ينطق عن الهوى فقام لله مقامات مشهودة محمودة حَمِدَهُ عليها ربُّ العالمين، فبهته المجرمون ورماه الظالمون بالكذب والتقوّل والجنون والسحر وآذوه وطردوه وأدمَوه وقتلوا أصحابه وراموا قتله وحاربوه. ثم سار على دربه ورثةُ نبوته فلحقوه بصبر ورضى وإحسان ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقد قال الأمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تغبطوا أحدًا لم يُصبهُ في هذا الأمرِ بلاءٌ».

وجهادُ اللسان لا يقلّ عن جهاد السِّنان، بل هو الأصل في جهاد المرسلين، فقد كان جهادهم باللسان دائمًا في كل حين، أما بالسيف فعند الحاجة طلبًا وغزوًا أو مدافعة، ولقد قال ربنا تعالى في شأن الجهاد بالبلاغ والدعوة والحِجاج بالقرآن: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] وتأمل كيف وصف جهاد اللسان بالجهاد الكبير، فهل بعد القرآن من حُجّة! قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقوامُ الدين

بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهادُ نوعين: جهادٌ باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير، والثاني الجهادُ بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصةِ من اتباع الرسل، وهو جهادُ الأئمةِ، وهو أفضلُ الجهادين؛ لِعِظَمِ منفعته، وشدّةِ مؤنته، وكثرة أعدائه»(١). وقال أيضًا: «وتبليغُ سنته إلى الأمة أفضلُ من تبليغِ السهام إلى نحور العدو؛ لأنّ ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأمّا تبليغُ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم»(٢).

من مبلغٍ شيخ أهل العلم قاطبةً عنّي رسالة محزونٍ وأوّاهِ
أولَى البرايا بحُسن الصبر مُمْتَحَنًا مَن كان فتياهُ توقيعًا عن اللهِ

وأمثلة تيك الأنجم مسطورة مشهورة، فمن مضى فلِنعيم الجنة، قد زال نَصَبهم وبقي نصيبهم، ومن بقيَ فللتوفيق بالصبر والإعانة والتسديد والمعيّة، ومن يأتي بعدُ فللفلاح بعد الكفاح بإذن الرحمن الرحيم، وعند أحمد بسند صحيح(٣) أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزال الله يغرسُ في هذا الدين غرسًا يستعملهم في طاعته**». جعلني الله وإياك منهم، إله الحق آمين.

وما هي إلا ساعةٌ ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويزولُ

وإني لا أعلم في زماننا عالمًا ولا داعيًا ولا مجاهدًا مهما علا كعب قدره

---

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٧٠).

(٢) جلاء الأفهام (٤١٥) وانظر: وسائل الثبات في زمن المتغيرات. د. عبد الله الدميجي.

(٣) أحمد ٤/ ٢٠٠ (١٧٩٤٠).

وسما فضل جهده إلا وقد رُمِي بإحدى هذه التهم وصُنّف بتلك الألقاب، أو ما شابهها وقاربها، أو فاقها مرارةً وشِدّة. وما نقص ذلك ـ بحمد الله ـ من قدرهم شيئًا، فلم تنقض قالاتُ حُسّادهم من أقدارهم عُروة، ولا فتحت من معاقد فضائلهم عُقدة، ويكأنما يريد اللمّاز أن يطمس عين الشمس، وأن يرُدّ هبوب الصَّبَا. فالعبرة عند العقلاء إنما هي بحقائق الأمور لا بالتنابز بالألقاب من لدن هُمزةٍ لمزةٍ، ممّن لا حياء يردعه ولا عقل يحكمه ولا ورع يكبحه.

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى: «كفى علمًا على النفاق أن يكون الرجل جارًا للمسجد ثم لا يُرى فيه»(١).

فلا تحلفْ فإنّك غيرُ بَرٍّ وأكذَبُ ما تكونُ إذا حلفتا

وبكل حال: فمن كان في سبيل الله تلفُه كان على الله تعالى خَلَفُهُ، والعبرة إنما هي بالحقائق والمعاني لا المسميات والمباني، وليس كل من ادّعى الإيمان أو السُّنّيّة أو السلفية صار من أهلها مالم يبرهن قوله بتحقيق اتّباع في الباطن والظاهر، قال سبحانه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا يعجبكم من الرجل طنطنته، ولكن من أدى الأمانة، وكفّ عن أعراض الناس؛ فهو الرجل». وصلاح الظاهر لا يعني بالضرورة صلاح الباطن فقد يكون مصطنعًا، لكن نقص الظاهر يدل ضرورة على نقص الباطن إلا لمانع

(١) فتح الباري (٥/ ٤٥٨).

خارج كإكراه وغيره. ولا يستقيمُ الظلُّ والعودُ أعوجُ.

وانظر لحال الناس وإغراقهم في الدعاوى والتلبيس بألقاب التزكية، فالمعتزلة يَعدّون أنفسهم أهل التوحيد ويجعلونه أصل الأصول عندهم، مع أنه في حقيقته نفي صفات الله تعالى وتحريف القرآن، ويدّعون العدل الذي حقيقته نفي القدر، وكل أصولهم الخمسة والجةٌ بابَ التلبيس بالتزكية بالألقاب، وكذا ابن تومرت بالمغرب إذ سمّى دولته المنحرفة الضالة بدولة الموحدين، مع أنه من أبعد الناس عن صفاء التوحيد وطهارته، وأهل الخرافة يدّعون أنهم أهل الوصول وأصحاب التحقيق، والنصارى يعُدّون أنفسهم أهل المحبة والهدى، مع وضوح ضلالهم وشركهم، وأمة الغضب يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وتأمل أسماء كتائب الرافضة العسكرية المُجرمة في زماننا وما فيها من تزكية؛ لتعلم أن الدعاوى هيّنات على كل مُدّعي، فالعبرة بالبينات والبراهين، فلا تغترّ بدندنة المتمادحين بأمور لم يوفوها حقّها.

والدعاوى إذا لم يكن لها بيّناتٌ أصحابها أدعياءُ

ومن أعظم نعم الله اللسانُ وصِنْوُهُ القلمُ، وجامعهما البيان. ولقد امتن الله على الإنسان بعد خلقِه بأن ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤] وهل نأمن غدًا أن يكون السؤال عن هذه النعمة بقدر حجمها، خاصة وأن اللسان مجرد أداة لبيان العلم .الذي هو قطب رحى التكليف . وهل وراء العلم بالله وبدين الله من نعمة وفضيلة؟ حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا، ليس وراء الله مرمى.

إذن فلا مناص من الصدع بأمر الله والبيان لدينه والدعوة إلى سبيله

بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن. وقد يسعك السكوت عن قول الحق إن علم الله عجزك التام عنه، لكن لا يسعك قول الباطل بكل حال خلا الإكراه بالقتل، وأن تصبر فهو خير لك في الأولى والآخرة. وتذكر دومًا وصايا ربك الأعز الأكرم: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]. فمن خاصم عنهم حشر معهم، وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣] وقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٨].

وفي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] دليل على أن سكوت العالِم عن بيان الحق عند قيام مُوجبه سببٌ للعنة الله له! والعالِم الذي تتطلع إليه الناس لا يحقّ له أن يأخذ بالرخصة التي تفتنهم باقتدائهم به، وحينما ابتُلي الإمام أحمد؛ أتى إليه من يذكِّره بالأولاد وبأدلة الإكراه فقال الإمام: «إذا سكتَ الجاهلُ لجهله، وأجاب العالم تقيّة؛ فمتى تقوم

حجة الله على خلقه».

والمؤمن يخشى على نفسه مغبة أعمال المنافقين وهو لا يشعر، ولربما أوصلت سيئاتُ أعمالهم لخبيث اعتقادهم، وسمع رجلٌ أبا الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يتعوّذ من النفاق في صلاته، فلما سلّم قال له: ما شأنُك وشأن النفاق؟ فقال: «اللّٰهم اغفر لي، ثلاثًا، لا تأمن البلاء، والله إنّ الرجلَ ليفتن في ساعة واحدة فينقلب عن دينه». وسئل حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النفاق فقال: «هو الذي يصف الإيمان ولا يعمل به». فلا بد للمؤمن أن يخاف النفاق، وقال الحسن رَحِمَهُٱللَّهُ: «من لم يخف النفاق فهو منافق» وكان عمر يسأل حذيفة أعدّهُ رسول الله ﷺ منافقًا؟ وقال زهير بن أبي مليكة التيمي: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه». وسئل الإمام أحمد: ما تقول فيمن لا يخاف على نفسه النفاق؟ قال: «ومن يأمنُ على نفسه النفاق؟!» وكان الحسن يُسمّي من ظهرت منه أوصاف النفاق العملي منافقًا. وقال الشعبي: «من كذب فهو منافق».

فالخوف من النفاق مطلب شرعيّ، لأنه من تربية النفس لتزكيتها، لكن بحدود حتى لا ينقلب الحال لوسواس وسوداوية وقنوط، فالخوف سوطُ القلوب لتستقيمَ على الطريق، فهو مُؤدِّبٌ مُهذِّبٌ لا مُعذِّب مُتلف، وقد سأل رجلٌ حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النفاق، فقال: أتستغفر إذا أذنبتَ، وتصلي إذا خلوتَ؟ قال: نعم، فقال: اذهب فما جعلك الله منافقًا.

وبين المداراة والمداهنة فرق ظاهر، وتأمل الفرق بين إرخاء أشرعة

القارب تلافيًا للريح العاتية مع ثبات وجهته، وبين تغيير مسار القارب عن وجهته الصحيحة الوحيدة، قال ربنا تعالى في شأن شُرَاة الدنيا بالدين: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]. وقال أبو ذر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ جوابًا للأحنف بن قيس لما سأله عن قبول العطاء: «خذه فإن فيه اليوم معونة، فإن كان ثمنًا لدينك فدعه». فمنهم من امتنع عن قبوله مطلقًا فاستطاع أن يقول: «إن الذي يمدُّ رجله لا يمدُّ يده»، ومنهم من أحْنَتْ يدُه قلبَه فذلّ، وقد قيل: في فمي ماءٌ وهل ينطق من في فيه ماء. قال زين العابدين رَحِمَهُٱللَّهُ: «إذا رأيتم القارئ يُحبُّ الأغنياءَ فهو صاحبُ دنيا، واذا رأيتموه يلزم السلطانَ من غير ضرورة فهو لصٌّ»(١). ومن تَحسّى مرقة السلطان أحرقتْ شفتاهُ. فالدافع للنطق والسكوت واحد!

وأنطقِتِ الدراهمُ بعد صمتٍ أُناسًا بعدما كانوا سُكوتًا

فقُم من عثرتك، وانفض ثيابك، واستقبل باب من لا يخيب من دعاه، ولا يُطرد من لاذ بحماه. وكم من آية غيّرت بالهدى تاليها ومتدبرها، وكم من حديث ألجم ألْسُنًا وكم من حديث أطلقها، قال علقمة: «كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث»، ويعني به روايته رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن رسول الله ﷺ قوله: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله عز وجل ما يظن أن**

(١) حلية الأولياء (٣/ ١٨٤).

تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله عز وجل ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل بها عليه سخطه إلى يوم القيامة». حديث صحيح رواه أحمد وغيره[١]. وروى أحمد أيضًا[٢] حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **«من كتم علمًا يعلمه جاء يوم القيامة مُلجمًا بلجام من نار».**

فالبلاغ أمانة، ولا يسع العالم ما يسع غيره، وقال الإمام أحمد: «إذا أجاب العالِم تقيّةً، والجاهل يجهَل؛ فمتى يتبيَّن الحق؟!»[٣] وقال: «لو حقّقتَ لم تخف أحدًا». أي سوى الله تعالى. قال شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ: «هذا قد يُبتلى به طوائف من المنتسبين إلى العلم، فإنهم تارة يكتمون العلم بخلًا به وكراهة أن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه، وتارة اعتياضًا عنه برئاسة أو مال فيخاف من إظهاره انتقاص رئاسته أو نقص ماله، وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في مسألة فيكتم من العمل ما فيه حجة لمخالفه وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل»[٤].

وقد كنا نرغب إلى بعض فقهائنا الأفاضل أن يصدعوا بالحق، لا يخشون فيه لومة لائم، والآن: ليتهم لا يقولون الباطل! وليس هذا بجديد، قال شيخ

---

(١) أحمد (٣/٤٦٩) وبنحوه عند البخاري ٨/١٢٥ (٦٤٧٨) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) (١٠٤٩٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٧).

(٣) البحر المحيط (٢/٤٢٤). (وقد مرّ نحوه قريبًا) ولعلها أجوبة لمناسبات مختلفة.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (١/٨٥).

الإسلام: «لما تولى يزيد أراد أن يسير في الناس سيرة عمر بن عبد العزيز، فجاءه عشرون شيخًا فأقسموا أن الله إذا ولّى خليفة قَبِلَ حسناتِه وعفا عن سيئاته، فرجع»![1] وإلى هؤلاء وأمثالهم أومأ البستي بإنشاده:

يقولـــون فيـــك انقبـــاضٌ وإنّـــما ... رأوا رجلًا عن موقف الذلِّ أحجما
ولـو أنّ أهـلَ العلـمِ صـانوه صـانهم ... ولــو عظّمــوه في النفــوس لعُظِّــمَا
ولكـــنْ أهـــانوه فهـــانوا ودنّســـوا ... مُحَيَّـــاهُ بـــالأطماعِ حتّـــى تجهَّـــمَا

ومن طبيعة حال الغلاة ـ بكل أطيافهم ـ نقمتُهم على مخالفيهم ووصمُهم بما اسطاعوا من تهم التسطيح والتلبيس وسوء القصد وسواد الطوايا. ولا عَجَب فالنفوس مجبولة على النفرة ممّا يمنعها هواها وممّن يكبح ما حَرُم من شهواتها.

والظلـم من شيـم النفـوس فإن تجد ... ذا عفّـــــةٍ فلِعِلّـــــةٍ لا يَظلـــــمُ

وأعظم العلل هنا ـ أي الأسباب ـ تقوى الله تعالى، فالنفس على ما فيها من خير ورحمة وفطرة إلا أن الظلم والجهل مغروزان فيها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] إلا من أَذِنَ الله تعالى أن تشرق أركانُ روحه بنور الرسالة، وترتويَ بيداءُ قلبه بغيث الوحي، وتحيا جوارحُه بينبوع الإيمان، فيضرب وجه ظلمه وجهله بالعلم والإيمان.

---

(١) منهاج السنة (٦ / ٢٠٠) فقد تولى بعد عبد الملك بن مروان أبناؤه الوليد ثم سليمان ثم عمر بن عبد العزيز بن عبد الملك ثم يزيد ثم هشام.

قد جُعِلَ الظلم والجهل ابتلاءً للنفوس، فمنها من أخلده هواه، ومنها من ارتقى به هدى مولاه ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧]، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] فتستبين سبيل النفس الأمّارة بالسوء من المطمئنة بالإيمان، وأنّى ذلك إلا بالعلم بالله وبدينه وتحقيق الإيمان. فإن اضطرب الناس فاتل عليهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠].

لقد كان أولئك الرعيل الطيّب الزاكي يحسبون حساب الآخرة، قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «من اتقى الله لم يشف غيضه، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا الآخرة لكان غير ما ترون»(١). ولما شتم رجل حفيدَهُ عمر بن عبد العزيز قال: «لولا يوم القيامة لأجبتك».

يا قوم، إن الأمر اليوم يبتدئ بكونه خلافًا بين اثنين، وبعد جيل يكون بين فئتين، ومن يدري كيف يكون بعد أجيال! **«ومن سن في الإسلام سنّةً سيئةً؛ كان عليه وزرها»**(٢)..

---

(١) حلية الأولياء (٨/٥٧).

(٢) مسلم ٣/٨٦ (١٠١٧) (٦٩) قال النووي في شرح صحيح مسلم ٤/١١٠ (١٠١٧): «فيه الحث على الابتداء بالخيرات، وسنِّ السنن الحسنات، والتحذير من اختراع الأباطيل والمستقبحات».

قـد يبعـث الأمـرَ العظـيمَ صـغيرُه حتـى تظـلَّ لـه الـدماءُ تصـبَّبُ

ومع التشظّي والتفرّق والنزاع والانتصار لحزبٍ سوى المؤمنين تنبثق آراءٌ مخترعة جديدة في داخل المنهج الواحد، فتكبر حتى تكون علامةً فارقةً بين أهل ذلك المنهج الواحد، فتؤول الى تفرقته وتشظّي أهله من جديد، وهكذا دواليك. وهذا السلوك مضطرد في الفرق المخالفة للحق، وكلما كانت بُنْيتُها ثوريّة وسلوك قادتها انفعالي كان الاحتدامُ ثمّ التشرذمُ أسرع إليها من السيل حال نزوله من الجبل، فصار حالهم: فَرَاشٌ تهادى في حريقٍ مُضَرَّمِ.

واعتبر ذلك بمناهج الخوارج وتفرّقهم وانبثاق مناهج من أرحام مناهج سوى منهاج القرآن العظيم، وربنا يوصينا في محكم التنزيل: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وبربّك لو أن كل هذا الجهد الضائع لهؤلاء من أهل السنة قد اجتمع على تبصير الناس وتفقيههم في المعتقد والأعمال والعبادات والرقائق والأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمجاهدة بكل مراتبها وكانوا قدوات سبّاقة للخيرات؛ ألن يقترب الناس من ربهم أكثر؟ بلى، ولكن كتب الله لحكمته خلاف ذلك، والحمد له على كل حال، وهو الحكيم الخبير.

وما كنت راغبًا في هذا الحديث لأسباب كُثُر وإن تلجلج بين حنايا الصدر زمنًا، ولكني جُررتُ له جرًّا لـمَّا رأيت كثرة السائلين الحيارى والخائضين في سابلته بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير. وسأجمل عرض بعض الفِقَرِ لشدة

وضوحها واشتهارها وتعاورها بين الألسُن وقلة الإيرادات عليها أو عدمها بالكليةً. إن وفّق الله بها وهدى فهذا الذي أبغيه، وإن كانت الأخرى فالله يتولى الصالحين ويتوب على التائبين ويغفر ذنوب المقصرين ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ [القصص: ٦٨].

❁❁❁❁

المرجعيّات

لا بد لنا في البداية من محكمات مجمع عليها يُرجع إليها عند الخلاف، وكلها راجعة إلى مرجعيّة الوحي، وهي: التوحيد، واتّباع السُّنة، والإجماع، والاجتماع، وأخوة الإسلام، وحفظ حق العلماء. ورثة الأنبياء. مع عدم عصمة فرد بعينه. فهذه محكمات لا تقبل المساومة، ومن رام الوصول فعليه بالأصول. وسأذكرها بإيجاز.

مرجعيّة الوحي

من لم يثق في الوحي ثقة مطلقة فلا ترجُه. وهذه مسألة في غاية الخطر، فمصادر التلقّي في زماننا متنوّعة المنابع مختلفة المشارب، وكلها كَدَرٌ ومرض إلا ينبوع الوحي فهو الحياة. فالذي خلقنا هو العالِم بما يصلُح لنا ويُصلحُنا، وقد فعل بالوحي المنزّل إن كنا نعقِل.

ولكل اجتماع نزاع، ولابد لكل نزاع من فصل، ولا يمكن هذا الفصل إلا بمرجعيّة يُسلّمُ بها الطرفين، فأهل العقل المادّي مختلفون، وكذلك أصحاب الحسّ والذوق والرؤى ونحوهم. أما أهل الإسلام فقد جعل الله لهم مرجعيّة جامعة مانعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، والرد إلى الله يكون بتحكيم كتابه، والرد إلى الرسول

يكون بتحكيم سنّته، والآي والأحاديث في هذا مشهورة معلومة. وفتنُ الابتلاء نارٌ تُنضج عقولَ أقوامٍ وتُحرق آخرين.

وتأمل كلام المؤمن الورع الحكيم المجرب سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الفتنة، فقد دعاه بعض الناس للخروج معهم، فأبى عليهم وقال: «لا، إلا أن تعطوني سيفًا له عينان بصيرتان، ولسان ينطق بالكافر فأقتله، وبالمؤمن فأكفّ عنه. وضرب لهم سعد مثلاً. وهو الذي يعنينا في هذا المقام. فقال: مثلنا ومثلكم؛ كمثل قوم كانوا على محجة[1]، فبيناهم كذلك يسيرون هاجت ريح عجاجة، فضلوا الطريق، فقال بعضهم: الطريق ذات اليمين، فأخذوا فيه فتاهوا وضلوا، وقال آخرون: الطريق ذات الشمال، فأخذوا فيه فتاهوا وضلوا، وقال آخرون: كنا على الطريق حيث هاجت الريح، فنُنيخ، فأناخوا وأصبحوا، فذهبت الريح وتبيّن الطريق»[2].

إذن فلنعد بالأمة إلى ما كانت عليه قبل هذا الافتراق والتنازع والتراشق وانشغال بعضنا ببعض. والأمر قريب المنال والزمان، فعودوا بنا إليه. يرحمكم الله..

لقد أثّر هذا الافتراق حتى على دعوة الكفار للإسلام، فالأرض مليئة بمن يحتاجون الدعوة لدين رب العالمين دون أوثان الأرض التي ملأت أرجاءها شركًا ووثنية، وقد سأل أحد الإخوة رجلًا في أمريكا الجنوبيّة عن الإسلام؟ فأجاب جادًّا: لا أعرف، هل هو شركة سيارات! فالله المستعان يا أمة الدعوة

---

(١) المحجة: الطريق الواضح البيّن.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٥ / ٢٣٩).

لدين الله.

وقد ذُكِر عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: «العلم نقطة كثّرها الجاهلون»(١). أي أنّ أصل العلم الذي فقههُ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كان نزرًا نافعًا، وهو أصول قيّمة ومحكمات جامعة تُرجع إليها المسائل وتُعرض عليها النوازل، ويفيءُ طالبُ العلم بها لبركة الوحي الصافي، ويَرِدُ بها الحقَّ الوافي فيرتوي من المحض الصافي، وهو فقه الكتاب وفقه أحاديث النبي ﷺ وأعماله، وهو ليس بهذه الكثرة المُشَتِّتة، إنما شقّق الناس بعدها وتشدّقوا وأوغلوا وغالوا. فبركة العلم في صفائه من كدر التكلّف، ونقائه من دَغَلِ المخالفة.

والمؤمن متعلق بالدليل لأنّ الدليل عبارة عن أعلامٍ يهتدي بها في مسيره للآخرة، فإن انحرف عنها؛ انحرف عن الطريق، وإن انحرف عن الطريق لم يصل. والأعلام منها ما هو صحيح وهي نصوص الوحي الصحيحة، ومنها أعلام زائفة وهي ما لم تصحّ، وبهذا تظهر بركة أهل الحديث الذين حفظ الله بهم أعلام الدين، ودلائل الملة، وعلامات الطريق.

دِيــنُ النَّبِــيّ محمَّــدٍ أَخبَــارُ ... نِعْــمَ المَطِيَّــةُ للفتَــى الآثــارُ
لاَ تُخْـدَعَنَّ عــن الحَـدِيثِ وأَهلِـهِ ... فــالرَّأيُ ليــلٌ والحــدِيثُ نَهَــارُ
ولَـرُبَّما غَلَـطَ الفَتـى سُـبُلَ الهـدى ... والشَّــمسُ طَالِعَــةٌ لهــا أنــوارُ

*****

(١) رواه ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله) وانظر: مجموع مؤلفات عقائد الرافضة والرد عليها (٢٤ / ٥٩).

التَّوحِيد

وهو أصل الأصول ومحض تحقيق الشهادتين وغاية الخلق الإنساني، وكلُّ المحكمات راجعة لهذا الأصل العظيم. ولا يعني هذا إهدارها، ولكن لكل شيء قدره.

فمَنْ نَقَضَ توحيدَه بشرك وخرج من ربقة المسلمين؛ فليس له من حقوق الأخوّة شيء، بل منه وعليه البراء حتى يُسلم وجهه لله رب العالمين، وكذلك الحاكم إذا أظهر حربَ التوحيد وقامت عليه الحُجّة؛ فليس لمن قدر على عزله مندوحة عن ذلك، وهكذا.

ولا يعني ذلك الوقوف على ظواهر هذا الأصل لوحدها، أو التمسح بدعاوى أنّنا أهل التوحيد، بل لا بد من تحقيقه بجذوره وأصوله وفروعه وأطرافه، وتكميل حقوقه قدر المستطاع، ومتى حقّقناه جملةً فسنكون قد انتظمنا كلّ المحكمات معه، لأنه مبدؤها وإليه معادُها، فالسلفية مبادئٌ ومسلّمات لا دعاوى وشعارات.

ومجمل هذا الكتاب وتفصيله هو لبيانِ هذا الأصل العظيم، وتقريره، وحقوقه، وحقوق أهله، وطريقة التعامل مع أهله ومخالفيه. والدين كله توحيد أصلًا أو أثرًا.

*****

السُّنّة

وهي الاتّباع الصادق لهدي نبينا الخاتم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، فتحقيق الشهادة الثانية يكون بصدق اتّباعه ظاهرًا وباطنًا.

ومن المهمات الابتدائية لكل مؤمن وضوحُ الطريق لسالكه، فيرى السائر فيه مَدَّ بصره وضوحًا لا غبش فيه، ويتبيّن حدوده واضحة لا لبس فيها، فيُبصر موضع كلِّ خطوة قبل مدِّ قدمه في المسير.

ذلك أن السبيل إن لم يكُ على الجادّة النبوية فكل خطوة فيه للأمام هي في حقيقتها خطوة للخلف، فإن انحراف المنهج يستلزم انحراف المسير، وعلى قدر زاوية الانحراف وسرعة السير يكون معيار البعد زمانًا ومكانًا.

وهذه باقعةٌ لمن لم يكن له بصيرة، لذا قال سفيان وغير واحد من السلف: «البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية» ـ أي معصية الشهوة البحتة ـ لأن الشهوة يُتاب منها والبدعة يُجتهد فيها[1].

---

(١) سئل الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرجل يصوم ويعتكف أحب إليك، أو يتكلم في أهل البدع؟ فقال: «إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلّم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين؛ هذا أفضل». وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن تحذير الأمة من البدع والقائلين بها واجب باتفاق المسلمين. وقال أيضًا: «إنّ أهل البدع شرٌّ من أهل المعاصي الشهوانية بالسنة والإجماع، فإنّ النبي ﷺ أمر بقتال الخوارج ونهى عن قتال أئمة الظلم، وقال في الذي يشرب الخمر: **«لا تلعنه؛ فإنه يحبّ الله ورسوله»** رواه البخاري (٦٧٨٠) ولفظه: **«لا تلعنوه، فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله»** وانظر: =

هذا وإن الحق يُعرف بدلائله لا بقائليه، واعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال، وإن كان الراسخ في العلم أقربُ ـ بداهة ـ للإصابة ممن دونه، لكن لا عصمة إلا للمعصوم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

الحــقُّ شــمسٌ والعيــون نــواظرٌ   لكنّهــا تخفــى عــلى العميــانِ

وعليه؛ فيُحفظ حقّ العالم ويعظّم قدره ويجلّ ويحترم، لكن بلا قداسة، لأن القداسة تحيط الشيخ بهالةٍ تُغويه وتضلّ أتباعه. وتأمّل زجر السلف عن وطء الأعقاب.

أخي: إن كنت عاميًّا ففرضُك سؤال من وثقت بورعه وعلمه، فإن اتّسع بِطَانُ علمك فقارِن واتبَع أشبه الأقوال بالحق فإن على الحق نورًا، ومتى تبحّرت فاجتهد ولا تقلّد.

ولا ترتبط بشخص تضعه حجة لك على الدوام سوى رسول الله ﷺ، وعليه فلا تربط الناس بشيخٍ رباطًا لا ينفك، بل اربطهم بالوحي، ثم أرشدهم للاستنارة بعلم ذلك الشيخ، ومَنْ قصد البحر استقل السواقيا. ولكن لا يبعُدْ عن ساحله إلا من أجاد السباحة حتى لا يغرق في لجج أوهام نفسه، ويختنق بحبال شهوات قلبه وجَهالات فكره.

=

مجموع الفتاوى (٢٨/٢٣١) قلت: ولا يعني هذا أن تطير مع كلّ من حذّرك من فلان أو فلان بحجة ابتداعه، فقد يكون هو المبتدع لا هم، فكن على حذر وبيّنة. فليس كل من خالف الاجتهاد السائد مُحدِثٌ مبتدع.

فإن تبيّن لك خطأ شيخك ـ علمًا أو عملًا ـ فلا تتابعه على خطئه، ولا تدافع عنه دفاع المقرّ لباطله، حتى لا تربط الناس بأخطاء الناس.

والخطأ يَرِدُ ويُرَدُّ كائنًا صاحبه من كان، ولكن بأدبٍ وحجة ورفق وإحسان. ومن القواعد النافعة: أنّ لازم المذهب ليس بمذهب، ولكن فساد اللازم يقتضي فساد الملزوم.

وتذكّر أنه لا يجوز اتخاذ شخص يُوالى ويعادى عليه خلا رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وبعض الناس يقول بلسان حاله ـ وإن نفى بلسانه ـ: إن الحق يدور مع شيخه حيث دار، وهذا ضلال.

قال شيخ الإسلام: «وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصًا يدعو إلى طريقته ويوالي ويعادي عليها غير النبي ﷺ، ولا ينصب لهم كلامًا يوالي عليه ويعادي غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصًا أو كلامًا يفرّقون به بين الأمة، يوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون»[١].

وكان السلف ـ كما أسلفنا ـ ينهون عن وطء عقب الشيخ معلّلين بأنه ذلّة للتابع فتنة للمتبوع، فمهما بلغ ورعُ الشيخ وعلمه فهو في خطر من تهييج قلبه برياح الإعجاب الخفي.

وأولُ الأمر يكون غير مُلاحظ ـ حتى من قِبَلِ الشيخ نفسه ـ ثم قد تستروح

(١) الفتاوى (٢٠ / ١٦٤).

نفسه لذلك مع طول المدى وتستطيبُه بتوالي الأيام وتطلب المزيد من رفعة الدنيا، فالضعف ملازم للبشر. ومع كرور الليالي وتقادم الأيام ومدح الأتباع الشيخ في وجهه وتبجيله فوق المعتاد قد يستخفّه الهوى لمهاوٍ فيسقط جارًّا معه من تبعه، ومن كان مستنًّا فليستنّ بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة.

محورٌ آخر: وهو أن بعضهم يَفتن الناس بامتحانهم بالناس، فديدنه ما تقول في فلان، وما موقفك من فلان؟ وكأن دين العباد مرتبط بالعباد. فليس هذا من السنة في شيء، والواجب ألا يُفتن الناس بمثل ذلك، فكلّ إنسان مسؤول عمّا قاله لا عمّا قاله غيره، فكُفّوا عن امتحان الناس بالناس، واحفظوا ألسنتكم عن أعراضهم وأغراضهم.

وليس معنى النهي عن غيبة مسلم قبول كل ما جاء عنه، فهناك كليّة مطلقة وهي أن الباطل يُرد على مبطله أيًّا كان، أما ربط الناس بفلان أو فلان فهذا إحداث وابتداع لا استنان وائتساء.

ومما يُحزِن أن يُرَدَّ الحقُّ الذي هو مذهب السلف بدعوى أنه قول أشهرتهُ الفئةُ الفلانية، وهذا زيغٌ وضلال وخذلان.

هذا؛ ويعجبني في منتسبة فئة ما تذكيرهم المستمر بالتوحيد والسنة، وتعظيم ذلك في قلوب الناس، وتحذيرهم من مسالك البدع ومسارب المحدثات. وهذا أمر حميدٌ عظيم لو حفظوه وانضبطوا فيه، ولكن بكلّ مرارة نجد كثيرًا منهم لم ينضبطوا بأصول العلم، بل نراهم يُحملّون بعض البدع ما لا تحتمل، سواء من جهتها؛ فيقرّبون بعضها للكفر والوثنية مع كونها بدعٌ

مسلكية، أومن جهة أهلها؛ فيرمونها على من هم بُرءاء منها، بل قد يكون بعضهم قد أفنى عمره في حربها!

لقد عرف علماء هذا البلد دعاتنا وعاشروهم وسبروهم وعلموهم وفقّهوهم وزكّوهم، فعلام الافتئات على أهل العلم وإخراج طلابهم لإحن نفوس الله أعلم بمقدار ما فيها من حسد لهم أو جهل بفضلهم. و«**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم**»(١) وكم من مجدودٍ جرّته جِدَتُه لعين حاسد(٢).

ويا لله، كم للمومنين من مشتركات عظيمة لو عرفوا قدرها! وبأسف فبدلًا من أن يستظل بعضهم بظلّها في هاجرة زمان الغُربة، نراهم يتراشقون من خلل الشقوق الصغيرة والاختلافات اليسيرة التي تتدحرج بينهم ككرة الجليد، فتكبر كلّما دفعها سلف عن خلفه حتى تكون كالجبل العظيم، ولو أنّ الأول أماتها في مهدها لنُسيت. والخلل في الأساس يتبعه الخلل في البناء، والانحراف المنهجي لا يوصل للحق وإن تلبس ببعضه.

جميلٌ أن تُعظِّم السنة، بل هو واجب وفريضة ـ إذ هو مقتضى تحقيق

---

(١) الترمذي (٢٥١١) وقال: حسن صحيح وصححه الألباني.

(٢) وانظر: بيان الإمام ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أسلوب النقد بين الدعاة والتعقيب عليه، في مجموع فتاوى ومقالات متنوعة (٧/ ٣١٦) وانظر: تصنيف الناس بين الظن واليقين. للشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وانظر: رفقًا أهل السنة. للشيخ عبد المحسن العباد. وانظر: الدرر السنية (٣/ ٢٠) (٤/ ٥-٧).

الشهادة الثانية ـ ولكن تذكّر واحرص أن يكون تعظيمك للسنة حقيقيّ لا مصطنع، بمعنى أن تُعظِّم وتُجلّ كلَّ ما كان سنّة بالحدود التي بلّغها صاحب السنة ﷺ، بلا غلوّ ولا جفاء.

وتذكّر أن تعظيمَك للسنة لا يعني تقديس الأشخاص، فانتبه حتى لا تزيغَ، فكم من معظِّمٍ لشخصٍ مقدّسٍ لكلامه مقدِّم لفعاله، قد أحاطه بهالةٍ تحجب عنه تقصيره وخطأه وسهوه وذنبه، فتعظيم السنة لونٌ وهذا التزوير لون.

وحسنٌ منك أن تحارب البدع ـ فهذا فرعٌ عن تعظيمك للسنة ـ ولكن احذر أن يكون حربك للبدع بغيًا على عباد الله، فهناك حدود شرعها الله للتعامل بين أهل القبلة لا يجوز بحال خرقها، فولاءُ أهل القبلة شيء والتعزيرُ شيء آخر، فالأول أصلٌ والثاني استثناء بقدر الحاجة، وهذا الاستثناء فرع عن إنكار المنكر، والإنكار يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال.

وكلّ ما يقال عن موضوع إنكار المنكر فهو قائم هنا بالضرورة، فلا بدّ من التثبت من البدعة بفرعيه:

الأول: التحقق من كونها بدعة، حتى لا تُنكر بجهل. وقد يدّعي بعضهم إجماعًا وهو عند التحقيق غير منضبط بسبب المخالفة لصحابيٍّ ونحوه، ومن اتّسع علمُه اتسع للخلاف صدرُه.

الثاني: التأكّد من تلبّس ذلك الشخص المعيّن بها. وذلك حتى لا تظلم الناس بتهورك، فسلامة القصد لا يكفي لتبرير سوء الظن أو التسرّع في

الأحكام. وحينما يجتمع سوء الفهم مع سوء الظن فإن النتائج كارثية. ومن أساءَ السمع أساء الإجابة، ومن أمثَلِ حِكَمِ العرب: لا تفعل ما تعتذرُ منه. ومِن أعزّ وأندر القيم الأخلاقية في زمننا التثبت، ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٦].

كذلك لابد من البدء بالرفق، الذي ما كان في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه. ولا تحتج بخُلُقِ أحد دون رسول الله ﷺ، فلا تقل: فلان من السلف عنده حِدّةٌ فلي به أسوة، بل اجعل رُمّانة الميزان منصوبةٌ بمن قال ربه في شأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولا يعني هذا أن يكون الرفق مستمرًّا، فالمعاند المستكبر الذي استبانت له المحجة وقامت عليه الحجة حقيقٌ بقرعِ شِدّةٍ تزجره وتزجرُ به وتُشرّدُ به من خلفه، ولكن تأكيدي هنا على أنها استثناءٌ لا أصلٌ، فإن زالت بدعته بالرفق فقد كُفينا.

وهنا أمر لابد من بيانه وهو أن من تعظيمِ السنة تعظيمُ أهلِها، وكلّ مؤمن له حظ من ذلك مهما جافاها بقول أو فعل أو مسلك أخطأ فيه. ويتضح ذلك بأن تتذكر الشهادة الأولى بالتوحيد وعظيم حق أهلها مهما صدر منهم مالم ينقضوها، إذ لهم عليك حق الولاء بحسب قربهم منها، فيجتمع لهم الحب بقدر تحقيقهم لها والبغض بقدر بُعدهم عنها، وهذا مسلك دقيق جدًّا قلَّ من يُراعيه في زمن البغي العلمي والعملي، والله المستعان.

وبالجملة فكل من كان من أهل التوحيد ففيه جزء من تعظيم السنّة، وله

حظٌّ من حقّهما، فلا يجوز بحال معاملته كالكافر الفاجر، وكذلك لا يجوز تقريبه وتولّيه كالمؤمن الطاهر، بل لكل مقام قدرُه وحدّه، والعبرة بما ظهر من حسنه أو سوئه.

تَمَسَّكْ بحبلِ اللهِ واتّبِع الهُدى ... ولا تكُ بدعيًّا لعلَّكَ تُفلحُ
ولُذْ بكتابِ الله والسُّننِ التي ... أَتَتْ عن رسولِ الله تنجو وتربحُ
ودَعْ عنكَ آراءَ الرِّجالِ وقولَهم ... فقولُ رسولِ الله أزكَى وأشرحُ

*****

الاجتِمَاع

المبدأ . أيًّا كان . فالناس ينقسمون عنه إلى أقسام: فمنهم المُخلِصون له المتمسّكون بأهدابه، وقسم جافٍ، وآخر غالٍ. وليس هناك استثناء من هذه الحقيقة الثلاثية. وكلٌّ يدّعي أنّه الوسط ويأبى ذلك البرهان الصحيح.

لقد عظّم الله أمر الاجتماع، وأمر به ونوّه بأهله، ولا بقاء للدين إلا باجتماع أهله عليه، ومتى تفرّقوا فيه تفرّقوا عنه، فجُوزُوا برفعِ العافية عنهم وإدالة عدوهم عليهم.

ومن الاجتماع اللازم: الاجتماعُ على الإجماع المنعقد. والإجماعات كثيرة بحمد الله، بل هي الأصل عند التحقيق، أما الخلاف فهو استثناء. والإجماع غير منحصر في العقائد والعمليات، بل هو سارٍ في فروع الديانة، حتى وإن غاب عن وَهَلِ الناظر حضوره. وهناك بعض أحرف غير مؤثرة في الاجتماع والوئام.إن أحسن الناس التعامل معها..

وحديث حذيفة أصل في تعظيم شأن الاجتماع، فقد روى الشيخان(١) وغيرهما عن أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير. فهل بعد هذا الخير

---

(١) البخاري (٣٦٠٦) و (٧٠٨٤) ومسلم (١٨٤٧) (٥١).

من شر؟ قال: «**نعم**»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم، وفيه دَخَنٌ**». قلت: وما دَخَنُهُ؟ قال: «**قوم يهدون بغير هديي، تعرفُ منهم وتنكر**». قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم، دعاةٌ إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**». قلت: يا رسول الله، صِفْهُم لنا؟ فقال: «**هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**». قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**». قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلّها ولو أن تَعضَّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**».

* ومن المهمات لكل طالب علم وداعٍ إلى سبيل ربه: التفريقُ بين مذهب السلف وقول بعضهم، فمذهب السلف إجماعي ومخالِفُه مشاقٌّ مبتدع، أما قول بعض السلف فلا يُصار إلى تبديع مخالفه.

* ومن المهمات: أن مذهب السلف يؤخذ بالنقل لا الفهم، فلا يكفي أن يتصوّر المجتهدُ صورةً في ذهنه فهِمَها من الوحي ثم يجعلها معتَقَدًا ينسبه للسلف، مالم يُنقل عنهم بسندٍ حجةٍ. فالفهم شيء والنقل شيء، والمعوّلُ على إثبات مذهب السلف هو النقل الصحيح عنهم، وهي مسألة في الغاية من الأهمية في زمن افتراقنا.

هذا؛ وإن الاجتماع الشرعي ليس هو مجرد حفظ بيعة الأمير، فهذا جزء من الاجتماع لا كلّه، بل ما أُمر بلزوم الاجتماع على الأمير إلا لأنه المفضي. بإذن الله تعالى. للاجتماع على الشريعة. فالسلطان مأمور بحفظ الشرع وهو مُستأمن

عليه، ومتى انقلب الأمرُ انتقص الدين بقدره. فكلّ ما فرّق بين المؤمنين بلا مبرر من الشرع فهو مذموم شرعًا. فاحذر أن تقتحم بلا برهانِ حقٍّ وفكاكٍ يوم العرض ما يُفرّق الكلمة ويشتت الأمة ويكسر العصا ويذهب الريح، وانزِع قبل أن تُنتزَع.

إنّ كثيرًا من أحكام المُفترقين التي يظنونها حقًّا لا محيد عنه، إنما مردّها انطباعٌ ذهنيّ عام سابق بسبب تقليدٍ مفتقرٍ لتحقيق، ولا إخال أكثر نيّاتهم إلا طلّابة حقّ، ولكن حُسنُ القصد لا يكفي مالم يُشفع بحسن اتّباع، ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ولو تأمل أحدهم قليلًا ووازن بين نهجه ومحكمات الدين التي انتقص منها وقَصُر باع بصيرتِهِ أو إرادتِهِ عن إدراكها والعمل بمقتضاها، كتعظيم شأن أهل لا اله الا الله، وأهميةِ الأخوّة في الدين، والحثّ على الاجتماع والوئام، والتعاون على البر والتقوى، وتنقية الصدور من وَحَرِها وسلّ سخائمها منها، وإحسان الظنون بالمؤمنين، وإجراء أمورهم على ظواهرها.. إلخ. أقول: لو فعل ذلك لانشرح صدره واتّسع، ولاستنار قلبه وانفسح، فالله جل جلاله يقول: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] فعلى قدر تكميل الإسلام يكون السَّعدُ والنور والفرح.

وقال جل شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] فخذ الدين كلَّه لا بعضه، واستقم كما أمرت لا كما اشتهيت، وانتهر صولة نفسك الأمارة برهبة الموقف غدًا بين يدي الجبار جل جلاله،

وتذكّر ساعة: «**إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضبْ قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي نفسي...**» الحديث(١).

لقد وصل الضلال والتّيه ببعضهم أن يهجر مساجد المسلمين في بلاد أهل السنة والجماعة جُمُعَةً وجماعة، بل حتى في العيد، بزعمهم أنها مساجد للمبتدعة، فصلَّوا في بيوتهم وتركوا بيوت الله، وبئس ما اختاروا، ففي إحدى السنين في هذه البلاد قام نفرٌ بإقامة صلاة العيد خارج البلد بعد أن برزوا عن المسلمين وهجروهم في الله. زعموا. ولم يقطع تلك النزعة الخارجيّة. بعد الله. سوى زجر أحد العلماء لهم ممن كانوا يُظهرون للناس إجلاله وتقديمه.

فتأمل. ويدك على قلبك. وانظر إلى الفتنة حينما تسلّلت لهم شيئًا فشيئًا حتى خبطتهم واستولت على أحلامهم وأفئدتهم. ففتش قلبك وطهّره بالتقوى والورع ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [المائدة: ٤١]. وتأمل شؤم المعصية: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾ [المائدة: ٤٩] رحماك ربي. فمن تفرّد برأيه عُجبًا وإعجابًا ولم يَرُدَّ لمن أمره الله بالرد إليه عند النزاع تفرّد به الشيطان، إذْ صيده المحبب هو القاصية. وبعضهم قد قطع رحمه الماسَّةَ بما توهَّمه من ابتداعهم، وليت شعري من المبتدع يا هؤلاء؟! للهِ أرحامٌ هناكَ تُشَقَّقُ.

(١) البخاري ٤/١٦٣ (٣٣٤٠) و٦/١٠٥ (٤٧١٢) ومسلم ١/١٢٧-١٢٨ (١٩٤) (٣٢٧).

إنّ كلَّ من زاد على السُّنَّة فقد ابتدع، فلا تبتدعوا من حيث ظننتم أنكم على السُّنة، وودَّ الشيطانُ لو ظفر من المسلم بذلك، لأنه قد كفاه مؤنة الأزِّ باندفاعه في خوض وُحول البدع فيما ظنَّه تسنّنًا، عياذًا بالله من مضلات الفتن.

واعلم ـ رحمك الله تعالى ـ أن كثيرًا ممن أُطلقت عليهم تلك المسمّيات والألقاب، حتى استقرّت في صدور الرعاع أو أشباه الرعاع؛ هم في الحقيقة بريئون من تلك الوصمات وما أُلصقت بهم من تلفيقات، فأكثرها تُهَمٌ تنفيريّة تُلقى على كواهل من لم يتبنّوا تلك الأخطاء أو الضلالات، ولم يجدوا في غَيْبتهم من يتثبت ويتبيّن ويدفع عن أعراضهم القالات، وموعد الجميع غدًا بين يدي رب البريات.

إذن فلا تكن ممن يَصِم أو يرضيه أن يوصَم، ولتهنِك تسمية الله لك ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨] وجواب الأُمَّةِ ربَّها يوم القيامة حين يسألهم: «**من أنتم؟ فنقول: نحن المسلمون**»[١]. ولا بأس أن تنتسب لمسمّى السنة والجماعة والسلف عند الحاجة، فقد كانت كلمة السلف دارجة عند أئمة أهل السنة والجماعة، وكان عبد الله بن المبارك يقول على رؤوس الناس: «دعوا حديث عمرو بن ثابت فإنه كان يسب السلف»[٢].

وقال ابن تيمية: «من أمكنه الهُدى من غير انتساب إلى شيخ معيّن فلا

(١) أحمد (٣٩١/٤) بسند صحيح.
(٢) صحيح مسلم (١ / ١٦).

حاجة به إلى ذلك ولا يستحب له ذلك، بل يكره له. وأما إن كان لا يمكنه أن يعبد الله بما أمره إلا بذلك؛ مثل أن يكون في مكان يضعف فيه الهدى والعلم والإيمان والدين، يعلمونه ويؤدبونه لا يبذلون له ذلك إلا بانتساب إلى شيخهم، أو يكون انتسابه إلى شيخ يزيد في دينه وعلمه؛ فإنه يفعل الأصلح لدينه. وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه، وإلا فلو طلب الهدى على وجهه لوجده.

فأما الانتساب الذي يفرّق بين المسلمين وفيه خروج عن الجماعة والائتلاف إلى الفرقة وسلوك طريق الابتداع ومفارقة السنة والاتباع؛ فهذا مما يُنهى عنه ويأثم فاعله ويخرج بذلك عن طاعة الله ورسوله ﷺ»[١].

والأظهر في مسألة التلقّب بالسلفي والأثري ونحوهما التفريق بين أن يكون في وَسَطٍ بدعيّ فيُستحسن عند الحاجة، إشهارًا لعِزَّة السنة، أما بين أهل السنة فالمنع متوجّه، لما فيه من شهرة وإعجاب بالنفس.

ولكن احذر من غرور الألقاب، فالألقاب لا تحمي صاحبها من الزلل، والأسماء الجميلة كصالح وسالم وطيب وشريف ومحمود ونحوها من أسماء التزكية لا تدلّ على الحقيقة، إنما هي مجرّد قوالبٌ صوتية رمزية وضعت للدلالة على ذات معيّنة مع شيء من الفأل الحسن لا أكثر، فتنبّه رعاك الله.

واعلم أنّ مراعاة الاجتماع العام للأمة مع النقص أولى من تحصيل بعض

(١) مجموع الفتاوى (١١ / ٥١٤).

السنن الخاصة، وتأمّل كيف أتمّ ابنُ مسعود خلف عثمان في منى وقال: «الخلافُ شرّ»[١]. وصلى ابن مسعود وأنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا خلف الوليد بن عقبه مع سُكره مراعاةً للاجتماع، فأنْكَرَا ولم يُزايِلَا. وكذلك فعل أنس لما سأله رجل عن وقت الرمي فأخبره ثم قال: «افعل كما يفعل إمامك»[٢]. وقد أفتى الإمام أحمد من صلّى خلف من يقنت في الفجر بالمتابعة مراعاة للاجتماع، فالاجتماع مقصود لذاته، ومن أعظم الاجتماعات الاجتماع على الإمام الأعظم، وتأمل فضيلة تنازل الحسن رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سبط رسول الله ﷺ وريحانته عن إمارة المؤمنين لمعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مراعاة لاجتماع المسلمين على إمام واحد، فاغتبط به أهل الإسلام حتى سمّوا ذلك العام: عام الجماعة.

بل قد يصل الأمر بأن ينقلب المفضول فاضلًا مراعاة لتأليف الناس؛ قال شيخ الإسلام: «ويستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك هذه المستحبات، لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا، كما ترك النبي ﷺ تغيير بناء البيت لما في إبقائه من تأليف القلوب، وكما أنكر ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة في السفر، ثم صلى خلفه مُتِمًّا»[٣].

هذا وإن الموفق الحكيم هو من نظر لأمورِ الاختلافِ السائغ بسَعَةِ علمٍ

---

(١) سنن أبي داود (٢ / ١٤٥) (١٩٦٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢ / ٢٥٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٢ / ٤٠٧) وانظر: الفتاوى الكبرى (٢ / ٢٥٢).

وبُعْدِ أُفُقٍ ودِقّةِ فقهٍ، فحواها جميعًا وأدخلها في نطاق قبوله إجمالًا، وردّ مشتبهَهَا لمحكمِها ومجمَلَها لمُفصَّلِها، وتبع أرجحها دليلًا وأسعدها برهانًا وعذر من خالفه من أهلِها. ولا بأس مِن عتب بين الإخوة برفق، إثباتًا لدليل أو تبيانًا لدلالة، نصحًا لمؤمن وإعذارًا لسفيه وتغمّدًا لهفوة.

لذلك فعليك ـ يا مريد فكاك نفسه غدًا ـ أن تنتبه لمعيار حكمك حتى لا تتناقض، وإذا علمت بأصل صحيح فاطرده ولا تنقضه، واحذر التناقض والانتقائية، ولْيسَعِ المؤمنين عقلُك وعلمُك وحلمُك.

* ومن مسائل الاجتماع: قبول أهل السنة لولاية المُتغَلّب المسلم اضطرارًا لا اختيارًا، لأن منازعته بعد تمكّنه مفضية إلى مفسدة أكبر من بقائه، مع استمرارهم في مناصحته والصدق معه والاحتساب لله في أمره ونهيه والدعاء له بالصلاح، والتعاون معه على البر والتقوى ما استطاعوا لذلك سبيلًا. ومن أعظم قواعد الاحتساب: العلم بالحُكم، والتثبت من صاحبه قبله، والرفق والحلم أثناءه، ثم الصبر الجميل بعده.

ولقد نقل إجماع السلف بالصبر على ولاية المتغلب المسلم غير واحد، فإذا تقرّر هذا فاعلم أن قبول ولاية المتغلب في حقيقته قوّةٌ وليس ضعفًا. أما ما يظنه بعض الناس من خلاف ذلك ونبز السلفية ـ التي هي الإسلام المحض ـ بالضعف والخنوع لقولها بانعقاد ولاية المتغلب المسلم، فالجواب عنه من وجهين:

أولًا: أن هذا مقتضى الشرع، والأدلة على ذلك صحيحة صريحة كثيرة

متنوعة، وبما أنها كذلك فيكفي المؤمن علمه بها ليستيقن قلبه وتطمئن نفسه، ويعلم أن أمر الله كله خير.

ولكن لا يعني هذا ترك الإنكار على السلطان وإبراء الذمة بنصحه ونصح الأمة، والعمل على إقامة دين الله بحسب الوسع والطاقة. قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لا خير في قوم ليسوا بناصحين، ولا خير في قوم لا يحبون الناصحين». وقال ابن الجوزي: «يا أمير المؤمنين: إن تكلمتُ خفتُ منك، وإن سكتُ خفتُ عليك، فقول الناصح: اتق الله، خير من قول القائل: أنتم أهل بيت مغفور لكم».

ثانيًا: أنّ هذا القبول قوة وعزة في الحقيقة وليس بضعف، وهذا جليٌّ لمن تأمله، فالقبول للمتغلب ومبايعتُه ليس لشخصه بل لمركزه الذي يخوّله القيام بأمر الناس، فإنْ غلبه غيرُه بويع المتغلب الآخر، لأنّ القبول بالأول ليس لشخصه ولا أُسرته بل لوظيفته ومكانه ومقامه الذي يُقيم به دين الناس ودنياهم.

وتأمل حال الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ مفتي الرياض في وقت إمارة ابن رشيد للرياض، فقد قاتل بشراسة وأفتى لأهل الرياض بالقتال ضد الملك عبد العزيز حينما أراد دخول الرياض للمرة الأولى إبّان معركة الصريف المشهورة. وبعد تغلّب الملك عبد العزيز على الرياض وتمكنه من الحكم بايعه ولم يعتذر عن قتاله السابق له بل قال: قد كانت لهؤلاء بيعةٌ في أعناقنا. فالقضية إذن هي قضية مبدأ ودين، لا رَغَب ورَهَب. وتأمل حال ابن

عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وغيره من الصحابة مع السلطان المتغلب المسلم والتزام بيعته والتشديد في نكثها، حتى لا تروج الفتن في الناس بسبب القتال على الإمرة، فالإمارة والولاية في الإسلام ليست بتشريف بل هي تكليف شديد له تبعه في الدنيا وحساب في الآخرة.

هذا مع الحرص على الاعتزال والكفّ عن فتنة القتال بين المسلمين التي يكون رائدُها أهواءُ الملوك لا إقامة الشريعة، أو حتى عند أدنى التباسٍ للأمر أو اشتباهٍ في الحُكم، لأن أمر الدماء عظيم وحرمتها غليظة.

وقد رجّح ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ كفّة من اعتزل إبّان فتنة الدماء بين الصحابة، إذ لم يخفّ للقتال في الطرفين بعامّة إلا أقل من الثلاثين، أما السواد الأعظم فقد اعتزلوا وكفّوا تمامًا عن القتال وهم أكثر الصحابة؛ كسعد بن أبي وقاص وابن عمر وأسامة وسعيد بن زيد وزيد بن ثابت وأبي هريرة وسلمة بن الأكوع وعمران بن حصين وصهيب ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن سلام وأبي بكرة وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وقد بسط الكلام في ذلك في مجموع فتاواه بسطًا مُحرّرًا[١]. وقال في المنهاج: «أئمة السنة يصوّبون من ترك القتال، ولم يصوبوا عليًّا في القتال، لكنهم يقولون: هو أولى بالحق من غيره، ولا يذمّون أحدًا منهم»[٢].

(١) مجموع الفتاوى (٤ / ٤٤١ -٤٥٠).

(٢) منهاج السنة (١/٥٣٨).

والخلاف في المسألة قائم وقديم، وقد رجّح النووي وابن حجر[(١)]

(١) انظر: المنهاج للنووي (١٨ / ١٠) (٢٨٨٨) والفتح لابن حجر (١٣/٣٣-٣٤) ونسبا القول للجماهير، مع أنّ الثابت هو أنّ الغالبية الساحقة من الصحابة قد اعتزلوا الفتنة، وهم الجمهور عند الترجيح دون من بعدهم، وهم أسعد بالنصوص النبوية الصحيحة الصريحة.

ولا بدّ من التفريق بين مسألة: أيّهما أولى بالحق عليّ أم معاوية، ومسألة: حكم قتال الناس مع إحدى الطائفتين أو القعود عنه لأنه قتال فتنة.

فالمسألة الأولى: فقولُ عامّة أهل العلم فيها: أنّ عليًّا وأصحابَه أقرب الطائفتين للحق، إذ هو ظاهر النصوص، فقد روى أحمد ومسلم بسنديهما حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**تفترقُ أمتي فرقتين، فتمرُقُ بينهما مارقَةٌ؛ فيقتلها أَوْلَى الطائفتين بالحق**» هذا لفظ الإمام أحمد، ودلالة الحديث ظاهرة. فليس لأحد تقحّم المشاقة وركوب المخالفة، فما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى العين والرأس، سمعنا وصدّقنا وأطعنا. فإن رام أحد خلاف هذا المعنى المتبادر؛ فليس له إلا بحديث آخر صحيح صريح فيه معنى يحيل هذا الفهم. ولا أعلمه. قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤/٤٦٧): «فهذا الحديث الصحيح دليل على أنّ كلا الطائفتين المقتتلتين علي وأصحابه ومعاوية وأصحابه على حق، وأنّ عليًّا وأصحابه كانوا أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه».

أما المسألة الثانية: فقد رجّح شيخ الإسلام أنّ الأقرب للصواب هو رأي القعود عن القتال لأنه قتال فتنة، ونسب هذا القول لأكثر أهل العلم من سلف هذه الأمة وخلفها، وقد خالف في ذلك بعض الأكابر من الصحابة ومَن بعدهم كالإمامين النووي وابن حجر لأدلة قدموها، والمسألة هنا متجاذبة الاجتهاد، والأقربُ تصويب رأي الجمهور في القعود، والله أعلم.

=

=

قال شيخ الإسلام في الفتاوى: (٣٥/٥٥): «وأكثر أكابر الصحابة لم يقاتلوا لا من هذا الجانب ولا من هذا الجانب، واستدل التاركون للقتال بالنصوص الكثيرة عن النبي ﷺ في ترك القتال في الفتنة وبينوا أنّ هذا قتال فتنة» وقال (٣٥/٧٧): «والفقهاء ليس فيهم مَن رأيه القتال مع مَن قتل عمارًا؛ لكن لهم قولان مشهوران، كما كان عليهما أكابر الصحابة: منهم مَن يرى القتال مع عمار وطائفته، ومنهم مَن يرى الإمساك عن القتال مطلقًا. وفي كلّ من الطائفتين طوائف من السابقين الأولين. ففي القول الأول: عمار، وسهل بن حنيف، وأبو أيوب. وفي الثاني: سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر ونحوهم. ولعلّ أكثر الأكابر من الصحابة كانوا على هذا الرأي، ولم يكن في العسكرين بعد علي أفضل من سعد بن أبي وقاص، وكان من القاعدين». وقال في منهاج السنة (٤/٢١٩): «ومنهم مَن يقول: كان الصول ألا يكون قتال، وكان ترك القتال خيرًا للطائفتين، فليس في الاقتتال صواب، ولكن عليًّا كان أقرب إلى الحق من معاوية، والقتال قتال فتنة ليس بواجب ولا مستحب، وكان ترك القتال خيرًا للطائفتين، مع أنّ عليًّا كان أولى بالحق. وهذا هو قول أحمد وأكثر أهل الحديث وأكثر أئمة الفقهاء، وهو قول أكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان».

وقد ذكر ابن أبي شيبة في المصنف «كتاب الجَمل» روايات تُذيب مهج المؤمنين أسًى وألمًا وكمدًا على ما أصاب المسلمين من فتنةٍ وقتل بأيدي بعضهم، فمنها عن الحارثِ بن جَمْهَان، قال (٣٨٩٤٣): «لقد رأيتنا يوم الجَمَلِ، وإنَّ رماحَنا ورمَاحَهُم لمتشاجرة، ولو شاء الرجلُ أن يمشي عليها لمشى، قال: وهؤلاء يقولون: لا إله إلا الله والله أكبر، وهؤلاء يقولون: لا إله إلا الله والله أكبر». قلت: وبنحو ذلك - مع الفارق - استدارُ الزمان في عصرنا لـمّا اقتتل جند الملك عبد العزيز وإخوان من طاع الله - رحم الله الجميع - في وقعة السبلة، وكان الأولون يهتفون: يا أهل الشريعة، والآخرون: يا أهل التوحيد، والدماء بينهم تتصبّب. وقال الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٣٨٩٨٧): لقد

=

وغيرهما القول بالقتال دون الاعتزال نصرةً للحق وقتالًا للبغاة حتى لا يظهر الفساد ويستطيل المبطلون، ولأنه من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحملوا أحاديث النهي على الاشتباه فيمن هو صاحب الحق، وللمسألة ذيول وضوابط. والمؤكَّد أن العافية لا يعدلها شيء.

وإذا كان سواد الصحابة الأعظم قد اعتزلوا القتال مع أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع كونه أفضل أهل زمانه قاطبة في زمن إمرته، ولن يأتي بعده مثله حتى آخر أيام الدنيا وهو الأمير الزاهد العالِم العدْل العادل؛ فما الظن في القتال مع من عداه من ملوك الدنيا؟! ومن جرَدَ مطوّلات التاريخ وقف على أن الكثرة الساحقة من اقتتال سلاطين الإسلام فيما بينهم كان. فيما ظهر من مآلات أفعالهم بعد النصر. لغرض المُلك إنشاءً أو حفظًا، وليس لأن تكون كلمة الله هي العليا. وإنما تظهر المقاصد بعد النصر في المعارك، وكلمة الله عليا لا تقبل مشاركة الأغراض. ولقد ذهبوا لآخرتهم وتركوها لغيرهم، ولما

=

رأيْته ـ أي عليّ ـ يوم الجملِ حين أخذتِ السُّيوفُ مأخذها يقول: «لوَ دِدت أنّي مِتُّ قبلَ هذا اليوم بعشرين سنة». وعن طلحة بن مصرّف (٣٨٩٥١) أنَّ عليًّا أجلسَ طلحةَ يوم الجَملِ، ومسحَ على وجهه التُّراب، ثم التفت إلى حَسَن، فقال: «إني ودِدت أنّي مِتّ قبلَ هذا». وقال محمد بن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «بلغ القتلى يوم صِفِّينَ سبعينَ ألفًا، فما قَدَرُوا على عدِّهم إلا بالقَصَبِ، وضَعوا على كل إنسانٍ قَصَبَةً، ثم عَدُّوا القَصَبَ». وسئل شقيقٌ (٣٩٠١٧): أشهَدْت صِفِّين، قال: نعم، وبئسَت الصفُّونَ كانت. وفي لفظ: شهدتُ صفّين، وبئست صفّون. والآثار كثيرة موجعةٌ أليمة.

همّ الحجّاج بالبطش بالحسن، قال: يا حجّاجُ، كم بينك وبين آدم من الآباء؟ فأطرق الحجّاج وخلّى عنه، ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨- ٨٩]. ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وتأمل وقارن ما رواه البخاري(١) عن سعيد بن جبير قال: خرج علينا عبد الله بن عمر فرجونا أن يحدثنا حديثًا حسنًا، قال: فبادَرَنا إليه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن، حدِّثنا عن القتال في الفتنة، والله يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] فقال: «هل تدري ما الفتنة ثكلتك أمك؟ إنما كان محمد عليه الصلاة والسلام قاتلَ المشركين، وكان الدخول في دينهم فتنةً، وليس كقتالكم على الملك». ومن جميل كلامه في الفتنة قوله: «من قال حي على الصلاة أجبته، ومن قال: حيّ على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله؛ فلا»(٢).

والمقصود: أن الولاية. مُلكًا كانت أو إمرة أو سلطنة. فهي بمنظور الشرع إنما هي تكليف محض شاقّ يليه حساب شديد يوم الدين، وليست تشريفًا ومغنمًا، وإن كانت نعم المرضعة فلبئست الفاطمة.

ولا يُولَّى هذا الأمر من طلبه وحرص عليه حتى لا يوكَل إلى نفسه وإليه،

(١) البخاري (٦٦٨٢).

(٢) نقله الذهبي في السير (٣/ ٢٢٨).

أما من طُلب إليه وغلب على ظنه القيام فيه لله لا لحظ نفسه؛ فهو موعود بالعون والتسديد من لدن ربه، كذلك من طلبه لرؤيته عدم وجود غيره ممن يقوم مقامه كحال يوسف عليه السلام.

ومن وليَ وعدل فإنه يستحق أن يكون من السبعة الذين يكرمهم الله غدًا بأن يجعلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله، بل لشدة فتنة السلطة والملك وندرة الإخلاص والرغبة في الآخرة فيه ابتُدئ بوعد الإمام العادل قبل بقية السبعة المخلصين، ذلك أن ولايات السلطة المطلقة سمّ للروح ناقع، لا يسلم منه إلا من كان شديد التحصين بعظيم الإيمان ودقيق الورع.

هذا، ولخطر مقام السلطان وخطر زعزعته على أمن الناس وسكينتهم ودينهم؛ فقد شدد الشرع في حرمة الخروج عليه أو نقض بيعته أو شق عصاه بلا مبرر ومسوّغ من الشريعة، فلا بد للسلطان من هيبة لعدله، فهو كهفُ الرعية الذي إليه تأوي بعد الله. والوِلاية إذا لم يكن لها حراسة من الشرع تناهبتها الأطماع، فآخر ما يسقط من رؤوس الصديقين حب الرئاسة.

وبالجملة فالمنهج السلفي ليس ابتداعًا لأقوالٍ وأفعالٍ ومناهجٍ، بل هو الممثّل للإسلام الصافي والسنة النقية من شوائب البدع وغوائل المحدثات، وهو التِّلادُ حقّا للأمة.

لذا فلا تعجب من كثرة الخصوم لمنهج السلف وكثرة التغبيش حول هدايته؛ فلشموخه ووضوحه ورسوخه وقوة حججه وقرب معانيه؛ لم يبق لهم سوى ضجيج التائهين، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

❋ وعلى المؤمن أن يتنبّه لمكانه عند افتراق الطرق، فثمّ وسطٌ بين الإقدام والإحجام. وقد تبلغ الشجاعة ورغبة ما عند الله ببعض أهل العلم والصلاح حدّ إرادة الاستشهاد كما المقاتلين في سبيل الله، حتى يرون بعض المهمات الشرعية كصيانة العامة من محن لا طاقة لهم بها، وكحفظ النفس من التلف؛ أنها مجرد وساوس شيطان.

بينما تحمل ركائب الجبن ونجائب إيثار العاجلة آخرين على تمييع ثوابت شرعية كبرى، كأولوية حفظ الأمة عن فتنة الدين، وتأويل النصوص، وعسف النظر لمآلات الأحوال الدينية، حتى يُلقونها خلفهم ظِهريًّا بحالهم ومقالهم، ورُبَّ منيّة سببها طلب الحياة.

والحق وسط بين باطلين، وصِدْق بين مَينين؛ فشجاعةٌ بلا حكمة قصور يقابل العلمَ بلا عمل. فخذ الحيطة لدينك؛ فزمان تقضيه في جهاد شامل خيرٌ من حبسٍ عنه بشهادة عاجلة، ولقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين وهو أشجعُ بني آدم طُرّا.

نعم إنِ افترقَ القرآن والسلطان فلا خيار لمن في قلبه إيمان. والهدى هو إيثار الآخرة بأرفق طريق وأصدقه وأوضحه، سواء بتلف الأجساد أو حفظها. والموفق من هداه الله سبيله، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٧].

❋❋❋❋❋

كِلاكُمَا مُحسِنٌ

خرّج البخاري[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده عن النزال بن سبرة قال سمعت عبد الله[٢] يقول: سمعت رجلًا قرأ آيةً سمعت من النبي ﷺ خلافها، فأخذت بيده فأتيت به رسول الله ﷺ فقال: «**كلاكما محسنٌ، ولا تختلفوا، فإنَّ من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**».

اعلم أنه منذ الصدر الأول للإسلام كان. ولا زال. هناك رأيان مضطردان لأهل العلم في قضايا معيّنة وأساليب محدّدة، أو لنتزّل فنقول: هناك مدرستان سلفيّتان. راجعتان لمدرسة واحدة. لكل منهما موقف ثابت تقريبًا في قضايا معيّنة إجمالًا.

فمدرسةٌ تنحو للعزائم وتتوسع في سدّ الذرائع، وقد يتوجّه تمثيلها بشكل أغلبي وسِمَات عامة لا تفصيلية بفقه ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في مسائل كثيرة، وأخرى ترى التيسير بفتح بعض الذرائع وفق ضوابط، والأخذ بِرُخص الله تعالى، كما في فقه ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في مسائل مشهورة.

فالمدرسة الأولى نظرت لجانب الاحتياط لذات العبادات والتشدّد في حراستها، ووقفت مع حرفيّة النص تقريبًا، والأخرى نظرت لجانب العبدِ ذاته

---

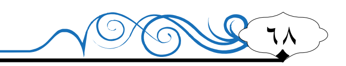
(١) صحيح البخاري (٣/ ١٢٠) (٢٤١٠).

(٢) وهو ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والخوف عليه من تضييقٍ زائدٍ يكسر نزعته للانطلاق في عمارة الأرض، وِفْقَ قواعد شرعية منضبطة ـ وليس بتمييع وتبديل ـ ووقفت مع النص مفسّرتَهُ بمدلوله الشمولي العام. وكل مدرسة لها أدلتها واستنباطاتها ومنهجها واحتياطاتها وصوابها.

ولكلٍّ من المدرستين منهاج مشرق واضح، وكلاهما جادّ في إقامة تفسير آيات وأحاديث الصفات أو مسائل الإيمان أو القدر أو غير ذلك مما زايلوا المبتدعة فيه على الأصول المرعيّة لأهل السنة والجماعة. ومع أن المدرستين متفقتين تمامًا في كل أصول أهل السنة والجماعة ـ بلا مثنويّة ـ فثمّ أحرف يسيرة اختلفت رؤاهم حيالها، فصفة الهرولة ـ على سبيل المثال ـ قد أثبتتها المدرسة الأولى، أما المدرسة الثانية فلم تثبتها ومن أثبتها لم يتشدّد في إثباتها، ومسألة استثناء حبس الظل من وعيد التصوير لأنها غير داخلة فيه إنما غَلبت عليها عُرفيّة التسمية على الحقيقة، فالأولى منعتها بإطلاق والأخرى جعلتها من باب ترك الأولى.. وهكذا. وكلا المدرستين على خير وبرّ وفقهٍ وهدى، وبين أجرٍ وأجرين، وأخوّة إسلام وإيمان.

وكأنّ الأمر في المنهاج العام للمدرستين أشبه بقناعتين وسلوكين ونفسيّتين جمعيّتين متآخيتين متكاملتين، مع قرب إحداهما للصواب في أحوال معيّنة، ففي أزمنة وأمكنة يكون الترجيح للأُولى، وفي أخرى للثانية، وذلك بحسَب الوقائع والأحوال المقتضية للترجيح الآني. فالحق لا يتعدد في نفسه ولكنه قد ينتقل بحسب ما يكتنفه من عوارض تحيل جهة الترجيح، وتلك هي



الأدلة المفضية للحق مهما كان موقعه. والحق ـ أحيانًا ـ قد يكون واسعًا بحيث يقف كل طرف على جزء منه سواء أبصر الطرفَ الآخر للحق أم لا.

ومن أمثلة ذلك: التكفير واضطراد أحواله، وسنقف مع زاوية حرجة لكل منهما حتى نقف على حافة القول الحَدِّيّ لكل منهما:

فالمدرسة الأولى: تكفّر من حكّم القوانين الوضعية الطاغوتية وكلَّ من مكّن لها وشارك فيها ـ ويُقصد بذلك التكفير الوصفي مع احتياطهم في تكفير المعيّن بالطبع ـ. وهذه المدرسة ذاتها تُكفِّرُ أو لنقُل: تُحرّم ـ بإطلاق ـ الاستعانة بالمشركين على حرب المسلمين بأي حال ولو كان لدفع الصائل، وتكفّر من أعان المشرك في الحرب على المسلم بأي درجة وتحت أيّة ذريعة، خلا الإكراه بضوابطه. فهي مدرسة حَدّيّةٌ صارمة، لا تقبل التنازل شبرًا فيما تراه يمسّ المعتقد ولو بإحراق جسور كثيرة. عِلْمًا بأن الصرامة لا تعني الصواب دومًا، فضلًا عن الاحتياط، ولسنا هنا بصدد الترجيح لكنا نُعنى بالتوصيف.

ومن الأمثلة المعاصرة لذلك تكفيرهم لأحد الولاة حينما استعان (بالمشركين الترك) ـ بحسب نظرهم ـ وتكفير خَلَفِهم لبعض الفارِّين من الملك عبد العزيز من قيادات المنشقين، والأمر باستتابتهم من الرِّدّة بعد الإسلام، ومثل الحكم بحربيّة البلاد المعلَن فيها الشرك ـ ولو كانت مكة ـ.

وامتدادُ هذه المدرسة في هذا الزمان هم القائلون بحرمة المشاركات البرلمانية مع أنظمة غير متقيّدة بالشريعة بإطلاق.

أما المدرسة الثانية: فتجيز المشاركة البرلمانية في الأنظمة الطاغوتية، لا إقرارًا للمنكر ولكن من باب درء أعظم المفسدتين، وهي ذات المدرسة التي تجيز الاستعانة بالمشركين للضرورة بشروط، وهي التي تحكم بإسلامية البلاد بغلبة ظهور شعائر الإسلام.. وهكذا.

فكل مدرسة تطرد أصلَها، مع عود الأصلين لمشكاة واحدة وهي الاتّباع للسنة بأدلّتها وحراستها والذبّ عنها بالنظر للحال والنظر للمآل، فالهدف واحد، والمعتقد واحد، والمنهج الكلّي واحد. إنما الفرق كامن في التعاطي مع مناطات نصوص الشريعة ومقاصدها.

وإنك لتَعجب من بعض الفضلاء حينما تراه ينتقي من المدرسة الثانية ما وافقه ومن الأولى ما خالف خصمَه، فيُجيز الاستعانة بالمشرك. لأن وليّ أمره فعله. ويكفّر المشاركة البرلمانية. لأن خصمَه فعلها. وهذا تلفيق مزدوج. مالكم كيف تحكمون؟!

حتى مَكَرَة السّاسة لم تفُتْهُم هذه الثنائية، فقد عمل بعضهم على ما يسمى بـ(لعبة المتناقضات) ليلج من بينها لمقصده، فقد ركب بعض السّاسة سفينة المدرسة الأولى لمّا كانت رياح أشرعتها له مُواتية في خَضْدِ أشواك خصومه، ثم أسرع ركوب السفينة الأخرى حينما هبّت نسائم سلامِ الصَّبَا لتوجيه أشرعتها. ولا عجب فأكثرهم طالب صيدٍ.

إذا المبادئُ لم تُحمل مُكرّمةً على الرقابِ فلا التوفيقُ يُرتَقبُ

وحتى لا يظن ظانّ أن هذا التقرير يَشي بقصور السلفية في العمق أو

السعة أقول: إن هذا غير وارد، فالسلفية أسدُّ منهجًا وأسعد دليلًا وأعمق دلالة وأقوم طريقة وأوسع نظرًا وأرحب سبيلًا وأرحم في الحال والمآل مما سواها من السبل التي خالفت جادّة الرسول بابتداع وإحداث، إنما هو اختلاف اجتهادات سائغة في المجتمع السلفي بعامّة.

ومرادي هو بيان ملامح النظر التأصيلي والتطبيقي لها، وسأوضحه بمثال كاشف لما خلفه في قضية عامّة، فمسألتنا المذكورة. وهي الاستعانة بالمشركين في الحرب. تجاذب حكمَها رأيان داخل المدرسة السلفية ذاتها، فرأيٌ بالمنع إلا بشروط شديدة، وهذا القول هو الأطردُ تطبيقًا والأسعدُ بالنصوص والأكثر احتياطًا. أما الثاني فهو وإن مانع من الاستعانة كالأول إلا أنّه توسّع قليلًا في الشروط والضوابط مراعاةً للمصالح العامة ولمقاصد الشريعة الكلية، ودرءًا للمفاسد والمخاطر الموشكة المتوقّعة.

فهذان القولان لم يخرج أحدهما عن نسيج السلفية العام، وإن كان بعض اتباعهما قد طعن في منهج الرأي الآخر، وهذه عادةُ صراع الأفكار واحتدام المغالبات ومدافعة الفتاوى، وقد لا تغيب عنها بعض حظوظ النفوس وركضات الشيطان، ولكن من تأمّلهما جيّدًا انتهى إلى ما ذكرتُ، فالأول أعمق والثاني أوسع.

❋ والمقصود هو القول: إن هناك رؤيتان متوازيتان داخل المدرسة السلفية العامّة، فالأولى: حَدِّية تأخذ بالعزائم والصرامة في الفهم والتطبيق مع مراعاة المصالح والمفاسد، والثانية: تراعي جوانب وزوايا القضية وتحاول

استيعابها من جميع جهاتها واختلافاتها، مع العناية بالتّيسيرات وعدم إغفال جوانب جلب المصالح ودرء المفاسد. فالأولى تراعي العُمقَ والثانية تراعي السَّعَة، ويظهر هذا جليًّا في التنظير وفي التطبيق كذلك.

ومن لم يلحظ ذلك ويراعيه عند تأمله ودراسته للمدرسة السلفية بعامة سيصاب بحيرة واضطراب، وقد يخرج بالحكم عليها بالتناقض، وهذا خطأ في التصوّر وخطَلٌ في التهمة، فهما رؤيتان متوازيتان في إطار واحد، وهذا من ناحية العموم الأغلبي لا الاضطراد المطلق.

مع التنبيه إلى أن هذا المسار ليس مضطردًا[(١)] في المدرستين لاختلاف الأحوال والأشخاص والقضايا، إنما المراد تنبيه بعض الأحبة إلى وقوعهم في ازدواجيّة ظالمة، فحِماهُم حرام وحِمى خصمهم مباح، والمرجّح لديهم هو الهوى والتعصّب لا الهدى والشرع. ووراء الأكَمةِ فئامٌ تصطاد المختلفين، وتضرب كلًّا بسلاح خصمه.. ويا حاطبًا في حَبْلِ غيرِك تَحْطُبُ.

والعاقل من جمع وألّف لا من فرّق وأخلَف، وعند ابن ماجه[(٢)] أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه**».

---

(١) ويصح لغةً: اضطرد واطّرد، وكلاهما بمعنى.

(٢) سنن ابن ماجه (٢٣٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣ / ٣٢٠).

فليس في السلفيّة تناقض - كما خَطَل به بعضهم - فهي زبدة الإسلام وجوهرُ الرسالة، وما ذكرتُه ليس تعارضًا في السلفية، بل هو سعة وشمول وتكاملٌ واحتواء لِمَا ساغ الخلاف فيه.

يـا نـاطحَ الجبـلَ الأشـمَّ بقرنـِهِ ... أشفِقْ على القَرْنِ لا تُشفق على الجَبَلِ

وبالجملة؛ فعباءة السلفية واسعة لخلاف أبنائها في المسائل التي تتنازعها الأدلة لاختلافٍ أو تكافؤ أو غيرهما، والأمثلة طويلة الذيول في السلف والخلف، وليس لبسطها حيّز، ولكن نزيدُ الأمرَ توضيحًا من محاور أُخرَ وجيزة فنقول:

إن هناك أمورٌ في الشريعة - حتى في المعتقد والمنهج - لم تُحسم تمامًا رحمة من الله تعالى، والخلاف فيها سائغ - مع التأكيد على أنها ليست من المسائل الكليّة الكبار إنما هي من دقائق بعض المسائل، كما أنها نزرٌ يسير بجانب ما أجمع السلف عليه - كرؤية رسول الله ﷺ ربَّ العزة في المعراج، وسماع الموتى لسلام الأحياء، وتفضيلِ صالحي البشر على الملائكة، والاختلاف في بعض الآيات هل هي من آي الصفات أم لا، وفي بعض تفريعات مسائل القَدَر كاختلافهم في حكم الرضا بالقضاء، وفي بعض مسائل الإيمان كاختلافهم في تكفير تارك الصلاة الواحدة عمدًا، وبعض مسائل الحاكميّة، ومتى يكفُر من حكم بغير الشرع، والمشاركات البرلمانية، وبعض مسائل البراء وموالاة الكفار وتوَلّيهم ومظاهرتهم، ومحبة الزوجة الكتابية، وحكم الجاسوس وهل هو كفرٌ بإطلاق من عدمه، وبعض أحكام أعمال القلوب.. وغيرها كثير، ولله

فيها حكم هائلة لا نعلمها، ولعل منها أن تتيقّن النفوس عدم كمال علمها فتخضع وتذل للعليم سبحانه، ومنها العلم بعدم العصمة لغير الأنبياء، ومنها فتح الباب لاستفراغ أهل العلم جهدهم لتحصيل الهدى والتسديد في العلوم والأعمال، ومنها إعذارُ العالم غيره فيما لم يُصب فيه بعد اجتهاده، ومنها تفاضل أهل العلم بتوفيق الله من شاء لمحض الحق دون أخيه، والمجتهد فيها بين الأجر والأجرين(١).

واعلم أن من تمسّك بالمجملات في كلامه فإنه لا يخطئ غالبًا، إنما تتوارد أسباب الخطأ عند الغوص في بحر المسألة لاستخراج لُبابها، فمن أراد أن يفلَّ

---

(١) قال شيخ الإسلام في هذا المعنى معلقًا على حديث سماع الموتى للأحياء المخرّج في الصحيحين (البخاري (٤٠٢٦) ومسلم (٢٨٧٣): «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**» فقالت ـ أي أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: إنما قال: «**إنهم لَيعلمون الآن أنّ ما قلت لهم حق**» ومع هذا فلا ريب أنّ الموتى يسمعون خفق النعال كما ثبت عن رسول الله ﷺ: «**وما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه؛ إلا ردّ الله عليه روحه حتى يردّ عليه السلام**» صحّ ذلك عن النبي ﷺ، إلى غير ذلك من الأحاديث. وأمّ المؤمنين تأوّلت ـ والله يرضى عنها ـ وكذلك معاوية نُقل عنه في أمر المعراج أنه قال: «إنّما كان بروحه» والناس على خلاف معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومثل هذا كثير. وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط.
ولو كان كلّما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة، ولقد كان أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سيدا المسلمين يتنازعان في أشياء لا يقصدان إلا الخير». مجموع الفتاوى (٢٤ / ١٧٣).

المحزَّ ويصيب المِفْصَلَ فعليه بالصبر والتؤدة، فتفاصيل بعض العلوم مفتقرة لغوّاص ماهر وذكيّ صابر، عالم بالأدلة والمناطات والخلافات، مع إقدامٍ حكيم غير متهور ولا عجول، ولا مخالف للجماعة، إذ نسبة الخطأ عند تحرير دقيق المشكلات تزيد أضعافًا على الوقوف عند أعتاب المجملات، وهنا يتبيّن الفقيه حقًّا والعليم صدقًا، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤] ولا يصح بحث المعضلات وفحص المشكلات إلا ممن يملك أدواتها بحسب الطاقة، مع تحلّيه بالشجاعة عند تبيّن خطئه، وبالفروسية عند سبْقِ قِرنه له، فثمرةُ العلمِ الإيمانُ والبرّ واليقين والتواضع، لا العلوّ والكبر وحُبّ التصدّر والظهور. والخطأ في هذه المسائل واردٌ بقدر ورود الصواب أو أكثر، فالعلوم بحور لا مدى لسواحلها، والجهل والغفلة والنسيان مكتوبة على ابن آدم، والموفّق من صدق اللجأ عندها لمن قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور: ٣٥]، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقد لا يكون المُحَرِّرُ للمسألة مخطئًا في الحقيقة، لكن أُسيءَ فهْمهُ ممن لم يعتادوا الغوص في تفاصيل التفاصيل، ومثال ذلك ما حصل لأحد أعلم أهل الأرض في زماننا ومعدودٌ من أئمة الدين في عصرنا حين تكلم في مسألةِ مَعِيّةِ الله جل جلاله، فتعدّى منطقةَ الإجمال المعتادة للتفصيل النادر، واثقًا بعد الله

من حُسن تصوّره وتصويره لتلك المسألة الجليلة، ولكن قَلَبَها عليه بعض أقرانه ـ عفا الله عنهم ـ فأشهروا في الناس فهمهم المغلوط لكلامه، فالناس أعداءٌ لِمَا جهلوا، ورموه ببدعة شنيعة، حتى اضطُر ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ لكتابة رسالة تامّة في المعيّة، دفعًا لتوهّم وتوضيحًا لمشكِلٍ وكشفًا لمشتبه، والله المستعان.

واعلم ـ رحمني الله تعالى وإياك ـ أنّه كلما اتّسع علم المرء؛ اتّسع صدره لخلاف الناس فيما يسوغ، وانفسح معه عذرُه للناس، وانشرح صدره لتَقبُّلِهم مع خلافه لهم. وتأمّل حال ابن تيمية وسَعَة منهجه في الاعتذار لأخطاء المخالفين، بلْه ضلالاتهم، كذا ابن القيم وابن كثير والذهبي وابن سعدي وابن باز والعثيمين.. وأمثالهم من الكبار.

فتجدُ في كل مسألة مما اختلف فيها أهل السنة والجماعة قولان مشهوران، وكلاهما قولان داخلان في المدرسة السلفية السَّنِيَّة السُّنِّيَّة بعامّة، فهما يتنازعان دلالة الدليل، وكلاهما مصيب من جهة استفراغ الفقيه وسعه في تحقيق حكم الله تعالى، فإن أصاب الحكم فاز بالأجرين، وإن أخطأ لم يُحرم أجر اجتهاده، رحمة من الله وفضلًا.

ومن ذلك اختلاف بعض أئمة العلم المعاصرين في طريقة التعامل مع مخالفات الجماعات الإسلامية سلبًا أو إيجابًا، تعاونًا وإصلاحًا أو براءةً وإنكارًا. مع القطع بأن الإسلام يتشنّف للوحدة بين أبنائه وتوسيع دائرته حسب حدوده المعلومة، فلا تُضيّق ـ رحمك الله ـ ما وسّعه الله بلا حجة، ولا

توسّع ما شدّد فيه بلا برهان. وتذكر: **«وعن علمه ماذا عمل فيه»**[(١)].

وانظر إلى تطبيقات أئمة الزمان كابن باز والعثيمين والألباني في ردودهم. وأكرّر ردودهم. لأنها التطبيق العملي لتنظيرهم العلمي الذي قد يكون مجملًا أو حمّال أوجه، فانظر لرفقهم ولطفهم وأدبهم وحُسن تأتّيهم وتثبتهم ونصحهم ومحبة نفع المخاطَب والرغبة الصادقة في هدايته، وليس مجرّد إقامة الحجة والإعذار وإشباع القوة الغضبية. وودّ أحدهم لو نفعَ الناس مع نسبة الفضل لغيره إخلاصًا وورعًا وخشية.

وليس معنى رؤيتين أو مدرستين أن هناك مجموعة تنقل مبادئ هذا النظر لمن خلْفها عن سلفها وكأنّها مقيّدة ومقنّنة ومنضبطة اضطرادًا، لا، بل المسألة لا تعدوا أن تكون فقهًا ترجيحيًّا للنظر في المسائل عبر خلفيّة متقاربة في أفراد أو مجموعات ليس إلا.

بل قد تكون الرؤيتان . أحيانًا . لدى الفقيه الواحد، فيأخذ بهذه حينًا وبالأخرى حينًا بسبب اختلاف الأحوال في نظره، أو تجدّد أدلة لديه، أو وضوح قوّة أو ضعف براهين المسألة بين يديه، أو بسبب تغيّر الخلفيّة النظريّة من تغليب العمق على السعة أو العكس. وقد حكم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الفريضة الحماريّة بعدم التشريك، وفى العام التالي حكم بالتشريك في واقعة مثل الأولى، ولما سئل عن ذلك قال بطمأنينة وسكينة وعلم وثقة: «تلك على ما قضينا

---

(١) شعب الإيمان (٣ / ٢٧٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٩٩).

يومئذٍ، وهذه على ما قضينا»[١]. وغالب أسباب اختلاف بعض فتاوى العلماء حديثًا عما كان يُفتى به قديمًا راجع لأمرين: إما قاعدة سد الذرائع وفتحها، أو اختلاف عوارض المسألة باختلاف زمانها ومكانها.

ولا يعني هذا بحال نفي السعة عن العمق أو العمق عن السعة، فالمنهج السلفي قد أخذ حظه التامّ منهما، انما المقصود الترجيح عند التقارب والتغليب عند الاشتباه.

هذا، وقد تختلف زاوية الرؤية للمسألة الواحدة فتختلف فيها الفتوى، كمن يتوسع في الإنكار العلنيّ على الولاة ومن يضيّق، وذلك بحسَب تصوّر المسألة بمناطاتها والحكم فيها واختلاف أحوالها وحضور أو غياب أهلها. والواجب هو اتباع الدليل، أما مع الاشتباه أو ضعف السند أو الدلالة فلا بدّ من أن يعذر بعضنا بعضًا حتى وإن قال الآخر ببدعية المسلك الأول؛ فعلى الأول أن يعذره قدر طاقته، وألا يعصيَ ربَّهُ فيه إذ عصاه فيه أخوه.

بل إن من العبادات والهيئات ما تكون سنّة أو بدعة لدى شخصٍ باعتبار صحة الدليل وصراحته من عدمه، فقد يصح الدليل الصريح بسنّية عبادة أو هيئة فيها عند أحدٍ. من أهل الاجتهاد. فيكون مُتعبَّدًا لله بما صحّ لديه، مع أن هذا الدليل بعينه لم يصح عند غيره، فيحرم عند من لم يصح لديه أن يتعبَّد لله بعبادة سندها هذا الحديث الضعيف، ولهذا أمثلة عديدة مشهورة. وقد عدّ شيخ الإسلام بعض أمثلة ذلك وسمّاه اختلاف تنوّع فقال: «وهذا القسم الذي

---

(١) عبد الرزاق في المصنف (١٩٠٠٥).

سميناه اختلاف التنوع كلّ واحد من المختلفين مصيبٌ فيه بلا تردد، لكن الذم واقع على من بغى على الآخر فيه. وقد دلّ القرآن على حمد كل واحد من الطائفتين في مثل هذا إذا لم يحصل من أحداهما بغي، كما في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥]. وقد كان الصحابة في حصار بني النضير اختلفوا في قطع الأشجار والنخيل، فقطع قوم وترك آخرون. وكما في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٨- ٧٩]، فخصّ سليمان بالفهم وأثنى عليهما بالعلم والحكم.

وكما في إقرار النبي ﷺ يوم بني قريظة، وقد كان أَمَرَ المنادي أن ينادي: لا يصلينّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة، من صلى العصر في وقتها ومن أخّرها إلى أن وصل إلى بني قريظة[١]. وكما في قوله ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد ولم يصب فله أجر**»[٢] ونظائره كثيرة»[٣]. «وقال بعضهم: لا نصلي إلا في بني قريظة[٤]، وقال بعضهم: لم يُرد منا هذا[٥]؛ فصلوا في الطريق.

---

(١) البخاري (٩٤٦، ٤١١٩) ومسلم (١٧٧٠) بلفظ: «**لا يصلينّ أحدٌ الظهر إلا في بني قريظة**» وانظر كلام الحافظ عليه في الفتح (٧/٤٠٨، ٤٠٩).

(٢) البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦).

(٣) اقتضاء الصراط (١ / ٣٩).

(٤) عملًا بظاهر النص.

(٥) عملًا بعلّة النص.

فلم يعب واحدة من الطائفتين. فالأولون تمسّكوا بعموم الخطاب فجعلوا صورة الفوات داخلة في العموم، والآخرون كان معهم من الدليل ما يوجب خروج هذه الصورة عن العموم، فإن المقصود المبادرة إلى القوم. وهي مسألة اختلف فيها الفقهاء اختلافًا مشهورًا: هل يُخص العموم بالقياس؟ ومع هذا فالذين صلوا في الطريق كانوا أصوب»[١].

وقال في موضع آخر معلّقًا على القصة. وتأمّل.: «وهذا وإن كان في الأحكام فما لم يكن من الأصول المهمة[٢] فهو مُلحقٌ بالأحكام. وقد قال ﷺ: «**ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**»؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**»[٣][٤].

وهذه الأحرف الجامعة الفريدة معدودة من نفيس فقه شيخ الإسلام وسعة علمه وعظيم نصحه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

*****

(١) مجموع الفتاوى (٢٠ / ٢٥٣).

(٢) وهذا قيد مهم لحفظ أصول الدين ممن يريدون الانسلاخ من قطعيته بحجة وجود خلاف غير معتبر.

(٣) أحمد (٦/٤٤٤) بسند صحيح. والحالقة: هي خصلة السوء التي تُذْهِبُ الدين كما تذهب الموسى الشَّعر.

(٤) مجموع الفتاوى (٢٤ / ١٧٤).

لا إنكار في مسائلِ الخلافِ السَّائغ

وهذا الفصل مُرَتبٌ ومبنيّ على ما سبقه، فليس كل خلاف يسوغ، بيدَ أنّ ما ساغ فيه الخلاف اتّسع فيه العذر.

ومن الاختلاف السائغ في المنهج: اختلافُهم في بعض طرائق الإنكار على معاصي الولاة، وتقديم مصالح يرونها كليّة ودرء مفاسد أوّليّة مع اختلاف أحوالها وأحكامها، وكذا قضية ضابط ما يسمّى بتهييج العامّة على ولاتهم، أو التساهل في الإنكار في العلن، وكذلك بعض مسائل عزل الولاة، وأحوال ومراتب الصبر على جور الولاة والعمّال، وبعض أحوال وأحكام الفتن العامّة والخاصة، والتعامل مع فتن القتال العام وما قاربه، وسُنيّة اعتزاله والبعد عنه أم المشاركة فيه لدفع الظالم ونصر المظلوم وطاعة الوالي والاحتساب في ذلك.. أي: متى يُشرع القتال مع من نرى الحقّ معه، ومتى يشرع اعتزاله..إلخ.

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا رأيت اختلاف العلماء رحمهم الله في المسألة بدون أن يذكروا نصًّا فاصلًا فإننا نقول: الأمر في هذا واسع... وهذه جادّة مذهب الإمام أحمد نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يرى أن السلف إذا اختلفوا في شيء وليس هناك نصّ فاصل قاطع، فإنه كله يكون جائزًا»(١).

والمحصّلة: أن الخلاف السائغ موجود من قديم، وثمرتُه حرمة الاستبداد

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع (٥ / ١٣٧).

باعتقاد امتلاك الحقّ المطلق بلا برهان كاف شاف. وإذ لم يمكن ذلك فالتسامح والائتلاف، وليعذر المومن أخاه، فكلٌّ مكلّفٌ بحسب ما بلغته طاقته من فهم الشريعة إن كان ممن يحسنون التعاطي مع أدواتها ودلائلها، فإن لم يكن كذلك فليتوقّف تمامًا وليتشغل بغير هذا السبيل، وليُلجم رعونته بالورع وليكبح طيشه بالتقوى، والا فصوابه خطأٌ من جهة دخوله ما ليس له، وحتى لا يقع في تبديلٍ وتقصير من حيث أراد التسديد والتحرير، ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

*****



أُخوّةُ الإسلام

فَرْقُ هذا العنوان عمّا سبقه هو أن الاجتماع تُعنَى به الأمّة في اعتصامها بحبل الله جميعًا وترك النزاع، فتكون يدًا واحدة ووجهًا واحدًا وقلبًا واحدًا، أما الأُخُوَّة فيُعنى بها الفرد بذاته لذلك الفرد بذاته، فهذه متّجهة لفرد وتلك لمجموعٍ، وهذه في التحقيق راجعة لتلك، قال سبحانه آمرًا بحفظ وحدة المسلمين وحفظ حقوق أخوة الدين ومشددًا في التفرّق فيه: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٢- ٥٣].

إنّ من المهات العظيمة: سلامةُ قلب المؤمن للمؤمنين، وهي من فروع الولاء لكلمة التوحيد وأهلها، وعلى قدر تحقيقهم لمقتضاها يكون الولاء لهم لما في قلوبهم من شعاعها. ومن أدعية عباد الله الصالحين: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: ١٠]. «**واسْلُل سَخِيمةَ قلبي**»(١).

ومن مُذهِبات الغلّ: إحسانُ الظن، فلا بد للمؤمن من إحسان ظنه بالمؤمنين، فحسن الظن شيمةُ الإيمان. واسأل نفسك: هل العاصي ـ ومنه المبتدع ـ مؤمن؟ واحذر أن تُمسي وفي قلبك غلّ لمؤمن فتخصمَكَ هذه الآية.

---

(١) سنن أبي داود (١ / ٥٥٨) (١٥١٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٥٣) وهو خاتمة دعاء جامع عظيم.

والحقّ: أنه من أهل مطلق الإيمان، فيستحق من الولاية بقدر إيمانه، لا الإيمان المطلق الذي يستحق كمال الولاية، وعلى كل حال فلكلّ نصيبه من الوَلاية، ورضي الله عن أبي دجانة الأنصاري حينما سُئل وهو يحتضر عن سبب تهلّل وجهه فقال: «ما من عملِ شيءٍ أوثقُ عندي من اثنتين: كنت لا أتكلّم فيما لا يعنيني، والأخرى فكان قلبي للمسلمين سليمًا»(١).

واعلم أن من بذل وسعه وجهده مخلصًا لله قاصدًا اتّباع رسوله ﷺ فهو على خير ويُرجى له الفوز والفلاح، وسعيه مشكور وخطؤه مغفور بإذن الله، قال شيخ الإسلام: «ولا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة وإن كان ذلك في المسائل العلمية، ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء الأمة. وإذا كان الله يغفر لمن جهل تحريم الخمر لكونه نشأ بأرض جهل مع كونه لم يطلب العلم؛ فالفاضل المجتهد في طلب العلم بحسب ما أدركه في زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعة الرسول بحسَب إمكانه هو أحقّ بأن يتقبل الله حسناته ويثيبه على اجتهاداته ولا يؤاخذه بما أخطأ، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وأهل السنة جزموا بالنجاة لكل من اتقى الله تعالى كما نطق به القرآن، وإنما توقفوا في شخص معيّن لعدم العلم بدخوله في المتقين»(٢).

---

(١) نزهة الفضلاء (١/ ٤٢).

(٢) الفتاوى (٢٠\١٦٥-١٦٦).

هذا وإن من كبار المنتسبة لهذا المنهج ـ منهج الجرح والطعن والتساهل في التبديع ـ بل وحتى من نُسب لهم ذلك المنهج قد وُجدت منهم هفوات علميّة حتى في تقرير المعتقد والعلميّات، فالناقد بصير، ومن فتّش وجد، ومن تتبع عثرات الناس ابتُلِيَ بمن يتتبّع عثرته، ومن عاب عِيب بما عاب، وكلّكَ عوراتٌ وللناسِ ألسُنُ. وكما تأمُرُ بالإنصاف هنا فكن أول العاملين بمقتضاه هناك. بل قد وصل بعضهم للإرجاء ـ عمليًّا وإن أنكره علميًّا ـ وصدق فيهم قول النضر بن شميل لمّا سأله المأمون: ما الإرجاء؟ فقال: دينٌ يوافق الملوك، يصيبون به من دنياهم، وينقصون به من دينهم. قال: صدقت.

ألا وإنّ هذه الفئات الثلاث المنسوبة لأهل السنة والجماعة (من اتّهموا بالغلوّ في الطاعة والتبديع، ومن اتّهموا بالتحزّب البدعي والتساهل في الطاعة، ومن اتّهموا بالغلوّ في مفهوم وتطبيق التكفير والجهاد والقتال) هي داخلة من حيث الأصول الكليّة في مذهب السلف، والمشتركات بينهم أكثر وأكبر بكثير مما اختلفوا فيه، وكثير من مسائل الخلاف بينهم هي من ضروب الخلاف السائغ والاجتهاد المقبول.

وفرض الوقت عليهم هو التناصح الصادق الدافئ المشفق، وإصلاح ذات بينهم مع الرفق والاحتساب والصبر، وربنا جل وعز يقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] فألينُ الناس عند إصلاحِ ذاتِ البين هم الأتقياء. فلماذا التشرذم والتفرّق والتعادي، وإلى متى هذا التمادي في التمادي؟!

لقد ناقشتُ بعض من يُنبز بانتمائه لفئة معيّنة فرموني مباشرة وبلا تردد

بلقب الفئة الأخرى، وكذلك الحال لمَّا ناقشت من يُلمز بلقب الطائفة الأخرى فرماني بلقب الأولى، ثم ناقشت من كان منتميًا لتيّار ثالث فرماني بلقبي الطائفة الأولى والثانية معًا، فأيُّ انفلاتٍ علميّ وعبثٍ أخلاقي وفوضى فكرية نعيشها؟! وإن غاب الورع والعدل عمّن لا يريد أن يتقبّل رأيك فسيجد عشرات الطرق لإساءة فهمك، ولن تعوزه ألقاب الإقصاء حينها وبعدها، ولكلٍّ باغٍ مصرع، والله الموعد ولا يُضيع أجر المُحسنين. وطوبى لمن خرج من الدنيا سليم الصدر طاهر القلب على عباد الرحمن.

❊❊❊❊❊

إجلالُ العلماءِ مع القطع بعدم عصمة فردٍ بعينه

إن العلماء للناس ضرورة كضرورة المريض للعافية والمسافرِ للنجم الهادي، وسئل أهل مكة: كيف كان عطاء فيكم؟ فقالوا: كان مثلَ العافية، لا نعرف فضلها حتى تُفْقَد.

وكثيرٌ من النزاع والخصومة والبغي والفُرقة حدث حين تجاوز العلماءَ من ليس منهم، وأسقطهم من لم يعرف قدرَهم. ولقد تنبّه علماء الأمة لهذا الخطر المستشير والخطل المستطير فصدحوا بحرمة ذلك السبيل وخطر ذلك المَهْيَع، وأنّ مَنْ كان هَمُّه تسقّطُ عثراتِ أهل العلم والدعوة الإصلاح واصطياد زلاتهم وتكبير عيوبهم وستر حسناتهم وطعن نيّاتهم والتأليب عليهم فهو ضالٌّ ظالم، فأصدروا وكرروا بيانات وفتاوى ووصايا سواء من هيئات جماعية كهيئة كبار العلماء أو بيانات وفتاوى فردية، وتأمل فتاوى ابن باز والعثيمين والألباني والجبرين والفوزان والقعود والبراك وآل الشيخ في كثير من الراسخين من أهل الزمان، إضافة لما كتبه السابقون من كتب ورسائل في ذلك، حتى تعلم أنهم قد حذّروا الناس من هذا المسلك الموخم الرديء، وفيهم كفاية ومَقنعٌ بحمد الله لمن أراد برْدَ السكينة في صدره وثلج اليقين في قلبه، أما الهاوي فلا يرده عن هواه انتطاح القَمَرَين أمامه.

ومهما خَتَلَ بعضُ أهل التيارات بقطع فتاوى عن سياقها وسباقها، أو تعميمها وقد خُصِّصت، أو تشخيصها وقد عُمّمت، أو توصيفها بما لم يُرده

صاحبها، أو تتبّع شاذّةٍ لعالم لم يقصد بها ما قصدوه ولم يحملها على ظهر من حملوه.. في سيلٍ من مكرٍ معيب وانتصارٍ للهوى؛ فهو مكشوف مخذول، فلا يحيق المكر السيء إلا بأهله، والله تعالى لا يُتَقرّبُ إليه بمعصيته، وعند الله تجتمع الخصومُ، والسعيدُ من عُوفي، ومهلًا يا زارعِ الريحَ لتحصُدَنّ الزوبعة.

اظلـمْ كـما شـئتَ لا أرجوكَ مرحمـةً   إنّـا إلى الله يــومَ الحــشر نختصــمُ

لقد صاح العلماءُ فيمن خاف الوعيد من الاسترسال في ذلك وأنه منحدرٌ زلق، نهايتُه النزاع والفشل وذهاب الريح في الدنيا، ثم قبض الريح صفرًا من حسناتٍ رجاها أهلُوها غدًا ولكن لم ينالوها، لأنها لم تكُ حسناتٍ أصلًا، أو لأنها قد اقْتُصّتْ منهم في ديوان المظالم، وعساها أن تكفي عن مراكمة خطايا العباد على الظهر الظالم لهم في الدنيا.. رحماك ربي. ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ [النحل: ٢٥] وعند مسلم(١) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون من المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «**إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه؛ أُخذ من خطاياهم فطرحت**

(١) (١٨/٨) (٢٥٨١) (٥٩).

عليه، ثم طرح في النار».

إن العالِم بشرٌ مُعَرّضٌ للخطأ في فتواه، سواء من جهة عدم إدراك الصواب والتحرير، أو من جهة طريقة البيان والتقرير، أو حتى من جهة النيّة والتجريد، فيطير بذلك أهلُ عاهات الشهوات والشبهات، فينشرون خطأ الفقيه، ويُطلقون ما قيّدَه، ويُعمّمون ما خصّصه، ويقيسون على فتواهُ ما ليس منها، إذّ همُّهم شهواتُهم لا هداياتُهم، وزلَّة العالِم زلّةُ العالَم ومضروب لها الطبل، نعوذ بالله من فتنة القول والعمل.

إن حَمَلة العلم يصِلُون ما أمر الله به أن يوصل، ويحفظون أقدار أولي الفضل والعلم والسابقة، ولا يعرف الفضل لأولي الفضل سوى أهل الفضل. والعالِمُ العامل في المحلِّ رحمةٌ من الله وبركة على أهله تمشي على قدمين، قال يوسف بن أسباط: «كان أبي قدريًّا، وأخْوالي روافض، فأنقذني الله بسفيان». وتأمل جميل ثناء ابن القيم على شيخه ابن تيمية لمّا كان سببًا ـ بإذن الله ـ للأخذ بيده للسنة المحضة، بل حتى كتابُ العالم وتسجيلُ صوته فيه خير عميم عبر تتابع السنين.

والموفّقون هم من يحفظون قدر العالِم ويُجلّونه، حتى وإن تعثّر ببعض الأخطاء العلمية أو المسلكية أو المنهجية أو الاجتهادات التي لا تُخرجه من أصول أهل السنة الكليّة، فلكلّ جوادٍ كبوة، ولكلّ عالمٍ هفوَة، ولكلّ صارمٍ نبْوَة. قال سعيد بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس من شريفٍ ولا عالمٍ ولا ذي فضلٍ إلا وفيه عيب. ولكن من الناس من لا ينبغي أن تُذكر عيوبُه، ومن كان فضلُهُ

أكثر من نقصه؛ وُهِبَ نقصُهُ لفضله»[١]. وقال الحافظ ابن عبد البر[٢] عند شرحه لحديث الوَبَاء الذي وقَع بالشَّام، ورجَع عنه عمَر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ولم يدخُلْها: «فيه دَليلٌ على أن المسألة إذا كان سَبيلها الاجتهادَ، ووقع فيها الاختلافُ، لم يَجزْ لأحَد القائلين فيها عَيبُ مُخالفِه، ولا الطّعنُ عَليه؛ لأنَّهم اخْتلَفوا[٣] وهم القُدوة، فلم يعِب أحدٌ منهم على صاحِبه اجتهادَه، ولا وجَد علَيه في نفسه».

وقال الحافظ الذهبي رَحِمَهُٱللَّهُ دفاعًا عن محمد بن نصر المروزي رَحِمَهُٱللَّهُ: «ولو أنا كلّما أخطأ عالمٌ في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفورًا له قمنا عليه وبدّعناه وهجرناه؛ لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن منده ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة»[٤]. وقال في ابن خزيمة: «ولو أن كلّ من أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه وتوخّيه لاتّباع الحق أهدرناه وبدّعناه؛ لقلّ من يسلم معنا من

---

(١) التمهيد (١١/ ١٧٠)، الكفاية (٧٩).

(٢) التمهيد (٨/ ٣٦٧).

(٣) يعني الصَّحابة. بل سادة الصحابة، فقد شاور عمر المهاجرين فاختلفوا، ثم شاور الأنصار فاختلفوا، ثم شاور مشيخة قريش فلم يختلفوا في الرجوع للمدينة وعدم دخول البلد الموبوء، فمال لرأيهم وناظر عليه أبا عبيدة ابن الجراح، ثم جاء عبد الرحمن بن عوف -وكان غائبًا- بالنص الذي رفع النزاع.

(٤) السير (١٤ / ٤٠).

الأئمة»[(١)]. وقال دفاعًا عن الغزالي: «الغزالي إمام كبير، وليس من شرط العالم ألا يُخطئ»[(٢)] ألا ما أجمل الإنصاف وأعزَّه وأروَعه وأوْرَعه!

وتأمل اعتذارات ابن القيم ودفاعه عن شيخه الهروي صاحب منازل السائرين، وكذلك احتمال الأعذار من ابن كثير لكثير من رجال البداية والنهاية، وقبلهما شيخهما ابن تيمية في علماء عصره ومن سبقهم ممن كبرت في العالمين أخطاؤهم، مع ذلك لم يبرّر لهم أخطاءهم ولكن بسط لنا أعذارهم. وفي الصحيحين أن رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه قال: **«ولا أحد أحبّ إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحبّ إليه المِدْحَة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة»**[(٣)].

❋ والمقصود هو نشر ثقافة التماس العذر. من الجميع للجميع. وإحسان الظن والإنصاف واحتمال الأخطاء. مع عدم متابعتهم فيها.. فثمّة خيط رفيع بين تقدير العلماء وتقديسهم، فالأول واجب محمود والثاني ممنوع. وبعض الناس فرّ من الثانية فألحق بها الأولى، وهذا خطأ، فالعلم رَفَعَهُم.

وكيف لا يكون ذلك لهم وهم مِلْحُ الناس وزينةُ الأرض وحَلَى الدنيا، وهم نجوم لا يضل معها الساري، ومنهلٌ يرتوي منه الصّادي، ولا تزال قلوب العابدين بعلومهم معمورة، وصدورهم من وصاياهم مأهولة، والعلماء

---

(١) السير (١٤/ ٣٧٤).

(٢) السير (١٤/ ٣٣٩).

(٣) صحيح البخاري (٩ / ١٢٣) (٧٤١٦) وصحيح مسلم (٢ / ١١٣٦) (١٤٩٩).

شهب الله على المبطلين، ورجومه على رؤوس المجرمين، وعلى امتداد تاريخ الأمة المجيد نجد أن الأمة قد مرّت بمنعطفات صعبة للغاية، وكان فضل توجيهها بعد الله على أيدي علماءٍ حفظوا الأمانة فحفظتهم، اللّٰهم أكثر مخلصيهم وأقوياءهم وزُهّادهم إله الحق.

ولنأخذ مثالين على بَرَكَةِ العالم وحسن أثره في الناس، وعظيم صبره وجميل إنصافه، ورِفْقِهِ في الحِجَاج مع قوّة البرهان وشدّة الإلزام، وهما خبر ابن عباس وخبر جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكلاهما مع أشدّ الناس في الخصومة، وهم الخوارج.

ففي خَبَرِ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مع أهل النهروان: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنّه لما اعتزلت الخوارجُ دخلوا دارًا وهم ستة آلاف، وأجمعوا أن يخرجوا على علي بن أبي طالب وأصحاب النبي ﷺ معه. قال: وكان لا يزال يجيء إنسان فيقول: يا أمير المؤمنين، إن القوم خارجون عليك . يعني عليًّا . فيقول: دعوهم، فإنّي لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، وسوف يفعلون. فلما كان ذات يوم، أتيتُه قبل صلاة الظهر فقلت له: يا أمير المؤمنين، أبرِدْنَا بالصلاة[1]، لعلي أدخل على هؤلاء القوم فأكلمهم. فقال: إني أخافهم عليك[2] فقلت: كلّا،

---

(١) أي أخّر صلاة الظهر عن أول وقتها، وهو سنة عند اشتداد الحرّ، وغرضه إفساح الوقت له كي يدرك صلاة الجماعة بعد المناظرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) فهم قد قتلوا فيما بعد ابن خباب لما مرّ بهم وسُرِّيته الحامل وقتلوا غيره كثير، لاستحلالهم دماء مخالفيهم، فهم يكفّرون من ليس معهم، ففتنتهم شديدة وشرّهم =

وكنتُ رجلًا حسنَ الخُلُقِ لا أوذي أحدًا، فأَذِنَ لي.

فلبستُ حُلّةً من أحسن ما يكون من اليمن، وترجّلت(١)، ودخلتُ عليهم نصف النهار، فدخلتُ على قومٍ لم أر قومًا قطّ أشد منهم اجتهادًا، جِباهُهم قرحتْ من السجود، وأيديهم كأنّها ثَفِنُ الأبل(٢)، وعليهم قُمُصٌ مُرَحَّضَةٌ(٣)، مشمّرين، مُسَهَّمَة وجوههم(٤) من السهر، فسلّمتُ عليهم،

=
مستطير، ووُصفوا في السنّة بشرِّ الخلق والخليقة.

(١) أي سرّح شعر رأسه.

(٢) أي: رُكَبِها الغليظة.

(٣) أي: مغسولة. وفي حديث أبي ثعلبة، سأل رسول الله ﷺ عن أواني المشركين فقال: «**إن لم تجدوا غيرها فارْحَضُوها بالماء وكلوا واشربوا**»، أي اغسلوها. والرُّحاضةُ: الغُسالةُ. لسان العرب (٧ / ١٥٣) وأصلُ حديث أبي ثعلبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الصحيحين: البخاري (٥١٦١) ومسلم (١٩٣٠).

(٤) أي: متغيرة ألوانها من الصيام والقيام، وهذا من إنصافه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فانظر عظيم فتنة إبليس بهم، كيف وهم مع هذا الحال من شديد العبادة وابتغاء التقوى ودقيق الورع، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ ولهم نصيب من قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٤]. وما من أمرٍ لله إلا وللشيطان فيه حظّان لا يُبالي بأيّهما أسقط العباد: الزيادة والنقصان.

وفي مصنف ابن أبي شيبة (٣٩٠٥٧) عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنّهُ ذَكَرَ ما يلقى الخوارجُ عند القرآن، فقال: «يؤمنون عند مُحكمِهِ، ويَهلَكون عند مُتشابهه». ويعني قول الله
=

=

تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧- ٨] قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا دعاء الراسخين في العلم». وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٤﴾.

وتأمل مدى ضلالهم في قصتهم مع التابعي الجليل عبد الله بن خبّاب وامرأته، وقد ساقها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٧/٣١٨) بقوله: «وكان من جملة من قتلوه عبد الله بن خبّابٍ صاحبِ رسول الله ﷺ، أسروه وامرأته - ورُويَ أنها سُرّيته - معه وهي حامل فقالوا: من أنت؟ قال: أنا عبدُ الله بنُ خبابٍ صاحبِ رسول الله ﷺ، وإنكم قد روعتموني. فقالوا: لا بأس عليك، حدثنا ما سمعت من أبيك فقال: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ستكون فتنةٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ خيرٌ من الماشي، والماشي خيرٌ من الساعي»** رواه أحمد (١٤٤٦) وصححه ابن تيمية وأحمد شاكر، وأصله في الصحيحين. فاقتادوه بيده، فبينما هو يسير معهم إذ لقي بعضهم خنزيرًا لبعض أهل الذمة فضربه بعضُهم فشقّ جلده، فقال له آخر: لم فعلت هذا وهو لذمي؟ فذهب إلى ذلك الذمي فاستحلّه وأرضاه، وبينا هو معهم إذ سقطت تمرةٌ من نخلة فأخذها أحدهم فألقاها في فمه، فقال له آخر: بغير إذنٍ ولا ثمن، فألقاها ذاك من فمه، ومع هذا قدّموا عبد الله خبّاب فذبحوه، وجاؤوا إلى امرأته فقالت: إني

=

فقالوا: مرحبًا يا ابن عباس، ما جاءَ بك؟

قال: قلت: أتيتكم من عند المهاجرين والأنصار، ومن عند صِهْر رسولِ الله ﷺ عليٍّ، وعليهم نزل القرآن، وهم أعلمُ بتأويله. فقالت طائفة منهم: لا تُخاصموا قريشًا فإن الله قال: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] فقال اثنان أو ثلاثة: لنُكَلِّمنّه.

فقلت لهم: تُرى ما نَقَمتُم على صهرِ رسول الله ﷺ، والمهاجرين والأنصار، وعليهم نزل القرآنُ، وليس فيكم منهم أحد، وهم أعلم بتأويله منكم؟ قالوا: ثلاثًا(١). قلت: ماذا؟ قالوا: أمّا إحداهُن: فإنّه حَكّم الرجال في أمر الله عز وجل، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠] فما شأنُ الرجال والحكم بعد قول الله عز وجل؟ فقلت: هذه واحدة، وماذا؟ قالوا: وأما الثانية: فإنه قاتل ولم يَسْبِ ولم يَغْنَم، فلئن كانوا مؤمنين ما حَلّ لنا قتالهم وسِباهم. قلت: وماذا الثالثة؟ قالوا: إنهَ مَحَا نفسه من أمير المؤمنين، إن لم يكن أميرَ المؤمنين، فإنه لَأَميرُ الكافرين. قلت: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: كفانا هذا.

=

امرأة حبلى، ألا تتقون الله، فذبحوها وبقروا بطنها عن ولدها» عائذًا بربي من مضلات الفتن.

(١) وفي هذا: التثبّتُ من استدلال المخالف، فقد تكون حجةً؛ فيلزمك قبولها والإذعان والتسليم لها، وقد تكون شبهةً؛ فعليك أن تكشفها له، وتبطلها في عينيه.

قلت لهم: أما قولكم: حَكّم الرجال في أمر الله عز وجل، أنا أقرأ عليكم في كتاب الله عز وجل ما ينقض قولكم، أفترجعون[١]؟ قالوا: نعم. قلت: فإن الله عز وجل قد صَيَّر من حُكمِهِ إلى الرجال في ربعِ درهمٍ ثمن أرنب، وتلا هذه الآية: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ إلى آخر الآية [المائدة: ٩٥]. وفي المرأة وزوجِها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ إلى آخر الآية [النساء: ٣٥]. فنشدتُكم بالله، هل تعلمون حكمَ الرجال في إصلاح ذاتِ بينهم، وحقن دمائهم، أفضلَ، أم حكمَهم في أرنب وبُضْعِ امرأة؟ فأيّهما ترون أفضل؟ قالوا: بل هذه. قال: خرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم[٢].

قلت: وأما قولكم: قاتَلَ ولم يسْبِ ولم يغنم، فَتَسْبُونَ أمَّكم عائشة؟ فوالله لئن قلتم: ليست بأمِّنا، لقد خرجتم من الإسلام، ووالله لئن قلتم: نَسبيها نستحلُّ منها ما نستحل من غيرها، لقد خرجتم من الإسلام، فأنتم بين الضلالتين، إن الله عز وجل قال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦] فإن قلتم: ليستْ بأمّنا، لقد خرجتم من الإسلام، أخرَجتُ من هذه؟ قالوا: نعم.

---

(١) وفي هذا إلزام الخصم بالرجوع عن قوله إن تبين له بطلانه، وقد كانت هذه طريقة رسول الله ﷺ مع اليهود وغيرهم.

(٢) وتأمل حسن السياق والترتيب والإلزام، وإخلاء شبهة الخصم من مضمونها ومبرّرها.

وأما قولكم: مَحَا نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بمن تَرضَون . أي رسولَ الله ﷺ: يوم الحديبية، كاتبَ المشركين أبا سفيان بن حرب وسهيل ابن عمرو، فقال: **«يا عليّ، اكتب: هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله»**، فقال المشركون: والله لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك. فقال رسول الله ﷺ: **«اللّهمَ إنك تعلمُ أني رسولُك، امْحُ يا علي، اكتب: هذا ما كاتب عليه محمد بن عبد الله»**، فوالله لرسولُ الله ﷺ خيرٌ من عليٍّ، فقد محا نفسه. قال: فرجع منهم ألفان، وخرج سائرُهم فقُتلوا»(١). وقد وقع عند عبد الرزاق والطبراني أن عدد الحرورية حين خرجوا كان أربعة وعشرين ألفًا، رجع منهم بعد مناظرة ابن عباس عشرون ألفًا، وبقي أربعة آلاف، فقتلوا، والمُعتمدُ هو الألفان من الستة آلافٍ بحَسَبِ رواية ابن عباس نفسه، والله أعلم.

أما خبرُ جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فقد حدّث به يزيدُ بن صهيب الفقير، قال: «كنت قد شَغَفَنِي(٢) رأيٌ من رأي الخوارج. فخرجنا في عِصَابةٍ ذوي عدد، نريد أن نحجّ ثم نخرج على الناس(٣). قال: فمررنا على المدينة، فإذا جابر بن

---

(١) عبد الرزاق في المصنف (١٨٦٧٨) والطبراني (١٠٥٩٨) والحاكم (٢/ ١٥٠) وغيرهم، وذكر أحمد في المسند (٣١٨٧) طرفًا من القصة بسند جيد. وقد رويت قصة أمر النبي ﷺ بمحو «محمد رسول الله» في البخاري (٢٧٣١) و(٢٧٣٢) ومسلم (١٧٨٤).

(٢) أي تملّكني بأن دخل شغاف قلبي، والشغافُ: غلافُ القلب.

(٣) ولا أعلم أنّ الخوارج جالدوا المشركين يومًا، وتأمّل الحال مع الغلاة في هذا الزمان كيف يقتلون المسلمين ويدعون المشركين، متذرّعين بأنّ القريب مرتدّ، والمرتدّ يُبدأُ به قبل الكافر الأصلي، هكذا بلا إقامة حجة ولا إبانة محجّة، كيف والحجة عليهم لا لهم!
=

=

﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ وهذه خصلة الخوارج فقد وصفهم رسول الله ﷺ بقوله: «**يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرميّة، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنّهم قتل عاد**». البخاري (٧٤٣٢) ومسلم (١٠٦٤) فمشكلتهم في ضلال العلم، لا في نقص التعبد وقوّة الإرادة، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ فمن هذه الوجه فيهم شبه من النصارى الضالين. وقد روى عبد الرزاق في تفسيره (٢٩٩/٢) والحاكم في المستدرك (٥٢٢/٢) عن أبي عمران الجوني قال: مرَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ بديرِ راهبٍ، فناداه: يا راهب، يا راهب، فأشرف، قال: فجعل عمر ينظر إليه ويبكي. فقيل له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل في كتابه: ﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ٤﴾ فذاك الذي أبكاني. وإن كان هذا الخبر لا يثبتُ لأنّ أبي عمران لم يدرك زمان عمر، والخبر موقوفٌ بكل حال، إنّما المراد مغزى القصة لا حقيقتها، ففيها قرعٌ لفؤاد المؤمن تنبيهًا لعظم شأن هدايته للإسلام والإيمان، ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ فلا نعمة تضارعها.

واعلم أنّ كثيرًا من أهل الضلال من الملل والنحل هم أذكى منك عقولًا؛ لكن الله تعالى لم يشأ لهم الهدى، فالهدى محض توفيق الله وحده. واعتبر ذلك بحال ذلك المنصّر الأمريكي الضال المضل إذ يقول: يعزّ عليّ حرص المسلمين على ارتياد المسجد خمس مرات ودينهم باطل! ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ﴾.

عبد الله جالسٌ إلى سارية يُحدِّثُ عن رسول الله ﷺ، وإذا هو قد ذكر الجَهَنَّمِيِّين(١)،

(١) وهم الذين يخرجهم الله تعالى من النار فيدخلهم الجنة، وهم من أهل الكبائر من الموحدين، وهذا ينقضُ أصلَ الخوارج الأعظم بقولهم بتكفير مرتكب الكبيرة مطلقًا، فحديث الشفاعة ثابت في الصحيحين، وفيه ذِكْرُ الجهنّميين.
لذلك أوصى عليٌّ ابنَ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن يُحاجج الخوارج بالسنة، وقال له: «لا تجادلهم بالقرآن؛ فإن القرآن حمّال وجوه، ولكن جادلهم بالسنة، قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين؛ فأنا أعلم بكتاب الله منهم، في بيوتنا نزل، قال: صدقت، ولكن القرآن حمّال ذو وجوه، تقولُ ويقولون. ولكن خاصمهم بالسنن، فإنهم لن يجدوا عنها محيصًا». وقد عزاه السيوطي في الإتقان (٢/١٢٢) إلى ابن سعد. كذلك نُقِلَ عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لا تجادلوهم بالقرآن؛ فإنَّه حمّالُ وجوهٍ، ولكن حاججُوهم بالرواية». أي بالسنة المروية.
لذلك فالخوارج لا يعدون السنة من مصادر التلقي لديهم، ولو علموا تأويل القرآن؛ ما فعلوا، فالسنة شارحة القرآن، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] فالمبيِّنُ هو رسول الهدى ﷺ. وقد أمر الله تعالى في القرآن أكثر من أربعين مرة بطاعة رسول الله ﷺ. ولقد حدّث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحديث رسول الله ﷺ: **«لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمّصات، والمتفلِّجات للحسن، المُغيّرات خلق الله»**، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد، يقال لها: أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأتته، فقالت: ما حديث بلغني عنك: أنك قلت: كذا وكذا. وذكرته؟ فقال عبد الله: وما لي لا ألعنُ من لعنَ رسولُ الله ﷺ وهو في كتاب الله؟ فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف، فما وجدته، قال: إن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] قالت: إني أرى شيئًا من هذا على امرأتك الآن؟ قال: اذهبي
=

فقلت: يا صاحب رسول الله ﷺ[1] ما هذا الذي تحدثوننا؟ والله يقول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾ [آل عمران: ١٩٢] و﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ

=

فانظري، فذهبت فلم تر شيئًا، فجاءت، فقالت: ما رأيت شيئًا، فقال: أما لو كان ذلك لم نجامعها. رواه البخاري (٦/١٨٤) ومسلم (٦/١٦٦) ومعنى المتنصمات: من النمص وهو ترقيق الحواجب وتدقيقها بالموسى ونحوه طلبًا للحُسن، والنامصة التي تصنع ذلك بالمرأة، والمُتنصمة التي تطلبه. والمتفلجات: هنّ اللاتي يطلبن الفلج بصناعة وهو تباعد ما بين الثنايا. ومعنى لم نجامعها: أي لم أجتمع معها، كناية عن طلاقها إن هي فعلت.

وقد تنبأ رسول الله ﷺ بوجود من لا يقبل سُنته مصدرًا لتلقِّي الشرع، فقال: «**يوشك أحدُكم أن يُكذِّبني وهو متكئ على أريكته! يُحدِّثُ بحديثي، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإنّ ما حرّم رسول الله ﷺ مثل ما حرّم الله**». رواه أحمد (١٧١٩٤) وغيره وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٨٦). وتأمل حديث معاذة العدوية ـ زوجة صلة بن أشيم ـ قالت: سألت عائشة فقالت:ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: أحروريةٌ أنتِ؟! قلت: لست بحرورية، ولكني أسأل. قالت: «كان يصيبنا ذلك، فنؤمرُ بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة». رواه مسلم (٣٣٥) والحروريَّة: طائفةٌ من الخوارج نُسبوا إلى حَرَوْرَاء، قرية على ميلين من الكوفة. قال العيني في عمدة القاري (١٦/٤٨٦): «وأنكرت عليها عائشةُ السؤال، وخشيت عليها أن تكون تلقَّته من الخوارج الذين جرت عادتهم باعتراض السنن بآرائهم، ولم تزدها على الحوالة على النص، فكأنها قالت لها: دعي السؤال عن العلّة إلى ما هو أهم من معرفتها، وهو الانقياد إلى الشرع».

(١) ففي يزيد خير بتوقيره للصحابة، لذلك يسّر الله تعالى له الهدى على أيديهم رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ.

مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] فما هذا الذي تقولون؟

قال: أتقرأُ القرآن؟ قلت: نعم، قال: فاقرأ ما قبله(١)، إنه في الكفار، ثم قال: فهل سمعتَ بمقام محمدٍ الذي يبعثه الله فيه؟(٢) قلت: نعم، قال: فإنّه مقام محمد ﷺ المحمود الذي يُخرج الله به من يخرج، قال: ثم نَعَتَ وضعَ الصراط، ومرَّ الناس عليه، قال: وأخافُ ألا أكون أحفظ ذاك(٣)، قال: غير أنه قد زعم أن قومًا يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها(٤)، قال: فيخرجون كأنهم عيدان السماسم(٥)، قال: فيدخلون نهرًا من أنهار الجنة، فيغتسلون فيه،

---

(١) أي اقرأ سياق الآية وسباقها، فلا تكن كمن قرأ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤] دون ما بعدها. وأمثال ذلك في القرآن العزيز كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ فيبتدئُ من قوله: ﴿مَّا وَعَدَنَا﴾. ومثل أن يبتدئ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ونحو ذلك. ومراد جابر التنبيه للسياق العام لخبر الآيات، وأنها ليست كما فهمها الخوارج الذين اقتصروا على جملة دون سياقها.

(٢) وهنا يحتج جابر بالسنة التي فيها قطع لنزاع المخالفين، وهذا تمام الفقه، فيشرح بالسنة قول الله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ فقرّره بالقرآن، ثم ألزمه بالسنة.

(٣) وهذا من وَرَعِه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٤) وإلى هذا الموضع قَصَدَ جابرٌ، لأن فيه إبطالٌ لأصل الخوارج في تكفير صاحب الكبيرة، وهو ما انتبه له يزيد، وكان فاتحة خير لتوبته وأصحابه من منهجهم المُظلم.

(٥) عيدان السماسم: السماسم: جمع سمسم، وتكون عيدانه سودًا دِقاقًا بعد أخذ ثمرة =

فيخرجون كأنهم القراطيس. فرجعنا، قلنا: ويحَكُمْ، أترون هذا الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ؟ فرجعنا، فلا والله ما خرج غير رجل واحد، أو كما قال»(١). ولحديث الشفاعة العظمى روايات أوفى في الصحيحين وغيرهما.

وتأمل بركة العالم في تفريج كُربات الشُّبه وحلّ معضلاتها وتطييب قلوب أصحابها وشرح صدورهم بنور العلم والإيمان، فمن ذلك: «أنّ فتًى من قريش سأل سعيدَ بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال له: يا أبا عبد الله، كيف هذا الحرف، فإنّي إذا أتيتُ عليه تمنّيت أنّي لا أقرأ هذه السورة(٢): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ [يوسف: ١١٠]؟ قال: نعم، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يُصدّقوهم، وظنّ المُرسَلُ إليهم أنّ الرسلَ كُذِبوا. فقال الضحاك بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجل يدعى إلى علم فيتلكّأ! لو رحلت في هذه إلى اليمن كان قليلًا. وسأل مسلمُ بن يسار سعيدَ بن جبير عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه، وقال: فرّج الله عنك كما فرّجت عنّي»(٣).

ومن كان لهم مقام في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله ونحو ذلك من

=

السمسم ورميها، فشبّه الجهنميين الذين أخرجهم الله من النار إلى الجنة بها أثناء إخراجهم من النار بعدما امتحشتهم وأحرقتهم، عياذًا بالله تعالى.

(١) مسلم (١/١٢٣).

(٢) وهذا من شؤم الجهل.

(٣) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٢٦).

مقامات الإسلام فإن إقالة عثرته متأكدة في حقه أبلغ من غيره، فحفظ السابقة من هدي السلف. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعًا أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدمٌ صالحٌ وآثار حسنةٌ، وهو من الإسلام وأهله بمكانٍ، قد تكون منه الهفوة والزلَّة، هو فيها معذورٌ بل مأجورٌ لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتبع فيها، ولا يجوز أن تُهدر مكانته وإمامتُهُ في قلوب المسلمين»(١). وتأمل ما روته أم المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود»**(٢).

ولله مُعاذٌ ما أفقهه، فعن يزيد بن عميرة عن معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «تكون فتنةٌ يكثر فيها المال، ويُفتح فيها القرآن حتى يقرأه المؤمن والمنافق والصغير والكبير والرجل والمرأة، يقرأه الرجل سرًّا فلا يُتبَعُ عليها، فيقول: والله لأقرأنّه علانية، ثم يقرأه علانية فلا يُتبع عليها، فيتخذ مسجدًا ويبتدع كلامًا ليس في كتاب الله ولا من سنة رسول الله ﷺ، فإيّاكم وإيّاه فإنّ كلّ ما ابتدع ضلالة.

قال يزيد: ولما مرض معاذ بن جبل مرضه الذي قُبض فيه كان يُغشى عليه أحيانًا ويفيق أحيانًا، حتى غُشي عليه غشيةً ظننّا أنه قد قُبض، ثم أفاق وأنا مقابله أبكي، فقال: ما يبكيك؟ قلت: والله لا أبكي على دنيا كنتُ أنالُها

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٨٣).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٧٥) وغيره، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٣٨) وصحيح الجامع (١١٨٥).

منك، ولا على نسب بيني وبينك، ولكن أبكي على العلم والإيمان[(١)] الذي أسمع منك يذهب.

قال: فلا تبك، فإنّ العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما، فابتغه حيث ابتغاه إبراهيم عليه الصلاة السلام، فإنه سأل الله تعالى وهو لا يعلم وتلا: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] وابتغه بعدي عند أربعةِ نفرٍ، وإن لم تجده عند واحد منهم فسلْ عن الناس أعيانه؛ عبدِ الله بن مسعود وعبدِ الله بن سلام وسلمانَ وعويمر أبي الدرداء. وإياك وزيغةَ الحكيم، وحكم المنافق»[(٢)]. وفي رواية له عن معاذ. وفيها: «وأحذِّركم زَيغةَ الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافقُ كلمةَ الحق» قال: قلت لمعاذ: وما تدري رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأنَّ المنافق يقول كلمة الحق؟ قال: «بلى، اجتنِبْ من كلام الحكيم المشْتَهِراتِ التي يقال: ما هذه؟ ولا يَثْنِينَّك ذلك عنه، فإنّه لعله يُراجِعُ، وتَلَقَّ الحق إذا سمعته، فإن على الحق نورًا»[(٣)].

فرضي الله عن معاذ إذ أعطانا معيارًا ومنهاجًا في التعامل مع أهل العلم ومن تشبّه بهم ممن ليس منهم، حالَ صواب الجميع أو خطئهم. وانظر لسوسة القلب حين تنحت فيه حُبَّ التصدّر والظهور والعلو على الخلق، وكيف قرأ

---

(١) فمجالسة العلماء العاملين تزيد الإيمان في القلب تعليمًا واقتداءً.

(٢) المستدرك (٤ / ٤٦٥) (٨٤٤٠).

(٣) أبو داود (٤٦١١) بسند حسن.

القرآن سرًّا فلم يتبعه الناس في فتنته، فقرأه جهرًا فلم يتبعوه، حتى آل به الأمر أن اتّخذ مسجدًا وأحدث بدعًا وضلالات. فمقصودُه ليس وجه الله والدار الآخرة مهما حفظ من العلوم ودرس على المشايخ وقرأ من الكتب، بل العلو في الأرض عن طريق التصدر على منابر العلم، فالعلم عبادة مفتقرةٌ لإخلاص، فاحذر يا طالب العلم أن تبتغيَ العلوَّ في الأرض على أقرانك وعلى الناس، وابتغِ سموَّ السماء بتقواك ومنازلَ الآخرة بنصحك وتواضعك فإن الله تعالى يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

فرأسُ العلم تقوى الله حقًّا ... وليس بأن يُقال لقد رأستا
إذا ما لم يُفِدكَ العلم خيرًا ... فخيرٌ منه أن لو قد جهلتا
وإن ألقاكَ فهمُك في مهاوٍ ... فليتَك ثمّ ليتك ما فهِمْتا

وتأمل فقه معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تحذيره من زيغة الحكيم، لذلك فلا تُعنِق فَرِحًا بكل نكتةٍ علميّة انقدحت لك، فما كلّ ما يلمع ذهبًا ولا كل بيضاء شحمة، وكم من قدحةٍ قاتلة، وكم من دهليزِ جهل على باب فِكْرَة، وكم أعرض الراسخون عن كدر مسائل صانوا بها صفاء علومهم.

وبالجملة: لا تفرح بالطارف على التليد، واجتنب في العلم الغرائب، فالغريب مريب. وعليك بجادّة السالفين الأُوَل ذوي الأمر الأول والنمط الأوسط، الذين وقفوا عن علمٍ، وكفّوا عن ورع.

وحينما تحدثك نفسك يا طالب العلم بظَفَرٍ في مسألة، فلا تظنّ أنّ الأكابر

قد كفّوا عنها لجهل، لذا تأنَّ كثيرًا حتى تعلم سبب رغبتهم عنها فلعله الصواب، واحذر من أن تتخذ قولًا أو عملًا ليس لك فيه سلف صالح ولا إمام هدى، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، وسَبْعُ الأفكارِ أضْرَى من سبعِ الأجساد.

فقل لمن يدّعي في العلم معرفةً   حفظتَ شيئًا وغابتْ عنك أشياءُ

واعلم أن التريّث والتحرير ومشاورة أهل الاختصاص لها ثمراتها: فقد يكون الواردُ مطروقًا قد فصّله السابقون ولم تعلم به، أو كان سببه ومقتضاه قائمًا فتركوه تورّعًا، أو تبيّن لهم بطلانه لِعِلّة لم تدركها.. أو غير ذلك.

ولا يعني هذا ترك الاشتغال بكل واردٍ فكريّ جديد، فهذا ليس بمقصود، فالتقليد المحض ليس بعلمٍ، والتقيّدُ بقيدِ الأمر السائد قصورٌ في التحصيل، والإبداعُ النافع مطلب شرعي، إنما المقصود هو التمهّل والتريّث والأناة، والمشاورة للراسخين لتحرير الوارد من فروع العلم قبل نشره، فهو في يدك حتى يطير في الأرجاء، فإن كان مُحرّرًا فنعمّا هو، وإن كان غير ذلك فعليك غُرمُهُ وتَبِعَتُه. وبالجملة: فإياك أن تستوليَ برودةُ عادتك على حرارة قريحتك؛ فيستبدّ بك التقليد الجافّ وتنطفئ شعلتُك المضيئة، حينها تكون قد كسرت شراعك ودفنت إبداعك.

ومما يؤسف له أن بعضًا من نوازل الأمّة المُلحّة (العصريّة) لا نجد لبعض الأكابر حديثٌ فيها ترفّعًا أو تزهّدًا أو انشغالًا أو استصغارًا وتساهلًا لشأنها. مع انتشارها بين الناس كنار الهشيم. فنشأ عن اعتزال هؤلاء الكلام فيها أن

انبرى لها تيّارٌ غير مَرْضِيٍّ يُلقِّب نفسه بالتنويري، فاقتحم مجالها وأسّس وبنى وأعلى منازله فيها حتى كادت أن تكون حكرًا عليه، بعد ذلك أخذ في توجيه الناس بحسب خلفيّته المُميّعة لثوابت الشريعة، فاستيقظ أصحابنا وصاحُوا بأهله. بعد خراب البصرة. وخير لهم أن يصيحوا بأنفسهم أوّلًا.. فقد ذهبتْ ليلى فما أنت صانعُ!

ولله درّ ابن مسعود ما أحكمه حين قال: «إنكم لن تزالوا بخيرٍ ما دام العلم في كباركم، فإذا كان العلم في صغاركم سفَّه الصغيرُ الكبيرَ»(١). ولقد مرّ الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ على جماعة يتفقّهون، فقال: «ألهم رأسٌ؟» قالوا: لا. قال: «إذن لا يفلحون أبدًا»(٢). ومن بديع شعر عبد الوهاب بن علي المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

متـى يصــلُ العِطــاشُ إلى ارتــواءٍ ... إذا اســتَقَتِ البحــارُ مــن الرَّكايَــا
ومــن يُثْنِــي الأصــاغِرَ عــن مُــرادٍ ... إذا جلــس الأكــابرُ في الزَّوايَــا
إذا اســتوتِ الأســافلُ والأعــالي ... فقــد طابــت مُنَادَمَــةُ المَنَايــا

وأحيانًا نظنُّ أننا ننصر قضية ما ونعلي شأنها، بينما نحن في الحقيقة نظلمها ونحط منها، وذلك بعرضها بشكل ضعيف مع تسطيح الردود على ما يورَدُ عليها، فلا بد من مراعاة الجودة في التأصيل والرد.

---

(١) ابن عبد البر في جامع العلم (١ / ١٥٩).

(٢) الفقيه والمتفقه للخطيب (٧٩٠) وانظر: تنبيه الهاجد للحويني حفظه الله (١ / ٢٤).

وعلى كلّ حال فَأنْ تتأخرَ خيرٌ من ألّا تأتي، ولا يزال الميدان والفضاء لحمَلَةِ الكتاب إن صدقوا ما عاهدوا، وعرفوا قيمة تغيّر مفاهيم التعاطي مع مستجدّات العصر، فالناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم.. وجولةُ الحق إلى قيام الساعة.

إن الله تعالى قد جعل العالِمِ بركة للناس، ونجمًا في السماء للحق هاديًا، بما ينشره من علم الرسول ﷺ بقوله وعمله وسمته وخُلُقه، فهو وارثُ تركةِ الرسول ﷺ، وهو الذي يوزّعها على الناس ويَهديهم ـ بإذن الله ـ لها، ولا يزال في الأمة خير ما كان فيها علماء ربانيون يصِلُون حاضرَ الأمة بصدرها الزاهر المنير.

* ورسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة والقدوة الكامل والمثال الأسنى، ومن بعده أصحابه والتابعين والأتباع وأئمة الدين، ومن توفيق الله تعالى لعبده أن يصحب أهل العلم والعمل ويأخذ عن سمتهم وعلمهم وحسن اتّباعهم، فمعاصرة الأحداث تُظهر تفاصيل الاتّباع.

فإن رُمْنا مثالًا عصريًّا حقيقًا بالاحتذاء في زماننا الذي احتوشته الفتن المدلهّمة، فثمّ نجمٌ ساطعٌ أجمعت قلوب أهل السنة على إمامته في الدين، فقد جمع الله له العلم بالكتاب وتأويله، والسنة إسنادًا ومتنًا وفقهًا، ومعرفة بمذاهب الفقهاء وإجماعهم وخلافهم، وسعة اطلاع على أوضاع الأمة في زمانه، مع صِيَانٍ تامّ وورعٍ لازم، ورِقّة قلب ورحمة، ونصح للخلق وحكمة، وخُلُقٍ سامٍ منيف، وخبيئات خير غزيرةٍ كشفها رحيله للآخرة، لقد كان أُمَّةً

قانتًا لله حنيفًا[1]، ولا نزكيه على الله تعالى، ذاكم هو شيخنا وشيخ شيوخنا الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي عاصر هذه الفتن إبّان ظهور قرونها وبروز أنيابها، فكيف كان تعامله معها؟

لقد تعامل معها بحكمة العالم وتجربة الشيخ وحنان الأب وحزم المربّي، فلم يولّ وجهه عنها وينشغل بنفسه، بل لاقاها بعلمه ونصحه وحزمه ورحمته ورفقه.

لقد نظر إلى الفتن بعيني بصيرته، فعينٌ على فتنة التصنيف بين أهل السنة فيما بينهم، فحاول جهده أن يجمع قلوبهم ويقرّب اختلافاتهم ويضيّق الهوّة بينهم برِفقِهِ المعهود ونصحه المشهود، لعلمه أنهم جميعًا دعامة السنة في ذا الزمان الشديد، حتى وإن اختلف معهم في بعض وجهات النظر التي لا يخلو منها عصر، فالله الحكيم قد وزّع الفهوم والعلوم والسَّداد والتوفيق كما وزّع الأرزاق والأعمار والأديان، فالموفّق من حرص على سداد نفسه، ورضي من الناس بالمقاربة، فالسنة في حقيقتها تجمع ولا تفرّق.

أما عين الإمام الثانية فقد كانت على المخالفين سواء كانوا من أهل القبلة أو غيرهم، فأوسع طاقته وبذل جهده في هدايتهم برفق وتلطّف وشفقة وصبر ومصابرة، فلم تأخذه صولةُ الغضب حتى تخرجه عن رفقه، ولم يَقصُر حبل

(١) روى الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (١٧ / ٣١٧) عن الشعبيّ، قال: قال عبد الله ـ أي ابن مسعود ـ: «إنّ معاذًا كان أُمَّة قانتًا لله حنيفا ولم يك من المشركين». فقال له رجل: نسيتَ. قال: «لا ولكنّهُ شبيهُ إبراهيم». والأمَّة: معلِّم الخير، والقانت: المطيع.

لطفه عن بيان ضلال المخاطَب نصحًا له وللأمة مهما كان شأنه. ألا رحم الله ذلك الإنسان الأُمّة.

هي النفسُ إن تبكِ المكارمُ فقدَها فمِن بين أحشاءِ المكارمِ تُنزَعُ

أنّ كثيرًا من أهل العلم لم يستطيعوا التحرر من قالبهم النفساني إزاء الحُكم العلمي والفتوى الصادرة منهم، فتصطبغ ـ أحيانًا ـ فتوى الواحد منهم ومواقفه بطبعه وتكوينه ومزاجه وخُلُقه، فتخرج الفتوى المحرّرة أو الموقف الديني بصبغةِ ذلك الشيخ وطبيعة تأثّره بمن حوله، وقد يعتورها بعض القصور من هذه الحيثيّة. لكن الإمام ابن باز كان بازًّا مختلفًا، فلا تكاد تلمس ذلك في فتاواه ومواقفه، بل لا تجد سوى متانة الدليل ووضوح الحجة وقوة المنهج. مع ذلك فهو غير معصوم، وقد خولف في أمور ونُوقَش كما خولف أسلافُه، والموفّق من كان أقرب للحق بقربه من دليله صحّة وصراحة.

وَلَمْ أَرَ أَمْثَالَ الرِّجَالِ تَفَاوُتًا لَدَى الْفَضْلِ حَتَّى عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدِ

والمقصود ضرب المثال لا غير، ولعلك يا صاحبي أن تراجع ما اسطعت من ردود هذا العَلَمِ على المخالفين، وسترى برهان ما قدّمتُ لك، فابن باز إمامٌ يضوع عبق السنة من أردانه، ويفوح عبير الاتّباع من محيّاه، وينسكب نَهَرُ العلم من شفتيه، فلله درّه من عالم عامل فاق أقرانه طُرًّا، أفادَ الناس منه واغترفوا من بحره العباب حتى صدروا رواءً بعَطَنٍ، وكلُّ الصيدِ في جوف الفَرَا، ولا أُزكّي على الله أحدًا، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

خُذْ ما تراهُ ودع شيئًا سمعتَ به في طلعةِ البدرِ ما يُغنيكَ عن زُحلِ

وستّةٌ من علماء المذهب قد بلغوا مرتبة الاجتهاد المطلق، وهم الإمام أحمد، والقاضي أبو يعلى، وأبو الوفاء بن عقيل، والموفّق بن قدامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذة شمس الدين ابن القيم، فإن كان لهم سابع فهو ابن باز، أسبغ الله على ضرائحهم الرحمات وأكرمَ نزلهم في عالي الجنّات وجميع المسلمين والمسلمات.

ألّف الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا لَمَزَ فيه متديّنة الخليج، ثمّ أتى السعودية فرغب إليه مرافقوه أن يمرّوا به على العلامة ابن باز، فمانع خشية التقريع والتوبيخ، أو حتى العتب أو التلميح، فألحّوا عليه؛ فقبل مرافقتهم، وسلّم على الشيخ الذي أدناه إليه واحتفى به وأكرمه، ولم يُشر لكتابه ولو بأدنى إلماحة. مع علمه به وتأذّيه من بعض ما فيه. فلما خرج الغزالي هتف بمرافقيه معجبًا حامدًا خُلُقَ الشيخ: إنّ هذا الرجل ليس من أهل زماننا.

فَما كانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحِدٍ ولِكنَّهُ بُنْيانُ قومٍ تَهَدَّمَا

❁❁❁❁❁

فقهُ الفتنِ وحالُ المؤمن حيالَها

الناصح لنفسه يخشى مضلّات الفتن، ويستعيذ بالله منها، ويبذل الأسباب الموصلة للسلامة منها، فعن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وايْمُ الله لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن السعيد لَمَن جُنِّبَ الفِتَن**. قالها ثلاثا. **ولَمَنِ ابْتُلِيَ فصبر، فَوَاهًا**»(١). وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أخاف عليكم فتنًا كأنّها الدخان، يموت فيها قلبُ الرجل كما يموت بدنه» وقال أيضًا: «إنها ستكون أمورٌ مشتبهات، فعليكم بالتؤدة، فإنك أن تكون تابعًا في الخير، خيرٌ من أن تكون رأسًا في الشر». والتؤدة هي التأنّي والتمهّل والرزانة. وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله إن الرجل ليفتنُ في ساعة واحدة؛ فينقلب عن دينه»!

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بادروا بالأعمال(٢) فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبحُ الرجلُ مؤمنًا ويُمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا**

---

(١) أخرجه أبو داود بسند صحيح (٤٢٦٣) واهًا: هي كلمة يقولها المُتأسِّفُ على الشيء المُعجَب به.

(٢) فالعبادات أمانٌ من الفتن بإذن الله، وعن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**العبادة في الهَرْج كهجرةٍ إليّ**». رواه مسلم (٢٩٤٨) وقال حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليأتينَّ على الناس زمانٌ لا ينجو فيه إلّا من دعا بدعاءٍ كدعاء الغريق». مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٣٠١).

ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا»(١)، وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلًا، فمنّا من يُصلح خِباءه، ومنّا من ينتضل، ومنّا من هو في جَشَرِه(٢)، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: «الصلاة جامعة». فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ، فقال: **«إنّه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدُلَّ أمّته على خير ما يعلمه لهم، ويُنذرهم شرَّ ما يعلمه لهم. وإنّ أمتكم هذه جُعلت عافيتُها في أوّلِها، وسيصيبُ آخرَها بلاءٌ وأمورٌ تُنكرونها، وتجيءُ فتنةٌ يُرَقِّقُ بعضُها بعضًا، وتجيءُ الفتنةُ فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثمّ تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه. فمن أحبّ أن يُزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه. ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليُطِعْهُ إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»**(٣).

وقال حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إنّ للفتنة وَقَفَاتٍ وبَعَثَاتٍ، فإن استطعت أن تموت في وقفاتها فافعل». وسئل: ما وَقَفَاتُ الفتنَةِ، وما بَعَثَاتُهَا؟ فقال: «بَعَثَاتُهَا سَلُّ السَّيفِ، وَوَقَفَاتُهَا إغمَادُهُ»(٤). وقال أيضًا: «أتتكم الفتنُ مثلُ قطع الليل المظلم، يهلك فيها كلُّ شجاع بطل، وكلُّ راكبٍ موضعٍ، وكلُّ خطيبٍ مُصقِعٍ»(٥). وعن

(١) مسلم (١١٨).
(٢) الجَشَر: الدّواب التي ترعى وتبيتُ مكانَها.
(٣) مسلم ٦/١٨ (١٨٤٤) (٤٦).
(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٢٧٣)، (٣٨٢٩٤).
(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٢٧٤).

عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: «تكونُ فتنةٌ، أو فتنٌ تستنظِفُ العرب، قتلاها في النار، اللسانُ فيها أشدُّ من وقع السيف»(١).

وقال أيوب السختياني رَحِمَهُٱللَّهُ: «قيل لابن الأشعث: إنْ أردتَ أن يُقتلوا حولك كما قُتلوا يوم الجمل حول جمل عائشة؛ فأخرِجْ معك مسلمَ بن يسار، فأخرج مسلمَ مُكرهًا»(٢). وقالوا له كذلك في الحسن البصري؛ فهرب الحسن وتوارى، قال ابن عون: «قالوا لابن الأشعث: أَخرجْ هذا الشيخ، يعني الحسن، فنظرتُ إليه بين الجسرين عليه عمامةٌ سوداء، فغفلوا عنه، فألقى نفْسَهُ في بعض تلك الأنهار حتّى نجا منهم، وكادَ يهلكُ يومئذ». وقال سليمان الربعي: «لمّا كانت فتنةُ ابن الأشعث، انطلق عقبة بن عبد الغافر، وأبو الجوزاء، وعبد الله بن غالب في طائفةٍ فدخلوا على الحسن، فقالوا: يا أبا سعيد، ما تقولُ في قتال هذا الطاغية ـ أي الحَجّاج ـ الذي سفك الدم الحرام، وأخذ المال الحرام، وترك الصلاة، وفعل وفعل؟ قال: أرى ألّا تقاتلوه، فإنّها إن تكن عقوبةً من الله، فما أنتم برادّي عقوبة الله بأسيافكم، وإن يكن بلاءً فاصبروا حتى يحكم الله، فخرجوا وهم يقولون: نُطيعُ هذا العلج! ـ يعنون الحسن ـ قال: وهم قومٌ عرب، وخرجوا مع ابن الأشعث فقُتلوا»(٣). وعن أبي

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٢٨٠).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٧ / ٥٣) وسير أعلام النبلاء (٤ / ٥١٣) والمعرفة والتاريخ (٢ / ٨٦) وابن عساكر (١٦ / ٢٤٨) وخبر ابن عون في سير أعلام النبلاء (٤ / ٥٨٣).

(٣) تاريخ الإسلام (٧ / ٥٤).

التيّاح، عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «والله ما سُلّطَ الحجّاج إلّا عقوبة، فلا تعترضوا عقوبة الله بالسيف، ولكن عليكم بالسكينة والتضرُّع»(١). وقال أيوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القُرّاءِ الذين خرجوا مع ابن الأشعث: «لا أعلمُ أحدًا منهم قُتل، إلّا رُغِبَ له عن مصرعه، أو نجا إلّا ندم على ما كان منه»(٢). وقال ابن عون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لمّا وقعت الفتنة زمن ابن الأشعث، خفّ مسلمُ فيها، وأبطأ الحسن، فارتفع الحسن، واتّضعَ مسلم»(٣). وعن أبي قلابة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال لي مسلمُ بن يسار: إنّي أحمدُ الله إليك، أنّي لم أرمِ بسهمٍ ولم أضربْ فيها(٤) بسيف، قلت له: فكيف بمن رآكَ بين الصفّين فقال: هذا مسلم بن يسار، لن يُقاتِل إلا على حقّ، فقاتل حتى قُتل؟ فبكى والله حتى وددت أنّ الأرض انشقّت، فدخلتُ فيها»(٥). قال الحافظ ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم ينجُ بالبصرة من فتنة ابن الأشعث إلا رجلان: مُطرِّفُ بن عبد الله، ومحمد بن سيرين؛ ولم ينج منها بالكوفة إلا رجلان: خيثمة بن عبد الرحمن الجعفي وإبراهيم

(١) تاريخ الإسلام (٧ / ٥٤).
(٢) طبقات ابن سعد (٧ / ١٨٨).
(٣) علق الذهبي على ذلك بقوله: «قلت: إنّما يُعتبر ذلك في الآخرة، فقد يرتفعان معًا». سير الأعلام (٤ / ٥١٣).
(٤) ويعني فتنة ابن الأشعث.
(٥) ابن عساكر (١٦ / ٢٤٨) وابن سعد (٧ / ١٨٨) والمعرفة والتاريخ (٢ / ٨٦، ٨٧) وذكر سفيان بن عيينة أنّ الحسن البصري لمّا مات مسلم بن يسار قال: «وامُعَلِّمَاهُ». ولمسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ترجمة مسهبة في تاريخ ابن عساكر (١٦ / ٢٤٣).

النخعي»[1].

وعن أم المؤمنين أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إنّه يُستعملُ عليكم أمراءُ فتعرفون وتُنكرون، فمن كَرِهَ فقد بَرِئ، ومن أنكر فقد سَلِمَ، ولكن من رضي وتابع**» قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتِلُهم؟ قال: «**لا، ما أقاموا فيكم الصَّلاة**»[2]. وقيل لحذيفة: أكفرتْ بنو إسرائيل في يوم واحد؟ قال: «لا، ولكن كانت تُعرضُ عليهم الفتنةُ فيأبونها، فيُكرَهُون عليها، ثم تُعرَضُ عليهم فيأبونها، حتى ضُربوا عليها بالسياط والسيوف؛ حتى خاضوا إخاضة الماء، حتى لم يعرفوا معروفًا، ولم يُنكروا منكرًا»[3]. وجاء رجل إلى عبد الله بن

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧ / ٣٠٢) وقد كان مطرف بن عبد الله من أئمة اعتزال الفتن، وكان الحسن يحتسب في ردّ الناس عنها. فكان مطرّف يهرب عنها إيثارًا لسلامة دينه، وكان الحسن يخطِمُ وجهها بالعلم شفقةً على الناس منها. قال أبو عقيل بشير بن عقبة: قلت ليزيد بن عبد الله بن الشخير أبي العلاء: ما كان مطرف يصنع إذا هاج في الناس هيج؟ قال: كان يلزم قعر بيته، ولا يقرب لهم جمعة ولا جماعة؛ حتى تنجلي لهم عما انجلت. كان الحسن يخالطهم وينكر عليهم، وكان مطرف يُزايلهم حتى تنجلي.
وقد حُفظت لمطرف وصايا نفيسة، منها قولُه: من صفا عملُه صفا لسانُه، ومن خلط خُلِط له. وقال: فضلُ العلم أحبّ إليّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع. وقال: إنّ مِنْ أحبِّ عباد الله إلى الله الصبّارُ الشكور، الذي إذا ابتُلي صبر، وإذا أعطى شكر. وقال: الخيرُ الذي لا شرّ فيه؛ الشكرُ مع العافية، فكم من مُنعَمٍ عليه غير شاكر، وكم من مُبتَلى غير صابر.

(٢) مسلم (٦/٢٣) (١٨٥٤) (٦٣).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٢٩٧).

مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال: متى أضلّ، فقال: «إذا كان عليكَ أمراءٌ إنْ أطعتَهُم أضلّوكَ، وإن عصيتَهم قتلوك». وقال حذيفة: «والله إنّ الرجلَ ليُصبح بصيرًا، ثم يُمسي وما ينظرُ بِشُفْرٍ»(١). وقال عبد الله: «كيف أنتم إذا لَبِسَتْكُم الفتنةُ، يَربُو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبيرُ، ويتّخذها الناسُ سُنّة، فإن غُيّرَ منها شيءٌ قيل: غُيّرتْ السُّنّة؟ قالوا: متى يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثرت قرّاؤكم، وقلّت أُمناؤكم، وكثرت أمراؤكم، وقلّت فقهاؤكم، والتُمسَتِ الدنيا بعمل الآخرة»(٢). وقال حذيفة: «من أحبَّ منكم أن يعلم أصابته الفتنةُ أم لا، فلينظرْ، فإن رأى حرامًا ما كان يراه حلالًا، أو يرى حلالًا ما كان يراهُ حرامًا؛ فقد أصابتْهُ»(٣). وعن طارق بن شهاب، قال: «جَلَد خالدُ بن الوليد رجلًا حدًّا، فلمّا كان من الغد جَلَدَ رجلًا آخر حدًّا، فقال رجل: هذه والله الفتنة، جلد أمس رجلًا في حدّ، وجلد اليوم رجلًا في حد، فقال خالد: ليست هذه بفتنة، إنما الفتنة أن تكونَ في أرض يُعملُ فيها بالمعاصي؛ فتريدُ أن تخرج منها إلى أرضٍ لا يُعمل فيها بالمعاصي فلا تجدها»!(٤).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٣٨٩).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣١٠٥١).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٣١١) وهي ليست مضطردة، فقد يتبين له خطؤه بالأدلة، فالواجب رجوعه للحق، لكنّها إن كثرت؛ فهي علامة على ضرورة مراجعة حال القلب مع الله تعالى، فالشُبه خطّافةٌ والقلوب ضعيفة.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٤٩٨).

وسأُسَلِّطُ الضوء في فقه الفتن هنا على زاوية فتنِ الاختلاف بين الراعي والرعية لاستضرامِ نارها في المسلمين، فأقول.وبالله أستعين.:

لا بدّ لطالب العلم من التأني في تنزيل نصوص الفتن: قال حفص بن غياث لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله، إن الناس قد أكثروا في المهدي، فما تقول فيه؟ فقال: «إن مَرَّ على بابك فلا تكن منه في شيء، حتى يجتمع الناس عليه»(١). وعن عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**من سمع بالدّجال فلينأَ عنه، فوالله إنَّ الرجلَ ليأتيه وهو يحسب أنّه مؤمن؛ فيتبعه ممّا يبعثُ به من الشُّبُهات**»(٢).

وسنقف مع فتنةٍ أصبحت فيصلًا في مذهب أهل السنة والجماعة، إذ استقرَّ مذهبُهم بعدها على الصبر على جور الأئمة وترك قتالهم(٣). وهي أشبهُ الفتن بما لحقها من فتن في الدماء في الخروج على أئمة الجور من سلاطين الإسلام، ومع سَبْقِ فتنٍ كبارٍ بين المسلمين كالجمل وصفّين(٤)..............

---

(١) حلية الأولياء (٧ / ٣٣).

(٢) مسلم (٨/٤٨).

(٣) قال ابن تيمية: «ولهذا استقرّ مذهبُ أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم». منهاج السنة (٤/٥٢٩، ٥٣٠) وانظر: الإمامة العظمى أ.د. الدميجي (٥١٢).

(٤) وتختلف الجمل وصفّين عن غيرهما في أمور، منها: أنّها الفتنة الأولى في قتال المسلمين =

=

بعضهم بعضًا، وفي جلالة أقدار سادتها من الصحابة المرضيين، وعظيم إيمانهم وعلمهم بالله تعالى وبأحكام شريعته وزهدهم في الدنيا، وفي أنّ أميرَ المؤمنين عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إمامُ عدلٍ ولا يجوز بحالٍ نسبته للجور. وفي أنّ معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ومن معه لم يبايعوا عليًّا، إلى غير تلك الفروق، ولكنها بكل حال فتنةٌ سكبت دماء المسلمين وآلمت كلّ المؤمنين، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ومذهبُ أهل السنة هو السكوت عما شجر بين الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وعدمُ الخوض فيها إلا لاعتبارٍ أو دفاعٍ ونحو ذلك. وهم فيما شجر بينهم بين الأجر والأجرين والمغفرة، رحمهم الله ورضي عنهم، ولا نذكرهم إلا بخير وبرّ، ولمّا سُئل عمر بن عبد العزيز عن ذلك قال: «عصم الله يدي من دمائهم، أفلا أعصمُ لساني من أعراضهم». وقال شيخ الإسلام في بيان معتقد أهل السنة والجماعة في عقيدته الواسطية ـ التي أمهل خصومه ثلاث سنين أن يجدوا فيها حرفًا مخالفًا للكتاب والسنة ـ: «ويُمسكون عمّا شجر بين الصحابة. ويقولون: إنّ هذه الآثار المروية في مساويهم؛ منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغيّر عن وجهه، والصحيح منه: هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كلّ واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره؛ بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنه يُغفرُ لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأنّ لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ: **«إنهم خير القرون»** وإن المُدّ من أحدهم إذا تصدّق به كان أفضل من جبل أحدٍ ذهبًا ممَّن بعدهم». ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفّر به عنه. فإذا كان هذا في الذنوب المُحقَّقة؛ فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين؛ إن

=

وكربلاء[١] والحرّة[٢] وابن الزبير[٣]...................................

=

أصابوا فلهم أجران، وإن أخطئوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور لهم. ثم القدر الذي يُنكَرُ من فعل بعضهم قليل نزرٌ مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح. ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما منّ الله به عليهم من الفضائل؛ علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم هو الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى». مجموع الفتاوى (٣/١٥٥- ١٥٦).

(١) الحسين السبط رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وصلى الله وسلم على جدّه لم يبايع يزيد، وخرج لإقامة الشرع عبر تولّيه لإمرة المؤمنين بعدما دعاه أهل الكوفة ثم خذلوه لسيوف جند عبيد الله بن زياد التي رفعته شهيدًا لربه تعالى سنة إحدى وستين. وكان قد نهاه محمد بن الحنفية وابن عباس وابن عمر وأبو سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وغيرهم، ولكن قدر الله نافذ، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) وقعة الحرّة: هي الواقعة التي كانت بالمدينة في زمن يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين. وسببها أنّ عبد الله بن حنظلة وغيره من أهل المدينة وفدوا إلى يزيد فرأوا منه ما لا يصلح، فرجعوا إلى المدينة فخلعوه وبايعوا عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قبل استحكام أمره في مكة والحجاز، وأرسل إليهم يزيدُ مسلمَ بن عقبة الذي سمّاه الناس بعدها مسرف بن عقبة، فأوقع بأهل المدينة وقعةً عظيمة، وقتل كثيرًا جدًّا من الناس. وسيأتي ذكرها في محلّها إن شاء الله تعالى.

(٣) ذكر ابن سعد في الطبقات (١٤٧/٥) أنّ ابن الزبير لم يدْعُ لنفسه حتى توفي يزيد بن معاوية. وقال ابن الجوزي في تلقيح فهوم أهل الأثر (١ / ٦١): «ثم بويع عبد الله بن الزبير لتسع خلون من رجب سنة أربع وستين، ثم قام مروان بن الحكم بالشام بعد بيعة ابن الزبير بأشهر فبايعه جماعة من أهل الشام، وذلك للنصف من ذي القعدة سنة

=

=

أربع وستين». فمروان إذن هو الذي خرج على الزبير بعدما بويع له بإمرة المؤمنين في أكثر بلاد الإسلام.

وقال الذهبي في السير (٣ / ٣٦٤): «بويع بالخلافة عند موت يزيد سنة أربع وستين، وحكم على الحجاز، واليمن، ومصر، والعراق، وخراسان، وبعض الشام. ولم يستوسق له الأمر، ومن ثم لم يعدّه بعض العلماء في أمراء المؤمنين، وعدّ دولته زمن فرقة، فإنّ مروان غلب على الشام ثم مصر. وقام عند مصرعه ابنه عبد الملك بن مروان، وحارب ابن الزبير، وقتل ابن الزبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فاستقل بالخلافة عبد الملك وآله، واستوسق لهم الأمر، إلى أن قهرهم بنو العباس بعد ملك ستين عامًا». وقال د. الصلابي: «بعد موت يزيد بن معاوية لم يكن هناك من خليفة، وإذا كان يزيد قد أوصى لابنه معاوية فإنّ هذا لا يكفي للبيعة، والذين بايعوا معاوية بن يزيد لا يزيدون على دمشق وما حولها وأعيان بني كلب.

وهذا مع أنّ معاوية بن يزيد لم يعش طويلاً، وترك الأمر شورى، ولم يستخلف أحدًا، ولم يوص إلى أحد، وكان عبد الله بن الزبير، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قد بويع له في الحجاز، وفي العراق وما يتبعه إلى أقصى مشارق ديار الإسلام، وفي مصر وما يتبعها إلى أقصى بلاد المغرب، وبايعت الشام أيضًا إلا بعض جهات منها، ولم يكن رافضًا بيعة ابن الزبير في الشام إلا منطقة البلقاء وفيها حسان بن مالك بن بحدل الكلبي، وهكذا تمّت البيعة لعبد الله بن الزبير في ديار الإسلام، وأصبح الخليفة الشرعي، وعين نوابه على الأقاليم.. وكان انتصار عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير في معركة دير الجاثليق إيذانًا بانتهاء دولة عبد الله بن الزبير، فقد استقرت له الأمور في جميع الأمصار الإسلامية، وانحصرت دولة ابن الزبير في الحجاز، ولم يكن في استطاعته الصمود، لافتقاره إلى المال والرجال، كما أن مقتل أخيه مصعب قد فتّ في عضده وأصابه الإحباط، ولكنه لم يُلق رايته، وظلّ يقاوم حتى النهاية. ولم يضيع عبد الملك بن مروان

=

=

وقتًا بعد انتصاره على مصعب، وقرر أن يقضي نهائيًا على دولة ابن الزبير، ووقع الخيار لقيادة الجيش للقضاء على ابن الزبير على الحجاج بن يوسف، وتوجه بجيشه إلى الحجاز، واستقر بالطائف، وبدأ يرسل بعض الفرق العسكرية إلى مكة، وكان ابن الزبير يرسل إليه بمثلها فيقتتلون وتعود كل فرقة إلى معسكرها، وأمر عبد الملك طارق بن عمرو الذي كان مرابطًا بوادي القرى أن ينضم إلى جيش الحجاج، فتوجه طارق إليه وكان معه خمسة آلاف رجل.

وفي محاولة لإنهاك ابن الزبير قام الحجاج بفرض حصار اقتصادي على مكة، ثم بدأ التخاذل يدب بين أنصار ابن الزبير، وبدأوا ينسحبون واحدًا تلو الآخر، ومما شجع على تخاذل هؤلاء إعطاء الحجاج الأمان لكل من كف عن القتال وانسحب من جيش ابن الزبير. وتوجه الحجاج بن يوسف بجميع جيشه إلى مكة ونصب المنجنيق على جبالها، وبدأ يضرب ابن الزبير داخل الحرم ضربًا متواصلًا، وفي الوقت نفسه كان بقية جيشه يقاتلون البقية الباقية مع ابن الزبير، وشدد على ابن الزبير، وتحرج موقفه وانفض عنه معظم أصحابه، وكان يخرج من باب المسجد الحرام وهناك خمسمئة فارس وراجل؛ فيحمل عليهم فيتفرّقون عنه يمينًا وشمالًا، ولا يثبت له أحد، وكان لا يخرج على أهل الباب إلا فرّقهم وبدّد شملهم، وهو غيرُ دارعٍ حتى يخرجهم إلى الأبطح ثم يصيح: لو كان قرني واحدًا كفيته. فيقول ابن صفوان وأهل الشام أيضًا: إي والله وألف رجل. ولقد كان حجر المنجنيق يقع على طرف ثوبه فلا ينزعج بذلك، ثم يخرج إليهم فيقاتلهم كأنه أسدٌ ضاري، حتى جعل الناس يتعجّبون من إقدامه وشجاعته.

وفي آخر يوم من حياته ودّع أمه أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ثم صلّى الفجر بأصحابه فقرأ: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ حرفاً حرفًا، ثم سلّم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم خطبهم وأنشد:

فلســـت بُمبتــاع الحيــاة بسُـــبَّة ... ولا مُبتغٍ من خشية الموت سُلَّما

احملوا على بركة الله. ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون، فرُمي بآجُرَّة فأصابته في

=

والنفس الزكية[١] لها لكنها تكررت على الرغم من ذلك حتى صارت عَلَمًا لما

=

وجهه فارتعش لها، ودمي وجهه، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه ولحيته، تمثَّل:

فلسنا على الأعقابِ تدمى كلومُنا ... ولكن على أقدامِنــا تَقْطُـرُ الدِّمــا

وقاتلهم قتالًا شديدًا، فتعاونوا عليه فقتلوه يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة، وله ثلاث وسبعون سنة، وتولّى قتله رجلٌ من مراد، وحمل رأسه إلى الحجاج، وسار الحجّاج وطارق بن عمرو حتى وقفا عليه، فقال طارق: ما ولدت النساء أذْكَرَ من هذا! فقال الحجاج: تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين. قال: نعم، هو أعذر، لأنّا محاصروه، وليس هو في حصن ولا خندق ولا منعة، ينتصف منّا، بل يفضل علينا في كل موقف، فلما بلغ ذلك عبد الملك صوّب طارقًا. ثم صلب الحجاجُ جثةَ ابنَ الزبير على ثنيّة كدا عند الحجون، وأرسل رأسه لعبد الملك. ومرّ عبد الله بن عمر عليه بعد صلبه فقال: السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خُبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله إن كنت ما علمت صوّامًا قوّامًا وصولًا للرحم، أما والله لأُمّة أنت شرُّها لأمة خير. ثم نفذ عبد الله بن عمر، فبلغ الحجّاج وقوف ابن عمر عليه وقولَه، فأرسل إليه؛ فأنزله عن جذعه، ودفن هناك رَحِمَهُ ٱللَّهُ. واجتمعت الأمة بعد مقتل عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان، وأصبح الخليفة الشرعي، وهو أول خليفة ينتزع الخلافة بقوة السيف والقتال». الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار (٢ / ٤٥١) باختصار وزيادات. وانظر: تاريخ الطبري (٧/٧٩) والبداية والنهاية (٨ / ٣٦٦).

(١) قال أبو العباس الناصري في الاستقصاء: «لمّا صار أمر بني أمية إلى الاختلال أيام مروان بن محمد آخر خلفائهم؛ اجتمع أهل البيت بالمدينة وتشاوروا فيمن يُقدّمونه للخلافة، فوقع اختيارهم على محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن

=

=
علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، الملقب بالنفس الزكية، فبايعوا له بالخلافة، وسلّموا له الأمر بأجمعهم، وحضر هذا العقد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو المنصور، وذلك قبل أن تنتقل الخلافة إلى بني العباس، فبايع للنفس الزكية فيمن بايع له من أهل البيت، وأجمعوا على ذلك لتقدّمه فيهم، لِمَا علموا له من الفضل عليهم.

قال ابن خلدون: ولهذا كان مالك وأبو حنيفة رحمهما الله يحتجّان له حين خرج بالحجاز، ويريان أنّ إمامته أصحّ من إمامة أبي جعفر المنصور؛ لانعقاد هذه البيعة أولًا. وكان أبو حنيفة يقول بفضله ويحتج لحقّه، فتأدّت إلى الإمامين المحنةُ بسبب ذلك أيام أبي جعفر المنصور، حتى ضرب مالك رَحِمَهُٱللَّهُ على الفُتيا في طلاق المكره، وحبس أبو حنيفة رَحِمَهُٱللَّهُ على القضاء.

ولـمّا انقرضت دولة بني أمية وجاءت دولة بني العباس وصار الأمر إلى أبي جعفر المنصور؛ قيل له: إنّ محمد بن عبد الله يروم الخروج عليك، وأنّ دعاته قد ظهروا بخراسان. فأمر المنصور عامله على المدينة رباح بن عثمان المري بحبس عبد الله بن حسن ومن إليه من آل الحسن بن علي بن أبي طالب؛ فحبس جماعةً من بنيه وإخوته وبني عمه. قال ابن خلدون: في خمسة وأربعين من أكابرهم. وقدم المنصور المدينة في حجة حجها، فساقهم معه إلى العراق، وحبسهم بقصر ابن هبيرة من ظاهر الكوفة حتى هلكوا في حبسهم. وجدّ المنصور في طلب محمد بن عبد الله النفس الزكية وأخيه إبراهيم لكونهما تغيّبا فلم يُحبسا في جملة من حبس من عشيرتهم. ثم لـما كانت سنة خمس وأربعين ومئة وأرهق محمد بن عبد الله الطلب وأعيت عليه المذاهب؛ ظهر بالمدينة النبوية ودعا الناس إلى بيعته فبايعوه. واستفتى أهلُ المدينة الإمام مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الخروج مع محمد بن عبد الله وقالوا: في أعناقنا بيعة للمنصور، فقال: إنّما بايعتم مُكرهين. فتسارع الناس إلى محمد، وأجابوا دعوته، ولزم الإمام ملك بيته. وخطب
=

بعدها، وعلى ما فيها وما سَبَقَها ولَحِقَها من ألمٍ وأسًى ومصائب؛ إلّا أنّ لله تعالى في طيّهنّ حِكمًا لا يُحيط بها مخلوق، ومن حِكم الله تعالى في فتنة ابن

=

محمد بن عبد الله على منبر رسول الله ﷺ، وذكر المنصور بما نقمه عليه، ووعد الناس واستنصر بهم، وتسمّى بالمهدي، ولم يتخلّف عن بيعته من وجوه الناس إلا القليل.

وبلغ المنصور خبر محمد بن عبد الله وما كان منه بالمدينة؛ فأشفق من ذلك غاية الإشفاق، وكتب إلى محمد كتاب أمان ويعدُه الجميل إن هو راجع الطاعة، فأجابه محمد بعدم قبول ذلك منه، ودارت بينهما مكاتبات ومحاورات في الأفضلية واستحقاق الخلافة. ـ قلت: وقد سردها ابن كثير في تاريخه، وعلّق عليها. وفيها بيانُ سعة علم الرجلين، وقوّة حجاجيهما، وجودَةِ قريحتيهما ـ وآخرُ الأمر: أنّ المنصور بعث لحرب محمد المهدي ابنَ عمه عيسى بن موسى العباسي، فاستعدّ المهدي للقتال، وأدار على المدينة الخندق الذي حفره رسول الله ﷺ يوم الأحزاب، وقدمت جيوش العباسيين ونزلوا على المدينة. وخرج إليهم محمد بن عبد الله فيمن بايعه، واقتتل الناس قتالًا شديدًا، وأبلى محمد المهدي في ذلك اليوم بلاء عظيمًا، وقتل بيده سبعين رجلًا. ولما اشتد القتال وعاين مخايل الاختلال؛ انصرف فاغتسل وتحنّط وجمع بين الظهر والعصر، ومضى فأحرق الديوان الذي كان فيه أسماء مَن بايعه، وجاء إلى السجن فقتل رباح بن عثمان عامل المنصور على المدينة، وقتل معه جماعة كانوا مسجونين عنده، ثم عاد إلى المعركة وقد تفرّق عنه جلّ أصحابه، ولم يبق معه إلا نحو ثلاثمئة، فقال له بعضهم: نحن اليوم في عدة أهل بدر. ثم تقدم فقاتل حتى ضرب فسقط لركبتيه، وطعنه حميد بن قحطبة في صدره، ثم احتزّ رأسه وأتى به عيسى بن موسى، فبعث به إلى المنصور. وكان مقتل محمد المهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين ومئة، وقُتل معه جماعة من أهل بيته وأصحابه». الاستقصاء لأحمد الناصري (١ /٢٠٤-٢٠٦) باختصار يسير.

الأشعث أنْ جلّى الله تعالى للأمة خطر الافتراق والنزاع وعدم الرجوع لتحكيم الشرع، وضرورة مراعاة الاجتماع في نزاعِ الراعي والرعية.

وقد كان ابن الأشعث قد خلع عبد الملك بن مروان وأخذ البيعة لنفسه، فالتقوا في معارك هائلة شديدة؛ كالزاوية، حتى كان آخرها معركة دير الجماجم المأساوية، وهي المعركة الفاصلة التي جرت بين الحجاج بن يوسف والي عبد الملك بن مروان وجنده وبين عبد الرحمن بن الأشعث ومعه جمع كثيف من العلماء والمقاتلين، وقد قُتل فيها وبعدها كثيرٌ من أجلّة وسادةِ التابعين وغيرهم، ومختصَرها: أنّ الحجاج كان شديد البغض لعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي، يقول: ما رأيته قط إلا أردت قتله. ثم إنه أبعَده عنه وأمّره على سجستان بعد موت عبيد الله بن أبي بكرة، فسار إليها ففتح فتوحًا، وسار ينهب بلاد رتبيل التركي ويأسر ويخرب، ثم بعث إليه الحجاج مع هذا كتبًا يأمره بالوغول في تلك البلاد، ويُضعِفُ همّته ويُعجزه. فغضب ابن الأشعث وخطب الناس، وكان معه رؤوس أهل العراق فقال: إنّ أميركم كتب إليّ بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو، وهي البلاد التي هلك فيها إخوانكم بالأمس، وإنما أنا رجل منكم، أمضي إذا مضيتم وآبى إذا أبيتم. فثار إليه الناس فقالوا: لا بل تأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع، وخلعوا الحجاج وبايعوا عبد الرحمن بن الأشعث. ثم أقبلوا كالسيل المنحدر، وانضم إلى ابن الأشعث جيش عظيم، فعجز عنهم الحجاج، واستصرخ بأمير المؤمنين، فجزع

لذلك عبد الملك بن مروان، وجهز العساكر الشامية في الحال[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ودخل ابن الأشعث الكوفة، فبايعه أهلُها على خلع الحجاجِ وعبدِ الملك بن مروان. وتفاقم الأمر، وكثر متابعو ابن الأشعث على ذلك، واشتدّ الحال، وتفرّقت الكلمة جدًّا، وعظم الخطب، واتّسع الخرق على الراقع. قال الواقدي: ولمّا التقى جيش الحجاج وجيش ابن الأشعث بالزاوية؛ جعل جيش الحجاج يحمل عليهم مرّة بعد مرّة، فقال القراء ـ وكان عليهم جبلة بن زحر ـ: أيها الناس ليس الفرار من أحدٍ بأقبح منكم فقاتلوا عن دينكم ودنياكم. وقال سعيد بن جبير نحو ذلك. وقال الشعبي: قاتلوهم على جورهم واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة. ثم حملت القرّاءُ ـ وهم العلماء ـ على جيش الحجاج حملة صادقةً، ثم رجعوا فإذا هم بمقدّمهم جبلة بن زحر صريعًا، وانهزم جيش ابن الأشعث. فذهب ابن الأشعث إلى الكوفة فبايعه أهلُها[٢]. ثم كانت وقعة دير الجماجم إذ جاء ابن الأشعث بمن معه من الجيوش البصرية والكوفية حتى نزل دير الجماجم، ومعه جنود كثيرة، وفيهم القرّاء وخلق من الصالحين.

وكان جملةَ من اجتمع مع ابن الأشعث مئة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء، ومعهم مثلهم من مواليهم، وقدم على الحجاج في غبون ذلك أمدادٌ كثيرة من الشام، وخندقَ كلٌّ من الطائفتين على نفسه وحول جيشه خندقًا يمتنع به من

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (٥/ ٣٤٣).

(٢) إمّا أنها بيعة ثانية بالإمرة أو أنها بيعة قتال.

الوصول إليهم، غير أن الناس كان يبرز بعضهم لبعض في كل يوم فيقتتلون قتالًا شديدًا في كل حين، حتى أُصيب من رؤوس الناس خلق من قريش وغيرهم، واستمر هذا الحال مدة طويلة، واجتمع الأمراء من أهل المشورة عند عبد الملك بن مروان فقالوا له: إن كان أهل العراق يُرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج؛ فهو أيسر من قتالهم وسفك دمائهم، فاستحضر عبد الملك عند ذلك أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان، ومعهما جنود كثيرة جدًّا، وكتب معهما كتابًا إلى أهل العراق يقول لهم: إن كان يرضيكم منّي عزل الحجاج عنكم؛ عزلتُه عنكم، وبعثتُ عليكم أُعطياتكم مثل أهل الشام، وليختر ابن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه أميرًا ما عاش وعشت، وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان. وقال في عهده هذا: فإن لم تجب أهل العراق إلى ذلك؛ فالحجاج على ما هو عليه وإليه إمرة الحرب، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعة الحجاج وتحت أمره لا يخرجون عن رأيه في الحرب وغيره.

فتقدم عبد الله ومحمد فنادى عبد الله: يا معشر أهل العراق، أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وإنّه يعرض عليكم كيت وكيت، فذكر ما كتب به أبوه معه إليهم من هذه الخصال، وقال محمد بن مروان: وأنا رسول أخي أمير المؤمنين إليكم بذلك، فقالوا: ننظر في أمرنا غدًا ونردّ عليكم الخبر عشيّة، ثم انصرفوا فاجتمع جميع الأمراء إلى ابن الأشعث، فقام فيهم خطيبًا وندبهم إلى قبول ما عُرض عليهم من عزل الحجاج عنهم وبيعة عبد الملك وإبقاء الأعطيات وإمرة محمد بن مروان على العراق بدل الحجاج،

فنفر الناس من كل جانب وقالوا: لا والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عَدَدًا وعُدَدًا، وهم في ضيق من الحال، وقد حكمنا عليهم، وذلّوا لنا، والله لا نجيب إلى ذلك أبدًا(١). ثم جددوا خلعَ عبد الملك ونائبه ثانية، واتّفقوا على ذلك كلّهم.

فلمّا بلغ عبد الله بن عبد الملك وعمّه محمدًا الخبر؛ قالا للحجاج: شأنك بهم إذًا، فنحنُ في طاعتك كما أَمَرَنا أميرُ المؤمنين، فكانا إذا لقياه سلّما عليه بالإمرة، ويسلّم هو أيضًا عليهم بالإمرة، وتولّى الحجاج أمرَ الحرب وتدبيرها كما كان قبل ذلك، فعند ذلك برز كلٌّ من الفريقين للقتال والحرب.

وكان في جيش ابن الأشعث سعيد بن جبير وعامر الشعبي(٢)

---

(١) وليتهم قبلوا ذلك فهو ما خرجوا لأجله، ولو علموا ما يستقبلهم في أيامهم من انقلاب الموازين ما ترددوا، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ والحمد لله على كل حال، وله الحِكَمُ الباهرة، والعلم التّام، والإحاطةُ الكاملة. وقد ندم كثير ممن اندفعوا في تلك الفتنة، قال طلحة بن مصرّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شهدت الجماجم، فما رَميتُ، ولا طعنتُ، ولا ضربتُ. ولوددتُ أنّ هذه سقطت هنا ولم أكن شهدتها». سير أعلام النبلاء (١٩٢/٥) وقال محمد بن طلحة: «رآني زبيدُ اليامي مع العلاء بن عبد الكريم ونحن نضحك فقال: لو شهدت الجماجم؛ ما ضحكت، ولوددتُ أنّ يميني قُطعت من العضد وأني لم أكن شهدتُ». تاريخ خليفة بن خياط (٢٨٧).

(٢) حدّث الشعبي عن نفسه لمّا أُتِيَ به إلى الحجاج بعد دير الجماجم، قال: «فلمّا دخلتُ على الحجّاج قلت: أيّها الأمير ـ وفي ابتدائه بندائه بالإمرة براعةُ استهلالٍ باستعطافه بعد إقراره بالإمرة وإلماحٍ بالبيعة له ولِمَن خلفه ـ، إنّ الناس قد أمروني أن أعتذر بغير ما =

وعبد الرحمن بن أبي ليلى وكميل بن زياد وغيرهم، وجعلوا يقتتلون في كل يوم، وأهلُ العراق تأتيهم الميرةُ من الرساتيق والأقاليم من العلف والطعام، وأما أهلُ الشام الذين مع الحجاج؛ فهم في أضيق حال من العيش، وقلّة من الطعام، وقد فقدوا اللحم بالكلية فلا يجدونه، وما زالت الحرب وهم على حالهم وقتالهم في كل يوم أو يوم بعد يوم، والدائرةُ لأهل العراق على أهل الشام في أكثر الأيام.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين والناس متواقفون لقتال الحجاج وأصحابه بدَيرِ قُرَّة، وابن الأشعث وأصحابه بدير الجماجم، والمبارزة في كل يوم بينهم واقعة، وفي غالب الأيام تكون النصرة لأهل العراق على أهل الشام، حتى قيل: إن أصحاب ابن الأشعث وهُم أهل العراق كسروا أهل الشام وهم أصحاب الحجاج بضعًا وثمانين مرّة ينتصرون عليهم، ومع هذا فالحجاج ثابت في مكانه صابر ومصابر لا يتزحزح عن موضعه الذي هو فيه، بل إذا حصل له

=

يعلم الله أنه الحق، وايم الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق، قد والله مَرَدْنَا عليك وحرّضنا وجَهِدْنا، فما كنّا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا وما جرّت إليه أيدينا، وإن عفوت عنّا فبحلمك، وبعد فالحجة لك علينا. فقال الحجاج: أنت والله أحبّ إليّ قولًا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا، ثم يقول: ما فعلت ولا شهدت، وقد أَمِنْتَ يا شعبي، كيف وجدت الناس بعدَنا؟ -وكان الحجّاج يَصِلُه قبل ذلك -فقلت: أصلح اللهُ الأمير، اكتحلتُ بعدك السهر، واستوعرت السهل، واستحلست الخوف، وفقدت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفًا. قال: انصرف يا شعبي فانصرفت». الكامل في التاريخ (١٦٦/٣).

ظفر في يوم من الأيام يتقدم بجيشه إلى نحر عدوّه، وكان له خبرة بالحرب، وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى أمر بالحملة على كتيبة القرّاء، لأنّ الناس كانوا تبعًا لهم، وهم الذين يُحرّضونهم على القتال والناس يقتدون بهم، فصبر القراء لحمْلة جيشه، ثم جمع الرماة من جيشه وحمل بهم، وما انفكّ حتى قتل منهم خلقًا كثيرًا، ثم حمل على ابن الأشعث وعلى من معه من الجيش؛ فانهزم أصحاب ابن الأشعث وذهبوا في كل وجه، وهرب ابن الأشعث بين أيديهم ومعه فلٌّ قليل من الناس، فأتبعه الحجاج جيشًا كثيفًا فساقوا وراءهم يطردونهم لعلهم يظفرون به قتلًا أو أسرًا، فما زال يسوق ويخترق الأقاليم والكور والرساتيق، وهم في أثره حتى وصل إلى كِرْمَان، واتّبعه الشاميون فنزلوا في قصرٍ كان فيه أهل العراق قبلهم. ثم إنّ ابن الأشعث دخل هو ومن معه من الفلِّ إلى بلاد رتبيل ملك الترك، فأكرمه رتبيل وأنزله عنده وأمّنه وعظّمه. عندها كتب الحجاج إلى رتبيل يقول له: والله الذي لا إله إلا هو لئن لم تبعث إليَّ بابن الأشعث لأبعثنَّ إلى بلادك ألف ألف مقاتل، ولاخرّبنّها. فعند ذلك غدر رتبيل بابن الأشعث، فقيل: إنه أمر بضرب عنقه صبرًا بين يديه، وبعث برأسه إلى الحجاج. والمشهور أنه قبض عليه وعلى ثلاثين من أقربائه فقيّدَهُم في الأصفاد وبعث بهم مع رسل الحجاج إليه، فلما كانوا ببعض الطريق بمكان يقال له الرجح، صعد ابن الأشعث وهو مُقيّدٌ بالحديد إلى سطح قصر ومعه رجل موكل به لئلا يفرّ، وألقى نفسه من ذلك القصر وسقط معه الموكل به فماتا جميعًا، فعمد الرسول إلى رأس ابن الأشعث فاحتزّه، وقتل من معه من أصحاب ابن الأشعث، وبعث برؤوسهم إلى الحجاج، فأمر فطِيفَ

برأسه في العراق، ثم بعثه إلى عبد الملك فطيف برأسه في الشام، ثم بعث به إلى أخيه عبد العزيز بمصر فطيف برأسه هنالك، ثم دفنوا رأسه بمصر.

وقد فُقِدَ جماعةٌ من القرّاء والعلماء الذين كانوا مع الأشعث، فمنهم من هرب، ومنهم من قُتل في المعركة، ومنهم من أُسِرَ فضرب الحجاج عنقه، ومنهم من تتبّعه الحجاج حتى قتله. وقد سمّى خليفةُ بن خياط طائفة من الأعيان، فمنهم: مسلم بن يسار المزني، وأبو مرانة العجلي وقد قتل، وعقبة بن عبد الغافر وقد قتل، وعقبة بن وشاح وقد قتل، وعبد الله بن خالد الجهضمي وقد قتل، وأبو الجوزاء الربعي وقد قتل، والنضر بن أنس، وأبو المنهال سيار بن سلامة الرياحي، ومالك بن دينار.

ومن أهل الكوفة سعيد بن جبير، وعبد الرحمن بن أبي ليلى وقد قتلا صبرًا بين يدي الحجاج، وعبد الله بن شداد، وأبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود، والمعرور بن سويد، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، وأبو البَخْتَرِي، وزبيد بن الحارث الياميان، وعطاء بن السائب.

والعَجَبُ كلُّ العجبِ من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة وليس من قريش، وإنّما هو كندي من اليمن، وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أنّ الامارة لا تكون إلا في قريش(١)، واحتجّ عليهم الصدّيق بالحديث في ذلك، حتى إن

(١) عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: **«الأئمةُ من قريش، إذا حكموا عدلوا، وإذا عاهدوا وَفَوا، وإن استُرحموا رحموا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»**. أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٢ / ١٦٣) قال الأرناؤوط
=

الأنصار سألوا أن يكون منهم أمير مع أمير المهاجرين؛ فأبى الصدّيق عليهم ذلك، ثم مع هذا كله ضرب سعد بن عبادة الذي دعا إلى ذلك أولًا، ثم رجع عنه.

فكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه وهو من صليبة قريش، ويبايعون لرجل كندي بيعةً لم يتّفق عليها أهل الحل والعقد! ولهذا لمّا كانت هذه زلّةٌ وفلتةٌ؛ نشأ بسببها شرٌّ كبيرٌ هلك فيه خلق كثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون»(١).

ولقد كان هناك جمعٌ من العلماء عارضوا هذه الفتنة أو اعتزلوها اتّباعًا للأدلّة، «ومن أبرز هؤلاء: أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي، وأبو قلابة الجرمي، وكان يعتب على غيره ممن شارك، ومنهم إبراهيم النخعي، وكان يعيب على سعيد بن جبير مشاركته فيها، ومنهم أيوب السختياني، ومنهم طلق بن حبيب، فكان معتزلًا الفتنة وكان يقول: اتقوها بالتقوى، ومنهم مُطرّف بن عبد الله الشِخِّير، ومنهم مجاهد بن جبر، ومنهم خيثمة بن عبد الرحمن الجعفي، ومنهم محمد بن سيرين، ومنهم الحسن البصري(٢).

=

والأسد: إسناده صحيح، وأخرجه أحمد (٣ / ١٢٩).

(١) البداية والنهاية (٩ / ٤٩-٦٩) باختصار. وانظر: الطبري (٨ / ٤٠) وابن الأثير (٤/ ٥٠٢) وابن الأعثم (٧ / ١٥٧).

(٢) عن سلم بن أبي الذيال قال: «سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام، فقال: يا أبا سعيد، ما تقول في الفتن مثل يزيد بن المهلب وابن الأشعث؟ فقال: لا تكن

=

قال شيخ الإسلام: «وقلّ من خرج على إمام ذي سلطان؛ إلا وكان ما تولّد على فعله من الشرّ أعظم مما تولّد من الخير، كالذين خرجوا على يزيد بالمدينة فإنهم هُزموا وهزم أصحابهم، فلا أقاموا دينًا، ولا أبقوا دنيا[1]، واللهُ تعالى لا يأمرُ بأمرٍ لا يحصل فيه صلاح الدين ولا صلاح الدنيا. وكان أفاضلُ المسلمين ينهون عن الخروج والقتال في الفتنة، كما كان عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب وعلي بن الحسين، وغيرهم، ينهون عام الحرّة عن الخروج على يزيد»[2].

وبعدُ، فعلى المؤمن أن يكون بعيدًا عن موارد ومصادر الفتن، معتزلًا لها، ضارعًا إلى ربه من مضلاتها، والفتنة إذا أقبلت عرفها العلماءُ، حتى إذا

=

مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟ فغضب، ثم قال بيده فخطر بها، ثم قال: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد، نعم ولا مع أمير المؤمنين». الطبقات (٧/١٦٤) عن: الدولة الأموية للصلابي (٣ / ١٨).

(١) أورد الإمام ابن جرير في تاريخه (٧/٢٦٦) بعضًا مما قاله أصحاب ابن الأشعث فيما بعد، ومن ذلك:

أيـا لهفًـا ويـا حُزْنًـا جميعًـا ... ويـا حَرّ الفــؤادِ لما لقِينـا
تركْنا الدين والدنيا جميعًا ... وأسـلَمنا الحلائـلَ والبنينـا
فـما كُنّـا أناسًـا أهـلَ ديـنٍ ... فنصـبر في البلاء إذا ابتُلينا
ومـا كُنّـا أناسًـا أهـلَ دنيـا ... فنمنعهـا ولـو لم نَـرْجُ دينا
تركنـا دورَنـا لطَغَـامِ عَـكٍّ ... وأنبـاطِ القرى والأشعَرينا

(٢) منهاج السنة (٢/٢٤١).

تكشّفت وانجلَتْ عرفها الناس، ولا عاصم إلا الله. قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: فما له من طريق يوصله للحق في الدنيا، ولا للجنة يوم القيامة، قد أغلقت دونه سبل النجاة ورفعت عنه أسباب العافية، سائلًا ربي لي ولك السلامة والهدى والفلاح.

هذا، وإنّ من شديدِ الفتن وغامضها: أن يُغلّف الباطلُ بلبوس حقٍّ، فيكونُ للحقّ طرفٌ من الأمر المشتبه أو الباطل، كأن يكون للمسألة أكثر من وجه أو حال، أو أنها باطلةٌ لكن يُستثنى لها حالات من الحق، ومِن هنا يدخل الشيطان للمرء من مطمعِه أو مرهبِه، فينظر لها تشهِّيًا لهواه لا تَطلّبًا لهُداه، فيَضِلّ ويُضِلّ، ويَهلك ويُهلك.

مثاله: أن تكون القضيّةُ والمسألة مما يهمّ السلطان، ويكون له فيها طرفٌ يُفرح ذلك السلطان أو يغضبه، وطرَف بخلاف ذلك؛ فيطمع الناظرُ للمسألة أو يرهب، فيركن لطرفها السهل الهنيء دون الوعر الشديد، ويكتفي بما يستظلّه منها من بعض حق، دون طرفها الآخر المُكمّل للحق كله، والذي بدونه تنقلب المسائل وتنتكس النهايات، فيُغضي طرْفًا عمّا لا تريده نفسه ولا ينتبه لحقيقتها بمجموعها، وينسى أمر: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] وتوجيه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] وملامة: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] وتهديد: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣] ووعيد: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

ولكن لأن النفس قد ركنت للعاجلة؛ فإن الشيطان قد يُلبّس عليه بشبهةٍ وافقت هوى، ومن ذلك بعض مسائل طاعة ولاة الأمور، أو الخروج عليهم، أو أحكام المخالفين له ونحو ذلك.

إن من فتن الزمان فتنةُ السلطان ورعيّته حُسبةً أو رَغبًا أو رهبًا، ومن سَبَرَ تاريخ الإسلام تبيّن له أن أكثر فتن الدماء هي من هذا الباب ولا تزال.

وإنّ ظُلم الحاكم لا يُبرّر الخروج عليه بالسلاح ونقض بيعته وشق عصا المسلمين، ولو جاز ذلك لم تقم ولاية على الإطلاق، فسيزعم حينها كلُّ من أراد الخروج أنّ السلطان قد ظَلَم، ثم سيخرج على من يَخلُفُهُ من يتهمه بالظلم كذلك.. وهلم جرّا، حتى لا يبقى للناس وِلاية ولا أمن ولا نظام، وستضربهم فتنُ الفوضى والاقتتالِ وإدالةِ العدو وانقطاعِ السبل ورفع العافية.

وإنّ كثيرًا من الفتن قد عظُمت واستطالت واستطارت لمّا هُيِّجَ الناس على سلطانهم بدون مبرّر صحيح جليٍّ من الشرع، وهل تسوّر أهلُ الفتنة على أمير المؤمنين عثمان وقتلوه وشقّوا في الإسلام شقًّا لم ترفأْهُ السنين حتى اليوم؛ إلا بسبب تهييجهم ضدّ ما زعموه بمظالم الأمير لرعيته، واستئثاره بالمال والولايات له ولعشيرته! فهل زاد الخير ونقص الشرّ بذلك التهييج؟! وانظر لفتنِ القتل في تاريخ المسلمين بقتل الحسين السبط رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والنفس الزكية وأهل الحرة وابن الأشعث وأهل السبلة(١) في كثير من الدماء المسلمة المُهراقة

(١) انظر: صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة العربية. فصل: معركةُ السّبلة ومأساةُ الانشقاق. للمؤلف.

على عتبات الإنكار المسلّح.

وإنّ العرب بطبيعتها تأنفُ من الطاعة وتميل عنها وترغب إلى ضدها من الانفكاك من قيد الأمر الملزم بالطاعة إلا ما كان من أمر شيخ القبيلة التي ألجأتها لظلّه ملمات زمانهم الشديدة المخوفة، فالنزعة الفردية تسري بقوة في دمائهم، فجاء الإسلام فهذّبها لما يُصلحها فألزمها طاعة الأمير بالمعروف، وشدد على نكث البيعة أو شقّ العصا، وبيّن أن طاعة الأمير من طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، ولا قوام للناس بعد الله إلا بأمير يجتمعون عليه يسوسهم بالشرع ويقودهم بالعدل ويحوطهم بالرفق ويتعاون معهم على البر والتقوى. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله ﷺ قال: «**السمعُ والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره، ما لم يُؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»(١). وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: بايعْنا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثَرَةٍ علينا، وألا نُنازع الأمر أهلَه. قال: «**إلّا أن تروا كفرًا بواحًا، عندكم فيه من الله برهان**»(٢). وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**اسمعوا وأطيعوا وإنْ أُمِّرَ عليكم عبدٌ**

---

(١) البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

(٢) البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٧٠٩).

حبشيٌّ كأنّ رأسه زبيبة»[1]. وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنّ رسول الله ﷺ قال: «**كانتْ بنو إسرائيل تسوسُهمُ الأنبياءُ، كلّما هلك نبيٌّ خَلَفَهُ نبيٌّ، وإنّه لا نبيَّ بعدي، وسيكونُ خلفاءُ فيكثرون**». قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «**أوفوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقَّهم، فإنّ الله سائلُهم عما استرعاهم**»[2]. وعن ابن عباس، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر؛ فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرًا فيموت إلا مات ميتة جاهلية**»[3].

إنّ الصبر على ظلم السلطان لا يعني الضعف بحال، بل هو القوة كلّها في الحقيقة، وعصيان الهوى والصبر على دفعه ورفعه أصعب وأشد من عصيان الناس والصبر عليهم، ولِسواد الناس وضجيجهم على النفس ضغطةٌ لا كضغطة السلطان، بل هي أشدّ، إلا إن كان السلطان جبّارًا. والجبار هو الذي يقتل على هواه.

لذا فمما ينبغي أن يُتواصى به أن يُقال: كما أنّ للسلطان فتنة فللجمهور مثلها أو أشد، لأنّ فتنة السلطان قد يسلم منها من زهد في الذهب والفضة والمنصب والحريّة، أما فتنة الجمهور فلا يسلم منها ـ بإذن الله ـ إلا من زهد في الثناء والجاه وتأثير الخلطة ووطء الأعقاب.

---

(١) البخاري (٦٩٣).
(٢) البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).
(٣) البخاري (٧١٤٣)، ومسلم (١٨٤٩).

وهذا الصبر على ظلم الولاة لا يمنع المظلوم من رفع شِكايته لخالقه وناصره، وما ضاع في الدنيا ونُسيَ فهو موفور في الآخرة ومحفوظ مدّخر في وقت أحوج ما يكون المظلوم إليه، فعلام الحزن إذن؟ فما هي إلا بُلْغةُ عيشٍ، وأيامٌ دونها أيام، حتى يُنتصر للمظلوم في الدنيا أو في الآخرة، فليس من الحكمة في شيء أن يكسرَ المظلومُ عصا جماعة المسلمين ويُضعفهم أمام أعدائهم بسبب مظلمته الخاصة مهما بلَغَت، فالصبرَ الصبرَ تبلغوا.

قَدْ أتانا مِنْ قتلهمْ ما كفانا فبحُزْنٍ نَبِيتُ غَيْرَ سُرُورِ

ومهما رأى الغيورون على حرمات الله من ضعف الاستقامة في الدين وانتشار الفساد وضعف الاحتساب ووهن الانقياد فعليهم بإحسان الظن بالله والعملِ على رفع أسباب الفساد بما شرعه الله لهم من أبواب تغيير المنكر وإقامة المعروف، وألّا يرفعوا عذاب الله بعذاب الله، بل بالتوبة والتجرّد والاستغفار وحسن الاتّباع، وما أكثر الأبواب المقدُورة في الواقع، ولكن الكسل والتراخي والإخلاد إلى الأرض والعجلة والتواكُل مؤذنةٌ للمخذولِ بقذف الملامة على غيره وتبرير فشله وتزكية نفسه، والله المستعان. ولقد قال لقمان لابنه: يا بنيّ، إيّاك والكسل والضجر، فإنّك إذا كسلت لم تؤدّ حقًّا، وإذا ضجرت لم تصبر على حقٍّ. ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤].

ومن سنن الله تعالى أن المنكَر العام إذا لم يُحتسب في دفعه وإنكاره فإن العقوبة تكون عامّة، قال الكبير العظيم سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:

١٣٧]، وقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٥-٤٦].

وهذا زمانُ الصبر مَنْ لك بالتي كقبضٍ على جمرٍ فتنجو من البلاء

ولقد كتب ابن تيمية كلامًا نفيسًا في وصف يأسِ بعض الناس عند رؤية العجز العام عن القيام بأمر الدين فقال بقلمه: «وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغيّر كثير من أحوال الإسلام جزع وكلّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى، وأن ما يصيبه فهو بذنوبه. فليصبر إن وعد الله حق، وليستغفر لذنبه، وليسبّح بحمد ربه بالعشي والإبكار»(١).

فلا تحزن إن لم يستجب لك من حارب الله بالمعاصي، فإن كتَب الله دوام ضلاله فلو قرأت عليه القرآن كله لن ينتفع به، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]. والباطل لا يطيق رؤية الحق وأهله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:

(١) مجموع الفتاوى (١٨ / ٢٩٥).

٨٨]، ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

ولكل مصلح: امضِ لسبيلك متوكلًا على ربك مستنًّا بنبيك ﷺ متأملًا هذا البيان الحاسم من رب العالمين: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦]. وقد أحسن من قال: الكفاية على قدرِ العبودية.

وكلما دهمك همٌّ بما تراه وتسمعه من تسلّط أهل الباطل على الحق وأهله فردد متدبرًا قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾ [محمد: ٤].

ولكل قلبٍ أضناه الحزن لعجز يده أو لسانه عن إنكار منكر: أنكِرْ بقلبك، ثم تدبر قول ربك: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨].

وما دام المؤمن متعلقًا بربه، محسنًا الظن به، تامّ الطمأنينة بتدبيره، مفوّضًا أموره إليه؛ فهو -والله- بخيرٍ مهما اشتد بلاؤه. فلله في ثنايا ابتلائه منحًا عظيمة ونعمًا جليلة، لا يتصورها إلا من عرف ربه بجميل صفات كماله، وكفى بنعمة الصبر والرضا والشكر والحمد والإيمان نعمة، فلله الحمد كثيرًا.

ولا تحدثني عن دنياك مهما كانت حالك معها، لكن حدثني عن حال قلبك مع ربك، فهو محور سعادتك لأبد الأبد. ولقد كتب أخٌ لأحمد بن حنبل

أيام المحنة(١):

هـذي الخطـوبُ ستنتهي يـا أحمـد فإذا جَزِعْتَ من الخطوب فمن لها
الصـبرُ يقطـعُ مـا تـرى فاصـبر لهـا فعسـى بهـا أن تـنجلي ولعلّهـا

فأجابه الإمام:

صـبَّرْتني ووعظتنـي فأنـا لهـا فسـتنجلي بـل لا أقـول لعلّهـا
ويحُلُّهـا مـن كـان يملـك عقـدَهَا ثقـةً بـه إذْ كـان يَمْلِـكُ حلّهـا

وتذكّر أن الخلق مجرد أسبابٍ يُجري الله تعالى أسبابًا للرزق على أيديهم، فلا خوفٌ علينا في أرزاقنا فهي مكفولة مضمونة، لكن الخوف العظيم من نقص أدياننا وتقصير أعمالنا، إذ لم يضمنها الله لنا، بل وعدنا وأوعدنا، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] فاسأل الرازق الغنيَّ ابتداءً وانتهاءً وإفرادًا، اسأله أنواعَ الأرزاق، واعلم أن خيرها رزق الإيمان والعلم النافع والعمل الصالح، وتوكّل على الحي الذي لا يموت، وثق بمن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يُجار عليه، ولا تلتفت بقلبك ولا بوجهك لسواه. فكل شدّة إلى زوال، وكل كربة إلى ذهاب، وكل هم إلى نهاية، المهم ألّا تهتزّ ثقتك بالله طرفة عين. واهتف لقلبك:

صرفـتُ النـاس عـن بـالي فحبـل وِدادهـم بـالي
وحبـلُ الله معتَصَـمي بـه علّقـتُ آمـالي

---

(١) الآداب الشرعية (٥٥).

فـــلا وجهـــي لـــذي جـــاهٍ ولا مَـــيلي لـــذي مـــالِ

ويصلح حالُكَ إذا دبّرت دينك أكثر من تدبير دنياك، فرزقك مكتوب لك، ولو هربت عنه لأدركك، فابذل أسبابه واعمر آخرتك، ولا تخش الفقر فإن ذلك من لمّات الشيطان: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. فلا تغتمّ لمستقبلٍ يصنعُهُ من هو أرحم بك منك.

❋ ومن فقه الفتن: العملُ الجاد على ردّ الناس إلى الله ردًّا جميلًا، فالدعوة إلى الله هي وظيفة المرسلين، وهي أعظم ما يبقى للمؤمن بعد رحيله عن هذه الدنيا، فاعمل على أن تنتظم في سلك الدعاة إلى الله على بصيرة وهدى، وافرح بكل خير يصل للناس منك أو من سواك، وقد تمنّى الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يحوز الناس ما في صدره من علم ولا يُنسب له شيء من ذلك، نُصحًا وتجريدًا.

فالمصلِحُ أمانٌ لمن حوله بإذن الله، لأنه بتوفيق ربه آخذٌ بأيدي الناس لبحر رضوان الملك العلام سبحانه، حاجزٌ بينهم وبين أسباب غضبه وأليمِ عقابه، ولا أعلم سورة في القرآن صُرّفتْ فيها القوارع وصُرعتْ فيها الأمم كسورة هود عليه السلام. وتأمل ختام قصصها بذكر ضرورة النهي عن إفساد الأرض بالخطايا: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦] أي لو وُجد أولئك وأصلحوا ما عُذبت

أممهم! فلا إله إلا الله. ومصداق ذلك في الآية التالية لها: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]. وقال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلامُ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»(١).

وأشدّ عقوباتِ الذنب أن يُطبع على القلب بسببه، قال تعالى: ﴿لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠] أي لم يعد لعقولهم فائدة لما يُصلِحُ آخرتهم، فالذنوب شرٌّ متراكم ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ﴾ [الأنفال: ٣٧] وبعضها شرٌّ من بعض، قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أكل الربا مُجرَّبٌ لسوء الخاتمة، عياذًا بالله تعالى».

ولئن كانت محبة شيوع الفاحشة في المؤمنين مؤذنة بعاجل عقوبة الدنيا مع ما يُدَّخرُ لصاحبها من عذاب الآخرة، فما بالك بمن يجتهد لإشاعتها ويتكبّر عند سماع الناصحين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ٨- ١٠] فهو يجادل ويخاصم لإطفاء نور الله، ويلوي عنقه عن الحق تكبّرًا وإعراضًا، فحسبُه جهنم!

ومانعُ العذاب هو الإصلاح والاستغفار، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

---

(١) مسلم في الإيمان (١٤٥).

مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] وتدبر كيف اشترط لدفع العقوبة الجماعية الإصلاح فقال: ﴿مُصْلِحُونَ﴾ ولم يقل صالحون، فلا بد من الإصلاح الناشئ عن صلاح، أما مع السكوت أو الإقرار فثمّ الرِّجزُ واللعنة ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨- ٧٩]. والناس معادن كمعادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والزرنيخ، فعند العافية والسراء قد تختلط حقائق المعادن عبر طلاء خبيثها تزييفًا وتدليسًا حتى إذا نزل البلاء وادلهمت الشدائد وثار نقع الفتن انماعت أقنعة الشمع عن وجوه المدلسين والدخلاء والمدّعين وزال طلاء معادنهم فظهرت حينئذ حقائقهم ونصعت وأشرقت معادن الذهب التي تزيدها الشدة والامتحان صلابة وصفاء وإشراقًا، والله لا تخفى عليه خافية ولا تستتر عنه خابية ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

إن انتشار مظاهر الاستقامة في الناس في أرجاء الأمة قبل نحو عقدين من الزمن لهو شيء مفرح لكل مؤمن، حتى وإن شاب بعض نواحي ذلك التديّن نقصٌ عند بعضهم من جهة ضعف التربية العلميّة أو العمليّة، إذ هو شيء طبيعي لاختلاف مدارك ومشارب وموارد الناس، واختلاف أمزجتهم وبيئاتهم، وسنة الله تعالى في تمايز نسبة التديّن بينهم.

أقول: إن انتشار مظاهر الاستقامة قد أغاظ المنافقين ومَن في قلوبهم

مرض، الذين لا يريدون للدين عزًّا ولا لأهله مجْدًا، فحاربوا رجوع الأمة لربها ويقَضتها من سُبات الغفلة بكل جهد أطاقوه، وأجلبوا عليها بخيلهم ورَجِلِهم وعتادهم وعديدهم. هذا وقد وافقَ حرب المنافقين لها بعض أهويةِ الساسة في بلاد الإسلام، فركبوا الموجةَ المضادّة لها عبر تجفيف منابعها وحرب دعاتها وتقليص مناهج التعليم الشرعي ومنع الملتقيات الدعوية والحدّ من حلق تعليم القرآن ونحو ذلك، ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وهذا العمل ليس مستغربًا من بعض الجهات والهيئات المعروفة بتوجهها الليبرالي العلماني، ولكن يعظم العَجَب والدَّهَش حين نعلم أن بعضًا ممن يحمل كِبَرَ تلك الحرب العَوَان وبأساليب غاية في الدناءة واللؤم هم من بعض منتسبةِ علم الشريعة وطلبة العلم. وكم من لحية تقطر نفاقًا وكبرًا وأردانًا تفوح حسدًا وبغيًا. وحجّتهم أن هناك تيّارًا غير مرضيٍّ عنه قد يستفيد من تلك المحاضن الدعوية والتعليمية لدى الشباب، وهذا عين الباطل وأَنْفُ حجتهم مكسور، فمنعُ الخير العام المُتيقّن بحجة قطع بعض الشرّ المظنون ليس من الصلاح في شيء، بل هو ضرب من سوء الرأي والتدبير وخصلة من السَّفَه والتقصير.

* والحل. إن وُجد ما يقولون. ليس بحجب النور والعلم والفضيلة عن فلذات الأكباد العطاش للخير، بل يكون بتنقية الميدان من الكَدر ومتابعته وتصفيته، فليس من الحكمة قطع الشجرة المثمرة بسبب تعلّق النبتة المتسلقة بها، بل هذا فساد، إنّما الحلّ يكون بقطع الضارة المتسلقة دون الشجرة

النافعة. كُلِ الثّمارَ وخَلِّ العودَ للنّارِ.

❋ ومن دروس الفتن: أنّ ضراوة الفتنة تشتدّ ويعظم خطرها حين لا يعلم صاحبها أنه مفتون، وغالب ذلك من فتن السرّاء، فهي فتنة إلى فتنة، ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ [النساء: ٩١] عياذًا بالله من الفتن. فسَعةُ الرزق قد تكون بركةً لحُسن نيّة وعمل العبد، وقد تكون مكرًا من الله واستدراجًا، ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦] والقاعدة: أنّ كلّ ما قربك من ربك فهو نعمة، وكل ما أبعدك عنه فهو فتنة، ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

واعلم أن فتن السرّاء والضراء تُمحّص النفوس، وتمايز الصفوف، وتُظهرُ حقائقَ القلوب، ويستبين بها النقي الطيب، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

❁❁❁❁

بين الدّعوةِ والسِّياسة

المنهجُ السلفي في حقيقته منهج كامل تام لأنه خُلاصة الإسلام، فمَن حقّق الإيمان والإسلام في نفسه فهو سلفيّ صميم وسُنّيٌّ مستقيم، حتى وإن لم يُلقّب نفسه بذلك، فالاعتبار بصوادق الحقائق لا مَفاخِرِ الألقاب.

وبما أن هذا المنهج يُعدُّ منهجًا تكامليًّا؛ فليس بمستغرب أن تحاول بعض الأنظمة ويهتبل بعض الساسة الاستفادة القصوى من مزاياه التي منها: أنه منهجٌ يدعو للاجتماع والالتفاف حول الإمام الذي يسوس الناس بالشريعة، ويحرّم الخروج عليه بلا مبرر حقيقي شرعي لا متوهّم بدعي.

وفي الكلام على هذه التيارات والأطياف السلفية المتنوعة (الشركاء المتشاكسون، والأصدقاء الألدّاء) ننبّه إلى أنه حتى لو قلنا بأن بعض الأنظمة تستفيد وتُمثِّل دور طائفة معينة في بعض أدبيّاتها ومواقفها؛ فهذا لا يعني بالضرورة نقدًا لتلك الطائفة فضلًا عن أن يكون عيبًا وسبّة، وذلك لأن تلك الجهات المتسلّقة لا تأخذ بمنهج تلك الطائفة بشكل تكامليّ بل تلفيقي، فتتناول منه ما وافقها على سبيل التشهّي لا الاهتداء.

وليس هذا بجديد لا على مستوى الأفراد ولا الجماعات ولا الدول، كمن يأخذ من الإسلام ما راقه على سبيل الانتقاء والتشهّي مع ترك ما خالف هواه، .فحتى الصليبي نابليون قد ادّعى الإسلام على الطريقة الصوفية ليحصّل مراده .وليس العيب في الإسلام إنما العيب في اللصوص.

ولكن هذا لا يمنع أن ننظر بعين الريبة لمن انتسب لتلك الفئة ووافق تلك الأنظمة على فعلها التلفيقي الصارخ، واصطفَّ معها، ولم يتبرّأ من ختلها وغدرها. فهناك ـ بكل صراحة ـ يحقّ للمتأمل أن يضرب بقلمه ولسانه صارخًا بأن هاهنا خللًا منهجّيا فأصلحوه، وقصورًا مسلكيًّا فقوِّموه، ورتقًا أخلاقيًّا فارفَأُوه، ودعاية سيئة ضد هذا المنهج فأوقفوها بالفعل الصادق لا القول الكاذب.. فقد رابني منها الغداةَ سُفورُها.

وثمّت أمرٌ مثير للرّيبة ـ وهو الوجه الآخر لعملية التعاون على المنكر ـ وهو أن بعض الأطراف قد تستفيد من بعض الأنظمة والمؤسسات السياسية لتسويق الجزء الذي يصلح لها من منهجها، فثمّ أنظمة تدعم المدّ الطُّرُقي للخرافة الصوفية والمعتقد الكلامي التحريفي وتُجاهر بحرب الفضيلة، ثم نراها ـ بورعٍ بارد أو مكر سافر ـ تبسط حمايتها على بعض المنشآت العلمية الفردية أو المؤسسية لتيار منتسب للسلف، وكذلك العكس، مع أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المنبثق عن الولاء والبراء هو أصل عظيم للمنهج السلفي، ومنارٌ شهير له، وفرعٌ كبير لدوحة الجهاد في سبيل الله الذي اشتهر هذا المنهج الأصيل بإقامته، فهل هذا من جَلَدِ الفاجر وعجز الثقة وغفلة الصالحين، أو هو من: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨]؟!

وهذا ما دعى بعض المراقبين لاتهام بعض الجهات السيادية في بعض الدول بالمسؤولية المباشرة عن إنشاء أو تغذية ذلك التيار وحقنه بالمواد اللازمة لنفخه، وربما كان في ذلك مبالغة، إلّا أن سوء الظن هذا قد يكون له ما

يبرّره من تصرّفاتٍ لا نجد لها مخرجًا من سبعين مخرج، وهل أحبُّ للسياسي من أن ينشغل أهلُ الرأي والتأثير بشذب وطعن ونقد أنفسهم عنه وعن مشاريعه وأطماعه؟! مع هذا فقد يكون السياسي ـ أحيانًا ـ بريئًا، ولكنّ حرارة الخصومة للتيار الآخر المنافس هي التي أعمت وأصمّت وأحرقت أوراق الخريف، فانكشف ستر البغي، فبات يخصف على سوءته من وَرَقِ الفِرَى.

وعلى كلّ حال فلسنا بسبيلِ اتّهام وتحقيق، فكلّ شيء وارد في حرب الأفكار ومزايدات الساسة، ولكن السعيد هو من كان ذا صدقيّةٍ وتُقًى وورعٍ واستقامة وعلمٍ وحسنِ نظر للمآلات المصلحيّة للأمة. فالمؤسسات الدينية ـ حتى عند غير المسلمين ـ هي سلاح ماض مع السياسيٍّ أو ضدّه، فكلٌّ يدّعي به وصلًا، قال مكيافيلي في كتابه "الأمير" الذي قاله عنه ديورانت: أجمع الحكام الدكتاتوريون على ذمّه وأجمعوا على العمل بما فيه! قال مكيافيلي: «إن الدين ضروري للحكومة، لا لخدمة الفضيلة، ولكن لتمكين الحكومة من السيطرة على الناس».

* ومن جدير التنبيه تبيان أنّ من العلمنة السياسية الماكرة: الاتهام بما يُسمى الإسلام السياسي، فغايته إفراغ التديّن من السياسة، وهذه محصّلة علمانية صرفة، ومضادَّة ومشاقّة للقرآن فالله تعالى قال: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣] فالحياة كلها لله تعالى وحده لا شريك له، وليس فيها شيء لقيصر إلا ما أذن الله تعالى به على وفقِ شرعه، ولا إله إلا الله من أولها لآخرها عقيدة وشريعة وعبادة

وأخلاق وسياسة.

إنّ من فروع الإسلام الصحيح: الجهادُ في سبيل الله والاحتسابُ السياسي، وقد فعله الأئمة، وجهادُ البيان بمحكمات القرآن لا يقلّ درجةً عن جهاد السِّنان، بل قد فاقه في بعض الأحوال، ولا سِنان إلا بعد البيان، وربُّ العزة يقول عن القرآن: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢] أي بالقرآن العزيز، فجهاد اللسان لا يقل مرتبة عن جهاد السنان، والقلم واللسانُ رُمحانِ في ميدان وغى العلم والفكر، فاخطم بهما وجوه الباطل، وانصر بهما الحق المبين، ديانةً لله رب العالمين، ومن بنى مواقفه على ثناء الناس أو ذمهم انقطع.

وفي زمن الهوان يُظهر المنافقون ما كانوا يبطنون، ﴿سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾ [الأحزاب: ١٩] وفي النهاية: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وأنّ من أكبر أسباب فشل قانون الياسق الذي جاء به المغول لديار الإسلام فتوى ابن تيمية وإخوته العلماء بكفر ذلك القانون وكفر أهله ومن عمل به. فإن من هدي السلف الصالح التركيز على معالم الدين التي تبدأ في الاندراس والغيبوبة في حياة المسلمين، سواء في الاعتقاد أو القول أو العمل أو حتى السلوك. وفي بقاع تنحية الشريعة تبرز ضرورة تكرار ذكرها وبيانها والحجاج دونها والإلحاح بذكر أهميتها، والشرك أنواع وصور وسُبُلٌ كلها إلى الضلال هادية وفي النار هاوية، فمِنَ العجز والفشل والخذلان التركيزُ على

بعضها مع ترك أخرى هَوَتْ فيها قلوبُ فئامٍ من العباد جهلًا أو غفلةً أو شهوةً أو تقليدًا، فَلُبَابُ التوحيد هو المحبة والخضوع والتعلق والرغبة والرهبة، فانظر أين اتّجاهها في قلوب الناس، هل هي لرب الناس أم مَكَرَ بهم الوسواس الخناس؟!

والعلماء للقلوب كالأطباء للأبدان، فالطبيب يداوي علة الجسد من سقمه العارض مع مراعاة صحته العامة، وكذلك العالم يداوي مرض القلب الطارئ مع مراعاة سلامة الدين عامة، والطبيب يوازن موادّ الجسد ويدفع كل علة بما يضادها، فالحرارة تدفع بالبرودة والعكس، والرطوبة باليبوسة والعكس، والتخمة بالحمية أو الاستفراغ، فيحرص الطبيب على توازن معادن الجسد حتى تستقيم صحته، ويحرص على منع ورفع الطارئ المؤذي المُسقم، كذلك العالم للقلوب والأديان، فيحرص على حراسة الدين ويزيد جهاده في مواطن الثغور التي يلج منها العدو الرجيم لقلوب المؤمنين، واعتبر ذلك بالصحابة لما ركّزوا جهدهم وجهادهم على مبدلي الدين بإخراج ركنيّة الزكاة منه إذ فرقوا بين القرينتين الصلاة والزكاة، فثَابَ الناس للدين، ومرّ الزمان فوهَن جدار فطرة بعض الناس لمّا فتحوا على قلوبهم نوافذ شبهات الفلاسفة، فتزعزع يقينهم وكثفت شبهاتهم، فركّز علماؤهم كالإمام أحمد وأقرانه على هتك الشبهات الطارئة في هذا الباب وتحصين الناس عبر الكتب والرسائل وعبر الثبات على اللأواء والعذاب والتنكيل، فشكر الناس لهم حسن صنيعهم بعد انكشاف الفتنة وانجلاء المحنة، ثم كثرت ضروب شهوات الأفكار من كل اتجاه فركّز ابن تيمية وأصحابه على كشف زيفها وهدم بنيانها، ولا زال

أهل العلم ينهلون من ثمار علم أولئك الجيل الفريد، ومرّ الزمان واستدار فسقط بعض الناس في أحابيل الشيطان عبر شرك الأمم الغابرة بالتعلق والتبرك والدعاء والاستغاثة فركّز الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه على هدم صروح شرك العبادة باللسان والسنان فهدى الله الناس بهم.

ومرّ الزمان فاستطال الشيطان على أهل الإيمان برُباعية الشرّ والمكر وهي شركُ الحاكمية وخرافةُ التصوّف ونجاسةُ التغريب وكفرُ الإلحاد، فركّز العلماء على مدافعة ذلك الباطل والمكر ومجاهدته بكل سبيل ولا زالوا، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

إنّ توحيد الحاكمية لله تعالى وحده متعلق بالربوبية من جهة التشريع، وبالألوهية من جهة التعبّد بالتحاكمِ واعتقادِ إفراده تعالى بالتحكيم، وبالأسماء والصفات من جهة الاسم والصفة، فالله الحَكَمُ والحكيم، وقد قال ﷺ: «**إن الله هو الحَكَمُ وإليه الحُكم**»[1]. فالحاكمية متعلقةٌ بأنواع التوحيد كلها[2].

---

(١) البخاري في الأدب المفرد (٨١١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٥).

(٢) والحاكمية من فروع توحيدي الربوبية والعبادة، فالربوبية؛ من جهة الحكم، والعبادة؛ من جهة التعبّد بالتحكيم والتسليم. وهنا وقفة مُصْطَلَحيّة: فإنّ لكلِّ فنٍّ اصطلاحاته التي تعارف عليها أهلُه، ومِن الحدود والتعريفات ما يكون شرعيًّا؛ أي أنّ تعريفه قد
=

=
ورد من جهة الشرع، أو لغويًّا؛ أي ما تعارفت على اسمه العرب، أو اصطلاحيًّا؛ أي ما تعارف عليه أهل الفنّ المعيّن أو الصنعة الخاصة. وإنّ من حسنِ التَّأتّي للمسألة: إحسانُ معرفة حدودها في اللسان والتصوّر، وسأضرب المثال في شأن تحرير بعض المصطلحات العَقَديّة الشائعة.

فما زالت ـ بحمد الله ـ للغة القرآن جادَّةٌ يطرقها من رام الكلام في المعتقد، ذلك أنّ اللغة هي الوعاء للمعاني، والحبل الموصل للمعين الأصيل من الوحي الإلهي بشقيه؛ الكتاب والسنة، فإن اختلّت اللغة أو ضعفت أو حتى اشتبهت؛ لَحِقَ المحتوى بقدر ذلك في ذهن المُتلقِّي. وكم دخل المبتدعةُ حصون السنة عن طريق اللغة، سواء بتقحّم الأدلة بعُجمة؛ ككثيرٍ من أهل الكلام، أو بطبعِ أصولِ الديانة بطابعهم ـ عند أتباعهم ـ كما فعل المعتزلة، وهم قلّة نسبةً لعلماء السنة في العربية، ولم يُصِبْ من زعم خلافه. وسأقف إزاء نموذجين لقوالب لغويّة مشهورة بين تدوينات وكلمات أهل العلم المعاصرين في مسائل المعتقد: الأول من جهة الاشتباه، والثاني من جهة الخطأ في المعنى والتصريف. وهي قابلة للنقاش على كل حال لأنها من قبيل المصطلحات التي لا مشاحّة فيها عند سلامتها معنى ومبنى.

الوقفة الأولى: تسميةُ توحيدِ العبادة بأسماء أخرى (ألوهية، إلهية، عبودية) هي تسميات صحيحة بلا تردّد، لا من حيث الاشتقاق ولا من حيث المعنى، لكن هناك ربكةٌ ذهنيّة في فهوم مبتدئة طلبة العلم حيال ذلك، وقد لاحظتُها فيهم ابتداءً من المراحل الابتدائية حتى ما بعد الجامعية! فإذا سألتَ أحدَهم عن الفروق بين توحيد الربوبية والألوهية؛ حار في الجواب، للاشتباه في الاشتقاق.

سبب ذلك أنّه بطبيعتِهِ العربيّة سيعيد اللفظ –تلقائيًا– إلى اشتقاقه ومصدره، وسيؤدّيه هذا إلى أنّ الربوبية مشتقةٌ من كلمة "الربّ"، والألوهية مشتقة من كلمة "إله"، والكلمتان تشيران إلى ذات واحدة؛ لأنّ اجتياز ذلك المدى المعرفي اللغوي إلى الوصول
=

=

لمعرفة أصل كلمة "ربّ" ورجوع اشتقاقها ومصادرها وفروعها لمعنى الخلق والملك والتدبير، أو أنّ كلمة "الإله" راجعة إلى معاني التألّه والعبادة، من مألوهٍ بمعنى معبود؛ ليس لعموم طلبة زماننا، فالعُجمة فيهم فاشية ظاهرة. فطال تشقيقُ الكلام على معنى كُنّا في غنى عن تشتيت مبتَدِئَةِ الطلبة فيه. لذا فلو اكتفى العلماء في تحريرهم وبيانهم أقسام التوحيد الثلاثة على القول بأنها: الربوبية، والعبادة، والأسماء والصفات والأفعال؛ لكان خيرًا، لأمرين:

الأول: راحةٌ للطالب من الحَيرة، ورحمةٌ به من التشتّت.

الثاني: أنّ لفظَ العبادة شرعيّ وليس بمحدث، وإن كانت كلها شرعية، أعني: الألوهية والإلهية، لكن هذا اللفظ أقرب من جهة أنه متعلّق بالعبد ونيّته وأقوالِه وأعمالِه. والله أعلم.

الوقفة الأخرى مع تلك المصطلحات المحتاجة إلى إعادة نظر: مصطلحُ التّخلية والتّحلية، وقد انتشر هذان اللفظان بين المتأخرين في بيانهم معنى رُكني الشهادة. وأظنُّ أن لو استُبدِلتا بما هو أولى منهما، خاصة أنه يوجد في اشتقاقات جذر كلمة "التخلية" ما هو أولى منها، ككلمة "إخلاء" مثلًا، لدلالتها على التفريغ والإزالة فقط، أما التخلية فلها معانٍ أُخر غير مرادة. أما "التحلية" فليست سائغة لغةً بهذا المعنى، فليس لها معنى مفهوم في مرادها الموضوعة له في هذا السياق؛ لرجوعها في الأصل للحِلية وللحَلوى. و"التحلية" المرادة هنا ربّما ظنوا أنّ أصلها كلمة "إحلال"، فصرّفوها على وزن "تحلية" لتواكب التخلية، ولا أظنّ هذا التصريف من العربية في شيء. وعلى القول بإرجاعها إلى الحلوى أو تحلية الطعام، وهي الوجبة الحلوة المقدمة بعد الدّسم؛ فهو إزراء كبير بمعناها! هذا ولم أجد للسلف في التعبير بها حرفًا، وكلّ خير في اتّباع من سلف حتى في مصطلحاتهم، وكأنّ أصلها راجعٌ إلى الطُّرُقيّة، ومن ثمّ إلى أرباب السلوك المتأخرين، ويقصدون بها معاني عدة، منها: الذكر الخاص، وأحوال تَرِدُ على قلب المريد والسالك،

=

وتوحيد الحاكمية متعلّق بمراتب الدين الإسلام والإيمان والإحسان كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. فالتحكيم إسلام، وانتفاء الحرج إيمان، والتسليم المطلق إحسان. فيا لَخيبة الجاهلين، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وتدبر عظمتها ومقامها ورتبتها في أصول الإسلام من قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]. ومن ظن أن الشريعة لا تصلح للتنمية المعاصرة والاقتصاد الحديث والثقافة الدولية؛ فقد استدرك على الله تعالى أمره وحُكمه وحكمته، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

❁ من الناس من أوهى حبل الحاكمية لله وحده نكاية بخصوم، أو طمعًا لحظوظ، فصيَّرَ أصول الدين قواعد طمع أو مشافي غيظٍ، فزلّت به قدم الاستقامة إلى الانحراف عن سبيل الله. وقد بُليت الأمة اليوم بأشباهٍ للعلماء يروّجون للقانون الوضعي الكفري في بلدان المسلمين حتى قال أحدهم:

=

ونحو ذلك. الشاهدُ: أنّ هذه الجملة في حاجة لإعادة تقويم ونظر. ولو قيل: الكفر بالطاغوت قبل الإيمان، أو البراء قبل الولاء، أو النفي قبل الإثبات، والأخيرُ كأنه أجودُ من جهة الإطلاق اللغوي، وبالله التوفيق.

إيتوني بأي مادة قانونية تريدون سنّها وسأخَرِّجُها لكم على وجه من وجوه المذاهب الأربعة ولو على قول شاذّ، ولنا هٰهنا عبرتان:

أولاهما: أن العلم مهما اتسعَ في صدر حامله وكثر في قلب صاحبه فإنه لا ينفعه مالم يخشَ به الله ويزيده منه قربًا وحبًّا ورجاء وخوفًا، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ۗ﴾ [فاطر: ٢٨]. وكثير من الناس قد حاز علمًا الجهلُ خيرٌ منه، وفهمًا البلادةُ أسلم منه، وذكاءً بلا زكاءٍ أضحى لصاحبه حتوفَ عذابٍ ومهاويَ ردى. ومنَ المعارفِ ما يضرُّ وينفعُ. وقد قالت أم لابنها الذي أضحى إمام هدى: يا بني احفظ حديثًا أو اثنين، فإن زكى إيمانك، وإلا لا تكثر من حُجج الله عليك.

وعـــــالمٌ بعلمـــــه لم يعملـــــن مُعــذّبٌ مــن قَبْــلِ عابــدِ الــوثن

والثانية: أن ذلك الرجل هو الآن عند ربه وحيدًا فريدًا، قد زالت عنه الدنيا، وانجلت عن عينيه غشاوتها بكشف ستر الآخرة، وتلاشى عنه حطامها، واستبان له فناؤها، وأقام في الدار الآخرة دار الجزاء والحساب والوقوف بين يدي رب العباد تعالى، فسبحان من لا يبقى سواه ولا يدوم إلا إياه. ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦- ٢٧]، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وتدبر قول الله تعالى مبيّنا أن الدنيا كلها لا تستحق أي مقابل وحظٍّ من الآخرة فكيف بمن اشتراها بها: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١] وقد

ورد هذا المعنى في القرآن في نحو تسع آيات لعظيم خطره، وأول من يوعظ به ابتداء حملةُ العلم حتى لا يبيعوا الدين بالدنيا. وإن الدنيا بحذافيرها لهي حطام فانٍ وثمن زهيد وعوض قليل نظير بيع آيات الله وعهده وميثاقه، قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أنتم في زمان يقود الحقُّ الهوى، وسيأتي زمانٌ يقود الهوى الحقَّ، فنعوذ بالله من ذلك الزمان»(١). وسُئل حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: متى يعلم المرء أنه فتن؟ فقال: «إن كان ما يراهُ بالأمس حرامًا أصبح اليوم حلالًا فليعلم أنه فُتِنْ»(٢). فلا تُبَدّل فتُستبدَل.

إنّ سُنّة المدافعة بين الحق والباطل باقيةٌ حتى يُرفع القرآن في آخر الزمان، ولكلِّ زمن رجاله وأحداثه ومِحنه، والله يتولى الصالحين، ويدافع عن المؤمنين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]. قال ابن تيمية: «والمتخلف عن اتباع الرسالة بمنزلة المتخلف عن اتباع نوح عليه السلام وركوب السفينة معه»(٣).

وايْمُ اللهِ مهما ارتفع ضجيج الباطل فعاقبته الصمت المطبق أمام الحق المطلق، إنما هي فتنة الناس بالناس، ولا تعجل ما دمتَ على الحق فقد قال الحق: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال:

---

(١) القرطبي (١٩/٢٠٨).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٣١١).
(٣) الفتاوى (٤/ ١٣٧).

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]. وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] فهنيئا لمن استعمله الله في طاعته.

واعلم أنه ليس كل من خرج على السلطان معدود من الخوارج . شرّ الخلق والخليقة[١] . فقد يكون خارجيًّا وهو قابع في بيته لأنه يرى صحة مذهبهم، وقد لا يكون خارجيّا وهو شاهر سيفه كالبغاة مثلًا.

واعلم أن الخوارج والمعتزلة يجمعهم أمران ويفترقون في أمرين . في شأن مرتكب الكبيرة .: فيجمعهم نزع اسم الإيمان عنه، والقول بتخليده في النار. ويفترقون في تلقيبه بالكفر واستحلال دمه وماله، فقد فعلت الخوارج وخالفهم المعتزلة. فالخوارج هم من يرون كفر مرتكب الكبيرة ويرون الإنكار بالسيف، ومع ذلك فقد شاب بعض الجماعات الإسلامية شوائب خارجية ونراها . بمرارة . تزداد مع الأيام، فمنهم من وصل لاعتناق ذلك الفكر الخبيث، ومنهم من قاربه، ومنهم من تحيّر وتردّد. والموفّق من عصم الله قلبه ولسانه وقلمه وسيفه من الوقوع في حبائل الخوارج وحرائق شبههم، وسلّم اللهُ يده ولسانه من دماء المسلمين وأعراضهم، والمعصوم من عصمه الله تعالى.

❁❁❁❁❁

(١) مسلم مرفوعًا (١٠٦٧).

ضرورةُ حفظِ اللسانِ وحراسته

ما من عضو بعد القلب أشدّ خطرًا من هذا اللسان، وما من جارحة أحقُّ بطول حبس منه، وإنه لعجيبة من عجائب خلق الله تعالى، ونعمة جليلة من أكبر آلائه، فبِهِ يكون البيان الذي نبّه ربُّ العزة لجلال شأنه بقوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤].

فبه لسانًا وبَنانًا يُعرب عن مكنون ضميره ورغائب نفسه، وبه يطلب حاجاتِه، وبه يعبد ربه ويدعوه ويلهج بذكره وشكره. فهو من أعظم وسائل رضا الله عن عبده لمن أحسن استعماله في طاعته.

وبالمقابل فهو هاوية لا قرار لها إلا في دركات الجحيم لمن أطلق عنانه بالكفر والشرك ومساقط غضب الجبار جل جلاله، روى البخاري(١) أن النبي ﷺ قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالًا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم**». وتأمّل: «**لا يلقي لها بالًا**» إنه اللسانُ، ذلك البَنَّاءُ العجيبُ للحسنات، والهادمُ لها. فمن هنا يتبيّن للمؤمن خطر هذه الجارحة التي تسمّى اللسان، وفي زماننا ـ زمان الكتابة ـ أصبح القلم أحد اللسانين، فاحفظ لسانَيك لعلّك تنجو. واحذر أن يضربَ لسانُك عنقَك، أو يهتك

---

(١) البخاري ١٢٥/٨ (٦٤٧٨).

سترك، أو يهدم دينك. ولا يكن لسانُك: كحسامِ السيف ما مسَّ قطع.

رأيـــتُ اللســـانَ عـــلى أهلـــه إذا ساسَـــهُ الجهـــلُ ليثًـــا مُغـــيرًا

وإن كان بغيُ السِّنان مُعطِبٌ فإن مبدأه اللسانُ، وكم في المقابر من قتيلِ لسانه.. ومَن سلّ سيف بغيِ لسانه قُتل به، وعقلُ المرءِ مدفون بلسانه، فاللسان غطاء العقل، فمتى نطق انكشف الغطاء، وقد كان يُجالس الأحنفَ رجلٌ يُطيل الصمت حتى أُعجب به الأحنف، فقال الرجل يومًا للأحنف: يا أبا بحر، هل تقدر أن تمشي على شرف المسجد؟ فتمثل الأحنف:

وكائن ترى من صامتٍ لك معجبٍ زيادتــه أو نقصــه في الــتّكلّم(١)

ولكل عملِ جارحةٍ غدًا من الله طالبٌ وسائلٌ، فهلّا أعددت جوابًا صوابًا. ولا بد للمؤمن أن يعرف حدود ربه حتى لا يتجاوزَها عن جهل أو جهالة، ولقد أَوْلَى أهل العلم مناهي الشرعِ في الألفاظ عناية تامّة، لأن اللسان مؤاخذ بنطقه ومسؤول عن كلامه ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

ذكر القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]: «قال بعض العلماء: هذا كتاب، لسانك قلمه، وريقك مداده، وأعضاؤك قرطاسه، أنت كنت المُملي على حفظتك، ما زيد فيه ولا نُقص منه، ومتى أنكرت منه شيئًا يكون الشاهد منك عليك».

---

(١) وهي من ضمن معلقة زهير بن أبي سلمى والبيت التالي لهذا البيت:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصف فؤادُهُ فلم يبق إلا صورة اللحم والـدمِ

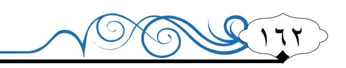
وزِنِ الكـلامَ إذا نطقـتَ ولا تكـن ثرثـــارَةً في كـــلِّ نـــادٍ تَخْطُـــبُ
واحفـظ لسـانَكَ واحـترز من لفظـه فـالمرءُ يسـلم باللسـان ويعطـبُ

وإنّ من أعظم أسباب حفظ اللسان: دوامُ ذكر الله تعالى، فالذكر يملأ فراغ القلب بتعظيم العظيم، ويشغل اللسان بالأمر العظيم، حينها يرى صاحبُه نفاسة عمره فيحفظه. ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ولما شكى أحدهم إلى الحسن قسوة قلبه قال: «أَذِبْهُ بالذكر». وقال: «إذا لم تجد اللذة في ثلاث فاعلم أن الباب مغلق؛ في الصلاة، والقرآن، والذكر». وقال ابن تيمية: «كلّما ازداد المرء ذكرًا لله ازداد له محبة». والذكرُ هو اتصال البال بالله تعالى بأي وجه كان، بالقلب: تذكُّرًا وتفكُّرًا واعتبارًا، وباللسان: بالقرآن والأذكار وقول الخير، وبالأفعال الشرعية.

وللذكر مراتبٌ وتفاضلٌ في أنواعه: وأفضلها القرآن والتهليل والتكبير والتسبيح والتحميد والصلاة على النبي ﷺ والاستغفار والدعاء، وأحواله: وأشرفها السجود، وأزمنته: وأطيبُها السَّحر وعشية الجمعة وعشيّة عرفة، وأمكنته: وأجلُّها بيوتُ الله وعَرَفَة في يوم عرفة(١). والدين كله ذكرٌ، وضدُّ الذكرِ الغفلة. ولا غنى لمؤمن عن ذكر ربه، وكلما رغب في الآخرة اغترف من بحر الذكر العظيم.

---

(١) قال شيخ الإسلام: «الحجيجُ عشيّةَ عرفَةَ يُنزَل على قلوبهم من الإيمانِ والرّحمة والنور والبركةِ ما لا يمكن التعبيرُ به» مجموع الفتاوى (٥ / ٣٧٤).



ومن حقوق العلم الدعوة إلى الله به، ولا بد للداعية من ذكر ربه على الدوام، والله تعالى لما أرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون أوصاهما بلزوم الذكر فقال: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢] أي ولا تضعفا عن مداومة ذكري.

❋ فعلى المؤمنين بعامّة وطلبة العلم خاصّة الاعتناء بحراسة اللسان من فخّ إبليس في المجالس: الغِيبة، فهي من كبائر الذنوب، مع ذلك فحال كثير من الصالحين معها كالمستحلّين لها بالحال لا بالاعتقاد، خذلانًا وخيبة. فيا من كان له قلبٌ فانقلب؛ إنّ الشقيَّ ترى له أعلامًا.

والنفس تستروح لتنقّصِ الناس لتستريح من لومها على تقصيرها، وهذا الإسقاط الخفي إن لم يتداركه الناصح لنفسه في نفسه فإنه يستفحل به حتى يأكل حسناته بكيلِ مظالم العباد. وقد قيل: «القلوب كالقدور في الصدور، تغلي بما فيها، ومغارفُها ألسنتُها، فانتظر الرجلَ حتى يتكلّم، فإنّ لسانه يغترف لك ما في قلبه من بين حلو وحامض وعذب وأجاج».

لقد توسّع بعضهم في التساهل في الغيبة بما لم تُبحه الشريعة، فالأصل الثابت هو حرمة العرض المسلم، فلا يباح خرق هذا الأصل إلا على برهان من الشريعة، وليس كلّ من زعم أنه يحذّر من بدعةٍ محقّ في تحذيره ولا مستنٌّ في أسلوبه وطريقته، و«**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ**»[1].

---

(١) مسلم (١٧١٨) قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تباح الغيبة لغرض شرعي، وذلك لستة أسباب:

=

=

أحدها: التظلّم، فيجوز للمظلوم أن يتظلّم إلي السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلان أو فعل بي كذا.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر وردّ العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته: فلان يعمل كذا فازجره عنه ونحو ذلك.

الثالث: الاستفتاء، بأن يقول للمفتي: ظلمني فلان أو أبي أو أخي أو زوجي بكذا فهل له ذلك، وما طريقي في الخلاص منه ودفع ظلمه عني ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة. والأجود أن يقول في رجل أو زوج أو والد وولد كان من أمره كذا، ومع ذلك فالتعيين جائز لحديث هندٍ وقولِها: «إنّ أبا سفيان رجلٌ شحيح».

الرابع: تحذير المسلمين من الشر، وذلك من وجوه منها: جرح المجروحين من الرواة والشهود والمصنّفين وذلك جائز بالإجماع، بل واجبٌ صونًا للشريعة.

ومنها: الاخبار بعَيبه عند المشاورة في مواصلته.

ومنها: إذا رأيت من يشتري شيئًا معيبًا أو عبدًا سارقًا أو زانيًا أو شاربًا أو نحو ذلك؛ تذكُرُه للمشتري إذا لم يعلمه نصيحة لا بقصد الايذاء والإفساد.

ومنها: إذا رأيت متفقّهًا يتردّدُ إلى فاسق أو مبتدع يأخذ عنه علمًا وخِفت عليه ضررُه؛ فعليك نصيحته ببيان حاله قاصدًا النصيحة.

ومنها: أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها لعدم أهليّته أو لفسقه؛ فيذكُرُه لمن له عليه ولاية ليستدل به على حاله، فلا يغترّ به ويلزم الاستقامة.

الخامس: أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته، كالخمر ومصادرة الناس وجباية المكوس وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهِر به، ولا يجوز بغيره إلا بسبب آخر.

السادس: التعريف، فإذا كان معروفًا بلقب كالأعمش والأعرج والأزرق والقصير والأعمى والأقطع ونحوها جاز تعريفه به، ويحرم ذكره به تنقّصًا، ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى، والله اعلم». شرح النووي على مسلم (١٦ / ٣٧٩) ووافقه ابن حجر في الفتح (١٠ / ٤٧٢).

ومن بوائق الألسن: نشرُ الإشاعات، ويشتد خطرها عند الفتن وتغيّر أحوال الناس وتقلّبهم من أمن لمخافة ونحو ذلك، قال شريح القاضي: «إذا جاءت الفتنُ فلا تستخبر ولا تُخبر».

❁ وكذلك حمّالة حطب السيئات: النميمة. وبعضهم ينمّ ولا يشعر ظانًّا أن النميمة لا تكون مذمومة إلا إن كانت بقصد سيء، وما علم أن النميمة هي نقلُ الكلام على وجه الإفساد بأي وجه كان، فكم من ناقل كلمة على وجه المرح والتفكّه أفسد مودة القلوب وأحيا ميت العداوات، كيف إن صحبها مكر ودناءة وسوء طوية. ومن حمل إليك حطب نميمته في الناس، فاعلم أنه سيسلخك قريبًا في قدورهم. ومن جعل قلبه وعاءً لاستقبال النمائم، وساعدها بأجنحة سوء ظنونه بالناس؛ فليبشر بخراب مدينة سروره، واضمحلال هناءة عيشه وذهاب أجور بعض حسناته لأعدائه، فالعَضْهُ نفّاخةُ فتن.

ففتّش صحيفتك ونقّها اليوم قبل نشرها غدًا، ونقّ سريرتك الليلة قبل ابتلاء السرائر غدًا، وتذكّر قول الحبيب ﷺ: «**لا يدخل الجنة نمّام**»[1]. ولما مرّ بقبرين قال: «**إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير! بلى إنه كبير: أما أحدهما، فكان يمشي بالنميمة..**»[2].

❁ ومن بوائقِ الألسن: التنابزُ بالألقاب بغيًا وعدوانًا، ويكأن زماننا هو

---

(١) البخاري ٨/٢١ (٦٠٥٦)، ومسلم ١/٧٠ (١٠٥) (١٦٧).

(٢) البخاري ١/٦٥ (٢١٨) ومسلم ١/١٦٥ (٢٩٢) (١١١).

زمان هذا النوع من البغي، والله المستعان.

وليس من المستساغ التنابز بألقاب المناهج المُحدثة، ولا أظن أن عاقلًا يستطيبُ نسبته لهذه الألقاب، لعلمه بما وراءها من قصد المذمّة، ولاكتفائه بتسمية الإسلام والإيمان، وبعد ذلك السلف والسنة والجماعة. عِلمًا بأن هذا الأمر -الانشغال بالطعن والثلب والنّبز- ليس محصورًا في تيّار بعينه، فلا يسلم كلّ تيار من أفراد يقعون فيه، ولكن لتيّار معروف اختصاصٌ بذلك، لدرجة أن من لم يشتغل بالطعن والثلب أصالة أو نقلاً فلا تصح نسبته إليه. وهذا من مبكيات هذا الزمان، والمُشتكى إلى الله.

فَـمَا لِأُخُـوَّةٍ فِي اللهِ مَعْنـىً إِذَا كَـانَ الصَّـدِيقُ هُـو الإِدَامَـا
وَهَـلْ مِـنْ سَـاعَةٍ للهِ تُـرْضَى إِذَا كَـانَ الحُسَـامُ لَنَـا احْتِكَامَـا

أمّا الذي يحدث الآن بين كثير من أنصاف المتعلّمين ممن سبقت حماستُهم أحلامَهم وتغايُرُهم تواضُعَهم وتحارشُهم وئامَهم؛ فهو فوضًى فكرية بلا ضابط علميّ، وطيشٌ صبياني بلا قدوة حازمة، وهمجيّة أخلاقية في التعاطي مع المخالف. فيا حسرتى على شباب دفعتهم الحماسة بلا علم لأتون فتنٍ تلقّفتهم لقْفَ الطيور الفراش، فلا علمٌ يُبصّرهم، ولا حكمة تهديهم، ولا ثقةً بعلمائهم تردّهم، ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

قد دبّت هذه الآفة في مجامعِ التكاثر، التي ظاهرها محاضنُ تربية وبضاعتها سنُّ حراب التصنيف وحدُّ سيوف التفريق، فيركض التلميذُ مع شيخه حيث حطّت رحلها أم قشعم، بلا برهان كاف ولا دليل واف، إنما هو التعصّب

الأعمى والجاهلية المتلبّسة بلبوسِ غَيْرَةِ الديانة وصولة الدفاع عن حياض السنة.. وكذبوا!

فمن كان غيورًا على الدين فليأت بيوت معضلات المشكلات من أبوابها لا ظهورها، وليحذر من التخوّض في أعراض المسلمين كما يحذر تخوضه في دمائهم وأموالهم، وليعلم أن لكل كلمة منه طالبٌ من الله، فمعتَقٌ أو موبقٌ. وقد نقل القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإجماع على أن الغيبة من الكبائر، وتكفيها شناعة وصف الله تعالى لها: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾ [الحجرات: ١٢]. وقيل لحكيم: ما نراك تعيب أحدًا؟ فقال: «لستُ راضيًا عن نفسي حتّى أتفرّغ لذمّ النّاس». وجاء رجل إلى الشافعي فقال له: فلانٌ يذكرك بسوء. فأجابه: «إذا صدقتَ فأنت نمّام، وإذا كذبت فأنت فاسق». فخجل وانصرف.

وليس لمن طَعَنَ أعراضَ عباد الله من عذر أو مندوحة وإن زعم حماية الدين وحراسة السنة. فالسلف الذين جَرحوا وتكلّموا قد فعلوا ذلك مع من استبان منهم الزيغ وعظمت بهم الرزيّة وخِيف على الأمة من ضلالهم، ولم يفعلوه تقليدًا أو طيرانًا مع القالات أو لقاء حظّ نفس حقود وإشباع أخرى حاسدة، والركض مع مطيّر الهوى ومُعْنِقِ الفتنة، فأعملَت موجب صكّ التّهمة على من كان منها بريئًا، والموعدُ الديّان.

ولو فتّش الجارح نيّته وعرض على محكمات الشرع سعيَه؛ لعلم أنه يخوض في أوحال الذنوب ولا يترقّى درج الحسنات. وكثيرًا ما تَهدي قلائصُ حُمّى الغضب والجهل للبغي والضلال، لا الهدى والرشاد، مالم تُضبط بمعيار الوحي المنزل.

وفي أيِّ جيل . مهما علا كعب أصحابه . ثمّت أخطاء فردية اجتهادية أو غيرها، ثم يأتي بعض من بعدهم ممن يبحث عن مستند لشذوذاته فيدّعيها مستندًا له، وهذا ضلال. والقاعدة الفاذّة لطالب العلم: تكلّم بعلم أو اسكت بحلم.

ولقلّة تجربة الشاب وطيش غريزته فهو أولى بالتنبه والتنبيه، وإن كان الجميع في حاجة دائمة للتذكير المتكرر بخطر اللسان، وليس كلّ صغير السن سفيه العقل، فكم من حديث السن راجح العقل وافر الحلم حسن السّمت، يستهدي بحلمه الشيوخ كما يُستهدى بجدي الشِّمال في القِفار، ولكن من كان صغير السن كان أحرى بالزلل ممن عَرَكَتْهُ التجارب بثِفَالِها والسنينُ بأحمالها. وواقعية الكهولة مهمة لموازنة تأملات الشباب الحالمة.

ولا خــيرَ في حلــمٍ إذا لم يكــن لــهُ بــوادرُ تحمــي صــفوهُ أن يُكــدّرا
ولا خــير في جهــلٍ إذا لم يكــن لــهُ حلــيمٌ إذا مــا أورد الأمــرَ أصــدرَا

ومن استصغر شأن الشباب فقد ظلم نفسه، فعمود الإسلام شبابُه، وقد كان كثير من الصحابة شبابًا حين قاموا لله تعالى تلك المقامات العظيمة، فمن ذلك سابقتُهم في الإسلام، فمن الشباب السابقين علي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وسعد بن أبي وقاص، والزبير، وعبد الله بن مسعود، وطلحة، وخبّاب، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مظعون، وقدامة بن مظعون، ومسعود بن الربيع، والأرقم بن أبي الأرقم، وإياس بن معاذ الأنصاري، رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ. وفي بيعة العقبة الثانية رافق رسولَ الله ﷺ عمُّه العباس ليستوثق

له، وكان يعرف أهل المدينة، فلما نظر في وجوههم قال: «**هؤلاء قومٌ لا نعرفهم، هؤلاء أحداثٌ**»(١). أي شباب. وشبابُ الصحابة كانوا من السبّاقين للقرآن الكريم، حتى قال ﷺ في ذلك: «**استقرِئُوا القرآنَ من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل**»(٢). وثلاثة من هؤلاء شباب. وقد أخذ ابن مسعود من فمِ رسول الله ﷺ سبعين سورة، وأثنى عليه بقوله: «**إنك غلام مُعَلَّم**»(٣). وقد بعث عمر بن الخطاب مجمع بن جارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأهل الكوفة ليعلمهم القرآن، وكان شابًّا. كما أنّ القراء السبعين الذين استشهدوا في بئر معونة كانوا شبابًا كما قاله أنس(٤). وقد كان شباب الصحابة من أحرص خلق الله على طلب العلم، ولك أن تعلم أنّ العبادلة الفقهاء كلّهم من الشباب، وغالب المُكثرين من رواية حديث رسول الله ﷺ كانوا شبابًا؛ كعائشة، وجابر، وابن عباس، وابن عمر، وأبي سعيد الخدري، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

كما كان شبابهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الاجتهاد الشديد في العبادة كعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن طلحة (السجّاد)، وابن الزبير، وابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ للإمام المجدد رَحِمَهُ اللَّهُ (٨٨).
(٢) البخاري (٣٧٥٨) ومسلم (٢٤٦٤).
(٣) أحمد (٣٥٩٧).
(٤) أحمد (١٣٤٦٨).

وقد كانوا أصحاب عقل وأمانة في تلقّي القرآن وكتابته، قال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لزيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إنك رجل شابٌّ عاقل، ولا نتّهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ؛ فتتبَّعِ القرآن فاجمعه»(١).

وحتى قيادة الجيوش العظيمة لم يصغر عنها الشباب، فقد كان أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قائد الجيش الغازي الحرقات من جهينة والجيش الذي غزا الروم، وكذلك عليٌّ كان للجيوش قائدًا.

وكانوا أمناء على المال؛ فقد تولّى قسمة غنائم اليرموك زيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكانوا يتولّون الحُسبة، فقد كان السائب بن يزيد ممن تولّوها في عهد عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وكان لهم جلدٌ وبطولة في الجهاد كعلي بن أبي طالب، وسلمة بن الأكوع، وأبي قتادة، ومعاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ. وكلّ من ذكرتُ لك من الشباب كانوا دون سن الخامسة والعشرين، وكثير منهم كان دون العشرين(٢).

وإنّ من توفيق الله للشاب صحبةُ الثقات في دين الله، قال ابن شوذب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ من نعمة الله على الشاب إذا تنسّك(٣) ؛ أن يؤاخي

---

(١) البخاري (٤٦٧٩).

(٢) وانظر نماذج مشرقة من ذلك في شباب الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، مواقف وعبر. لمحمد الدويش.

(٣) أي تعبّد.

صاحب سُنّة يحمله عليها»(١). وقال عمرو بن قيس الملائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ الشاب لينشأُ، فإن آثر أن يُجالس أهل العلم؛ كاد أن يَسلم، وإن مال إلى غيرهم؛ كاد أن يعطب»(٢).

ومقصودي بالعتب . يا محب . بعض الحدثاء ممن يندفعون بلا رويّة ولا أناة. والحداثةُ داء برءُهُ الكِبَرُ. وإنّ حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام اليوم فئتان:

* فئة غَلَتْ في التكفير فاستحلّت الدماء الحرام، وفئة غلت في التبديع فاستحلّت الأعراض الحرام، وكلاهما على ضلال مستبين.

وكم من موقدٍ للفتن قد غفل عنه الناس ولم يغفل عنه رب الناس ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] فالمشرك ظالم، والخائض في الدماء أو الأعراض بلا علم وورعٍ ظالم. والفتنة إذا ظهرت فهي كالنار السريعة في الهشيم، تحترق وتُحرق فَرَاشَ العقولِ وهم السفهاء، وتُلحق بهم من استخفّوه من ذوي الأحلام، ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]. قال ربيعة بن عبد الرحمن: ولَبَعضُ من يفتي ههنا أحقُّ بالسجن من السُّراق. وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا رأي أعظمُ ذمًّا من رأيٍ أُريقَ به دمُ ألوفٍ من المسلمين، ولم يحصل بقتلهم مصلحة للمسلمين لا

(١) الإبانة لابن بطة (٤٣).
(٢) الإبانة (٤٥).

في دينهم ولا في دنياهم، بل نقص الخير وزاد الشر»(١). سبحان الله، ألَا إن من الناس من يتوحّش ويفترس ويهلك كالسباع، فحينها يصدُق القول: إن أخطر سباع الأرض هو الإنسان.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وباب التكفير باب خطير، أقدم عليه كثير من الناس فسقطوا، وتوقف فيه الفحول فسلموا، ولا نعدل بالسلامة شيئًا»(٢) وعلمٌ لا يقرّبك من الله لا خير فيه حتى وإن تزخرف لك، ومن العلوم ما يضر ولا ينفع ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقد يصيح في وجهك شاب متحمّس عجول بأنه مجرّد ناقل لردود العلماء أو طلبة العلم على خصومهم، وأنّهم لو لم تتبيّن لهم صوابيّةُ الكلام في ذاك الإنسان ما تكلّموا ولا طعنوا ولا جرحوا ولا حذّروا. وهذا ـ في الحقيقة ـ ليس بمبررٍ كاف للنجاة من المساءلة غدًا، فمن لم يكُ راسخًا فليسعه بيته، وليبك على خطيئته، وليقنع بالعافية، وليرضَ من الغنيمة بالإيابِ، ولينكمش على ما عنده من خير، ولئن يخطئ في العفو خير له من أن يخطئ في العقوبة، فكلام الأقران يُطوى ولا يروى، وقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: لا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض، فإنهم يتغايرون تغاير التيوس في الزريبة. وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: شهادةُ القُرَّاء مقبولةٌ في كل شيء إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنهم أشدُّ تحاسدًا من التيوس. إي على الطعام والمِعْزَى ونحو ذلك. وقال ابن

(١) منهاج السنة النبوية (٦ / ٦٦).
(٢) فتح الباري (٢١/٣١٤).

تيمية: «قد يُبتلى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه الله لعلم نافع أو عمل صالح، وهو خلق مذموم مطلقًا، وهو في هذا الموضع من أخلاق المغضوب عليهم»(١).. وأرى العداوةَ لا أَرَى أسبابَها!

وعليه فلا يجوز نقل كثير من كلام طلبة العلم والدعاة في خصوماتهم، فكثيرُه نابع من غيرةٍ وحسد، والمعاصرة أساس المُنافرة، وناقِلُ الغيبة هو أحدُ المغتابين، فتنبّه. وسُئل أحدهم عن المرء كثير الطاعات، لكنه يغتاب؟ فقال: «لعل الله سخّره ليعمل لغيره!» فمن أعظم الحسرات يوم القيامة: أن ترى طاعتك في ميزان بغيضك الذي اغتبته. وقيل للحسن البصري: فلان يغتابك. فقال: «مرحبًا بحسنة لم أعملها، ولم أتعب فيها، ولم يدخلها رياء ولا سمعة».

قال الخطيب: قال لي الصَيْمَري: «سمعتُ من الدارقطني أجزاءًا من سُننه، وانقطعتُ لكونه ليَّنَ أبا يوسف، وليتني لم أفعل، إيش(٢) ضرَّ أبا الحسن انصرافي»؟(٣) وقال حُسَيْنَكُ بنُ علي: «سألني ابنُ خزيمة فقال: كتبتَ عن محمد بن جعفر الطبري؟(٤) قلت: لا. قال: ولِمَ؟ قلت: لأنه كان لا يَظْهرُ،

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١ / ٦).

(٢) أيش: منحوت من (أي شيء) تسهيلًا لكثرة الاستعمال، وقد تكلمت به العرب. وانظر: المزهر في علوم اللغة (١ / ١٦٥) والمعجم الوسيط (١ / ٣٤).

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٨ / ٧٨).

(٤) هو ابن جرير الطبري، شيخ المفسرين والمؤرخين وكلّهم عيالٌ عليه، وله مذهب فقهي مندثرُ الأشخاص مبثوثٌ في الكتب، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكانت الحنابلة تمنع من الدخول عليه[١]. قال: بئسَ ما فعلتَ، ليتَكَ لم تكتبْ عن كلِّ ما كتبتَ عنهم، وسمعتَ من أبي جعفر»[٢]. فأبو جعفر هو شيخ المُفسرين والمؤرخين، وكان فقيهًا مجتهدًا وله مذهب منسوب إليه، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال أبو الوفاء ابن عقيل[٣]: «رأيت الناس لا يعصمهم من الظلم إلا العجز. ولا أقول العوام، بل العلماء، كانت أيدي الحنابلة مبسوطة في أيام ابن يوسف، فكانوا يتسلّطون بالبغي على أصحاب الشافعي في الفروع، حتى لا يُمكّنوهم من الجهر والقنوت[٤]، وهي مسألة اجتهاد. فلما جاءت أيام النظام، ومات ابن يوسف وزالت شوكة الحنابلة؛ استطال عليهم أصحاب الشافعي

---

(١) قال الذهبي في السير(١٤/٢٧٧): وقع بين محمد بن جرير وأبي بكر أمور، وكانت الحنابلة حزب ابن أبي بكر فكثروا وشغبوا عليه.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤/٢٦٢) وانظر: طبقات السبكي (٢/١٣٧).

(٣) قال عنه ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (١ / ٥٧): «أحدُ الأئمة الأعلام، شيخ الإسلام. وله كتاب الفنون، قال الحافظ الذهبي في تاريخه: لم يُصنف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب. وحدثني من رأى منه المجلد الفلاني بعد الأربعمئة. قلتُ: وأخبرني أبو حفص عمر بن علي القزويني ببغداد، قال: سمعتُ بعض مشايخنا يقول: هو ثمانمئة مجلدة».

(٤) الجهر: أي بالبسملة في قراءة الفاتحة في الصلاة الجهرية. القنوت: أي في صلاة الفجر. وهذا مذهب الشافعية. ومنعهم منها بغيٌ وجهل.
أما مقابلة ذلك ـ فيما بعد ـ بنبز الحنابلة بالتجسيم فزيغ وضلال. وقد أحسن أبو الوفاء في وصف الفريقين، والله المستعان.

استطالة السلاطين الظلمة، فاستعدوا بالسجن، وآذوا العوام بالسعايات، والفقهاء بالنبز بالتجسيم. قال: فتدبرتُ أمر الفريقين، فإذا بهم لم تعمل فيهم آداب العلم، وهل هذه إلا أفعال الأجناد يصولون في دولتهم، ويلزمون المساجد في بطالتهم»(١).

قلتُ: وهذا قليل إن شاء الله في أهل العلم، والمقصود التنبيه حتى لا تزل قدمك بتسرّعٍ في غير حِلّه، فأهل العلم غير معصومين من غوائل خطايا الحسد والتعصّب ونحوها، ولا يُتابعون عليها، فهم في النهاية بشرٌ، يلحقهم ضعف البشر ويعتريهم نقص البشر، لكنهم يمتازون في المُجمل بأمرين:

الأول: أنهم أطهرُ فئات البشر قلوبًا لعلمهم بالله وارتياضهم وحيَهُ وشريعته. والثاني: أنهم أسرع الناس فيْئةً بعد غفلة وتوبةً بعد حوْبَة. أكثرَ الله في الأرض أمثالهم، وأحيا قلوب العالمين ببركات علومهم وأعمالهم.

ولقد سطّرت يراعة العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حروفًا نفيسة في حقوق طلبة العلم على بعضهم، وكان مما كتب: «أمّا الواجب على أهل العلم من العلماء الكبار ومَن دونهم، والطلبة فيما بينهم: فعلى كل منهم أن يحب للآخر ما يحب لنفسه، وهذا واجب عمومي على جميع المسلمين، لكن أهل العلم عليهم من هذا الحقِّ أعظمُ مما على غيرهم؛ لما تميَّزوا به، ولما خصهم الله به.

وعلى كل منهم أن يدين لله ويتقرب إليه بمحبته جميعَ أهل العلم والدين،

---

(١) الفروع وتصحيح الفروع (٣ / ٢٣).

فإنّ هذا الحب من أعظم ما يقرِّب إلى الله، ومن أكبر الطاعات. وهذا الحب يتبع ما اتصف به الإنسان من الأمور التي يحبها الله ورسوله، من العلم والاشتغال به، والعمل، فإن نفس الاشتغال بالعلوم الشرعية وتوابعها من أجلِّ الطاعات. ثم حصول العلم للشخص هو من الأوصاف التي يُحَبُّ لأجلها، ثم تعليمه للناس وعمله مما يجب أن يُحَبّ عليه. فكل هذه الأمور موجودة في أهل العلم، فلهم من الحق على أهل العلم وعلى غيرهم أن يميَّزوا بهذا عن غيرهم؛ لما لهم من المميزات.

وإذا عثر أحدهم وغلط في مسألة علمية تعيَّن ستر ما صدر منه، ونصيحته بالتي هي أحسن. ومن أعظم المحرمات وأشنع المفاسد: إشاعة عثراتهم، والقدح فيهم في غلطاتهم، وأقبح من هذا: إهدار محاسنهم عند وجود شيء من ذلك. وربما يكون. وهو الواقع كثيرًا. أن الغلطات التي صدرت منهم لهم فيها تأويل سائغ، ولهم اجتهادهم فيه، فهم معذورون، والواقعُ فيهم غير معذور.

وبهذا وأشباهه يظهر لك الفرق بين أهل العلم الناصحين، والمنتسبين للعلم من أهل البغي والحسد والمعتدين. فإن أهل العلم الحقيقي قصدهم: التعاون على البر والتقوى، والسعي في إعانة بعضهم بعضًا في كل ما عاد إلى هذا الأمر، وستر عورات المسلمين، وعدم إشاعة غلطاتهم، والحرص على تنبيههم بكل ما يمكن من الوسائل النافعة، والذب عن أعراض أهل العلم والدين، ولا ريب أن هذا من أفضل القربات.

ثم لو فُرض أن ما أخطؤوا فيه أو عثروا؛ ليس لهم فيه تأويل ولا عذر؛ لم

يكن من الحق والانصاف أن تُهدر المحاسن، وتُمحى الحقوق الواجبة بهذا الشيء اليسير، كما هو دأب أهل البغي والعدوان، فإن ضرره كبير، وفساده مستطير. فأي عالم لم يخطئ؟! وأي حكيم لم يعثر؟!

وقد عُلمت نصوص الكتاب والسنة التي فيها الحث على المحبة والائتلاف، والتحذير من التفرّق والاختلاف، وأعظم من يُوَجَّه إليهم هذا الأمر: أهل العلم والدين. ومتى أخلّوا بذلك، وحلّ محلّه البغي والحسد والتباغض والتدابر؛ تبعهم الناس، وصاروا أحزابًا وشيَعًا، وصارت الأمور في أطوار التغالب وطلب الانتصار ولو بالباطل، ولم يقفوا على حدّ محدود، فتفاقم الشر، وعظم الخطر، وصار المتولي كبرها: من كان يُرجى منهم. قبل ذلك. أن يكونوا أول قامع للشر.

وإذا تأملت الواقع؛ رأيت أكثر الأمور على هذا الوجه المحزن، ولكن مع ذلك؛ يوجد أفراد من أهل العلم والدين ثابتين على الحق، قائمين بالحقوق الواجبة والمستحبة، صابرين على ما نالهم في هذا السبيل من قدح القادح، واعتراض المعترض، وعدوان المعتدين. فتجدهم متقربين إلى الله بمحبة أهل العلم، جاعلين محاسنهم وتعليمهم ونفعهم نصب أعينهم، قد أحبوهم لما اتصفوا به، وقاموا به من هذه المنافع العظيمة، غير مبالين بما جاء منهم إليهم من القدح والاعتراض، حاملين ذلك على التأويلات المتنوعة، ومقيمين لهم الأعذار المُمكنة.

وما لم يُمكنهم ممن نالهم أن يجدوا له محملًا؛ عاملوا اللهَ فيهم؛ فعفوا عنهم

لله، راجين أن يكون أجرهم على الله، وعفوًا عنهم، لما لهم من الحق الذي هو أكبر شفيع لهم.

فإن عجزوا عن هذه الدرجة العالية، التي لا يكاد يصل إليها إلّا الواحد بعد الواحد؛ نزلوا إلى درجة الإنصاف، وهي الاعتبار بما لهم من المحاسن، ومقابلتها بالإساءة الصادرة منهم إليهم، ووازنوا بين هذه وهذه. فلابد أن يجدوا جانب الإحسانِ أرجحَ من جانب الإساءة، أو متساويين، أو ترجح الإساءة. وعلى كل حال من هذه الاحتمالات فيعتبرون ما لهم وما عليهم. وأما من نزل عن درجة الإنصاف؛ فهو بلا شك ظالم ضار لنفسه، تارك من الواجبات عليه بمقدار ما تعدى من الظلم.

فهذه المراتب الثلاث: مرتبة الكمال، ومرتبة الإنصاف، ومرتبة الظلم؛ تميِّز كل أحوال أهل العلم ومقاديرهم ودرجاتهم، ومن هو القائم بالحقوق، ومن هو التارك. والله تعالى المعين الموفق»[١].

فالسعيد هو من طابَ قلبُه للمؤمنين وبخاصةٍ أهلِ العلمِ والدين، وحَفِظَ لسانه عن الخوض في أعراض المسلمين. وقد قال رجل لصاحبه: إني لأرحمُك مما يقول الناس فيك؟ قال: «أفتسمعُني أقولُ فيهم شيئًا؟» قال: لا، قال: «إياهم فارْحَم».

فاعتقل قلمَك ولسانك في محبس حكمتك وعقلك وورعك، ولا تُطلِقْهما

(١) الرياض الناضرة (٨٩-٩٢) بتصرف يسير.

إلا بخير، وفكّر واعتبر بمآل خطواتك قبل الإقدام، وصوّب قراراتك قبل انطلاق السهام، ولا تعجل.يا بُنيّ.فغدًا تُبدي لك الأيام ماكنت جاهلًا.

لَهَفِي على الأمْرِ الذِي كانت عواقِبُه نَدَامَهْ

وليكن كلامك كالماء السلسال، لا يؤذي الصخرة لكن يحفر فيها مع الزمن حتى يأخذ مجراه فيها يومًا ما، ذلك أن اللِّين الحكيم يغلب الشدةَ الجاهلة. قال سفيان الثوري: «إني لأرى الرجلَ أُبغضُه، فيقول: كيف أصبحتَ؟ فيلينُ له قلبي». ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤].

وإن أردتَّ الإحساس بحلاوة الإيمان وتذوُّق لذة العبادة والانتعاش ببرد اليقين واستشعار نور الصدر ودفئه وانفساحه؛ فانشغل بما يفيدك في المعاد، وبما هو من مهمّاتك الأوّلية وما خلقتَ من أجل تحقيقه، وتدبر حال أهل الجنة: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦] لمّا طهّرُوها في الدنيا بيّضها لهم يوم لقياه ورؤيته، وأذلّوها له بالسجود في الدنيا فأعزّهم في دار كرامته. فابحث.وفقك الله.عن نعيمك المرتقب وسعادتك اللذيذة في سجدة خاشعة طويلة تغسل فيها همومك وتبخّر من صدرك غمومك، هيّا: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

ومتى تعلق المؤمن بكلّيته بربه، وفوّض إليه كل أمره، وقطع عن قلبه كل حبال الرجاء بالخلق ويأس منهم ووثق بربه؛ فهو حريّ حينها بكرامة الله له ولطفه به، وقد يخرق له العادة محبة وإكرامًا، ككرامات الله لأوليائه في حال احتدام الأمر لإقامة الملة أو إغاثة ملهوفٍ بكسر العادة. فسلّم أمرك للسلام.

دعهــا ســـماوية تجــري عــلى قــدر   ولا تنفســدنْها بــأمرٍ منــك منكــوس

وفي الساعةِ التي يتبعُ فيها الجسدُ العقلَ، ويخدم كلاهما الروحَ؛ هناك فقط ستذوق عينَ النعيم، وتوقن أنك في مقصود الخليقة. فلا تضادَّ بينها، ولكن تكامل وأولويات.

وإذا تبصّرت مواقع رُشدك وعواقب غيّك، وانتبهت لعيوبك وأبصرتها، وحرستَ قلبَك وطهّرته، وحصّنت عقلك ونفسك بالعلم والحكمة ومعرفة دخائل النفس وحظوظها العاجلة الخفيّة؛ فستذوق حينها بلسان قلبك حلاوة ثمار الإيمان، وستبتهج بحياتك في رياض القرآن، وستذوق نعيمًا في الدنيا وهو في حقيقته رقيقةٌ من نعيم الجنان، والله الموفق وهو المستعان وعليه المعوّل والتكلان.

❊❊❊❊



الدعوةُ إلى اللهِ سبيلُ الأنبياء

أطيبُ الحديث وأحسنه وأبهجُهُ وأنفعه هو الحديث عن الله تعالى، فالحديث عن اللهِ حياةٌ وسرور وطمأنينة، وهل للقلوب أروح من الحديث عن معبودها وحياة أرواحها.

وكثير من البشر لهم قِيَمٌ يدعون إليها، وغايات يثوّبون الناس لها، ولكن شتان بين مؤمن بالله يستقي القيم من كتابه وسنة رسوله ﷺ وبين من يستقيها من تجارب حياته المادية بمعزل عن الوحي القويم. فثقة الأول بالله لقربه منه، وعلمه به، أما الآخر فعلى جرف هار، ينهار به عند تزلزل حاله، أو فشل مشروعه، بل ربما أقدم على أعظم فشل وهو الانتحار! ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣] وربما قطف أفكار البشر التي ينقضونها قبل إتمام عقدها ويتبرؤون منها حيث بانَ خَطَلُها، لكن وحي الله عن ضلالهم بمعزل: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

ومن أحبَّ اللهَ أحبَّ نفع عباد الله ونَصَحَ لهم واجتهد في نجاتهم، ثم لا بد له من أعداء يصدونه عن سبيل دعوته الربانية الجليلة قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

إن من يعمل ويتعبد ويجتهد في دعوة الناس للخير والإيمان والتربية والتعليم فهو ـ في الأغلب ـ لا يُكثر الخوض في النقد والتّتبع بل يجتنب ذلك

قدر الإمكان، لأنه مشغول بما هو أولى من السفساف، لعلمه أن أعظم الاستثمارات هي ما كانت في العقول والأعمال لإصلاح الأديان.

فإن جُرَّ للرد ورأى المصلحة الشرعية قائمة فإنه يدخل بعلمٍ ويستعمل منهج النبي ﷺ في العدل والرفق والرحمة والتّثبّت وإحسان الظن وحملِ القول والعمل على أحسن محامله، وفي الأغلب يعرّض ويلمّح، لا يُصرّح ويجرّح، أُسوتُه من كان يقول: «**ما بال أقوام..**»(١).

إذا احترَبتْ يومًا ففاضت دماؤُها　　　تذكّرَتِ القُربى ففاضت دموعُها

بينما نرى كثيرًا ممن تصدّوا للتشغيب على أهل الدعوة والخير قليلو المساهمة في البناء، فالهدم يسير لكن البناء هو الشاقّ.. وكلّ إناء بالذي فيه ينضح.

ولا يعني هذا ترك الرد على من أخطأ، ولكن الخلل - في الساحة - يكون عادة بأحد أمرين: في الكمّ أو الكيف. وبتعبير آخر فخُذلانه يكون من أحدِ بابين: فإما أن يكون الردّ والتتبع للعثرات هو الأصل والديدن والسبيل المستمر المعتاد لذلك الناقد، وإما أن تكون طريقة الردّ مخالفة للعدل والتثبّت وإحسان الظن والصدق والرفق. وبكل حال:

والصمتُ أجمَلُ بالفتى　　　من منطقٍ في غير حينه

❊❊❊❊

(١) متفق عليه في أحاديث. البخاري (٨/٣١، ٩/١٢٠) ومسلم (٧/٩٠).

إحسانُ الظنِّ شيمةُ الإيمانِ

إن من شيم المؤمنين إحسانُ الظنون بعباد الله، فلا يتبعون سوءَ الظنّ إلا عند غلبةِ الشُّبهة، مع ذلك فلا يحقِّقُون سوءَ ظنّهم، بل يحملون لإخوانهم أعظمَ المعاذير، وأجمل المحامل، فيقول الصالح لنفسه وقد بلغه عن أخيه سوءٌ: لعلّ الخبرَ لا يثبُت، لعلّها نميمةٌ وبهتان، لعلّ أخي المسلم الذي قيلت فيه القالةُ لم يقصد، لعلّه كان ناسيًا، لعلّه كان غافلًا، لعلّه ولعلّه.

فيستطيلُ بقلبه الطاهر وروحه اللطيفة في تلمّس أعذارِ أخيه، فيروح وقد أراحَ فؤاده من حرارة الأحقاد، ووساوس المعاداةِ، فيكسب بذلك أربح التجارات، إذ قد ربح أجره، وربح راحة نفسه، وربح محبّة الناس له، واستفاد النُّجحَ في أموره لحسن نيّته، فالله شكور حميد، وكسب حُسن العاقبة في الدنيا، فكأيِّن مِمَّن قصد الإضرار بعبدٍ ثم تاب وأناب وشكر ذلك المضرور على إحسانِ ظنٍّ نفعه ولم يضرّه.

والطباع سراقةٌ، والجبلّات نزّاعة، وإنّما الحلم بالتحلّم. ومن فروع الحلم حسنُ الظنِّ، ويتأتّى بالدُربةِ، والممارسةِ، وتعلّمِ أسبابِ ذلك، وتلمّحِ موارده، والبحثِ عن متمّماته، وفحصِ غوائلِ النفسِ، وتنظيفِ دغائلِها على من لا يستحقون سوى الإحسان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال بعض السلف: «من جعل لنفسه من حُسْن الظَّن بإخوانه نصيبًا؛ أراح قلبه». وقال رجل لمطيعِ بنِ إياس: «جئتُك خاطبًا لمَوَدَّتك. قال: قد زوجتُكَهَا على شرط أن تجعل صدَاقَهَا أن لا تسمع فيّ مقالة النَّاس». وقالوا: «السِّتر لما عاينتَ، أحسنُ من إذاعة ما ظننت». وقال أحدُ الزُّهاد الحكماء: «أَلْقِ حُسْنَ الظَّن على الخَلْق، وسوءَ الظَّن على نفسك، لتكون من الأوَّل في سلامة، ومن الآخر على الزيادة».

فعلى من رام النجاة أن يأخذ بأسبابها، ويتعلّق بِعُراها، وما ثمَّ إلا توفيقُ الله تعالى وهُداه. وقد جعل الله لذلك أسبابًا:

فمنها: أن يلتمسَ المؤمنُ الأعذارَ للمؤمنين. قال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرًا، فإن لم تجد، فقل: لعل له عذرًا لا أعرفه». وفي التماس الأعذار راحة للنَّفس من عناء الظَّن السَّيئ الذي يشغلها ويقلقها، وفيه أيضًا إبقاءٌ على المودَّة، وحفاظ عليها من الزوال والانتهاء. وكان بعض الصالحين يردّد:

تـأنَّ ولا تعجـلْ بلومِـكَ صـاحبًا ... لعــلّ لــه عــذرٌ وأنــتَ تلــومُ

ومنها: إجراءُ الأحكام على الظاهر، وإيكالُ أمرِ الضَّمائر إلى الله عز وجل فهو علّامُ السرائر، واجتنابُ الحكم على النِّيَّات، فإنَّ الله لم يكلِّفنا أنَّ نفتِّش في ضمائر النَّاس. وإنّ الاكتفاء بظاهر الشَّخص، والحكم عليه من خلاله، من أعظم بواعث حُسْن الظَّن، وأقوى أسبابها، فأكذَبُ الحديث الظن.

إذا ساء فِعلُ المرء ساءتْ ظنونهُ ... وصـدّقَ مـا يعتـادُه مـن تَـوَهّمِ

هذا وقد أجاز العلماءُ بعضَ صور سوء الظن بأحوالها وضوابطها؛ كمن كان بينه وبين آخر عداوةٌ ويخاف على نفسه من مَكْرِه، فحينئذ عليه أن يحذَرَ مكائدَهُ ومَكْرَه؛ كي لا يصادفه على غرَّة فيُهلِكَه. ومن صورها كذلك؛ من أظهرَ المعصية وتخلّف عن الطاعة بلا عذر، كما قال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «كنَّا إذا فقدنا الرَّجل في صلاة العشاء وصلاة الفجر، أسأنا به الظَّنَّ».

وشتّان بين ظنِّهم وظنِّ ذلك الرجل الذي فقد جارَهُ عن شهودِ الجماعة بضعةَ أشهر، فلم يزُره ولم يتفقّد حاله بل استطال في الكلام في ثلب عرضه، والحطِّ من قدره، وأكلِ لحمه، وأن فيه من سيما المنافقين، وكذا وكذا.. ولم يكلّفْ نفسه السؤالَ عنه، ولا احتمالَ حسنِ الظن به. وفي أحد المجالس بعدما أرغى وأزبد وانتفخ بالباطل؛ ردّ عليه أحد جيرانُه: إن فلانًا الذي ما زلتَ تتكلمُ فيه قد كان مصابًا بمرض خطير ألزمه البيت ستّة أشهر، ثم مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فأُسقطَ في يدِ صاحبنا، ولكن بعد خراب البصرة!

فحسنُ الظن هو القاعدة، وسوؤه مع مبرّره الملحُّ هو الاستثناء، فإنْ انقلبَ الاستثناءُ قاعدةً هَلَك الناس. قال عمر بن الخطَّاب(١) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا يحلُّ لامرئ مسلم يسمع من أخيه كلمةً يظنُّ بها سوءًا، وهو يجد لها في شيء من

(١) قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إذا ذُكر الصالحون؛ فحيَّ هلًا بعمر». وقالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «كان عمر أحوذيًّا نسيج وحده، قد أعدّ للأمور أقرانها». وقالت: «زيّنوا مجالسكم بذكر عمر». وقال الجويني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما دار الفَلَكُ على شكله». رضي الله عن أبي حفص وأرضاه.

الخير مخرجًا». وقال علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «مَن عَلِمَ من أخيه مروءةً جميلةً فلا يسمعنَّ فيه مقالاتِ الرِّجال، ومن حَسُنت علانيته فنحن لسريرته أرجى».

فعلى المؤمنِ الناصحِ لنفسه ألّا يبحث لها عند خطئها المعاذيرَ والمخارجَ، وألّا يُرْكِبَهَا قلائصَ التأويلِ التي لا تُغني عنه من الحق شيئًا في إساءة الظن بما لم يؤذن له فيهم من المؤمنين، بل عليه أن يسيءَ الظن بنفسه، ويحسن الظن بالعباد.

وقد تكلّم أحدهم على الحسن ثم ندم واعتذر؛ فعفى عنه وأوصاه بقوله: «لا تخرجنّ من بيتك وفي نفسك أنك أفضلُ من مؤمن تلقاه قط». وإن كان خطاب حُسْنِ الظنِّ موجهٌ لكل مؤمن؛ فهو لأهل الاستقامة والعبادة وطلاب العلم أولى وأحرى، والله المستعان.

❁❁❁❁

العدلُ والإحسانُ

قال سبحانه وبحمده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] فالعدل فرض لازم والإحسان نفلٌ مستحب. فبالعدل قامت السماوات والأرض، ومن لم يعدل فهو ظالم، والظلم ظلمات يوم القيامة، والله قد حرم الظلم على نفسه وجعله بيننا محرّمًا.

وتأمل رهبة وجلال: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١] فكم تحت هذه الأحرف من معان لو خوطب بها الجبل الصلد وعقلها لانهدّ خشوعًا وفرَقًا، ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

وماذا ينفعُ الترياقُ يومًا إذا وافَى وقد مات اللديغُ

والظلم من دواوين حقوق العباد، وهي مبنيّة على المشاحّة لا المسامحة، فاتق الله في نفسك ـ رعاك الله ـ واعمل على أن ترحل من هذه الدنيا الموبوءة وأنت نظيف النيّة سليم الصدر خفيف الظهر نقيّ الصحيفة تقيّ السريرة، قبل أن تَستقيلَ فلا تُقال وتَستعتِب فلا تُعتب، ولات حين مندمٍ ومناص.

ولا يتّقون الشرَّ حتى يصيبَهم ولا يعرفون الأمرَ إلا تَدَبُّرا

ولن تزولَ للجنّة قدمُ عبدٍ عليه ظُلامة حتى تُرفع عن ظهره، فعليك بالعدل والإحسان وإلا فأمامك مآل الظالمين، فما أحلَكَهُ وأسوَدَه وأبشعه! و«**اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**»(١). قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

---

(١) مسلم ٨/١٨ (٢٥٧٨).

«الظلم يخرّب الديار، ثم قرأ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: ٥٢]». وقال أحد المظلومين وهو يرسف في قيوده ويتألم من أغلاله ويضيقُ مِنْ حِبْسِه: «يا حَجّاجُ، قد مضى من بؤسنا أيام، ومن نعيمك أيام، وموعدنا يوم القيامة، والحاكم لا يحتاج إلى بينه».

أمـــا والله إنّ الظلـــمَ شـــؤمٌ ... ولا زالَ المـــسيءُ هـــو الظلـــومُ
إلى دَيَّـــانِ يـــوم الـــدينِ نمـــضي ... وعنـــد الله تجتمـــعُ الخصـــومُ
ســـتعلمُ في الحســـابِ إذا التقينـــا ... غـــدًا عنـــد المليـــكِ مـــن الظَّلـــومُ

إياك وظلامَ الظُّلم، ولئن كانت البهائم موعودات بالعدالة غدًا فما بالك بالبشر؟ وإن ظلمك أحدٌ ولم تطق حسابه ولا العفو عنه؛ فلا تضق ذرعًا، بل دَعِ الحساب ليوم الحساب.

ومن أعان ظالمًا سُلط عليه، وحُشِرَ معه، قال ابن تيمية: «أعوان الظلمة يُحشرون مع الظلمة، ويوضعون في توابيت من نار يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]». وغدًا تتبخر أحلام الظالمين، قال القاضي ابن أبي دؤاد للخليفة: «اقتله ودمه علي». يعني الإمام أحمد!

إذا جـــارَ الـــوزيرُ وكاتبـــاهُ ... وقاضي الأرضِ أجحفَ في القضاءِ
فويـــلٌ ثـــم ويـــلٌ ثـــم ويـــل ... لقـاضي الأرض مـن قـاضي السماءِ

قال رسول الله ﷺ: **«لتؤدَّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»**(١). وكم من مظلومٍ سبق خصمَهُ بموته

(١) رواه مسلم ١٨/٨ (٢٥٨٢).

لمحكمة الآخرة: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وكم من راقدٍ رافلٍ محتضنٍ بيض خطاياه من ظلم عباد الله؛ قد أوشك بيضُه أن يفقسَ عن سوء منقلبه. ويا عجبًا لا ينقضي من رجال سخّر الله الأرض تحمِلُهُم، وذلّلها تحت أقدامهم وأشهدها عليهم، فحملوها في قلوبهم، ونقلوها مظَالِمَ لمَظَالِمِ قبورهم!

سـهامُ الليـلِ لا تخطـي ولكـن لهـا أمـدُ وللأمـدِ انقضَـاء

والظالم مأخوذٌ تالف مهما استطالت به أمنيته، أو امتد ببغيه حبل غروره، فعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته**»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢](١). ولقد لقيتُ قبل سنين عشيةَ عرفة شيخًا كبيرًا ضعيفًا رثّ الحال محدودب الظهر، يقول: ما حججتُ إلا من أجل أن أدعو في عرفة على فلان، قتل ابني وسلبني! فلا أنساه إن نسيت غيره مع تقادم سنين ذلك الموقف، ولا أنس الثاني كذلك، وكان من خبري أني قد كنت ذات سَحَرٍ في مسجد رسول الله ﷺ في روضته الشريفة، فلما سجدتُ شوّش عليَّ رجل بجنبي يبكي وينشج ويثني على الله تعالى ثناء عظيمًا وحمده حمدًا كثيرًا وصلى على رسول الله ﷺ صلاة جميلة لذيذة هائلة، وقد استشعرت حينها أنه يناجي

(١) البخاري ٦/٩٣ (٤٦٨٦)، ومسلم ٨/١٩ (٢٥٨٣).

الله حقًّا ويستشعر قربه صدقًا كأنّما يكلّمه كفاحًا، ثم ازداد بكاؤه وسمّى رجلًا بعينه ودعا عليه دعاءً مزلزلًا شديدًا قَفَّ شَعر رأسي واقشعرّ جلدي منه، حتى كدتُ أُفتنَ في صلاتي عن صلاتي! وكم أشفقتُ على ذينك الرجلين الذين دُعيَ عليهما دعوة مظلوم من حاجٍّ أشعث أغبر كبير السن، وشابٍّ ذي تألُّهٍ في حال ضراعة وسجود، فلا إله إلا الله ما أهون الخلق على الله، وما أبشع مصير الظالمين، وما أقصر ليل الغافلين، وكيف يهنيهم نوم راحة ويسكن لهم جنبُ رُقادٍ بينما سهام الليل تُرمى عليهم بأكف ضراعة ودموع مفجوع ووعد الله تعالى بإجابتها!

اظلـمْ كـما شـئتَ لا أرجـوكَ مرحمـةً إنّــا إلى الله يــومَ الحشرِ نختصـمُ

وإنّ من الظلم الشنيع غشّ الناس بالتلبيس عليهم والتزييف لدينهم، وكم من مفسد في ثوب مصلح ومحتسب للباطل لا الفضيلة، ومحتسبٍ في حاجة لاحتساب الناس عليه.

وملاك القول: سيأتيك يوم تلتفت فيه للخلف فلا تجد إلا ذكريات تطرب روحك وتُغْنيها، أو تفطر قلبك وتبكيه، فاكتب بحالك ما تود رؤيته غدًا، واعلم أن كل شيء لغير وجه الله يضمحل.

يأخذُكَ العَجَبُ وأنت تناقشُ أحدَهم عن سبب تشنيعه المستمرّ على شخص ما، فيورد لك بكل حماس وصدق تدوينات أو صوتيات قديمة تُدين ذلك الإنسان وفيها ضلال بيّن وباطل لا مرية فيه، ولكن ماذا لو أن ذلك الرجل المشنَّع عليه قد تاب من ذلك الذنب واهتدى بعد ذلك الضلال؟. وقد

وقع ذلك من بعض الدعاة. أَوَليس الواجب أن يختلف الحال معه تبعًا لتلك التوبة المعلنة والتي تبرّأ فيها من ذلك الزور؟ أليست التوبة تجبُّ ما قبلها؟ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ [آل عمران: ٨٩] سبحان الله، من ذا الذي يُحَجِّرُ رحمة الله؟!

فإن قلتَ: إني أُحذّر من خطئه الذي قد يفتن الناس. فسنقول لك: فأنت بهذا نشرت باطلًا قد يكون الناس قد غفلوا عنه، فأذعته بعدما تركوه وبعثته بعدما دفنوه. فإن أصررت على ذلك النشر فلا بدّ لك من إنصافه، فبيّن. إنً كنت ناصحًا صادقًا. أنه قد تاب ورجع عن هذا الضلال الذي كان قد نشره، وإلا فأنت مدلّس بالاتفاق. قال علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «مَنْ أراد أن يُنصف الناس من نفسه فليُحبَّ لهم ما يُحبُّ لنفسه»(١).

أما من لم يتب أو لم يُظهر توبته ويهدم حوبته بنشر السنّة والهدى التي تهدم بدعته وضلاله فله شأن آخر، فشأنك وإياه، فالله تعالى يقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠] وأنت بهذا مأجور بإذن الله ببيان السنة والحقّ والردّ، شريطة العدل فبه قامت السماوات والأرض، والثبّت فبه يكون القسطاس، والنصح فهو حق كل المؤمنين، والوفاء فإنه توأم الصدق. واحذر الحسد، فما تحت أديم السماء أشقى من حاسد.

(١) كنز العمال (٩ / ١٧٩) (٢٥٥٩١).

وقد تعجب أخي القارئ من توضيح الواضح ولكني أهمس في أذنك بأن بضاعةَ إبليس التي ذكرتُ لك رائجةٌ في سوق دُعاتنا بمسمّيات وألوان وتأويلات يراها عيانًا كلُّ مراقب للحال الدعوي المعاصر.. وإن الشقِيَّ بكلِّ حبلٍ يُخنَقُ. فأشعِرْ قلبك حبَّ التثبت والتبيّن فهو من فروع الإنصاف، وما أعزّه في العالمين!

لقد وصل الحال ببعضهم أن يواليَ مَنْ أمَرَ اللهُ بمعاداتهم نكاية في إخوته من الدعاة، وهذا المسلك المخزي ليس خاصّ بفصيل معيّن، بل تلوّث بوَضَره غير قليل، والله المستعان، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]. فترى منهم من يوالي الطاغوت المحكِّم للقانون الوضعي، أو يتولّى الليبرالي المحارب لدين الله، أو اليهود والنصارى كلُّ ذلك لأنّهم وافقوه في حربهم إخوته في الدين، فيا لله كيف يسقط الهوى القِممَ للقُمقُم!

إذا قدوةُ القومِ أمسى لئيمًا ... وباع بأُخراهُ دنيًا أذمْ
فكبِّر وسلِّمْ على أمتي ... فقبل الوفاةِ يكون السقمْ

ومن العجائب أن يقع أحد مُقرّبي فئة ما في تجاوزٍ أو نوعِ ابتداع يسيرٍ غير مقصود؛ فيُغضي عنه ويتأوّل فعلَه بسنّيته العامة وتوحيده الظاهر، فإن رأى من خصمه مِثْلَ ذلك أو دونه؛ زَجَرَه وكَهَرهُ على رؤوس الناس وأشهر نكرانه في أركان الأرض الأربعة. أفلا عاملَ أخاه في الدين بمثل أخاه في الفئة المزعومة. ويحكَ يا هوى النفس الخفي.

وفي المقابل ترى من كان من الفئة المقابلة إنْ زلّ لسانُ أحدِ مقرّبيه بغيبةِ خصمه استروح ذلك وسُرَّ به باطنًا، وأغضى عن نكيره ظاهرًا بحجّة التحذير من منهج ذاك الآخر، فيما نراه يحمل كتائب النكير والتشهير على خصمه في عين ما وقع فيه للتوّ، و«**إنّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح، فاصنع ما شئت**»[(١)].

أفلا يخشى أحدنا أن يقف بين يدي الجبار يوم القيامة في يومٍ لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ثم ينظر لصفحة أعماله فلا يرى إلا مِراءً ورياءً وحظوظ نفس وقوماتِ غضب لها أو رَغَبٍ، قد هدمت صالح مقاماته للدين التي ظنّها حجابًا من النار ورُجحانًا للموازين، وأفسدتها كما أفسد الوزغُ اللبن، فيالله كم من موبقة في لباس حسنة، وزلّة في باطن طاعة ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ [العاديات: ١٠- ١١].

يتلفّع أحدهم برياء الوقار، ويتدثّر . تدثرًا مخروقًا . بالسمت الحسن، ثم يتزيّا بزيّ الناقد الناصح والحارس المخلّص لحياض السنة، والغيورِ الملتهب على مُحاربيها، ثم يرفع كاهله المملوء كِبْرًا فيرمي إخوانه بسهام حروفه المصميّة ونبال ظنونه غير السويّة، فبدلًا من رمي أعداء السنة ارتدّ مخذولًا على أهله وإخوانه، والرائد لا يكذبُ أهله والحادب لا يغزو قومه، و«**لو يُعطى الناس بدعواهم لادّعى ناسٌ دماء رجال وأموالهم**»[(٢)] ولكن البيّنة البيّنة. فاستيقظْ

(١) البخاري (٦١٢٠).

(٢) البخاري (٤٥٥٢) ومسلم (١٧١١).

وأيقِظْ من كان مثلهم، فإن العدوّ الذي يفلحُ في تحويل بوصلة عداوتك منه إلى عدوّه؛ فإنّه حينها يكون قد انتصر عليك.

* هذا وإن دعوى الحقّ المجرّدة ليست بكافية حتى يعضدها الدليل الراجح، أما والحجة تعوزها فلا. فالأشاعرة والماتُريديّة اليوم يدّعون أنهم أهل السنة والجماعة، والخوارج كذلك والمتصوّفة ومُدّعي التنوير بل حتى الرافضة ومِن خَلْفِهم أهلُ الكتاب كلُّهم يدّعون أنهم الحق المطلق.. والحبل على الجرّار، وكلٌّ يدّعي وصلًا بليلى.

هذا وليس كل من اتُّهم بباطل هو من أهله، فالخوارج يرون أهل السنة مارقين، والمتصوّفة يرون أهل السنة غلاة، وأهل الكلام يرونهم حشويّة لا يفقهون، والنصارى يرون المسلمين كفّارًا بالإله الحق. فالعبرة بالدليل لا بالدعاوى والأماني، ونفس المؤمن مطمئنة بالدليل لا القال والقيل، فالصالحُ شعارُه: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] ودثاره:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى ... فأولُ ما يجني عليه اجتهادُه

فالدليل الصحيح الصريح الخالي من معارض لا يردُّه مؤمن، واعتبر ذلك بآيات وأحاديث الصفات كالنزول مثلًا، فهو حديث قد ثبت بالتواتر إذ رواه واحدٌ وثلاثون صحابيًّا، وهو يهدم أصول المعطلة من أساسها، قال عنه الإمام الدارمي: «أغيظُ حديث للجهمية حديث النزول». كذلك صفة الاستواء التي وردت سبع مرات في القرآن، فقد قرأها جهم بن صفوان ذات يوم ثم قال: «لو أمكنني حكّها من المصحف لحككتها». عياذًا بالله من مضلات الفتن، أمّا

المؤمن الموحّد فإنه منقادٌ للدليل حيثما توجّه به، فهو لا يعتقد ثم يستدل، بل يعقل الدليل من الوحي ثم يعقد قلبه عليه، فهذه سنةُ السلف وهديُ الأئمة وجادّة الراسخين.

كذلك فقد يكون الرجل مصنَّفًا عند الناس أنه من فئة ما، وهو في حقيقته بريء من منهجهم أو من أكثر انحرافهم فيه.

وبعضهم يحتدّ وتثور حفيظته إن وصفه الناس ونسبوه لفئة ما مع تشرّبه لحتوف الغلوّ في منهجهم، ولكن هو الملوم قبلهم، فنفسَك لُمْ ولا تلم المطايا. .وإن كانوا لم يُوفّقوا لأنهم تنابزوا بالألقاب. لأنه قد اتخذ طريقًا محدثًا زعم أنه طريق السلف، وطرد غيره منه إلا من كان على مثل ما هو عليه، أما غيره فهو .بنظره. حزبي مبتدع ضائع محترق.. إلى آخر ذلك الغثاء.

وَقَدْ عَادَ الظَّلُومُ يَنُوءُ حِمْلًا   بِأَوْزَارٍ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَا

* ومن مهمّات هذا الباب: أنّ الرد على المخالف نوعٌ من الإنكار الشرعي، والإنكار الشرعي عبادة، والعبادة لابد لها من شرطَي: الإخلاص والاتّباع.

فأخلِصْ قولك من حظّ نفسك، وقم لله. ولله وحده. لا لشفاء غيظ، ولا لشماتةٍ بقرينٍ، ولا لقنطرة بتسلّقٍ على ظهر من سبقك، ولا لسمعةٍ بأنك القائم لله والذائدُ عن السنة، واتّبع ولا تبتدع في إنكارك. ولو كنتَ محاربًا لبدعة. إن دين الله واحد، فلا تتشعبنّ بك سبل الأهواء.

والبدعة ضلال، ولكن الضلال يكافح بهُدًى لا بضلال مثله، أما الخوارج الجدد فقد غلوا في التبديع حتى وصلوا به للإخراج عن الملة بإطلاق؛ تنظيرًا

بالتكفير أو تطبيقًا باستحلال الدماء. وإنّ من يحرص على هدم الناس أو يفرح بسقوطهم أو يشمت بفشلهم فإنه في الأغلب مهدوم مهزوم من الداخل، ولو أفرغ طاقته في بناء صلاح نفسه كان خيرًا له. ورحم الله ابن القيم كأنّما يصف بعض أهل الزمن:

فــظٌّ غلــيظٌ جاهــلٌ مــتمعلمٌ   ضــخمُ العمامــةِ واســعُ الأردانِ
مــا عنــده علــمٌ ســوى التكفــيرِ   والتبــديعِ والتضــليلِ والبهتــانِ

وعن وسائل الدعوة فالأصل فيها الإباحة إلا ما كان مقتضاه قائمًا في عهد رسول الله ﷺ ولم يفعله، وهي عصيّة على العدّ لكثرتها وتجدُّدِها وعدم تناهيها وتنوّعِ فائدتها واختلاف حاجات الناس لها، فليس من المستحسن التشديد في منع الوسائل واتهام سالكيها بالابتداع أو التمييع، فلا إفراط ولا تفريط. وإنّ النقد الهادف الحكيم كسوط الراحلة يُزجيها، والحمدُ الصادق حداءٌ لها يسعدُها ويشفيها.

واعلم أن الرد على المخالف لابد له من ثلاثية الطريقة الشرعية: العلم بالمنكر، والعلم بوقوع فلان فيه. مع تذكّر موانع الإنفاذ. ثم الرفق والحلم في أثنائه، ثم الصبر على الأذى فيه بعده[١]. فتأملها. أخي في الله. فهي مهمّة للسائرين في درب الرسول ﷺ وبارك.

تمسّــك بحبــل الله والســننِ التــي   أتــتْ عـن رسـول الله تزكـو وتفلحُ

❁❁❁❁

---

(١) وسيأتي بسطها في الفصل القادم بإذن الله تعالى.



التعاونُ على البِرِّ والتَّقوى

بَعث النبي ﷺ معاذاً وأبا موسى إلى اليمن، وقال: «**يسّرا ولا تُعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا، وتطاوعا ولا تختلفا**»[١]. هذا هو الإسلام وشريعتُه، فهو ينظر للفرد على أنه لَبِنَةٌ في بناء المجتمع وقطعة من نسيجه، لا يستتم المجتمع عافيته وفلاحه إلا بصلاح تلك اللبنات، فثمّ عينان من الشريعة على هذا الإنسان: الأولى: ترقُّب صلاحَه في نفسه. والأخرى: ترقب إصلاحه لمن حوله. وبهذا يتم صلاح الأمة إذا تعاونت على البر والتقوى بالبر والتقوى.

إن العقل المجرد يقتضي التعاون مع القريب أثناء حرب البعيد، والمرءُ كثير بِأخِيه، فإن فعلتَ العكس فقد كَفيت أعداءَك مؤنتك، فكيف والشرع قد أمرك بنصرته والنصح له؟! فكن ناصحًا لله.

والمؤمن نصوح محب الخير للناس حتى بعد رحيله عن الدنيا، وتأمل خبر شهداء أحد، فقد قال رسول الله ﷺ: «**لمّا أُصِيبَ إخوانكم بأُحُد؛ جعل الله أرواحهم في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِد أنهار الجنة؛ تأكل من ثمارها، وتَأْوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلمّا وجدوا طِيبَ مَأْكَلِهم ومَشْرَبِهم ومقيلهم؛ قالوا: مَنْ يُبْلغُ إخواننا عنا أنَّا أحياء نُرْزَقُ؛ لئلّا يَزْهَدُوا في الجهاد، ولا يَنْكُلوا في الحرب؟ فقال الله سبحانه: أنا أُبْلِغُهُم عنكم**» قال: فأنزل الله:

---

(١) البخاري (٣٠٣٨) ومسلم (١٧٣٣).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الآيات [آل عمران: ١٦٩-١٧٠][١].

لقد اعترف الكاثوليك والبروتستانت بخطئهم حينما حاربوا بعضهم في العصر الوسيط بشراسة شديدة مع تسامحهم ـ النسبي ـ مع الوثنيين في نظرهم. فقد صرخوا الآن بأن تلك الحرب كانت خطأً فادحًا؛ لأنهم رأوا أن ما بينهم من المشتركات كان أكثر بكثير من المختلفات المُفرّقات، هذا وهم أهل باطل وضلال، فكيف بنا معشر أهل الحقّ والهدى.

* أما من قال: سأُنقّي الصفّ من كل مالم يتفق معي، ثم أُثنّي بالعدو البعيد فقد أخطأ في حق دينه ونفسه وإخوته. ومتى ابتدأت بالعدو البعيد أنت وأخوك فسوف تستنفدا غالبَ حطب التفرّق الذي سيُوقَد حينها تحت أقدام الكفرة، وستجدان من المشتركات ما سيقلّص المختلفات، ومع كرّ الزمن بالحوار والمفاهمة واللين والرفق وإحسان الظن ستصلان معًا لشاطئ الأمان والسلام بإذن الرحمن.

ورسول الله ﷺ لم يصحّ عنه قط أنه اتّهم مسلمًا بالكفر والردة والنفاق، فلم يكن في عصر النبوة ـ في الظاهر ـ سوى مسلم وكافر، ومع وجود النفاق تحت السطح لكنه ليس بظاهر فاشٍ، وكفى برسول الهدى ﷺ قدوة وأسوة،

---

(١) أبو داود (٢٥٢٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٥).

ولكن متى قامت البينات فالحكم بمقتضاها هو عين الاقتداء به ﷺ. والمقصود هو التريّث والترفّق والتثبت والحوار وعدم الركض سِراعًا للتشظّي والاحتراب. فاخضد ـ رعاك الله ـ شوكتك عن إخوانك في الدين ما استطعت لذلك سبيلًا.

وقد يُعذر المرء على فظاظته وفجاجته بلا مبرر إن كانت فلتةً عارضة وليست عادة مستمرة، فالقصور مستحكم في الإنسان، ومهما راض نفسه بالاستقامة والصدق والمحاسبة فلا بد من هنَّات في هنيهات تسرق منه نفسه لنزعتها للغضب أو ضدّه أو غيره. ولكن الموفّق من لم تطل غيبتُه، ولم يشمخرّ به أنف الكبرياء، ولم يتأخر اعتذارُه، فتركُ الاعتذار أشدُّ من الذنب. وتأمّل قوله ﷺ: **«كل بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون»**(١) وقولَه ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى، فيغفر لهم»**(٢) وغيرها كثير.

وإنما يكون المرء مستحقًّا لقرع الملامة إن كانت خصلته الفظّة الفجّة عادةً له مستمرة، وكلُّ امْرِئٍ جَارٍ عَلى مَا تَعَوَّدَا. ويعظم الخَطب حين يكون ذلك ممن يتصدّر الردَّ على المخالفين أو الإنكار على شهواتهم أو شبهاتهم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وتأمّل واحذر ثم احذر

---

(١) ابن ماجه (٤٢٥١) وحسّنه الألباني.

(٢) مسلم (٢٧٤٩).

أن تكون منهم، وتذكر قول نبينا الناصح الرفيق: «**إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شرّه**»(١). ولكم رَمى خصومُ السلفية دعاتَها بذلك، وإن كان الرّامون في الحقيقة أشدّ فظاظة وجفاءً واستكبارًا. وبخاصة إذا كان مخاطَبُهم سلفيًّا. ومع ذلك نقول بصراحة أليمة: إن هذا الداء مستفحلٌ بيننا، فلا بد له من علاج ناجع عاجل بجرعة إيمان وعلم وحلم وخشية الله ورجائه.

ويأخذك العَجَب والإنكار حين يأتي أحدُهم فيشقّق الحديث عن خطر البدعة ويُسربلُ كلامَه بوجوب حربها ومنابذة أهلها، ويستشهد بالأدلة من الكتاب والسنة والشواهد السلفيّة، وبعد حديثه الطويل النافع نراه يختم بخاتمة اختزالية مُقتصَرة، فيطلق وصف الابتداع على غير المبتدعة، ويسمّي شخصًا سُنِّيًا أو أشخاصًا، ثم يثنّي بالمطالبة بتطبيق مواقف السلف مع مبتدعة زمانهم على ذلك الشخص المعيّن. فيخرج سامعه بحصيلة نفسيّة قويّة مفعمة بالبراءة من المُحدَثات وأهلها ومنهم ذلك المذبوح على نطع البهتان والزور. وقد خلع المظلوم فؤاد ظالمه حينما ولّى عنه قائلًا: الموعد الله!

واحذَر مِنَ المَظلُومِ سَهْمًا صائبًا ... واعلم بأنَّ دعاءَهَ لا يُحجَبُ

ورسول الله ﷺ يقول: «**اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة. واتقوا الشحّ؛ فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم. حملهم على أن سفكوا دماءَهم،**

---

(١) البخاري (٦٠٣٢) واللفظ له، ومسلم (٢٥٩١).

واستحلّوا محارمهم»[١]. وقال: «**لتؤدَّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقاد للشاة الجلحاء**[٢] **من الشاة القرناء»**[٣]. ومن الناس من يتلذّذ بظلم عباد الله ويتفنّن في أذيتهم، فيصرخ القلب: تبارك من لم يخلق النار عبثًا.

ويغفلُ صاحب هذه الغيرة . الباردة المنكوسة . عن اختلاف مناطات السلف عن بعض الخلف، وهذا خللٌ كبير حقيق بسرعة العلاج من لدن أهل العلم والتربية، وإلا أكلتْ منايا الغلوّ مُهَجنا وفلذاتنا.

❋ وههنا مسألة في غاية الأهمية: وهي أن بعضهم قد يظنّ أن في كلامنا دعوة لترك أهل البدع والخرافة أو الباطل والفساد. فنقول: إن هذا غير مقصود البتّة، فإن الله قد أمر بمجاهدة المبطلين، فإن تساهلَ أهلُ العلم والدعوة والحُسبة في ذلك؛ فسيؤول الحال لاستشراء البدع وتلبيس المبتدعة على الناس دينَهم وتبديلهم شرع الله، فالوحا الوحا معاشر الحنفاء، ففي البطنِ قد انقطع السَّلا.

يَـا نَـائِمينَ تَيَقَّظُـوا مِـنْ نَـوْمِكُم ... لاَحَ الصَّـبَاحُ وَهَـذِه أعْلاَمُـهُ

إذن فلا بد من تحذير الناس من شرّهم، ولابد من القيام لله في ذلك بالاحتساب عليهم، ولكن يلزمك قبل ذلك أن تحقق ما يلي:

---

(١) مسلم ٨/١٨ (٢٥٧٨).

(٢) الجلحاء: التي لا قرن لها. النهاية ١/ ٢٨٤.

(٣) مسلم ٨/١٨ (٢٥٨٢).

١- أن تتحقّق من أنّ هذا الأمر بدعة أو منكر شرعي بموجب دليل صحيح صريح، وليس بمجرد أنك لم تعتد عليه ولم تألفه، ولم يُمرِّره لك شيخك - رجلًا كان أو كتابًا - فقد يكون الخلاف فيما أنكرت سائغًا، بل قد يكون الدليل بخلاف قولك. وكم من أمرٍ ساغَ الخلاف فيه لتكافُئِ الأدلة قد غلت إحدى الطائفتين في أحدِ قولَيه وضلّلت أختها، وجانبتها الأخرى بالجهة الأخرى، وكلٌّ قبيلٍ مُستمسك بطرف حقٍّ لم يستوعبه، والحقُّ بينهم لو كانوا يفقهون. وبالجملة فلا إنكار فيما ساغ فيه الخلاف.

٢- بعد أن تتأكد من تحقيق الأُولى وأنّ الأمر لا يقبل مخالفة المجتهد؛ فيلزمك أن تتحقق من وقوع الشخص المعيّن في تلك المخالفة، وألا تكتفي بقال فلان أو فلان من خصومه، وإلا فأنت على سبيل بغيٍ وسابلة ظلمٍ وخطر بهتان. والسلامة لا يعدلها شيء. وكم من بريء طاردته تُهَمُ خصومه وزادتها ظنون أتباعهم حتى استقر في أذهانهم تحقُّقها فيه، ولو أنهم تبيّنوا حاله وتثبتوا لألسنتهم لوقفوا على سلامته ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾. والمسألة مسألة حقوقِ خلقٍ، فهي مبنيّة على المشاحة لا المسامحة، فالتمس لنفسك مخرجًا قبل أن تزول قدمك بزلل قولك.

ويتبع ذلك - كما قدّمت لك - إن ثبتت عليه القالة ألا يبلغك أنه قد راجع نفسه وهدَم باطله بإعلانه الرجوع عنها وبراءته وتوبته، والتوبة تهدم ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. فإن أبيتَ فبيّن للناس توبته ورجوعه. وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما**

يحب لنفسه» متفق عليه[(١)].

٣ـ الإخلاص، فيكون قصدك بهذا العمل وجه الله، لا التشفّي وإرواء نوازع الغيظ أو إشباع جَوعَةِ الحسد وإبراد لظى الغضب، فتخرجُ الدفائن وتثورُ الكوامن، وكم للنفوس من أحابيلَ وأفخاخٍ وضَعَها الشيطان ليحبط بها صالحَ أعمالهم، فيقوم المخذول لحظّ نفسه وهو يظن أنه قائم لله، فينقلب ما رجاه أجرًا لوزرٍ، وفوق ذلك تُهدى بعض صالحات عمله المُتقبّلة يوم الحساب لخصمه، فيرى ثواب صلاته وصيامه وتلاوته وبرّه في ميزان من اكفهرّت عليه نفسه، فهل أبلغُ من هذه الخيبة، وأغبنُ من هذا الخسار؟!

وتذكّر أن النّفس قُلَّبٌ مع النيّة، ولها مئة وجهٍ كلّها خائبة، ولها مع العقل متاهاتٌ مُفضيةٌ للردى، وخواتِمُ شهواتٍ ملقيةٌ في حفر النار، ومن لم يحرس نيّته من مكر نفسه وقرينه رجع لربه خائب الصفقة، إلّا من رحم ربّي.

فَما جَنةَ الفِرْدَوْسِ هَاجَرْتَ تَبْتَغي ولكنْ دَعاكَ الْخُبْزُ أحسَبُ والتّمرُ

وهذا أمر عظيم لا يُكتفى فيه بطرف النظر، بل لابد فيه من المتابعة على الدوام، فالإخلاص عزيز والمتابعة عزيزة ـ وهما شرطا قبول العمل بعد الإيمان ـ وبما أن إنكار المنكر عبادة فلا بد من اجتماعهما فيها، فإن دخلها تشريك نيّة؛ فهي مردودة مذمومة مرذولة، حتى وإن شابهت هيكل المخلصين خارجًا. قال ابن تيمية: «تخليص الأعمال مما يفسدها أشد على العاملين من طول

(١) البخاري ١/ ١٠ (١٣) ومسلم ١/ ٤٩ (٤٥) (٧١).

الاجتهاد»[١]. والآخرة قد ارتحلت مقبلةً سريعة فكن من أبنائها وعُمّارها، وتأمل كلام الصحابة في حال قتلى فريقَي غزوة أُحدٍ:

فإنْ تذكُروا قَتْلى وحمزةُ فيهمُ ... قَتيلٌ ثَوَى للهِ وهْوَ مُطِيعُ
فإنّ جِنَانَ الخُلْدِ مَنْزِلُهُ بِهَا ... وأمرُ الذي يقضي ـ الأمورَ سريعُ
وقَتْلاكُمُ في النّارِ أفضَلُ رِزْقِهِمْ ... حَمِيمٌ معاً في جوْفِهَا وَضَرِيعُ

٤ ـ بعد أن تتثبّتَ من وقوع المعيّن في البدعة والمنكر، يتحتم عليك التخلّقُ بما أُمرتَ به من سبيل المؤمنين وهو البداءةُ بالرّفق واللين دون الشدة والفظاظة، فهو الأصل الأصيل والسبيل المستبين والجادّة الرسوليّة، أما الشدة فهي استثناء في موضعه، فلا يصلح أن يكون الاستثناء أصلًا، والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ [آل عمران: ١٥٩] ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] ولا أسوأ من فرعون مع ذلك أمر الله نبيّيه باللين[٢]، فلما جاء موجب الاستثناء قال الكليم: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وتذكّر نهي نبيّك ﷺ عن الغلظة والجفاء والشدّة في غير موضعها فقال: **«يا أيها الناس إنّ منكم مُنفِّرين»**[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٨٨).

(٢) وقد ذكروا أن رجلًا دخل مجلس الخليفة العباسي المأمون وقال له: سأقول لك قولًا غليظًا أرجو ألا تَجِدَ عليّ فيه. فقال له المأمون: لا تقل ولا أَجِدُ. فقال الرجل: ولِمَ؟ قال المأمون: لستَ بخيرٍ من موسى وهرون، ولستُ بشرٍّ من فرعون. وقد قال الله لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

(٣) البخاري (١/ ١٨٠) (٧٠٤) ومسلم (٢/ ٤٢) (٤٦٦).

❋ وبالجملة فلا بد أولًا من التأكد من أنها بدعة، ثم التثبّت من وقوع الشخص فيها، ثم مناصحته سرًّا في البداية، فإن أصرّ فيُعلنَ النّصحُ، مع الرفق في الأمر كله، إلا إن كان الإصرار على أمرٍ واضح البطلان، وغلب على الظن أنه ناشئٌ عن مكابرة لا اشتباه؛ فلا بأس حينها بشيء من الإغلاظ والاخشيشان. وهذه سيرة نبيّنا ﷺ شاهدة ناطقة بلِينه ورفقه وحزمه، فمن نازع فهو مخصوم بحال المصطفى ومقاله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله.

عليـــهِ ســـلامُ الله مـــا ذَرَّ شـــارقٌ وما نَهْنَهَتْ في البِيدِ ريحُ المغاربِ

❋ ولا يجوز بحال الاحتجاجُ بشدّة العالم فلان أو فلان مهما علا قدره لأمور:

الأول: أنّ معيارَ الاقتداء والاستنان هو النبي ﷺ لا غيره.

الثاني: قد تكونُ شدّة ذلك العالم في هذه القضية لِمَا خالطها من أمور اتّضحت له وخفيت عليك، كأن يرى أنّ موجب الاستثناء قائم وهو الاستكبار والعناد بعد قيام الحجّة.

الثالث: قد تكون جِبلَّةً لديه قد ضَعُفَ عن تهذيبها، فهي عيب يُعتذر له عنه، لا محمدةٌ يُتابع عليها، هذا إن صحّ النقل عنه ابتداءً.

ومهما يكن من شيء فليس لأحد أن يحتج بأحد دون رسول الله ﷺ، فهو من أمَرَنا اللهُ باتباعه والائتساء به ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، إذ هو المثال الكامل وغيره عرضة للقصور والتقصير. ومَنْ تَناولَ أعراضَ المؤمنين بلا

علم، وساطَهُم بسلاطة لسانه بلا حلم؛ فهو آثِمٌ مؤاخَذ، فخطؤه ضلالٌ لجهله وجهالته، وصوابه خطأ وخطيئةٌ لتقحّمه ما لم يُؤذَن له به.

أما من لم يبلغ القدر الكافي من العلم للردود على المخالفين . بشهادة شيوخه . فليُحسن لنفسه بالإخلاد إلى العافية والرضا بالسكينة، مع تحصيل ما يطيق من روافد العلم والإيمان والعبادة قبل أن يخوض ورطاتَ أمورٍ لا مخرج له منها، وكلّ شعبة منها لها من الله طالبٌ، ومن لم يستطع الفُتيا في أمور الطهارة والصلاة والحج والميراث والطلاق ونحوها؛ فهو أعجز من أن يفتيَ في التكفير والدماء.. وليس هذا بعشّك فادرُجي.

وتأمل قول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الثناء على من توقّف في الفتنة وانكمش عنها: «لله درّ مقامٍ قامه سعد بن مالك[1] وعبد الله بن عمر، إن كان بِرًّا إن أجره لعظيم، وإن كان إثمًا إن خطأه ليسير»[2]. فالسلامة والعافية . إخوة الإيمان . لا يعدلها شيء، ولقد قام الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على المنبر ثم بكى، فقال: قام رسولُ الله ﷺ عام أولَ على المنبر، ثم بكى، فقال: **«سَلُوا الله العفْوَ والعافيةَ، فإن أَحدًا لم يُعطَ بعد اليقين خيرًا من العافية»**[3].

❁❁❁❁

(١) أي: ابن أبي وقّاص، وكان أجلّ من اعتزل الفتنة، ورغب عنها، وقدّ رجّح شيخ الإسلام وغيره اعتزاله وغيره الفتنة، وأنّه الأقرب للسنّة كما تقدّم.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٤ / ٤٤٠).

(٣) الترمذي (٢٣٥٨) وصححه الألباني.

الرحمةُ والحكمةُ

إنّ الكلام في الأفكار معضلةٌ شعورية قبل أن تكون إشكالية فكرية، ذلك أن كبار الأفكار ـ غالبًا ـ ما تتغلّف بشعورٍ ساخن وعاطفة هائجة وإرادة عاصفة، فلِكَي تدلف لشاطئ الفكرة لشخص ما عليك أن تتجاوز بهدوء الحُجُبَ النفسانية والحواجز الغضبيّة المؤصَّلة في وعيه ولا وعيه أولًا.

فالفكرة حينما تكون منحوتةً في العقل الواعي فلا بد أن تكون مرتبطة بحبل سُرّي بالقلب، وهذا سرّ من أسرار الإقناع بالأفكار المخالفة، فلابد أولًا من تحييد الحارس العاطفي بالرفق والملاطفة، وإلا فالباب مغلق دون الولوج لحياض العقل لإعادة ترتيب أولوياته، وتغيير تصوراته، وهزّ قناعاته، وحقنه بمضامين فكريّة جديدة عليه.

إن التعصّب للمعتقد والمبدأ دون رحمة وحكمة ورفق وعلم هو نوع من التوحّش وفرع عن الهمجية، ولك أن تعلم أن أثبتَ الناس وأصدقهم في معتقده ـ وهو رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ـ كان أرحم الخلق وأحكمهم وأرفقهم حتى مع غير أهل القبلة، واعتبر ذلك بتعامله مع يهود المدينة ونصارى نجران ووثنيي الأعراب كيف كان لطفُه يسبق عُنفَه وعفوُه مؤاخذتَه وحلمُه أخذَه، رفيقٌ في شأنه كله.

لو لم تكن فيه آياتٌ مبيّنةٌ كانت بداهته تنبيكَ بالخبرِ

ولم يقتل ﷺ رجلًا واحدًا لأجل معتقده ابتداءً، بل لأجل عوارضَ

أخرى كالجهاد أو القصاص أو الخيانة، حتى حُكمه في قتل المرتدّ قد راعى فيه أمور حفظ بيضة الإسلام العامة، وغلّبها على غيرها في حِكْمَةٍ امتزجت بالرحمة، وأوصى بإحسان القتل لمن استحقّه، ولم يُكرِهِ البتّة أحدًا على اعتناق دينه. لقد قال الله تعالى مُلخّصًا رسالته كلها في جملة واحدة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

إنّ التعصب لغير الحق آفةٌ سوداء في ثوب المؤمن، وهي تابعة للهوى، ودالّة على ضعف التسليم لله ووهن الإسلام في القلب. وللأسف فلا زال التعصّبُ للأسماء سِمَة ظاهرة لدى بعض التيارات في الساحة العلمية والدعوية.

فيا باغي الفلاح والرفعة لا تتعصّب لغير الرسول ﷺ فالحق دائر معه، وإنّ الإسلام عقدٌ على الاستسلام لله واتباع دينه جملة وتفصيلًا، وفي الساعة التي يولّي المرء ظهره للحق مُعْنِقًا في طِوَل باطله؛ فقد أطلق بعض ما عقَده من شعب الإيمان، وبحسب إطلاقه وحِنْثِه وخُلْفِه يكون بُعْدُه وخذلانه وخيبته.

فيا صاحبي: لا يكن علمُك بغيًا، ولا تبشيرُك تنفيرًا، واستنّ بمن تبعتَهُ فهو الرأفة الوارفة والرفق الدافق والرحمة التامّة، صلوات الله وملائكته والمؤمنون عليه وسلامه وبركاته. وفي الأثر أنّ خالد بن الوليد خرج في سرية فنزل بحيّ، فقال سيد الحي: صِفْ لنا محمدًا ﷺ. فقال: أما إني أُفصِّل فلا، فقال: أجمِلْ فقال: «الرسولُ على قدر المرسِل»(١). ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ

---

(١) الشمائل الشريفة للسيوطي (١/ ٩) وأعلام النبوة للماوردي (١ / ٣٣).

أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]. ورضي الله عن حسان بن ثابت إذ قال:

أغَرُّ، عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ ... مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ ويُشْهَدُ

وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيّ إلى اسمِهِ ... إذا قَالَ في الخَمسِ المُؤذِّنُ أشْهَدُ

وشقّ لهُ منِ اسمِهِ ليجلَّهُ ... فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمدُ

نَبيٌّ أتَانَا بعد يَأسٍ وَفَتْرَةٍ ... منَ الرسلِ والأوثانُ في الأرضِ تعبدُ

فَأمسَى سِرَاجًا مُستَنيرًا وهادِيًا ... يَلُوحُ كما لاحَ الصّقِيلُ المُهَنَّدُ

وأنذرنا نارًا وبشرَ جنّةً ... وعلّمنا الإسلامَ فاللهَ نحمدُ

وأنتَ إلهَ الخلقِ ربي وخالقي ... بذلكَ ما عُمِّرْتُ في الناسِ أشهدُ

تَعَالَيتَ رَبَّ الناسِ عن قَول مَن دَعا ... سِوَاكَ إلهًا، أنتَ أعلى وَأمجَدُ

لكَ الخلقُ والنعماءُ والأمرُ كلهُ ... فإيّاكَ نَستَهدي وإيّاكَ نَعبُدُ

❁❁❁❁❁

فقهُ المآلاتِ والأولويات

إنّ الأمور تُحتسبُ بمآلاتها، والأعمال بخواتيمها، وكم من عملٍ نَهى عنه أولو العلم والحكمة فعَجِبَ الناس واتّهموا رأيهم وشغبوا على علمهم وطعنوا مقاصدهم.. فما هو إلا أن دارت رحى الأيام وتوالت عجاجاتُ الليالي حتى تكشّفت عظائم الأمور عن إصابة نهيهم عينَ الحكمة والرأي السديد. ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

❋ إن أولى الأولويات هو إقامة التوحيد في نفسك أولًا ثم في دعوتك ثانيًا، فالدعوة إلى التوحيد هي مهمة المرسلين وأتباعهم، ومن أجْلِها حصل الافتراق العظيم بين الرسل وأقوامهم المكذبين، وحسَنةُ التوحيد لا تعدلها حسنة، كما أن سيئة الشرك مُحبطة مهلكة، فأصلُ الأصول تحقيقُ الشهادتين وهو محض التوحيد.

❋ ومن عظيم المهمات: مراعاة حراسة الشريعة من التبديل بطرفيه الغالي والجافي، فلا يكون هوى الحاكم هو رحى الشرع، وكذلك لا يكون هوى معارضيه هو المرجع. وهذا أمر ابتدائي لا يجوز بحالٍ تغبيشه. فبيْنَ تجديد الدين وتبديله خندقٌ وقع فيه الزنادقة، وبين تيسير الدين وتغييره برزخٌ هوى فيه المتعجّلون.

وكم من هوى خفيٍّ للنفوس حينما يوافق هواها قولٌ أو فعلٌ لأحد السالفين غير المعصومين، فيجعله في الظاهر أصلًا يردُّ إليه المختلفات، وتنحو نفسه باطنًا لحيازة غرضها من حطام الفانية، وقد يكون ذلك الغرض انتصارًا للنفس، أو رغبة في غَلَبةٍ، أو إشباعِ جوعةِ التصدّر والظهور، ونحو ذلك، وهذا من أخطر مداخل تلبيس إبليس، أعاذنا الله تعالى منه. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

* ومعلومٌ الفرق بين منهج السلف ومنهج أحدهم، بين قولهم الذي من خرج منه ابتدع وبين قول أحدهم الذي يُحتجُّ له لا به، فالعبرة بالوحي كتابًا وسنةً وبالإجماع الذي لا بد أن يكون ناتجًا عن وحي وكلّ الإجماعاتُ الصحيحة كذلك، إذ لا يجمع الله أمتنا على ضلالة أبدًا، أما اجتهادات الآحاد. مهما علا كعب أحدهم. مما سوى الإجماع فلا يُشرع أن يكون أصلًا للولاء والبراء ومعيارًا للحق والباطل، فلتكن هذه يا صاحبي منك على ذُكْرٍ.

* ومن ذلك الخَطَل في الرأي والتدبير: مبالغةُ بعضهم في تبرير أعمال الأمراء والسلاطين، في تبريرٍ ينتهي الى تبديلٍ، حتى خشينا أن يؤول الأمر والحال للمناداة بما يشبه العلمانية بإفراغ الدين من السياسة، وهذا لعمر الله ضلال فاحش، سببه تقديم ما حقّه التأخير عند ازدحام الفروض. وما أقرب مُشاكلةُ مآلات بعض أفعال الأخيار بالأشرار.

بالملحِ نُصلحُ ما نخشى تغيّرهُ فكيف بالملح إن حلّت به الغِيَرُ

إنّ ضعف فقه المآلات هو ما جرّ بعض الأفاضل للحكم ببداهة رأيه

المجرّد عن تدبّر العاقبة، فأصبح تابعوه صرعى نِبَال رأيه القاصر، وقد يكون لحظّ نفسه من حبّها التصدّر والترؤس نصيب.. ولهوى النفوس سريرةٌ لا تُعلم.

* والمؤلم المُبكي هو أن يزدوج الخطأ بالظلم، ومن ذلك ما صرنا فيه من البلاء من نعايا البلايا، فأدركَنا زمانٌ يُقال فيه لشابٍّ تائب من الفسق والصبوة مريدٍ للهداية والخير والصلاح، ويفعل ما أطاق وتيسّر من أمور الطاعات والبرّ مما هو معلوم من الدين كصلاة الجماعة وحفظ كتاب الله وإعفاء اللحية وترك الإسبال ونحو ذلك.. فيقال له: إنّ ما كنتَ عليه خيرٌ مما أنت فيه! بحُجّة حفظه من المبتدعة. زعموا..

يا هذا: أن كنت موقنًا بأنهم مبتدعة حقيقةً لا دعوى فعلام تركتَ هذا حائرًا مفرّطًا، هلّا دللته على الخير وهذّبت أخلاقه وليّنت قلبه بالمواعظ وملأت فؤاده بتعظيم الوحي وخشية الله؟! أليس هذا خير من أن تُظلِمَ قلبه وتقسّيه بفَري أعراض الأموات والأحياء؟! ويا ظالم الضعفاء، خيبة لك، أنسيت ربهم؟! ونتيجة لهذا الحال لم نَعْجَبُ حينما سأل طالبٌ معلّمَه في حيرة وانزعاج قائلًا: والله لا أدري يا أستاذ هل أتديَّنُ وأستقيم على دينك. كذا. أو على دين فلان، أو أبقى على ما أنا عليه من غفلة وضياع؟!

إنّ من توفيق الله للشاب المستقيم حديثًا أن يأخذ بيده طالب علم يُرقّيه شيئًا فشيئًا إلى مدارج الرسوخ في العلم، وتزكية القلب، ومفاتح الثبات على الدين.

ولكم هو مثيرٌ لشجى الأسف أن ترى بعضهم في بلد توحيد وسنة وخير وفضيلة، وبدلًا عن بذل جهده في بناء التعلق بالله وتجريد التوحيد له في القلوب وتعليم الشباب كلام الله وسنة نبيه ﷺ وترقيق قلوبهم؛ نراه أول ما يُلقي في رُوعِ الشاب المبتدئ في الاستقامة شُهُبه الحامية المُقسّية لقلب اليافع البسيط: احذر من فلان وتجنّب فلان واهجر فلان فإنّهم مبتدعة، مع أنّ حقيقة الحال بخلاف ما قال، قُصاراهُم أن خالفوا شيخه أو رأيه في أمور سائغة اجتهادية، وقد يكونون أسعد بالدليل منه ومن شيخه!

فيقوم الشاب الفتيُّ من عند جزّار الأعراض وقاطع طريق القلوب لعلام الغيوب وقد أظلم قلبُه الغضّ وضاقت نفسه التّواقةُ للخير وتشعّب همُّه اليافع، فأضناه القلق وشظّته الحيرة بين ما يرى ويعرف ويسمع، فيعيش زمانًا قد يمتدّ لسنين وهو يحمل ذحول الغلّ على إخوانه وجمر الحقد على من علّموه ونفعوه، وقد يخوض أعراضهم بالشذْب والثلب وحقوقهم بالجرح والطعن والسلب، ومحصّلته في نهاية دربه الذي خطه له شيخه قبض الهواء. وليته قد عاد كفافًا!. فلا علمًا جمع، ولا عُجْبًا مهلكًا له قمع، ولا عبادةً فيها قلبُه اجتمع، ولا خُلُقًا سَنِيًّا انتفع، ولا خيرًا لأمته رَفَع، ولا شرًّا عنها دَفَع.. إنما هو هَمٌّ يمشي على قدمين، وفُرقَةٌ بين الناس تطير على جناحين، وكآبة تعصف به وبكل من يحيطه.

والليالي من الزمانِ حُبالَى مثقلاتٍ يلدنَ كلَّ عجيبة

ولا أحصي النادمين على ماضٍ ثلبوا فيه أعراض صالحي شيوخهم،

وسلقوهم بحدّ ألسنتهم، وتنكّروا لجميلِ معروفهم وحميد صنائعهم، ثم ندموا بعد الفَوَات، والله المستعان.. وقُبلَةُ ندمٍ على جبين ميْتٍ لا تنفعُ.

يـوَدُّ لـك الأَدنـون لومِـتَّ قبلَهـا   يـرونَ بهـا شرًّا عليـكَ مـن القتـلِ

يا قوم: ليس هذا النهج الظلوم طريقًا للجنة، وليس فيه حسن اتّباع لمنهج الرسول ﷺ، فخذوا أو فدعوا ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤- ١٥].

بينا ترى الشاب واهنًا من معاصٍ قد كسرت فِقاره، فَيَسّرَ الله له من أخذ بيمينه لليُسرى، فدرج شيئًا في سابلة الأوّابين، وقد أبلّ من مرض قلبه بتنسّم هواء التوبة، وصار كفرخ صغير قد نبت زَغَبُه الناعم على جلده الطريّ، ففرح الشاب بربّه، وتعلّق فؤاده برحمته، وعظُم رجاؤه بقربه، فصار له حظٌّ من قيام ليلٍ، وصيام هواجرٍ، وتدبّر آيات، ولَهَجٍ بأذكار، ومواصلة بِرٍّ، ومحبةِ خيرٍ للناس، يلتذّ بذلك التذاذًا لا يصفهُ أهل الدنيا لأنه ليس من نعيم الدنيا بل هو رقيقةٌ من نسائم علّيين.

فبنيا الشاب سائرٌ في صراط الله بهمّةٍ تُسامي السماوات، وقد ردّ الله لنفسه حياة القلب عقب المات؛ إذ تخطّفته غَدَراتُ الألسنُ، ومكرُ الأفعال، ووحَرُ الصدور، وقَبْلَ ذلك خُذلانُ التوفيق.. فسقط على أمّ رأسه صريعًا يتشحّط في دم الندم، فأعقب إبلاله من سقامه علّة لم يُخلق لها ترياق، وموتًا لا تُرجى معه حياة، ودمعةً لا ترقأُها أعمار الخليقة. ويا بعضي دع بعضي، اللّٰهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

* ومن مهمات الأولويات: الحرص على سلامة بناء الهوية والانتماء للجيل المقبل، فمعركة الهوية مقبلة إليه أشد ما تكون، وكل إنسان مفتقر لانتماء، والمؤمن يعرف قدر قيمة انتمائه لدينه وعظمة اعتزازه به في زمن ضاعت بين الناس الانتماءات واختلطت فيه المفاهيم، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٨- ٩].

* هذا وإنّ من فقه المـآلات: فقه سنن الله في كونه وشرعه، فإن الله تعالى قد أقام خلقَه بنظام بديع دقيق وِفْق حِكَمٍ باهرة، لا تعلم خليقتُه منها إلا النزرَ اليسير مما علَّمَها إياه، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، جامِعُها عبادته وحده لا شريك له ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقد بيّن لنا في مسموع كلامه شرعًا ومسطور خليقته كونًا أنّ أمور دعوة الخلائق إليه مفتقر لمحض توفيقه، وأنّ من توفيقه إحسان القصد لوجهه وجَوْدَة المتابعة لسنن المرسلين، ومن سننهم: التأنّي وعدم العجلة.

والمتأمل لحال الدعاة يرى أن بعضهم يحاول حرق المراحل وضغط الزمن لأطْرِ الناس على الحقّ والهدى، وهذا مخالف لسنن الله، ولهذا يُصاب كثيرٌ منهم بالإحباط والفشل في منتصف طريق دعوتهم، فمنهم من ينتكس على عقبيه، ومنهم من يُلقي مؤنة الدعوة عن كاهله ويوجه وجهه لتكَاثرِ الفانية، ومنهم من يأخذه الطيش والرعونة لحرق ما تبقّى من بيدَرِ خيره، والله لا

يصلح عمل المفسدين. وعلى الدعاة إلى الله التنبّه إلى أن العَجَلة غير المبررة هي نوع من الجزع.

وهذا زمانٌ حقيقٌ أن يقال عنه: زمنُ قلّة الناصحين بأعمالهم وأن أتخموا الناس بأقوالهم، ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]. ولا خوف على السفينة، إنما الخوف أن تمضي بدونك، ولا خوف من اضمحلالٍ عامٍّ للدين، فهو محفوظ بحفظ الله له، ومن سنن الله الحتمية أنه لا يزال في الأمة قائمين لله بالصدع بالحق لا يخافون إلا الله وحده، ومهما دفن الباطلُ ألسُنًا رَغَبًا ورهبًا فسيتفاجأ بغيرهم، وحتى لو ضعف العبادُ في ناحية فلن تخلُ الأرض من قائم لله بحجة، والأُمّةُ ولودٌ، وخيرُها غير منقطع، إنما الخوف يا أخوتي أن يستبدلنا الله! ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] ولله أوسٌ آخرون وخزرجُ.

وإنّي مــن القــوم الــذين عــرفتهم   إذا مـات مـنهم سـيّدٌ قـام صـاحبُه
نجـومُ سـماءٍ كلّـما غـاب كوكـبٌ   بـدا كوكـبٌ تـأوي إليـه كواكبـه

قال شيخ الإسلام: «لا يخرج الصواب عن أهل السنة، كما لا يخرج بيانه عنهم كذلك»(١). وفي النونية لابن القيم:

والنـاس بعـدُ عـلى ثـلاثٍ: حِزبُـهُ   أو حربُــــه، أو فــــارغٌ متــــوان

(١) منهاج السنة (٣/ ٤٠).

فـاختر لنفسـك أيـن تجعلهـا فـلا   واللهِ لسـتَ برابـع الأعيـان

لقد أوجز الله تعالى مسيرة زمان عبده ورسوله نوح عليه السلام التي بلغت ألف سنة إلا خمسين عامًا في آيتين قصيرتين من سورة العنكبوت، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤- ١٥] فأوجزَ أطولَ مسيرة زمانية في سطرين، فالاعتبار ليس بالزمن بل بالسير الصحيح مهما طال وقته.

ومن تأمّلَ قصص القرآن وجد أن تكرار القصة الواحدة يدل على تكرار أمثالها في الواقع، واعتبر ذلك بقصص إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فترى أن أمثالها متكررة في حياتنا مع اختلاف الأحوال والأشخاص أكثر من تكرار قصص غيرهم ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

والقرآن مائدة تتغذى عليها الروح، فأشبع روحك منها بلا حساب، واحذر جوعتها بهَجرِه، قال ربك مادحًا كتابه وعهده: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١] فالقرآن عزيزٌ فأعطه أعزّ الأوقات، ولا تكتف بما بين الأذان والصلوات. ولما قيل لذلك الموفق: سار الناس على خيلهم وسبقونا ونحن خلفهم على بغلٍ أعرج، تبسّم قائلًا بثقة وإيمان وهدوء: «لا بأس علينا إن كنّا على الجادّة». فالعبرة ـ يا صاحبي ـ ليست بالضجيج والكثرة واحتفاء القوم بك، بل هي بسلامة الوصول وفلاح المنقلب.

ولا يلزم من السير الصحيح أن يقطف الداعي إلى الله ثمرته مباشرة في

الدنيا برؤية نجاح مشروعه الدعوي، فليس هذا من شروط القبول، بل قد يكون النجاحُ الآنيُّ للمشروع الدعوي استدراجًا إلهيًا لبعض الدعاة أو مكرًا بهم وهم لا يعلمون. عياذا بالله تعالى.. نعم، إن رآها واستبشر بها فهذه من عاجل بشراه. بإذن الله. شريطة إلا يركن إليها، فالبشارة تَسَرُّ المؤمن ولا تغرُّه، فالقبول غيبٌ، والخواتيم غيبٌ، وحقيقة إحسان العمل غير مضمونة لأنها غيب.

فالعبرة بالسير الصحيح وإن لم تصل لثمرة دنيا، فالغاية هي الزلفى والرضوان، وإنّ بعض الأنبياء يأتي يوم القيامة وليس معه إلّا الرجل والرجلان، ومنهم من يأتي وليس معه أحد! وقد ذكر ذلك رسول الله ﷺ فيما كشفه له ربه تعالى مما يكون يوم القيامة: «**ورأيت النبيَّ وليس معه أحد**»(١). إي لم يؤمن به حتى الواحد من قومه، ومع ذلك فقد وافى ربه مؤدّيًا رسالته كما أمَرَه.

وتأمل قصة أصحاب القرية التي ذكرها الله تعالى في سورة (يس) فقد أرسل الله تعالى لهم ثلاثة من المرسلين فكذبوهم، ولم تذكر الآيات سوى رجل واحد هداه الله على أيديهم فقتله قومه شهيدًا، أما البقية فكانت عاقبتهم الصيحة: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٩]، وكثير من المرسلين لم تصلنا أخبارهم: ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر: ٧٨]، فمسيرة الدعوة إلى الله عظيمة عظيمة.

---

(١) الترمذي (٢٤٤٦) وصححه الألباني.

على المرء أن يسعى إلى الخير جهدَهُ ... وليس عليه أن تتم المقاصدُ

والمعوّل على قبول الله تعالى لعبادة عبده، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وَجِلُون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إنّ المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، وإنّ المنافق جمع إساءةً وأمنًا.. وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠- ٦١] أي: يعطون العطاء وهم خائفون ألا يُتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصّروا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما روى الإمام أحمد بسنده(٢) عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ أنها قالت: يا رسول الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، هو الذي يسرقُ ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «**لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنّه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل**». وفي رواية عند الترمذي(٣): «**لا يا بنت الصديق، ولكنّهم الذين يُصلّون ويصومون ويتصدّقون، وهم يخافون ألّا يقبل منهم، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾**».

---

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ٤٨١).
(٢) المسند (٦/١٥٩) والترمذي (٣١٧٥).
(٣) الترمذي (٣١٧٥) وحسَّنه الألباني.

وإنّ الكلام في الأولويات يدخل في كل مهمات الدين ومنه الصدقة والنفقة في سبيل الله، فالسخاء نصف الشجاعة، وهلّا سرقتَ الكآبة من صدرك بصدقة سرّ. ولَكَمْ عصفت هذه الآية الحاسمة بشحّ نفوس الصالحين عصفًا: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٩٢]. فإن استقام ميزان الأولويات استنارت البصيرة.

❋ ومن فقه المآلات: تركُ تبرير الخطأ المتيقّن خشية خطر متوهّم، وهذا ليس بمضطرد على الدوام، بل لكل حالٍ حُكمه ونظَرُه، تبعًا لقاعدة جلب المصالح وتكثيرها ودفع المفاسد وتقليلها، ولكن لا بد أن يكون حاضرًا في الأذهان عند وجود حاجته. ومكمن الخطر أن التوسّع في التبرير بما لا تحتمله الأدلة بدعوى خشية الفتنة؛ قد ينتهي به الحال آخرًا للإرجاء العملي ثم العلمي الاعتقادي، إذ البدع منشؤها استحسان.

وفي مقابل التبرير المذموم نرى التهوّر المذموم، وكِلا طَرَفي قصدِ الأمور ذميمُ، ومن فروع ذلك الطيش: الاندفاع في حسم الأحكام بأضيق محتملاتها، دون النظر للمحتملات المخالفة المُفضية لدفع الإضرار عمّن حكموا عليهم، ودون اعتبار لدرء الحدود بالشبهات، ثم يعقبُ ذلك الخوض الشنيع في الدم الحرام، والمشتبه في الدماء حرام فما بالك بما ظهر تحريمه. عائذًا بربي من مضلات الفتن وورطات الأمور والمحن. قال عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: «إنّ من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها؛ سفك الدم الحرام

بغير حلّه»(١). وديوان الدماء شديد، ولقد وقف رجل على قبر أحد الجبابرة فهتف: «كم نفسٍ قتلتَها لتستريح منها؛ أصبحت اليوم وهي أكثر شغلك».

فلا تبرر لنفسك التقصير، ولا تقل منعوني الهدى، أو ألقوني في الردى، أنتَ أنت من يملك قرار نفسك، قد أعطاك الله زمام نفسك فاعقلها أو أطلقها.

❋ ومن فقه المآلات: إعطاءُ الأمور حظّها اللائق من الاهتمام تقديمًا أو تأخيرًا أو حتى إفرادًا، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. ومن ذلك ترك نشر بعض مسائل العلم التي يغلب على الظن أن الناس لن يحملوها كما هي فتكون لهم فتنة، كما في جِرَابَي أبي هريرة رضي لله عنه إذ لم يُحدّث بالثاني، وقال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ما أنت بمحدّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم؛ إلا كان لبعضهم فتنة». وقال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبّون أن يُكذب الله ورسوله»؟ وقد أنكر الحسن على أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تحديثه للحجاج بقصة العرنيين؛ لأنه اتخذ الحديث وسيلة إلى سفك دماء المسلمين بتأويله الباطل، قال الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُٱللَّهُ: «وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوّي البدعة، وظاهرُه في الأصل غير مراد. فالإمساك عنه عند من يُخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب، والله أعلم»(٢). ويقصد

(١) البخاري (٦٤٧٠).

(٢) تفسير المنار (٩ / ١٣٩).

بظاهره الظاهر المتبادر لفهم السامع غير المستوعب لمضمون الحديث وحقيقة المعنى، والله أعلم.

والمؤسف أن من الدعاة اليوم من يُظهر للعامة خلافاتٍ مرجوحة وشذوذات مُطّرحة وأحاديث على غير ما أريد منها فيفتن الناس، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «موارد النزاع إذا كان في إظهارها فساد عام، عُوقب من يُظهرها»(١).

ومن توابع الخُذلان في ذلك ما نراه من عزوف بعض طلبة العلم عن المواعظ المباشرة زُهدًا فيها، وذلك نتيجة فهم مغلوطٍ مفادُه أنّ من وَعَظ الناس ورقّق قلوبهم وذكّرهم باليوم الآخر وسِيَرِ السالفين فسيقال عنه: هذا واعظ أو قاصّ وليس بفقيه ولا عالم. وكأنهم نسوا أن رسول الله ﷺ كان يتخوّل الناس بالموعظة ويليّن قلوبهم بالرقائق، بل إن الله تعالى قد وصف كتابه العظيم بأنه موعظة، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧- ٥٨].

وقد أمرنا الله بأخذ الدين كله بلا تخيّر وتشهّي فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨] وقال: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ [القصص: ٦٨] وحذّرنا من سنَنِ أهل الكتاب فقال: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ

---

(١) جامع المسائل (٥ / ٢٧٩).

ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ﴾ [البقرة: ٨٥] وقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]. فمن غُربة العلم افتقارُ بعض مجالس التعليم والتدريس والإفتاء للوعظ والرقائق والزهديات، فكما أن الناس في حاجة لإنارة عقولهم بعلم صحيح منير فهم كذلك في ضرورة لتليين قلوبهم بمحبة الله وخوفه ورجائه والدار الآخرة، وأن يضعوا الدنيا حيث وضعها الله تعالى فلا يتكثّرون منها ما لا ينفعهم في المعاد.

فثلجُ اليقين بالعلم، ودفءُ الأمن بالإيمان، وشرح الصدر وطمأنينته يكون بنور العلم والإيمان، فاجتماعهما دليل السعادة والفلاح. وتدبر اجتماعهما: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾ [الروم: ٥٦]. قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ناصحًا: «إنّ طلب العلم لحَسَن، وإن نشره لحسن إذا صحّت فيه النية، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فلا تؤثرن عليه شيئًا»(١).

والمشاهَدُ اليوم هو العلم الكثير والعمل القليل، والله المستعان، ولا عمل إلا بإرادة، ولا إرادة إلا بشعور وعاطفة، وتلك منشؤها حسن التصور العلمي، بل حقيقة الموعظة أنها جزء أصيل من العلم، فالموعظة هي الحبل السُرّي الرابط بين العقل العلمي والقلب الإرادي، فعُلِمَ من ذلك شدّة الترابط والتلازم بين

---

(١) حلية الأولياء (٨٩٩٠).

دفق المعلومة في العقل بالعلم وحقن اللين في القلب بالموعظة.

ومرض العقل أشد من مرض الجسد، ومرض الدِّين أشدّ من كليهما.

وتأمل قول ربنا جل وعز: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٢- ٢٣] وقد جمع الله الخوف منه ورجاءه في هذه الآية، فالجلود تقشعر من هيبة الله وخشيته وخوف عقابه، ثم تلين الجلود والقلوب عند ذكر الله ورجاء فضله ورحمته وثوابه. وأبعدُ القلوب عن الله القلب القاسي، وقد فضّل الله تعالى الحجارة الصلدة على القلب القاسي فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ﴾ [البقرة: ٧٤] ومن لم تليّنه مواعظ القرآن فليستعدّ للمُليّن الأعظم من النيران، أعاذنا الله جميعًا منها. ومن عيون الشاطبية:

ولـو أن عينًـا سـاعدتْ لتوكّفـتْ ... سـحائبُها بالـدمعِ ديـمًا وهُطّـلا
ولكنّهـا عـن قسـوةِ القلـب قحطها ... فيـا ضـيعةَ الأعـمارِ تمشي سَـبَهْلَلا

وكما أن العلم بلا عمل وبالٌ وشِقْوة؛ فكذلك الموعظة إذا خلت من علم صحيح كانت جهلًا، وما أكثرهم في هذا الزمان، وقد ظهروا لمّا تخلّف عن وعظ القلوب كثير من أهل الريادة العلمية، والعلم في القلب كالسكر في الماء، والموعظة هي التي تحركه وتذيبه ليحلو ويطيب.

وقد حذرنا الله تعالى من قسوة القلوب في كثير من آي الذكر كقوله

سبحانه في وصف المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٥] وقال معاتبًا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] وقال زاجرًا عن طريق الهالكين قساة القلوب: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦] وقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] اللّٰهم أَلِن قلوبنا بذكرك.

وتأمل حسن سؤال الأعرابيين وفقههما الفطري فعن عبد الله بن بسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: أتى النبيَّ ﷺ أعرابيان، فقال أحدهما: من خير الرجال يا محمد؟ فقال النبي ﷺ: **«من طال عمره، وحسن عمله»** وقال الآخر: إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فبابٌ نتمسك به جامع؟ فقال: **«لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله»**[1].

* هذا ومن أفراد الخذلان كذلك ما تراه. وأنت في عجبٍ لا ينقضي. من قِصَرِ نظر وضعف بصيرة من يهاجمون تيّارًا منتسبًا للسّنة إجمالًا ويتفرّغون له، مع ترك الملاحدة والليبراليين والعلمانيين وغلاة الطرقية المتصوفة وأهل التمشعر والاعتزال والتشيّع والرفضِ المحيطين بهم الموجودين بينهم والناشرين فتنهم وضلالَهم؟! فسَلِمَ منهم أهلُ الأوثان دون أهل الإسلام،

(١) حديث صحيح رواه أحمد في مسنده (١٧٦٨٠).

وهذه الصفة مشهورة عن الخوارج. واليوم قد أشبههم من لم يتق الله. ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الزخرف: ٤٠].

وقد يكون وراء بعض الأفعال جهات وأغراض لم تظهر للعيان، بل قد يكون مَنْ أمامك ممن يستفزّ مشاعرك بثلب المؤمنين مأخوذًا بشبهة، أو مدخولًا بشهوة، أو مُلقى في أمرٍ أكبر منه ولا يعقلُه. أولم تشعر بعدُ وتتنبّه أنّ وراء الأكمة ما وراءها؟! لك الله يا صاحبي لا تكن ساذجًا، ولا تنخدعنّ بمقدّماتٍ خلفَها محصّلات مريبة، وكن كعمر: «لستُ بالخِبِّ ولا الخبُّ يخدعني». وقال عنه المغيرة بن شعبة: «كان والله أفضل من أن يَخدع وأعقل من أن يُخدع». فلا يستفزنّك من يريد جرّك للكلام على الدعاة بقوله: هل تُقرُّه أم لا تقرّه، ليستدرجك لإسقاطه، ثم إغراقك بأسماء ومناهج ربما لم تسمع بها قبلًا، لذلك فأجبه بقولك: سلني عن نفسي فقط، فلستُ على الناس بقاضٍ.

وإن بُليتَ بشخصٍ لا خلاق لـهُ ... فكُـنْ كأنّـكَ لم تسمعْ ولم يقلِ

ومهما رأيت السذّجَ خِفاف الأحلام يطيرون مع كل مطيّر، قد نسوا تهديد: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] وغفلوا عن وعيد: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ [القلم: ١٠- ١١] فاحمد الله أن ثبّتك وألهمك رشدك وحفظ قلبك ولسانك، وقل: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به، وفضّلني على كثير ممن خلق تفضيلًا(١).

---

(١) عن عمر بن الخطاب وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**من رأى صاحِبَ**
=

فَـما غـابَ عَـن حِلـمٍ ولاَ شَـهِدَ الخَنَا　　　وَلا اسْـتَغذَبَ العَـوراءَ يومًـا فَقالَهـا

* ومن فقه المـآلات: الانشغالُ بالعلم والعمل، وصرْفُ العمر الثمين في صروف العبادات القاصرة والمتعدية، والحرص البالغ على تحصيل وتكثير وحراسةِ أوقاتِ صفاءِ روحٍ وجمعيّةِ قلبٍ ونقاءِ نفسٍ معطرات بذكر الله تعالى واللهج بالثناء عليه ودعائه وتلاوة كتابه بتدبر وتفكر ومحاسبة وتعلّق، وأن يجعلها من سمين وقته وسنام شغله، لا نافلته وهامشه، وعلى التعليم والدعوة وبذل العون للناس ونحو ذلك دون تضييع العمر في مهاترات الردود.. وفي صالح الأعمال نفسَك فاجعَلِ.

وإن كنا نلوم البادئ الباغي فإنا ننصح المُهاجَمَ بالكفِّ العفيف والصفح الجميل واستعمال العقل الوافر والحكمة الناطقة العاملة، والانشغال بعمارة منازل الجنة دون قَتَرِ الدنيا وخمر الانتقام وجمر الحفيظة، وليتدبر قول رب العالمين: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقوله: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٢] وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

=

بلاءٍ فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكَ به، وفضَّلني على كثير ممن خلق تفضيلًا؛ عُوفيَ من ذلك البلاءِ، كائنًا ما كان، ما عاش». مسلم (٨/٨١) والبخاري في الأدب المفرد (٦٦٨) والترمذي (٣٤٣١) وهذا لفظه.

وله في رسول الله ﷺ أسوة، فعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تُنتهك حرمةُ الله، فينتقم لله تعالى»[1]. وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ أو بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب، هيّن، ليّن، سهل»**[2].

لَـنْ يُـدرِكَ المَجـدَ أقـوَامٌ ذَوُو كَـرَم ... حَتَّـى يَـذِلُّوا وإنْ عَـزُّوا لأقـوَامِ
وَيُشْـتَمُوا فَـتَرَى الأَلْـوانَ مُشـرِقةً ... لا صَـفحَ ذُلٍّ ولكـن صَـفحَ أَحـلامِ

* ولكل مشغول عما أمامه من هول المَطْلَع بخلقِ قالات السوء وفَعَلات الخطايا: لك الله! قد آن أوان الكفّ، فاستدرك أنفاسك واستبصر خلاصك وارحم نفسك، فما أنت فيه خائضٌ اليوم ستلتفت إليه غدًا يوم لا يفكّ رهنٌ قد عَلِق إلا بالحسنات والسيئات فإيباق أو إعتاق.. وإنّك لا تجني من الشوكِ العنب.

إنّ ميدان الردود متشعّب الأخطار مزدحمُ النوازع فمن وجد من يكفيه فليحمد الله على العافية. نعم لا بد للمبطل من رادّ لباطله، ولكن لم العجلة وتقحّم الخطر إن كان غيرك ممن هو أكفأ منك قد قام بفرض الكفاية؟! وقد كان الإمام مالك رَحِمَهُٱللَّهُ لا يقول في مسألة يراها ممنوعة ولكن ليس فيها

(١) البخاري ٤/ ٢٣٠ (٣٥٦٠)، ومسلم ٧/ ٨٠ (٢٣٢٧) (٧٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٨٨) وقال: حديث حسن غريب. وقال الألباني في صحيح الترغيب (١٧٤٤): «صحيح لغيره».

نص: أنها حرام، بل يكتفي بقوله: «أكرهها ولا أراها»، ونحو ذلك، وبنحو ذلك كان يقول الإمام أحمد، وهذا من جميل الورع ودقيق الخشية.

ولم الانشغال - أصلًا - بالردود ونشرِها إن كان هذا على حساب بناء العلم في عقلك والإيمان في قلبك والعمل في أعضائك، فالعمر يا صاحبي قصير، والعلوم لا يكفيها عمر واحد، وأُويقاته ثمينة على قصرها.

وقف قليلًا، هل أنت مستعدّ للرحيل، هل تفكرت حقًّا في حقيقة وجودك ومآلك، لماذا خُلقت، وما ذا يُرادُ منك وبك، وكم بينك وبين الآخرة من وقت، وكم بينك وبين آدم عليه السلام من الآباء؟! ألا تعرف من قد سبقك وارتحل؟ فيا مُطلَقًا: اذكر قيودهم.

لم تبقَ إلا ليلة أحيا بها ... وأحسُّ أنّ ظلامها أكفاني

ما بالنا أضعنا هذا العمر الواحد في قيل وقال وكثرة سؤال؟! فكان أن رُفعت عنّا بركة العلم وأورثنا الفُرقة والجدل، وتدبّر قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ [التوبة: ١١٥].

❋ أهذا الضياع في متاهات الجدل ومسارب المراء هو طريق الصحابة والتابعين وكبار أئمة الدين؟ كلا، فلقد عرف القوم ثمن الدقائق والأنفاس فلم ينفقوها في تتبع عثرات الناس، ولم يفرحوا بنشر عيب وإشاعة سقطة. رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ورحمهم وألحقنا بهم غير خزايا ولا ندامى.

* إنّ التفكّرَ السليم يثمرُ التذكّرَ النافع. قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما زال أَهلُ العلم يعودون بالتذكر على التفكُّر، وبالتَّفكُّر على التَّذكُّر، ويُناطقون القلوب حتّى نَطَقَتْ». وقال أَبو عبد الله الأَنصاريّ: «والتَّذكُّر فوق التَّفكُّر؛ لأنَّ التفكُّر طلبٌ، والتَّذكُّر وجودٌ»(١)، فالتفكر في الذهن والتذكر في القلب، فالغاية من التفكر هي التذكر، فقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا تفكر، أما التذكر فهو النتيجة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. والتفكر والتدبر كلاهما تأمل، ويفترقان في أن التدبر تفكّر خاص بتأمل حيّز محدود كآيات قرآنية أو كلامًا مكتوبًا أو حدثًا مشاهدًا أو أحداثًا مترابطة يجمعها ويحللها بربطها بحبل تدبره، أما التفكر فمجاله عام فسيح وغالبه في الأمور العامة والكلية ونحو ذلك، ويجتمع التدبر والتفكر في تأمل آيات القرآن العظيم، فالآيات محدودة أمام العين لكن معانيها واسعة جدًا بلا إحاطة، فإذا تحرك القلب بها فثم التذكر. وكلاهما (التدبر والتفكر) يفضيان إلى التذكر سواء بالبصيرة العلمية أو المشاعر الإرادية، والله أعلم.

فقِف هنيهاتٍ، لا بل ساعات وأيامٍ، مفكّرًا في جردِ أولوياتك في مسيرتك، واعلم أن هناك نِعَمٌ قد سربلك الله بها، فاعرف قدرها واشكر مُسديها عز وجل، واعلم أنّها سبعُ نعمٍ كبار!

---

(١) كلاهما عن: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١ / ٥٦٨).

تركـوا التفّكـر في أمـور فلاحِهـم فكـــأنهم بجمـــودهم أصـــنامُ

العاقل الحازم الرشيد، المريدُ لنفسه الخلاصَ ثم الفلاحَ وحسنَ العاقبة لا بد له من وقفات يخلو بها مع نفسه، يتأمل وإياها مِنَنَ ربِّه وآلاءَ معبوده. ولقد وجّه الله عبادة للتدبر في آياته: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ﴾ [النساء: ٨٢] وأرشدهم للتفكر في الخليقة: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والنهاية: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال حكيم الصحابةِ أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة». فيا لله، كم تحتَ هذه الكلمة من كنوزِ علمٍ وذخائرِ حكمة.

ألم تعلم أنك منغمسٌ حتى شعرِ رأسك في نعمٍ لا تستطيع إحصاءها.. مع هذا فأنت مأمورٌ بشكرها، ولكن من رحمة ربك بك أن جعل وجوبَ الشكرِ على قدر وُسعك وطاقتك، والأمر يسير بحمد الله. واعلم أن شكر النعمة محتاج لشكر نعمة أخرى، وسائر النعم على هذا المنوال، فلا ينفكّ العبد عن حاجته لشكر النعم مع عجزه عن إحاطتها أولًا، ثمّ عن شكرها ثانيًا.

وشكر النعماء مفتقر لصبر لا يقلّ عن صبر اللأواء، بل قد يكون أشقّ، لذلك قال تعالى بعد ذكر حال الإنسان مع كفر النعم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١] أي على الشكر بحسن العبادة. قال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ابتلينا مع رسول الله ﷺ بالضراء فصبرنا،

ثم ابتلينا بالسراء بعده فلم نصبر»(١)، وفتنة السراء تبعد عن الله - غالبًا - أكثر من فتنة الضراء، ويا ابن آدم؛ لقد بورك لك في أمرٍ أكثرت فيه من قرع باب سيدك.

قف الآن متذكّرًا بعض نعم الحميد الكريم الوهاب عليك، فالله يحب المتحدثين بنعمه، المتفكرين في آلائه. ثَمّ سبعُ نعمٍ كبار:

أولاها: نعمةُ الخلق.

إنها نعمةٌ مدهشةٌ عجيبة، فأحضِرْ عقلك بين يديك، وعُدْ بذاكرتك لأبعدِ ما تستطيع، يومًا بعد يومٍ، وشهرًا بعد شهر، وسنةً بعد سنة.. حتى تقفَ عند عتبةٍ زمانيّة، لا تستطيع بذاكرتك اختراقَ حاجِزِها ولا كشفَ سِترِها. ومِن ذلك المكانِ الزمانيِّ؛ اقفز بمُخيلتك إلى ما قبلَ خلقِك. وهناك في ذلك العالم السحيق لن تجد نفسَك، فقد وُجِدَ الكونُ وأنت غيرُ موجود. ليس لك ذرّةُ وجودٍ فيه، لا جسدًا ولا روحًا. ليس هناك منك - أيها الفاني - سوى العدم! مرّت أزمانٌ وأزمان وأحداثٌ في هذا الكون وأنت غيرُ موجودٍ فيه.. لا إله إلا الله. ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

بعد ذلك خلقك ربُّكَ، وفطرك وبَرَأك، وسوّاك وأوجدك ولم تكُ شيئًا. فاحمد الله واشكره على نعمة خلقِكَ، فهي خيرٌ للصالحين، وأكثرُ البشر عن شكرها غافلون.

(١) الترمذي (٢٤٦٤) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

ثانيةُ النعم: نعمةُ الاصطفاء الإنساني.

لـمّا خلقك ربُّكَ اختارك لتكون مخلوقًا مُمَيّزًا فاضلًا كريمًا، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. وتأمل ضدَّ ذلك، ما ذا لو أن اللهَ قد خلقك شجرةً تُرعى وتُقطعُ وتُرمى للنار، أو خلَقَكَ صخرةً تَهوِي وتُكسَر، أو قطرة ماء في بحرٍ، أو ذرّةَ هواء، أو حيوانًا بهيمًا، أو طيرًا حائرًا، أو حشرة تائهة! لقد اصطفاك الله من جميع أجناس مخلوقاته لتكون بشرًا مُمَيّزًا كريمًا، تستحقُّ رضاهُ وحبّه، وكرامتَه وجنته، إن شكرته وأطعته.

ثالثةُ النعم: نعمةُ الإسلام.

وهي أعظم النعم بإطلاق، ومهما تصوّرتَ قدْرَ هذه النعمةِ فلن تطيق قدْرها، ويكفيك أن ترى شؤمَ الكفر وظُلْمةَ الضلال، وبشاعة المآل، وسوء العاقبة والمُنقلب لمن حُرم الإسلام.

ألم تعلم أن نسبةَ دخولِ البشرِ للجنة هي واحد من كل ألف! اللّٰهم سلّم سلّم، ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**يقولُ اللَّهُ عزَّ وجل يومَ القيامةِ: يَا آدَمُ، فيقولُ: لبَّيكَ رَبَّنَا وَسَعدَيكَ، فيُنادِي بصَوتٍ: إنَّ اللَّه يأمُرُكَ أن تُخرجَ من ذُريَّتك بعثًا إلى النَّار. قال: يا ربِّ، وما بَعثُ النَّارِ؟ قال: مِنْ كُلِّ أَلفٍ تِسعَ مئةٍ وتسعَةً وتسعينَ. فحينَئذٍ تَضَعُ الحَاملُ حملَهَا ويَشيبُ الوَلِيدُ** ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ

ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]»[١] إن أكثر بني آدم لن يعودوا لمسكنهم الأول الذي أخرجوا منه وهو الجنة: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠] فهل أنت منهم؟!

وحـي عـلى جنـات عـدن فإنهـا   منازلنـا الأولى وفيهـا المُخـيّمُ
ولكننـا سـبي العـدو فهـل تـرى   نـردّ إلى أوطاننـا ونُـنَعَّمُ

واعلم أن الله تعالى سيغضبُ في ذلك اليومِ غضبًا لم يغضب قبله مثلَه، ولن يغضبْ بعده مثلَه.. فماذا أعددت لغضبه من صالح العمل.

رابعةُ النعم: نعمةُ الاصطفاءِ المحمديّ.

وأبشر ببشرى الله لك، فقد جعلك من خير أمة أُخرجت للناس، وخصّك بأن تكون من أتباع النبي الخاتَمِ الكامِل، فاسْعَد الآن وابتهج، فأنت من الأمة المرحومة، فلهذه الأمةِ من المزايا والخصائصِ ما ليس لغيرها، من مضاعفةِ الأجورِ والحسنات، والتجاوُزِ عن الخطايا والسيئات، ورحمةِ الله لها ورفعِ الدرجات، كرامةً لسيدها نبيِّ الرحمة والهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وهو الإنسانُ الوحيد المغفورةُ ذنوبه مُقدَّمًا، ومع ذلك كان سيدًا للشاكرين الحامدين الخاشعين المستغفرين التائبين. ولكلّ نبي دعوةٌ مستجابة فاستعجلَ كلُّ نبيٍّ دعوته، لكن نبيّك ادّخرها لك شفاعة عند ربك يوم القيامة، فكن من أهل الإخلاص والاتّباع تنلْها بإذن ربك.

---

(١) البخاري (٤٧٤١).

وما حملت من ناقةٍ فوق رحْلِها ... أبـرَّ وأوفى ذمـةً مـن محمـدِ
ولا طَلَعَتْ شمسُ النهار على امرئ ... تقـيٍّ نقـيٍّ كـالنبي محمـدِ
ولا لاحت الجوزاءُ شرقًا ومغربًا ... بأطيـبَ مـن طيـبِ النبـي محمـد

ولولا أن الله أرسله ووفّقه لكنت أنت ووالديكَ وكلَّ من تحب من حطبِ جهنم، لكن الله استنقذكم به من عَمَاية الضلالة لنور الإسلام والإيمان، فاحمد الله على ذلك، واسأله المزيد من فضله، وألحَّ عليه، ألحَّ عليه بأن يُثبّتكَ على الحق حتى تلقاهُ وهو راض عنك. فصلى الله وسلم وبارك على من ازدانت به الدنيا، وسعدت به الخليقة، وسما به السمو، وتضوعت بأرجِه الأرجاء، ورضي اللهُ به هاديًا وشافعًا وبرسالته دينا ﷺ.

إنك إنسان محظوظٌ متميزّ بكونك من أتباع هذا النبي المُمَيَّز. فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أما ترضون أن تكونوا رُبُع أهل الجنة**»، فكبّر الناس. فقال: «**أما ترضون أن تكونوا ثُلُثَ أهل الجنة**»، فكبّر الناس. فقال: «**أما ترضون أن تكونوا شطْرَ أهل الجنة**» ثم وجدنا الله قد زاده على ما رجا من ذلك، فجعل أمته ثلثي أهل الجنة[1]. وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**أهلُ الجنة يومَ القيامة عشرون ومئةُ صفٍّ، أنتم منهم ثمانون صفًّا**»[2].

ومن رحمته ﷺ بأمته أنه كان يتلو قولَ الله تعالى من سورة إبراهيم عليه

---

(١) البخاري ١٣٦/٨ (٦٥٢٨) ومسلم ١٣٨/١ (٢٢١) (٣٧٧).

(٢) أحمد (٤٣٢٨) وصححه الألباني في المشكاة (٥٦٤٤).

السلامُ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقولَ عيسى عليه السلامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه قائلًا: «**اللّٰهم أمتي أمتي**» وبكى، فقال الله عز وجل ـ وهو أعلم ـ: «**يا جبريل اذهب إلى محمد فسلْه: ما يبكيك؟**» فاتاه جبريل فسأله، فأخبره النبيُّ ﷺ، فقال الله تعالى: «**يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولن نسوؤك**»(١). ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

عليك بتأمل سيرته ﷺ، وما فيها من أحواله وأوصافه وأخباره. واعلم أنّك كلّما استوعبت سيرتَه كلّما ازددت به شغفًا، وله حبًّا، وإليه شوقًا. إنّه يُحبّك ويشتاقُ لك، فهل لك مهجةٌ تُطيقُ الصدودَ يا صاح.

تسلَّى الناسُ بالدنيا وإنّا   لعمرُ الله بَعْدَك ما سَلَيْنا

والذي نفسي بيده لو استغرقتَ عُمُرَكَ في الصلاةِ والسلامِ عليه ما أدّيتَ مِعشارَ حقّهِ عليك، مع ذلك فأكْثِرْ من الصلاةِ والسلامِ عليه ما اسطَعْتَ. ولقد أوصاك وبشّرك بقوله: «**إن أولاكم بي يوم القيامة أكثرُكم عليّ صلاة**»(٢). وقد ذكر الشيخ أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن نفسه أنه يصلّي على

---

(١) مسلم ١/١٣٢ (٢٠٢) (٣٤٦).

(٢) مسند أبي يعلى (٥٠٨٠) ومسند البزار (١٤٤٦) وشعب الإيمان للبيهقي (٢٧٧٣) والترمذي (٤٨٤) وقال: «حديث حسن غريب». وقال ابن حجر في فتح الباري =

رسول الله ﷺ كلّ يوم ثلاثة آلاف مرة، وفي ليلة ويوم الجمعة يصلّي عليه سبعة آلاف مرة.

تكـادُ حـين تنـاجيكم ضـمائرُنا　　يَقـضي علينـا الأسـى لـولا تأسّـينا
إن كان قد عزَّ في الدنيا اللقاءُ ففي　　مواقـفِ الحشـرِ نلقـاكم ويكفينـا

خامسةُ النعم: نعمةُ الهدايةِ للسنة.

إذْ جعلك الله من أهل السنة والجماعة، لا من أهل الفُرقة والبدعة، وهل هناك أجملُ من أن تبيتَ على مُعتقدِ رسول الله ﷺ وصحابته الأبرار.

إن معتقدَ أهلِ السنة موافق للفطرة مريحٌ للنفس مبهجٌ للروح مغذٍّ للعقل، فليس فيه خرافةٌ ولا دجلٌ ولا شعوذةٌ، ولا تعقيدٌ ولا قرمطةٌ ولا سفسطةٌ. بل هو الزُّلالُ الصافي للوحي، والخلاصةُ النقيةُ للرسالة، والمهيَعُ السهلُ المُنيرُ للجنَّة، فاستمسك به، وافرح به، واثبت عليه، رعاك الله.

=

(١١/١٦٧): «إسناده لا بأس به». وحسنه الدمياطي في المتجر الرابح (١٤٢٠) وقال العجلوني في كشف الخفاء (١ / ٢٦٧): «رواه الترمذي وابن حبان عن ابن مسعود رفعه.. وفي سنده موسى بن يعقوب الزمعي، قال فيه النسائي: ليس بالقوي، لكن وثقه ابن معين وحسبك به، ووثقه أبو داود وابن حبان وابن عدي وجماعة، ورواه البخاري في تاريخه الكبير. قال في المقاصد: وفيه منقبة لأهل الحديث، فإنهم أكثر الناس صلاة عليه».

سادسةُ النعم: نعمةُ الصلاح والاستقامة.

فما كُلُّ من عرف الحق عمل به، ولا كلُّ من عَلِمَ الهدى اهتدى، ولا كلُّ من اهتدى ثبت. فافرح بصلاحِك واستقامتك وورَعِك وعفافِك، واسأل ربَّك المزيدَ من فضلِه، وتوفيقه، وهدايته، ورحمتِه، وتوبتِه، وغفرانه. فإنه يأمرك بسؤاله: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [النساء: ٣٢] قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أمَرَ بالمسألة إلا ليُعطي»(١).

سابعةُ النعم: النعمُ المتعلقة بالصحة والعافية في العقل والبدن والرزق.

تفكّر في نعمة العقلِ والإدراك وما فيه من الآلاء والمِنح، وفي الجسدِ وما فيه من العجائب والحِكَم، تأملِ القلبَ ونبضَه، والدمَ وجريانَه، والعظمَ وإحكامَه، والعَصَب ودقّتَه، والنَّفَسَ وراحتَه، والبصرَ ومُتعتَه، والسمع وضرورتَه، والخيال وسعته، والعقل ودقّته، والمشاعر وعجائبها، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١٨].

أبحِرْ بخشوعٍ في تأملِ نِعَمِ الروح والعقل والجسد، واهتف بقلبك: آمنتُ بك يا ربِّ، حَنانيك خُذ بيدي. واسبح في بحر التأمّل لنعم الكريم عليك، واحمده حَمْد من عَرَف وخضَعَ وخشَع، وامتلأ فؤادُه بالمحبّة والشكر والامتنان للوهاب الكريم الرحمن، ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

(١) مختصر تفسير البغوي (١٧٨).

لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

والآن: قد عرفتَ فالزم، وانتشِ بهذه النّعم، واغتبط وافرح بها، ولا فَرَح كالفَرَحِ بالله، نعم لا فرح كالفرح بالله، ولا أُنسَ كالأنسِ بالله، واشكرهُ وَسْلهُ المزيد، فقد وعدك إن كنت من الشاكرين.

❁❁❁❁❁

التّكاملُ والتّوازنُ

من أسباب تراشق كثير من أهل السنة فيما بينهم بهذا التصنيف أنّ كل طرف يقبض بأصبعين على طرف حقّ ويقبض ثلاثة أصابع عن طرفه الآخر، ويفعل الثاني عكس ذلك، وكلٌّ يرى المسألة من زاوية لا يقبل النظر من غيرها، ولو اتسع علمه لاتّسع صدره لخلاف أخيه.

لقد نظر كلّ طرف لقضية القيام لله تعالى وحَمْلِ همِّ الدين من جانبٍ مهملًا غيره، محاولًا صِدْقَ جهده رأبَ صدعِ الأمة الذي رآه يتشقّق ويتصدّع.

* فهذا الطرف يرى أن الخلل قد دخل من الابتداع والغلوّ والتحزّب المُفَرِّقُ فقط.

* وذاك يلحّ على أنّه بسبب منكرات الشهوات والشبهات والعلمنة والتغريب.

* ومنهم من يعتقد أن الداء كامن في ضعف الجانب العِبادي والأخلاقي والضعف الشديد لدى الناس في الزهد والورع.

* ومنهم من يوقن أن السبب هو انحراف الحال في الولاء والبراء والحكم بغير شرع الله والتقاعس عن القتال في سبيل الله والرضى بالزرع ونحو ذلك.

فكما ترى كل واحد محق في بيان بعض الداء والدواء، ولو تكاملوا لرأوا اللوحة كاملة غير منقوصة. وعلى كُل حال فكلّ واحد منهم قائم على ثغرٍ عظيم إن أحسن حراسة منهج الرسول ﷺ فيه، فَلَم يزد ولم ينقص ولم يميّع

ولم يبغِ، وكلٌّ مأجور وعلى خير.

❋ وأفضلهم هو ذاكم الفاذّ الجامع الحارس لهذه الجهات كلّها، فلم يشغله ثغرٌ عن آخر، ولم يُزر بغيره ويهضم حقه ممن قام واحتسب ودعا وعلّم وربّى وجاهد. واشتغل ببناء ثغره دون هدم مقامات غيره، وكلٌّ ميسّر لما خُلق له، وكلّهم على خير، وخيرهم الجامع لها.

لقد فرّق الله المواهب بين البشر، ووفّق من شاء إلى ما شاء من سُبُلِ التوفيق والهدى، وجعل أبواب الجنة ثمانية ليجتهد كل امرئ بما يسّر ربه له، مع عدم إغفال الجوانب الأُخَر، والتخصص مطلب نفيس وبخاصة في زمن الفوضى العلمية والدعوية.

هؤلاء صحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم قد اختلفت مزاياهم وقدراتهم ومواهبهم ومقاماتهم وتحصيلهم العلمي، مع ذلك لم نرهم قد اختلفوا في انتزاع أفضليّة السبيل الفلاني على غيره، بل عَذَرَ بعضهم بعضًا وغبط أحدهم أخوته غبطة خير ومحبة، ودعا لهم ونصح لهم بصدق، واستغفر لهم بحب.

وأجمِل بما أورده الذهبيُّ في سير أعلام النبلاء(١) في ترجمة الإمام مالك بن أنس، أنَّ عبد الله بن عمر العُمري العابد كتب إلى إمام دار الهجرة مالك بن أنس يَحُضُّه على الانفراد والعمل، فكتب إليه الإمام مالكُ: «إنَّ الله قسم

(١) السير (٨/ ١١٤).

الأعمالَ كما قسم الأرزاق، فرُبَّ رجل فُتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد. فنَشرُ العلم من أفضل أعمال البِرِّ، وقد رضيت بما فُتح لي. وما أظنُّ ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كِلانَا على خير وبِرٍّ». وتأمّل حديث أبواب الجنة الثمانية(١). وهل أفضل من أن تبثّ من علم

(١) عن أبي هريرة رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«من أنفق زوجين في سبيل الله؛ نُودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير. فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الرّيان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة»** قال أبو بكر رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما على من دُعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يُدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلّها؟ فقال: **«نعم، وأرجو أن تكون منهم»**. متفق عليه. البخاري ٣/٣٢ (١٨٩٧) ومسلم ٣/٩١ (١٠٢٧) (٨٥) قال النووي في شرح صحيح مسلم ٤/١٢١: «قال القاضي: قال الهروي في تفسير هذا الحديث: قيل: وما زوجان؟ قال: «فرسان أو عبدان أو بعيران» وقال ابن عرفة: «كلّ شيء قُرِنَ بصاحبه فهو زوج، يقال: زوّجت بين الإبل إذا قرنت بعيرًا ببعير، وقيل: درهم ودينار، أو درهم وثوب. وقيل: يحتمل أن يكون هذا الحديث في جميع أعمال البر من صلاتين أو صيام يومين، والمطلوب تشفيع صدقة بأخرى، والتنبيه على فضل الصدقة والنفقة في الطاعة والاستكثار منها». أهـ مختصرًا.

قلت: ولعل في الزوجية إيماء للندب لابتداء الديمومة، بأن يتجاوزَ العبادةَ الواحدة لأختها، فإذا فعل ذلك فقد وضع قدمه على عتبة ديمومة العمل. وروى البخاري (٦٤٦٦) ومسلم (٧٨٢) واللفظ له بسنده عن عائشة رَضِوَٱللَّهُعَنْهَا أن رسول الله ﷺ سئل: أيُّ العمل أحبّ إلى الله؟ قال: **«أدومه وإن قلّ»** وكان عمله ديمة.

الرسول ﷺ ما يكون عظةً لمن سمعه، وأدبًا لمن وعاه، وضياءً لمن استنار به، وصلاحًا لمن استعمله؟

وقد سُئل ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الأسباب التي يقوى بها الإيمان إلى أن يكمل هل يبدأ بالزهد، أم بالعلم، أم يجمع بين ذلك؟ فأجاب: «الناس يتفاضلون في هذا الباب، فمنهم من يكون العلم أيسر عليه من الزهد، ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه، ومنهم من تكون العبادة أيسر عليه منهما. فالمشروع لكل إنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وإذا ازدحمت شعب الإيمان قدّم ما كان أرضى لله وهو عليه أقدر، فقد يكون على المفضول أقدر منه على الفاضل، ويَحصُلُ له أفضل مما يحصل من الفاضل، فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له، وهو في حقّه أفضل، ولا يطلب ما هو أفضل مطلقًا إذا كان متعذّرًا في حقّه أو متعسّرًا يفوته ما هو أفضل له وأنفع، كمن يقرأ القرآن فيتدبّره وينتفع بتلاوته، والصلاة تثقل عليه، ولا ينتفع منها بعمل، أو ينتفع بالذكر أعظم مما ينتفع بالقراءة. فأيّ عملٍ كان له أنفع ولله أطوع؛ فهو أفضل في حقه من تكلّفِ عملٍ لا يأتي به على وجهه، بل على وجهٍ ناقص، يفوته ما هو أنفع له»(١).

* أَلَا وإِنّ من المهمات: الحاجةُ الملحّة للتوازن في النظر للأمور وتقدير

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٥١، ٦٥٢).

أحجامها المعنويّة بلا وكسٍ ولا شطط. وسيّدة قواعد التوازن هي أن الذي يستحق أن تقلق لأجله هو الآخرة؛ درجاتها ودركاتها، أما الدنيا فمفروغ منها، رزقك وعمرك.

ومن مسائل التوازن لطالب العلم: تقديرُ العالم وإجلالُه، فقد جفا عن حقّه وجلاله أقوام. وبخاصة حدثاء الأسنان. وجعلوا كلمته ورأيه وفتواه كفتوى آحادهم التي تلقفوها من الكتب مباشرة أو من فهومهم القاصرة أو من شبكاتٍ مجهولة سائرة، وغفلوا عن كبار أمورٍ لا تُدرَكُ إلا بعد النضج العلمي الطويل، وسهَوا عن مرتبة إجلال حَمَلَةِ الشريعة وتعظيم العلم الذي في صدورهم. فإن المعلومة التي يتأمّلها الإنسان أربعين سنة ويسقيها عصارة تجاربه ويمرّ عليها دلائل الوحي ليست كالتي تنطبع في ذهن غيره في ساعات، فيضمحل صفوُها لكدرِ ثاني الحال.

فأَوْدَى السَفيهُ برأيِ الحليمِ　　　فانتشرَ الأمرُ ولم يُبرَمِ

إنّ عامل الزمن مع عرْكِ التجارب وتراكم العلوم كيفًا وكمًّا سببٌ وطيدٌ لترجيح صوابيّة صاحبه على غيره. بدون قطعٍ ولا اضطراد.. ولمّا أراد مُحيّصة أن يتكلم قبل أخيه الأكبر حويّصة قال له رسول الله ﷺ: **«كَبِّرْ كَبِّر»** يريد السن(١).

وطائفة أخرى غلت في العالِم حتى أشبهت أهل البدع مع شيوخهم

---

(١) البخاري ١٢٣/٤ (٣١٧٣)، ومسلم ٩٨/٥ (١٦٦٩) (١).

كالرافضة والقبوريّة، فأصبح ذلك الشيخ عندهم ـ عمليًّا ـ شبه معصوم من الخطأ، والشاب بين يديه كالجثة بين يدي غاسلها، والريشة في مهبّها، وهذا ضلال كسابقه، وسَبْعُ الأفكارِ أضْرَى من سبعِ الأجساد.

* إن طالب العلم الحكيم يزن الأمور المشتبهة والمحيرة وكبريات المعضلات برَوِيّةٍ وطولِ تأمّل، ويقيس الأمور بأشباهها، وينتبه للأشباه والنظائر والفروق. فمن ذلك مثلًا مسألة التعامل مع معاصي ولي الأمر دون الكفر فإنّ لها جانبان، وينبغي لكل من جُرّ إليها أن يراعيهما، حتى لا يزيغ بتقصير، ولا يضل بغلوّ وهما: حراسة الشريعة ورعاية الاجتماع.

فليست السُّنة بالسكوت عنه دومًا وتسويغ فَعَلاته وحملها على مبررات لا تحتمل، وليست السُّنة كذلك في التشغيب عليه بها، والطيران بها بين الرعية، وإعلانها وتهييج الرعية على واليهم، بل السنة بين ذينك الأمرين. فأنكِر المنكر فيما بينك وبينه، ولا تهيّج على الناس فتنة، وانصحه وانصح له وللأمة، فإن كان المنكر ظاهرًا فاشيًا فأعلن ـ بلا تجاوز ـ أنّه منكر، حتى لا يغترّ الناس، ولكن بحِكمة ونصح للطرفين، فلا تسوّغ وتبرّر له، ولا تهيّج وتهيئ للخروج عليه، وهذا مسلك دقيق.

* وإنّ من الحكمة الشريفة والبصيرة الدقيقة الإلمامُ بمسألةِ المسافةِ المرعيّة في اختلاف الرأي بين الراعي والرعية، وهذا أوانُ تفصيل ذلك:

لا بد من التسليم أوّلًا بمقدمتين:

الأولى: أن الله خلق عباده المؤمنين أحرارًا، ليس لهم عبودية إلا لربهم،

ولا يملكهم غيره، - حتى الرقيق الأقنان فملكية الأسياد لهم جزئية، ومقيّدة بالمعروف - ولكلِّ مؤمنٍ رأيُه المستقل الذي به يختار طريقه، راكبًا صهوة إرادته التي سيحاسبه الله عنها بقدر ما أعطاه من مَلَكَةٍ وفقه وعلمٍ وعقل. وهو مُطالبٌ باتباع شرع الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفي النهاية فهو ميسّرٌ لما خُلق له ومبيّنٌ له ما أُريدَ منه، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] والنهاية: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

الثانية: أنّ من ضرورات اجتماع الناس وعمارتهم الأرض التي اختارها الله وسخرها لهم، وجعَلَها ميدانًا لابتلائهم واختبارِ مدى عبوديتهم له سبحانه، ليقيموا بها دينه المرْضيّ، أن يكون لهم قادةٌ يسوسونهم وينقادون لهم ليختاروا لهم أفضلَ الأمور وأرفقَها بهم، ويفصلوا بينهم النزاع والخصومة، ويحرسوا دينهم ودنياهم، ويتعاونوا جميعًا لتحقيق ما خُلقوا من أجله. إذ لو لم يكن لهم قائد مُطاع لتسلّط قويهم على ضعيفهم، ولتفرّق أمرهم، وضعف شأنهم، واستطالت عليهم العاديات. إذن فلا بد لهم من أمير ينقادون لأمره، لذا شُرعت الإمامة، وجُعلت طاعة الأمير من لوازم الجماعة، وصارت طاعته في المعروف من طاعة الله تعالى، وشُدّد في نكث البيعة أو الخروج إلا لمبرّر من الشريعة.

ولمّا كانت تبعية الناس لساستهم أمرًا لازمًا كان من محاذير تلك القضية أن تتحول الوسيلة لغاية، بمعنى أن يَنزع الرئيسُ الذي قد جُعِلَ لتعبيد الناس لربهم إلى مشاركة الرب في ذلك الأمر بتعبيدهم له ولإرادته الرئاسية أو الملكية

أو العسكرية ونحو ذلك. وقد يصل بعضهم للتعبيد المطلق كالنمرود وفرعون، وقد يقصُر بعضهم دونه. فمدار الأمر على منازعة عبودية الله تعالى في أي شُعبة من شُعبِها.

والخطوة الأولى في ذلك الطريق الشركيّ هي الاستبداد بالرأي دون الجماعة، ولـمّا كان الأمر بهذه المثابة من الخطر على أصلِ الغاية من الخليقة ضُبط الرؤساء. أيًّا كانت رئاستهم. بأمرين:

الأول: أن طاعة الأمير تابعةٌ مَقُودَةٌ لطاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وتأمّل كيف لم يفرد ولي الأمر بطاعة مستقلة، بل جعلها تابعة لما سبقها من طاعة الله ورسوله. فعند تعارض الأمرين. أمر الله تعالى وأمر المخلوق. فليس للمؤمن إلا أن يطيع ويقدّم بل يوحّد طاعة الله. ومنها طاعة رسوله. دون ما سواه ومن عداه. ولما كانت الطاعة يلحقها نزاع عند بعض مواردها؛ حسم الله هذا النزاع بالردّ إليه عبر كتابه وإلى رسوله ﷺ عبر سنته، وليس لشهوة سلطان أو حماس رعيّة، فقال جل شأنه فاصلًا النزاع وحاسمًا الخلاف: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ﴾ سواء بين الراعي والرعية، أو بين الرعية فيما بينهم ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى كتابه ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ أي إلى سنته، وجعل هذا الرد شرطًا للإيمان ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ثم بشّرهم بأن هذا الردّ خير لهم في الحال والمآل ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

ومن تشديد الله تعالى في هذا الأمر العظيم قوله تبارك وتعالى في بيعة النساء: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] تنبيهًا على أنه لا طاعة لمخلوق مهما علا شأنه في معصية الخالق، وهو التشديد المؤكد في قضيةِ إفراد الطاعة لله وحده لا شريك له. قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولفظ الآية عام، أنهن لا يعصينه في معروف. ومعصيته لا تكون إلا في معروف؛ فإنه لا يأمر بمنكر، لكن هذا كما قيل: فيه دلالة على أن طاعة أولي الأمر إنما تلزم في المعروف، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما الطاعة في المعروف**»(١). ونظير هذا قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤] وهو لا يدعو إلا إلى ذلك، والتقييد هنا لا مفهوم له؛ فإنه لا يقع دعاء لغير ذلك، ولا أمر بغير معروف»(٢).

قلت: لذلك فقد قرر العلماء أن من أنواع الشرك؛ شركُ الطاعة، ومن دلائله قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وقد فسرها النبي ﷺ لعدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ بأنهم أحلوا الحرام فأطاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فاتّبعوهم(٣). فهم إذن لم يعبدوهم بالركوع والسجود والدعاء والقرابين، ولكنهم أعطوهم حقّ التشريع من دون

(١) البخاري (٦٨٣٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٧ / ٦١).
(٣) السنن الكبرى للبيهقي (٢٠٨٤٧) (١٠ / ١١٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٩٣).

الله، فحرّموا عليهم وأحلّوا لهم، فاتّبعهم أولئك وأطاعوهم فأشركوا. وتأمل حال المجالس التشريعية في زماننا والله المستعان، ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ومن بصيرة المؤمنِ علمُه أنّ الوطنية بمعناها العُرفي في هذا العصر قد بُنيتْ على مفهوم مادّيّ علماني يميّز الناس على أساس جغرافي، فيقدم الكافر المواطن على المسلم غير المواطن، ويقدم الفاسق المواطن على الصالح من غيره، ويقدم المبتدع المواطن على السني غير المواطن وهكذا. ومعلوم أن الانتهازيين والوصوليين يركبونها حال حاجتهم فقط، كما قال جونسون: «الوطنية هي الملاذ الأخير للأوغاد». وللمسألة تفاصيل ومخارج يجمعها إعطاء كل ذي حق حقّه على ضوء الشريعة الربانية لا الجهالات الوضعية.

فحب وطن الإسلام من الإيمان، ورسول الله ﷺ وصحابته قد أحبّوا مكة والمدينة، وعن أنس أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر فنظر إلى جُدُرَات(١) المدينة أوضعَ ناقته(٢)، وإن كان على دابة حرّكها من حبّها. قال ابن حجر(٣): «وفيه دلالة على فضل المدينة وعلى مشروعية حب الوطن والحنين إليه». ووقف

---

(١) جمع جُدُر، والجُدُر جمعُ جِدار. ولا زالت بعض جُدُرِ حوائط المدينة ومزارعها موجودة على أطراف المدينة حتى اليوم.

(٢) الإيضاع: الإسراع، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الحج: «**يا أيها الناس؛ عليكم بالسّكينة، فإنّ البِرَّ ليس بالإيضاع**». رواه البخاري (١٦٧١) ومسلم (١٢٨٢).

(٣) فتح الباري (٣/ ٦٢١).

ﷺ إبّانَ مخرجه مهاجرًا على الحَزَوَّرَةِ بأسفل مكة ملتفتًا ومُخاطِبًا لها بالحب والألم لفراقها، فعن عبد الله بن عدي بن الحمراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: رأيتُ رسول الله ﷺ واقفًا على الحزوّرة وهو يقول: «**والله إنّك لخيرُ أرض الله، وأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أنّي أُخرجتُ منك ما خرجت**»(١). فانظر كيف يعتذر إليها من حبه لها وهي جماد. ودعا الله تعالى أن يُحبّب إليه المدينة كحُبّه مكة، فعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: لما قدم النبي ﷺ المدينة؛ وُعِكَ أبو بكر وبلال، قالت: فدخلتُ عليهما، فقلت: يا أبتِ، كيف تجدك؟ ويا بلال، كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذَتْهُ الحُمّى يقول:

كــلُّ امــرئ مُصَــبَّحٌ في أهلــه ... والمــوتُ أدنــى مــن شِرَاكِ نعلِــهِ

وكان بلال إذا أقلعَ عنه، يرفعُ عقيرتَهُ ويقول:

ألا ليـت شـعري هـل أبيـتَنّ ليلـةً ... بـــوادٍ وحـــولي إذخـــرٌ وجليـــلُ
وهـــل أرِدَنْ يومًـــا ميـــاهَ مِجَنَّـــةٍ ... وهـــل يَبْـــدَوَنْ لي شَـــامَةٌ وطَفِيـــلُ

قالت عائشة: فجئتُ رسول الله ﷺ فأخبرتُه، فقال: «**اللّهم حَبِّبْ إلينا المدينةَ كحبّنا مكة أو أشدّ، اللّهم صحِّحها، وبارك لنا في مُدِّها وصاعِها، وانقل حُمَّاها فاجعلها بالجُحفة**»(٢). وإذا أردتَ قياسَ وفاء امرئٍ فاذكر وطنَه

---

(١) أحمد (٤/٣٠٥) والترمذي (٣٩٢٥) بسند صحيح.

(٢) البخاري (٣/٢٩) ومسلم (٤/١١٨و ١١٩) والجَليلُ: الثمام، وهو من نبت البادية. ومِجَنّة: موضع معروف بينه وبين مكة ستة أميال، وكان للعرب فيه سوق مشهود. شامة =

حال غُربته، وقد قيل: «إذا أردتَ أن تعرف الرجلَ فانظر كيف تحنّنه إلى أوطانه، وشوقه إلى إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه. والإبل تحنّ إلى أوطانها وإن كان عهدها بعيدًا، والطيرُ إلى وكره وإن كان موضعه مُجدبًا، والإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أكثر نفعًا».

ولمّا كان حب الوطن مغروز في نفوس الناس، والفطام عن المألوف شديد، والفراق عن الأوطان شاق؛ كانت الهجرة إلى الله امتحانًا لإيمانهم ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٨- ٥٩] عليم بحال نيّة المهاجر وسبب قعود القاعد، حليم لا يعاجل بالعقوبة بل يُمهل ويُملي، ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَاۚ﴾ [النساء: ٩٧] وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْۖ﴾ [النساء: ٦٦]. وتدبّر كيف جعل الخروج من الديار والأوطان مقارنًا لقتل النفس، وذلك لشدة تعلق النفوس بأوطانها وحنينها إليها. كما قال ابن الرومي:

وَلي وطـــنٌ آليـــتُ أَلاّ أَبيعَـــهُ   وألّا أرى غـيري لـهُ الـدهرَ مالِكـا

=

وطفيل: جبلان بأرض مكة، وما والاها، وقيل: هما عينان لا جبلان. وقوله: **«بالجحفة»** حجّة لمن أبدل (في) بالباء وجعلها بمعنى واحد في هذا السياق، ولا زالت هذه لغة دارجة مشتهرة.

عَهِدتُ بـه شرخَ الشـبابِ ونِعمـةً كَنعمـةِ قـومٍ أصـبحوا في ظِلالِكـا
وقَـد ألِفتْـهُ الـنفسُ حتـى كأنّـهُ لها جسدٌ إن غابَ غودِرْتُ هالكا
وحبَّـبَ أوطـانَ الرجـالِ إلـيهمُ مَـآربُ قضَّـاها الشـبابُ هنالِكـا
إذا ذَكـروا أَوطـانَهم ذكَّـرَتْهُمُ عُهـودَ الصِـبا فيهـا فحنّـوا لِـذَلِكَا

قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نحنُ نقاتل من أجل الإسلام في وطننا، أو من أجل وطننا لأنه إسلامي، ندافع عن الإسلام الذي فيه. أمّا مجرد الوطنية فإنها نيّةٌ باطلة لا تفيد الإسلام شيئًا، ولا فرق بين الإنسان الذي يقول إنه مسلم والإنسان الذي يقول إنه كافر إذا كان القتال من أجل الوطن لأنه وطن.

وما يُذكر من أن حبّ الوطن من الإيمان وأن ذلك حديث عن رسول الله ﷺ؛ كَذِبٌ[١]. حب الوطن إن كان إسلاميًّا فهذا تحبّه لأنه إسلامي، ولا فرق بين وطنك الذي هو مسقط رأسك أو الوطن البعيد عن بلاد المسلمين، كلها وطن إسلامي يجب أن نحميه. وعلى كل حال يجب أن نعلم أن النيّة الصحيحة هي أن نقاتل من أجل الإسلام في بلادنا أو من أجل وطننا لأنه إسلامي لا لمجرد الوطنية»[٢]. وقال ابن علان: «والإنسان في الدنيا غريبٌ على الحقيقة، لأن الوطن الحقيقي هو الجنة، وهي التي أنزل الله بها الأبوين ابتداء، وإليها المرجع إن شاء الله تعالى بفضل الله ومَنِّه، والإنسان في الدنيا في دار غربة،

---

(١) حديث: **«حُبُّ الوطن من الإيمان»** ذكره الصاغاني في الموضوعات، رقم: (٨١) وقال السخاوي: لم أقف عليه. المقاصد الحسنة، رقم: (٣٨٦).

(٢) شرح رياض الصالحين (١ / ١٠).

كالمسافر من وطنه حتى يرجع إليه، والله الموفق لِمَا يوصِلُ إلى الرجوع إليه»(١).

ومن بداهة القول؛ التذكير بأنّ الوطن هو مجموع المكان والسكّان، فالأرض بحد ذاتها وطنٌ لمن استوطنها حتى لو كان لوحده في قُلّةِ جبل أو جزيرة نائية؛ فجزيرته حينها هي وطنه، فإن كان معه سكّان فيها فالأرض وأهلها وطنٌ له. وهكذا تتسع الدائرة حتى تقف عند حدٍّ معلوم له نهاية متعارف عليها بين أولئك السكّان مهما كان موقع ذلك البلد أو الوطن أو الدولة.

والناس في حاجة للانتماء المجتمعي، فالإنسان مدنيّ بطبعه. واعتبر ذلك بحال البشر في شأن الانتماء لما سوى الدِّين والاجتماع عليه بحسْب نسبة التديّن، وبعضهم لا يرفع به رأسًا؛ فأولًا: عصابة النسب، فتراهم يجتمعون على النسب وعصابة القبيلة والحميّة دونها والانتصار لها، والاعتزاء بها، بل كثير من الناس تصل به العصبية لأن ينتصر لها بالباطل والظلم وقد يسفك في سبيلها الدم الحرام! فإن لم تكُ قبيلة: فبالانتماء إلى القرية والبلدة، إذ بينَ أهل القرى عصابةُ انتماءٍ واعتزاء بجامع البلدة. وبعد ذلك: الإقليم ثم الدولة.

والدولة هي أقوى مكوّنات المجتمع الحسيّة وبخاصة إن حققت مصالح الدين والدنيا. ومما عزّز الانتماء للدولة حياطتها بحدود معلومة حسًّا ومعنًى،

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علام البكري الصدّيقي المكي الشافعي (٤ / ٤٩٨).

تجمع لهم حاجاتهم فيجتمعون تحت ظلها لتحصيل مصالحهم أجمعين، ويحرسونها ويذودون عنها دفعًا لصيال المُعتدين.

وبما أنّ السفينة لا بد لها من قيادة موحّدة تأخذ بأهلها لساحل الفوز والنجاة، إذ القيادة المشتركة عرضة لآفات الاختلاف ثم العناد ثم المشاكسة ثم التفرق ثم الحرب والخيبة، لذا كان لزامًا لمن رام الصلاح أن يجتهد لتكون الدفّة بيد واحدة لا غير، وأن تكون يدًا صالحة قدر المستطاع، وأن تكون قيادتها معيّنة ومحاسَبَة من قِبَلِ شورى صالحة حكيمة قوية، فالسلطة المطلقة سمّ ناقع للروح، لا يكاد يسلم منها إلا عظيم الدين.

والمقصود؛ أنّ الحكومة باختلاف حوكمتها ومسمّياتها جمهورية أو سلطانية أو ملكيّة أو غيرها ومهما كانت طريقة إدارتها للأمور فهي في النهاية عبارة عن طائفة من أهل الوطن يديرون الوطن وليسوا هم الوطن، فليتنبّه لذلك. وهذا من توضيح الواضحات؛ لأنّ من الناس من يظنّ أنّ الوطن هو الحاكم والحكومة، وهذا باطل، فهؤلاء هم من يديرون الوطن لا أنّهم هم الوطن. ومن الناس من يختزل مفهوم الوطن في شخصه، ويحصرُ حدود الوطنيّة في ذاته، فيقول بلسانه أو بحاله أو بأعوانه: أنا الوطن، أنا الدولة! وكلّ ذلك محضُ هُراء، فاختزالُ الكلّ في الجزء بيّن البطلان.

والمقصود؛ بيانُ أنّ من يتولّى أمر تدبير شؤون الناس له حقوقٌ كبيرة ليس من بينها اختزالُ الوطن في ذاته أو أعوانه أو حكومته، فمن والاه فهو الوطنيّ الوفيّ الصادق، ومن خالفه فهو عدوّ الوطن! أيٌّ وطنٍ هذا؟!

نعم؛ قد عظّم الشرع حقّ الوالي، وزجر وأغلظ بشدة ونهى عن الخروج عليه وشقّ عصا طاعته وتفريق الجماعة بلا مبررٍ تامّ كالشمس من الشرع، ولكن هذا لونٌ وخطف رداء الوطنيّة لونٌ.

هذا؛ وإنّ حصر الوطن واختزاله في شخص أو حكومة أمرٌ دارج عند الأمم الجاهلة والمغلوبة على أمرها، بل وصل الحال ببعض الولاة لتعبيد الناس لهم من دون الله رب الناس ملك الناس إله الناس! إمّا صراحة كالنمرود وفرعون، وإما عن طريق صرف بعض حقوق الربوبية والألوهية له من دون الله رب العالمين؛ كشرك التعظيم والتقديس والخوف والرجاء واعتقاد العصمة وعلم الغيب والسجود والركوع وغير ذلك مما لا يتسامح فيه الشرع ولا يُقبل من صاحبه صرف ولا عدل، قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨] وقال جل اسمه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وهذا في حق من عَبَد، فكيف بمن عُبِدَ وهو راض، فكيف بمن طلب عبادته من دون الله! ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨- ٩٩] ، ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭۖ بَلْ كُنتُمْ

قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات: ٢٢- ٣٥].

هذا؛ وإنّ الحاكم مهما كان لون سلطانه وطبيعة حكمه فهو لا يملك رقاب رعيّته ولا أموالهم، بل هو راع عليهم ومسؤول عما استُرعي، إن أحسن وعدل فهنيئًا له إذ هو أوّلُ موعودٍ بظل عرش الرحمن يوم القيامة في حديث السبعة المتفق على صحته[١]، وإن ظلم فقد علمتَ ما جاء من وعيد الجبار للظالمين، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١١].

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الوالي راع على الناس بمنزلة راعي الغنم، كما قال النبي ﷺ: **«كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيّته، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيّتها، والولد راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، والعبد راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»**، أخرجاه في الصحيحين[٢]، وقال ﷺ: **«ما من راع يسترعيه الله رعيته، يموت يوم يموت، وهو غاش لها إلا حرم الله عليه رائحة الجنة»** رواه مسلم[٣].

(١) البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).
(٢) البخاري (٨٩٣) (٢٧٥١) ومسلم (١٨٢٩).
(٣) مسلم (١٤٢).

ودخل أبو مسلم الخولاني على معاوية بن أبي سفيان فقال: السلام عليك أيها الأجير، فقالوا: قل السلام عليك أيها الأمير، فقال: السلام عليك أيها الأجير، فقالوا: قل السلام عليك أيها الأمير، فقال السلام عليك أيها الأجير، فقالوا: قل السلام عليك أيها الأمير، فقال: السلام عليك أيها الأجير، فقال معاوية: دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول، فقال: إنما أنت أجير استأجرك ربُّ هذه الغنم لرعايتها، فإن أنت هَنَأْتَ جرْبَاها، وداويت مرضاها، وحبسْتَ أُولاها على أخراها، وفاك سيّدُها أجرك، وإن أنت لم تهنأ جرباها، ولم تداو مرضاها، ولم تحبس أولاها على أخراها، عاقبك سيدُها»(١).

الثاني: أنّ الله تعالى أمر الأمير بالشورى، وألا يستبدّ بالأمر دون رعيّته. فرأي الجماعة خير من رأي الواحد، سواء في قرب الرأي من إصابة الحق، أو في سلامته من الهوى الخفي وحظوظ النفس التي تستتر أحيانًا خلف القول بالمصلحة العامة. ولقد كان فرعون سلف سوءٍ لكل مستبدٍّ برأيه وحكمه دون المشاورة بزعم الإصلاح: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]. وقال الإنجليزي إدوارد دنيسون في وصفه للهالك أتاتورك: «إن أتاتورك إذا أراد إدخال إصلاح؛ يجعله قانونًا مفروضًا على الناس. خذ مثلًا مسألة الحروف، لو ألّفت لجنة لبحثها لقضت سنوات.. وأما كمال باشا. أي أتاتورك. فإنه جلس مع آخر، أظنه وزير المعارف، ووضع معه الحروف التركية اللاتينية ثم قال: غدًا تكون هذه حروف البلاد. وفي

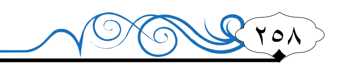
(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٥٠ - ٢٥١).

الغداة فرض على الناس تعلمها».

مع التنبيه إلى أنّ معيار الشورى في الإسلام: أن تكون لأهل العلم والرأي والمعرفة ممن فُحِصَ علمهم وديانتهم وورعهم وفقههم ودُربتهم وخبرتهم وتجربتهم. أما أن تكون المشاورة لغير أولئك فإنّما هو محض التفافٍ على الشورى الحقيقية إلى شورى صوريّة، يكون الغرض منها عروض تجميلية وأقنعة شمع زائفة أو موازنات معيّنة بين أقاليم أو تيارات واتجاهات ونحو ذلك، مما ينشأ عنه سلب الجوهر النفيس والإكسير النافع للشورى البناءة كي تنتهي لتكون معبَرًا لنزوات الساسة، وتمريرًا للقرارات المُحرجة.

وبعدُ؛ فلا يعني اختلاف رأي المرعيّ عن الراعي وإظهاره أن يكون لفساد ذات بينٍ، أو لغرض شقِّ العصا، إنّما هو رأي يقترحه المؤمنُ لغيرته على بيضة أمته واجتماعها على الهدى والصواب، فإن أصاب فقد حاز الفضل، وإن أخطأ فالله يغفرُ له. شريطة الإخلاص والعلم والنصح والرفق، بأن يأتيَ البيوتَ من أبوابها، وأن يُخلص النيّة من آفاتها، مع مراعاة الأناة والحكمة والمصالح العامة للأمة، وأن يتّبعَ ولا يبتدع. وحال سلف الأمة ناطق بهذا، شاهدٌ به.

مع الأخذ في الاعتبار أن حكم الحاكم في المسألة التي ساغ فيها خلاف أهل العلم يرفع الخلاف والنزاع التطبيقي، شريطة أن يكون رائده ابتغاء مرضاة الله دون سواه. وليس على الرعيّة التنقيب في النيّات، لكن على العلماء مقايسةُ الأمور بأشباهها، وإلحاقُ الفروع بأصولها، وقراءةُ المشاهد الكلية لا الأحداث الجزئية، والتأمل في الوقائع المحكومة بالنظر للمصلحتين العظيمتين:



الأولى: عدم تبديل الدين وتغيير معالم الملّة ولبس الحق بالباطل بنسبة الباطل للشرع وتشريعهم إيّاه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

الثانية: الحرص على حفظ الجماعة من التشقق والتصدّع والفرقة وذهاب الريح، فكَدَرُ الجماعة خيرٌ من صفو الفُرْقة، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ويكون ذلك بمراعاة القاعدة الفاذّة الجامعة المانعة: المصالح والمفاسد، فعليها أُقيمتْ السياسةُ الشرعية للراعي والرعية. وما أكثرَ المتسلقين لحظوظهم عبرها عن علمٍ أو جهل، وإن كان هذا لا يعني بحالٍ اطّراحها، بل تنقيةُ مَشْرَبِها من كِيزان الحظوظ الفانية.

وبعدَ إبداء المؤمن رأيَه الذي تحتاجه أمّته؛ يكون قد أدّى الذي عليه، فكلٌّ مُطالبٌ على قدرِ مِنحةِ الله له، فمن بسط الله له العلم فسيُسأل غدًا عن علمه، ومن بسط الله له السلطان فسيُسأل غدًا عن رعيته، وعلى قدر العلم والقدرة يكون السؤال للجميع.

وغربة الإسلام قد تستحكم في زمان ومكان وترتفع في غيرهما، وحكمة الله تعالى من وراء هذا كله، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ

يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] بلى وعزةِ ربّنا. وعلى قدر استحكام غربة الإسلام تعظم مواطن الطلب لمواقف الأخيار. ورُبَّ مُبارَكٍ قد أسقط الله به عن الأمة العذاب بعدما حمَّ، وفروض الكفايات تنقلب للأعيان عند عدم الكفاية كلٌّ بحسَب ما أوتي، وعلى قدرِ ما بُسِطَ له. قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المتمسّك بدينه حال الغربة أسعد الناس، ويكون من جنس السابقين الأولين الذين اتبعوه لما كان غريبا، وفي الآخرة درجتهم بعد الأنبياء عليهم السلام»(١).

وخيرُ عباد الله من استعمله ربّه في طاعته، واستغرسه في عبادته، وكان في المكان والزمان والحال الذي ينبغي أن يكون فيه المرضيّون. اللّهم اسلكنا في سبيلهم وانظمنا في سلكهم يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام.

* ولا بد لطالب العلم من مراعاة منهج التكامل، والاهتمام بالتأصيل العلمي، فلا يُبحر في علم دون الإلمام بالأصول العامة للعلم الشرعي الغائية والآليّة، فلا بد له أولًا أنْ يُحصّل طائفةً نافعة من العلوم الخادمة لمُحَصّلته العلميّة من العلوم العامّة الغائية كالتفسير والحديث والمعتقد، والآلية كالنحو والمصطلح وقواعد التفسير.. وصِلُوا السيوفَ بالخُطا.

فلا ينبغي له أن يصرف كل وقته إبّان الطلب في فنٍّ معيّن لا يحسن غيره، فالتخصص يكون بعد اجتماع أصول الفنون العلمية، والعلوم يخدم بعضها

(١) الفتاوى (١٨/ ٢٩٢).

بعضًا، وبناء المعلومة النافعة مفتقر لمزيج متكامل من أطراف علوم أخرى، فالفتوى بحكم مسألة كذا محتاج للتفسير، والتفسير له قواعده، ولِلْحديثِ وله أصوله، ولِلّغةِ ولها نحوها وموسوعاتها من شريف الألفاظ وكريم المعاني، ولِمعرفةِ كلام السابقين ولهُ مراجعه وهكذا..

ومثال ذلك في حياتك أنك ترى الثمرة ناضجة جميلة شهيّة متدلية من غصن شجرة، فالثمرة تُنسب رأسًا للشجرة، أما تكوينها بإذن الله فراجعٌ لأسباب بعضها خارج الشجرة كالتراب والماء والشمس والهواء، فإن تكاملت طابت الثمرة، وإن قلّت مادّة إحداها عاد النقص على الثمرة، فكذلك العلم سواء بسواء. والعلم غنيمة فإليها سابِق وبِها اظفر، وهو الطريق السالك لنعيم الجنة.

وقـدْرُ كـل امـرئ مـا كـان يحسـنُهُ   والجـاهلون لأهـل العلـم أعـداءُ
ففُـزْ بعلـمٍ تعـشْ حيًّـا بـه أبـدًا   النـاسُ مـوتى وأهـلُ العلـم أحيـاءُ

ومن المستحسن أن تكون المسيرة العلمية بشكلٍ دائري حتى يجوز التأصيل التكاملي، فلا يُلتمسُ فرعٌ قبل إحكام أصله. فيبدأ طالب العلم بمختصرات الفنون حتى يدور عليها، ثم يبتدئُ دائرةً أوسع بالمتوسّطات، ثم المطولات وجردِها، ثم يبحُرُ بعد ذلك فيما فتح الله له منها ويسّر له من سبلها وشرح صدره للاختصاص بفنونها. مع تعلّم جمال البيان وحسن التخريج للمعاني، فالمعنى الشريف يليق به اللفظ الشريف.

ومـن يتهيّـب صـعود الجبـال   يعـش أبـد الـدهر بـين الحفـر

وبالجملة: عليك بالعلم الذي يخدم بعضُه بعضًا، وابدأ من العلم بما لا

يسعك جهله، قبل أن تتطوّع بما يسعك جهله. واعلم أن العلم النافع هو علم الآخرة، ومن حُسْنِ طَلَبِه حسنُ اختيارِ أوّليّاته، وتأمل حديث جبرائيل المشهور، لذلك قال عنه العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حديث جبريل أمٌّ للسُّنة، كما أن الفاتحة أمّ القرآن».

وليس كل علم يستحق الطلب، فمن العلوم ما هو ضار كليّة كعلوم السحر ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ومنها ما يغلب ضرره على نفعه كعلوم الفلسفة والمنطق، قال شيخ الإسلام: «كتب المنطق سبب في نفاق من لم يكن خبيرًا بعلوم الأنبياء»(١).

ولقد أكثروا علينا في هذا الزمان من الحط من قدر الحفظ في التعليم وتقديم الفهم عليه، ونسوا أن الحفظ سابقٌ والفهم لاحق، كحفظ القرآن والسنة ومتون العلم، فالحفظ المتين أساسٌ يُبنى عليه الفهم السليم، ومَنْ حَفِظَ المتون حاز الفنون، وتأمّل حال متدبر القرآن وهو حافظ له مستحضر الآيات المشابهة لما أمامه، وبين من يتدبره بخلاف ذلك، فنسيجُ العلوم على هذا المنوال. والشرع يؤسس الأصول ويُطلق العقول.

وأعظم العلوم. فاعلم. هو علم القرآن وما يتصل به وعلم السنة وما تفرع من ذلك من عقائد التوحيد والإيمان والفقه في الأعمال، وليست العبرة بمقدار ما تقرأ، إنما العبرة بماذا تقرأ، وكيف تقرأ.

---

(١) مجموع الفتاوى (٩/ ٢٧٠).

والعقل صندوق التجارب ومعدن الخبرة، والقراءة النافعة سعةٌ له وثراء. ومن حُرم متعة القراءة؛ فقد حُرم مباهج كثيرة تناثرت من حوله. وماذا فاته من الخير العظيم من لم يقرأ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، وتفسير السَّعدي، فليتهما في كل بيت ومسجد ومدرسة ومؤسسة، وكتاب الصارم المُنكي لابن عبد الهادي لا غنى عنه لكل موحّد في كشف شبه القبورية، يليه كشف الشبهات للإمام المجدد، وليته يُجعل متطلب جامعي للجميع. أما زاد المعاد من هدي خير العباد فقد وافق مُسمّاه مبناه، ولكلّ مُبتلى بعشق دونك الداء والدواء، وإن أردت العيش مع السلف فعليك بجامع العلوم والحكم، وأجمِل بسير أعلام النبلاء، فإن أردت إبهار عقلك بمتانة الفقه المبني على الدليل فانهل من تفسير أضواء البيان، ولأهمية الفتوى الحموية، قال ابن باز: «ينبغي أن تقرأ أكثر من مئة مرة». وقال العثيمين عن مدارج السالكين: «كتاب عظيم في مقتضيات الأسماء والصفات، فإذا قرأه الإنسان فكأنّما قام من النوم لعظمته». وعن فتح الباري لابن حجر قال الشوكاني: «لا هجرة بعد الفتح». وقال الحوالي: «لم يكتب في تاريخ الفكر العالمي وفلسفاته ونظرياته المعقدة مثل العقل والنقل لابن تيمية». وقال الحنابلة: «متنُ زادٍ وبلوغ كافيان في نبوغ». أي زاد المستقنع وبلوغ المرام.

وقل لي ما ذا تقرأ؛ أقل لك من أنت، فإن كنت لا تقرأ فما أكثر ما فاتك من نعيم الأنفس ولذائذ العقول ونُزَه الأرواح وحلاوة الأزمان. والعلم بحورٌ، والموفق من عُني بالمفيد الباقي دون الغث الفاني.

وإذا طلبــت العلـــم فــاعلم أنّــه حِمْــلٌ ثقيــل فانتخــب مــا تحمِــلُ
وإذا علمــــتَ بأنّـــــه متفاضِــــلٌ فاشـغَلْ فـؤادكَ بالـذي هـو أفضـلُ

واعتن يا طالب العلم بضبط أصول العلم والتأصُّلَ، فالتأصيل مطلب لجودة العلم، ومن حُرم الأصول حُرم الوصول، وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خير العلوم ما ضُبِطَ أصلُه واستُذكر فرعُه» ومن وصايا عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «من بورك له في شيء فليلزمه». وقال الإمام الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحديثُ ذَكَرٌ، يقومُ به ذكورُ الرجال، ولا يُطيقه مؤنّثوهم». ولا تنس العناية بالأشباه والنظائر والفروق والتقاسيم والقواعد التي تضبط شجرة العلم وترتبها في عقلك وتدفع تشويشه ونسيانه.

ولا تستطل الطريق فهو ميراث الأنبياء وطريق عليين، فإن اشتدت على نفسك مشقته فروّحها ببشارات الله ورسوله لأهل العلم، وأنّ طلبك للعلم سبب بذاته للجنة وسبب لتسهيل أعمال صالحة أخرى للجنة، ولا تجعل أخطاءك العلمية صادةً لك عن العلم فالعبرة بالنهايات، ومن كانت بداياته محرقة كانت نهايته مشرقة، وشجر المكاره يثمر المكارم، وما من عالمٍ إلا وقد كان جاهلًا، قال ابن تيمية: «العبرة بكمال النهايات، لا نقص البدايات».

تعلّــم فلــيس المــرءُ يولــد عالمًــا وليس أخـو علمٍ كمـن هـو جاهـلُ

ولا تستهن بعلمٍ طَرَقَ سبيلَه السلفُ، فإن من الناس اليوم من يزهد في بعض العلوم كالتاريخ، وهذا خطأ، فمن لم يعرف ماضيه كيف يعرف حاضره ويستشرف مستقبله، وكيف يعرف كيد عدوه، بل كيف يعرف مجد أمته، بل

كيف يعرف أحب الناس إليه رسولَ الله ﷺ وأخبارَهُ وأحواله وسيرته ومغازيه بغير التاريخ.

إنّ دراسة التاريخ تزيد حكمة الإنسان ونضجه وخبرته وفراسته، وقد قص الله تعالى علينا في القرآن أخبار الغابرين وفصّل مصارعهم وبيّن مَثُلاته بهم كذلك السنة. وإذا عرفت أنّ البشر هم البشر، وأنّ الشيطان هو الشيطان مهما تطاول الزمان؛ فستعلم أنّ الأحداث واحدة بأشخاصٍ مختلفين، ولا نقول: إن التاريخ يُعيد نفسه، بل نقول: إن الله يعيد التاريخ بأنماط متشابهة في أزمان وأماكن مختلفة، فالنفس البشرية بغرائزها واحدة ولكن الشأن في التزكية والتهذيب والتوفيق.

وعلى سبيل المثال انظر لحركات ما يسمى بتحرير المرأة في مصر والشام، ثم قارنها بغيرهم الآن، كذلك القانون الوضعي في تركيا ومصر ثم من بعدهم، وقبل ذلك قومُ نوح عليه السلام الذين عبدوا الأصنام بحجج هي نفس حجج كفار قريش والعرب، وهي عينها حجج . بل شُبَه . عُبّاد الأوثان في زماننا وإن اختلفت مسمّياتهم.

حتى اليهود والنصارى والمشركون من دول الشرق والغرب وكيدهم للإسلام لن تستطيع تصور طريقته ولا حجمه بدون سبرك التاريخ. فمن فوائد التاريخ: معرفة قدر البغضاء والكيد لأهل الإسلام من ملل أهل الكتاب، واعتبر ذلك بالحروب الصليبية، والمؤامرات الصهيونية، وهكذا، والتاريخ يزيد العقل فراسة.

اقـــرأ التـــاريخ إذ فيـــه العـــبر   ضَـــلَّ قـــومٌ لـــيس يـــدرون الخـــبر

ولنمثّل على أهمية دراسة التاريخ في تصوّر أبعاد خيوط السياسة العامة لملل الكفر ضد المسلمين؛ فمن ذلك كيد التشيّع الفارسي: فهناك تقاطع مصالح ضد الإسلام بين الغرب ـ بشقّه الروسي ـ وبين إيران، فالتاريخ التالد من العداء التقليدي بين الفارسية والرومية لا يزال حاضرًا وبقوة، ومهما تقاربوا فهم متباعدون إلا في حرب أهل السنة فهم أحلاف.

تفـــــرّقَ شـــــملُهُم إلّا علينـــــا   فصـــِرْنا كالفريســـةِ للكـــلابِ

بل حتى في دائرة التشيع العامّة فإنّهم يكفّرون بعضهم إلا عند الحاجة، فحينما تولى حافظ الأسد كان متعذرًا عليه أن يرأس الجمهورية لإجماع السوريين على كفر طائفته، ولم ينقذه سوى ملالي طهران بنسبة النصيرية للإمامية!

كما يُفيدك التاريخ في ربط المعتقدات؛ فمن ذلك أن من عقائد الساسانيين المجوس أن الواسطة بين الآلهة والبشر لا بد أن يكونوا من أسرة معينة، لذا ناسب التشيّع الفرس الداخلين في الإسلام لهذه الخلفية الوثنية.

لذلك لا تعجب أنّ مؤسسي مذاهب البويهيين والقرامطة والعبيديين والصفويين والنصيرية والدروز كلهم من أصول فارسية، وليست هذه بمصادفة، بل بتخطيط وعمل مجوسي. ومع ذلك فهم من أجهلِ الناس بعلوم الأنبياء، قال شيخ الإسلام: «لو أوصى على أجهل الناس، لقيل: الرافضة، ومع ذلك فالوصية باطلة؛ لأنها على جهة معصية وبدعة». وقال: «الرافضة

جمعوا ضلال النصارى وخبث اليهود»(١). فدين الرافضة لا يجتمع مع العقل، فلا بد لأحدهما أن يوسع مكانه للآخر.

وإذا عرفت أن عمر هو أمير المؤمنين الذين ثلّوا عرش الكسروية، وسحقوا المجوسية، عرفت لماذا يبتدؤون ويثنّون بحرب عمر ومعاداته أكثر من غيره، مع أن المنطق يقتضي البدء بالصدّيق. والذي يدرس التشيّعَ في إيران بدون استيعاب أصول الزرادشتية والمجوسية الفارسية وتاريخها سيقف على القشرة الخارجية فقط دون النفاذ للجوهر المغذي لها، وهكذا.

وللتاريخ تعلق بالعقيدة، فمن ذلك معرفة تاريخ البدع وكيفية نشأتها، ومعرفة ثمار ملل الكفر المتنسبة زورًا للإسلام، كالباطنية مثلًا ومنهم العبيديون ـ المتلقبون كذبًا بالفاطميين ـ والصليحيون والحشاشون والقرامطة والبهرة والنصيرية والدروز فهؤلاء كلهم إسماعلية باطنية، وملّتهم غير ملة المسلمين. أما اليهود فتكفيك آيات البقرة في كشف الزوايا الخفيّة لنفسياتهم المريضة، بل الميتة في حياة الأرواح.

وليس التاريخ فقط هو المهم، بل كل العلوم النافعة يُغذّي بعضُها بعضًا، وهي في أهميتها على درجات، فاللغة والنحو لا يستغني عنهما طالب علم، والأدبُ على لذاذته وخِفته على الروح أدنى منهما مرتبة، وهكذا، وليس هذا حطًّا من قدرِهِ، فزينةُ العلم الأدب، إنما هو ترتيب لأولويات العلوم، فالعلوم

---

(١) منهاج السنة (٢/٦٥).

مراتب واللغة لا غنى عنها لطالب العلم، وقد قال الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «النحو في العلم كالملح في الطعام لا يستغنى عنه». قلت: ولهذا يكفيك أن تضبط الآجرّومية إن لم تتخصص في النحو. وقال أبو عمرو بن العلاء التميمي لعمرو بن عبيد لمّا احتج بآية وعيدٍ في إنفاذ الوعد: «من العُجمةِ أُتيت». وأنشد:

وإنّي إن أوْعدتُـــــهُ أو وَعَدْتُـــــهُ ... لمُخلِـفُ إيعـادي ومنجـزُ موعـدي

وقال الحسن عن سبب ابتداع كثير من الناس: «إنّما أُتوا من العُجْمَة». وقال النحوي: «أكثرُ زندقة أهل العراق بسبب العجمة». وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًّا بيّنًا، ويؤثّر أيضًا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق. وأيضًا فإنَّ نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرضٌ واجبٌ، فإنّ فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يُفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ثم منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية. وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أما بعد: فتفقّهوا في السُّنة، وتفقّهوا في العربية، وأعربوا القرآن فإنه عربي»(١).

وعليه؛ فاللغة العربية من الدين، وتعلمها وتعليمها ونشرها من الدين،

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١ / ٢٠٧).

والحط من قدرها حطٌّ من قدر الوسيلة المقيمة لفهم الدين.

إذن فأصول اللغة والنحو مقدمة على الأدب، ولكن هذا لا يمنع منه، فالعلمُ أنهارٌ وبحارٌ، وقد كان الصحابة أدباء ومنهم الأربعة الخلفاء، وقال أنس: «هاجر رسول الله ﷺ وما من بيت في الأنصار إلا وفيه شاعر»، قالوا: حتى أنت؟ قال: «نعم». وكان لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مجلس أدب، وكان إذا رأى ملال مستمعيه لمتين العلم قال: «أحمضوا لنا». أي من مُلَحِ الشعر ولطيفِ الأخبار. ولما قيل لابن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنّ قومًا من أهل العراق لا يرون إنشاد الشعر، قال: «لقد نسكوا نُسُكًا أعجميًّا».

فالأدبُ لِباس النبلاء، والشعرُ لسان الزمان، والشعر كلامٌ فيه الحسن والسيئ، ولكن كُن على حذرٍ من أن تشتريَ الأبيات بالآيات فتكون صفقتك أخسر من صفقة أبي غبشان لمّا باع حِجَابة وسدانة الكعبة بزِقِّ خمرٍ! فالمذموم من الشعر ما اشتمل على حرام أو ألهى عن القرآن.

وإنّ لِلأدب الرقيق نارٌ تصطلي بدفئها الأرواح الرقيقة، فتستحيل البرودةُ دفئًا، والقلقُ سكينة، والوحشة أنسًا، واللوعة راحةً وسلوانًا. ومِنْ أهلِ الحقوق نفسٌ مُرهفة ظمئت لنوعِ أدبٍ يَستحلبُ لها ضَرْعَه، أو فنٍّ سائغٍ تبلّ به عطَشها، فارحموا من ابتُلي بلطافة الحسّ ورهافة المشاعر يرحمكم الرحمن.

وكلّما كنت موسوعيًّا في علمك؛ انكشف لبصيرتك ما خفيَ على غيرك. فمِن المسائل ما يكون لها جانبٌ خفيٌّ تتّكئ عليه القضية، فيحارُ الفقيه في إحسان تصوّرها وحلِّ عقدة تشابكها، فإذا استشار ذا اختصاص بها أضاء له

ظلام زاويته المختبئة خلف أسوار العلم الآخر، فكيف لو كان العِلمان في صدره، ولا أعني بذلك كشوف أهل الخرافة، بل أعني علوم الشرع التي يخدم بعضها بعضًا، سواء علوم الغاية أو علوم الآلة. وكلُّ شيء تُرخِصُه كثرته خلا العلم، فاسأل الله منه الزيادة، والعلم لا ساحل له كما قيل: إذا قطعنا عَلَمًا بدا عَلَمْ.

وإنّي لأعجبُ من بعضهم حين أجده موسوعةَ ردودٍ في قضية واحدة، فيُورد لك فيها ما صحّ وما لم يصحّ وما عُقل وما لم يُعقل، في انفعال وعجلة وتوثّب، فيصبّ حامي الكلام وغزير المعاني بكميّة وافرة.. بينما لو خرجت به عن هذا السياق الضيّق شبرًا؛ لرأيته صفرًا! فالعلمُ الأُفُقيُّ سلامة، والعلم الرأسيُّ تقصي قد ينتهي لعطب.

إن هذا النوع من التلقين لا يُخرج لنا علماء راسخين، بل أدعياءَ متعالمين متفيهقين. فرِفقًا بمن وثق فيكم معشرَ طلبة العلم، فمِن النصح لهم إحسانُ تلقينهم العلم المتدرج المستوعب لأمهات فنون العلم، والأخذ بأيدي نفوسهم الضامئة برفق وتؤدة، حتى لا يخرج لنا جيل مزبدٌ منتفخٌ بما يضرّه، متورّم بما يؤذيه، إن كتمه ضرّ نفسه، وإن فاه به ضرّ غيره، ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

كما أن العلم النافع هو الذي يعضده العمل الجيّد ويُصدِّقه الجُهد الصالح، فما فائدة جَودةِ العلم إن كان العمل رديئًا، فما هذا سوى تكثير لحجج الله على طالب العلم. ولا يعني هذا الخوف من العلم، فالعلم جلّابُ العمل،

والعلم بالله بجرّد النية له مع توالي الأيام على رياض القرآن وبساتين السُّنّة وكرور الليالي على محراب التعلّم. وقد قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى إلا أن يكون لله». أي كان في صباه لا نية له فصلحت مع توالي أنهار العلوم.

فالقرآن والحديث والسير تبعث بإذن الله في القلب حياته، فتَعَلّم ثم تعلّم، ومن بعد علمِكَ تعلّم، فتعلُّمكَ دليلُ حياتك، ووقوفك عن التعلم نقص، فسعةُ العلم سعةٌ في الأفق، ومن بَعْدِهِ سَعَةُ الرحمة بالخلق والحلم عليهم، وكن كأحمد: «مع المحبرة إلى المقبرة». وقال الفربري: «أَملى البخاريُّ يومًا عليَّ حديثًا كثيرًا، فخاف ملالي فقال: طِبْ نفسًا، فإنّ أهلَ الملاهي في ملاهيهم، وأنت مع النبي ﷺ وأصحابه». وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا أعلم بعد النبوة درجة أفضل من بثّ العلم». فاحمدِ الله تعالى يا طالب العلم على تخصيصِ اللهِ لكَ ما حرمه أكثرَ الناس، فمِن أعظم نعم الله على المؤمن أن يُحبّب العلم له ويجعله من أهله.

ومن سعادة الشاب أن يُوَفقه الله في مقتبل عمره لمن يأخذه بيده لحِلَقِ العلم ويحبّبه إليه، ويُغذّي قلبه بالعلم النافع المؤصَّل والإيمان الزاكي العميق.

ألَا وإنّ لطَلَب العلم والترقي في معارجه مراتب، مِنْ أعلاها: الشّغَف التّامُّ به، وتقديمه في الأولويات، مع العمل به، ومن تألم تعلّم. وأدناها: عدم الإعراض عنه، فبعض الناس لا يكتفي بأن لا يرفع بالعلم رأسًا، بل يُعرض

ويصدّ إن أقبل العلم إليه، وهذا من الخذلان العظيم، والله المستعان. قال ابن الجوزي: «تالله ما عدا عليه العدوُّ إلا بعد أن تولّى عنه المولى، فلا تظنّن أن الشيطان غلب، إنما العاصم أعرض. ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦]»(١). وكان ابن تيمية يعكف على المطالعة والكتابة، فربما أتاه أهله في يوم ربيعي جميل ورغبوا إليه رفقتهم للنزهة فيعتذر بالعلم، فإذا رجعوا قالوا: فاتك كذا وكذا، فيقول: «قد كتبتُ بعدكم كذا وكذا»، فرحلوا وبقي ما كتب. ولَنِعمَ ما كتب.

إذا كان يؤذيكَ حرُّ المصيفِ ويُبسُ الخريفِ وبردُ الشتاء
ويلهيكَ حسنُ زمانِ الربيع فأخذُكَ للعلم قل لي متى

ولك أن تعلم أن حسن المعتقد يدفع للزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، لأن الطريق بين عينيه واضح كالشمس الساطعة، إذ أجلى القرآنُ كلَّ حقيقةٍ تحتاجها الروح والعقل والقلب، فأهلُ السنة والجماعة بفطرتهم القويمة هم أهل الزهد ومعالي الأمور وهم أهل الجهاد والثغور، قال أبو منصور البغدادي: «إنّ ثغور الروم والجزيرة والشام وأذربيجان كلّ أهلها كانوا على مذهب أهل الحديث، وكذلك ثغور أفريقية والأندلس وكل ثغر وراء بحر المغرب، وكذلك ثغور اليمن على ساحل الزنج كان أهلها أهل الحديث»(٢).

والعقلانيون حقًّا هم أهل السنة والجماعة، وخَطَل من نسب العقل لغيرهم

(١) المدهش (١٠٩).
(٢) أصول الدين (١/٣١٧).

لدعواهم، فالله تعالى قد مدح العقلَ وأهلَ العقل، وذمّ الذين لا يعقلون.

فاحرص ـ رعاك الله ـ على العلم النقيّ، فحُسن التصوّر فرع عنه، ثم يليه حسن العمل والسلوك، ثم الثبات عليه قدر وسعك حتى يكون طبعًا وعادة. وإذا تصوّرتَ الأمور على حقيقتها بدون مبالغة أو قصور فأنت حكيم الرأي، فإن طبّعتَ عادتَك بتلك الحكمة فأنت ـ إن شاء الله ـ ممن قال الله فيهم: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وفي دينك ودنياك: قليلٌ مستمر خير من كثير منقطع، ذلك أن الإنسان ملولٌ بطبعه مهما كان طِيب ذلك المملول خلا الإيمان وجنات النعيم، والموفّق هو من يُحسن قيادَ نفسه برفق وصدق عزيمة.

فتأملْ مواطن قوّتك ولا تُضعفنك الوساوس، وكن قويّا بالله، وأكثرْ مِنْ: لا حول ولا قوة إلا بالله. واعلم أن العلم مكنونٌ في جوهر العقل، والعمل مبثوثٌ في زوايا الإرادة، وقبل ذلك وبعده توفيق الله وفضله.

ولا بأس أن تُفكّر ـ أحيانًا ـ خارج الصندوق إن كنتَ مستوعبًا لذاتك، وعيبُ التفكير خارج الصندوق غيابُ بعضِ الحقائق المؤثرة في سلامة التصوّر، لكنها مِيزة قوية من جهة غياب بعض التشويش والوهم لمن كان داخل الصندوق، والله المستعان.

❋ ومن مهمات فقه التوازن العلمي الفكري العملي: العلمُ بأن بعض البدع أهون من بعض معاصي الشهوة. فليست كلّ معصية أشدّ من كل بدعة،

فالبدع أشدّ من المعاصي من جهة حيثيّة الجنس لا من جهة الأفراد، وهذا معنى قول سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «البدعةُ أحبُّ إلى إبليس من المعصية؛ المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يتاب منها»(١). وذلك لأن البدع مآلها تبديلٌ للدين، فالبدعةُ تميت السنة والعكس، لكثرة أفراد البدع، فهي غير منحصرة لا كمًّا ولا كيفًا، وإذا امتلأ القلب بالسنة فلا مجال فيه لبدعة.

ولا مزايدة هنا في قضية خطورة البدع ووجوب نبذها وحربها ومكافحتها، والاحتساب الخالص في ذلك، والاعتصام بالسنة والقرب من أهلها كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «النظرُ إلى الرجل من أهل السنة يدعو إلى السنة وينهى عن البدعة»(٢). إنما المقصود توضيح الصورة العامة للذنوب من جهة الأجناس والأنواع والأفراد.

فالزنا ـ على سبيل المثال ـ جنسُه شهوة، ونوعُه زنا، أما أفراده فعديدة، فأشدّها ـ وهو المقصود عند الإطلاق ـ هو زنا الفرج، وهناك زنا العين وزنا اليد وزنا الخُطا، كما في الحديث الصحيح الذي سمّى مقدّمات الزنا زنا، فهي زنا من حيث أنّها معصية قد تؤول إلى الزنا الأكبر وهو زنا الفرج، وفي قوله: **«والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه»**(٣) إشارة إلى أن تلك المقدمات قد تكون كاذبة إذا عصم الله من مؤدّاها.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧ / ١٤١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧ / ١٤١).
(٣) البخاري (٤/ ١٧٠ و٢٥٥) ومسلم (٨/ ٥٢).

المقصود أن من الذنوب الشهوانية كالزنا وشرب الخمر والسرقة، كذلك الذنوب الغضبيّة كالقتل والقذف، وكذلك الذنوب القلبيّة كالكبر والتعاظم والعلوّ في الأرض والحسد؛ هي أشدّ من بعض البدع المسلكيّة، كالتلبية الجماعيّة مثلًا أو مصافحة المصلي لمن على يمينه وشماله بعد الصلوات ونحو ذلك.

وأكرّر القول: أنّ هذا التقرير لا يعني التسهيل في أمر الإحداث في الدين بحال، بل المقصود بيان أن لكل ذنب حجمه الذي ينبغي لطالب العلم ألا يغلو فيه ولا يقصُر دونه، وإلا أصبحت الأمور فوضى. والمسألة كلّها أولويات، والدعاة في حاجة ماسّة لمعرفتها ومراعاتها.

ومن أمثلة الفوضى في الأولويات وعدم مراعاة تراتيبها ما ذكره أحد الدعاة بشأن إسلام رئيس قبيلة وثنيّة كبيرة في إفريقيا والذي ستدخل على أثره قبيلته في هذا الدين الحنيف، ثم قدّر الله تعالى أن يدخل عليه بعض المسلمين ـ الجهلة ـ فأمروه بالختان وأصرّوا عليه بذلك، فرفض رفضًا قاطعًا فأبوا عليه حتى ارتدّ بقومه للوثنية بعد الإسلام، فأيُّ جهلٍ هذا!

وفي الجهلِ قبل الموتِ موتٌ لأهله وأجسادُهم قبل القبورِ قبورُ

❋ ومن مُخرجات ضعف التكامل وثمرات ميل التوازن: ما نراه من ضيق أفق بعضهم في ظنّهم أن الداعي إلى الله لا بد أن يُكرّر مفردات معيّنة ومواضيع محددة وكتب مسمّاه، لا يخرج عنها، وإلا فهو ـ عندهم ـ غير محقّق للدعوة إلى التوحيد، وهذا باطل.

فالوعظ والرقائق سُنّةٌ مرضيّة، وتفصيلُ أخلاق الرسول ﷺ وسيرته سُنّة محضة(١)، وتفصيلُ أوامره وزواجره كذلك. وكلُّ أبواب الدين بيانُها من السنة والتوحيد، والأولى من العلوم هو ما كان مفقودًا أو ضعيفًا بين الناس، وهذا بعد تحصينهم بعلوم المعتقد وكليات الإسلام وضرورات الشريعة، وكلّ كتابٍ نافعٍ سليمٍ من الضلال فمُدارستُه نافعة بقدر ما فيه من خير. وإذا احترت أخي الواعظ في الموضوع المناسب؛ فتكلم فيما يزيد الإيمان ويُرقّق القلب، فإذا ثارت سحابة الإيمان فحيثما حطّ وبْلُها فثمّ بركة وخير ونور.

فالنفوس في زماننا ـ زمان المادة ـ قد قلَّ ماؤها، والقلوب نقص لينها، والأرواح تقلّص رواؤها. والموعظةُ سوطُ الآخرة يُجلد به ظهرُ قلب الغافل فينتبه من رقدته، ثم يثوب راشدًا لرياض الإيمان وحلاوته وزيادته، وهل يُراد

---

(١) ولقد أبهَرتْ سيرته وصفاته وسجاياه عيون العالمين حتى من المُخالفين، فمن أولئك: المستشرق الأسباني جان ليك، فقد قال في كتابه "العرب" وتأمل هذا الكلام الرقيق والحب الصادق من رجل لم يدخل في دينه فكيف بأتباعه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه!: «لا يُمكنُ أن تُوصفَ حياة محمد بأحسن مما وصفها الله بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ كان محمد رحمة حقيقية، وإني أصلي عليه بلهفة وشوق». ومنهم الفرنسي كليمان هوارت، الذي قال ـ وتأمل وصيته الدعوية ـ: «لقد استحق محمد بجدارة أن يكون خاتم الأنبياء، ولو أنّ المسلمين اتخذوا رسولهم قدوة في نشر الدعوة؛ لأصبح العالم بأسره مسلمًا». ومنهم الكونت كاتياني، وقد قال في كتابه "تاريخ الإسلام": «أليس الرسول محمد جديرًا بأن نُقدِّمَ للعالَم سيرته، حتى لا يطمسها الحاقدون عليه وعلى دعوته للحب والسلام»!

من العلم غير صالحات الأعمال.

* ومن الأخطاء المنهجية في هذا الباب: حصرُ السلفية في إطار ضيّق وعلى أتْبَاعِ فصيلٍ معيّن، بل غلا بعضهم فحدّدوه ببلاد وأقاليم، فحددّوا للسلفية حدودًا وأُطُرًا وشروطًا ليس عليها دليل من الشريعة، وأخرجوا الناس منها جملة إلا من كان بلونهم وطابعهم وإمضائهم، بل إن بعض الشروط المُحدثة لتلك السلفيّة هي شروط باطلة جملة وتفصيلًا، فسلفيتهم المُدّعاة ليست من سُنّةِ سيّد الدعاة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله.

لقد وقع بعض الفضلاء في عين ما فرّوا منه، فهربوا من البدعة فوقعوا في أختها، وفَرَّ من الموت وفي الموت وقع! وتلك سنة الله فيمن تنكّب السنة، وأُعجب برأيه، وأتى البيوت من غير أبوابها، واستقى مشرب الشريعة من غير موردها، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

* وثمّ منعطف فكري خطير في هذا الباب جدير بالوقوف عليه، فحينما ننشغل بالهامش عن الأصل وبالرغو عن الصريح، ونضيع قضيّتنا المتّفق عليها بصراعٍ ضررُهُ أكثر من نفعه، والأدهى أن نردّ حقًّا شابَهُ باطلٌ مع قدرتنا على الفصل بينهما، فهي علامةُ خذلان. وبالمثال يتّضح المقال:

فقبل نحو خمسة عقود نادى أحد الدعاة بشدّة وحماسة وثورة مستمرة، وقاد بقلمه حملاتٍ شديدة الوقع ضدَّ مظاهر جاهليّة الحاكميّة التي ظهرت على الساحة العامة بقوةِ بعضِ الطواغيت السياسية وحديدهم ونارهم. وقد أحدثت كتاباته إذ ذاك الثورة المتوقعة لدى جمهرة من طلبة العلم والدعاة

والمثقفين والمتدينين بدرجة كبيرة.

إلى هنا والأمر طبيعي مع سقوطه في مخالفات بل عظائم تَرَاجَعَ عن كثيرها في مدوناته المتأخرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ. أقول: إلى هنا والأمر محتمل لدى الساسة ومن آوى إلى كِيسهم وجاههم وسلطانهم. ثم تطوّر الأمر بعد رحيل ذلك الرجل لربّه لدى بعض من تأثر بنداءاته؛ فحاولوا توجيه زوابعه الشديدة ضدّ أنظمة بعينها مع تحجير الواسع وتضييق الممكن، فصالوا في ميدان العمل الفكري والميداني زمنًا، حتى خرجت فئةٌ ـ ليس بالضرورة أنها متأثرة به ـ نَحَتْ منحىً غاليًا جدًّا، فانبرى بعض الغيورين (والمغيرين) لنقدٍ هادمٍ لمنهج ذلك الرجل بكلّ ما فيه من خطأ وصواب جملةً واحدة بدون تهذيب أو تقويم! ويا لَلأسف، فقد غفلوا عن أمر في غاية الخطورة، وهو أنهم بذلك أسسوا لباطلٍ مكان ما هدموه من حقّ، لأن المبنى كلّه صار مشبوهًا، فصار كلّ ما تعلّق به له حُكمه لدى الكثيرين.

توضيح ذلك: أنّ هؤلاء حاولوا هدم تراث ذلك الرجل بكلّ ما فيه من صواب وخطأ، بل قد لقّبوا تيّارًا عريضًا بلقب ذلك الإنسان، وقد أحسنوا في هدم الخطأ لكنهم أساءوا جدًّا حينما أماتوا صوابه. فأصبح من ينادي بما كان عند الرجل من صواب ـ ولو مع تحفّظه على خطئه ـ موصوم بالابتداع، موسوم بالانحراف، مختوم بالغلوّ. فتأطّرت حينئذ في أذهان بعض الناس أن تلك المسألة الشريفة ـ وهي المناداة بحاكميّة الشريعة بإطلاق ـ لا يجوز الإلحاحُ عليها، ومن فعل فهو مبطل مبتدع حزبي حركي خارجي.

لذلك أقول وأرجو وأُنادي كلّ من تسنّم ذروة مقال وسلطة ورئاسةِ علمٍ وفكرٍ ونحوه أن يراعي هذه الحيثية، وهي ألا نردّ الباطل بباطل آخر ولا البدعة بأختها، ولا يعني هذا بحال أن نظن أن الحق مع فلان، أو أن العلم محصور بفلان، أو أنّا إذا قبلنا ما عند فلان من صواب فإننا نميّع أصلًا أو نخرق شرعًا، كلّا! فلقد أصابت امرأة وأخطأ عمر، وكلٌّ رادٌّ ومردود عليه إلا رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، والحق رائدُ كل مؤمن.

أوّاهُ مـــا أروعَ الأبطــال إذ حملــوا ... هـمّ الديانـةِ إن خـافوا وإن سَـغَبُوا
ما قال واحـدُهُمْ همّي الحطام فقد ... صـاغت مبـادئهُمْ طـه فـما انقلبـوا
تنـاثر العلـمُ شـهداً مـن ثغـورهمُ ... أكـرِم بـه منبعًـا للـدين ينسـكبُ
إنْ تُبْـلَ معركـةٌ تلـقَ الكـرامَ بهـا ... في ساعة الحربِ دومًا غِيلُهُم أَشِبُ
إذا المبـــادئُ لم تُحْمَـــلْ مُكرّمـــة ... عـلى الرقـاب فـلا التوفيـقُ يُرتَقَـبُ

❋ لا بد من التوازن حيال النظر للأمور، وإعطاء كل أمر حقّه من العناية، ومن ذلك: التوازن في حقوق الأمة وحقوق ولي أمرها. فلولي الأمر على الأمة حقوقٌ عظيمة لحَمْلِهِ أمانةً ثقيلة، وحقوقُه فرعٌ عن حقوق الأمة وضرورةِ اجتماعها وحفظ بيضتها. ولكن حقوقه ليست بهذا الشكل الذي أصبح ـ ظاهرةً ـ لدى فئةٍ ما، فكأنه بلسان حالهم ـ غفلة أو تغافلًا ـ لا يُسئل عما يفعل. فإنْ فَعَلَ أو أقرَّ منكرًا ظاهرًا ممّا يستوجب الإنكار، وخُشي على الناس أن يُفتنوا به أو يستحلّوه باستمراء الفعل وعدم النكير، واستِنْفَادِ نصائحِ السرِّ، ولم يبق إلا تحذير الناس من ذلك المنكر وإنذارهم بسوء عاقبته؛ قالوا: هو أعلمُ بما يفعل، وهو لا يفعل إلا ما فيه صلاح الناس، فلا تهيّجوه ولا تهيّجوا عليه!

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

وقد كان من السلف الأكابر من كان يُنكر علانية أمام العامّة، كفعل عمارة بن رؤيبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حينما رأى بشر بن مروان وهو يدعو في يوم جمعة، فقال عمارة: «قبّحَ اللهُ هاتين اليدين، لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو على المنبر ما يزيد على هذه». يعنى السبابة التي تلي الإبهام(١). لقد قال هذا الكلام الجارح الشديد بمشهد من العامّة لمّا رأى رفع بشر يديه بالدعاء حال الخطبة فقط، فما بالك بمن بدّل الدين جملة؟!

إني لستُ مع من يتساهلون في الإنكار العلنيّ على الولاة، ويهيّجون العامّة للخروج والفتنة، ولكن أقول: إنّ بعض المنكرات من وليّ الأمر لا يحلّ السكوت عليها من لدن من يُحسن الإنكار ويفقه ضوابط الاحتساب، فليس كل منكر يُكتفى فيه بالإنكار السّري، بل منها ما يُنكرُ علانية. فلكلّ حال لبوسه الشرعي وحكمه المصلحي الذي قعّدته أصول الشريعة من لدن أهله الذين يحسنون الإنكار، وليس الأمر حمىً مباحًا. إلا ما كان منه متيقنًا؛ كما هو معلوم من الدين بالضرورة وكليات الإسلام وحدوده ونحو ذلك؛ فينكره كل مسلم بالحكمة لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا مذمّة عاذل ولا مخافة مُتجبِّر، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا ازدوج التكلم بالباطل والسكوت عن بيان الحق؛

(١) سنن أبى داود (١ / ٤٣٠) وصححه الألباني.

تولد عنهما جهل الحق وإضلال الخلق»(١).

فإن بَلَغَ المنكَرُ حدودَ تبديل الشريعة، وإلباس الدين ما ليس منه، وغشّ الأمة بذلك؛ فلا يحل السكوت لعالمٍ فقيه، ولئن سكت أهل العلم حينها؛ فبطن الأرض خير من ظهرها.

ذلَّ مـــن يغـــبط الـــذليلَ بعـــيشٍ ربَّ عـــيشٍ أخـــفّ منـــه الحِـــمَامُ

فالدين غايةٌ لا وسيلة، ومتى صار وسيلةً كان دينًا مُبدّلًا، والله تعالى يقول: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركتُه وشركَه**»(٢). قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فما دام الذنب مستورًا فمصيبته على صاحبه خاصة، فإذا أظهر ولم يُنكَر كان ضرره عامًّا، فكيف إذا كان في ظهوره تحريك غيره إليه»(٣).

فالأصل في المنكر العلني أن يُنكر علانية، ولا يلزم من ذلك تسمية مرتكب المنكر ولا الإشارة إليه مالم تحتّمه المصلحة الكبرى للشريعة، والتي يقررها من يحسنها من ورثة النبوة، أمّا المنكر الخفيّ القاصر على شخص؛ فيُنكر سِرًّا، مالم تكن المصلحة الشرعية تقتضي الإعلان. وليس معيار الصواب في إنكارِ المنكر شِدَّتهُ ولا علانيته، بل حُسن طريقته ونفعه، ولكلّ حالٍ طريقته

---

(١) الصواعق المرسلة (١ / ٣١٥).

(٢) مسلم ٨/٢٢٣ (٢٩٨٥) (٤٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨ / ٢١٥).

ونهجه.

وبكل حال فما من مُنكرٍ إلا وله مخالفون ممن لا يريدون الحؤول بينهم وبين شهواتهم المحرمة، لذلك أمر الله الآمرَ بالمعروف الناهي عن المنكر بالصلاة والصبر: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان: ١٧] فهم يعترضون من يحسن إليهم في الحقيقة، ويدفعون من يدفع عنهم أسباب المقت والعذاب، ولكنها الفتنة والجهل والضلال، كما قال الإمام المجدّد لمن عادَوه وآذوه لمّا أنكر عليهم الشرك الأكبر: «لو علمتم حقيقة ما أدعوكم إليه؛ لكنتُ أحبّ إليكم من أولادكم». وقال ابن النحاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يعترض على من ينكر المنكر إلا من عظم حمقه، وضعف عقله، وجهل عواقب المعصية وشؤمها».

* ومن أمثلة التوازن في التصور الشرعي: مسألةُ علاقة الشورى بالإمامة العامة للمسلمين، فالشريعة الإسلامية هي النظام الوحيد الصالح لسياسة البشر، وعلى قدر قرب النظم الأخرى منه يكون صوابها وهداها، والعكس صحيح. وأمثلُ ما في القانون الفرنسي هو ما انتحلوه من مختصر خليل في الفقه المالكي.

ففي مسألة الشورى . على سبيل المثال . نرى في الديمقراطية البرلمانية ثقوبًا كثيرة وواسعة، يلج عن طريقها من أراد توجيه الحُكمَ لصالحه من أهل التجارات وغيرها، كما أن فيها إهمالًا لفئات مجتمعية كثيرة، وفي المقابل نرى في النظم الشمولية الملكية والرئاسية والجمهورية والعسكرية عيوب منهجية

تراكم عبر الزمن، وتؤصِّلُ لاستبدادٍ مطلق بلا رقيب ولا حسيب، أما النظام الإسلامي فتضبطه الشورى الحقيقية الفاعلة المنضبطة من لدن الأكفاء الأقوياء الأمناء من أهل الدين والعقل والتجربة، وهي شورى ذاتُ سلطة تخوّلها محاسبة ولي الأمر رأسًا، دون الصورية المهمشة المجرَّدة من القرار الحرّ المتجرّد للحق. والعجب ممن يُنكر الشورى المُحاسبة مع إقراره بمشروعية عزل السلطان عند سقوط عدالته أو كفاءته، وقد كان في عهد الصحابة والتابعين صور مشرقة لاحتساب أهل الحل والعقد في تقويم أمراء المؤمنين.

فالسلطة المطلقة بلا رقيب مفسدة، كما أن الفوضى بتعدد السلطات مفسدة أيضًا، فنظام الحكم الإسلامي هو حكم شُوري وسطٌ بين السلطويّة الشمولية والديمقراطية، فهو ليس هذا ولا ذاك، وقد أخذت منه الشموليةُ الحزمَ والضبطَ، كما أخذت منه الديمقراطيةُ المراقبةَ والمحاسبةَ، وصدق الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

* ومن مهمّات التوازن الفكري العلمي العقلي للمؤمن مسألة تحرير تكفير المُعيّن، وهي مسألة خطيرة فغدًا إعتاقٌ أو إيباقٌ. ففي هذا الزمان الحالك، رخصت الفتاوى، وافتُئتَ على أهل العلم، واستُحلّت دماءُ وأعراضُ أهلِ الإسلام من لَدُن أهلِ الإسلام. فعادت سُلالة فكرِ ذي الخويصرة جَذَعَةً فتيّة، واشرأبّتْ أعناقُ الفتن والبلايا من رؤوس حدثاءِ الأسنان وقرون سفهاءِ الأحلام، وظهرت عماياتُ الغلوّ التي حذّر منها رسول الله ﷺ بقوله: «**إياكم**

والغلوّ، فإنّما أهلك من كان قبلكم الغلوّ»[١].

وموجبات الردة ونواقض الملة عديدة، وقد استحق وصْفَهَا من لا خلاق له ممن رام تبديل الدين والهزء بالشريعة وحرب الله ورسوله، فتتردّدُ بين الحين وأخيه قالاتُ فجورٍ وأفعالُ كفر، حقيقٌ بمن بسط الله يده بالسلطان والتمكين أن يقوم فيها لله محتسبًا قَصْبَ الزنادقة، وكثيرٌ ما هُمْ، فيفرحون في الهوى والتبديل بأدنى تأويل، ويحاربون الدين المُنَزَّل بالدين المُبَدَّل، والويل لهم لو كانوا يعلمون.

وإنّ آيات النهي عن الشرك في القرآن التي تنهى عن أن يُشرك بالله شيئًا أكثر من التي تنهى أن يُشرك معه أحدًا، فالشيءُ أعمّ من الأحد وهو شاملٌ لجميع الأهواء. وفي مسند أحمد وحسّنه الألباني[٢] أن رسول الله ﷺ قال: «**لَحَدٌّ يُقام في الأرض لحد يقام في الأرض خيرٌ لأهل الأرض من أن يُمطروا ثلاثين صباحًا**». فمنفعة الغيث خاصة بالأجساد، ومنفعة الحدِّ نفعها للأديان، وهي غاية خلقِنا. ولو علم الأثيمُ قُربَ الحَدّ من الحَدِّ ما اجتازه، ولكن أَمِنَ فأساءَ.

بيد أن مسألة تكفير المعيّن في غاية الخطر إن كانت في يد من لم يملك أدواتها، وفي سلطة من لم يستتم شروط إيقاعها، فلا يجوز بحال أن يُترك عنان التكفير للعامّة، بل هو خاص بمن أوكل الله لهم سياسة الناس بالشريعة، وهم

---

(١) رواه أحمد (١ / ٢١٥ و٢٤٧) بسند صحيح، وصححه الألباني في السلسلة (٢١٤٤).

(٢) أحمد (٢/٤٠٢)، صحيح الترغيب والترهيب (٢ / ٢٩٥) (٢٣٥٠).

العلماء الراسخون الذين علموا شروط التكفير وموانعه، وأحسنوا إقامة الحجة على متنكبي المحجة.

فقد يُتهم المرء بارتكاب مكفِّر وهو منه براء، إنّما كُذب عليه كما كُذب على كثير من الأَجِلَّةِ؛ كافترائهم على شيخ الإسلام ابن تيمية بالكفر والمروق من الدين وإهانته لجناب النبوة، وكذبهم على الإمام المجدد بقولهم: إنه يبغض الرسول ﷺ، ويدعو لدين جديد، ونحو ذلك البهتان الذي طال كثيرًا من المصلحين في هذه السنين. هذا، وقد يركب المرءُ المعصيةَ وهي ليست من المكفرات، فيُرمَى - جهلًا وظلمًا - بالردة، كصنيع الخوارج بمرتكب الكبيرة. وقد يركبُ الذنبَ المكفِّر المخرج من الملة في ذاته، ولكن لا يُحكم بكفره بسبب أحد الموانع، فلا بد مع استجماعِ الشروطِ انتفاءُ الموانع:

كالجهل: كما في قصة المحتضر المسرف على نفسه، الذي شكّ في عموم قدرة الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «**أسرف رجلٌ على نفسه، فلمّا حضره الموتُ أوصى بنيه: إذا أنا متُّ فحرّقوني، ثم اسحقوني، ثم اذرُوني في الريح في البحر. فوالله لئن قَدرَ علي ربي ليعذبنّي عذابًا ما عذّبه أحدًا. قال: ففعلوا ذلك به، فقال للأرض: أَدِّي ما أخذتِ، فإذا هو قائمٌ، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك يا رب. أو قال: مخافتك. قال: فغُفر له بذلك**»[1]. فهذا الرجل شكّ في عموم قدرة الله تعالى، وهذا الاعتقاد والقول من المكفّرات، مع هذا غفر الله له لخشيته وجهله.

(١) البخاري (٤/٢١٣) ومسلم (٨/٩٧) واللفظ له.

وكالخطأ: كقصة الفَرِحِ بعودة دابته بعد يأسه من النجاة فقال بعد استمكانه منها: «**اللّٰهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»[١]. ومن فروع ذلك: سبقُ اللسان بما لم يقصده الجَنان من ألفاظ الكفر، وبخاصة مع وجود القرائن الصَّارفة.

وكالتأويل الذي له وجه: ولم يتضح الحق لصاحبه، كالكثير ممن يظنون أنهم يُنزّهون الله تعالى عن طريق قواعد ذهنية أحسنوا بها الظنّ فسمّمت تصوراتهم، فوصل بهم ذلك إلى إنكار بعض صفاته سبحانه. وقد كان الإمام أحمد يصلي خلف بعض من قال بتلك المقالات. وقال شيخ الإسلام لبعض أولئك المُحرِّفة (المؤولة): «أنتم تقولون كلامًا لو قلتُ به لكفرتُ، لكنكم لم تكفروا عندي، لأنكم ترومون التنزيه بذلك التحريف، ولم تتصوّروا حقيقة مذهبكم ومآل مقالاتكم» انتهى بمعناه. أمّا تأويلات الباطنية والفلاسفة والرافضة وأشباههم فهي كفر محض.

وكالإكراه: لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] وبعضهم خصّ الرخصة بالنطق فقط، وبعضهم خصّ الإكراه بالتهديد بالقتل دون الضرب والحبس، والله أعلم.

❋ واعلم أن تكفير المُعَيّن يختلف عن تكفير الوصف، فالوصف كقولنا: تارك الصلاة كافر. أما تكفير الشخص المعيّن فهو أن تقول: فلان كافر. وهنا

(١) البخاري ٨/٨٤ (٦٣٠٩) ومسلم ٨/٩٣ (٢٧٤٧) (٧) و(٨).

مكمن الخطر لمن توغَّل في ذلك بغير بينة ولا برهان. ففي الصحيح عنه ﷺ أنه قال في خطبة الوداع بعدما استحضر لهم عظمة الزمان والمكان، وتأمّلْ عظمة الموقف وأهمية البيان وقيمة كل حرف فيها: «**فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام؛ كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلّغت؟**» قالوا: نعم، قال: «**اللّهم اشهد. فليبلّغ الشاهد الغائب، فإنه رُبَّ مُبلِّغٍ يُبلِّغُه لمن هو أوعى له**»(١). وبالجملة؛ فلا تفريط ولا إفراط، والتقوى وسط بين الغلوّ والجفاء، وكما قال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «خيرُ الناس النمط الأوسط، الذين يرجع إليهم الغالي ويلحق بهم التالي».

والشاهد من هذا: أنّ على الناصح لنفسه ألا يقع في شَرَك التكفير بغير حق، ولْيعلم أن من دخل في الإسلام بيقين فلا يُخرج منه إلا بيقين، قال ابن تيمية: «من ثبت إسلامه بيقين لم يزل عنه ذلك بالشك، بل لا بد من إقامة الحجة وإزالة الشبهة»(٢).

وليتيقَّن أنّ لكلّ كلمة طالبًا من الله تعالى، وأنه موقوف بين يدي الجبار جل جلاله، ومسؤول عما اقترفه لسانه أو خطه بنانه، فليعدّ للسؤال جوابًا وللجواب صوابًا، وأنّى ذلك إلا ببرهان شافٍ، واستدلال كاف. والكلمةُ يملكها من كانت حبيسة جوفه، لكن إن خرجت فقد مَلَكتْهُ، فإما إعتاق أو إيباق. والله المسؤول أن يحفظني والقارئ والمسلمين من مضلات الفتن

---

(١) البخاري ٥/٢٢٣ (٤٤٠٢)، ومسلم ١/٥٨ (٦٦) (١١٩) و(١٢٠).

(٢) فتاوى ابن تيمية (١٢/ ٤٦٦).

ودواهي المحن، فهو المستعان، وعليه التكلان، ولا إله إلا هو.

* واعلم - حرسك الله تعالى - أنّ أرفعَ المراتب هي الإحسان، ولكي تبلغ مرتبة الإحسان التي بيّنها رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١). فعليك بتحقيق مرتبة المراقبة، فاجعل من دينك وعلمك وخشيتك رقباء على قلبك وأحواله مع الله تعالى، فجرّد نيّتك من غير ابتغاء وجه الله، وجرّد عملك من غير سنّة رسوله ﷺ، فأصل الأصول هو ما كان معياره القبول، فعليك بالأمرين: إحسان المعتقد، وإحسان المتابعة. قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] صلاحًا بحسن الاتّباع وهجر الابتداع، وإخلاصًا بالبراءة من كل ما يشوب صفاء التوحيد من لوثات التشريك. قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفاؤلٍ جميلٍ وإحسانِ ظنٍّ بمن لا يأتي الخير إلا من قِبَله: «توحيدٌ لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر؛ أرجو ألّا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب»(٢).

فالتوحيد: كنز الطالبين، ومفزع الهاربين، وملجأ المكروبين، وغياث الملهوفين. وحقيقته: إفراد الرب سبحانه بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل والخضوع. فالمخلوق كلما خفتَهُ استوحشتَهُ وهربتَ منه، والله سبحانه كلّما

---

(١) مسلم ١/٢٨ (٨) (١).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٩/٣٥٦).

خفتَهُ أَنِسْتَ به وفررت إليه، والمخلوق يُرجى عدلُه وورعُه ويُخاف ظلمه وعدوانه، والرب سبحانه تُرجى رحمته وكرمه ويُخاف عدله وقسطه، فرجاؤنا في رحمته التي وسعت كل شيء، وخوفُنا من عدله الذي لو وضعه على أعمالنا لهَلَكْنا. قال شيخ الإسلام في قول الله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]: «لم يقل: أهلٌ للتقوى، بل قال: (أهل التقوى) فهو وحده أهلٌ أن يُتّقى ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢] كذلك المغفرة»(١).

فإحسان السلوك يبدأ من هنا، وبهذا تتحقق لك الشهادتان قولًا وعملًا، فإن كنت كذلك فافرح بفضل الله تعالى، واحمده واشكره والهج بتقديسه وذكره، واسأله المزيد من فضله، والتثبيت على صراطه.

فإن كنت على غير هذه الجادة - إما دَخَلًا في معتقد، أو ابتداعًا في الاتّباع - فلا تُتعب نفسك بالبُعد، بل عُدْ إليه في الحال، فعلى قدر الانحراف تكون المؤاخذة بعد إقامة حجة الله تعالى على نفسك.

فافرح بتوفيق الله لك بحسن المعتقد، وتأمل قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [المائدة: ٦٨] فهي آية قاطعة لكل تعلّقٍ وسؤال واستفصال لما عند الكفار من علوم التديّن الصحيح والمعتقد السليم والعمل المستقيم. وتدبر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] فإذا وعى المؤمنون هذا الأمرَ وتصوّروه؛ عرفوا حينها قدر البعد

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٩٠).

الحقيقي بين ملة الإيمان وملل الكفر، وعلِمُوا قَدْرَ الكافر حقًّا وفَضْلَ الله عيانًا.

وقد سأل الإمامُ المجدد شيخَهُ محمد حياة السندي رحمهما الله تعالى عن حال المستغيثين بغير الله عند الحجرة النبوية فأجابه بالقرآن ـ وهو أعظم الأجوبة ـ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩] وقال الشيخ عبد الله بن إبراهيم لتلميذه الإمام المجدد: أتريد أن ترى السلاح الذي أعددتُ للمجمعة؟ قال: نعم. فأراهُ حجرةً مليئة بمجلدات العلم قائلًا: بهذه. فلا أعظم حسنةً من التوحيد اعتقادًا وعملًا ودعوة. وتأمل كيف أعطى الله تعالى عبده إبراهيم الخُلّة لما قام له بالتوحيد والبراءة من الشرك وأهله، وكذلك خليله وكليمه الثاني محمد ﷺ. ولو تأملتَ أحوال العلماء والقادة الذين سما ذكرهم في العالمين لرأيت أن الدعوة لتوحيد الله واضحة جليَّة في منهاجهم، وأن لها الأولوية على ما سواها.

واعلم أن راحة القلب، وانشراح الصدر، وطمأنينة النفس، وسرور الروح، وصفاء العقل لا تجتمع إلا مع الإيمان بالله تعالى، أمَّا مع الخطيئةِ فالخوفُ كامنٌ والقلقُ بالغٌ، ولا قَرَارَ على زأرٍ من الأسدِ.

فيا صاحبي اضرع إلى علام الغيوب، ومن بيده أزمّة القلوب، وانطرح بين يديه، وانكسر في سجودك مبتهلًا بدعاء حبيبنا ﷺ: **«اللّٰهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط**

مستقيم»[(١)]. وأَحضرْ قلبَكَ وتفكّر في كل مرة تدعو ربك: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] فالهدى هو العلم بالحق والعمل به.

واسجدْ سجودَ الذُّلِّ واطلب نوالَهُ ... فإنّ إله الحقِّ يُحيي البَواليا
واسكُبْ من العبرات دمعًا سواجمًا ... فما أقربَ الغفرانَ إنْ كُنتَ باكيَا

* ومن جدير مسائل التوازن: أنّ على المؤمن ألا يستغرق كثيرًا في نفع غيره على حساب حظّ نفسه من فرائض ونوافل العبادة والعلم. بل لا بد من التوازن وتقديم الأَولى، وخاصة إنْ كان غير مؤثّرٍ بعلمه أو ماله أو جاهه، كمن يترك وِرده وأذكاره ومراجعة محفوظه وحظّه من عبادته الخاصة لأمور ليس له فيها أثر نافع بيّن، مع وجود من يكفيه تلك المؤنة. فبعضهم قد يزهد في أذكار يومه أو مراجعة حزبه ليتابع أخبار المسلمين في أقصى الأرض، مع كونه لا يد له مؤثّرة فيهم.

نعم إن الاهتمام بأمر المسلمين جيّد ومحمود وفضيلة، ولكن الأجود والأحمد والأفضل والأحتم ألا يكون ذلك على حساب تزكيتك لنفسك بالذكرِ فهو أوكسيجين الحياة، وبالمحاسبة فهي ضبط المسير، وبالتأمّل فهو جمال العقل، وبالعلم فهو رجمُ الشيطان، وبالعبادة فهي حياة الروح.

فينبغي لمن رام حمل أثقال الناس أن يبدأ بحمل ثقل نفسه، فإن أطاقهم بعدها فنِعِمّا ذلك، وابدأ بنفسك فاغْزُها وجاهدها في ذات الله، واحملها إلى

(١) كان ﷺ يفتتح صلاة الليل بهذا الدعاء، وقد رواه مسلم (٢/١٨٥).

ربها برفق. وتذكّر أن الاستغراق في عبادات النفع المتعدي كالتعليم والدعوة والإغاثة ونحوها مع الغفلة العبادات الخاصة كالذكر والتلاوة والدعاء والصلاة والتفكر مدعاة لنضوب مَعِينِ العمل المتعدي أو انحرافه، وودّ الشيطان لو ظفر بذلك.

ولا يعني هذا بحال التزهيد في فضل الأعمال المُتعدية، بل إن من توفيق الله لعبده أن يهديه لعملٍ لا ينقطع بموته، فلا يزال يصعد درجات الجنة حتى بعد رحيله عن دنيا العمل، بكلمةٍ علّمها، أو غافلٍ أيقظه، أو نفس أسعدها، أو جَوعة أشبعها، أو علّة داواها، أو بئرٍ حفرها، أو جِلدٍ أدفأه، أو ظلامٍ بدّده، أو طريق عبّده، أو نفعٍ سبّله، أو مسجد بناه، ونحو ذلك من مراضي رب العالمين، إنما المقصود مراعاة رأس المال قبل تحصيل الربح، فإن ذهبت العبادة الخاصة فما تلاها أولى بِذَهابٍ.

وعليك ببناء علمك بالطلب فهو بداية الوصول، والتلاوة فهي عطر الروح، والتدبّر فهو مفتاح العقل، والحفظ فهو كنز العلم، والمراجعة فهي تأكيدُ الفائدة، والمُدارسة فهي لِقاحُ المعرفة، والعلم الذي لا يُدرس يَندرس. وقال إبراهيم بن عبد الواحد موصيًا الضياء المقدسي لمّا أراد الرحلة للعلم: «أكثِر مِن قراءة القرآن ولا تتركه؛ فإنه يتيسّر لك الذي تطلبه على قدر ما تقرأ». قال الضياء: فرأيت ذلك وجرّبته كثيرًا، فكنتُ إذا قرأتُ كثيرًا تيسّر لي من سماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ لم يتيسر لي.

وعليك بالدعاء فهو زاد المؤمن وقُوتُه وسلاحه، وما خاب من دعا، وما

ندم من ابتهل، وما خسر من تضرّع. ومِن أعظم أسباب إجابة الدعاء: اليقين بربك، وحسن ظنك به، والثقة بلطفه، والطمأنينة لوجوده وإحاطته وعلمه وقُربُه ورحمته. ومن وصايا طاووس بن كيسان: «إيّاك أن تطلب حوائجك ممن أغلق دونك أبوابه، وجعل دونك حجَّابه، وعليك بمن أمرك أن تسأله، ووعدك الإجابة»(١). ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠].

ولتكن مستمتعًا دومًا بتطهير روحك برياض العبادة وبساتين الذكر، وغسلِ قلبك بالسجود والخضوع والضراعة، وعينِك بالتفكر والرقائق والدموع، وصدرِك بمحبة الخير للناس والشفقة عليهم والإحسان إليهم، وبطنِك بكثرة الصيام والصدقة وأكلِ الحلال. وواهًا لمن جمعها.

لكن من لم يُطق أو خاف مَيل الميزان لشهوةِ نفسه التي ظنّها أفضل فهو محتاج لزمِّها وأطرِها حتى تلتذّ بالشرع، لا بالهوى المغلّف، أو لِنَقُل: فاضلٌ ومفضول. فإنّ من تلبيسِ الرجيم أنه إن لم يسطِع إبعاد المومن عن الخير شغَلَه بالمفضول عن الفاضل، فتنبّه لذلك. رعاك مولاك. وكن سراجًا يضيء لنفسه ولغيره، ولا تكن شمعةً تضيء لغيرها بإذابة واضمحلال نفسها، ولا صخرةً صمّاء لا لنفسها ولا لغيرها. والموفق من وفقه الله.

* ومن مهمات مسائل التوازن العقلي للمؤمن: الانتباه لتلبيسات إبليس في الأوامر والمناهي الإلهية، فإن الشيطان الغادر قد يَلْبَسُ جُبّة الشيخ الناصح،

---

(١) حلية الأولياء (١١٩٤٤).

وما بالك بمن عُمُرُه أطول من عمر البشرية كلها، وتجاربه مع بني آدم لا تُحصى، فهو خبيرٌ نفسي، وعدوٌّ ماكر، ومُخالطٌ غادر، نافثُ خَطَرَات ومُزيّنُ شهوات.

والموفق من عصمه الله فأعاذهُ من كيده وإغوائه، وكان بمعزل في التقوى عن خطواته، فإنه يبدأ بالخطوة ليمشي بالمرء أميالًا، ويهوّن عليه الأمر لينكسر حاجز المناعة ضد الخطيئة، ويوسوس للمرء بالأمر حرصًا على بلوغ غيره وهكذا، وتأمل خَبَرَهُ مع برصيصا العابد.

وحدّثني من كان يضع صورة القائد خّطاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في محفظته، حتى إذا فَتَرَ نظر إليها. والآخرُ علّق صورة والده المتوفّى، فكان يُحيِّي الصورة كلما دخل المنزل، وبعد مدّة زاد مع التحية ركوعٌ؛ فيا سبحان الله، حذو القذة بالقذة، وهل هلك قوم نوح ومن بعدهم إلا بذرائع الشرك في لبوس الصلاح، فاللهم غُفْرًا. فالتصوير والنحت هو ذريعة التعظيم والعبادة، ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾ [نوح: ٢٣- ٢٤] فيحرُم تعليق صور ذوات الأرواح مطلقًا، ويغلظ التحريم إن كانت لذي سلطانٍ على القلوب سواء لمحبته كالوالد، أو لعلمه كالعلماء، أو لعبادته كالصالحين، أو لمُلْكِه كالسلاطين والملوك.

طــاوَعْتُمُ فِيــهِ العَــدُوَّ وكُنْــتُمُ ... لــو شــئتمُ في معــزلٍ وقــرارِ

ولكنّ الشيطان بحمد الله ضعيف صغير حقير أمام مَنْ حَفِظَ أمرَ ربِّه وتعلق به واستعاذ واعتصم، فهو كما قال أبو حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشيطانُ وما

الشيطان! أُطيعَ فلم ينفع، وعُصيَ فلم يضرّ». وربنا جل وعلا يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ (١) وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢] فهو مجرد وسواس يخنس عند ذكر الله العظيم جلّ وعزّ. فالمؤمن يخشى الله وحده ويحذر كيد عدوّه، وقد أجلى العليم عداوة الخبيث فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] فالاعتصام بحبل الله نجاة وحسن الرجاء بفضله فلاح.

ومن نماذج حيل الشيطان وحبائله مسألة: إمّا هُنا أو هناك. وذلك بتضييق المخارج على المرء ليقبع في سجن إبليس محبوسًا عن العلم والعمل، ولنأخذ مثالًا فاشيًا، فمن ذلك وسواس الشيطان في أمر حلق اللحية، فيوسوس للمؤمن أنه لابد أن يكون مستقيمًا تامًّا قبل إعفائها وإلا فهو منافق.

وهذا باطل بداهة، فلا يخلو أحدٌ من ذنب، وقد قال رسول الله ﷺ: **«كل بني آدم خطاءٌ، وخير الخطائين التوابون»**(٢). كما أنّ الإعفاء عبادة مستقلّة كأيّ عبادة، ولو طردنا ذلك اللازمَ الباطل؛ لانهدم الدين بالكلية. فكلُّ عبادة

---

(١) المُصرخ والصريخ: المغيث.

(٢) رواه أحمد (١٩٨/٣) وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٢ / ٢٧) (٢٣٤١).

وأمر ونهي له وزنه المستقل وحسابه المستقل يوم القيامة ما دام الإيمان في الجملة صحيحًا.

إنّ على المؤمن أن يحرص على الكمال قدر طاقته، فإن غُلب دون ذلك كان منه قريبًا بعون ربه ولطف سيده، فهو بين التسديد والمُقاربة، لكن إن ضعف دون أمرٍ أو نهيٍ؛ فلا أقلّ من أن يُصحّح ما استطاع من شجرة إيمانه، وأن يُحصِّل ما أطاق من صالح العمل. فلا يمنع تأخيرُ الصلاة من الصدقة، ولا يمنعُ شربُ الدخان من صلة الأرحام، ولا يضادُّ الغيبةَ شهودُ الجمعة والجماعة، وهكذا. واعلم أن حلق اللحية يكتنفه ستة محاذير شرعية، وهي كالتالي:

١ . معصيةٌ لله تعالى ومخالفةُ وصيةِ رسول الهدى ﷺ بقوله: «**إذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه**»(١). وقد قال: «**أعفوا اللحى**»(٢). «**أرخوا اللحى**»(٣). «**أوفوا اللحى**»(٤). وكلها في الصحيح.

٢ . مجاهرةٌ بالذنب، وقد قال النبي ﷺ: «**كلُّ أمتي مُعافَى إلا المجاهرون**»(٥).

٣ . إصرارٌ على المعصية، ولا صغيرة مع الإصرار. قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) البخاري ١١٦/٩ (٧٢٨٨)، ومسلم ٩١/٧ (١٣٣٧) (١٣١).

(٢) البخاري ٢٠٦/٧ (٥٨٩٣)، ومسلم ١٥٣/١ (٢٥٩) (٥٢).

(٣) مسلم (٥٢٤).

(٤) مسلم (١٥٣/١).

(٥) البخاري (٢٤/٨) ومسلم (٢٢٤/٨).

«يُخشى على من أصرّ على معصية أن يُسلب الإيمان عند الموت»(١).

٤ . أنها دعوة عمليّة للتقليد، وبخاصة ممن يقتدون به كالوالد والمُربي والمعلم والأخ الكبير والقائد المطاع والسيد المتبوع ونحو ذلك، وقد قال ﷺ: **«من سنّ في الإسلام سنة سيئة؛ كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»**(٢).

٥ . أنّها من التشبه بأعداء الله ومخالفة سنن المرسلين، وقد قال ﷺ: **«من تشبّه بقومٍ فهو منهم»**(٣). فالمجوسُ يحلقون اللحية ويُعفون الشارب، والليبراليون والعلمانيون يحلقونها، واليهودُ يُعفونها، ومحمدٌ ﷺ يُعفي اللحية ويحفّ الشارب. فاختر لنفسك.

كذلك ألا يخشى العابثُ بلحيته أن يُبعث على هيئته المشاقّةِ لسنة حبيبه ﷺ، ولا أنْسَ وجهَ ذلك الحليق على مغسلة الموتى، عفا الله عنه ورحمه.

٦ . أنّها مدخلٌ لتلبيس إبليس بأنه لا يعفيها إلا مَن كان مستقيمًا ظاهر الديانة.

وكما أنّ لحلق اللحية مفاسد فلإعفائها بركات، منها: امتثال الأمر، ومنها الدعوة العملية لاتّباع السنة، ومنها طردُ شياطين الإنس، فمعلوم أن القلوب

---

(١) جامع العلوم والحكم (٤٨٧) الحديث (٤٢).

(٢) مسلم (٨٦/٣، ٦٢/٨).

(٣) أحمد (٥٠/٢ و٩٢) وصححه الألباني في الإرواء (١٢٦٩).

تهاب ذي اللحيةِ أكثرَ من حليقها، وتخجلَ أن تُظهر له المعاصي أو تدعوه إليها، فلا تستهن باللحية، فهي من شعائر الإسلام، بهاءٌ لوجهك، ونور لطلعتك، وجلالٌ لرجولتك، واتّباع لسنة نبيك ﷺ، وطاردة للفَسَقَة عن جنابك. ومن حسناتها أنها حسنةٌ مباركةٌ تنادي حسناتٍ أخرى، ومنها أنها تزيد الإيمان لمن احتسب، وبخاصة إن كان ممن يتعرض للأذى بسبب إعفائها، فهذا نموذج دالٌّ على غيره، وبالله التوفيق.

ومن تلبيسات الأبالسةِ على الناس: تزيينُ ألقاب المنكر حتى تستسيغَها النفوس، ولك أن تعلم أن إبليس هو أوّل من لبّس، فقد سمّى الشجرة التي نهى الله آدم من أكلها بشجرة الخُلد، ثم تبعه حزبه فسموا الخمر بمشروب الروح، والزنا بالعلاقة، والربا بالفائدة، والميسر باليانصيب، والرشوة بالقهوة، والمُكُوسَ بأسماء عدّة، وهكذا.

* ومن مسائل التوازن المهمة: حراسةُ الأهمِّ فالمهمِّ من أمور الإسلام. والحذر من أن تخنق الفروع أصلها، وتمنع الوسائل غايتها.

فإنَّ من أبجديات فهمِ المسائل: حسنُ التصوّر لها إجمالًا، أمّا تحقيقُ حدودِ التفاصيل فهو ميدان اختلاف الرأي، وفي دائرته يكون السجال مُؤَيَّدًا بالبراهين.

ونحنُ كمسلمين لدينا كليّة مطلقة لا تقبل الجدل والتمحّك، ولا الضبابية والتمحّل، تلك هي محوريّة تحقيق العبادة لله جل وعلا. فهذا القدر الكلي مجمعٌ عليه، لذا فمنه. دومًا. المُنطلَق في الحوار وإليه العَوْدُ في الترجيح.

فموضوع الغاية من الخلق محسومٌ بآية الذاريات، إنّما الشقاق يكون بالقفز الفكري أو الشعوري خارجه. لذلك فطريقة القرآن هي ردُّ الناس إلى هذه الغاية مهما تلوّنت سبلهم وأسبابهم، فيستحيل أن يتعدّد الحقّ في نفسه، إذن فلا بد من مرجعيّة مهيمنة وحاسمة، وتلك بلا تردد هي حاكميّة الوحي المنزل. ودَعْنَا . أخي القارئ الكريم . نقفُ على أمثلةٍ متنوّعة الألوان والرسوم، حتى نُدرك خداع النفس الأمارة لصاحبها حينما تتلفّعُ له بقناع النصح والوداد المُخفي لما تحته من وجه الحقيقة الآثمة. وثَمّ خمسةُ أمثلة:

الأول: مثالُ الفقيه المُبَرِّر اللاوي أعناق النصوص لما يراه من تقديم مصلحة دنيا الناس على دينهم، وذلك بتضخيم جانب أمنِ الجسد على أمن الديانة.

فحينما يتوسع الفقيه في منطق تسويغ فعل السياسي خارج حدود المقبول، وينشغل بترقيع خَللِ السياسي في مقابل تضخيم خوف المآلات بحجةِ . أو شبهةِ . دفعِ ورفعِ الفتن المتوهّمة، فنحن هنا أمام مثال لتقزيم الأصل وهو تحقيق العبادة لرب العالمين في سبيل حفظ دنيا لفرد أو جماعة.

وكم من مبطلٍ بلباس ناصح، ورُبَّ مُريدِ خيرٍ لم يُدرِكْهُ. ولا نعني بذلك إلغاء القصد النبيل للفقيه، فهو أمرٌ قد جاءت به الشريعة وعظّمت شأنه، فلا يقوم الدين إلا بدنيا صالحة، والتاريخ شاهد صدق. إنما المطلوب أنْ يُحَجّم الأمر بقدره الشرعي، فلا يكون هو الأصل دون تحقيق العبادة لله.

وللتوضيح نقول: تحقيقُ العبودية عبادة محضة ومِحْوَرٌ لا يقبل التجزئة، أمّا

غير ذلك فهي وسائل لتحقيقها لا غير. وهذه الوسائل ملحقة بالعبادات من جهة أنها تُفضي إليها لا أنها هي. قال تعالى: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ [البقرة: ١٩١] وقال: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ [البقرة: ٢١٧] فالفتنةُ حينما تَصرفُ عن الأصل الأعظم وهو الإيمان؛ فهي بلا ريب أشدّ من قتلٍ يُتلف الجسد وتبقى بعده حياة الإيمان.

وفرضُ الوقتِ هو أن تُحفظ العبادات ووسائلها بحيثُ لا تنقلبُ الوسيلةُ غايةً ولا الفرعُ أصلًا، وبالمُقابِل لا يجوز أن تُلغى الوسيلةُ بحيث لا يبقى للمرء بعدها لغايته وصولٌ.

الثاني: الغيورُ المنكِرُ المشتعلُ حماسة للدين وغَيْرَةً للشريعة، ولكن ترتاحُ نفسُهُ للّجَجِ والخصام، والعجلة، والبداءة بالتغيير بسلاطة اللسان وسوء الظن وتفتيش النيات وكشف العورات والفرح ـ عمليًّا ـ بالزلات، ونشرِ المنكرات وإشاعتها بقصد حربها وكسرها، والتساهلِ في اتهام أهل العلم والفضل بالتقصير في القيام بأمر الدين، ووصمهم بالمداهنة وبيع الآخرة نظير عمالةٍ من سلطان.. ونحو ذلك مما قد كُفِيَهُ ولم يكلّف به، ولكن أبتْ عَثْرتُه إلا أن تُكرعه حمأة البغي، قال رسول الله ﷺ: «**من خاصَمَ في باطلٍ وهو يعلمه؛ لم يزلْ في سَخَطِ الله حتى ينزِع، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه؛ أسكنه الله رَدْغَةَ الخَبَال حتى يخرج مما قال، وليس بخارج**»(١) وإنْ طاش ظن المرء طاشت مقادِرُه.

---

(١) أحمد (٥٣٨٥) و(٥٥٤٤) وأبي داود (٣٥٩٧) وصححه الألباني في الصحيحة (٤٣٨) والإرواء (٢٣١٨).

وقد يزيد هذا العَجولُ بلا علم ولا حلم فيُنكر باليد ما ليس تحت يده ومما ليس مأذونًا له فيه، وقد يستطيل بغيًا فيستطيب إشهارَ السيف على من حرّم الله في سبيل إقامة أمنيةٍ لا يراها خارج جُمجته الحيرى. ويفرحُ بمُدارَسةَ نواقض الإسلام دون تدارُسِ موانع التكفير، بل يرعيها أذنًا صمّاء. فيكتفي بالأُولى؛ ليركض بها في نكيره، ويتعمّد الإغماض عن الثانية؛ لأنها تقيّد حريّة طيشه. ويكأنّما نسيَ أن شارع الأُولى والثانية واحدٌ.

وكم من مريدٍ للحق لم يبلغْه، وكم من كارثة لا ترقؤها الأيام قد ابتدأها من يظنّ فعلَه صالحًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]. فيا صاحبي: إنكارُ المنكر فرضٌ على الأعيان أو الكفايات بحسَب الأحوال، فاحرص على اعتدال رمّانة ميزانك بلا وكْسٍ ولا شَطَطٍ، فلا تَقعُد عن إنكارٍ مشروع، ولا تتخوّضْ مالم تأمرك به الشريعة، وتدبر قول ربك الحكيم العليم: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]. فالزم غرز الذين يحسنون استنباط الهدى القرآني من الراسخين.

الثالث: الداعي إلى سبيل ربه ولكن عبرَ التوسّعِ فيما يراه وسيلةً جاذبةً للناس للخير الذي يدعوهم إليه، فيركبُ المشتبه، ويتوسع فيما اختُلف فيه، وينسلخُ من ضوابط من أجازوا له ما هَوِيَ مرحلةً بعد أخرى، حتى تظهرَ عورةُ منهجه بعد سقوط آخر ورقةٍ للتوت ولو من غيره ممن استنّوا طريقته..

وأتَتْكَ بِحائِنٍ رِجْلاه.

بل رَبّما عصى ربَّه في سبيل طاعته. واللهُ طيبٌ لا يقبل إلا طيّبًا، ولم يجعل هداية خلقه وطِبِّ قلوبهم وأجسادهم فيما حرّم عليهم، وليس كل طريقٍ للحق موصلٌ وإن نبل هدف سالكيه. فقف إذن حيث وقف سلفُك الصالح، فإنّهم عن علمٍ وورعٍ وحكمةٍ وتوفيقٍ كَفُّوا، قال الله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

الرابع: المرءُ مع أسرته من زوج وذريّة، فيسعى جاهدًا أن يملأ أعمارَهم بهجةً وسرورًا، مُتذكّرًا فصولَ الحب وحسن المعشر والرحمة والكرم ونحوها، ولكنّه في غفلة هائلة عن النصح الحقيقي والشفقة التامّة والحب الصادق الذي يفضي به إلى أن يأخذَ بأيدهم عن مساقطِ غَضبِ الله وعذابه إلى رضوانه وجنتة.

جميلٌ جدًّا أن ترسم الضحكة والبسمة على محيّاهم، شريطةَ أن تعمل على أن يستمر هذا معهم بعد رحيلهم عن هذه الدار الصغيرة الزائلة الزائفة. فاعمل على رسم الهدف النهائي الأخروي، وصِلْهُ بمباهج الدنيا التي لا تحلو أصلًا إلا مع طاعة الله تعالى. فإن رأيتَ فرعًا أمَّارًا بالسوء فاهتف به: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧] ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

الخامس: المؤمن مع نفسه في حال زجرها أو إكرامها بلا نورٍ من الشرع، كمن شقَّ عليها بأطرِها على مسيرٍ لم تُؤمر به، ولم يَرفُق بها في طريقٍ صالحٍ حتى كلّته وملّته، فحبَسَ غريزتَه تأثّمًا دون إفراغها فيما سَخّر لها خالقُها من المباح.

أو أطلقها حول الحِمَى، ثم أولجها الحمى، حتى إذا طرقت الحرامَ وألِفَت العصيان؛ لم يسمع لنداء الإيمان في قلبه رِكْزًا.

وكما أن الإيمان لا يصح دون علم؛ فكذلك العلم لا ينفع دون إيمان، وتأمل كيف جمعهما ربنا بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الروم: ٥٦]. فإحسان العبادة غايةُ الصدّيقين، والرفق بالنفس مع الحزم معها وسيلة تحقيق هذا المقصد الأعلى بإذن ربنا الأعلى. ومتى طغت الوسيلة على الغاية هلكت الراحلة والراحل، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

❁❁❁❁

السَّلفيةُ هي الإسلامُ في أنقى صورة

السلفية هي عقيدة النبيّ ﷺ والصحابة وسلوكهم وليست مذهبًا فقهيًا. ويخلط بعض الناس حين يظن أن السلفية مدرسة فقهية، فيضعها جنبًا إلى جنب مع المدارس الأربع المشهورة، وهناك لا يسميها سلفية بل وهّابية، وقد يجعلها خامسة المدارس أو متفرعة عن الحنبلية، وهذا ضلال، لأنه يفضي إلى رصّ مدارس البدعة بإزائها كالأشاعرة والمعتزلة والمتصوفة والإباظية.. ومن ثم يُلبسهم جميعًا عباءة إساغة الخلاف في المسائل الفاصلة بينهم.

لذلك فلا غرابة أن يستعر المنادون بذلك في بلاد الحرمين فينادون بالإذن للمناهج المخالفة العقدية (وإن سمّوها فقهية) ثم يتّهمون من وقف دون ذلك بالجمود والتحكّم ونحو ذلك، فيظهرون للناس مطالبتهم بالتسامح مع مدارس بدعية ضالة بعد إلباسها مسمى المدارس الفقهية، وهذا تلبيس وختل، فالمدارس الفقهيّة بعلمائها وكتبها موجودة بلا نكير من قديم، إنما النكير على من خالف معتقد الصحابة المرضيين والذين اتبعوهم بإحسان. وكما قال حسّان: إنّ الخلائِقَ فاعلَمْ شرُّها البِدَعُ.

وحتى تتضح الصورة؛ فالمناهج العقديّة هي مناهج علمية للمعتقد والسلوك، والخلاف فيها مؤثّر في التديّن. خلا تفصيلات يسيرة. أما المدارس الفقهية فهي للعمليات، والخلاف في أكثرها سائغ لمن ملك أدوات الاجتهاد.

وعليه: فما بُني على باطل فهو باطل، فالسلفية أو ما يسمونها بالوهابية

ليست مذهبًا فقهيًّا بل هي روح الإسلام ذاته، فقد يكون السلفي حنفيًّا أو مالكيًّا أو شافعيًّا أو حنبليًّا، كحال أئمة المذاهب الأربعة وأئمة علماء الإسلام في الجملة، ولكن لا يكون صوفيًّا ولا معتزليًّا ولا أشعريًّا ولا ماتُريديًّا ولا جهميًّا ولا خارجيًّا ولا شيعيًّا. إنّها السلفية محضُ الإسلام العتيق، وملّةُ إبراهيم الحنيف، وشريعةُ محمد الخاتم ﷺ.

وبالجملة؛ فالسلفية هي الإسلام والإيمان في أنقى صورة، فهي مذهب السلف الصالح وهي معتقد الصحابة، وهي الدين الذي جاء به رسول الهدى ﷺ من لدن رب العالمين.

* واعلم أنّ السَّلفية نورٌ ونار، كما كان ﷺ ضحوكًا قتّالًا، فهو حكيم البشر وأرحمهم وأزكاهم وأعدلهم. ومع هذا الكمال لشريعته فلا تزال شياطين الجانّ تَؤُزّ شياطين البشر بموجات سُعَارٍ لا تهدأُ ولا تفتر من محاولاتِ طمسِ معالم الرسالة المحمدية، تولّى كبْرَها أراذلُ البشرِ وسَقَطُ الكُتَّابِ، ويأبى الله! كأنّما يستبق دهاقينُها الزمنَ قبل الفواتِ، واللهُ مُتمُّ نورِه، ومظهرٌ دينه على الدين كلّه.

ولما عَلِمَ أعداءُ الأمة ذلك؛ ابتدأوا بحرب السلفية لأنها آخر الحصون المنيعة في مدينة الإسلام، فلْيعِ ذلك حَمَلتُه ولْيلعلمْه أهلُه، فحينما يكتب المَرَدَةُ أو يتكلّم متسلّقو وَهْمِ المجد - من منتسبة الإسلام - بحروفٍ تهاجم السلفيّة؛ فإنهم عن نفاقٍ وفسقٍ، أو غباءٍ وحُمْقٍ، قد طعنوا الإسلام في خاصرته، كيف لا وهم بشِنْشِنَتِهِم المعروفة يحاولون هدم البنيان الذي قام على الوحي المنزّل

كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، على فهم سلف الأمة الذين هم أزكى القرون قاطبة، لا كان ولا يكون مثلهم، وإن شرق بذلك مرضى القلوبِ وجَهَلَةُ العلم بالله تعالى وشرعه.

إنها السلفيّة التي سَبَرَها المستشرقون فتيقنّوا أنها مَحْضُ الدين القويم لمحمد صلوات الله عليه وسلامه وبركاته. فقد كرّروا في مسارِبها النظر، وكرّوا الكيد تلو الكيد ليفتكوا بها، فانقلب إليهم بصرُهم خاسئًا وكيدُهم خائبًا، فقالوا بمرارة مهزومٍ: إنها السلفية ـ كما الإسلام ـ العصيّة على التحريف والتبديل، إن تركناها امتدّت، وإن حاربناها اشتدّت.

إنها السلفية، نعم إنها السلفية التي أنشأت لها دولٌ عظمى دوائرَ بحث خاصة، فدرستها دراسةً مشبعة مستفيضة، ونَخَلَتْها وحلَّلتها، فخرجت إلى أنها الأنموذج الكامل للدين الإسلامي في حال صفائه الأول، وهذا ما لا تطيقه قلوبهم.

إنها السلفية نورٌ ونارٌ: نورٌ يهتدي به من أراد الحق، ونارٌ تُحرق يدًا امتدّت إليها بالأذى، نورٌ يكشف الله به شبهات الشياطين المضلّين، ويهتك أستارهم، ويدحض تخرّصاتهم وتهوّكاتهم، ونارٌ تُصلَى بها شهواتُ عُبّادِ الهوى وسَدَنَةِ أضرحة الفواحش، فحدودُ الله فيهم تُقام طالما عن حدودِ الله حادُوا. فهي نورٌ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ونارٌ تَنْصُرُ بإذنه، وتقطعُ حبال الهوى وعروقَ الردى من جسد الأمة الواحد.

ولقد يعلمُ أعداءُ الأمة أنه لا يُهدمُ بنيانٌ بأمضى من مِعْوَلٍ بيمينِ أهله، لذا

فحديثهم إما بالطعن المباشر، أو بنشرِ خَطَلٍ بعضٍ من لوّث نقاء تلك الصفحة الساطعة عبر القول أو الفعل؛ لهوَ مؤشّرٌ مريب على مكرٍ كبّارٍ، مُؤذنٌ بسيلِ فتنةٍ قد انعقد غمامُها إن لم تُتدارك من لدن رواجحِ الأحلام. فليعتنِ الناصحون بهذا، ولْيعلموا أن وراء الأكَمَة ما وراءها من منافقين ومشركين، وأنّ من أراد الإصلاح فليبدأ من هنا، أعني إصلاحَ الخلل الطارئ من ضَرْبِ المسلّمات العقديّة وركائزِ الفضيلة عبر تيّارٍ هائج ضد أصول الديانة وركائز الأخلاق.

أَلَا وإن بعض أهل الضلالة لينعق زورًا عن ذروة سنام الإسلام الجهاد على أنّه إرهاب مذموم، فيا سبحان الله! أليس الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة؟ أليس إمامُ المجاهدين هو رسول الله ﷺ؟ وقد كان عدد غزواته التي قادها بنفسه سبعًا وعشرين غزوة، وقاتل في تسع منها، وهي بدر وأحد والأحزاب والمريسيع وقريظة وخيبر ومكة وحنين والطائف، أما بُعوثُه وسراياهُ فقد بلغت ستةً وخمسين سريّة(١). صلى الله وسلم وبارك عليه وآله.

---

(١) المنهاج شرح النووي لصحيح مسلم (١٢/٩٥)، وفتح الباري (٧/٢٧٩ – ٢٨١) (٨/١٥٣) والبداية والنهاية (٣ / ٢٩٦) وقد اتفق أصحاب السير أنّ الغزوة هي الحرب التي يشهدها رسول الله ﷺ بنفسه، وأما البعث أو السرية فهي التي يرسلها بدون ذهابه معها. وقد اختلف أهل السير في عدد غزواته وسراياه. والأظهرُ أنّه خرج في سبع وعشرين غزوة، قاتل في تسع منها. وقال ابن سعد: «ويقال: قاتل في بني النضير، ووادي القرى، وقاتل في الغابة». وذكر الصالحي أسماء الغزوات في السيرة الشامية (٤ / ١٦) قال: «هي: غزوة الأبواء – (ودان) – غزوة بواط – غزوة سفوان –
=

إنّ الجهاد في سبيل الله تعالى ماضٍ إلى يوم القيامة، وهو ذروة سنام الإسلام، ولا ينكل عنه إلا مخذول، وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**من مات ولم يَغْزُ، ولم يُحَدِّثْ نفسه بالغزوِ؛ ماتَ على شعبةٍ من النفاق**»[(١)]. فالمؤمن يُجاهد ويُحدّث نفسه بالجهاد، بل إنّه موعود بمنازل الشهداء إن طلبها حقًّا وصِدقًا وفاته، فعن سهل بن حنيف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**من سأل الله تعالى الشهادة بصدقٍ بلّغهُ الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه**»[(٢)].

وقال ربنا جل وعلا مُرغِّبًا أهلَ الهمم العالية للدرجات العالية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ

=

بدر الأولى – غزوة العشيرة – غزوة بدر الكبرى – غزوة بني سليم – (قرقر الكدر) غزوة السويق، غزوة غطفان، غزوة الفرع، غزوة بني قينقاع، غزوة أحد، غزوة حمراء الأسد، غزوة بني النضير، غزوة بدر الموعد، غزوة دومة الجندل، غزوة المريسيع، غزوة الخندق، غزوة بني قريظة، غزوة بني لحيان، غزوة الحديبية، غزوة ذي قرد، غزوة خيبر، غزوة ذات الرقاع، غزوة عمرة القضاء، غزوة فتح مكة، غزوة حنين، غزوة الطائف، غزوة تبوك».

(١) مسلم ٦/٤٩ (١٩١٠) (١٥٨).

(٢) مسلم (١٨٨٧).

وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠- ١٣]. وعن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُوا۟ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٧٠ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩- ١٧١] قال: أمَا إنّا قد سألنا عن ذلك . أي رسولَ الله ﷺ . فقال: **«أرواحُهم في جوفِ طيرٍ خُضْرٍ، لها قناديلُ معلّقة بالعرش، تسرحُ من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل. فاطّلع إليهم ربُّهم اطّلاعةً فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أيّ شيء نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يُسألوا قالوا: يا ربّ، نريدُ أن تردَّ أرواحَنا في أجسادنا حتى نُقتلَ في سبيلك مرّةً أخرى. فلمّا رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا»**(١).

وإنّ القتال في سبيل الله جزءٌ من الجهاد في سبيله، فالجهاد أعمّ، قال جل وعز: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٢٤٤﴾ [البقرة: ٢٤٤] وقال جل ذكره: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٧٤﴾ [النساء: ٧٤] وقال سبحانه وبحمده: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ

---

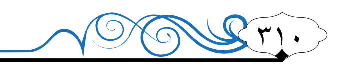
(١) مسلم ٦/٤٨ (١٩٠٩) (١٥٧).

ٱلْمُؤْمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ [النساء: ٨٤].

وفي القرآن المجيد ثلاثة ألفاظٍ يحسُنُ التفريق بينها للخلط في فهمها عند بعض الناس وهي: القتال والجهاد والشهادة:

فالأول: القتال، وهذا لا يكون إلا في سبيل الله، فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، دون من قاتل حميّة أو شجاعة أو ليُرى مكانه أو للمغنم أو غير ذلك من حُطَامِهَا.

والثاني: الجهاد، وهو مطلقٌ ومُقيّد، فلفظ الجهاد إذا أطلق فالمراد به قتال الكفار بالنفس والمال لإعلاء كلمة الله، ولا ينصرف إلى غير القتال إلا بقرينة، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ١٩] وقال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١] وقال سبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة: ٨٨] فالجهاد هنا هو القتال في سبيل الله، وهو الأصل عند ذكر الجهاد، أما غيره كجهاد النفس والدعوة ونحو ذلك فيدخل تبعًا أو مقيّدًا، فاستفراغُ الجُهْدِ لإعلاء كلمة الله ونصر دينه وهداية خلقه جهادٌ كما قال سبحانه: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].



والثالث: الشهادة، وهي مطلقةٌ ومقيدة، فالمطلقة: هي ما استشهد صاحبها في القتال في سبيل الله تعالى، فهذا هو الأصل في الشهداء، أما المُقيّدة فهي: ما سُمي صاحِبُها شهيدًا في الشريعة، تفضّلًا من الله وتطوُّلًا على هذه الأمة المرحومة تكثيرًا لشهدائها.

وبينهما فرق كبير، فالمقيّدة بضعةُ أنواع كالغريق والحريق وصاحب الهدم وصاحب ذات الجنب(١) والمبطون(٢) والمطعون(٣) والقتيل ظُلْمًا(٤) وغير ذلك مما سُمّي صاحبُه شهيدًا، فكل هؤلاء لهم مسمّى الشهداء في الدنيا والآخرة، فواحِدُهُم شهيدٌ، له مطلق الشهادة دون الشهادة المطلقة، وهي دون الثانية بكثير، فهؤلاء شهداء، لكن لا يُقال لهم شهداء في سبيل الله إلا إن كان ذلك ونحوه بسبب جهادهم في سبيله، كما في حديث نبيّنا ﷺ قال: «**ما تقولون**

(١) داء في البطن.

(٢) أي مات بداء البطن كالاستسقاء والإسهال ونحو ذلك.

(٣) أي مات بالطاعون، وهو داء معروف، وبعضهم يعدّ جميع الأوبئة المميتة طواعين والله أعلم.

(٤) عند بعض أهل العلم لذكر عمر وعثمان بالشهادة، وليس بظاهر، فشهادتهم لأنهم في سبيل الله وليس لمطلق المظلوميّة، ولكن يتوجه ذلك لمن قُتلَ دون دمِه أو أهله أو ماله؛ لصحّة الخبر في ذلك، وهو عند أبي داود (٤٧٧٢) والترمذي (١٤٢١) من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قُتِلَ دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد**».

في الشهيد فيكم؟» قالوا: القتل في سبيل الله. قال: «**إن شهداء أمتي إذن لقليل. من قُتِلَ في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، والمبطون شهيد، والمطعون شهيد، والغَرِقُ شهيد**»[١] وتأمل كيف أطلق الشهادة للموتى في سبيل الله على أي وجه كان ذلك السبيل، وجعلها قسيمة للقتيل في سبيل الله. وعليه: فمن مات في طريقه لمرضاة الله كشهود صلاة أو إتباع جنازة أو صلة رحم أو إغاثة ملهوف أو نصحًا لمسلم أو أي أمر يحبه الله ويرضاه فمات في ذلك السبيل فإنّه تُرجى له الشهادة، بحمد الله تعالى ومنّه وكرمه. وقال ﷺ: «**الشهادةُ سبعٌ سوى القتل في سبيل الله: المقتولُ في سبيل الله شهيد، والمطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمعٍ شهيدة**»[٢]. فهؤلاء إنما وهبهم الله منزلة الشهادة فضلًا منه ورحمة دون قتالٍ منهم في سبيله، فهم شهداءٌ إما لموتهم دفاعًا عن أنفسهم أو عرضهم أو مالهم، أو لميتةٍ شديدة أحلّت بهم رحمة الله تعالى كالطاعون والهدم والغرق ونحو ذلك.

أمّا الشهادة المطلقة ـ وهي الكمال ـ فهي منصرفةٌ للشهيد قتيلًا في سبيل الله تعالى، صابرًا محتسبًا مُقبلاً غيرَ مُدبرٍ، ويكون قتالُه لتكون كلمةُ الله هي

---

(١) ابن ماجه (٢٨٠٣) صحيح الجامع: (٥٦٠٢) وبنحوه عند أحمد (٨٠٧٨).

(٢) أحمد (٢٣٧٥٣) وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٣٩) والجمْعُ هو: النفاس.

العليا، فصاحبها هو الذي حاز مرتبةَ الشهادة الكاملة بخصالها السّتِّ(١)، مع الحياة البرزخية الحقيقية، مع جَعْلِ روحه في حواصل الطير الخضر في جنات النعيم. وهذه المرتبة هي غاية آمال المقرّبين بعد مرتبة الصّدِّيقيّة، نسأل الله الكريم من واسع فضله وعميم كرمه وجزيل هباته وعظيم إحسانه، إنه الحي القيوم ذو الجلال والإكرام.

أَلَا وإنّ لأهل القرآن في مواطن الجهاد ما ليس لغيرهم من عظيم البلاء والنية والصبر والصدق، فأهل القرآن هم أهل الله وخاصّته، لذلك كانوا أولى الناس بالجهاد في سبيل الله، ولما غزا المسلمون المُرتدّين استحرَّ القتل في القرَّاء، أي العلماء بالقرآن، فقد كانوا هم مُقدَّمي البواسلِ إعلاءً لكلمة الله تعالى. فالقرآن يحقن في عروق تاليه حب الاستشهاد في سبيل الله، واسترخاص النفس في ذات الله، واعتبر ذلك بأمر رسول الله ﷺ العباسَ في حُنين لما انكشف المسلمون أن

---

(١) روى الترمذي (١٦٤٠) عن المقدام بن معدي كرب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«للشهيد عند الله ستُّ خصال: يغفر الله له في أوّل دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمنُ من الفزع الأكبر، ويُوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوّجُ ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفعُ في سبعين من أقاربه»**. وفي رواية: **«سبع خصال»** بزيادة: **«ويُحلّى حُلّة الإيمان»** وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٨٢) وروى أحمد (١٧٧٨٣) عن قيس الجذامي، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: **«يُعطى الشهيدُ ستّ خصال عند أول قطرة من دمه: يكفّر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوّج من الحور العين، ويُؤمَنُ من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويُحلى حلّة الإيمان»**. وحسّن سنده محققو المسند الأرناؤوط وزملاؤه.

ينادي: يا أصحاب سورة البقرة، فحملةُ القرآن قد تغذّت قلوبهم على التنزيل، وارتوت من الذكر الحكيم. وقد صاح بها ثابت بن قيس في اليمامة لما انكشف المسلمون فنادى: يا أصحاب سورة البقرة، قال رجل من طيء: والله ما معي منها آيةٌ، وإنما يريد ثابتٌ يا أهل القرآن.

وقد ذكرَ عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يومًا وقعة اليمامة، ومن قُتل فيها من المهاجرين والأنصار وحَمَلَة كتاب الله فقال: «أَلَحَّت السيوفُ على أهل السوابق من المهاجرين والأنصار، ولم نَجِد المُعَوَّلَ يومئذ إلا عليهم، خافوا على الإسلام أن يُكسرَ بابُه فيُدخَلَ منه إن ظهر مسيلمة[١] فمنعَ اللهُ الإسلام بهم حتى قَتَلَ عدوَّه، وأظهر كلمته، وقَدِمُوا يرحمهم الله على ما يُسرُّون به من ثواب جهادهم مَنْ كَذَبَ على الله وعلى رسوله، ورجع عن الإسلام بعد الإقرار به. وجعل منادي المسلمين[٢] ينادي: يا أهل القرآن، فيجيبون المنادي فُرادَى ومثنى، فاستحرّ بهم القتل. فرحمَ الله تلك الوجوه، لولا ما استدركَ خليفةُ رسول الله ﷺ من جَمْعِ القرآن؛ لَخِفْتُ ألّا يلتقي المسلمون وعدوَّهم في موضع إلا استحرّ القتل بأهل القرآن»[٣].

قلت: وذلك أنّ المسلمين في اليمامة لما انكشفوا بسبب اختلاط الأعراب بالمهاجرين والأنصار فيفرّون؛ فيستحرّ القتل في أهل السابقة من صحابة رسول

---

(١) أي خافوا تبديل الدين بظهور مسيلمة الكذاب.

(٢) يعني يوم اليمامة.

(٣) مختصر سيرة الرسول ﷺ للإمام المُجدّد (١ / ٢٨٨).

الله ﷺ، حتى غلبت حنيفة على الرِّحَالِ، فجعل زيد بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينادي وكانت عنده راية خالد: «أما الرِّحال فلا رحال، وأما الرجال فلا رجال، اللَّهم إني أعتذر إليك من فرار أصحابي، وأبرأُ إليك مما جاء به مسيلمة ومحكم بن طفيل». وجعل يشتدُّ بالرَّاية يتقدَّمُ بها في نحرِ العدوّ، ثم ضارب بسيفه حتى قُتِل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما قُتل وقعت الراية، فأخذها سالم مولى أبي حذيفة، فقال المسلمون: «يا سالم، إنا نخاف أن نُؤتى من قِبَلِكَ»، فقال: «بئسَ حامل القرآن أنا إن أُتيتُم من قبلي»..وتأمل ذكره لحمل القرآن لا غير.. ونادت الأنصار ثابت بن قيس وهو يحمل رايتهم: «الزمها، فإنّما مِلاكُ القوم الراية».

ثمّ إن سالمًا تقدّم في نحر الكفرة براية المهاجرين، ثم حفر لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه، وحفر ثابت بن قيس لنفسه مثل ذلك، ثم لزما رايتيهما، وكان الناس يتفرّقون في كل وجه منهزمين، وإنّ سالمًا وثابتًا لقائمان برايتيهما، حتى قُتِلَ سالمٌ، وقُتِلَ أبو حذيفة مولاهُ عليهما رضوان الله تعالى، فوُجِدَ رأسُ أبي حذيفة عند رجلَي سالم، ورأسُ سالمٍ عند رجلَي أبي حذيفة لقُرْب مصرعِ كلِّ واحد منهما من صاحبه، وثباتهما مع شدة القتل.

وتأمل حرص أولئك الأفذاذ على إدراك الشهادة في سبيل الله تعالى، ومن ذلك أن أبا بكرٍ دعا زيد بن الخطاب ليولّيه إمرة الجيش فقال: «يا خليفة رسول الله ﷺ، قد كنت أرجو أن أُرزق الشهادة مع رسول الله ﷺ، فلم أُرزَقْهَا، وأنا أرجو أن أرزقها في هذا الوجه، وإنّ أمير الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه»، فدعا أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، فعرض عليه ذلك فقال مثل ما قال زيد، فدعا

سالمًا مولى أبي حذيفة ليستعمله فأبى عليه، فدعا أبو بكر سيفَ الله المسلول خالدَ بن الوليد فأمّره على الناس، وكان خالد للمسلمين فتحًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وعن أبي سعيد الخدري قال: «قُتلت الأنصار في مواطن أربعة سبعين سبعين: يوم أحد سبعين، ويوم بئر معونة سبعين، ويوم اليمامة سبعين، ويوم جسر أبي عبيد سبعين». ألَا ما أصبرهم وأصدقهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ. قال شريك الفزاري: «لما التقينا والقوم[1] صَبَرَ الفريقان صبرًا لم أر مثله قطّ، ما تزول الأقدامُ فتُرَى، واختلفت السيوف بينهم، وجعل يُقبل أهلُ السوابق والنّيّات[2] فيتقدّمون فيُقتلون حتى فنوا، وذَلَقَتْ فينا سيوفهم طويلًا».

وتأمّل حسن بلاء وصدق حامل القرآن عبّاد بن بشرٍ الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[3]،

---

(١) أي بني حنيفة.

(٢) وتأمل سبب إقبال أهل السوابق والنيات؛ لأنّ لهم رصيدًا صالحًا في قلوبهم من الإيمان والعمل الصالح، وقد كانوا يُحسنون عبادة الله تعالى في الرخاء؛ فثبّت قلوبهم وقت الشدة، وفتح أبواب الخير عليهم عند هبوب ريح الجنة تحت ظلال السيوف وقعقعة الرماح.

(٣) وهو من بني عبد الأشهل، وهو الذي أبى أن يقطع صَلاته لما رُمي بالسهام، ففي مرجعِ رسول الله ﷺ من غزوة ذات الرقاع سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يُهريق دمًا في أصحاب محمد ﷺ، فجاء ليلًا، وقد أرصد رسول الله ﷺ رجلين رَبِيئةً للمسلمين من العدو، وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر، فضرب عبّادًا، وهو قائم يُصلي بسهم فنزعه ولم يُبطل صلاته، حتى رشقه بثلاثة أسهم، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه، فقال: «سبحان الله! هلّا نبّهتني»، فقال: «إني كنت في سورة فكرهت أن أقطعها». الرحيق المختوم (١ / ٣٥٤) فهو معدود من كبار أهل =

ولئن كان بنو حنيفة أولو بأسٍ شديد؛ فما حالهم مع صحابة محمد ﷺ إلا كما قال الأول: إن كنتَ ريحًا فقد لاقيتَ إعصارًا. قال ضمرة بن سعيد المازني. وذكر ردّة بني حنيفة: «لم يلق المسلمون عدوًّا أشدّ لهم نكاية منهم، لقوهم بالموت النّاقع، وبالسيوف قد أصلتوها قبل النبل وقبل الرماح، وقد صَبَرَ المسلمون لهم، فكان المعوّل يومئذ على أهل السوابق، ونادى عبَّادُ بن بشرٍ يومئذٍ وهو يَضرب بالسيف قد قُطِّعَ من الجراح، وما هو إلا كالنمر الجريح، فيلقى رجلًا من بني حنيفة كأنّه جمل صَئُول فقال: هَلُمَّ يا أخا الخزرج، أتحسب قتالنا مثل من لاقيت! فيعمد له عبّادٌ، ويبدره الحنفي ويضربه ضربة بالسيف فانكسر سيفه ولم يصنع شيئًا، وضربه عباد فقطع رجليه وجاوزه وتركه ينوءُ على ركبتيه، فناداه: يا ابن الأكارم أجهزْ عليّ، فكرّ عليه عبّادٌ فضرب عنقه. ثم قام آخر في ذلك المقام فاختلفا ضربات وتجاوَلَا، وعبّادٌ على ذلك كثير الجراح، فضربه عباد ضربة أبدى سَحْرَهُ[1] وقال: خُذها وأنا ابن وَقْشٍ، ثم جاوزه يَفْرِي في بني حنيفة ضربًا فريًّا، فكان يُقال: قتل عبّاد يومئذ من بني حنيفة بالسيف أكثر من عشرين رجلًا، وأكثَرَ فيهم الجراح حتى إن حنيفة لتذكرُ عبّاد بن بشر، فإذا رأت الجراح بالرجل منهم تقول: هذا ضربُ مُجَرِّبِ القومِ عبّادُ بن بشر»[2].

وقال رافع بن خديج الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «شهدنا اليمامة، فكُنّا تسعين

=

السوابق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أي رِئَته.

(٢) الاكتفاء للكلاعي (٣/ ٥٤).

من النبيت[١] فلاقينا عدوًّا صُبُرًا لوقع السلاح، وجماعة الناس أربعة آلاف، وحنيفة مثل ذلك أو نحوه، فلمّا التقينا أذنَ اللهُ للسيوف فينا وفيهم، فجعلتِ السيوفُ تختلي هام الرجال وأكفّهم، وجراحًا لم أر جراحًا قط أبعد غورًا منها فينا وفيهم، إني لأنظر إلى عبّاد بن بشر قد ضرب بسيفه حتى انحنى كأنه مِنْجَل، فيقيمه على ركبته، فيعرضُ له رجلٌ من بني حنيفة، فلما اختلفا ضربات؛ ضربه عبَّادُ بن بشر على العاتق مستمكنًا، فوالله لرأيت سَحْرَه باديًا، ومضى عنه عبّاد، ومررت بالحنفيّ وبه رمق فأجهزتُ عليه، وأنظر بَعْدُ إلى عبَّاد وقد اختلفت السيوف عليه، وهو يُبضعُ بها ويُبعج بطنُه فوقع، وما أعلم به مصحًّا، وكانوا حنقوا عليه لأنه أكثرَ القتلَ فيهم. قال: وحَرَّضْتُ على قَتَلته فناديت أصحابنا من النبيت، فقمنا عليه وقتلنا قتلته، فرأيتهم حوله مُقتّلين فقلت: بُعدًا لكم»[٢].

وانظر لحال خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنّه لما صافَّ جيشَ طليحة في حروب الردّة؛ حَمَلَ جيشُ طليحة على المسلمين حتى صار في ميمنة المسلمين كسرةٌ، فصاح رجلٌ من طيء بخالد: «يا خالد، عليك سلمى وأجأ»، فصاح فيه خالدٌ مؤنّبًا مُجيبًا: «بل إلى الله الملجأ». وضَرّس خالدٌ في القتال، فجعل يُقحِم فرسه وأصحابه يقولون له: «اللهَ اللهَ، فإنّك أمير القوم، ولا ينبغي لك

(١) وهم من بني عبد الأشهل من الأوس، وسيدُهم سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء لأبي الربيع الكلاعي الأندلسي (٣ / ٥٥).

أن تقدم». فيقول: «والله إني لَأَعْرِفُ ما تقولون، ولكني والله ما رأيتني أصبر، وأخاف هزيمة المسلمين»، وقاتل بسيفين حتى قطعهما، حتى ترادَّ الناس بعد هزيمة كثيرهم، فحملَ المسلمون على المرتدين فاقتلعوهم وأنزل الله نصره على عباده.

قال عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «نظرتُ إلى راية طليحة يومئذٍ حمراء، يحملها رجل منهم لا يزول بها فِتْرًا، فنظرت إلى خالد وقد أتاه فحملَ عليه فقتله؛ فكانت هزيمتهم، فنظرتُ إلى الراية تطؤها الإبل والخيل والرجال حتى تقطّعت». وعنه قال: «يرحم الله خالد بن الوليد، لقد كان له غَنَاءً وجُرأة، ولقد رأيتُه يوم طليحة يباشر الحرب بنفسه حتى لِيم في ذلك، ولقد رأيته يوم اليمامة يقاتل أشدّ القتال، إن كان مكانه ليتّقي حتى يطلع إلينا منبهرًا»(١).

فلله درُّ صحابة رسول ﷺ، وبخاصة المهاجرين والأنصار أهلُ السوابق والنيّات، ولله هُمْ مِن كُماةٍ بَواسِلَ، قد اعتَجَرُوا البأسَ تحت عجاجِ قصف الرماح وقطع السيوف، لهم في جمرةِ الوَغَى تكبيرٌ وتهليلُ، تجولُ بهم المُغيراتُ ضربًا على هامة كلّ ظلومٍ كفّارٍ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، وألحقنا بهم غير خزايا ولا ندامى ولا مُبدّلين.

ولا تخلو الأمة بحمد الله من مجاهدين في سبيل الله، ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقد أكرم الله تعالى ابن تيمية بمواقف

---

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء (٣ / ٢٤).

مشهودة في الجهاد، ومن ذلك وقعة شقحب بين المسلمين والمغول[(١)] ولمّا جاء السلطان[(٢)] من مصر إلى شقحب لاقاه وجعل يشجّعه ويُثبته[(٣)] فلما رأى السلطان كثرة التتار قال: «يا لَخالد بن الوليد!» فقال له: «لا تقل هذا، وقل: يا الله، واستغث بالله ربك، ووحّده وحدَهُ تُنصر[(٤)]، وقل: يا مالك يوم الدين، إيّاك نعبد وإياك نستعين». ثم ما زال يُقبلُ تارة على الخليفة[(٥)] وتارة على السلطان، ويُهدّئهما، ويربط جأشهما، حتى جاء نصرُ الله والفتحُ. وحُكي أنه قال للسلطان: «اثبُتْ، فأنت منصورٌ»، فقال له بعض الأمراء: «قل إن شاء الله تعالى»، فقال: «إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا»، فكان كما قال[(٦)].

وقد ساق الحافظ محمد بن عبد الهادي المقدسي في العقود الدريّة شهادةً لأحد أمراء الأجناد عن شجاعة الشيخ وبأسه عند قتال الكفار فقال: «ولقد

---

(١) وكذلك برزت مواقفه في وقعة كسروان بين المسلمين والباطنية النصيرية.

(٢) وهو السلطان المملوكي الملك الناصر.

(٣) ولما رأى تردد السلطان عن المجيء بالجيش من مصر ذهب إليه وقال: «إن لم تنصر أهل الشام فسنقيم لهم سلطانًا غيرك»، ورَغّبَهُ في الجهاد. ولما جاء السلطان قال له: «كُنْ معنا». فقال: «بل تحت راية أهل الشام، فالسنة أن يكون كل مقاتل تحت راية قومه». وانظر رسالة: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ للمؤلف.

(٤) فمع تجريد التوحيد وصدق التوكل والتوبة؛ لا يتخلّف النصر بإذن الله.

(٥) أمير المؤمنين الخليفة العباسي أبو الربيع سليمان المستكفي بالله.

(٦) مسالك الأبصار، للعُمري (٣٠٢-٣٠٣) والبداية والنهاية للحافظ العماد ابن كثير (١٤ / ٢٧-٣٢).

أخبرني أمير من أمراء الشاميين، ذو دين متين، وصدق لهجة، معروف في الدولة قال: قال لي الشيخ يوم اللقاء، ونحن بمرج الصفر، وقد تراءى الجمعان: «يا فلان، أوقفني موقف الموت!» قال: فسقتُهُ إلى مقابلة العدوِّ، وهم مُنحدرون كالسيل، تلوحُ أسلحتهم من تحت الغبار المنعقدِ عليهم. ثم قلت له: «يا سيدي هذا موقف الموت، وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك وما تريد».

قال: «فرفع طرْفَهُ إلى السماء، وأشخص بصره، وحرّك شفتيه طويلًا، ثمَّ انبعث وأقدم على القتال. وأمّا أنا فخُيِّلَ إليَّ أنه دعا عليهم، وأن دعاءه استجيب منه في تلك الساعة. قال: ثم حال القتال بيننا والالتحام، وما عدت رأيته، حتى فتح الله ونصر».

وقد كان شيخ الإسلام على رأس الوفد الذين ذهبوا لغازان في افتكاك أسرى المسلمين وأهل الذمة، وجرت له مع غازان أمور قام بها ابن تيمية كلّها لله تعالى متجرّدًا للحق لا تأخذه فيه لومةُ لائم، وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل. ولا أزكيه على الله تعالى.. ومن ذلك أنه قال لغازان(١): «أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاض وإمام، وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا، فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟ وأبوك وجدك كانا كافرين، وما غزوا بلاد الإسلام بعد أن عاهدونا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلتَ فما وفيت!».

---

(١) وكان هناك ترجمان يترجم كلام الشيخ.

ثم قرّب غازانُ إلى الوفد طعامًا فأكلوا إلا ابن تيمية، فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: «كيف آكل من طعامكم، وكلُّه مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه مما قطعتم من أشجار الناس!» وغازان مصغٍ لما يقول، شاخصٌ إليه لا يُعرض عنه، وبسبب ما أوقع الله في قلبه من الهيبة والإعجاب بالشيخ؛ سأل: «من هذا الشيخ؟ إنّي لم أر مثله أثبتُ قلبًا منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقيادًا لأحدٍ منه»، فأُخبر بحاله، وما هو عليه من العلم والعمل.

ثم طلب منه غازان الدعاءَ، فدعا الشيخ قائلًا: «اللّٰهم إن كان عبدك هذا إنما يُقاتل لتكون كلمتك هي العليا، وليكون الدين كلُّه لك؛ فأنصره وأيّده، وملّكه البلاد والعباد، وإن كان قد قام رياءً وُسمعة، وطلبًا للدنيا، ولتكون كلمته هي العليا، وليذلّ الإسلام وأهله؛ فاخذُلْهُ، وزلزله، ودمّره، واقطع دابره!» وغازان يُؤمّن على دعائه، ويرفع يديه. قال الشيخ الصالح الناسك الفقيه أبو عبد الله محمد البالسي - وكان من أصحاب وأحباب ابن تيمية -: «فجعلنا نجمعُ ثيابنا خوفًا من أن تتلوّث من دم ابن تيمية إذا أمرَ بقتله، فلما خرجنا من عنده قال كبير القضاة وغيره ممن كان معه: كِدْتَ أن تُهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا. فقال: وإني لا أصحبكم. فانطلقوا عصبة، وتأخّر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعت به الخواتين والأمراء أصحاب غازان فأتوه يتبرّكون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق، ووالله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمئة فارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه، فخرج عليهم جماعة من التتار

فشلّحوهم(١)»(٢).

أَلَا مَـنْ عَـذِيْرِيَ مِـنْ نُفُـوسٍ ... تَـنُجُّ بِسَـاحِنَا مَكْـرًا تَطَـامَى
يَرُوْمُـونَ الدِّيَانَـةَ بِانْتِقَـامٍ ... وَثَـارَاتٍ مِـنَ الصَّـحْبِ القُـدَامَى
لِثَـارَاتٍ أَزَالَـتْ آلَ كِـسْرَى ... وَأَلْحَقَـتِ المَجُـوسِيَّ اصْـطِلَامَا
تَغُـصُّ حُلُـوقُهُمْ مِـنْ ذِكْـرِ سَـعْدٍ ... وَسَـيْفِ اللهِ أَشْـبْعَهُمْ رَغَامًـا
إِلَهَ العَـالَمِينَ أَرِحْ فُـؤَادِي ... فَقَـدْ حَـزَّ النُّصَـيْرِيُّ العِظَامَـا
أَفَـاضَ الثُّكْـلَ فِي الإِسْـلَامِ غَـدْرًا ... وَقَـتَّلَهُمْ سُـجُودًا أَوْ قِيَامَـا
وَعَـاثَ الأَبْعَـدُ الأَطْغَـى زَمَانًـا ... وَأَكْثَـرَ فِي جَوَانِبِهَـا اليَتَـامَى
فَمُـرْ بِكَتِيبَـةٍ حَمْـرَاءَ تَشْـفِي ... صَـدُورَ الصَّـالِحِينَ دَمًـا سِـجَامًا
وَثَـنِّ إِلَهَنَـا بِصَـلِيْبِ كُفْـرٍ ... فَـدُقَّ عَمُـودَهُ الأَفْـرَى رُكَامًـا
وَثَلِّـثْ بِـالْيَهُودِ جُنُـودَ مِسْـخٍ ... هُـوَ الـدَّجَّالُ فَامْتَشِـقُوا الحُسَـامَا

(١) أي سلبوهم ثيابهم وما معهم.

(٢) البداية والنهاية (١٤ / ١٠١-١٠٤) ولشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة كتبها بعد وقعة شَقْحَب العظيمة ضد المغول في الشام، التي أبلى فيها المؤمنون بلاء حسنًا، وكان لابن تيمية فيها مواقف جليلة من اليقين والشجاعة والثبات وحسن الظن بالله، وحسن تثبيت المؤمنين وتذكيرهم بالله، وحثّهم على إحسان الظن بالله، وتحذيرهم من ظن السوء به تعالى وتقدّس. وقد شبّهها رَحِمَهُ ٱللَّهُ بغزوة الأحزاب وما فيها من عبرٍ للموحدين، وآياتٍ لله رب العالمين، حريّ بالمجاهدين في سبيل الله في زماننا أن يطّلعوا عليها، وينهلوا من معين عِلْمها الثرّ وحِكَمِها العالية، فقد جمع الله لهذا الإمام من العلم والفقه والعبادة ومقامات الجهاد والنصح والتجربة ما لا يجاريه أحد من عصره إلى عصرنا بشهادة الأكابر الأفذاذ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إِخَــالُ جُمُوعَنَــا والخَيْــلُ تَجْــرِي ... بِنَــا نَحْــوَ غُوطَتِهَــا الشَّــآمَا
سَــحَائِبَ جَنْــدَلٍ تَرْمِــي بِشُــهْبٍ ... عَــلَى الْكُفَّــارِ مِــنْ مَطَــرٍ حِمَامَــا
أوِ الْــرِّيْحَ الــدَّبُورَ جَــرَتْ بِــأَمْرٍ ... مِــنَ الجَبَّــارِ تَجْتَــثُّ اللِّئَامَــا
أَوِ اللَّيْــثَ الهِزَبْــرَ يَهُــوشُ جَــدْيًا ... فَهَــلْ يَسْــتَبْقِ لِلْجَــدْيِ السُّــلَامَى
أو النِّيــلَ الخِضَــمَّ يَسُــوقُ بَحْــرًا ... يَــدُكُّ عُرُوشَــهُمْ فَغَــدَتْ حُطَامَــا
فَــإِنْ شِــئْتَ البُطُولَــةَ صِــحْ بِقَــوْمٍ ... إِذَا كَــانَ الكَــلَامُ لَهُــمْ كِلَامًــا
أَصِــيحُ بَــأُدْهَمِي يَــاوَافِ أَقْبِــلْ ... فَــدُونَكَ مَنْهَــلٌ يُــرْوِي الزُّؤَامَــا
وَصَــلِّ إِلَهَنَــا فِي كُــلِّ حِــيْنٍ ... عَــلَى مَــنْ كَــانَ لِلْمِسْــكِ الخِتَامَــا

وغنيّ عن التنويه أنه ليسَ من الجهاد في شيء إرهابُ المسلمين ولا المعاهدين ولا ترويعهم ولا قتلهم، إنما ذلك من ضلال الغلاة، فضاع بعض قومي بين حريقِ الغلاة وجَلِيدِ القَعَدة.

كما أن سبب تشديد أهل العلم المعاصرين في اشتراط إذن الإمام للجهاد أمران:

الأول: حديث رسول الله ﷺ: «**إنما الإمامُ جُنَّة يُقاتَل مِن ورائه، ويُتّقى به**»(١). وهو حديث صحيح صريح. ويستثنى من ذلك الأحوال التي قررها أهل العلم أخذًا بنصوص أخرى خاصة وعامة.

الثاني: أنّ حال الجهاد ليس كالماضي في وضوح الأعداء وسلامة الرايات

---

(١) البخاري (٤/ ٦٠) ومسلم (٦/ ١٧).

ونحو ذلك، بل دخله مكر كُبَّارٌ عظيم من أعداء الإسلام، ولِمخابرات دول الغرب والشرق حضورٌ وتمكّنٌ في كثير من مفاصل الفِرَقِ المُعلنة للجهاد في سبيل الله لتحصيل أغراضهم الخبيثة؛ إما لكشف أفرادها وقياداتها غير التابعين لهم واغتيالهم، وإما بالتحكم في قراراتها وحَرْفِها عن مسيرتها الشرعية لأخرى على غير سبيل المؤمنين، فيستفيدون إضعاف كتائب الجهاد من جهة، وتفريق المسلمين بإشعال الخلافات والحروب بينهم من جهة ثانية، وتشويه سمعة الإسلام بإثارة شناعات التصرفات المنسوبة للمجاهدين من جهة ثالثة، في سيلِ مكرٍ كُبّار وَجَدَ مِن بعض جهلة المسلمين من يسعى فيه، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٥- ١٧].

والسعيد من اتعظ بغيره والشقي من وعظته نفسُه، وليس مكر الكافرين لأمة الإسلام بجديد، فالمكر الشيطاني بدسائس الظلام لم ينقطع منذ إشراق شمس الإسلام، فمن ذلك ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه[(١)] في سياق فتنة مقتل عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعدما كلّمَهُ المصريون وأقنعهم بصلاح الحال ووعدهم بالخير، قال: «ثم رجع الوفدُ المصريون راضين، فبينما هم في الطريق إذ براكبٍ يتعرّضُ لهم، ثم يفارُقهم، ثم يرجع إليهم، ثم يفارقهم ويسبّهم، فقالوا له: إنّ لك لأمرًا، ما شأنك؟ قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه

(١) مصنف ابن أبي شيبة، ترقيم عوامة (٣٨٨٤٥).

فإذا بالكتاب على لسان عثمان عليه خاتمه، إلى عامل مصر أن يقتلهم، أو يقطع أيديهم وأرجلهم». وبكل حماقة صدّقوه مع علمهم بسهولة التزوير وبِقَسَمِ أمير المؤمنين ببراءته من ذلك. وهو البر الصادق. ، ولكن لا مردّ لقضاء الله والحمد لله على كل حال، فلم يبرح أهلُ الفتنة عنه حتى قتلوه على مصحفه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، وما أكثر تكرار هذه المأساة عبر تاريخنا، فهل لنا من قلوب تعقل، والله المستعان.

ولا أعلم منذ ابتداء الإسلام عصرًا شُوِّه فيه مفهوم القتال في سبيل الله كزماننا، لأن المنافقين والكفار قد وجدوا من أخطاء المجاهدين وضلال المنسوبين إليهم مادّة خصبة جاهزة لتشويه هذه الشعيرة الربانية العظيمة.

إنّ الجهاد ذروة السنام وباق حتى آخر أنفاس المؤمنين، ولكنه الابتلاء، والمؤمن وقّافٌ متبيّن. وفرضُ الوقت حراسةُ ثغور الأمة، والبناء بلا يأس ولا قنوط. وسُنَّةُ المدافعة باقية مادام على الأرض مؤمن، والمؤمن يعمل بحكمة وصبر، ويتفاءل بألطاف الله تعالى. والمؤمن الموفق هو المتفائل دومًا بنصر الله وتوفيقه لأهل الحق مهما كانت معطيات الواقع سلبية وبائسة. ولا تقل كيف، ولكن تدبر سنن الله ينشرحْ صدرُك.

ورجع بنا القول الجميل للسلفية: إنّها السلفية نور ونار: حتى في الحِجَاجِ والجدل والمناظرة، فلِلسّلفيّة السبقُ والظفرُ والغلبةُ، واسألْ مَحَكَّات المناظرات المشهورة، كعبد العزيز الكناني مع بشر المريسي، وابن تيمية مع البطائحية، أو مناظراته لعلماء السوء حين امتحنوه في عقيدته الواسطية، أو مناظرات تلميذه

ابن عبد الهادي مع السبكي في الصارم المُنكي، أو عبد الرحمن بن حسن مع داود بن جرجيس وعثمان بن منصور، إلى كثير من مناظرات أئمة الدعوة مع خصومها. فالمُنَاظرُ السلفي غير محتاج لتمحّل ولا اعتذار، إذ يكفيه بيان الحق كما هو، ثم هو ينساب بلطف الله في خلجات النفوس التّواقة للهدى والحق. ثم تأمّل الحركات الإصلاحية على اختلاف مشاربها، ترى أن الوقود المحرّك لها هو يقينها بمركزيّة الوحي وسلامة طريقته، وهل هذا إلا محضُ السلفية.

وتأمل هذه المناظرة العميقة معانيها، المتينة قواعدها، القاطعة للحجاج براهينها، وهي صالحةٌ لمناظرة كلّ مبتدع في كل بدعة، قال الخليفة العباسي المهتدي بالله: «ما زلتُ أقول: إنّ القرآن مخلوقٌ صدرًا من خلافة الواثق، حتى أقدم علينا(١) أحمدُ بن أبي دؤاد(٢) شيخًا من أهل الشام من أهل أذنة(٣) فأُدخل الشيخ على الواثق مقيّدًا، وهو جميل الوجه، تامُّ القامة، حسن الشيبة. فرأيت الواثق قد استحيى منه، ورقّ له، فما زال يُدنيه ويقرّبه، حتى قرب منه، فسلّم الشيخ فأحسن السلام، ودعا فأبلغ الدعاء وأوجز، فقال له الواثق:

---

(١) وإذا أراد الله أمرًا هيّأ له أسبابه، فهذا الشيخ الجليل الذي استدعاه ابن أبي دؤاد للمناظرة بين يدي الواثق هو من هتك ستر شبهته، ولا تخلُ الأرض من قائم لله بحجة.

(٢) من رؤوس الاعتزال، وهو كبير القضاة ورئيسهم، ورأسُ بدعة القول بخلق القرآن، وانتهى به الحال بأخرةٍ إلى شرِّ حال. وكان قد آذى العلماء وحمل كِبَر فتنتهم في عهد المأمون والمعتصم والواثق، وأفتى الخليفة بقتل الإمام أحمد حتى أجلى الله تعالى الغمة ورفع المحنة في عهد المتوكل.

(٣) والرجل المذكور هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الأذرمي شيخ أبي داود و النسائي.

اجلس. ثم قال له: يا شيخ، ناظِرْ ابن أبي دؤاد على ما يناظرك عليه[١]. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، ابن أبي دؤاد يقلّ ويضيق، أو يضعف عن المناظرة. فغضب الواثق، وعاد مكان إكرامه له غضبًا عليه، فقال: أبو عبد الله بن أبي دؤاد يضيق أو يقل ويضعف عن مناظرتك أنت!

فقال له الشيخ: هوّن عليك يا أمير المؤمنين ما بك، وائذن لي في مناظرته. فقال الواثق: ما دعوتك إلا للمناظرة. فقال الشيخ: يا أحمد بن أبي دؤاد، إلامَ دعوتَ الناسَ ودعوتني إليه؟ فقال: إلى أن تقول: القرآنُ مخلوقٌ، لأنّ كل شيء دون الله عز وجل مخلوق. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، إن رأيتَ أن تحفظ عليّ ما أقول، وعليه ما يقول. قال: أفعَلُ.

فقال الشيخ: يا أحمد، أخبرني عن مقالتك هذه، أواجبةٌ داخلةٌ في عَقْدِ الدين، فلا يكون الدينُ كاملًا حتى يُقالُ فيه ما قلتَ؟ قال: نعم. فقال الشيخ: يا أحمد، أخبرني عن رسول الله ﷺ حين بعثه الله عز وجل إلى عباده، هل أسرَّ[٢] رسول

---

(١) وكما أنّ للحق دولة فللباطل كذلك، ابتلاءً وامتحانًا من الله تعالى، لكنها فتنة لا تدوم، وغلبة لا تستمر.

(٢) أي كتم، وهذا إلجام للخصم وإفحام، لأنه إن أجاب بالإيجاب كفر، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ وإن أجاب بالنفي خُصِم، لأنه يعلم أن مقالته بخلق القرآن لا دليل عليها، فاختار السكوت المطبق لعلمه أنّ الخليفة طالبُ حقٍّ وتابعُ دليلٍ.

الله ﷺ شيئاً مما أمره الله عز وجل به في دينه؟ قال: لا[١]، قال الشيخ: فدعا رسول الله ﷺ الأمة إلى مقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي دؤاد، فقال الشيخ: تكلّم، فسكت، فالتفت الشيخ إلى الواثق، فقال: يا أمير المؤمنين، واحدة، فقال الواثق: واحدة.

فقال الشيخ: يا أحمد، أخبرني عن الله عز وجل، حين أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] أكان الله عز وجل الصادق في إكمال دينه، أم أنت الصادق في نقصانه، فلا يكون الدين كاملًا حتى يُقال فيه بمقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي دؤاد، فقال الشيخ: أجب يا أحمد، فلم يجبه. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين اثنتان، فقد الواثق: اثنتان.

فقال الشيخ: أخبرني عن مقالتك هذه، أَعَلِمَها رسول الله ﷺ أم جهلها؟ فقال ابن أبي دؤاد: علمها[٢]. فقال الشيخ: فدعا الناس إليها؟ فسكت ابن أبي دؤاد[٣]، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين ثلاث، فقال الواثق: ثلاث.

فقال الشيخ: يا أحمد، فاتّسع لرسول الله ﷺ إذْ عَلِمَها كما زعمتَ، ولم

---

(١) وعند ابن كثير في تاريخه – أو غيره – أنه قد عدّ عليه الأولى هنا – وقد سكت –. قلت: وهي الأظهر؛ لأن في سياق الآجري تكرار الأولى والثالثة، والله أعلم.

(٢) لأنّه لو قال: جهلها، لكفر بادّعائه علمًا في الشرع عَلِمَهُ دون رسول الله ﷺ.

(٣) سكت لأنه سيطالبه بدليلها لو أجاب بالإيجاب، وسيطالبه بالكف عنها لو أجاب بالنفي.

يُطالب أمتَه بها؟ قال: نعم، فقال الشيخ: واتّسع لأبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ؟ فقال ابن أبي دؤاد: نعم.

فاعرض الشيخ عنه، وأقبل على الواثق، فقال: يا أمير المؤمنين، قد قدّمتُ لك القولَ إن أحمد يضيق ويقلّ ويضعف عن المناظرة. يا أمير المؤمنين، إن لم يتّسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما اتّسع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر ولعمر وعثمان وعلى رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، فلا وسع الله على من لم يتّسع له ما اتّسع لهم من ذلك. فقال الواثق: نعم، إن لم يتّسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة ما اتّسع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلى رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، فلا وسّع الله علينا، اقطعوا قيد الشيخ، فلما قطعوه، ضرب الشيخ بيده إلى القيد ليأخذه فجذبه الجلاد عليه، فقال الواثق: دع الشيخ ليأخذه، فأخذه الشيخ فوضعه في كمّه[١]، فقال الواثق: لم جابذت[٢] عليه؟ فقال الشيخ: لأني نويت أن أتقدّم إلى من أوصي إليه إذا متّ: أن يجعله بيني وبين كفني، حتى أخاصم هذا الظالم عند الله عز وجل يوم القيامة، ثم أقول: يا رب، سل عبدك هذا، لم قيّدني وروّع أهلي وولدي وإخواني بلا حق أوجب ذلك علي؟ وبكى الشيخ وبكى الواثق فبكينا، ثم سأله الواثق أن يجعله في حل وسعة مما قال. فقال الشيخ: والله يا أمير المؤمنين، لقد جعلتك في حل وسعة من أول يوم، إكرامًا لرسول

(١) هو ما يسمى الآن بالجيب.

(٢) الجذب والجبذ كلاهما بمعنى، والجذب أشهر، ولعلها الأصل.

الله ﷺ، إذ كنت رجلاً من أهله(١). قال المهتدي بالله رحمة الله تعالى عليه: رجعتُ عن هذه المقالة منذ ذلك اليوم، وأظن الواثق بالله كان قد رجع عنها من ذلك الوقت»(٢).

* إن الطعن في السلفيّة هو طعن في الإسلام، ولا يلزم من ذلك إخراج من لم ينتسب إليها منه، فمن أسلم فهو المسلم حتى وإن قصّر في بعض شُعَبِ الإسلام والإيمان.

فالسلفية معناها: التزام طريقة السلف الصالح من الصحابة والتابعين في المعتقد والعمل والأخلاق، والبراءة من البدع والمحدثات. فمن كان مسلمًا حقًّا فهو سلفي تبعًا حتى وإن لم يقل إنه سلفي، فالانتساب للإسلام كافٍ وافٍ، بل هو الأصل ولا يَحْسُنُ العدول عنه لغيره بلا مسوّغ شرعي، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] وإنما يُذكر مصطلح السلفية ليميز أتباع السلف الصالح من منتسبة البدع، ففي بعض البقاع يختلط على الناس الحق بالباطل والسنة بالبدعة وكلهم ينتسب للإسلام؛ فاحتاج أهلُ السنة لِلَقَبٍ يميز من انتسب إلى السنة ظاهرًا وباطنًا عمّن يَنسِبُ نفسَه لغير سبيلها من أتباع رؤوس البدع. وبسبب نقاء العهد النبوي لم يحتج الصحابة لمسمًّى غير الإسلام.

---

(١) لأنّ الواثق من بني العباس وهم من آل البيت النبوي الكريم.

(٢) الشريعة للآجري (١ / ٨٨ -٩١).

فعاد بنا الأمر إلى أن الإسلام هو الأصل مُسمّى وانتسابًا، وأما السلفية والسنة والجماعة وأهل الحديث ونحو ذلك فإنّما تُستخدم حال الحاجة إليها عند الخوف من اشتباه الأمور واختلاط السنن بالبدع، فهو تخصيصُ تفضيلٍ عند الازدحام، وليس إخراج غيرهم من الملّة بالتلقُّب.

فدفعًا لعادِيةِ من يصول بهُجْرِهِ: إنك تتكلم عن السلفية كأنما حصرْتَ الإسلام فيها، وأخرجْتَ مَنْ عَداها من الدين، أقولُ: إنّ كلّ ما يقال عن الإسلام فإنه يقال عن السلفيّة، فأهلُ القبلة هم من السلفية إجمالًا، فمَن شهد الشهادتين وصلّى فله نصيبه من السلفية «الإسلام والإيمان» وعلى قدر تكميله لإسلامه يكون تكميله لسلفيّته، فالمصطلح والمسمّى لا يغيّر من الحقيقة شيئًا. وإن ادّعاهُ من شاء من منتحلة المسميّات والمباني دون الحقائق المعاني..

إنّما احتاج العلماء أن يفرزوا مَنْ عَظّم أمر التوحيد والاتّباع عمَّن تساهل من المسلمين، فقالوا: إنّ من سَلِمَ معتقدُه وكان صاحب سنّة فهو سلفي، بمعنى أنه مسلم مستمسك بالإسلام وبخاصة في الأصول. وبهذا مايزُوا السنّي عن المبتدع، وإن كانت البدع ليست على دَرَكٍ واحد، ففيها البدعُ المسلكيّة، وفيها البدع المخرجة عن ملّة المسلمين، وفيها ما بين ذينك.

إنّ الإسلام هو السلفية، بمعنى أن من أراده غضًّا طريًّا كما أُنزل؛ فليتديّن لله بها، فهي الإسلام العريق العتيق التليد. وعلى قدر قُرْب المرء من السلفية يكون قربه من الإسلام، ولا يعني هذا كفر مخالفيها، ولكنهم ليسوا بأنقياء كنقاء من دخل في السلم كافّة، فالسلفية نقاء معتقد، وصفاء تصوّر، وحسنُ

أخلاق، وشمولية رسالة.

نقاء معتقد: لم يتلوّث بخرافات أممِ الأوثانِ، وأساطير الكهان، ومسالك الطُّرُقيّة، وقرمطات الباطنية، وسفسطات الفلاسفة وأفراخهم من المعتزلة وأهل الكلام، وجحودِ ملاحدة الزمان. كما قد سلمت صدورهم على أمّتهم وبخاصة آل الرسول ﷺ ومنهم أزواجه وصحابته الكرام ﷺ ورضي عنهم.

صفاء تصوّر: وانسجامٌ بين الطارف والتليد، وبين الدنيا والآخرة، وبين الجسد والروح، وبين الواقع والمأمول. تصوُّرٌ صاغَهُ الوحي الإلهي الذي من اتبّعه فمعه الهدى بحذافيره.

تصوّرٌ لم تفسده حياةُ العربدة الغربية والشرقية، ولم يُبهر أهلَه تقدّم مصانعهم على المسلمين في دقائق التقنية وأحجام الصناعات والبطش الحديدي، ولم تُغبِّش علمَهم تياراتُ الفكر الطيني الحاكي طفولة عقول البشر، ولا صيحات الإلحاد والتناسخ واليوجا، وبهرج السياسات التي عن وحي الله بمعزل. تصوّر صاغَهُ العلمُ الصحيح، وأنضجه التدين السليم، وزكّاه العمل الصالح، قال رسول الله ﷺ: **«بَشّر هذه الأمة بالسناء، والرفعة، والنصر، والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب»**[١].

(١) رواه أحمد في مسنده بسند حسن (٢١٢٢٢) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١ / ٦) (٢٣).

حسنُ أخلاق: يحبون للناس ما يحبونه لأنفسهم، يودّون لو هدى الله بهم البشر من الضلالة، ونوّر بهم بعد الظلام، في لطف وسماحة ورفق وتيسير وبِشْر وطلاقة وجه وحسن منطق، ومن خرج عن حُسْنِها فهو المُلام لا هي.

شمولية رسالة: فلها صفةُ الشمول والثبات والتطور، فشاملة إذِ استوعبتِ الدين والدنيا، وثابتةٌ بمبانيها ومبادئها ومسلّماتها وقيمها، متطوّرة مرنةٌ في كل ما خلقه الله للمؤمنين، وامتنَّ به عليهم، وسَخّرَهُ لهم مما في السماوات وما في الأرض.

لا يجدون غضاضة في قبول كلّ ما تقذفه المدنيّة من تسهيلِ عمارةِ الإنسان أرض الله وخلافته فيها، وإن اتّصفوا بالرويّة والأناة والحكمة والصواب عند الحكم على ما استُحدِث من تلك المدنيّة، وذلك لنفوذِ بصيرتهم في المآلات إذ نظر الأغرار للبدايات.

❀❀❀❀

أسبابُ التفرّق

قال جل شأنه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦] قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر الله أن ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سببٌ للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرّق الذي أطمع فيهم الأعداء، وجعل بأسهم بينهم»(١). فالتفرّق شرّ والاجتماع خير. وللتفرّق أسباب:

* منها: آكِلُ الحسناتِ: الحسدُ، فكثير من نعرات الشقاق سببها الخفي حسدٌ كامن في الضمائر، مستتر عن الظواهر، ولكن تشمّه الأرواح، وتستوحشه النفوس، ويُظهره الخذلان، ويُختم بسوء العاقبة والحرمان. والحاسد معترض على قدر الله تعالى بحاله، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ﴾ [النساء: ٥٤] وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «ألا لا تُعادوا نِعَمَ الله»، قيل: ومن يعادي نعم الله؟ قال: «الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله».

أيـــا حاســـدًا لي عـــلى نعمتـــي ... أتـــدري عـلى مـن أسـاتَ الأدب
أســـأت عـــلى الله في حُكْمِـــهِ ... لأنّـــك لم تـــرضَ لي مـــا وهـــب

---

(١) تفسير السعدي (١ / ١٢٦).

والحسد والكبر خصلتا إبليس، ومطيّتاه لغزو قلوب العباد، ولو رُفع الحسدُ من الأرض؛ لأغلقت المحاكم أبوابها. والحاسد شقيٌّ مكلوم مهموم، قال عمر بن عبد العزيز: «لم أَرَ ظالمًا أشبه بالمظلوم من حاسد». فالحاسد سقيم غَمِّهِ وقتيل هَمِّهِ، وذكروا عن الإمام الشافعي قوله: «إن سمعت بسفينة تمشي على الرمل فصدّق، لكن إياك أن تصدّق أن حاسدًا يبيتُ قرير العين». وقال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «يكفيكَ من الحاسد أنه يغتمّ وقتَ سرورك». وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمة الله تعالى علينا وعليه: «تَصِلُ إلى الحاسد خمسُ عقوبات قبل أن يصل حسدُهُ إلى المحسود: غَمٌّ لا ينقطع، ومصيبةٌ لا يُؤجرُ عليها، ومذمّةٌ لا يُحمدُ عليها، وسَخَطُ الربِّ، ويُغلق عنه باب التوفيق». وقال الأصمعي: «رأيتُ أعرابيًّا قد بلغ عمرُه مئةً وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك، فقال: تركتُ الحسدَ فبقِيتُ». كما قيل: قاتلَ اللهُ الحسدَ ما أعدلَهَ، بدأَ بصاحبه فقتله. وقال عبد الله بن المعتز:

اصــبرْ عــلى كيــدِ الحســودِ فــإنَّ صــبرَكَ قاتِلُــه
فالنــارُ تأكــلُ بعضــها إنْ لم تجــدْ مــا تأكلُــه

ولا يسكنُ الحسدُ إلا قلبَ وضيعٍ، ولا يتمكنُ إلا من نفسٍ خسيس، فأما المؤمن فيردُّه إيمانه ويحجُزُه ورعه، وأما العاقل فيُثْنِيهِ عقلُهُ، وأمّا الشريف فيستحيي لشرفِهِ. وقيل لبعضهم ما بالُ فلانٍ يبغضك؟ قال: «لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة»، فذكر جميع دواعي الحسد. ومن الخطأ أن تطلب ألّا تُحسد، فلكل نعمة حاسد.

إنَّ العَــــرَانِينَ تلقاهَـــا مُحَسَّـــدَةً ولا تَــرَى لِلئَــامِ النــاسِ حُسَّــادًا

فعليك أخي المؤمن بالنّصح لكل مسلم ومحبة الخير له، وإياك والحسد، فلتفر منه فرارك من الأسد، وفي ظني أن أكثر سيئات القلب واللسان والجوارح الغضبية كالحقد والوَحَرِ والبغضاء والغيبة والنميمة والبغي والعدوان ونحوها فمردُّها للحسد، فاقطع عروق الحسد من أصلها تسلم لك شجرة إيمانك من دغائل السوء ودخائل الشر، وأبشر ببشرى الله لك: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فإياك والحسد، فإنه آكل الحسنات، فيأكلها كما تأكل النار الحطب، وموبِقُ إبليسَ في أسحقِ الدركات، وهو أوَّلُ ذنبٍ عُصيَ اللهُ به، واعلم أنه لا يجتمع في قلبٍ حسدٌ مع حبِّ الخيرِ للناس، فلا بدَّ لأحدهما أن يُزيحَ مكانَهُ أو بعضَهُ للآخر. فاغسِلْ قلبك من حوبات الذنوب، وطهّر صدرك من نجاسات الأحقاد والشحناء ولوْثات الحسد والبغضاء. ومن توكل على ربه وفوض إليه أمره أوشك أن يصل لتوفيقه ورضوانه بإذنه تعالى ورحمته، فليس مع الرحمن يأسٌ.

ومن شرّ آثار الحسد: العين والسحر. ويشتكي كثير من الناس في هذا الزمان كثرةَ انتشارِ العين والسحر، وسببُ البلوى بُعدُ أكثرهم عن ذكر الله تعالى من جهة التحصين في الابتداء، ومن جهة العلاج في الانتهاء، فالذكر حصنٌ حصين بإذن الله جل وعلا، وفي الحديث عن يحيى عليه السلام:

«وَآمرُكم بِذِكْرِ الله كَثِيرًا، وإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رجُلٍ طَلَبَهُ العَدوُّ سِرَاعًا في أَثَرِهِ، فَأَتَى حِصنًا حَصِينًا فتَحَصَّنَ فيهِ، وإِنَّ العَبدَ أَحصَنَ ما يَكُونُ من الشَّيطانِ إِذا كان في ذِكرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ»(١).

وإنه لعجيب غامض أمرُ الأرواح، ولها آثار يحسّ بها كل حيّ. والواجب أن تكون الأرواحُ عامرةً بذكر الله، والبيوتُ كذلك، وأن يتلى فيها القرآنُ وبخاصةٍ سورةُ البقرة، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: **«اقرءوا سورةَ البقرة فإن أخذها بركةٌ وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة»**(٢). أي السحرةُ والكسالى. والمؤسف أن بعض المسلمين استبدلوا ذكر الله في بيوتهم بمعاصيه، فأمست بيوتُهم جلابةً للشياطينِ والشرّ، لا الملائكةِ والخير.

إذن فلا بد من التحصّن أولًا وتحصينِ الأولاد كذلك، فقد كان رسول الله ﷺ يعوّذُ الحسنَ والحسين: **«أعيذُكما بكلمات الله التامّة من كل شيطان وهامَة، ومن كل عينٍ لامّةٍ»** ويقول: **«إنّ أباكما كان يعوِّذُ بها إسماعيل وإسحاق»**(٣).

أما من ابتلي بمرض أو مسّ أو عينٍ أو سحرٍ فعليه بالتالي:

أولًا: الرضى بمُرّ القضاء، فمن آمن بالله ربًّا؛ رضي بمقاديره عليه، وتيقّنَ

---

(١) أحمد (١٧٨٠٠) بسند صحيح.

(٢) مسلم (١٩٧/٢).

(٣) البخاري (١٧٨/٤) (١٩١).

أنّه يتقلّب في قدرته وحكمته ورحمته ولطفه، وأنّه منتظر الفرجَ في الدنيا والأجرَ في الآخرة.

ثانيًا: الإلحاح على الله تعالى في الدعاء، فهو من أنزل الداءَ وهو وحده القادر على رفعه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧]. والتوحيد والتوكّل والدعاء هي أعظم علاج بإذن الله، قال ربنا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه عما سواه.

ثالثًا: الرقية الشرعية بالقرآن وبما صح من أدعية رسول الله ﷺ. وقد قال الله تعالى عن القرآن: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحشر: ٢١] فكيف بلحم ودم وروح.

واعلم أن القرآن شفاءٌ لكل مرض بلا استثناء: جسديًّا كالحمى والسرطان أو روحيًّا كالعين والسحر. ولكن لا بد أن تتيقّن من أنّ القرآن شفاء، لا أن تأخذه على سبيل التجربة، والله تعالى قد قال في كتابه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] فقد وصفه بالشفاء المُوجِب للعافية بإذن الله، ولم يصفه بالدواء الذي قد ينفع وقد لا ينفع، فالقرآن كله شفاء، وبعضُ آياته أبلغُ في الشفاء كالفاتحةِ وآيةِ الكرسي والمعوِّذات. ومن استطاع أن يقرأ البقرة ستينَ ليلةً أو أكثرَ ففيها خير كثير وشفاء بإذن الله، وقد رأينا حمدَ ذلك من كثيرٍ ممّن لزموا سورة البقرة؛ فانكشفت أدواؤهم من سحرٍ وعين وسرطان وغيرها.

والأفضلُ والأكمل أن يرقيَ المريضُ نفسَه فهي أبلغ وأقوى وأخلص.

ومن صفات السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب أنهم «**لا يسترقون**»[(١)]. أي لا يطلبون الرقية من غيرهم بل يرقون أنفسهم.

ومما جُرّب نفعه وجاز استعمالُه أن تؤخذ سبعُ ورقاتٍ من سدرٍ أخضر فتدقُّ بين حجرين ثم يصب عليها الماء. والأفضلُ أن يكون زمزم. ويُقرأُ فيه بالفاتحةِ وآيةِ الكرسي والإخلاص والمعوِّذات وآياتِ السحر، ثم يشربُ المسحورُ منه ثلاثَ جُرْعات ويغتسلُ بالباقي. وقد كان ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوصي بها كثيرًا، وقال: «وقد جُرّب هذا كثيرًا ونفع الله به، وقد فعلناه مع كثير من الناس فنفعهم الله بذلك، فهذا دواء مفيد ونافع للمسحورين»[(٢)].

وتذكّر أنه لا يجوزُ أن يُحَلَّ السحرُ بسحرٍ مثله، واللهُ تعالى لم يجعل شفاء الأمةِ فيما حُرِّم عليها.

ولِمَنْ يبيعُ دينَه بالذهاب للسحرة: اعلم أن السحر كفر وشرك، والسحرةُ لا يصِلون لمبتغاهم إلا بعد أن يشركوا بالله ويعبدوا الشياطين التي تخدُمهم إن عبدوها، واعلم أن من ذهب إلى السحرة ليطلبَ منهم السحر فهو كافر مشرك

---

(١) البخاري (٦٤٧٢).

(٢) فتاوى نور على الدرب لابن باز (١ / ٢٠٦) وهي مأخوذة عن وهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ذكر ذلك ابن بطال في شرح صحيح البخاري (٩ / ٤٤٦): «في كتب وهب بن منبّه: من استطاع أن ينفع أخاه، فليأخذ سبع ورقات سدرٍ أخضر، فيدقّه بين حجرين، ثم يضربه بالماء، ويقرأ آية الكرسي، وذوات (قُلْ)، ثم يحسو منه ثلاث حسوات، ثم يغتسل به؛ فإنّه يذهب عنه ما كان به، وهو جيّد للرجل المحبوس عن أهله».

عند بعض العلماء، لأنه أعانهم على الكفر والشرك، فالأمر خطير جدًّا. ولا بارك الله في غيظ أو غضب أو عشق أو شيء من الدنيا يكون حفرةً وسردابًا للخلود تحت أطباق الجحيم، فأدرك نفسك وتب قبل أن تسلم الروحَ فجأة، فيُغلق دونك الباب فتبوء بالخسران المبين، ولات حين مندم.

وأقولُ للعائن: اتق الله في نفسك الحسود، لا تؤذي الناس بعينك الظالمة، واجعل ذكرَ الله على لسانك، وكلَّ ما أعجبك شيء فقل: تبارك الله، وطهِّر على المدى قلبَك من آفة الحسد، فالروح الطيب والقلب الطاهر ليس بحاسد.

* ومن أسباب التفرق: الذنوبُ التي تجرّ ذنوبًا أخرى وحتوفًا لِلَظَى، وتُقسِّي القلب، وتُحمِي أَنَفَةَ العزَّة بالإثم. ومرضُ القلب هو مُقدِّمةُ موته، وبريد نعيه، ورسول وفاته، إلا أن يتداركه الله برحمة منه، فكثرة الخُطى إلى الخَطأ مؤذنةٌ بكسر بنيان الخير بعد ثباته، وهدمه بعد عمارِه. وكم من منكبٍّ على ذنب يَعجبُ أن الله لم يعاقبه به، جاهلًا عقوبته الكبرى بخذلانه عن التوبة والانجرار لذنوب أخرى ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ﴾ [التوبة: ١١٥] وإنّ من عقوبة السيئةِ السيئةَ بعدها.

فاهتف لنفسك الأمارة كلما أطمَعتك أو خوّفتك بقول ربك الأعلى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣] فهو حقًّا الشعار العاصف بكل شهوة والمبدّد لكل مخافة. والله تعالى يعاتبنا بقوله العظيم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ

﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦- ١٧]. قال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو كانت الدنيا ذهبًا يفنى، والآخرة خزفًا يبقى؛ لكان على الحازم العاقل إيثار الخزف الباقي على الذهب الفاني، كيف والدنيا خزفًا يفنى والآخرة ذهبًا يبقى»! وتأمل الجهة المقابلة: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٣] نعوذ بالله من أسباب غضبه وعقابه. واعلم أن أشدّ الحرام أوّله، ثم يزول حاجز المراقبة فتستسيغه النفس الأمّارة، وتألفه حتى يُطبع على القلب به، ويغلفُ القلبَ رانُه، فيبحث عن حرام آخر! ومن وصايا الصالحين: «إذا دعتك نفسك لمعصية فحاورها حوارًا لطيفًا بهذا الإيجاز الربّاني: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ١٥]». اللّهم أيقظنا اللّهم أيقظنا، إله الحق.

والدنيا بلا إيمان خراب بلقع، مهما تعطّفت ملذاتها، واشمخرّ ترفها، أما الإيمان فهو السبيل الوحيدُ الموصل لطيب العيش وسكينة الأبد وسعادة الخلود. وتذكّر أن الذنوب جراحات، ورب جرح وقع في مقتل.

وإنّ الدنيا بطمعها وشدتها فانية نافدة، أما الذي عند الله من أجرٍ ورضوانٍ وجنة وكذلك من نار وعذاب؛ فهو الباقي الذي لا نفاد له، ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ [النحل: ٩٦].

تَفنى اللَـذاذَةُ مِمَّن نـالَ صَـفوَتَها ... مِـنَ الحَـرامِ وَيبقـى الإِثـمُ وَالعـارُ
تُبقــي عواقِــبَ سُــوءٍ في مَغَبَّتِهــا ... لا خَـيرَ في لَـذة مِـن بَعـدِها النـارُ

واعلم أنّ إزالة وَضَرِ الخطيئة وأثرِ العصيان يحتاج لوقت طويل، وليس كما يُظن من أنّ التوبة تعيد القلب فورًا كما كان، فالقلب ـ الذي هو وعاءُ

الإيمان. قد خُدش أو طُعن بحسَب نوع وقدر الخطيئة، فبعض الخطايا يحتاج ترميم إيمان القلب بعدها لزمن طويل. ومعنى «التوبة تجبّ ما قبلها»: أي يُمحى الإثمُ من الصحيفة، ولكن هذا لا يعني بقاء القساوة والظلمة في القلب وقتًا قد يمتدّ العمر كله عياذًا بالله تعالى. فاحذر الخطيئة مهما صغرت، وسارع للإقلاع عنها قبل أن تطول جذورها في قلبك، فكلما طالت جذورها صعب اقتلاعها بالتوبة أولًا، ثم صعب التخلص من آثارها السيئة آخرًا حتى بعد رحيلها.

والإغراءات الخاطئة لا يسلم منها أحد، لكن الفارق يكمن في الاستسلام لها أو هزيمتها.

وكم نحتاج إلى مراجعة التوبة وتعاهدها وتصحيحها وتنظيفها، قال ابن تيمية: «العبد إنما يعود إلى الذنب لبقايا في نفسه، فمتى خرجت من قلبه الشبهة والشهوة لم يعد إلى الذنب»(١). وقال: «تخليص الأعمال مما يفسدها أشدّ على العاملين من طول الاجتهاد، وهذا مما يبين احتياج الناس إلى التوبة دائمًا، ولهذا قيل: هي مقام يستصحبه العبد من أول ما يدخل فيه إلى آخر عمره»(٢).

وقد يوفق الله تعالى عبدهُ لتوبة خاصة عظيمة تبني قلبَهُ بناءً كليًّا جديدًا كأنه لم يقارف معصية قط، كحال كثير من الصحابة وعظيم إيمانهم الذي لن

---

(١) جامع المسائل (٧/ ٢٨٠).

(٢) الفتاوى (١١/ ٦٨٨).

يلحق به من بعدهم، وكتوفيق الله لبعض التائبين الذين حفر الندم في قلوبهم أخاديد عميقة، وأجرى من عيونهم جداول غزيرة، فهم يتمنّون بصدق .لعظيم ندمهم . أنهم لم يُخلقوا حتى لا يزلّوا تلك الزلة التي كوت قلوبهم وأحرقت وجوههم حياء من ذي الجلال والإكرام سبحانه، ولكن من يُوفَّقُ لمثل هذا!

ولا يحزنك الشرُّ المستشري فالهلكى أكثر من الناجين، ولا تنظر للهالك كيف هلك ولكن انظر للناجي كيف نجى، وعليك بالصدق مع الله ولو كنت في الطريق إليه وحدك، وتدبر قول ربك الأعز الأكرم: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

وتبقى في القلب أشياء يودُّ المرءُ أنها لم تَكُن، ومواقف يتلهّفُ لإعادة ترتيبها، وأنفاسٌ يتمنى رجوعها، ولكن هيهات، أبى الله أن يجعل الدنيا راحة. وإنّ إكسير السعادة حقًّا هو في تلك اللحظة التي كَسَرْتَ فيها قلبَكَ لخالقك وناجيته مبتهلًا منطرحًا، قد خلا قلبك مما سواه. ومهما كان ذنبك فمغفرة ربك أكبر، ومهما كانت طاعتك فرحمة ربك أرجى.

وما كنتُ أدري قبلَ عزَّةَ ما البُكا ولا مُوجِعاتِ القلبِ حتّى توَلَّتِ

وحسن الظن هو الرجاء بثقة، فمن كان رجاؤه جاذبًا إلى الطاعة، زاجرًا

عن المعصية؛ فهو رجاء صحيح، ومن كانت بَطالتُهُ رجاءً، ورجاؤُه بَطالةً وتفريطًا؛ فهو المغرور. قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إنّ المؤمن يرى ذنوبه كأنّه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإنّ الفاجر يرى ذنوبَه كذُبابٍ طار على أنفه، فقال به هكذا». وأنسٌ يقول: «إنكم لتعملون أعمالًا هي في أعينكم أدقُّ من الشعر كُنّا نعُدها في عهد رسول الله ﷺ من الموبقات».

وتدبر قول الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وكيف كرر هذه الجملة ثمان مرات، والله تعالى يكرر الآية بلفظها تنبيهًا لعظمة معناها وتنويهًا بشأنها، وقد نبّهنا تعالى لتدبر اسميه العظيمين (العزيز الرحيم) فلماذا قرنهما في هذا الموطن؟ من الحِكَم ـ والله أعلم ـ أن العزّة يناسبها العقوبة والعذاب، أما الرحمة فيناسبها العفو والمغفرة، فابتدأ بذكر العزّة ترهيبًا وإيقاضًا، لكنه ترهيب ينتهي لعفو ورحمة بإذن أرحم الراحمين، فلا يهلك عليه إلا هالك. وبعد هذه المواطن الثمان أكدها في موضع تاسع بصيغة مختلفة هائلة فقال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾ فكانت نعم الخاتمة لما سبقها. مع التنبيه إلى أن المواطن الثمان كانت بعد بيان مصارع الأمم المكذبة مما يدل على نفوذ المشيئة فيهم مما يوجب الخوف العظيم مع الرجاء العظيم. وتأمل خاتمة سورة الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ۝١٦٥﴾ وكذلك آية الحجر: ﴿۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾ وآية الملك: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾، فالمؤمن معه المحبة

والرجاء والخشية، والله المستعان.

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته؛ قويت عبوديته له وحريته مما سواه، فالحريّة الحقيقية هي في تحقيق عبوديّة الله تعالى. فلقد نفخ الإسلام في موات الناس روح الحرية من أغلال الخلق لفضاء العبودية للمعبود الحق، فأخرَجَهم من هوان العبيد لهواء الأحرار، فلله كُنْ عبدًا تَكُ حُرًّا.

* ومنها: محضُ الابتلاء للمؤمن. فالحكيم سبحانه يبتلي عباده بعبادة حتى يستخلص خُلاصتهم لخُلاصة كرامته. ولقد قال النبي ﷺ: «**إنّ عِظَم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله تعالى إذا أحبّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»(١). وهذا صريح في حصول الابتلاء لمن أحبه الله تعالى وأن المكافأة إنما هي على قدر البلاء. وكم من عبوديةٍ يحبها الله غرسها وأصلحها في قلب عبده بسبب مصيبة في دنياه. وحسبُكَ داءً أن تَصِحّ وتَسْلما.

وتأمل قول الحق تبارك وتعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ [القصص: ١٢- ١٣]. فمنْعُ رضاعِهِ ردَّه ـ بلطف الرحمن ـ لوالدته، فلو رضع من إحداهن ما رجع إليها. ولو لم تُخرق سفينة

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٦) وحسنه.

المساكين لانتهبها الملك الظالم. ولو لم يُقتل الغلام لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا، فكان رحيله إيذانًا بقدوم الولد الصالح، فبكى والداه وما علما لطف الكريم المنّان وحكمة الوهاب الرحمن، فسبحان من منع ليهَبَ أفضل مما منع، تبارك الله. فعند مسلم(١) من حديث أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**الغلام الذي قتله الخضر طُبِعَ يوم طُبِعَ كافرًا**». قال مطرّف بن عبد الله: «فرح به أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قُتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرضَ امرؤٌ بقضاء الله تعالى، فإنّ قضاء الله تعالى للمؤمن فيما يكره، خير له من قضائه فيما يُحِبّ»(٢).

وكل أمرٍ قرّبك من ربك فهو خير، وكما قيل: يا بن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك. فتفاءل بالله وأحسن الظن به، واعلم أنه أشدّ من المصيبة انتظارها. وكثيرًا ما تكون النهايةُ عبارةً عن بداية جديدة، فالمتفائلُ يجعلها دَرَجًا لمجده، والمتشائم يُصيّرُها قبرًا لهِمّته. ومن أجمل ما كتبه ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ عبارة تستحق الوقوف الطويل في محراب تأملها: «يا بن آدم، كلٌّ يريدك لنفسه، إلا الله، فإنه يريدك لنفسك»(٣).

وكــم لله مــن لُطْــفٍ خفــيٍّ ... يَــدِقّ خَفَــاهُ عَــنْ فَهْــمِ الــذَّكِيِّ
وَكَـمْ يُـسْرٍ أَتَـى مِـنْ بَعْـدِ عُـسْرٍ ... فَفَــرَّجَ كُرْبَــةَ القَلْــبِ الشَّــجِيِّ

---

(١) (٢٦٦١).

(٢) ذكره البغوي في تفسيره: (٥/ ١٩٥).

(٣) مدارج السالكين (٣ / ٤٠٧) ونسبها إلى أثرٍ إلهي.

وكـــم أمـــرٍ تســـاءُ بـــه صـــباحًا   وَتَأْتِيْـــكَ المَســـرَّةُ بالعَـــشِيِّ
إذا ضـــاقت بـــك الأحـــوال يومًـــا   فَثِـــقْ بالواحِـــدِ الفَـــرْدِ العَـــلِيِّ

* ومنها: الجهلُ. فالعلم يصيح بصاحبه إن كان في قلبه خير، ومهما استطالت النفس في طِيَل المعصية؛ فلا بد لها يومًا من رادعِ علمٍ ووازعِ خشية تُشرق شمسها في حنايا الضمائر الخائفة الخَجْلى، فليس عالمٌ كجاهل، إلا من حقّت عليه كلمة العذاب، وخُتم له بالخيبة والتّباب.

* ومنها: التسرّعُ والطيش والعجلة. فمع القرارات السريعة ندامات كثيرة، والتهوّر جارف لحُفَرِ الخيبات، والتؤدة والأناة مؤذنتان بسبيل حكمة وهداية، ولقد قال رسول الله ﷺ لأشجِّ عبد القيس: «**إنَّ فيك خَصلتَيْن يُحِبُّهما الله تعالى: الحلمُ والأناة**»(١). وقال ابن عون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان مُسلم بن يسار أرفعَ عند أهل البصرة من الحسنِ، حتى خفَّ مع ابن الأشعث وكفَّ الآخر، فلم يزل أبو سعيد في علوٍّ منها، وسقط الآخر»(٢).

* ومنها: ضعفُ الحكمة، وضيق الأفق، وقلّة التجربة، وليس الحزم إلا بالتجاربِ. والحكمة منها ما هو فطري جبلّي ومنها ما هو مكتسب مُتعلّم، قال الحكيم سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩] قال مالك: «وإنه ليقع في قلبي أنّ الحكمة هي

---

(١) البخاري (١/١٣٩) ومسلم (١/٣٥) (٦/٩٤).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣١٢٩٩).

الفقه في دين الله، وأمْرٌ يُدخله الله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك؛ أنك تجد الرجل عاقلًا في أمر الدنيا ذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفًا في أمر دنياه، عالمًا بأمر دينه بصيرًا به، يؤتيه الله إيّاه ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه في دين الله»(١).

وقد يضيق الصدر أحيانًا لضيق الأُفق، فابحث عن مُتَنفَّسات نقيّة أخرى لبصيرتك. ولا تُقرِّر وأنت في فورة الغضب، ولا تَعِد وأنت في نشوة الفرح، فالعقل يهتزّ حينهما شيئًا. وتلمّسِ الحكمة وتتبعْها واصبر على مرارة تجرُّعِها. واعلم أن الفرق بين الحكمة والذكاء والدهاء: أنّ الحكمة ذكاءٌ أُفُقِيّ ففيها السعة والشمول والتجربة، والذكاءُ نفوذ تصورات بارعة بشكل رأسيّ، أما الدهاء فذكاء بمكر.

* ومنها: عدمُ الاستشارة، وأشدّ منها مخالفةُ المُوصِي الناصح الخبير. والموفّقُ في كبار أموره هو من رغب في الاستخارة والاستشارة ورغب عن الاستبداد بالرأي واللَّجَاجة، فالاستشارة ضمّ عقول وتجارب وخبرات إلى عقلك وخبرتك. ولك في رسولنا ﷺ أسوة، قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما رأيت أحدًا أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ»(٢)، وقال المأمون: «لا نُزهة ألذّ من النظر في عقول الرجال». وبكل حال فاستشر العقلاء المجرِّبين الأمناء لا أضدادهم.

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٧٠٠).
(٢) صحيح ابن حبان (١١/ ٢١٧).

ولَكَم نصح المُشفقون رؤوسًا لم تسمع لهم حتى فتحتْ على الأمة سيلَ فتنٍ أغرق جموعًا من أهل الإسلام وطمّهم في قعر الضلال، ولو أنّهم وافقوا مشيري الرشد ما انكسر سدّ الفتن، والحمد لله الحكيم الرحيم على كل حال، والتاريخ خيرُ مُشير.

* ومنها: التعالُمُ. فيظن رافعُ بيرق الافتراق أنه رأسُ علمٍ وكهفُ حكمة، فيكتفي بما حازه من علم ثم يستطيل على أعراض أقرانه. بل أشياخه. ورُبَّ علمٍ الجهلُ خير منه، أي بما ترتب من أثره من عُجب وكبر وتَيْه.

* ومنها: الكبرُ. والكبر شطرين: ردُّ الحق، واحتقار الخلق. فلا يرجع صاحب الكبر عن خطئه حتى بعد تبينه، وليبشر المتكبر بِصَغَارٍ عاجل، وعذاب آجل، وكُرهٍ له في قلوب الخلق واصل، إلا من اتّضع وتاب، قال النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» فقال رجل[(١)]: إن الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟ قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بَطْرُ الحقِّ وغمطُ الناس**»[(٢)]. فاحذر نفخةَ إبليس الكبر.

ومن ثمار الكبر الرديئة: الفخر والعدوان، وتأمل كيف اقتلع التواضعُ الفخرَ والبغيَ من جذورهما. قال ﷺ: «**إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ**»[(٣)]. وفي الابتداء بالإخبار

(١) وهو ثابت بن قيس بن شمّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) مسلم ١/٦٥ (٩١) (١٤٧).
(٣) مسلم ٨/١٦٠ (٢٨٦٥) (٦٤).

بالإيحاءِ إيماءُ إلى عظمة شأن التواضع.

وقد أخبروك، لكن أبت نفسك السَّكرى بكأس التعالي، ممزوجًا بما ترى من كمالك؛ أن تراها أو تراهم، قد أخبروك، قد أخبروك، يا أيها الإنسان!

وفي تحليل نافذِ للأحنف بن قيس: «ما تكبَّر أحدٌ إلا من ذلّةٍ يجدُها في نفسه».

❋ ومنها الجدلُ المذموم، الذي يدفعه المِراء ويسوقه الحسد ويَهدي إليه الكبر، قال رسول الله ﷺ: **«ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم قرأ:** ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨]»(١). وكم فرّقت تبعات الجدل من أواصر وقطّعت من تلاحم. والعبرة أن ثمرتها لا تنفع قائلها ولا تُفرح سامعها، وقديمًا قالوا: «اللجوج في معنى المغلوب».

والمراء باب الجدل فمن فتحه ولجه. ورحم الله مسلم بن يسار إذ قال: «إياكم والمراء، فإنها ساعة جهل العالِم، وبها يبتغي الشيطان زلّته»(٢). وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المؤمن لا يُداري ولا يُماري، ينشر حكمة الله، فإن قُبلت حمد

---

(١) أحمد (٢٢٢٠٤) وهو حديث حسن بطرقه وشواهده وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٠١) والطبراني (٨٠٦٧) واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٧٧).

(٢) سنن الدارمي (١/ ١٢٠) والمراء: الطعن في كلام أحد بقصد إظهار خطئه، والانتصار لإعلاء نفسه.

الله، وإن رُدّت حمد الله عز وجل»[١].

والمراء داء الفضلاء، فحتى أهل العلم والفضل لم يسلموا من وضر تلك الإحنةِ النفسانية، ومرجعها الحسد، فترى في بعض ردودهم على بعض - مع أهميتها - انتصارًا ظاهرًا للنفس وهضمًا قبيحًا لحق أخيه وإشاعةً لعيبه الذي لا علاقة له بما رُدَّ عليه فيه، وتزَيّدًا وتكبّرًا ورتعًا في عِرضٍ حرام. ولو راجع الفقيه نفسه لرأى أنه منتصر لهواه لا لهداه، وليس هذا الأمر مخصوص بطلبة العلم، بل إنك لتراه فاشٍ بين من كانت لهم مهنةٌ جامعة؛ فللأطباء حسدهم، وللتجار حسدهم، وللمهندسين والمزارعين والرعاة والمربين وهكذا، والله الحافظ الهادي المستعان.

وإنّ مِن أكثر ما يفرّق بين الإخوان: المماراة، وهي محاولة إثبات السبق والتفوّق بإظهار القُدرة. فيقول الأوّل شيئًا فيخالفه صاحبه، فيدلي كلًّا منهما بحجج تدعم مذهبه ورأيه، ثم يتعصب له وترتفع الأصوات، ثم يتحوّل محور الحديث لنقد ذات الشخص لا لقوله ورأيه، ثم تُستحضر المواقف البعيدة والقريبة، مع تلوينها بسوء الظنون وإظهارها بأقسى الألفاظ وأوحش التشبيهات، فتكون النهاية المؤسفة الفرقة والقطيعة والتسبب في عدم رفع الأعمال، مع حرمان بركة الاجتماع ورحمته. قال مالك: «المراء يُقسّي القلوب ويورث الضغائن»[٢]. وقال الآجري: «عند الحكماء أنّ المراء أكثره يغيّر قلوب

(١) الشريعة للآجري (١/ ٢٠٨).

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٢٠٢) (٤٩٨٨).

الإخوان، ويورث التفرقة والوحشة بعد الأنس»[١].

فإن كنت تريد راحة القلب وسلامة المنقلب؛ فعليك بإحسان الظن: بالناس في الأرض، وبخالقهم في السماء، ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحج: ٦٨].

❋ ومن أسباب الاختلاف: التّرفُ والدّعة والأمن، وإلا فالخوف من الخارج يوحّد الفرقاء من الداخل. والأمن نعمة إن جُلِّلَت بإيمان. وشكر الله تعالى جالبٌ للأمن بأنواعه والمعيشة الطيبة بأطرافها. ومن معاني الإسراف المذموم؛ المبالغة في الترف، لأنّه من أسباب إخلاد القلب لأرضِ طينِ الجسدِ دونَ سماءِ نفخةِ الروح. وقد قال الناصحون لقارون: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧] فخذ من دنياك البُلغة والنصيب، أما الهمة والإرادة فللدار الآخرة، ولكن هلك المنصوح الغافل. وعلى قدر الصعود يكون ألَمُ السقوط، وكلُّ بهجةٍ في الدنيا سوى الإيمان منقوصة، وهي أقصر من أن تدوم.

❋ ومن الأسباب: بُعْدُ بعض العلماء عن تأثيرهم المنتظر في الساحة الدعوية كما هو حالهم في العلميّة، فنشأ عن هذا التقصير قصورٌ لدى الكوادر الدعوية المحتاجة لقامات علميّة سامقة تستظل بها وتستنير بإرشادها وتنقاد لفتواها، وغياب الأكابر تصدير لأصاغر العلم والحلم.

(١) أخلاق العلماء للآجري (٥٠١٧).

ومـن يُثنـي الأصـاغرَ عـن مـرادٍ إذا جلـس الأكـابرُ في الزوايـا

بل قد نشأ عن هذا القصور تصدّرُ بعض أهل المقاصد الخبيثة لكيد الإسلام، المُدَّثِرون بزيّ العالِمِ الموجّه الحارسِ حياض الملّة، فأخذ هذا الماكرُ يستجرّ عقول الشباب اليافعين وأفئدتهم شبرًا وذراعًا وميلًا لحُفَرِ شبهاته ومتاهات تصوّراته وشبكات مَكرِهِ. ثمّ سمِنَ علمُه ونصحُه في عيونهم العُمُش حتى تورّم، فسدّ الأفق بانفراده في دنيا التوجيه والقياد، فانقادوا له عبر منافذ إلكترونية يظنونها لشاطئ السلام، ولم يعلموا ـ لجهلهم ـ أنهم يُقادون إلى حتوفهم.. وما بعد السبي سوى الإسار.

كما أن بعض الفضلاء باجتهاد منه ـ لا يُتابع عليه ـ قد يُلقي في الأمة شبهاتٍ وأوهام يظنّها حقائق وبراهين، فلا بد للناس أن يأخذوا حذرهم من المزالق الفكرية الخفيّة لدى كل من لم يستنر بنور الوحي الصافي.. وهل نزحُ زمزم كورود برهوت!

وبالجملة: فالأمة في عصر شبكات التواصل الفكري والغرائزي بحاجة ماسّة لزُبَدٍ فكريّة قويمة تجلو عن ساحها زَبَدَ فوضى الفكر وغثاء التفرّق.

* وبعد: فَمِنَ الجميع للجميع: الخطأُ واردٌ، والذنبُ واقعٌ، والتقصيرُ حاصلٌ، فليس بمعصوم أعلى الهرم ولا أدناه. وفرض الوقت وكلّ وقت: التناصحُ فيما بيننا أهل البيت الواحد، والقبلة الواحدة، وعبيد الرب الواحد، فكلٌّ راعٍ ومسؤولٌ.

والمؤمنون نَصَحَةٌ، والمنافقون غَشَشَةٌ، والمؤمن توّابٌ أوّاب، وكل مؤمنٍ

لا يخلو من خير، وكل قلبٍ له مفتاح، فَقَمِنٌ بمن وفّقَه الله للرفق والإخلاص والاتّباع؛ أن يُكتب له النُّجْح ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿وَٱلْعَصْرِ ١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ٣﴾ [سورة العصر].

❁❁❁❁❁

آثارُ الفُرقة

يكفي للفُرقة شؤمًا أنها معصيةٌ لله تعالى، ومع ذلك فلها ثمار نكِدَةٌ مسمومة، فهي تقتل في الأمة روح وحدتها، وتكسر عضد قوّتها، وتخضد أشواك حِرَابِها عمّن راموا حَربَها.

ومن ثمارها البشعة: حرمانُ بركة العلم، والوقوعُ في فخّ الجدل العقيم، وتسليطُ الأعداء، وإشغال أهل العلم والفكر والتوجيه بجهد لا طائل من وراءه، وتشتيتهم وتفريق كلمتهم وشقّ عصاهم، والانشغال عن البناء إمّا بالهدم أو بالترميم، واضمحلال قدْر أهل العلم من صدور الناس، وحرمانهم من بركة علمهم وتربيتهم وسَمْتهم، وإفساد القلوب وقسوتها.. في قائمة لا تُحصى من حروف الخيبة والخسار، فإنا لله وإنا إليه راجعون.. كفى بك داء أن ترى الموتَ شافيا.

ولو كان سهمًا واحدًا لاتّقيتُه ... ولكنّهُ سهمٌ وثانٍ وثالثُ

۞۞۞۞

كيف يصنعُ مَنْ بَهَتُوه؟

يسأل أحدُ الأحبة بمرارة: كيف أتعامل مع من يتّهمني بالضلال والابتداع والخروج عن السنة والمروق من السلفيّة، مع أنني بحمد الله سُنّيٌّ أصيل وسلفيّ صميم، ولم أخالف معتقد أهل السنة والجماعة ولا منهجهم ـ فيما أعلم ـ في قليل ولا كثير؟

والجواب: ألم تعلم ـ رحمك الله تعالى ـ أنّ أكثر أهل الأرض يطعن في دينك، ثم مِنْ بعدِهم أهلُ البدع المغلّظة وغيرها، فهل توقَّفَ الأمر على بضعة أفراد يقولون فيك ما ليس فيك؟!

لـيسَ يخلـو المـرءُ مـن ضـدٍّ ولـو حــاولَ العُزلــةَ في رأسِ جبــل

لقد طُعِن في أصل دين نبيك ﷺ فقالوا: صابئ، وفي عقله فقالوا: مجنون، وفي صدقيتّيه وأمانته فقالوا: كذّاب، وفي شيمته فقالوا: ساحر.. فهل تُطيق معشار هذه التهم!

أمّا الأذى الحسّي له أو المعنوي بعذاب أصحابه وأتباعه فأكثر من أن يعدّد، فقد قتلوا سعيد بن جبير بكذبهم أنه فتّان، واتّهموا القاضي عياض بأنه يهودي، وكذبوا على الشافعي فقالوا: إنه رافضي، وبهتوا الشاطبي فزعموا أنه ناصبي، وكفّروا ابن تيمية بزعمهم أنه مشبِّه، وابن عبد الوهاب بأنه مبغضٌ للرسول ﷺ، في سلسلة كثيرة من المُبتَلين في ذات الله تعالى، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. قال مطرِّفُ بن عبد الله: قال لي

مالك: ما يقولُ الناسُ فيّ؟ قلت: أمّا الصديقُ فيُثني، وأمّا العدوُّ فيقع. فقال: «ما زال الناس كذلك، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلّها»(١). وتدبر قول ربنا تعالى: ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ [آل عمران: ١٩٥] فيا لله، كم فيها من مسحة حنان وبلسم شفاء وطاقة عزاء لكل من أُوذي في الله تعالى. ومما يُنسب لأمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

اصبرْ على حلوِ الزمانِ ومرِّهِ ... واعلم بأنّ الله بالغُ أمرِهِ
المرءُ يُعرفُ بالأنام بفعله ... وخصائلُ المرءِ الكريم كأصلِهِ
كم عالمٍ متفضّلٍ قد سبَّه ... من لا يساوي غُرْزَةً في نعْلِهِ
البحرُ تعلو فوقَه جيفُ الفلا ... والدّر مطمورًا بأسفلِ رملِهِ
وإذا الصديقُ أسى عليكَ بجهلِهِ ... فاصفحْ لأجل الودِّ ليس لأجلِهِ

إنّ لِإصلاحِ البشر غُصصٌ يتجرّعُها المصلحُ، أقلُّها معاناته سوءَ ظنونهم وخطأَ أفهامهم، لكنه موعود بالرضوان. وكلُّ غيضٍ غمستَهُ في بحر الاحتساب فإنه يعود بردًا وسلامًا. وتدبر آيات سورة فصلت في شأن الداعي إلى سبيل ربه في كونه الأفضل والأحسن: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ الآيات إلى النهاية السعيدة لتلك الفئة القليلة ممن دعوا وصبروا ودفعوا بالتي هي أحسن: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٣- ٣٥]. ومن أوذي في الله، وأراد السلوى؛ فليتذكر أنه

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩٠٠١).

يتعامل مع الله تبارك وتعالى، فهنالك تتبخَّر الآلام فتستحيلُ لسحائب سعادة وإيمان. قال ابن الجوزي: «من أراد من العمّال أن يعرف قدره عند السلطان فلينظر ماذا يُولّيه».

إنّ نعمة الإسلام والإيمان والتوحيد والسنة لا يضاهيها مُلكُ الدنيا بحذافيرها، ومهما أصابك من لأوائها ونصبها وشقائها فهي ليست بشيء إزاء عافية دينك وطيب منقلبك بإذنِ ورحمةِ ربك. فعليك أن تحمد الله الذي وفقك وهداك، وأن تعلم أن الناس ليسوا على عقل واحد ولا مزاج واحد ولا فهمٍ واحد ولا ورعٍ واحد، وأنّ بعضهم تكتنفه عوارض بيئية أو مزاجية أو عصبية أو نفسانية أو عقلية أو خُلُقية، فيتوجّه حكمُه على الناس بتأثير تلك العوارض، بلا تحكيم تام لقواعد الشرع وبراهين العقل. لذا تجده إن رضي . ولو لدنيا . قنع وأسبغ المدائح، وان سخط . ولو بسوء ظن . سربل خصمه بالطعن واللمز. مع ذلك قد يظن في قرارة نفسه أنه عادل منصف محق! ومع هذا فعليك بالتالي:

❋ احمدِ الله تعالى الذي وفقك للهُدى حينما ضلّ الأكثرون، واعلم أنّ من عاجل نصرِ الله لك توفيقك وخذلانهم، وهذا كافٍ في برْدِ صدرك بثلج اليقين بطيب المُقَدِّر، وشفاء غيضك ببلسم معرفة حقيقة النعمة وقدْر المنحة، فأبدلْ غيضَكَ وغضبك رحمةً بهم وإشفاقًا. قال الجاحظ: «لو تأملتَ أحوال الناس لوجدت أكثرهم عيوبًا أشدهم تعييبًا».

ولا يكبرن في صدرك ظلمُ من ظلمك؛ فإنّه إنما سعى في مضرّته ونفعِك،

وإنما حسَدَكَ مَن حسدك لظهورِ نِعمةِ الله تعالى عليك، وكلُّ ذي نعمةٍ محسودٌ. وقد قيل: «ولا خَيرَ فيمَنْ لَيْسَ يُعْرَفُ حاسِدُهْ». وقالوا: «لا يخلوا السيّدُ من ودودٍ يمدحُ وحسودٍ يقدحُ»، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]. ومن دُرَرِ الدُّؤَلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حَسَدُوا الفتى إذ لم ينالوا سعيَهُ ... فالقومُ أعداءٌ له وخصومُ
كضَرائرِ الحسناءِ قُلْنَ لوجهها ... حَسَدًا وبغْيًا إنّهُ لَدَمِيمُ

وتأمل في هذا الخبر الذي جمع الإيمان والعلم والعقل، فقد تكلّم رجلٌ في مجلس ابن عباس بكلامٍ قبيح، فأعتق ابن عباس غلامه شكرًا لله إذ لم يجعله مثل ذلك الرجل.

واجعل لقلبِكَ مقلتين كلاهُمَا ... من خشيةِ الرحمنِ باكيتانِ
لو شاء ربُّك كنتَ أيضًا مثلَهم ... فالقلبُ بين أصابعِ الرحمنِ

وإنّي مُحذّرك ومشدّد عليك ألا تسترسلَ في ذلك، فإنّ في الاسترواح لذلك خابيةٌ لَرَسَنِ العُجْب والتّيه، ومِهْمَازِ العلوِّ والكبرياء، وكفى بذلك خذلانًا ومقتًا. فأنت أعلمُ الناس بعيوبك، والناس قد غرّهم منك جميل ستر الله عليك، وأنت تعلم أنّ فيك عيوبًا لم يذكرها ذلك العيّاب قد سترها الله عليك، بل قد تعرف من خطاياك ما لو علمها الناس لما صافحوك، ولكن الجميل سبحانه قد أرخى عليها ستره ووضع عليك كنفه، فلا تتصنّع أمام نفسك وإياهم، وتواضع وانكسر وأخبت لربك وأنِب. ولا أنفعُ للنفس الشريفة من الإزراء بها لله تعالى، وقطعِ طمعها عن ثناء الخلق ودنياهم، فالسرّ

الوحيد الذي لا يعرفه غيرك هو علاقتك بالله سبحانه، فلا يغرنّك المادحون، ولا يُحزننّك القادحون.

فتّش نفسك ونيّتك، واعرض أعمالك على قواعد الشريعة وراجعها، وحاسب نفسك. وبخاصة فيما طُعنت فيه. فقليلٌ من البشر من يرى عيوب نفسه، والأقلّ من يتواضع للاعتراف بها، وأقلّ القليل من يعمل جادًّا على رفعها حامدًا من دلّه عليها. و«رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي»، كما قاله عمر. لذا فقد يكون لذلك المُعيِّرُ عليك مدخلٌ فيما بينك وبين الله عز وجل، فللحقّ تجرَّدْ يا مؤمن. وابدأ بنِيّتك فنقِّها من شوائب الرغائب، واصدق معها كأنّما نُشرْتَ للحساب، ثم ثنِّ بمنهجك وسيرتك وسريرتك وأعمالك العامة والخاصة ممّا علمها الناس ومالم يعلموها، ثم ثلّث بفحص العيوب من زاويةِ عينِ مَنْ نقدَك ومن وجهة نظره هو، فالبعير لا يرى عوج رقبته، والسعيدُ من وعظته نفسُه.

فإنْ كَثُرَ خصماؤك وتنوّعوا فراجع نفسك، فقد يكون فيك خللٌ لم تره بسبب طريقة تعاملك مع الناس أو سوء ظنك بهم، فالنفس تخدع صاحبها أحيانًا فلا يرى عيبها. وبكلِّ حال فلكل نعمة حاسدٌ، والحسود ناشرٌ لفضائل محسوده بتنبيه الناس لها من حيث لا يعلم.

لـولا احـتراقُ النـار فـيما جـاورتْ ‏ ‏ ‏ ‏ ما كـان يُعـرف طيـب عَـرْفِ العـودِ

فإن وجدت عيبًا؛ فسُدَّ خلّته، وأصلح فساده، واشكر من بيّنه لك، وإن لم تجده؛ فاحمد الله على السّداد في الأمر، واسأله غفران ما سلف وكان، واسأله

الحفظ فيما يُستقبل من الزمان.

وتذكّر أن تلك العثراتِ أمامك قد وضعَها مَن أحبَّ لك العودة لكنفه بتوبة واستغفار واعتبار جل وعلا. ولك ولكل مظلوم: تذكّر أنّ هناك عدالةٌ إلهيةٌ في الدنيا والآخرة، وكفى بها للعاقِلينَ سلوانًا.. فدًى لك من يُقصّرُ عن مداكا.

وسيزول التوتر ويهدأُ الانفعال إذا استقبلتَ أذى الناس لك على أنه غير شخصي، جِدْ لهم مبرّرًا عامًّا، فالشخصنةُ تُعقد الأمور جدًّا. بعد ذلك عامل خصمك -أيًّا كان- بجميل أخلاقك لا أخلاقه، بسَعة خُلقك لا بضيق صدره، وبقوّة عقلك ورحابة صدرك لا بضعف عقله وضيق عَطنه. واحمد الله الذي عافاك مما ابتلاه به، حينها ستجد العزاء دافئًا والسُّلوان موفورًا، وطوبى لمن كان القرآن سلوته، والمؤمن يطبّع سجاياه بأخلاق الأنبياء ليكون من الأولياء، ولا يضيره مقابلة المخالفين له بالسوء والشر.

ملكْنَا فكان العفوُ منّا سجيّةً ولمّا ملكتمْ سال بالدمِ أبطَحُ
فحسبكمُ هذا التفاوتُ بيننا فكلّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ

ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز فجعل يشكو إليه رجلًا ظلمه، فقال له عمر: «إنك أن تلقى الله ومظلمتك كما هي، خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها». وهذا فيمن لا يطيق العفو، أما من أطاقه فلا شك أنه أفضل وأجدى، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] والحقُّ لا يضيع بالعفو، بل يضاعفه الشكور الحميد سبحانه أضعافًا.

وجميلٌ جدًّا أن تبيتَ قريرَ العينِ وخُصماؤك يُهدونك أغلى ما لديهم من حسنات بغيبتهم لك، ولكن الأجمل أن تعفو وتسامح، فربك شكور يعطي على العفو ما لا تتصور. ولما سئل الإمام أحمد عن الدعاء على الظالم قال: «وما ينفعُك أن يُعذب الله أحدًا بسببك» إنها نفوس الكبار. واعلم أنك لست بحاجة لضغينة نفس ولا غضب للدنيا طالما تعيش مع سلامِ القَدَر.

كــلُّ الحُطــام مؤمّــلٌ إصــلاحه ... إلا إذا كـــان الفـــؤادُ حُطامًــا

ولا تنس ـ بعد نفسك ـ أن تستغفر لظالمِك بظهر الغيب وتدعوا له بالتوبة وتسأل الله له الهدى والرشاد، فمِنْ أروعِ صور احتمال أذى الناس؛ ألا تشكوهم لأحدٍ من الخلق على الإطلاق، وأجملُ منه ألا تدعو عليهم، والأجملُ أنْ تدعوَ لهم بالهدى والمغفرة. فإن فعلت فأنت بإذن الله من السعداء المُوفّقين. ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. صدق الله ومن أصدق من الله قيلًا!

كـن كالنخيـل عـن الأحقـاد مرتفعًـا ... بالصـخر يُرمـى فيرمـي أطيـبَ الثمـرِ

واسمح لي بهمسة في أذنك الطيبة بذكر خبر وقفتُ على تفاصيله، وعرفت أصحابه: فقبل زمنٍ بعيد نسبيًّا كان هناك طالب علمٍ عامِلٍ بعلمه داعٍ إلى الخير جهده، ولا أزكيه على الله تعالى، ولمّا كان الابتلاء جادّة المصلحين؛ فلم يسلم صاحبَنا من هجومٍ مقذع عنيف وسلْقٍ بألسنة حدادٍ لم ترع فيه إلًّا ولا ذمّة ولا رَحِمَ علمٍ ولا أخوّة إسلام، واتهامِ نيته وتأويلِ كلامه وتفتيشِ دقيقِ خفاياه، والعجيب أنه قابل هذا الهجمات الشديدة بحلم واسع وعقل وافر ولسانٍ ورع

وصيانٍ تام، نعم كان بعض أحبابه يدفعون عنه القالات أحيانًا حسب جهدهم ومبلغ طاقتهم، لكن صاحبنا يقابل جيوش الشتائم وكتائب الغَدَرَات وسرايا الظغينة بوجه أبيض من البدر، وهدوء ألطف من نسائم الأسحار، وبثبات أرسى من الجبال، وبشموخ أعلى من قُلّةِ رضوى. والأعجبُ من ذلك أنّه كان يستغفر لهم ويدعو لهم بالتوبة والمغفرة والهداية والتوفيق.

مرّت السنين والسنين، ومعها ذهب الباطلُ وبقي الحق، وتبخّر البهتان ورسى الصدق، واضمحل الزَّبَدُ وظهر الماء، ونسي الناس أولئك الشانئين الحسدة وبقيت ذكرى ذلك العلم الرباني ومواعظه وفوائده وعلمه في قلوبهم وصدورهم ونواظرهم، فتذكرت قول رب العزة والجلال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

وسبحان من جعل في القرآن عزاءً لكل أحد مهما كان نوع حزنه أو همّه أو خوفه، ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] فتدبر الرحمة واستنزلها وافرح بها.

❁❁❁❁❁

يا عبادَ الله فاثْبُتُوا: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾

إذا كان النبي ﷺ لا يستقلّ بتثبيت نفسه على صراط ربه فما بالك بمن سواه! قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] فالمعوّل على توفيق الله وتسديده وحفظه، فاسأله الثبات وخذ بأسبابه. والحياة الدنيا محوطة بابتلاءات لا تنتهي إلا بالرحيل للآخرة مهما كان المكان والزمان والحال، فحريّ بالمؤمن أن يولي مسألة الثبات على الحق عنايته الكافية الدائمة، وتأمّل أنّك تسأل الله تعالى في كل ركعة ذلك: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ أي أرشدنا إليه بالعلم، ووفّقنا له بالعمل، وثبّتنا عليه حتى نلقاك به. وجميلٌ أن يكون لحياتك هدفٌ تسعى لتحقيقه، والأجملُ هو أن يكون الهدف مرضاة الله تعالى، ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

واثبُتْ ثباتَ الرواسي الشامخاتِ ولا ... تـركنْ إلى فشـلٍ في سـاعةِ الوَهَـلِ
وكُنْ كَرَضْوَى لمـا يعرُوكَ من نُوَبٍ ... ولا تكـن جازعًا في الحـادثِ الجللِ

أنّ من المهمات الكبرى: مسألة الثبات على الطريق الطويل للعلم والعمل والتعليم، فالذكاء وحده لا يكفي للتحصيل الكافي، ولا التتلمذ على الأكابر يكفي، ولا صرف بضع سنين كاف، بل لا بد ـ بعد توفيق الله تعالى ـ من أن تتضح لديك الصورة التي تريد أن تكونها بإذن الله أولًا، فلا بد من وضوح الهدف كي تُحسن السير ولا تنقطع، وبعد وضوحه عليك بالجد في تحصيله،

ولا يكون ذلك بغير ثبات على ساق الطلب، وإلا فكثير من الأذكياء انقطعوا قبل الوصول، وهذا من أسرار النفس البشرية فهي ملولٌ ونزَّاعةٌ إلى التغيير، ثقيلٌ عليها طول المدى في المسير، فالقلائل من الناس هم من صبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله في ميدان الطلب حتى بلغوا الرسوخ في العلم والعمل.

فاجعل مشروع حياتك الأعظم طلب العلم والعمل به ونشره ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ولا تنقطع ولا تيأس، فالأئمة كلهم قد مرّوا من هنا، فكن على الأثر.

وكن في الطريق عفيف الخُطا ... شريف السماع كريم النظر
وكُن رجلًا إن أتوا بعده ... يقولون مَرَّ وهذا الأثر

فلا بد من المجاهدة الطويلة حتى تطمئن النفس للخير، وربما يحتاج التطبّع بالشيء لسنة كاملة حتى يصبح طبعًا راسخًا وعادة متّبعة، وهذا شِبْهُ مضطردٍ سواء كان خُلُقًا أو خطيئة أو توبة، وكما قيل: «مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب».

سأصبرُ حتّى يعجزَ الصبرُ عن صبري ... وأصبرُ حتى يحكم اللهُ في أمري
سأصبرُ حتى يعلم الصبرُ أنّني ... صبرتُ على شيء أمرّ من الجمرِ

وإنّ تدبر القرآن من أنجع الأمور على الاصطبار، ذلك أن الله تعالى قد جعل كلامه شفاءً تامًّا كاملًا للمؤمنين فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] و(من) هنا بيانية، فليست تبعيضية ولا ابتدائية، فالقرآن كله شفاء ورحمة للمؤمنين.

ومن أنفس الوصايا للتدبر: اقرأ القرآن وكأنّك تقرأه لأول مرة في حياتك، مع تذكّر أنه رسالة الله تعالى لك. وقد جربها الكثير، ونفعهم الله بها. ذلك أنّ معانيه متجدده وفوائده لا تنقطع، فلا يشبع منه العلماء ولا يخلق من كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، يكفيه أنّه كلام الله رب العالمين، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١- ٤٢].

والإرادة إنّما تُشحذ بتكرار النظر المفيد وتقليب الفكر في ثمرته وتأمل غايته، لهذا أرشد الله تعالى في القرآن كثيرًا للتفكر والتذكر والاعتبار. وكلها تأمّلٌ للمستقبل على ضوء الحاضر والماضي وعبر سبر أحوال الغابرين ونهاية أمرهم، وهي الأحوال المتكررة في قوالب خَلَفِهِم، فسننُ الله لا تتبدل ولا تتحوّل، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] وسُننه تعالى في الجماعات والأمم تكون أبطأ وقوعًا من سننه في الأفراد، ولعل من الأسباب أنّ إقامة الحجة على الأفراد أسرع، والله أعلم.

والإنسان ضعيف بطبعه، قليلُ الحيلة، واهنُ الصبر إلا من صبّره الله، فإن ساعد على ذلك لا مبالاة بعاقبة ضعف كبح جماح النفس الغضوب أو الشهوانية أو العابثة؛ أفضى به ذلك إلى التلف والخسار، أو كاد. فواعجبًا لذلك المخلوق الصغير، ينكسر لأدنى سبب، ويضعف لأول امتحان، ويفرح ويغضب ويروح ويجيء لأتفه شيء.. ألا ما أضعفك يا أيها الإنسان.

واعلم - رعاك الله - أن رسوخ العمل ليس بأقل أهمية من رسوخ العلم،

فالمؤمن مفتقر إلى رسوخ قدم قلبه في رياض العبادة، فقيام الليل لا يكون إلا بمكابدة، وصيام الهواجر لا يثبت إلا بمجاهدة، ومع الدُّربة تسهل المجاهدة. والتلاوة والأوراد ونحو ذلك من العبادات لا تدوم إلا بمواصلة خطم النفس إليها والمرابطة في حراسة جمعية القلب عليها، وكما قيل: إذا وجدت غبارًا على مصحفك فتذكّر أن الغبار الذي على قلبك أشدّ. وليس السؤال: أين وصلت في القرآن بل أين وَصَلَ القرآن من قلبك. ولما ذكر الله أهل تلاوة القرآن قال: ﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩] قال مطرّف: «هذه آيةُ القرّاء»(١).

وتأمل أفضلَ وصفةٍ لأدواء القلب، فقد سأل رجل إبراهيم بن أدهم: إني لا أقدر على قيام الليل فصف لي دواء؟ فقال: «لا تعصِهِ بالنهار وهو يقيمك بين يديه في الليل». ورأى أحدهم الخليل بن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: «لم تنفعنا تلك الرسوم، وإنما نفعنا ركعات كنا نقومها بالليل».

إذا ما الليلُ أظلمَ كابدُوهُ ... فيسفرُ عنهم وهم ركوعُ
أطارَ الخوفُ نومَهُمُ فقاموا ... وأهلُ الأمنِ في الدنيا هُجُوعُ
لهم تحتَ الظلامِ وهم سُجودٌ ... أنينٌ منه تَنفَرجُ الضُّلُوعُ

وتدبر قول ربنا تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] فهي وإن نزلت في الجهاد لكنها تعمّ كلّ عملِ خيرٍ

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/٤٦٤).

سبقك إليه الأخيار الذين بعثهم ربهم له وخُلّفتَ عنه، والعبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والإشارة والإيماء لهما اعتبارهما لدى المُعتَبِرين المتَفكرين. فاحذر أن يكره الله عبادتك، واستعذ بالله من التثاقل عن طاعته، وردد دومًا: اللّهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

وعليك بتعظيم أمر الصلاة فهي الحبل الواصل بينك وبين الله تعالى، والباب الذي تدخل منه عليه، وهي أعظم أركان الإسلام العملية، وهي في الحقيقة معيار الإيمان، وقد قال الإمام أحمد: «إنّما حظَهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة»[1]. فأعط الصلاة نفيس وقتك وسمينه لا زائدَهُ وقليلَهُ. وكلّ مواعيدك مع نفسك والبشر ألغها أو أجّلْها إذا أقبل موعدك مع الله تعالى.

فاخلع الدنيا مع رَفْعِكَ للتكبير، وكبّر تكبير من أيقن بأنه لا أكبر من الكبير جل جلاله، واتلُ كلامه كمَن يخاطبه ويناجيه، واجعل قلبك بين يديك تُحرِّكُه بالآي والذكر والضراعة، واركع ركوع خاضع لمولاه بقلبه ورقبته وحياته، وارفع رفع حامدٍ شاكرٍ فَرِحٍ بربه تعالى، واسجد سجود من يظن أنه لن يقوم منها إلا للموت، وبعثر همومك وأزلْ غمومَك بسجدة طويلة خاشعة، وصلّ وسلم على نبيك بعد التشهد كحال من هو بحضرته، وفي جلسة التشهد الأخير قبل السلام لا تعجل، بل اغتنم تلك اللحظات بين يدي ربك عبدًا خاضعًا خاشعًا طالبًا فضله ونواله. فادع واضرع وألحّ، فوعزّةِ

(١) الصلاة لابن القيم (١٤١).

ربك إنها من الهنيهات الجليلة التي تُرجى أن يقال لك فيها: سل تُعط، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠] فمن ذا الذي دعاه فردّه، أو رجاه فخيّبه، أو لجأ إليه فتركه، أو استنصره فخذله، الخيرُ كله منه وإليه، فلتفرّ من نفسك ومن الخلائق إليه.

إنْ كنتَ مُشتاقًا لها كَلِفًا بها ... شوقَ الغريبِ لرؤيةِ الأوطانِ
كُنْ محسنًا فيما استطعت فربَّما ... تُجزى عن الإحسان بالإحسانِ
واعمل لجناتِ النعيم وطيبِها ... فنعيمُها يبقى وليس بفانِ
أدِمِ الصيامَ مع القيامِ تعبُّدًا ... فكلاهما عملان مقبولانِ

ولا تستوحش فلست وحدك، بل اللهُ في عليائه معك بحفظه وعونه ومدده، ومن كان الله معه فلا ضيعةَ عليه، فاللهُ أَنيسُه ونصيره وحافظه ومُغْنِيه، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

واجتهد في تحصيل ساعات تخلو فيها بربك، ومن ذلك الاعتكاف، فهو جنةٌ غَنَّاء، وسعادة وسرور، دونها قشرةٌ يابسةٌ رقيقة لا تلبث أن تذوب مع أول ساعاتٍ روحانيةٍ للمختلي بربه العظيم القريب، ولا توصف سعادتها بوصف أجمل من أنها لا توصف، ومنها يأخذ العبدُ زادَه لمكابدة لأواء الدنيا وقسوة ماديتها.

وكن يا صاحبي في دينك صاحب مبدأ ثابت شامخ ومُنتَهىً راسخ، واصدق في قولك وعملك فإن الصدق شعار الإيمان، والكذب أخصّ صفات

المنافق، وبينه وبين نقضِ الطهارة علاقة معنوية لأنه يلوّث طهارة الروح ويكسر زجاجة الصدق. قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «عليك بالصدق، وإن قَتَلَكَ الصدق». والكاذب مكروه الصُحبة، غير مأمون الغائلة.

وإن استطعت أن يكون باطنُك خير من ظاهرك فنِعِمّا، وإلا فلا أقلّ من استوائهما حتى لا تكون مُسَمّعًا مُرائيا. وكن صادقًا في كل أمرك حتى في الشِّعر الذي فشا فيه كذب الناس، قال طَرَفة:

وإنّ أحسنَ بيتٍ أنت قائلُهُ ... بيتٌ يُقال إذا ما قُلتَهُ صَدَقَا

وافعل الصواب ولو كنت لوحدك، واجتنب الباطل ولو رأيت عليه الأكابر. فالأُمّةُ هو من كان على الحقِّ ولو كان لوحده كما كان خليل الرحمن، وخذ الأمر بقوّة لا بلعب، وبجدٍّ لا بهزل، ولا تكن من ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: ٥١] ولا تتعلق ولا ترجُ ولا تخف إلا الله جل جلاله. واعلم أن تكرار لا حول ولا قوة إلا بالله له الأثر النافع جدّا في قوة الروح والنفس والبدن والإيمان.

قد هيأوك لأمرٍ لو فطنتَ له ... فاربَأ بنفسك أنْ ترعى مع الهَمَلِ

واعلم أنهم يُجيعون ويُطعم الله، ويحبسون ويفرّج الله، ويَنسون ويذكُرُ الله، ويخذلون ويكفي الله، ويعادُون وينصر الله، إنه الله وكفى بالله وكيلًا.

فلا تحنِ رأسك لغير خالقك، ولا تذلّ رقبتك لغير مولاك، فهو الكفاية والهدى والغنى والحفظ والنصر، والله تعالى لا يخلف ميعاده: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ

ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩- ١٠]. والمؤمن الصالح مهما كِيدَ من مخلوق؛ فهو موقن بأن هناك من يستطيع حمايته وهو متعلّق بكلّيّته عليه، مستعين به، قريبٌ منه، وعلى قدر القرب يكون الأمن، أنه القرب من الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ويا صاحبي: أَطِبْ معدنَك بالذكر والإيمان، وليكن قلبك ذاك الراضي بربه الشاكر لنعمه الصابر على ابتلائه المستغفر لذنبه. كن كذلك دومًا فلا ضَيْعَةَ لمن كان مع الله.

وتأمل حال يوسف عليه السلام، فقد بركت على كاهله خمسُ محنٍ شداد فاجتازهن عليه السلام بيقين وثبات وإحسان: الجُبُّ، والمراودة، والسجن، ونعيم السلطة، ولذّة الانتقام. لقد مرّت كلّ عواصفها الشديدة الهائلة بجبل إيمانه؛ فثبت ورسخ. فخلد الله تعالى ثباته في سورته، فسورةُ يوسف هي سورة الثبات والفرج بعد الكرب.

وقد يبتلي الله عبده ليرفَعه وليرحم به غيرَه في قابل أيّامه. فانظر كيف قدّر الله تعالى أن يُباع يوسف وتتوالى ماجريات بلاءاته ليكون - بإذن الله ربه - سببًا في دفع مجاعةٍ عامّة مميتة، تتابعت سبعةُ أعوام في مصر وما حولها. وحقًّا: إذا أراد الله أمرًا هيّأ له أسبابه. وتدبّر: ﴿ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠].

ولـمّا وصل الكربُ بيعقوب منتهاه؛ عَلِمَ أن الفرج قريب. وتأمّلْ حاله حينما فقد ابنه الثاني فابتهل إلى الله وشكا إليه حاله وأحسَنَ به الظن ثم قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ [يوسف: ٨٧]. فابتدأ

بالأمل في رجوع يوسف الغائب منذ أربعين سنة حتى ذَكَرَهُ قبل أخيه الغائب منذ أيام. وتأمل كيف تنسّم روح الفرج فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يوسف: ٨٣] ألا ما أجمل قلوبهم. لذلك: فالمصائب إذا توالت؛ تولّت. وإذا أظلم ليل الابتلاء فقد اقترب فجر الفرج.

إذا اشـتملتْ عـلى اليـأس القلـوبُ　　وضـاقَ لمـا بـِهِ الصَّـدرُ الرحيـبُ
وأوطـــأتِ المكـــارهُ واطمأنّـــت　　وأرْسَـــتْ في أماكنهـــا الخطـــوبُ
ولم تَــرَ لانكشــاف الضُّــرِّ وجهًــا　　ولا أغنـــى بحيلتـــه الأريـــبُ
أتــاكَ عــلى قنــوطٍ منــك غــوثٌ　　يَمُــنُّ بــه اللطيــفُ المســتجيبُ

ولك أن تعلم أن ثابت البُناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد احتاج لمجاهدةِ نفسه على قيام الليل عشرين سنة حتى وصل بها لشاطئ النفس المطمئنة، قال: «جاهدت نفسي على قيام الليل عشرين سنة، ثم تلذذتُ به عشرين أخرى». فالطريق طويل لكنه مفضٍ برحمة الله إلى نعيمٍ في الدنيا ونعيمٍ في الآخرة، لذا فلا عجب أن ذكر الله الصبرَ في القرآن أكثر من تسعين مرة، فلا خير يُنال في الدنيا والأخرى إلا بصبر، وقال الحبيب صلوات الله وسلامه وبركاته عليه: **«ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبّر يصبّره الله. وما أُعطي أحدٌ عطاء خيرًا وأوسع من الصبر»**[1]. ورُوي عن أبي هريرة. وروي مرفوعًا[2]: «إنّ المؤمن ليُنضي شيطانَهُ .أي يُهزله . كما يُنضي أحدكم بعيره في السفر». فهو يجاهده ويكابده حتى يجهد

---

(١) البخاري ٢/١٥١ (١٤٦٩)، ومسلم ٣/١٠٢ (١٠٥٣) (١٢٤).

(٢) أحمد ٢/٣٨٠ (٨٩٢٧) وضعفه من جهة تدليس ابن لهيعة.

الشيطان ويضعف ويهزل. وإذا هبّتْ على النفوس رياحُ خريفِ التساقطِ؛ تهاوت الأوراقُ التي انقطع عنها ماءُ الحياة، وثبتت الثمار الصالحة، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. اللّهم إياك نعبد وإياك نستعين.

ولكَمْ يعزّ عليّ أن أرى: قمّةً ذابت في بركان غضب، وقُلّةً غرقت في بحر طمع، وشُعلةً أطفأها طولُ مَدى، وكنزًا أضاعه رهجُ عجلة: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ٧٤- ٧٥]. ومع انكسار الصفوف؛ يُثْبِتُ الصادقون دعواهم، ومع خذلان المناصرين؛ يعلُو الواثقون بمسعاهم، أخي: لا تلتفت لمن تعثّر أو سقط أو رمى، واثبت فإنما أنت جَبَل، ولا يصحُّ إلا الصحيح، ولا يثبتُ إلا الأصيل. أما الباطل ـ وإن طال زمانه ـ فمآله الفشل والفناء ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ [الكهف: ٤٥].

❁ وهنا شيء من وسائل الثبات للمحتسبين والعابدين والدعاة:

فمنها العلم بأسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله، وعبادته بمقتضاها، وإحسان الظن به تعالى، ومداومة الإلحاح بدعاء الثبات على الدين، والأدعية المأثورة كثيرة ومنها: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا دعاء الراسخين في العلم»(١).

---

(١) ولشيخنا أ.د. عبد الله الدميجي رسالة نافعة بعنوان: وسائل الثبات في زمن المتغيرات.

وإنّ من الأسباب الجوهرية للثبات، وهي نابعة من الثقة بوعد الله: المحاسبةُ الجادة للنفس، ففي الدنيا دخانٌ وغينٌ يحيط بالقلب، ولا تكاد النفوس تسلم منه، فتقع في غفلةٍ وركونٍ إلى الخسار وإخلادٍ إلى الأرض، فإن وفّق الله عبده للمحاسبة؛ استيقظ ونفض عن بصيرته وقلبه غبار الغفلة وقتار الظُّلمة. ولقد تكلم أبو محمد ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مداواة النفوس عن تغلّبه بعد مجاهدة شديدة على طباعه السيئة من الحقد والشهوة وغيرهما حتى ترقّى بها للطمأنينة والسكينة، فالأمر في متناول مَن وفّقه الله. ورُوي عن نبي الله ﷺ أنه قال: **«إنما العلم بالتعلّم، وإنما الحلم بالتحلّم، ومن يتحرّ الخير يُعطه، ومن يتق الشر يُوقه»**(١). وربنا تعالى يعِد من جاهد فيه بالهدى والمعيّة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وفي الوقت الذي يُنتظر فيه من الدعاة المجاهدة لإدراك الكمالات؛ نجد بعض الدعاة لا يزال يجاهد نفسه ضد الموبقات كالزنا والخمر والربا! فضلًا عن بقية الكبائر والذنوب التي أصبحت كالعادات له، كالغيبة، والنميمة مقصودة أو غير مقصودة، والكذب مازحًا وجادًّا، إلى شراسة الخُلُق والصَّلَفِ وتنفير عباد الله من دين الله، وإدخال الغم والحزن عليهم، وسوء ظنه بالمؤمنين، مع علمه بعيوبه واعترافِه، إلا أن السنين لم تزده في تيك الأخلاق

---

(١) الخطيب في تاريخه (٩ / ١٢٧) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٢٨) والسلسلة الصحيحة (١ / ٦٠٥).

الرذيلة إلا إيغالًا وانغماسًا. فأين الثقة بالله وبموعوده وبلقائه، ومتى يأتي اليوم الذي تطمئن فيه نفسه فتتطّبَعُ على أخلاق المؤمنين، وتدور بطبعها المُهذّب فيه، حتى تكون من النفوس المطمئنة!

فيا صاحبي: إن طال زمانك وأنت تراوح المجاهدة دون تقدّم في مستوى إيمانك؛ فراجع مساقيَ قلبك، فلعل هناك دَغَل شهوةٍ خاطئة في حاجة لعصفٍ وتهذيب، أو شبهةٍ ردّتْ عنك بركة العلم والذكر والإيمان. ومَن أَكثر من شيء عُرِفَ به.

ولَـــــرُبَّ شــــــهوةِ ســـــاعةٍ قـــد أورثـــتْ حُزنًـــا طـــويلًا

إنّ المؤمنَ إذا تدبّر قول العظيم سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ [القصص: ٨٥] لتهون في عينه الدنيا وما عليها، فأجَلُ المعاد قريب، وهذه الدنيا القريبة الزائلة بمعالمها الفانية لن تلبث إلا أن تكون كسرابٍ بِقيعة، بل كطيفِ خيال أو كحلم منام، فتذهب مشقة الطاعة والمجاهدة ويبقى الأجر مبذولًا من خزائن الحميد الشكور. قال علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قرأتُ لأكثر من سبعين سنة، فما وجدت حكمة أجمل من: مشقّةُ الطاعة تذهب ويبقى ثوابها، ولذّة المعاصي تذهب ويبقى عقابها». وقال أبو حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اضمنوا لي خصلتين أضمن لكم الجنة؛ اعملوا ما تكرهون إذا أحبّ الله، واتركوا ما تحبون إذا كره الله»(١).

(١) تاريخ مدينة دمشق (١٢/ ١٤٤).

خَليــــلٌ لا يُغَيِّــــرُهُ صَبَــــاحٌ　　عَــنِ الْخُلُــقِ الجميــلِ وَلا مَســاءُ

فاسألِ الله تعالى الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، ومن رام عليين فليسلك سبيلها، فمَنْ تذَكّرَ الفردوس هانت عليه مشقة الطريق، أما الدنيا فنهايتها حفرة ضيقة مظلمة يستوي فيها الملك والعبد، وسواءٌ قبرُ مُثْرٍ ومُقِلّ. وإنما العبرةُ حقًّا بمنازل الآخرة: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

ولا تَسَلْ عن التقي إذا حلّ غدًا بدار الكريم سبحانه، فأسكَنَهُ دارًا خلقها بيده كرامة له، ووصفها بالنعيم، فهل وراء هذا للمُوفّقين مرمى ومُنتهى ومطلب. فحرِّكْ لها حُوَارَها تَحِنّ. وعَودٌ على بدء: من ثَبَتَ نَبَتَ، ومنْ مَلَّ انقطَع، أمّا الأماني فهي رأسُ مالِ المفاليس.

لا ينبتُ العُشْبُ عن بَرْقٍ وَرَاعِدَة　　غَــرّاءَ لــيسَ لهــا سَــيْلٌ وَلا مَطَــرُ

❁❁❁❁

عمودُ نورِ المُصلحين

عليك بالثقة التامة بالله تعالى، فالثقةُ بموعودِهِ هي عمودُ نور الصالحين المصلحين. ويا صاحبي: هل تساءلت يومًا عن قحط صبر بعض الدعاة، أو تساقط بعض الصالحين، أو انتكاسات بعض العُبّاد؟ وهل تعجّبت يومًا من عظيم ثبات المصلحين، ورسوخ يقين بعض الأخيار؟ أرْعِني ذهنك قليلًا .رعاك الله بتوفيقه.:

اعلم أنّ الثقة بالله تعالى هي السّلك الناظم لأمور التديّن بعامّة، وهي الجدار الحافظ بإذن الله لقلب المؤمن من قواصف الشبهات وعواصف الشهوات. فهي الميدان الذي يجري فيه فؤادُ المؤمن ويستن بطِوَلِه في أنحائه، ويستظلّ متنعمًا في أفيائه.

إنّ الثقة بالله هي سفينة نجاة المتقين، وحبلُ وصولِ المُقربين، وسلاحُ الصابرين في دار الابتلاء والامتحان. كما أنّها حصن السابقين، ومُنتجع العابدين، ومَهْيَعُ السالكين. وهي مزيجٌ من قول القلب وعمله، ولها علاقة بأقوال وأعمال القلب الأخرى، إذْ هي ثمرةُ العلم بالله تعالى، ومن ثمارها: حسنُ الظن، والتوكل، وبردُهَا باليقين. واليقينُ هو الذي سبق بالصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. قال أبو بكر بن عياش رَحِمَهُٱللَّهُ: «ما سبقهم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، وإنما سبقهم بشيء وَقَرَ في صدره». قال ابن تيمية: «حصول اليقين يكون بثلاثة أمور: تدبّر القرآن، وتدبّر الأنفس والآفاق، والعمل بالعلم». وإذا كان الإيمانُ تصديقٌ خاصٌّ وإقرار؛ فالثقة بالله هي أصله

وصلبه، فعلى أساسها يقوم بنيانُه. وكل آيةِ إيمانٍ مهما تصرّفتْ فهي متضمنة للثقة بالله سبحانه.

واعلم أنّ كل تدبير الله لعبده ناشئ عن علمٍ وحكمة، قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦] وتأمل ذِكْرَها ثلاثًا في سورة يوسف عليه السلام: فقد ذُكرت في بداية القصة حين قص رؤياه على والده، ثم في وسطها الشديد حينما فقد يعقوب ثلاثة من ولده، ثم في نهايتها حينما سجد له الإخوة والأبوان بمصر، وآثر اللحاق بالصالحين.

ولقد آل أمرُ المنافق لِأن يكون أرذل العالمين وشرّ ولد آدم أجمعين لخيانته وكذبه في الثقة بربّه ولقائه ووعده، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦- ٧].

ومن تدبّر الكتاب العزيز؛ وجدَ أنّ منه آيات هي مثل قُلَلِ الجبال للمسافر في تخوم السهول والحزون. إنها آيات لها قرعُها الشديد لانتباه التالي والسامع، ففيها إيقاظ وتنبيه وإرشاد لقِبلة التوجّه القلبي، مع بلسم سكينة لا يصفه الواصفون، ووقودٌ تام لمحرّك مَرْكوبَةِ المهاجر لربه، وزادٌ وافٍ لمن حمل همّ إصلاح نفسه وأمّته. فهي شاطئ أمانِ العُبّاد والدّعاة والعلماء والمُربّين. وليس لمؤمنٍ ولا مؤمنة غُنيةٌ عن فقهها علمًا وعملًا. وكم من عامِّيٍّ لا يُؤبهُ له مدفوع بالأبواب يقف أمام عواصف فتن الدنيا وقواصف رغائبها بثبات يبزّ به الجبال الرواسي، بينما يقع حاملُ أسفار العلوم تحت جناح أهونِ فتنة! فأين يا تُراه

الخلل؟

مرجع ذلك: أنّ العلم النافع هو العلم بالله قبل العلم بشرعه، وإن اجتمعا في قلبٍ فواهًا. لذا فلم يكن الحبر الحكيم ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مبالغًا حينما قال فيما رواه أحمد في الزهد: «ليس العلمُ بكثرة الرواية، إنما العلم الخشية»، قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. وتدبّر آخر جُملةٍ من سورة البيّنة.

وسُئل الإمام أحمد عن العابد معروف الكرْخي: هل كان معه شيء من العلم؟ فقال: «معه رأسُ العلمِ خشيةُ الله». وقال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنّ المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم خلفه». وكان سفيان الثوري إذا أخذ في ذكر الآخرة يبولُ الدم خوفًا من الله تعالى. فمَن كان بالله أعرف؛ كان له أتقى ومنه أخوف. ثمّ في الآخرة تزولُ كل مخاوف المؤمنين، قال ربهم تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وأنشد أبو إسحاق الإلبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الوصية بالعلم النافع المفضي للخشية والمراقبة والقُرب:

وكنــزٌ لا تخــافُ عليــه لصًّــا ... خفيفُ الحَملِ يوجدُ حيث كنتا
يزيــدُ بكثــرة الإنفــاقِ منــه ... ويــنقص إنْ بــه كفًّــا شــددّتا
وإنْ أُوتيــتَ فيــه طويــلَ بــاعٍ ... وقــال النــاسُ إنــك قــد ســبقتا
فــلا تــأمنْ ســؤالَ الله عنــه ... بتــوبيخٍ علمــتَ فهــل عملتــا

فإنْ مررت على تلك الآيات الموقظة فردِّدْها وتدبرها وتفكّر فيها، ففيها

نداء لروحك، وخطاب لفؤادك، وطَوق نجاة لمصيرك، ومنشورُ فلاح لنشرك ومعادك، فبركةُ العلمِ العمل، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم. وحُسن القصد من أعون الأشياء على نيل العلم ودركه. والعلمُ الشرعي من أعون الأشياء على حسن القصد والعمل الصالح، فإنّ العلمَ قائدٌ والعملَ سائقٌ والنفس حرون، فإن وَنَى قائدُها لم تستقم لسائقها، وإن وَنَى سائقُها لم تستقم لقائدها، فإذا ضعف العلمُ حار السالك ولم يدر أين يسلك، فغايته أن يستطرحَ للقدر، وإذا تُركَ العملُ حار السالك عن الطريق فسلك غيره مع علمه أنه تَرَكَه، فهذا حائر لا يدري أين يسلك مع كثرة سيره، وهذا حائر عن الطريق زائغ عنه مع علمه به، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] هذا جاهل وهذا ظالم، قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

مع أنّ الجهل والظلم متقاربان، لكن الجاهل لا يدري أنه ظالم، والظالم جَهِلَ الحقيقةَ المانعة له من العلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧] قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد ﷺ فقالوا: كلّ من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب. وقد روى الخلال عن أبي حيان التيمي قال: العلماء ثلاثة، فعالمٌ بالله ليس عالمًا بأمر الله، وعالمٌ بأمر الله ليس عالمًا بالله، وعالمٌ بالله وبأمر الله. فالعالم بالله الذي يخشاه، والعالم بأمر الله الذي يعرف أمره ونهيه. قلت: والخشية تمنع اتّباع الهوى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ

رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]»(١).

إنّ الثقة بالله هي اتّكاء إلى جدار عظيم، واستنادٌ إلى ركن شديد، والسعيد من جاوز بثقته طباق السماوات، ووصل بها بين عالمي الغيب والشهادة، فصار يرى بحسن ظنه وعظيم ثقته بوعد ربه ما لا يراه المتزعزعون. وقد سأل أحدهم أباه: يا أبت ما أكثر ديونك؟ فقال: يا بني لا تحزن، فثمّ كفيلٌ كريمٌ مَلِيءٌ غنيٌّ قد وعدني. ووعده الحق. أن يقضيَ عني ديني ويعينني ويغنيني، إنه الله الغني الكريم الوهاب، فقد قال ﷺ: «**من أخذ أموال الناس يريد أداءها، أداها الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها، أتلفه الله عز وجل**»(٢).

سيفتحُ الله بابًا كنت تحسبهُ   من شدّة اليأس لم يُخلق بمفتاحِ

ولأهمية الموضوع في هذا الزمان فسأبسط القول فيه قليلًا، فهلم أخي لنملأ قلوبنا بالثقة بالله وبوعده ولقائه. وهلّا تدبرنا قول الله جل وعز: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الروم: ٦٠]. نعم، فالله حق ووعده حق، فلا يستخفنك أيها المؤمن ويزعزع ثقتك في مولاك أقوام مالهم في الآخرة من خلاق. وتأمل قول العلي الكبير سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الحج: ٦] فكل ما سواه مما يُتعلّقُ به باطل مضمحل، وكل ما يوثق به دونه ضعيف زائل.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٤٤).

(٢) البخاري (٢٣٨٧).

أَراهـــا وإن كانـــت تُحَـــبُّ فإنّهـــا سـحابةُ صـيفٍ عـن قريـبٍ تَقَشَّعُ

وتدبر قوله جل في عُلاه: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ [العنكبوت: ٥] فلا إله إلا الله! كم في هذا الوعد الصادق الكريم من تثبيتٍ لعزائم المحبين، ورَوحٍ لأفئدةِ الموحّدين، وربطٍ على قلوب المجاهدين بألسنتهم وأمواهم وأيديهم.

قيل لأعرابي: إنك ميت، فقال: ثم إلى أين؟ قيل له: إلى الله تعالى، فقال: «ما وجدنا الخير إلّا من الله تعالى أفنخشى لقاءه!» ألا ما أجمل حسن الظن بالله والثقة التامة به وبموعوده، فهي التي تثمر أعجب الثمار، وأحلى النِّتاج، وأبهى النهايات، وأسمى الغايات:

* فالمجاهد يُقبل بمُهجته في أتون كبد الوغى رابط الجأش واثقٌ بموعود ربه. ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

إذا فــارقوا دنيــاهمُ فــارقوا العَنَــاء وصـارُوا إلى موعـودِ مَا في المصاحفِ

* والمنفِقُ أمواله في مراضي ربه واثقٌ بموعوده، ولا يريد من الخلق جزاء ولا شكورًا، فلا ينتظر منهم حتى كلمة: جزاك الله خيرًا، أو شكرًا! لأنّ صدره مليء بالثقة بها عند ربه، وبصدق وعده. «**دعْها فإنّ معها حذاءها وسقاءها**»(١). ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ [العنكبوت: ٥]. ومِن أجمع وأجمل ما ذكره المتقدمون وصية الكيلاني، وكان ابن القيم رحمهما الله

---

(١) البخاري (٢ / ٩٣، ٩٤) ومسلم (٥ / ١٣٥).

تعالى يرددها كثيرًا: «كُن مع الحقِّ بلا خَلْقٍ، ومع الخَلْقِ بلا نفس». فإنّ من طبائع النفس الإنسانية أنّ من عمل لغير الله؛ فلن يقنع بمديح الناس وسيستحسر، أما المخلص لله فمستريح ومسرور، حالهم: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

❋ والمريضُ المدنف، ساكنُ النفس، لاهجٌ بحمد ربه بإنعامه عليه بهذا البلاء! ولكنّ غير الواثقين لا يعلمون حقائق كنوز الرضا وذخائر الثقة. إنه يقرأ في منشور فلاحه وصفًا للمرضيِّ عنهم: ﴿ٱلتَّٓـٰئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّٓـٰئِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] ويتدبر قول ربه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] فتهفو نفسه الواثقة لمزيد من اليقين حتى يكون الخبر كالمعاينة. وكم من مريض أو مكروب أو مضرور يفتح الله له بابًا لمناجاته والأنس به حال كربه ومرضه، حتى إذا زال كرْبُه أو سقمه؛ فَقَدَ معه كثيرًا من موارد ذلك الأنس والسرور والمناجاة.

والمؤمن يرى الأمراض نعمًا لا عذابًا، هو لا يطلبها بل يسأل ربّه العافية، لكن إن نزلت به صبر ورضي وشكر. فأسقامُ الجسد على ثلاثة أنحاء: فمنها العارض وأعظمه الحُمّى . أمُّ مِلْدَمٍ . فهي تدخل كل عضو وتفورُ في كل مفصل، فهي كفارة طيّبة للخطيئات.

الثاني: أمراضٌ ملازمة تحل معه وترتحل، لا تفارقه في فراشه ولا طعامه ولا لذته ولا عبادته كالسكر والضغط والعاهة ونحو ذلك من الأسقام التي يسمُّونها: الدائمة، فهي نِعْمَ الصَّاحبُ والرفيقُ في الطريق للآخرة، فالجسدُ

يعتادها ويتعايش معها على طول السنين، فلا يتأذى بها كشِدَّة العارض النازل، مع ذلك فهي تنظّفُ صحيفته وتُنقّيها على مرّ الأيام من الذنوب، حتى إذا وافى العبدُ ربَّه إذْ كثير من خطاياه قد زالت بسبب تلك الأسقام في دنياه.

والثالث: الأسقام المُفضيةُ للوفاة بإذن الله تعالى، فمنها ما هو شهادةٌ لصاحبها، ومنها دون ذلك، وكلها خير ونعمة لمن احتسب الأجر ورضي بالله ربًّا مدبِرًّا، وحمدَهُ على كل حال، وشكره على كل فضل.

وبالجملة: فالمؤمن يعلم أنّ المصيبة كفارة للسيئات ورفعة للدرجات، ولا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة. وقال إبراهيم المقري وقد رفسته بغلته فكسرت رجله: «لولا مصائب الدنيا؛ قدمنا على الله مفاليس».

والمرضُ لا يُقرّبُ الأجلَ، ولا الصحةُ تدفعُهُ، إنما هي أسبابٌ مجرّدة، أما المُسَبِّبُ الخَلّاقُ الذي يُنزل الداء ويرفعُهُ ويُحيي ويُميت فهو الله وحده، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨١] فالمؤمن يبذل السبب وقلبه معلّق بالله تعالى. حتى من أصيب بمرض خطير كالسرطان فهو بين إحدى الحسنيين؛ شفاء أو شهادة بإذن الله، لأنّه إن لم يدخل فيه بالنص كالطاعون والمبطون ومريض ذات الجنب؛ فهو داخل بالمعنى للعلل التي ذكرها العلماء في توصيفهم لأمراض الشهادة.

ومن رحمة الله بعبده أن تأتيه رسلُ ربه كالأمراض الخطيرة، فتُلمح له

بقرب رحيله إليه، فيستعد للقاء الله ويشتاق بتوبة وعمل، ويتخفّف من كدر الدنيا لراحة الآخرة، وينفض عن ظهره أوزار الخطايا ومظالم العباد، إنما الفاجعة بموت الفجأة، والله المستعان.

* والفقيرُ يكدح بيده قد اكتفى بقوت يومه وليلته له ولمن يعول، بلا استشرافٍ قلِقٍ لمستقبل مظلمٍ، ثقةً أنّ مَن خلقهم هو من تكفل برزقهم، وهو يعلم أنّ مِن أفضل العبادة انتظارُ الفرج ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]. وأسهلُ التوكلِ التوكّلُ في الرزق، وأعظمُ منه التوكل في الهداية، وقد تكفل الله بأرزاقنا لكنه لم يتكفل بصالح أعمالنا. وسئل حكيم عن الرزق، فقال: «إن قُسِمَ فلا تعجل، وإن لم يُقسم فلا تتعب». وقال آخر: «أوثقُ ما أكون بربي؛ إذا قيل ليس في البيت ملح». وتلمّح الفطرة الفقيهة لدى الأعراب فقد سُئل أحدهم عن مالٍ معه بيده: لمن هذا المال؟ فقال: «لله بيدي».

سهِرَتْ أعينٌ ونامت عيونٌ ... في أمورٍ تكونُ أو لا تكونُ
إنَّ ربًّا كفاكَ بالأمس ما كان ... سيكفيكَ في غدٍ ما يكونُ

وحينما ينحرف مفهوم طلبِ الرزق من الاستغناء وطلب إعفاف اليد والوجه إلى الرغبة في جمع المال لذات الجمع؛ فحينها نستحضر حديث رسول الله ﷺ: **«لو كان لابن آدم واديان من مالٍ؛ لابتغى لهما ثالثًا، ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا التراب، ويتوبُ الله على من تاب»**(١). والله تعالى يقول: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ [الشرح: ٨].

---

(١) البخاري (٨/١١٥) ومسلم (٣/١٠٠).

وأنت إن أحسستَ بحاجتك لأحدٍ فقارن بين من عنده الأهل والعشيرة والمال والجند والسلطان، لكنّ الله تخلّى عنه وقطع عنه مدده ومعونته، والثاني مجهول في الأرض مُعان من الحي القيوم، عندها ستُشرقُ شمسُ يقينِك، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧- ١٨]، ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]. وقرأ أحد السلف قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] ثم قال: «لا ينبغي لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق فإنه يموت».

❋ وفاقدُ العزيز ومفارق الحبيب برحيله لربه، يحسُّ أنّ نقطةً من مرارة الفقد تعكّر أنهارًا من بهجةَ الحياة، فحينما ينظر لعزيزه وهو يجود بنفسه راحلًا للآخرة، قد خفق قلبُه آخر خفقاته، ولطالما خفق بالخير، وتلاشى شعاع العين شيئًا فشيئًا، ولكم توهّج دمعها رحمة، وانسدلت الكف اللينة بجانب الجثمان العاطر؛ هناك تقبض المرارةُ بكفها القاسي على الفؤاد المحزون، بيدَ أنّه قلبٌ صابرٌ راضٍ حامدٌ شاكر. ولا يمنع جميلُ الصبر من إسبال عبراتِ الرحمة ونفثِ زفرات الوفاء، لكنه يعلم أنّ في الله خَلَفٌ عن كل مفقود، وأن الجنة ميعاد المحبين المؤمنين، فتهشُّ نفسُه ويهدأُ جأشُه، فلَنِعمَ العزاءُ الجنة، ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦١- ٦٣].

أكـــرِمْ بجنّـــات النعـــيم وأهلِهـــا إخـــوانُ صـــدقٍ أيّـــما إخـــوانِ
جـــيرانُ ربِّ العـــالمين وحزبُـــهُ أكـــرِمْ بهـــم في صـــفوةِ الجـــيرانِ
هـــم يســـمعون كلامَـــهُ ويرونَـــهُ والمُقلتـــــان إليـــــه ناظرتـــــانِ

وعلى كثرة مفرادات الألم والبؤس والشدة إلا أنّ كلمة "**الوداع**" لها وقعٌ مُمِيتٌ للفؤاد.

ودّعتُـــهُ وبـــودّي لـــو يُـــودّعُني طيـــبُ الحيـــاة وأني لا أودّعُـــهُ

ولولا انتظار موعودِ رب العالمين بلقيا الأحباب في دار الكرامة؛ لتقطّعت نفوسُ المُحبين من حسرات الفراق!

عزائـــي نبـــيُّ اللهِ مـــن كـــل ميِّـــتٍ وحسبي ثـوابُ الله من كـلِّ هالـك
إذا مـــا لقيـــتُ اللهَ عنّـــي راضـــيًا فـــإنّ سرورَ الـــنفسِ فـــيما هنالـــك

واهِمٌ مَنْ ظَنَّ أنّ الموت هو الفراق، فالفراق ليس هنا بل هناك: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤﴾ [الروم: ١٤] قال قتادة: «فُرقة لا اجتماع بعدها». اللّٰهم رضاك والجنة ولقيا الأحبة محمدًا وحزبه. وفي وداع البارودي لأمه رحمهما الله، وقد جاءه خبرها وهو في منفاه في سرنديب (سيرلانكا):

فـــوالله لا أنســـاكِ مـــا ذرّ شـــارقٌ ومـــا حـــنّ طـــيرٌ بـــالأراكِ مُهيـــنِمَا
عليـــكِ ســـلامٌ لا لقـــاءَةَ بعـــده إلى الحشر إذْ يلقـى الأخيرُ المُقـدَّمَا

❁ والداعي إلى الله والمربي والمحتسب يقابل جيوشَ الهموم وكتائبَ الصعاب والغموم بابتسامٍ وصبر ورضا ويقين، مهما تكالبت عليه العوائق،

وتحالفت على كبحه المنغصات. رغَبًا ورَهَبًا وتعجيزًا. لأنه واثقٌ بصدق وعد ربه أنّه لا يضيع أجر من أحسن عملًا، كيف وهذا العمل هو وظيفة المرسلين، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣].

❋ والشاب القابض على دينه، المستمسك بعروة ملّته، يلتفت يمنةً ويسرةً في أسراب المتساقطين في حبائل الشهوات وهياكل المنقلبين لحضيض الخطيئات، فيهزّ رأسه متعجّبًا من سرعة تقلب القلوب، ويضع يده على فؤاده خائفًا من مكر ربه واستدراجه، سائلًا ربه مزيدًا من لطفه وتوفيقه، وتثبيتًا من لدنه بحفظ عقله ودينه، فيمشي واثقًا لا تسعُ روحَهُ الدنيا شوقًا للقيا ربه، وفرحًا بالعلم بإلهه، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

❋ والوالد المشفق، يزرعُ ذريتَهُ في أرض أمّهم الطيبة، ويسقيهم بأدعيته المباركة وإرشاده الصادق وقدوته الحسنة، ويعلَمُ أنّ أبناءه وبناته هم مشروع حياته الأعظم. فيجعلُ لتحصيل هدايتهم وصلاحهم واستقامتهم أفضلَ أوقاتِه، وأثمنَ ممتلكاته، وأوفى جهدِه، وأصدقَ دعواتِه، واثقًا بأن المُربِّي الحق والهادي الحق والحافظ الحق هو الله الحق.

وإني لأرجو الله حتى كأنّما أرى بجميل الظنِّ ما الله صانعُ

فجثمانُه في إصلاح أجسادهم، وروحُه معلّقة بالحافظ الهادي، استمطارًا لإصلاح فلذات كبده ومُهَجِ حياته، بزادٍ لا ينضب من الثقة بوعد الله وحكمته، فهو لَهِجٌ مُلِظٌّ بدعوة الحي الذي لا يموت والقيوم الذي لا ينام:

﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ [الفرقان: ٧٤]، ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ [الأحقاف: ١٥].

❋ والمظلوم يتلوّى شِلْوُهُ مِن مرّارةِ قهْرِ الظالم، وتنضجُ كبده من عظيمِ تسلّطه عليه وكبيرِ اجترامِهِ به، وينتفضُ جلدُه من حرارةِ تمزيقِ سياطِ مقارِعِهِ النفسيّة والجسدية، لكنّ قلبه واثقٌ بموعود ربه ونصره للمظلومين. ومهما طالت دولةُ ظالِمِهِ وجولةُ قاهرِهِ ففوقُه جبارُ السماوات والأرضين، الذي يُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلتْه. فلا تزال عينُ المظلوم باردة قرّى، إذْ موعدُ المحكمة الإلهية لِظَالِمِه بالمرصاد، وخيرٌ للمظلوم لو أُخّرَ نكالَ ظالمه للآخرة، ألَا ما أقصر ليَل الظالمين! ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] إله الحق جنّبنا ظلم أنفسنا بشرْكٍ فما دونه، وظلم عبادك يا ذا الجلال والإكرام.

وبالجملة؛ إنّ المبتلى في دنياه إن رُزِق الثقة فلا عليه ما يفوتُه من الحطام، ولْيعلم أنّ الفرج أقرب له من مارِنِ أنفه، وكفى بالإيمان حظًّا، «**ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي إلى رحالكم**»(١).

ولم تُخلَقْ لتعمُرَها ولكن ... لتعبُرَها فجِدَّ لِمَا خُلقتا
وإنْ هُدِمَتْ فزِدْها أنتَ هدمًا ... وحَصِّن أمرَ دينِك ما استطعتا
ولا تحزن على ما فاتَ منها ... إذا ما أنتَ في أُخراكَ فُزتا

(١) مسلم (٣/١٠٨).

وليس على المؤمن أن يتمنى البلاء، بل عليه أن يسأل الله العافية، فإن نزل بلاء صَبَرَ ورضيَ وحمد وشكر، فهو متوكل على ربه وراضٍ عنه قبل وقوع البلاء وأثنائه وبعد زواله، لا تزيده الابتلاءاتُ إلا يقينًا، ولا المصيباتُ إلا صبرًا، ولا المسرات إلا شكرًا وزُهدًا، وهو على الدوام يسأل ربَّه عونَهُ وتوفيقه وحفظه، والله لا يخلف وعده بإجابة من دعاه. وفي دعائكَ ربّك: لا تنس لا تنس لا تنس: اليقين.

وليس كلّ من ظنّ بنفسه الصبر والرضا وقت السعة والرخاء يكون كذلك وقت الضيق والشدة، فالنيّة قُلّبٌ، والعزائم تنفسخ، والعقل يعزُب، والعزيمة تخور، والنفس تضعف، إن لم يكن الله تعالى معه بلطفه وحفظه. فاستودِعْ نفسَك ومن تحبّ من لا تضيع لديه الودائع، وذلك الله وحده.

ولمّا بثّ الله الخلائق اختار لك هذا الزمان وهذا المكان ليكونا محل الابتلاء الإلهي لك، فكن خيرَ ذاكرٍ صابر حامد شاكر تائب مستغفر. واعلم أنّ للمؤمن بحرٌ لا تكدره مصائب الزمان، إنه بحر الرضا بالله تعالى، فاغمِسْ كلَّ همّ لك في بحر الرضا بالله، حينها تنطفئ نيران المصيبة ببرد السلام. فليس مرادُهُ أن يُعذِّب، ولكن يَبتلي ليُهَذّب.

دعِ المقـــاديرَ تجـــري في أعَنّتِهـــا ولا تبيـــتنّ إلا خـــالي البـــالِ
مـا بـين غمضـةِ عـينٍ وانتباهتهـا يغـــيّر الله مـــن حـــالٍ إلى حـــالِ

واعلم أنّ قدرَك إنْ لم تذهب إليه؛ جاء إليك. فكن لله، وبالله، ومع الله، وإلى الله؛ فهو الغاية وما سواه هباء، وهو الباقي وما سواه فناء، وهو الحقُّ وما

سواهُ باطل، قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] وقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨] فمهما سلكتَ من دروب الحياة خيرًا أو شرًّا، سرورًا أو حزنًا، صحة أو سقمًا، شوقًا أو خوفًا؛ فإليه وحدهُ المنتهى.

واحمد الله تعالى واشكره كثيرًا على أن فضّلك على غيرك تفضيلًا بالعلم به والفرح به والأنس به في وقتٍ ترى فيه من يفرّ من الله حال شدته وكربته، فلا يفزع للصلاة والدعاء، بل لسفر أو لهو أو مسكر، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. ولا تقل ليس معي أحد إذا كان معك الأحد الفرد الصمد، ومن لذائذ النفوس الاكتفاء برب البرايا والنفوس. وأنفعُ طعام للقلب هو جرعةٌ من الاكتفاء بالله تعالى.

وإذا استشعر القلب كِبَر ربِّه؛ صغر على إثر ذلك كل شيء. وإذا انصدع صدرُ المؤمن خوفًا من ذنوبه وأظْلم بالُهُ فَرَقًا من سوء منقلبه؛ تذكّرَ سعة رحمة أرحم الراحمين؛ فراقتْ حياتُه، وتنهنهت أنفاسه، وانشرح لرحمة الله صدرُه، وانفسح بحسن ظنه بربه بالُه، وانبلجت أساريره، واندفقت في قلبه سعادتُه، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ليغفرنّ الله يوم القيامة مغفرةً لم تخطُر على قلب بشر»[١]. وتدبّر قول الخليل عليه السلام لأبيه صانعِ الأصنام: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم: ٤٥] ففيه سعةُ رحمة الله تعالى، فمن عُذّب غدًا من (الرحمن) الذي هو أرحم الراحمين، وأرحم للمرء من نفسه

(١) الزهد لابن المبارك (١ / ٤٨٠) (١٣٦٤).

ومن والدته؛ فهو غير حقيقٍ بأيّةِ رحمة. قال أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لتدخلُنّ الجنةَ إلا من أبى وشَرَدَ على الله شراد البعير». فأحسن الظنّ بربك، وحاسب نفسك لا تنزل بك عن مقامات العالِمين بالله رب العالمين. وقال ابن الجوزي: «احرص أن ترحل عنك أيام البلاء إلى أرض الجزاء مادحةً لا قادحة، واعلم أن للبلايا أوقاتًا ثم تنصرم».

يـا صـاحب الهـمِّ إنَّ الهـم منفـرجٌ ... أبـــشِر بخـــيرٍ فـــإنَّ الفـــارج اللهُ
اليـــأسُ يقطـــع أحيانًـــا بصـــاحبه ... لا تيأســـنَّ فـــإنَّ الكـــافيَ اللهُ
اللهُ يُحـــدِثُ بعـــدَ الـــعسرِ مـــيسرةً ... لا تجـــزعنَّ فـــإنَّ القاســـمَ اللهُ
إذا بُليـــت فثِـــقْ بـــالله وارضَ بـــه ... إنَّ الـــذي يكشـــفُ البلـــوى هـــو اللهُ
واللهِ مـــا لـــكَ غـــيرُ الله مـــن أحـــدٍ ... فحســـبُك الله في كـــلٍّ لـــكَ اللهُ

وإذا أراد الله أمرًا هيّأ له أسبابه، وسهّل له ذرائعه، وتدبر قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ [يوسف: ٣٢] فقد عَلِمَ الله تعالى أنّ يوسفَ الصديق عليه السلام سيحتاجُ اعترافها بشهادة النساء بعد بضع سنين؛ فأنطقها على ملأٍ منهن. فثق بربك ولا تبتئس ولا تحزن.

هذا؛ وإن من عظيم المسائل أن الثقة في الوحي لابد أن تكون تامة، فبعض الناس يقابل قواطع الوحي ويقينيات النصوص الشرعية بما يسمّى الاستبعاد العقلي والمنطق والعلم الحديث والعلم التجريبي والبرهاني، ومن

أمثلة ذلك ردهم للحديث الصحيح الذي رواه مسلم(١) أن الشمس تطلع صبيحة ليلة القدر بيضاء لا شعاع لها، فيردونه بحجة ـ بل بشبهة ـ أن الفلكيين لم يروا ذلك ولم يثبتوه لأنهم المرجع في ذلك، وهذا باطل فالوحي قطعي يقيني والأمر بالنسبة لنا منتهي، فإن كان هناك مشكلة فهي لديهم لا لدينا، فهو تقصير أو قصور، والله يهدي من يشاء في أمور الدين والدنيا، ومع سعة العلوم وتراكم المعارف فإن كل هذا داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]، واعتبر تلك الثقة المطلقة في الوحي عبر بقية أبواب العلم التي قد يستغربه العقل ويحيّره لكنه لا يحيله، وأعني به العقل السليم لا الملوث بالقرمطات والسفسطات والماديات، فالثقة بالوحي مطلقة لدى أهل القرآن والإسلام والعلم والإيمان، وهذا الأصل مضطرد غير منخرم وقس عليه ما ورد في القرآن والسنة من انشقاق القمر وتسبيح السماوات والأرض وغيرها وسجودها وأصل خلق الإنسان كذلك حديث الذباب وسجود الشمس لربها والتداوي بأبوال وألبان الإبل وغير ذلك كثير صحيح صريح.

* واقبل البُشرى أيها التالي كتاب ربك. فقد قال سبحانه في سورة فاطر. وتدبر هذا الموضع جيّدًا ففيه زاد أيّما زاد، وتلمّح تلك التجارة الرابحة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ

---

(١) مسلم (٧٦٢) عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وله حكم الرفع لأنه ليس من قبيل الرأي.

أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾
ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ
وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ
يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ
لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن
فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٢٩- ٣٥]. فهل بقيتْ بقيةٌ لمعتبر ومدّكر وبائع لهواه بفلاح الأبد بعد هذا! بل إنّ الدين كلَّه مبنيّ على وعدِ غيبٍ لم نره حِسًّا، وهُنا يكون محكُّ الإيمان وبرهان التصديق ودليل التسليم.

أستودعُ الله حلـمًا كـان يسـكُنني ... مـا خـاب يومًـا رجـائي في عطايـاهُ

وعلى قدر الثقة بالله تعالى بوجوده وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ تكون الثقة به وبوعده، ومن هنا افترقتِ الخليقةُ، فأطيبُهم من يثق الثقةَ المطلقة التي لم تتزعزع ولم تضطرب مهما عصفت بها زلازل الخطوب وبلايا الفتن والرزايا، وهذا مقام المرسلين، ثم الأمثلُ فالأمثل من الصالحين.

وتدبّر كلّ قَصَصِ الأنبياء بلا مثنوية؛ تجدْ أنَّ عُنوانَ الثقة بالله وبوعده موجودٌ باضطراد في تضاعيف أحداث القصص، ولو تأملت السلك الناظم والخيط الجامع لقصص الصالحين من المرسلين فمن دونهم؛ لرأيت أن الذي ينتظم ذلك هو الثقة بوعد الله ولقائه، ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العنكبوت: ٥- ٦].

وتأمل المعنى المتردّد على ألسنة رسل الله في حِجاجهم لأقوامهم وقد اتفقوا على إشهاره: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩] ثقة به واستغناء، ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [سبأ: ٤٧] ولقد تكرر هذا المعنى الغني العزيز وتصرّف في القرآن كثيرًا، مما يدل على أنه من أعظم موارد معاني بناء الثقة في قلوب الصالحين والمصلحين.

وتأمّل تكرار الوعد الإلهي ووصفه بالحق في كثير من آيات الكتاب العزيز، كما في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النساء: ١٢٢] وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥] وقوله جل في علاه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾ [الروم: ٦٠] وقوله: ﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [الأحقاف: ١٧] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥] وقال بعد آيات نصرِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقريبٌ منه مع مسارٍ خطابي بطرازٍ مختلف، وله وقع خاص جدًّا: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٤٨ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٨-٤٩] وكيف لا يوثق بالله وحده وهو القائل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤].

وإذا تـــولاه امـــرؤٌ دونَ الـــورى طُـــرًّا تـــولّاه العظـــيمُ الشـــانِ

ثم تدبرْ آيةَ يونس وكرِّر فيها نظر قلبك، وافرح بالله، وافرح بفضله، وافرح برحمته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧- ٥٨].

وقبل الرحيل قف طويلًا مع آيتي سورة العنكبوت وحرّك بهما قلبك شوقًا لله وثقة به وشكرًا له على إنزال القرآن العظيم لك، وتأمّل صدرك ما الذي حوى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] وقوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] بلى وعزَّتِكَ يا ربنا، ومن لم يكن له في كتابك وسنة رسولك غُنيةٌ؛ فلا أغنيتَه.

❁❁❁❁

لولا الابتلاءُ لارتبنا الطريق

ليس للمؤمنِ مندوحةٌ عن التّفقُّه في سنن الابتلاء، وأنّ الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، وأنّ أمرَ المؤمن كلّه خير، فعن أبي يحيى صهيب بن سنان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرّاءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاءُ صبر فكان خيرًا له**»[١]. فعليك براحلتَي الشكر والصبر. باركك الله تعالى..

والشكر هو خالص الإسلام لأنه ضد الكفر، ولا قيام له إلا على ساعد الصبر، فالصبر والشكر جناحان للقلب يحلّق بهما في سماء العبودية لربه تعالى. ولبعض السلف: «قد أصبح بنا من نعم الله تعالى ما لا نُحصيه مع كثرة ما نعصيه، فلا ندري أيّهما نشكر، أجميل ما ينشرُ أم قبيح ما يسترُ». واعلم أن الله تعالى حافظٌ عبده ما حفظ العبد عهدَه، ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]. فهنا دفء الأمان، وهدوء السكينة، وجلال الثقة، وبرْد اليقين، وحلاوة الانتظار.

والتمكين في الأرض أو في قلوب الناس يسبقه ابتلاء يمتحن الله به صدق عبده، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] وسئل الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا أبا عبد الله، أيهما أفضل أن يُبتلى الرجلُ أم يُمَكّن؟

(١) مسلم ٨/٢٢٧ (٢٩٩٩).

فقال: «لا يُمكّن حتى يُبتلى. ابتلي الرسل فصبروا، ثم مُكِّنُوا».

والحياةُ كلها ابتلاء لقياس صلاحية الإنسان لسكنى الجنة أم لا، فالجنة هي لأحباب الله المؤمنين الصادقين الصابرين، فإذا تلوّث أحدهم بخطيئة في دار الامتحان؛ ابتلاه ربه بتكديرٍ يرفأُ شقّ ثوبِ إيمانه، وبمصيبةٍ ترفعُ درجته، وتكفّر خطيئته، وتغسل صحيفته وتُنَبِّه قلبَه من غفلته. ففي كل عثرة في حياتك، ومنعطفٍ من عمرك، وخيبةِ أملٍ فيمن حولك؛ اهتف بنفسك: هذا ابتلاءٌ من ربك: ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] فتأملها جيدًا، فإن في طيّ المحنِ مِنحًا، وأتونُ الكَيْرِ يَفْرُزُ صِدقَ اللجينِ من زيف النحاس، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ومن نارِ الألم يشرقُ الأمل، ومن ليل الهموم ينشقُّ ضياءُ الفرح، فيا مثقّلا بأحزانه أَفِق، فحُزن الدنيا لا يستحق. وتذكر قول السلف: لولا الابتلاء لارتبنا الطريق! فعلى قدر إيمانك ويقينك بالقرآن؛ يكون انتفاعك به، وعلى قدر تسليمك وانقيادك لهداياته؛ يكون فلاحك في الدارين. ذلك أنّ القرآن العظيم حقٌّ مطلق لا مرية في حرفٍ منه، فحروفُه ومعانيه هي من لدن حكيم خبير.

قد حَفِظَهُ من تكلّمَ به، وكَتَبَ أنّ السلامة والعافية مع من دار مع أمره مهما حَرَنَتِ نفسه، ووقف معه مهما جمحت، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] لا يضلّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. ورضي الله عن ابن عباس.

وفي هذا الزمان المتلاطمة أمواجُ فتنه، أضحى الحليم حيرانًا، والشجاع

جبانًا، والعليم جاهلًا.. إلا من رحم ربي. ولربّما نَزَفَ دمُ الروح نزفًا لا كنزفِ دم الجسد. فعلى كلِّ حازمٍ مراجعة سجلات عمره، ومنهاج حياته، فالفرصة يتيمة، والمهلة لا تحتمل العَوْد والرُّجعى.

قد يهُون العمرُ إلا ساعةً وتهونُ الأرضُ إلا موضعًا

لقد خلقنا الله ليبتلينا ويبتلي بنا، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] فالأمر حاسم جدًّا، كما قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١]. إذن فالمسألة مسألة فتنة وابتلاء، فحقيقة الابتلاء هي الفتنة التي تبلو حقيقةَ معدنِ المرء أَمِنْ ذهبٍ قلبُهُ فيفلح، أم من نحاس فيخسر نفسه!

يا صاحبي، الأمرُ أقرب مما نتصوّر، وخَطْبُ نفوسنا أجلُّ من أن يوصف، والعلاج كلّه بين أيدينا فهل من معتبرٍ مِدَّكِرٍ. لقد وصف الله تعالى كتابه الكريم بالشفاء والهدى والبيان والرحمة. فهو الشفاء التام لكل الأدواء، وبخاصة ما كان متعلقًا بالأرواح والأفكار والعلوم والتصوّرات، فضلًا عن الأجساد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

وإنّ هَٰهُنَا إحدى عشرة آية من صدر سورة العنكبوت، وددتُ لو أنَّ كلّ مؤمنٍ يتلوها في هذا الزمان مرارًا، ويكررها سرًّا وجِهارًا، ويحفر حروفها ومعانيها على جدار قلبه، ويحقنها في شرايينه، ويجعل هداياتها نصب عينيه، ويا حبّذا ترديدها من لَدُنْ الأئمة في الصلوات، ففي القلوبِ حاجةٌ لها ولأمثالها.

إذْ قد وصفتِ الداءَ كما هو، وعرّتْ زيفَ الشبهة والشهوة، وأقامت عمود الضياء الهادي من الضلالة، العاصم من الغواية، حتى عاد الأمر جليًّا واضحًا لا تحجبه سوى أهوية النفوس الخاسرة. دعونا يا مُحبين نقف قليلًا مع شيء من هداياتها:

قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ فمن آمن فلا بد له من الفتنةِ حتى يُثبِتَ صدقَه. لذا فلا بدّ له من علمٍ بالحق يدفع به عن قلبه عاديات الشبهات، وإيمانٍ راسخ يذودُ عنه سِبَاعَ معاصي الشهوات، ولعلّ لأجل ذا أَتْبَعَ سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ أي يظهر علمُه في عالم الشهادة، وإلا فهو علّام الغيوب، والماضي والحاضر والمستقبل عنده سواء، فهو خالق الغيب وخالق الشهادة سبحانه وهو العليم الخبير.

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤﴾ أي لن يفوتونا. ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٥﴾ الله أكبر! فيا أيها المحب: هذا ربُّك قد قطعَ لك الوعد؛ فتزيّنْ له بالصالحات تلْقه عنك راضيًا. ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ فالله ليس في حاجة أحد، بل العبد هو المضطر إلى مَدَدِ ربه وعونه وقبوله وتوفيقه. ودينُ الله محفوظ ومنصور، ولكن السعيد من وُفّقَ لمعيّة حفَظَته وحَمَلَته وأنصاره. قال الحسن: «إنّ الرجل ليجاهد وما ضرب يومًا من الدهر بسيف».

ثم قال جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾ أي بأحسن أعمالهم وهي الطاعات، ومنه برّ الوالدين حتى وإن أَمَرَا بأعظم خطيئة، فكيف بالمؤمِنَين! قال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ مع هذا فقد بشّره ووعده بأن يجعله في زمرة المفلحين يوم القيامة، وليس مع والديه المشرِكَين، فكيف إذا كانا من المؤمنين! قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾.

ثم ذكر سبحانه حال بعض المخذولين ممن لم يدخل الإيمان بشاشة أفئدتهم، إنما هو الرياء والنفاق، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ بلى وعزة ربنا. كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩-١٠] ففتّش قلبك الآن يا صاحبي قبل أن يُحَصَّل ما فيه.

ثم ختمها العزيز سبحانه بقوله الجليل: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾ فالفتن العامة والخاصة تفرزُ الناس لفسطاطين: فسطاط إيمان وبرّ، وفسطاط نفاق وكفر، قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ

وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] وفي الحديث الصحيح عند أحمد(١) وغيره قال ﷺ: «**أشدّ الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حَسَبِ دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقّة ابتلي على قدر دينه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركَهُ يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**». وعن أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوكٌ عليه قطيفةٌ، فوضع يده فوق القطيفة فقال: ما أشد حُمّاكَ يا رسول الله! قال: «**إنّا كذلك، يُشدّد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر**» ثم قال: يا رسول الله من أشد الناس بلاء؟ قال: «**الأنبياء**» قال: ثم من؟ قال: «**العلماء**» قال: ثم من؟ قال: «**الصالحون. كان أحدهم يُبتلى بالقمل حتى يقتله، ويبتلى أحدهم بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها، ولَأحدهم كان أشدّ فرحًا بالبلاء من أحدكم بالعطاء**»(٢). وقال ابن القيم في الميميّة:

فـوالله لـولا الله يُسـعِدُ عبـدَهُ ... بتوفيقـه واللهُ بالعبـدِ أرحـمُ
لَـمَا ثبـت الأيـمانَ يومًـا بقلبـه ... عـلى هـذه العـلّات والأمـرُ أعظـمُ
ولا طاوعتْـهُ النفس في تـركِ شـهوةٍ ... مخافـةَ نـارٍ جمرهـا يتضرّمُ
ولا خـاف يومًـا مـن مقـامِ إلهـه ... عليه بحكـمِ القسـطِ إذ لـيس يظلـمُ

❁❁❁❁

(١) أحمد (١ / ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٢).

(٢) صحيح الترغيب والترهيب (٣ / ١٨٠) (٣٤٠٣) وصححه. وأصله عند أحمد (١١٨٩٣) بنحوه دون ذكر العلماء، وأخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤) وأبو يعلى (١٠٤٥).

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾

النصر للإسلام مهما انتهت إليه ظنونُ الناس، وحقيقةُ النصر هي تديّن الناس بالإسلام واعتناقهم إيّاه ودخولهم في حوزته وثباتهم عليه، أما ملكُهُ للآفاق فليست كنصرِهِ في النفوس، وإن كنّا ـ بحمد الله ـ قد وُعدنا بهذا وهذا.

إنَ من المهمات في هذا العصر نشرُ ثقافة التفاؤل بنصر الإسلام، والاستبشار بمستقبله، وحسن الظن بالله تعالى فيه، وعظيم حكمته في أقداره، وحسن عاقبته للمؤمنين. فهو الذي وعد نبيَّه بعلوِّ دينه ونصر جنده وعزِّ شريعته مهما تكالبت عليها سباع الكفرة وضباع المنافقين.

والتفاؤل بجمال المستقبل ليس ضعفًا إذا كان ناشئًا عن حسن الظن بالله تعالى وليس عن خوَر وعجزٍ وكسل، فاستفرغ جهدك في نصر دين الله وأحسن الظن بجميل تدبيره. واعلم أنّ الفرقانُ بين التفاؤل والأماني هو الجدية والعمل، فالأملُ محتاج لعمل. وأعظم الجدّية هي الجديّة في الاستقامة على الإسلام، فدعوةٌ بلا استقامة؛ لا عمود لها ولا ثبات ولا صدقيّة، وإن أردتَ امتحان جدية رجلٍ في الاستقامة؛ فارقُب تبكيره لشهود صلاة الجمعة، ألا ما أقلّهم وأكْرِم بقليلهم.

وقد يُظن جهلًا بالمتفائل سذاجة لقوّة تفاؤله، وحقيقته حسن الظن بربّه ومعرفته بسنن الله في خلقه. فلا تخذل نفسك بالقلق، بل أسعفها بالتفاؤل. ومهما كبَسَت على صدرك جيوش الهموم وتراكمت على روحك أرتال الغموم؛ فثمّ نورٌ

في آخر النفق، إنّه حسن الرجاء بالله تعالى. ومهما بلغ حجم جليد الكذب يومًا؛ فشمس الزمان كفيلة بإذابته، حينها سيحصحص الحق. وما أضيق العيش لولا فسحة الأملِ. ومع ظلام التحليلات وسوداوية التوقعات، وتتابع الفواجع الدامية في جسد الأمة؛ تبقى هناك ألطافٌ مدهشة غير متوقعة، ليس لها تفسير سوى لطف الله المحض، ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٢].

وعلى الداعي إلى سبيل ربه أن يثق كل الثقة ويوقن كل اليقين بأنّ الله ولي الصالحين، وأنّه إن رضيَ عنه؛ فلا عليه ما فاته من غيره، فالخيرُ بحذافيره في مراضيه، والنعماءُ بكمالها بين يديه، وقد وعد. ووعده الحق. أنّ العاقبة للمتقين.

والحــقُّ منصـــورٌ ومُمـــتَحنٌ فـــلا تعجـــب فهـــذي ســـنةُ الـــرحمنِ

وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وقد ذكر الله هذا الحرف في آل عمران وكرره في الأنفال مختتما إياه في الموضعين بذكر اسميه الجليلين ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] فهو العزيز القوي الغالب، وهو الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها اللائقة وله الحُكمُ والحكمة، ولا نصر على الإطلاق إلا من الله وحده، فكلما احتجت لنصر . وأنت على الدوام كذلك. فردّد بقلبك: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فلن تنتصر على نفسك أو على غيرك من الإنس والجن وغيرهم إلا بحبل الله الناصر، فنصره حقيقي تام، ونصر غيره هباء فانٍ، فتعلّق به وحده واعبده حق العبادة.

لقد وعدنا الله بالنصر إن نصرنا دينه، وبالعز أن اعتصمنا به دون سواه، وبالتمكين إن مكّنّا عبادته في القلوب والأعمال، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ [الحج: ٢٢] وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١] وقال جل وعز: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ولا يكفي الصبر لإدراك النصر، بل لا بد أن يُقرن بالتقوى ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران: ١٣٠]. وأبشر ببشرى الله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: ٥-٦] فالعاقبة للتقوى.

نحن الذين إذا وُلدنا بكرةً ... كُنّا على ظهر الخيول أصيلًا
فلْيهدِموا كلَّ المآذنِ فوقَنا ... نحنُ المآذنُ فاسمَعِ التهليلا

ولسانُ حالِ الباطل: أَشغِلْهم بالتوافه، واحشُ جماجمهم بالسفساف، وصبّ عليهم سيل الشهوات، واملأ وقتهم بحصد اللاشيء، ثم دَعْهُم في ضحضاح الخيبة؛ كي لا يدافعوا بالحق باطلك!

وما باتَ يسقينا سوى الماء وحدَهُ ... وهذا جَزَا من بات ضيفَ الضفادعِ

وبحمد الله فمهما صلصل الباطل وجلجل؛ فهو تبابٌ، ويبقى الحق شامخًا راسخًا، وتدبّر: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ١١٦] ثم كانت النهاية بأيسر طريق: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ

﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧] إنها سُنَّةُ الصراع ونهايته: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

جيشٌ من الكفر مهزومٌ إذا صَدَقَتْ   نيّـاتُ قـومي إلى أعـلى أعاليهـا

وافرح - أخا الإيمان - ببشارة نبي الإسلام بنصر الله للإسلام، قال النبي ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرضَ فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإنّ أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها**»(١). وقال أيضًا: «**ليبلغنّ هذا الأمرُ ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك اللهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدين، بعزِّ عزيزٍ أو بذلّ ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام وأهله، وذلًّا يذل به الكفر**»(٢).

وتأمل حال الأمة اليوم، واعلم أنّ أحاديث آخر الزمان في الفتن جُلّها في العراق، والملاحم جُلّها في الشام، حتى طريق الدجال للحجاز يكون من بينهما، نعوذ بالله من مضلات الفتن، ونسأله جبرَ القلوب بعزّة الإسلام في قلوب أهله وميادين الجهاد في سبيله، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لكلّ طريقٍ مختصرًا، ومختصرُ طريقِ الجنةِ الجهادُ».

خَلَـقَ اللهُ للحـروبِ رجـالًا   ورجـالًا لقَصـعةٍ وثَريـدِ

ولا تكن - لك الله - من المُرجفين ولا البكّائين المتشائمين، وفي الصحيح:

---

(١) مسلم (٢٨٨٩).

(٢) أحمد (١٦٩٥٧) وصححه الألباني على شرط مسلم في تحذير الساجد (١١٨-١١٩).

«إذا قال الرجل: هَلَكَ الناسُ، فهو أهلكُهُم»(١). والإسلام يعلو ولا يُعلى، واعلم أنّ نصرَ المؤمن وفوزَه لا يلزم منه كسب الحرب العسكرية، بل يكفي منه ثباته على الإسلام، وهذا معنًى حَسَنٌ تِكرَارُه في المجامعِ والخَلوات، فمن ثَبَتَ على دينه فهو المنتصر حقًّا حتى ولو كان تحت الأقبية في الزنازين أو تُوِّج بالشهادة في سبيل رب العالمين، وتزولُ عن أماكنها الجبال، ولا تزول عن مبادئها الرجال، فالعبرةُ الحقّ إنما هي بالدين الحق، أما الدنيا فمجرد مَمَرٍّ للسائرين. ورضوانُ الله عز وجلّ أصلُ جميع السعادات، وكلّها راجعة إليه، قال سبحانه لمّا ذكر نعيم الجنة: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فلتكن ـ رعاك الله ـ من أصحاب المبادئ لا من أصحاب المصالح، واعلم أنّ المصالحَ تتدثرُ أحيانًا بثياب المبادئ، فتجمعُ ضغثًا على إبالة، وحَشَفًا وسُوءَ كَيْلَة وشُحًّا ونِفَاقًا. فإنْ يومًا ضعُفَتْ نفسُك وحارَ عقلُك وتحرّك يقينك وتزعزع جأشك؛ فتدبرْ خاتمة الصافات، وفيها يقول ربنا الأعلى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٧ وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٨ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٩ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٧٦-١٨٢].

أبشرْ خليلي فقدْ أجْلَتْ لنا الكُتُبُ ... نصرٌ من الله في الكفّار يلتهبُ
أَنْجِدْ أُخيَّ ولا تلوِ على ضَعَةٍ ... واشف صُدوراً شواها القهرُ والكَرَبُ

---

(١) مسلم ٨/٣٦ (٢٦٢٣) (١٣٩).

أشرقْ بوجهك قد حانتْ بوادرُه وعـدٌ مـن الله للأحـرار يقـتربُ
تنزيـلُ مرحمـةٍ تنزيـلُ ملحمـةٍ تجنيدُ ألويـةٍ صَمْصَامُها النُّجُبُ
نبراسُها العلمُ والتقوى تؤجِّجُها فرقانُها سائقٌ إنْ صاحتِ النُّوَبُ

* تذكّر دومًا تمام النعمة بالإسلام. قال ربنا عز وجل ممتنًّا: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣] وتدبر قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣] وهذه أعظم نعمة في الوجود أن هدانا للإسلام ورضيه لنا للوصول إلى مرضاته، قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: «أكملَ لهم الدين فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وأتمّه فلا ينقصه أبدًا، ورضيه فلا يسخطه أبدًا»(١). فتذكر دومًا نعمة هداية الله لك بالإسلام، ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]. وتفكّر كثيرًا كيف تمّمَ الله عليك النعمة في نفسك، وأراكَ العِبرة في غيرك، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران:١٩] فمِنْ هنا تَكَامَلَ إسلامُ العقيدة في ديننا بإسلام الشريعة، فتمّتْ به النعمةُ الإلهية على البشرية. فالأنبياء على الإسلام الحنيف معتَقدًا وعلى شرائعهم عملًا، أما محمد ﷺ فقد جمع الله له إسلامَ العقيدة وإسلام الشريعة، قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ

(١) ابن جرير (٩/٥١٨).

عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا في قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج: ٧٨] قال: «اللهُ عزَّ وجلَّ سمّاكم». وقال مجاهد: اللهُ عز وجل ﴿سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ قال: الكتب كلها، ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ قال: القرآن[١]. وقال ﷺ: «**الأنبياءُ إخوةٌ لعلّات[٢]، أُمَّهاتُهم شتى ودينُهم واحد**»[٣].

وبحمد الله تعالى فمعدن الإسلام الأصيل إلهيٌّ محفوظٌ، فهو غير قابل للتغيير والنّحت والتبديل، قد يتغيّر بعض معتنقيه لكنّ حقيقته باقية محفوظة في صدور وسطور من شاء الله تعالى من عباده الذين حفظه بهم وحفظهم به. ومهما اشتدت ضراوة الحرب على الإسلام والتنكيل بأهله، ومهما علت قمم المكر به وكيده، إلا أنّ خصومَهُ يعودون منه بأحمالِ الخيبة، ذلك أنه كاملٌ في ذاته، عَصيٌّ على السقوط بكامله، حتى وإن تعثّر أهلُه لجهلٍ أو ضعفِ عزيمة، لكنهم في الحقيقة يَعلُون به ولا يُعلى عليهم بغيره ما داموا به مستمسكين.

وأبشر أخا الإيمانِ فالفتحُ قادمٌ   وإنْ أجلبَ الشيطانُ كلَّ النَّواديا

---

(١) الدر المنثور (١٠ / ٥٣٥).

(٢) لعلّات: بنو العلات: بنو رجل واحد من أمهات شتى. والمعنى أنّ الدين الحنيف واحد، وهو أمور المعتقد، أما الشرائع فمختلفة، وأكملُها خاتمُها وهو الإسلام.

(٣) البخاري (٤ / ١٦٧) (٣٤٤٣).

إنّ حقيقة الإسلام شديدةُ النصوع بالغة النصح، فمن ضَرَبَ معدنه بحربِ مادةٍ؛ انفجرت بين يديه مادةٌ ثورية فاجتثّته، ومن رام تبديله بفكرٍ أو خرافة؛ اندهش لرسوخ حقائقِ العلمِ والفطرة في أركانه، ومن قارنه بغيره؛ تبيّن له شموخه وسموّه ورفعته عن كل ما عداه من دين مبدل أو فكر محدث.

والإسلام هو الخصم التقليدي للحضارة النصرانية، أو لِنَقُل الصليبية لأن الشعار الصليبي يجمع ثاراتهم التاريخية علينا، حتى وإن كانوا ملاحدةً بالكلية. ولا يوجد في الأرض حضارة تضاهي الإسلام بروحيّته وعدالته وتسامحه وانسجامه، خاصة وأنهم يشعرون بإفلاس حقيقي عند مضايق المقارنات والمناظرات معنا. لذلك فهم يستميتون في إبقائنا خلف ركب التقدم المادّي التجريبي، علّهم يعوضون شيئًا من تفوّقنا عليهم في السموّ والرقيِّ والحرية والتوازن والحقِّ المطلق. ومعلومٌ لكل عاقل أنّ الحضارة التي يُفصِّلُها غيرُك ويُلبسك منها ما يليق بأيقوناته دون ما يفتح باب منافسته؛ هي في الحقيقة دارُ عبيدٍ لا فضاء أحرارٍ.

وليس على الأرض من جميع الأديان والثقافات خصمٌ ثقافي حضاري أخلاقي يقارب الإسلام، لذلك فلا نستغرب توحيدَ الهجمات المتتابعة عليه، بيد أن الله تبارك وتعالى قد قال: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصف: ٨] فدين الله نور يكتسح ظلام الجاهليات ويُبدِّدُ ظُلُمَ الشياطين ويهدي للحق المبين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢] ، وقال سبحانه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾

[الصف: ٩] وتدبر معنى الظهور المتضمن للعلوِّ والقهرِ والغلبة والوضوح، وقال الله تعالى في وصف أثر الإسلام على ظلمات الجهل والظلم والكفر: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فالظلمات كثيرةٌ، وسوادُها كثيفٌ، لكن الإسلام شمسٌ تسطعُ فتنير الأرجاءَ، وتضيء الأنحاءَ، وتُذيب أقنعة شمع الأعداء، قال المصباح المنير والبشير النذير صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله: «**لنْ يشادَّ الدينَ أحدٌ إلّا غَلَبَهُ**»(١). وفي طلعةِ البدرِ ما يُغنيك عن زُحلِ.

أيا طولَ يومِي ثمّ يا طولَ ليلتي ... إذا هيْعَةٌ ثارَتْ وما كُنتُ رامِيا
فخُذْ من دمائي يا سَمِيعًا لدعوتي ... فما أطيبَ الآلامَ إنْ كنتَ راضِيا
لئِنْ عَزّ ديني واستُبيحَتْ جوارحي ... فأينَ مقامُ العزِّ إلا مقامِيا

❁❁❁❁

(١) البخاري ١/١٦ (٣٩) و٨/١٢٢ (٦٤٦٣).

تعلّمْ أن تُحِبَّ النّاس

ما هو الشيء الذي يسعى لتحصيله كل الناس، ويبذلون لأجله أغلى ما عندهم، ثم في النهاية لا يُحصّله على التَّمام إلا الأقَلّون؟

إنّه السعادة، وهي ذلك المزيج الشعوري الجميل بإدراك المُنى. وتعظمُ السعادة حينما تكون الأمنيةُ عظيمةٌ وإدراكها تامًّا، فكلّما قويت الرغبة؛ ازدادت نشوةُ الحبور عند إدراكها، وتأمل أعظم نعيم الجنة بلذة النظر إلى وجه الجميل سبحانه، فاللهم نسألك من فضلك العظيم ونسألك بوجهك لذة النظر إلى وجهك، في غير ضراء مضرّة ولا فتنة مضلّة، اللّهم زيّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين.

وفي هذه الدنيا لا يخرج الإنسان عن ثلاثة أحوال . مع تعاقبها عليه . فإمّا أن يزيد زمان سعادته على عدمها، أو العكس، أو استواء الطرفين. وكلّ إنسان يسعى لتكميل نقصِ أسبابِ تحصيلِ رغيبته العاجلة أو الآجلة.

ولستُ أرى السعادةَ جمعَ مالٍ ... ولكنَّ التقيَّ هوَ السعيدُ
وتقوى اللهِ خيرُ الزاد ذُخرًا ... وعند الله للأتقى مزيدُ

تريدُ راحة نفسك؟ إذن فلا تُعلّقها بما لا بدّ لها من فِراقه من حطام الفانية أو سُكّانها. وتأمل أبناءها وهم يتدابرون ويتهاجرون ويضيعون صفقات الآخرة لأجل دنيًا يظنّونها تستحق، وحقيقتها مجرّد مَقِيلِ مسافرٍ.

لا تركننّ إلى القصور الفاخرة ... واذكرْ عظامكَ حين تُمسي ناخِرَة

وإذا رأيــتَ زخـــارفَ الـــدنيا فقـــل   يــا رب إنَّ العــيشَ عــيش الآخــرة

فعلى قدر زهد قلبك تفوز براحة روحك، فنعيم الدنيا مُنغَّصٌ مهما استدارت بك ألطافه، وأكدارها زائلة مهما لوّعتك خطوبُها، بل لا شيء لأجلها يستحق الكراهية. وهل أنعمُ من الراحة والعافية!

تريد نعيمًا لا كدَّ فيه ولا كدر معه، ابشر به فهو في متناولك، إنه حب الخير للناس. وإنه ليسير على من يسره الله عليه، وإنّ المُوفّق المحظوظ هو من أكرمه الله به. فهو جَنَّةٌ قبل الجَنَّةِ، وراحةٌ قبل الراحة، وسرورٌ يستتبعُ سرور. أوّلا يكفيك يا صاحبي: **«حتى يُحِبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»**[1] وإن لنَيْلِهِ طرائق وأسبابًا منها عشر أُراها مفيدة:

١-أحبب نفسك أولًا.

فتعلّم أن تحب نفسك، فمن كره نفسه كره حياته، وأنّى لك أن تحبّ نفسك إلا إن أحسنت التعرّف إليها، فهي بعيدةٌ على قربها، صعبة على يسرها، عميقةٌ على ضيقها واتساعها. تذكّر عيوبك المستورة والمنظورة، واكشف نوازع نفسك، وكن صريحًا في تفتيشها وإصلاحها، واحذر خداعها وتلوّنها، فعقلك قد يخدعك من حيث لا تشعر. وجِماعُ ذلك أن تكون كما أنت بلا تكلّف ولا تصنّع، أرسل نفسك على سجيّتها وكن بطبيعتك، ولا تدّعي لنفسك إيمانًا أزكى، ولا صدرًا أصفى، ولا ذكاءً أحدّ، ولا علمًا أغزر، ولا مالًا

---

(١) البخاري ١/١٠ (١٣) ومسلم ١/٤٩ (٤٥) (٧١) وقال النووي في شرح صحيح مسلم ١/٢٣٠ (٤٥): «معناه لا يؤمن الإيمان التام».

أكثر، ولا مقامًا ليس لك.

فأول درجةٍ في سلم الراحة أن تكشف نفسك كما هي، فلا تُعليها ولا تُدنيها إلا تواضعًا، وليس الإزراء بأشدّ من الاستعلاء، ومن تواضع لله رفعه. وليس معنى ذلك أن تسوطها بسياط الكبت والهضم لما لها فيه سبب فلاح ولطيفةُ فرحٍ، «والقصدَ القصدَ تبلغوا»[١].

٢-الحياة أقصر من إضاعتها في الأحقاد والكراهية.

لو رحلت لنزهة قصيرة مع من تحب وقد تعبت في إعدادها، فهل ستسمح بسرقة سويعات من وقتك الباهي وزمنك الزاهي في خصومات تكدّرُ صفوَ سعادتك في تلك السياحة؟ قطعًا لن تفعل، وسيقول حالك: في باقي الزمانِ مُتَسعٌ للنكد، فَلِمَ العجلة؟!

فأقول لك يا محب: إنّ الدنيا بأسرها كذلك لمن يُحسن حساب الزمن، وما هي إلا سنوات وترحل عنها بعمرك الذي اضمحل في تضاعيف أحداثها، وتُنسى كما نُسيَ سابقوك، وتُعفي السوافي معالم رمْسك، فابتهج واسعَدْ وأَسْعِدْ.

لا تحبس نفسك في تراث حقدك، وانطلق ففي الحياة متّسع، انتزع رمح الحقد القاتل من قلبك، فلا تسمح لكدر الحقد إن وصل قلبك أن يطيل مكثه

---

(١) البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦).

أكثر من سحابة قيض نجديَّة. وليس رئيس القوم من يحمل الحِقدَا. ولا أجدُ لمن يتغذّى على الحقد مثلًا ألصق من شارب البحر، فإنه كلما ازداد شربًا التهب عطشًا حتى يموت! اللّهم طهّر قلوبنا واسلل سخائم صدورنا، إله الحق.

٣- استخرج أحسن ما عند الناس.

وستراها أكثر مما تطيق إحصاءها، فما من البشر أحدٌ إلا وهو يمتاز بمحامد، فانظر لها نظر المحب الحامد، لا الغيور الحاسد، فالنفسُ الطيبة يُطربها جمال الأخلاق، وتهزُّها مكارم الشّيم حيثما كانت. وتأمّل إيجابيات خصمك وحسناته مهما كشف عن وجهه برقع الحياء، وحاول . بكرمك . أن ترفع محامده حتى تفوقَ وتعلوَ ما بلغك عنه أو منه من سوء، وانظر لنصف الكأس الممتلئ فيه.

وما الخصبُ للأضياف أن يَكثُرَ القِرَى ولكـنّما وجـهُ الكـريمِ خصـيبُ

وقابل أذى الناس بجميل أخلاقك لا بسيّء أخلاقهم، وإلا فأنت مثلهم. وإنّ الذي يُصدَم بأخلاق الناس ومواقفهم في الخير أو الشر؛ هو في العادة شخصٌ لم يتعلّم فنَّ التفرّس في الناس. ولقد تأملتُ في الناس؛ فرأيت أن الحسد يستتر خلف كثير مما يسمّونه أسباب كراهية، فَجُزْ ناديهم بطهارة قلبك وسلامة صدرك وحسن ظنك.. وإن البرَّ يا صاحبي أسلافٌ.

٤- صارِحْ صاحبك، فالصراحة دواء ما غَبَّهُ الكتمان.

من حقوق الأخوة التثبّت، ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] فلا تقبل في مؤمنٍ

قالَةً ما لم تخرج منه بعذر وإعذار. صارحْ من بلغتك إساءته إن أحسست من نفسك أنها لا تطيق تجرّعها وإغفالها ونسيانها، وعاتِبْهُ إن استحق، أو اعف واصفح.

وكم من لفظةٍ خاطئة خرجتْ؛ فلفظَتْهَا نفوسُ الأخيار فأماتوها في مهدها، ثم شكرهم في قابل الأيام من رَمَوها، وكم كلمةً بريئة من قلبِ مؤمنٍ غافلٍ تلقّفتها حمّالةُ حطب النميمة؛ فأركبتها قلائص الغيبة والبهتان؛ ففرّقت ذات بينِ المحبين، إذ طارتْ بأحلامِهم لمّا لم يتبيّنوا، وأثارتْ نقعَ الأحقاد بين المؤمنين بعد أن غاب حليمُهم وحضر طائشهم وعجولهم، ومن قرأ التاريخ شيّبتْ قذالَهُ عجائِبُهُ. قال ابن الجوزي: «إذا خرجت من فِيِّ أخيك لفظةٌ منكرة، فلا تلحقها بأختها تلقحها، فإن نسل الخصام ذميم».

٥- تأمل خصمك بعد رحيله عن دنياك أو رحيلك.

اقفز بمخيلتك وارحمهم بعد أن ترحم نفسك، تذكّرْ رحيلك عنهم وتركهم خلفك في ذي الفانية، أو رحيلهم لمصيرهم وما فيه من أهوال. نعم يا صاحبي فقد يمتن الله عليك ببصيرةٍ وعلمٍ ويقين بالآخرة وأهوالها، فاجعلها مرآةً تعكس تعاملك مع الناس أحبابًا وأخصامًا. واعرف قدر الدنيا، وتلمّحه من مُسَمّاها. وما أدنى هِمَّةَ من ينازع على جناح البعوضة! أولم يكفك أن تعلم أنّ من عاجل نصرك علمك بخذلان من رام ظُلمَك من جهة ضلاله أولًا ثم ببغيهِ آخرًا، فتذكرها دومًا ففيها للمظلومين سلوىً وعزاء.

٦- تأمل ضعفهم وقلّتهم وفقرهم وحاجتهم.

من أخصّ صفا المتقين الرحمة، وأولى الناس برحمة الله أرحمهم لخلقه مهما كان أذاهم وشرّهم، ولئن تدثروا بالغرور، وتلفعوا بالستور، واحتجبوا بزيف السرور؛ فلقد علمتَ أنّهم مثلك ضعفاء مهما استقووا، وفقراء مهما استغنوا، وقِلّةٌ مهما تكاثروا، ومحتاجون مهما صمدوا بدعواهم، فارحم وأشفق، واسمُ وارتفع، فالقاع يا هذا مزدحم.

٧- تذكر حبهم لله وعبادتهم له، ومودّتهم لصغارهم وأهلهم.

هناك جامع للإنسانية، ومهما ابتعد الإنسان عنك بفعله أو تصوّره أو عدائه فيبقى جانب - ولو قليل - يستحق منك نظرة وتأمّلًا. فتذكر مشتركاتك معهم مهما دقّت، فمَنْ كان منهم حنيفًا فأحببه لإيمانه، فهو يعبد الإله الحقّ الذي تعبده، ويحبه ويرجوه ويخافه، ويتطهرُ ويصلي له، ويُسلم وجهه إليه، ومن كان غير ذلك؛ فأشفق عليه وارحمه من شقوته، واسع في هدايته ورشده وإنجائه من دار السعير، ولك في سيد المرسلين أسوة ﷺ.

حتى البهائم والنبات والجمادات، تلك المخلوقات المُسبّحة بحمد ربك، يتلمّسْنَ من فؤادك المُفعم بالطهر خفقةَ مودّةٍ ودفقةَ اعترافٍ بجمالهن المكنون والمشاهَد، وما أجمل قلبك إذ يعجُّ بالعنادلِ المغرّدة، ولن تخسر يا صاحبي شيئًا بهذا الحب الجميل.

وإنّ الاهتمام بحاجة الإنسان، مع التقدير والاحترام؛ فنٌّ لا يتقنه إلا

الموفقون من ذوي القلوب الكبيرة. والاحترامُ فرعٌ عن شرف النفس وعن الحياء، والإسلام قد أولى الإنسان كرامته اللائقة، ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] وتأمل اصطفاف مليون مصلّ في الحرم المكي ليصلّوا على جنازة طفلٍ ولد ميتًا "سِقْط" فكم أنت عظيمة أيتها النفس المؤمنة.

٨. ادع لهم واستغفر لهم بظهر الغيب.

تذكّر فضل العفوِ والصفح والمسامحة، ولا تحسبنّك بالعفو تخسر، كلّا وربّي! ليكن حسن الظن رائدك، وتلمس جوانب العتبى والعذر لمن آلمَ ذاكرتَك أو جَرَحَ فؤادَك أو اكفهرّتْ لأجله روحُك. واغفر لأجل الودِّ ليس لأجلِهِ، بل لأجل اللهِ ليس لأجله.

وهناك علاقة طردية بين علم وعقل المرء وبين احتماله لخلاف الناس وحمل الأعذار لهم، فالعلم يبْسطُ التسامح المنضبط في الدين، والعقل يوُسّعه في الدنيا. فسِرْ . رعاك الله. رويدًا في فلاةِ الطُّهْر، وأخمد جمر الانتقام بصب ماء العفو الزلال، ولا تلتفت لأصوات الغضب الصارخة بين جوانحك، وأغلق مراجلها بهتافك لها: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. عليك بنسيان الضغائن، فأخرجها من المشاعر حتى لو بقيت في الذاكرة زمانًا فستزول ولو بعد حين.

وفرْقٌ كبير بين ألمِ القلب من أذى شخصٍ مع مسامحته والاستغفار له، وبين حمل الحقد والغلّ عليه لأجل دنيا، فالأول قلبه طاهرٌ نقيّ، أما الثاني

فحقود. والحياة أقصرُ من أن نضيّعها في الكراهية والأحقاد، فحاول أن تكون متسامحًا، لك الله!

وهلّا تذوّقتَ ليلةً أن تدعو صادقًا لعدوّك في سجودك، كُنْ من الثلة السابقة بحمل أثقالِ الأخلاق، ولكلِّ سلعةٍ ثمنها فكن من القِلّةِ المُقرَّبة السابقة: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣- ١٤].

٩ .تأمل سيرة خيرة خلق الله، ثم عظماء النبلاء ممن آتاهم الله رشدهم.

ومن تأمّلَ سيرة رسول الله ﷺ وثباته على حبه الخير لكل الناس هداية ورحمة مع اختلاف الأحوال والأهوال عليه؛ رجع بيقين نبوّته وصدق رسالته، ومن اقتدى به في عبادته حريٌّ أن يقتدي به في أخلاقه ﷺ، وليس في الأرض أوسعُ عفوًا ومسامحة منه ﷺ.

١٠ .تذكّر أنك الكاسب الرابح والغانم المفلح.

فكم ستشتري سعادتك وانشراحك بمحبتك ورحابة صدرك وسعة عقلك. أقول: تذوّقْ ذلك واعلم أنّه بلسمك الدائم. ألا ما أجمله وأبهاه وألذّهُ وأصفاه. وتذكر للأبد: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

تلك عشرة كاملة، وفيها لمبتغِ الخيرِ مغنىً، ولِخاطب السعادة مقنع.

وكانَ قلبي للمسلمين سليمًا

من علامات توفيق الله تعالى لعبده سلامة صدره على عباد الله، وتنقية قلبه من كل أدغال الحقد والبغضاء للمؤمنين. وإنّ الغلّ له من مسمّاه على القلب نصيب، فهو غلّ يمنع جناحيه أن يطيرا في رياض الأنس ومروج السرور وشواطئ النعيم، ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠].

خَلِّصْ فؤادَكَ من غِلٍّ ومن حسدٍ فالغلُّ في القلبِ مثلُ الغلِّ في العُنُقِ

والحقد غدّار، وحينما يتمكن من المرء فإنه يستحكم على بصيرة قلبه كالنظارة المُقَعَّر يمينُها المُحَدَّب شمالها؛ فترى عظائم الخطايا صغارًا في سبيل إرضاء غضبها، بينما ترى صغير أفعال الناس وأقوالهم كبارًا إزاء مرض ذاتها. وتأمل إخوة يوسف عليه السلام حينما ضخّموا إيثار أبيهم له، وصغّروا قتله: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩]! فالحقد أعمى.

وهل تعلم سرّ استنارة الوجوه وانفساح الصدور: إنه القلب السليم. فتفقّد دومًا طهارة قلبك، وسلامة صدرك، فإنها من نفيس رأس مالك في الدار الآخرة. واغْزُ قلوب العالمين بالإحساس الصادق والإحسان الحنون، فلقلوبهم مسامّ دقيقة ينفذ من خلالها جميلك فيثمر حبهم لك، ويُخرج ما عداه من سيئات المشاعر، وقد باحَتِ الريحُ بأسرارِ النَّدى.

نِعَمّا طهارة القلب ذخيرة بين يديك غدًا، وأكرم بها قربانًا وزلفى إلى مولاك أبدًا أن تكون من أهل: ﴿مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]. فإن

السعيد من ولد آدم هو من اتقى الله تعالى حقّ التقوى، وتحلى بسلامة الصدر وطهارة القلب، فالفائز عند الله غدًا هو من سلم صدره اليوم. والمؤمن طاهرُ القلب كأبيه آدم عليه السلام، فإن خُدِعَ يومًا لطيبته فلهُ سلَفٌ صالحٌ بأبيه، الذي لم يكن يتصوّر أنّ هناك من سيقسم بالله كاذبًا: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

إنّ سلامة الصدر خلقٌ شريف، يتحلّى به أهل النفوس السامية والرغائب العظيمة في فلاح الدار الآخرة، وكان السلف يحفظون لسالم الصدر هذه الخصلة ويحمدونه عليها، قال إياس بن معاوية: «كان أفضلُهم عندهم؛ أسلمَهم صدورًا وأقلَّهم غيبة».

أما سلامة الصدر: فهي نقاءُ النفس من خَبَث الأخلاق الغضبيّة التي تكدّر صفاء الروح، كالغلّ والحقد والحسد وما أشبهها. فقلبُ المؤمن طاهرٌ من كل ما يشينه تجاه ربه، سليمٌ تجاه الناس، فلا يحمل عليهم لأجل دنيا. فالمؤمن يغضب لله، ويكره لله، ويقوم لله، ويحبّ لله، ويرضى لله، لا لدنيا مهما استدارت به خطوبها ومظالمها وزينتها.

ومن كان قلبه سليمًا وصدره خاليًا من الأحقاد؛ فقد تنعّم بشيء من نعيم الجنة! فمن نفيسِ نعيمِها؛ سلامةُ صدورِ سكّانها وراحتهم، قال ربنا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وسلامةُ الصدر منحةٌ من الله تعالى ومحضُ فضلٍ من لدنه، يختصّ به من أرادَ توفيقَهُ من خواصِّ عباده. وسئل الإمام أحمد: ما التوفيق؟ فقال: «ألّا يكلكَ

الله إلى نفسك». فالقلبُ قُلَّبٌ مالم يعصمه مولاه، والصدرُ ضيّق ما لم يفسحْه الله، والهمُّ ملازمٌ ما لم يرفعْه الله. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤].

إنّ سالم الصدر على عباد الله يعيش بين الناس وجَنّتُه في صدره، وبستانُه في قلبه، وسعادته وسكينته في روحه، ينظر إليهم بعينَي قلبِه السليم وصدره الناصح الناصع الواسع؛ فلا يرى شيئًا من نكدهم عليه يستحق ذلك المقابل؛ فينقلب إليهم سليمَ الصدر حسن الظن، محبًّا لهم كل خير يُطيقه، مُسديًا لهم كل فائدة يسطِيعها، لعلمه أنه لم يُخلق لحمل هموم دنيا وغموم فانية. إنّه فقط يحملُ هم آخرته، ويسعى لتحصيل رضى مولاه، فإنْ صادَفَهُ ظلمٌ له أو أذى؛ لم يتكدّر تكدّرَ الهَلُوعين، ولم تضقْ نفسُه بأمرٍ هو عند الناس عظيم وعند الأتقياء تافه.

فما كلّ ما راجت عند الناس عظمته عظيمًا، وما كل ما تهالك الناس على تحصيله يستحق، ولا كل ما حمل الناس همّ إزاحته واجتنابه حقيقٌ بذلك، فالميزانُ هو ميزان الآخرة، والمعوّل على رضوان الرحمن.

ومن كان معياره الآخرة؛ نفذت بصيرته واستقام عمله، ومن كان ميزانه العاجلة؛ عمي قلبه وانتكس عمله، ومن ذاق لذة القرب ثم انتكس فهو في غمرات العذاب في دنياه، فلا حصّل راحة الجاهلين ولا لذة العابدين: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]. والدنيا لم يرضَهَا اللهُ مقرًّا لأوليائه فجلّل نعيمَها بالبؤس وخلط صفوها بالكدر؛ حتى لا يغفلون عن دار القرار.

كُـل مَـن لاقَيـتُ يشـكو دَهـرَهُ ... ليـت شِـعري هـذه الـدنيا لِمَـن

فالدنيا كَدرٌ وكَبَدٌ وعناء، فلا تفرح بها ولا تحزن لها ولا تعطها فوق قدرها، ولن يُنالُ منها نعيمٌ إلا وفي طرفه بؤس، وما تحت الخضراء وفوق الغبراء بمستريحٍ ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

إذا أنتَ لم تشربْ مِرَارًا على القَذَى ... ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مَشَارِبُه

وتأمل سلامةَ صدرِ علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وحسن ظنه بالله، وعمق فقهه، ورسوخ علمه، فعن أبى حبيبة مولى طلحة قال: «دخلتُ على علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ مع عمران بن طلحة بعد ما فرغ من أصحاب الجمل، قال: فرحّب به وأدناه وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله عز وجل: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. فقال: يا ابن أخي كيف فلانة؟ كيف فلانة؟ قال: وسأله عن أمهات أولاد أبيه، قال: ثم قال: لم نقبض أرضيكم هذه السنين إلا مخافة أن ينتهبها الناس. يا فلان انطلق معه إلى ابن قرظة، مُرْهُ فليعطه غلّته هذه السنين، ويدفع إليه أرضه. قال: فقال رجلان جالسان ناحية، أحدهما الحارث الأعور: الله أعدلُ من ذلك أن نقتلهم ويكونوا إخواننا في الجنة. قال: قُوما أبعدَ أرضٍ الله وأسحقها، فمن هو إذا لم أكن أنا وطلحة! يا ابن أخي إذا كانت لك حاجة فأتنا»[١].

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (٨ / ١٧٣).

وعن ابن بريدة الأسلمي قال: شتمَ رجلٌ ابنَ عباس، فقال ابن عباس: «إنك لتشتمني وفيّ ثلاث خصال: إني لآتي على الآية من كتاب الله عز وجل؛ فلوددت أنّ جميع الناس يعلمون منها ما أعلم منها، وإنّي لأسمعُ بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه؛ فأفرحُ به، ولعلي لا أُقاضي إليه أبدًا، وإني لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين؛ فأفرحُ ومالي به من سائمة»[1]. وهذا من نصحه رحمه الله ورضي عنه.

وعن زيد بن أسلم أنه دخل على أبي دجانة وهو مريض، وكان وجهه يتهلّل، فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: «ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنتين؛ أما إحداهما: فكنتُ لا أتكلّم فيما لا يعنيني، وأما الأخرى: فكان قلبي للمسلمين سليمًا»[2].

❁❁❁❁

(١) شعب الإيمان (١٣ / ٤٦٦) (١٠٦٢٤).

(٢) الجامع في الحديث لعبد الله بن وهب (١ / ٤٣٥) (٣١٩).

الموقفُ الشرعيُّ إزاءَ التعاملِ مع الغُلاة

لقد أضحت ظاهرةُ التيارات الغالية في التكفير مِشَجَبًا للتنفير من منهج سيد المرسلين ﷺ وصحابته المرضيين، وقُفْلًا مُرْتجًا دون وصول الرسالة السامية الصافية لقلوب أولئك، فالنصارى يصرخون بنا: هذا القتل للأبرياء هو دين محمد الذي تدعوننا إليه، فليس بنا إليه حاجة. وقد وجدتْ منظماتُ التنصير وجبةً إعلامية كاملة الدسم من جرائم تلك الفئة.

أما المبتدعة من غلاة المتشيعة والمتصوفة والمتكلمة، وغير الغلاة، بل والليبرالية، فيرفعون عقائرهم بأن تلك الفرق فرع عن السلفية، (الوهابية بزعمهم)(١) وهذا ـ بزعمهم ـ دليلٌ على أن السلفية منهج باطل يُلبّسُ على

---

(١) قال العلامة صالح الفوزان حفظه الله تعالى في كلام خصوم الدعوة التجديدية: «وقالوا: إنّه جاء بمذهب خامس، ولذلك صاروا يلقبون أتباعه بـ(الوهابية) لأنه دعا إلى ما يخالف ما ألفوه من البدع والشركيات. وهذه فرية يكذّبها واقع دعوته وكتبه وفتاويه، وأنّه في الاعتقاد على عقيدة السلف، وفي الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لم ينفرد عن المذاهب الأربعة بقول واحد، فكيف يكون له مذهب خاص؟! ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾. ومن أراد معرفة الشبهات التي أثيرت حوله وحول دعوته؛ فليراجع كُتبه، وما أجاب به عن تلك الشبه. والحقّ واضح ولله الحمد وضوح الشمس، لا يغطيه الكذب والتلبيس، فلا يُعتمد على كلام خصومه فيه وفي دعوته.

ومنهم من أنكر ما قام به الشيخ من تجديد وإصلاح، وقال: إنّ حالةَ أهل نجدٍ في وقته كانت على الاستقامة والصلاح، وفيهم علماء ووعي، وما ذُكر عن دعوة الشيخ وعن =

الناس ويقتلهم بغير حق، وأنّ السلفية منهج غالٍ منحرف، وهكذا يسحبون

= فساد الأحوال قبل دعوته إنّما هو تهويل من المؤرخين، وتعتيم على الواقع. وردُّ مثل هذا الهراء والجحود لما هو معلوم ومتواتر، لا يحتاج إلى كثير عناء. وكتبُ خصومه من معاصريه وغيرهم تعجّ بالافتراءات والدعوة إلى الباطل. وما أظنّ هذه الفكرة إلا من إيحاء المستشرقين.

وليسَ يصحُّ في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليلِ

ومنهم من يقول: إنّ الشيخ لا يُعتبر مُجدّدًا لأنه حنبلي مقلّد. وكأنّ هذا القائل يرى أنّ العالم لا يكون مُجدّدًا حتى يخرج على المذاهب الأربعة وعن أقوال الفقهاء، ومثل هذا لا يعرفُ معنى التجديد، فهو يهرف بما لا يعرف. إنّ التجديد معناه: إزالةُ ومحاربة ما علق بالدين من خرافات وشركيات ومبتدعات ما أنزل الله بها من سلطان، وبيان الدين الحق والمعتقد السليم، كما كان عليه رسول الله ﷺ، وليس من شرط ذلك أن يخرج المجدد على المذاهب الأربعة وأقوال الفقهاء ويأتي بفقه جديد. وها هم الأئمة من المحدّثين الكبار كانوا مذهبيّين، فشيخُ الإسلام ابن تيمية وابن القيم كانا حنبليّين، والإمام النووي وابن حجر كانا شافعيّين، والإمام الطحاوي كان حنفيًّا، والإمام ابن عبد البرّ كان مالكيًّا. ليس التمذهب بأحد المذاهب الأربعة ضلالًا حتى يعاب به صاحبه، ولا نقصًا في العلم، بل إنّ الذي يخرج عن أقوال الفقهاء المعتبرين وهو غير مؤهل للاجتهاد المطلق؛ هو الذي يعتبر ضالًّا وشاذًّا.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يأخذ قول المذهب الذي ينتسب إليه قضية مسلمة حتى يعرضه على الدليل، فما وافق الدليل أخذ به، ولو لم يكن في المذهب الذي يقلّده إذا وافق قول أحد الأئمة الآخرين، لأنّ هدفه موافقة الدليل، وهذا في حدّ ذاته يعتبر تجديدًا في الفقه أيضًا، بخلاف التقليد الأعمى والتعصب الممقوت». إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد للشيخ صالح الفوزان (١/١٠-١١).

عوار تلك الفرق المارقة المُجرِمة على أَدِيمِ السلفيةِ الرفيقة الرحيمة.

ولن أعجب حين أرى بعض القراء الكرام يُصعّرون خدودهم استهجانًا لوصفي السلفية بالرفق واللطف، فهذا من غربة الزمان، وكم ظُلمت السلفية من منتسبة لها زورًا، فكل ما خالف الكتاب والسنة؛ فأهلُ السنة منه برآء وإن زعم المُبطلُ خلاف ذلك، فالعبرة بالحقائق لا الشعارات ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وفرق الغلاة في زماننا لا يخرجون عن ثلاث فئات:

الفئة الأولى: ضبّاطُ مخابرات من رافضة وأهل كتاب، ومهمتهم قيادة التنظيمات ووضع الاستراتيجية (غير المعلنة). ومن مهامها تأمين الدعم المالي واللوجستي، وصناعة قادة الصف الثاني (القيادة التكتيكية المحدودة) باختراق أو بعمالة، وبينهم تنسيق بسبب تقاطع مصالحهم وإن لم يتفقوا، فوحدة الهدف جمعتهم، وهذا الهدف هو ضرب أهل السنة في معتقدهم وهويتهم ووحدتهم، وإشغالهم عن الإثخان في عدوهم، وإن شئت برهان ذلك فتأمل المستفيد من ضربات تلك الفرق ودعاياتها بالنظر لأماكن العمليات وأوقاتها سواء في سوريا أو العراق أو اليمن أو لبنان أو ليبيا أو مصر أو الصومال أو الخليج أو غيرها، وقريبًا سترونهم في غزة إن غفل حُماتها عنهم، بل وفي أوروبا وأمريكا إن احتاجت تلك الدول لمبرر ما. ومن أهداف أولئك إشهار بشاعة أفعال تلك الفِرَق بشكل قُصِد منه نَحْت مضامين مروّعة في الخلفيّة الذهنية للمتلقّي هنا وهناك.

الفئة الثانية: خوارج على مذهب الأزارقة وأشباههم من أفراخ ذي الخويصرة الذين يكفرون بالكبائر، ويظنّون أنّ من أجلِّ القربات استباحة الدماء المعصومة والأموال المصونة، لا على شيء إلا لأنهم ليسوا من فئتهم، فيقتُلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان. وهذه الفئة ليست قليلة العدد للأسف، وخطرها شديد جدًّا من جهتين:

الأولى: جهة شدة ضلال مذهبهم ودمويّته، وتبديلهم للدين بشبهة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله. وقد صحّ حديث رسول الله في تضليلهم ووعيدهم من عشرة أوجُهٍ بعضها في الصحيحين، وهم شرّ الخلق والخليقة، وقد توعدهم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه لئن أدركهم ليقتلنّهمْ قتلَ عادٍ، أي استئصالًا.

الثانية: جهةُ صدقهم وحماستهم الذاتية في ترويجه والدفاع عنه، ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

وطريقة مدافعة هؤلاء بسلاحين هما اللسان والسنان، فباللسان تُدفع شبهاتهم، وتهتك ستور مآلات مقالاتهم، وتقام عليهم حجة القرآن، إضافة لجهادهم بالسلاح والقتال عند الحاجة، ولنا في أمير المؤمنين علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أسوة في الأَمرَين، فقد أذن أولًا لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن يناظرهم ويكشف زيفهم، ثم قاتلهم بنفسه وبمن معه في النهروان. وفي الصحيحين قال رسول الرحمة والملحمة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه: «**لئن أدركتهم لأقتلنّهم**

قتل عاد»[١]. وقد سجد عليٌّ لله شكرًا حين واتَاهُ تحقيق البشرى السابقة بقتل ذي الثديّة[٢]. فخطرُ هذه الفئة المارقة يكمن في تبديلهم حدود الدين سواء في النظر العلمي أو التطبيق العملي.

الفئة الثالثة: شبيبةٌ ذوو غيرةٍ وحماسة وحبٍّ للقتال في سبيل الله، مع جهلٍ مطبقٍ بمناطات الأحكام ومدارك الشرع، وسوءِ نظرٍ لعواقب الأمور، فساقهم الغضب مما يرونه من تقصير أو مظالم إلى ركوب أعظم المفسدتين، وأُتوا أكثر ما أُتوا من إساءة تطبيقات الولاء والبراء والردّة ودار الحرب ونحوها.

فهم لم يلتزموا مذهب الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة ابتداءً، لكنهم قلبوا قضية الواسع والمضيّق، فحجّروا الواسع مما تكلّم فيه الأئمة الأعلام من شروطِ وأحوال أحكام الردة، والكفر، وإقامة الحجة، وكفر الوصف، وتكفير المعيّن، ودرء الشبهة والحد، ونحو ذلك مما يلزم التريّث الطويل فيه، والصدور عنه ببصيرة تامّة لا مغبّشة معتمة. وفي صحيح مسلم[٣] أنّ رسول الله ﷺ

(١) البخاري (٦/٢٤٤) (٢٢) ومسلم (٣/١١٢).

(٢) وقيل: إنّه من الجن. ففي مصنف ابن أبي شيبة (٣٩٠٤٨) قال عليّ: «اطلبوا فيهم ذا الثديّة، فطلبوه فأُتي به، فقال: من يعرفه، فلم يجدوا أحدًا يعرفه إلا رجلًا، قال: أنا رأيته بالحيرة، فقلت له: أين تريد؟ قال: هذه، وأشار إلى الكوفة، ومالي بها معرفة، فقال علي: صَدَقَ هو من الجانّ». وقال سعد بن أبي وقاص (٣٩٠٥٤): «لقد قَتَلَ ابن أَبي طالب جَانَّ الرَّدْهَةِ».

(٣) مسلم (١٨٤٨).

قال: «**من خرج على أمتي يضربُ برَّها وفاجرَها، ولا يتحاشى عن مؤمنها، ولا يفي لذي عهدٍ عهدَه؛ فليس منِّي ولستُ منه**». وأخرج الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «**من حَمَلَ علينا السلاحَ؛ فليس مِنَّا**»(١).

وفي المقابل فإنهم يُوسّعون ما ضيّقه الشرع؛ كتشديده في الدماء والأعراض والأموال، فحينما تَدرأُ الشريعةُ الحدَّ بالشبهةِ؛ نراهم يستحلّونه بها، وهذا عينُ المُشَاقَّةِ لله تعالى، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. والجديرُ ذكرُه: أنّ هذه الفئة الساذجة هي حطبُ كثيرٍ من الفئة الأولى، ووقودُها الأعظم، وكم من مريدٍ للخير لم يبلغْهُ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وفرضُ الوقت تجاه هذه الفئة البائسة أربعة أمور، سابقان ولاحقان: فالسابقان: تحصينُ أفكارِ الناشئة والشباب ضدّ الغلوِّ الفكري والانحراف المنهجي المخالف لسُنَّةِ السلف الصالح، وتلك مهمةُ منابر الدعوة ومحاضن التربية ومراكز الإعلام. والثاني: تحصينُ نفوسهم بنشر العدالة والوضوح والرفق تطبيقًا عمليًّا لا ادعاء وتنظيرًا، وذلك حتى نمنع طفيليات الحقد وجراثيم المقت من النمو والتكاثر في خلايا جسد الأمة الواحد.

والآخران اللاحقان هما: مدافعتُهم برفع بلائهم وشرهم باللسان، فإن أبوا الفيئة بعد إقامةِ الحجة، وإزالةِ المظلمة، ورفعِ حَدَثِ المُنكَرِ العام بماء

---

(١) البخاري (٦٨٧٤) ومسلم (٩٨).

التوبة الطهور؛ فبالحرب والسنان ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات: ٩] كفاهم الله شرَّ نفوسهم وكفى الأمة شرهم. وكلامُنا هنا عن الغلاة لا مطلق البغاة، فلهم حديث آخر بإذن الله.

وإنْ كان ثمّةَ خيرٌ في هذه النازلة فهي نفخُ روحِ اليقظة لدى أهل العلم والدعوة والتربية والإعلام للقيام بما يجب عليهم حيالها، فقد انتهى وقت التردد لمن كان مشتبهًا في أمرهم، فحتى وإن قيل ببعض الأكاذيب الدعائية ضدهم. وهي ليست بقليلة. فما لم يُقل أكثر، فالبكور البكور قبل قرع سن الندم ولات حين السلامة.. وجادتْ بوصلٍ حينَ لا ينفعُ الوصلُ.

وقد اتفق العقلاء على أنه لا سلاح في الحرب على ظهر الكوكب أخطر من الفِكْرِ، لأنّك حين تبني أصولًا فكريّة غاليَةً في ذهن الآخر على أنقاضِ فكرِ قومِه؛ فإنك حينها تزرعُ أفخاخًا خلف خطوط خصمك، تحرّكها عن بعد، بل وتشكّلها بحيث تكون كخلايا السرطان تتمدد على هياكل من حولها، فلا يفيق الخصم . إن لم يك رشيدًا شديد الحذر . إلا ونارُك تحرق ذخائره، وتكسر حروزه، وتهدم حصونه، فيسقط صريع أيدي أبنائه! فلما اشتد ساعده رماني.

وبتأملِ واقع بعض شبابنا اليافع وقد اجتالت فكرَهُ شُبَهُ الغلاة، واغتالت براءته وحشيّة الفجرة المُكفِّرَة بغير حق، فحينما نمسي على كارثةِ شابٍّ غِرّ يَقتلُ بدم بارد خاله وكافله ومحبَّه، ثم نستيقضُ على فاجعة حَدَثين قتلا بلا رحمة ابن عمّهما بكل غدر وخيانة بعد مبايعة مجهولٍ، خلف شبكة مجهولة، وبديانةٍ وفكرٍ مجهول، مع سبقِ مجموعاتٍ قتلتْ وروّعت بغير حق في البلاد والعباد، ثم

لحَاقِ خلايا مفخّخة قدّ جهّزتها عقولٌ غادرة غائرة في المكر والخديعة والحرب الفكرية والنفسية.

لفت نظري حديثٌ لأحد الآباء المكلومين وهو يصف ولده القاتل بأنه لم يغادر قريته وليس له أصحاب، ويكأنّما وقع عليه سِحرٌ سيّره بلا اختيار، لكنه ذكر السبب حينما قال: كان يجلس طويلًا على الإنترنت. قلت: قد زال العجب، فخلف كثير من تلك المعرّفات المستعارة؛ تكمن مؤسساتٌ وتنظيماتٌ مخابراتية تدرسُ نفسية الشاب المراد تجنيده، وتقيس علمه وفكره وتسبر منهجه، بل وتلج لداخلةِ عواطفه وغرائزه وما يحبه ويكرهه، حتى تخرج بتوصيات معينة ترشح هذه الضحية للتجنيد، وتدع الأخرى المحصّنة. فهي ليست مجرد جهدٍ فردي لشاب متحمس عجول ضالٍّ في غياهب الشبكات. وإن وجدوا بلا شك.. فالأمر في الغاية من الخطر.

ذكر أحد الشباب أنه كان يلعب لعبة مباشرة عن طريق النت (لاين) وكأنّ اللاعب المنافس أظهر له بعض الانهزام بين يديه، ثم مدح طريقته وعنفوانه، وأنّ مِثلَهُ ليس مكانه حرب الكفار في العالم الافتراضي بل الحقيقي، ثم حاول أن يسمّم فكره عن طريق أساليب بلاغية وحماسية تملأ فؤاد الشاب المتحمس العجول فتوّةً ونشوةً، وترفع أنفه شممًا وإحساسًا طاغيًا بأنه يملك دفة تغيير العالم بطلقة رشاش على أحد أقاربه المُصلّين، ثم مَنْ خلفهم من المرتدّين!

وبالجملة، فلا بد من وقفات متأملة صريحة حتى نضع أيدينا على الداء

بحجمه الحقيقي، مفصّلين الأسباب وطرق التحصين لشباب الأمة المحمدية المرحومة.

وإنّ من الأهمية بمكان أن نذكر أن تنظيم كذا وكذا حقيقته مجرّدُ ورقةٍ ستستبدل بغيرها حال احتراقها أو استنفاد ما صُنعت لأجله، وقد صُنِع التنظيم. القديم أو الجديد أو حتى المستقبلي. كقنبلة عنقودية متشظّية تصيدُ عدة أهدافٍ برمية واحدة؛ فتضرب المنهج السلفي، وتصيب المجاهدين، وتضرب سمعة الإسلام ككل، وبخاصة في دول الغرب، وتصِمه بالوحشيّة والهمجية وذبح الأبرياء، كذلك فهي ذريعة لتدخل سافر من دول الرافضة والصليبيين والصهاينة والمشركين والملاحدة، فكلٌّ ينظر للطريدة متى يسقط شقّها الذي يليه، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

❁❁❁❁❁

أسبابُ تردِّي بعض الناشئة في حُفَرِ الغُلاة

ثمة أسباب رئيسة، وأخرى متفرعة عنها، وثالثة هامشية لكن يبقى لها اعتبارها. فالحكيم لا بد أن يكون كيّسًا حازمًا لأمره، آخذًا للأمور أُهْبَتَها، فلا يترك أمره للمفاجآت مهما صغرت مباديها. وقد كانت لي بعض المناقشات القديمة والجديدة مع بعض من تأثر بهم، وقد خلصتُ من زمن طويل إلى هذه القناعة التي سأنثرها باختصار عبر هذه الأحرف، سائلًا ربي الإعانة والتوفيق، فمن الأسباب:

١ . ضعف الحصانة العقدية العلمية لدى الشباب.

فثمّة أصول كبار في الشريعة لا بدّ من تأصيل النشء عليها، كتعظيم حرمات المسلمين ودمائهم وأعراضهم، وعظَمَةِ اجتماعهم، وخطر تفريق كلمتهم، والبعد عن الافتئات على أئمتهم علماء وأمراء، أو نزع يد الطاعة من السلطان إلا بحقّ الإسلام، وتحذيرهم من مغبّة خيانة المسلمين بأي قدر، وشناعة التساهل في الدم الحرام. حتى للمعاهَدين من غير المسلمين. ومعاملة الناس بظواهرهم وإحسان الظن بهم، وتعظيم قدر أهل العلم من الراسخين، والصدور عن فتاويهم وتوجيههم، وعدم الثقة بالمجاهيل مهما انتفخوا بزَبَدِ البلاغة والحماسة.

٢ . اختلاط الأفكار وازدحامها الشديد في الفضاء الذي يتنفسّه شبابُنا قبل نضجهم.

فتتلوث أفكارهم ولا بد، فالشبكة مملوءة بسموم فكريةٍ اللهُ وحدَهُ يعلم

قدرها وخطرها وتأثيرها المباشر على عقائد ومفاهيم وتصورات الشباب اليافع الصغير، فسهولة وصول المنافذ الفكرية السيئة ـ خاصة عبر النت ـ قد أفسدت أيّما إفساد.

٣ـ ظهورُ المنكرات بلا نكير كافٍ من لدن أهل العلم أو السياسة.

وهذا ـ بأسف ـ من أكبر مبررات أولئك الغلاة، لأنَّ الموجِّه القابع في الطرف الآخر من الشاشة يستغلُّ ما يراه هذا الشابُّ من مُنكر؛ فيُوقد غيرته وحماسته بحَطَبِ حقائقِ المنكرات الجليّة ـ كالربا والإعلام والتغريب والملاهي المحرمة والمظالم وبعض السياسات وغير ذلك ـ ثم يسكُبُ على تلك الحقائقِ الواقعةِ بُهَاراته السامّة من تهويلٍ، وتزييفٍ، وإساءة ظنّ، وإرجافٍ، والقطع واليقين بأن الساسة كذا وكذا من أمورٍ لم تثبت، وحتى لو وُجدت؛ فليس من الصالح ولا الحكمة حقنُ قلبِ اليافعِ بتلك الأمور التي لا تطيقها نفسه ولا يحيط بها علمُه ولا يستوعبها عقلُه.

وبعدَ استواء غيظِ الشاب على أحوال زمانه؛ يبدأ الماكِرُ في مرحلته الثانية؛ فيحقن دماغه بفتاوى لأئمةٍ سيقت على غير مساقها، ووضعت في غير مكانها، بعد ذلك يطيرُ بذلك الشاب الحالم فوق سحاب المُخلِّص فلان، وأنه لا بقاء للأمة مالم تبايعه، وأنك من أصفياء المجاهدين إن نفذت أمره بلا سؤال ولو بقتل نفسك ـ على طريقة الحشاشين القدامى في التجنيد النفساني المغناطيسي ـ وأنك كافر مرتدٌّ إن ولّيت عنه وجهك.

فيحوط هؤلاء المَكَرة الشاب الغَرير بالوعد والوعيد، ويكشفون أسراره

وأموره، إما عن طريق وُلُوجِهم لحسابه وجهازه، فمنهم خبراء و (هكر)، أو عن طريق فضفضته وبَوحِهِ، لأنّ منهم مختصون بالتحليل النفسي، ويخوّفونه حال خوفهم منه، حتى يكون في أيديهم حملًا وديعًا، لكنه في أهله وحشٌ قاسٍ بلا قلب!

ومن خبيث حيلهم أنّ الشاب إذا اعترف لهم بتوبته من ذنب كبير؛ أوهموه بأن يغسل حوبته بقتل النفس قربانًا لتوبته، مع وعدِهِ بالجنة مباشرة. ولا تعجب يا أخي من هذا، فلأهل المكر سلفٌ خبيثٌ من الباطنية القرامطة والحشاشين وأشباههم، فالسلاحُ واحدٌ والصيدُ مختلف.

والمقصود: أنّ شبابنا صيدٌ سمينٌ لعدوّين؛ أحدهما من خارج الديانة؛ كغالية الرافضة والصليبيين واليهود وغيرهم، والآخر من داخل الديانة؛ كالخوارج الخُلّصِ ومن تأثّر بهم من غلاة المُتَسنّنة.

٤ .الصُحبة السيئة.

فالصاحب المسموم يُسممّ صاحبه، وليس الفساد هنا فساد سلوك بالضرورة، فالخوارج من أعبد الناس ظاهرًا مع ذلك فهم من أخبثهم.

ولا يعني هذا بحالٍ الخوفُ والتحرّزُ على الناشئة ممَّن أظهرَ التديّن وأشهر السنّة ودعا للخير والهدى وحِلَق العلم وتحفيظ القرآن، فأَولَى الناس بالمصاحبة هم أهل العلم والإيمان والقرآن، فهم أهلُ الله وأولياؤه، وهم مَن أمرَ الله بصحبتهم: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ

عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨]، ولقد خَطَلَ وفَجَرَ من وصمهم بمنابع الفئة الضالة، إنما المقصود نخْلُ الأصحابِ، حتى لا يكون من بينهم مُندسٌّ يصنعهم خلايا لهدم حصون أمتهم ونقضِ أصول ملّتهم.

٥. ضعفُ الثقة أو عدمها في العلماء.

وبكل أسف فقد ساهم بعض الدعاة وبعض أدوات الإعلام وقنواته وبرامجه بإضعاف ذلك الحبل السُّرِّيَ بين الناس وعلمائهم، فلا بد من تدارك ذلك عاجلًا، فالعلماءُ هم بإذن الله صِمَامُ الأمان للأمة، وبخاصة في أزمنة الفتن العمياء البكماء الصماء كحالنا الآن، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

٦. الفُرقة الظاهرة المُخزية بين المنتسبة للعلم والدعوة والتربية.

ومع صبِّ الإعلامِ الزيت على النارِ؛ فقد أصبح بعض الشباب اليافع المتحمس مُحبَطًا من الجميع، وفاقدًا للثقة فيهم كلهم، فهرب الغِرُّ منهم لأحضان أغدرِ الناس.

٧. الأحداث الكبار والقتال الدائر المشتعل واختلاط أوراق الفرقاء.

وقِلَّةُ المعينِ الناصر، والحادب الناصح، والمربّي الحكيم الموصل للاستنارة الفكرية في ذلك الظلام الحالك والعاصفة الشديدة، هذا إن كان سالمًا من أكدار الأفكار.

٨. استفزازُ بعض التيارات لهم وبخاصة التيار الليبرالي.

وهذا الاستفزاز المتكرر للشباب والدعاة والعامّة ظاهرٌ شاهِرٌ عبر قنوات

ووسائل وبرامج وحوارات لا تخفى على فطنة المتابع.

٩ ـ المكر الكُبّار المستمر من العدو لخلخلة عقائد وأخلاق الشباب.

ولهم طرق وأساليب وكيد ومكر، وبخاصة الهجمة الغربية المتجددة سواء بزعزعة العقائد بنشر شُبَه الإلحاد، أو خلخلة الأخلاق بنشر نتن الشهوات المحرّمة وتسهيل الوصول إليها، أو فكّ ارتباط ولاء المؤمنين ببعض، أو التشغيب والإرجاف، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ [البقرة: ٢١٧] فقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ يفيد الاستمرارية، فهم مستمرون على ذلك، وقلوبهم غليلةٌ غيظًا على أمة الإسلام ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾ [البقرة: ١٢٠]. ومع ذلك: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٤٣] ولنتأمل قول ربنا تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ [محمد: ٤] فنحن في دار ابتلاء وتمحيص، لا راحة ودعة.

والمتأمل لواقع الحال يعجب من فشل كثيرٍ من كيدهم تجاه هذه الأمة المرحومة، ولكن هذا لا يعني التكاسل والاعتمادية، بل يحدونا للتشمير والهمّة والعمل، مع التوكل على الله، وإحسان الظن به، والثقة بوعده، واليقين بلقائه.

١٠ ـ بُعدُ كثير من الآباء عن أبنائهم، وبخاصة في جانب المشاعر والاحتواء والحوار المثمر.

فالطابع الشرقي الجاف الغليظ في ثقافة الاحتواء من الوالدين للجنسين

موجود بكثرة، ومتى وَجد الابنُ متنفّسًا له في صدر والده الحنون الحادب؛ فسيستغني مباشرة عن البوح لغيره، وكذلك البنت مع أمها، وسيسلم النشء من غلواء المجاهيل واستدراجهم وغدرهم، وهذه قضية اجتماعية موغلة في الألم والخطر على أصعدة عديدة.

إنّ الأفـاعي وإن لانـت ملامسـها   عنـد التقلّـبِ في أنيابهـا العَطَـبُ

فافتحوا قلوبكم لأولادكم وصارحوهم وصادقوهم، وانزِلُوا لمستوى تفكيرهم وبراءتهم وعواطفهم، واحتملوا طفولية أفكارهم ورغباتهم، ولا تنسوا أنّ الجزرةَ تسبق العصا، وأن الحبّ والثقة والوعي صمام أمان بإذن الله في حفظهم، خاصة إن ساعدت دعوات مخلصة صادقة ملحّة مستمرة.

أعطوا أولادكم سمين وقتكم لا هزيله، اسألوهم واسألوا عنهم، وأرُوهم الحب والحنان والاهتمام والثقة، مع الحزم الواعي لا الشدة الجافة. فهم مشروعكم الكبير في الحياة، فلا تدعوا هذا المشروع اعتمادًا على غيركم.. وكلكم راع ومسؤول.

❁❁❁❁

سِمَاتُ الغُلاة

المُتتبِّعُ لظاهرة الغلوّ في التنظيمات الحديثة عبر سبرِ المتأثرين به أو صغار المنظِّرين . لأن المحرّكين الكبار في الحقيقة مجاهيل لا يخرجون من الظل . ؛ يخلص إلى سمات لا تكاد تتخلف عنهم فمنها: صغر السن، والجهل، والحماسة غير المنضبطة. فهذه الثلاث مضطردة إلا فيما ندر.

وهناك سمات أغلبية: كالانطوائية والكبت الشعوري وعقدة الاضطهاد، وكذا الإحباط والإحساس بالفشل أو التهميش، ولهذا علاقة بما سبق. ومن سماتهم: العجلة، والتسرّع، والرعونة، وضعف الصبر، وقصر البصيرة، وقلّة الحكمة. ومنها: التعالُم، والغرور، والعُجب، والانتفاخُ الباطلُ بالباطلِ، وهذا فرعٌ عن إسقاطهم العلماء وتجاوزهم لغيرهم؛ إما لنفوسهم الجاهلة أو منظّريهم المجاهيل.. إنَّ البُغاثَ بأرضنا يستنسِرُ.

ومن أخطر سماتهم: التنطّع في الدين، وهي صفة أغلبية وكل ما ذكر من سماتهم مؤدّ لها، فهُنَّ الطريق وهي الغاية. وهذه لا تكاد تتخلّف إلا عند القليل منهم، ولا يعني ذلك حرصهم على شعائر العبادة، فحتى الخوارج ليس كلهم صاحبُ تعبُّدٍ، وليس كل من ادّعى الجهاد صالحٌ في خبيئة نفسه، ولكنّهم يتنطّعون في أمور معيّنة، كثيرُها راجع لإسقاط فشلهم على مجتمعهم، وهذه معضلة نفسانية لديهم حقيقة بالعلاج.

وجامعُ سِماتهم حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: إذا حدّثتكم عن رسول الله

ﷺ حديثًا، فوالله لأنْ أخرّ من السماء أحبّ إلي من أن أكذب عليه، وإذا حدّثتكم فيما بيني وبينكم فإنّ الحرب خدعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سيخرجُ قومٌ في آخرِ الزمان، أحداثُ الأسنان، سفهاءُ الأحلام، يقولون من خير قول البريّة، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرُقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنّ في قتلهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة**»(١). ومعنى لا يجاوزُ الإيمان والقرآن حناجرَهم: إي لا يصلُ لقلوبهم مهما قرأوا وعملوا. وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وتأمل.: «الخوارج لهم خاصيتان؛ الخروج عن السنة، والتكفير بالذنوب»(٢). وتدبر قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

❁❁❁❁❁

---

(١) البخاري (٦٩٣٠)، ومسلم (١٠٦٦) واتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب، لكن ليس بغدر أو بنقض عهد أو أمان؛ فيحرم، والمؤمن لا يغدر بأي حال كان.

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ٧٢) بمعناه.

أدواتُ التحصينِ من الغلوّ ومكافحته وعلاجه

١ . التحصينُ العلمي الداخلي الذاتي.

وذلك عن طريق ضخّ موادّ عقديّة علمية، بأسلوب واضح غير متكلّف، مبنيّ على أدلّة صريحة صحيحة لا تقبل الإيرادات القادحة، وبناءِ القواطع الشرعية بدلالاتها في الصفوف الدراسية. وبعد ذلك تحصينهم بردود شرعية واضحة؛ ليستطيعوا المشيَ بثقةٍ في عصرِ الفتن المظلمة المدلهمّة، مع التنبيه لتجنّب إيرادِ شِبههم حتى لا تعلق بالقلوب الضعيفة، فالشُّبَهُ خطّافة، ورُبَّ شبهة رسخت فعصفت.

ومن جدير التنبيهات: أنّ هناك فرقٌ دقيق بين المنهج، والسلوك، والمادة العلمية. وهذه الثلاثية لابد أن تُمزج أثناء الدرس وتُفْصَلَ أثناء التحليل. ففي الدرس والقدوة والتربية عن طريق الأكفاء يستلهم الطالب الديانة جملةً علمًا وسلوكًا وخُلُقًا ومنهجًا، ولكن عند تحليل الظواهر المختلفة المنتجة لثمرة معينة أو المُفرزة لظاهرة خاصة فلا بد لنا حينها أن نَفْصِلَ الثلاث كُلًّا على حِدَة، مع رجوعها في الأصل لمشكاة واحدة، فربّما يكون الخلل في الفهم المغلوط أو التطبيق الخاطئ أو القدوة السيئة، فمن الظلم حينها اتهام المشكاة الناصعة الناصحة لأن مُوقِدَها ليس على ما نريد.

ولهذا وقع من اتّهم السلفية بأنها من منابع التكفير وأنها من موارد الفئة الضالة في الظلم الحيف والجور. وهذا ناتج . إن أحسنّا الظن به . عن جَمْعِ

المُفترقات واعتساف النصوص أو الفتاوى وربطها بسياقات بعيدة عن الصواب، وتتبعِ شواذّ الأقوال، مع تسليمنا بعدم عصمة الأفراد مهما علا كعب علمهم من الخطأ، أو رسخت جبال إيمانهم من الهوى، لكنا نقطع بعصمة منهج السلف بمجموعه؛ لأنه زُبدَةُ الإسلام، واللهُ لا يجمعهم على ضلالة.

ومن الحيف كذلك: ربطُ الغلو بمنهج الدولة السعودية الأولى، أو أئمة الدعوة التجديدية بعامة، وكذلك جمع مناهج (إخوان من طاع الله) وتطبيقاتهم داخل إطار واحد، وكذلك ربط الغلو بمدرسة ابن تيمية وابن القيم.. إلخ، والمقصود: أنّ جمْعَ المختلفات تحت عنوان جامع مانع مستحيل إلا بالظلم والاعتساف. ومَنْ فشل هنا؛ فهو عند التطبيق والمناقشة والمناظرة أفشل، فحبل الوهمِ وهنٌ. واعتبر ذلك بنقاشات أهل العلم مع المتأثرين بتلك المناهج الغالية والمنحرفة عن جادّة أهل السنة، ولا تكفي هذه الحروف لبيانٍ أكثر من هذا.

٢. رفعُ المنكرات على قدر الطاقة، وعدمُ المجاهرة بها.

والوعدُ الصادق بتغييرها ولو على مراحل، فالخيرُ كل الخير في طاعة الله، والشرُّ كل الشر في مخالفة أمره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سفينةُ الإسلام وعمودُ الجهاد ومانعُ العذاب بإذن الله، ومن كان مع الله كان الله معه. قال شيخ الإسلام: «وكتبت عائشة إلى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ورُوي أنها رفعته إلى النبي ﷺ: «**من أرضى الله بسخط الناس؛ كفاه مؤنةَ الناس، ومن أرضى**

الناسَ بسخط الله؛ لم يُغنوا عنه من الله شيئًا». هذا لفظ المرفوع ولفظ الموقوف: «من أرضى اللهَ بسخط الناس؛ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناسَ بسخط الله؛ عاد حامده من الناس له ذامًّا»(١). هذا لفظ المأثور عنها، وهذا من أعظم الفقه في الدين. والمرفوعُ أحقّ وأصدق، فإنّ من أرضى الله بسخطهم؛ كان قد اتّقاه، وكان عبده الصالح، والله يتولى الصالحين، وهو كاف عبده، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢- ٣]. فاللهُ يكفيه مؤنةَ الناس بلا ريب، وأما كونُ الناس كلّهم يَرضون عنه؛ فقد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه إذا سلِمُوا من الأغراض، وإذا تبيّنت لهم العاقبةُ.

ومن أرضى الناسَ بسخط الله؛ لم يغنوا عنه من الله شيئًا، كالظالم الذي يعضّ على يده يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٨]. وأما كونُ حامده ينقلب ذامًّا: فهذا يقع كثيرًا ويحصل في العاقبة، فإن العاقبة للتقوى، لا يحصل ابتداء عند أهوائهم»(٢). وقال شيخ الإسلام الثاني ابن القيم الربّاني: «فلا بدّ من حصول الألم لكلّ نفسٍ آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكنّ المؤمن يحصل له الألم في

(١) أخرجه بالوجهين الترمذي (٢٤١٤) وابن المبارك في الزهد (ص٦٦) وأحمد في الزهد (ص١٦٥) بألفاظ متقاربة. وصححه الألباني مرفوعًا في السلسلة (٥/ ٣٩٢) (٢٣١١).

(٢) مجموع الفتاوى (١ / ٥٢).

الدنيا ابتداءً، ثم تكون له العاقبةُ في الدنيا والآخرة، والمُعرِضُ عن الإيمان تحصلُ له اللَّذةُ ابتداءً، ثم يَصير إلى الألم الدائم. واللهُ تعالى ابتلى أُولي العَزْمِ مِن الرسل فلما صَبَرُوا مكَّنهم.

فلا يَظُنَّ أحدٌ أنه يخلص من الألم البتة، وإنما يتفاوتُ أهلُ الآلام في العُقُول، فأعقلُهم مَنْ باع ألمًا مستمِرًّا عظيمًا بألم منقطعٍ يسير، وأشقاهُم مَنْ باع الألَمَ المنقطِعَ اليسير بالألم العظيم المستمر. فإن قيل: كيف يختار العاقلُ هذا؟ قيل: الحاملُ له على هذا النَّقْدُ والنَّسيئة. والنَّفْسُ مُوكلةٌ بِحُبِّ العَاجِلِ، ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠- ٢١] ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٧]»(١).

لولا العقولُ لكان أدنى ضيغمٍ ... أدنى إلى شَرَفٍ من الإنسانِ

٣. إظهارُ شعائر الدين وتعظيم قدره في الأمة على كافة المستويات.

وبيانُ أنّ الدولةَ دولةُ شرعٍ منزَّلٍ لا مبدّلٍ(٢)، وإن نابها بُعْدٌ في الالتزام

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣ / ١٥) باختصار يسير.

(٢) قال ابن تيمية: «لفظُ الشرع يقال في عرف الناس على ثلاثة معان:

الشرع المنزل: وهو ما جاء به الرسول ﷺ، وهذا يجب اتباعه، ومن خالفه وجبت عقوبته.

والثاني: الشرع المُؤول: وهو آراء العلماء المجتهدين فيها، كمذهب مالك ونحوه. فهذا يسوغ اتباعه ولا يجب ولا يحرم، وليس لأحد أن يُلزمَ عمومَ الناس به، ولا يمنع عموم الناس منه.

=

ببعض أهداب الشرع المطهر. وهذه رسالة لولاة الأمر في دول الإسلام عامّة أن يتقوا الله تعالى، وأن يُراعُوا هذا الأمر بشدّة، ويسُدُّوا أفواه أولئك بالفعل لا بالقول، وبالبعد عن الشبهات، وسدّ الذرائع التي دخلوا منها لمبتغاهم في أذهان أتباعهم، وأن يتدبروا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج: ٤٠- ٤١].

٤ .بناء جبهة مؤسَّسِيَّة عبر مجموعات مُنَظَّمة فاعلة.

فجهد الأفراد يضيع مع زحام الأحداث، لكن مع الاجتماع والتنظيم تكون البركة والفائدة بإذن الله تعالى، وذلك لتحصين الناشئة بالعلم والإيمان، ولمكافحة ومحاربة الأفكار والمذاهب الدخيلة على الأمة، ويكون ذلك عبر فرق تخصصية ممتازة مكونة من طلبة علم مُدرَّبين ومُتمرِّسين حتى لا يصبح الصائدُ صيدًا.

وتتخصصُ كل مجموعة في سدِّ ثغرة فكرية على الأمة؛ سواء في موضوع

=

والثالث: الشرع المُبَدَّل: وهو الكذب على الله ورسوله ﷺ أو على الناس بشهادات الزور ونحوها والظلم البين». مجموع الفتاوى (٣ / ٢٦٨).

قلت: ومن الشرع المبدل الحكم بغير ما أنزل الله مع نسبته لشرع الله، ومن بدّل حقيقة الشريعة بقوانين البشر؛ فهي شريعة طاغوت وكفرٍ وتبديل، حتى وإن غلّفها باسم الشرع والإسلام، فالعبرة بالحقائق لا الدعاوى.

التكفير والغلوّ، أو الإلحاد، أو الشُّبه البدعية، ونحو ذلك، مع الحذر من تصدير من لا كفاءة له، إما لرقّة ديانته؛ فتضيع الأمانة وينكسر الثغر، أو لضعف إدراكه وفقهه؛ فتُؤتى الأمة من قِبله، أو لخبث مذهبه؛ فيصولُ مع الذئب ويزمر مع الراعي! ولا بد أن تجتمع في كل فردٍ منهم أربعُ خصال:

الأولى: الإيمان والأمانة والورع والخوف من الله تعالى، فعليمُ اللسان ضعيفُ الإيمان محتاجٌ أوّلًا لدعوة نفسه لسبيل الله ولموعظة وتذكير، أما المؤمن الصالح فحريٌّ بتوفيق الله تعالى له بهداية الناس على يديه.

الثانية: العلمُ الواسع بالشرع وبخاصة في قضايا التكفير ولوازمه وموانعه، وبالأفكار الوافدة والنحل الواردة، وكذلك المعرفة الواسعة بالواقع وحال الأمم والدول والجماعات ونحو ذلك. مع التنبيه لأهمية استيعاب شبهاتهم الكبار التي يرددونها دومًا بأساليب مختلفة، والتأكيد على تكامل موانع التكفير مع موجبات الردة، والتفريق بين تكفير الوصف والشخص وفروع ذلك. علمًا أنّ بعض شبهاتهم في غاية الغموض، وكشفها ليس باليسير، لأنّ الإيرادات عليها كثيرة وقويّة، لكنها - بحمد الله - مدحوضةٌ بالمحكمات والأصول العامة والدلائل والبراهين الخاصة، كمسائل الحكم بغير الشرع، أو موالاة الكفار، أو مظاهرتهم ونحو ذلك، وهذه مفتقرةٌ لحُسن تصوّرٍ للمسألة أولًا، وحسنِ ورودٍ وصدورٍ عنها ثانيًا، وإلا فقد يكون المُحاجِجُ المحقُّ مفلوجًا لا بالحق ولكن بالشبهة العارضة التي عجز عن رفعها وكشفها.

الثالثة: قوّةُ الحِجاجِ، ووضوح المنطق، وحسن المجادلة، وجودةُ الفنّ

الخطابي بإيراد الحجج ودفع الشبه والحصار المنطقي للأفكار والإلزام الجَدَلِي للمناظَر، مع العناية بأن يُعرض الحق بهدوء وبرهان ووضوح وقوة ورفق. ومن فروع ذلك الفطنةُ والنباهة، والحذرُ من مآلاتِ الكلام، وعدمُ الوقوع في فخّ الإجمال.

الرابعة: الحلمُ الواسع والصبر الجميل وحسن الخطاب وطول النفَس مع المخالف، حتى لا يزيد الأمر سوءًا بعجلته أو غلظته أو جفائه أو تكبّره.

هذا مع أهمية المتابعة الحانية الحازمة الطويلة لكل حالة على حدة، فكلّ فرد له ميوله ورغائبه ومنهجه وطريقة تفكيره ومُؤثراته ومحكماته ومبادؤه، وإنّ استنقاذَ فتًى من براثنهم يعدل صالحات كالجبال، فلا تستهينوا ولا تكسلوا ولا تيأسوا، فالأمرُ ـ وعزّةِ ربي ـ يستحق.

هذا مع العناية بمنح الطرف المقابل وقته في التنفيس وإبداء الرأي ـ مهما ظهر خَطَلُه وخطأُه وبُعدُه وغرابته وفساده ـ وعدمِ احتقاره أو استصغاره ولو كان جاهلًا صغير السن، وقد ثبت أنّ بعض وسائل العلاج قد تسبّبت في تفاقم الأمر عن طريق الاستفزاز لشخص أو لجهةٍ أو لفصيلٍ أو لفئة عمرية وتهميشها. مع ملاحظة ألّا يُنفخ بمدحٍ ليس فيه؛ فيلبس لبوسًا ليس له، ولا يُترك له العنان فيخرج من المحادثة وقد جرّ إهاب زور، وإنّ العُجْب يا صاحبي خوّانٌ.

ومن فنون الحوار: توجيهُ المُخاطَبِ إلى الحقِّ بأسلوب غير مباشر حتى ينقدحَ له أنّه قد وصله بنفسه، ومن جرى عليه ذلك؛ تحمّس للحق الذي

وصله واعتنقه وناضل دونه.

وليحذر المحاور المجادل اتّهام المخاطَب بالعمالة أو الضلال ونحو ذلك، إلا بقدر الحاجة، ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤] ولكن يبين له برفق وبرهان ووضوح عمالةَ من يتبعه أو يستمع له أو يعجب به أو يثق به، لأنه ـ إن فعلت ذلك المحذور ـ؛ سينفرُ من فكرك حال الكسر المباشر للمقدَّس في عينه، إلا إن وُفّقت لسابِلَةِ سلامٍ مع نفسه. مع التنبيه لأهميةِ وجودِ مساندةٍ ومشاركة لكل فريقٍ من خبراء في التحليل النفسي والتأثير العاطفي والهندسة النفسية، وكذلك خبراء في التعامل مع العبث التقني والأمن السيبراني ونحو ذلك.

والمقصودُ أنّ الطرف الآخر المعادي يعمل بتنظيم وفق مجموعات مؤسَّسية مدروسة، لكننا لا نزال نشتكي ضعف الجهد المقابل وتشتت العمل، لهذا فنحن في حاجة ماسّة عاجلة لمشروع مؤسَّسِيٍّ ضخم وذي جودة عالية ومتابعة دقيقة، والجهد والبذل في هذا الثغر مخلوف بخير بإذن الله تعالى.

ومن البشائر يقيننا بأن الله تعالى قد ألقى العداوة والبغضاء بين اليهود حتى تقوم الساعة والنصارى كذلك، قال سبحانه في شأن يهود: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال في شأن النصارى: ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: ١٤] فألقاها بين اليهود وأغرى بها النصارى.

٥ .الحزم والصرامة مع من يثبت انتماءه أو مساعدته لهم.

والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قد جاهدوا الخوارج بالعلم وبالسيف، فهما قرينان فالعلم سابق فاتح والسيف ناصر حارس. ولا بد من تعاون الجميع في هذا الباب كلٌّ وقدرتُه، فدحرُ الضلال مسؤولية الجميع بكل وسيلة مشروعة؛ بمناصحة أو إبلاغ، أو غيرهما.

٦ . بثُّ روح التفاؤل في الأمة وأنه ليس وقت فشل وتهور وانهزام وانتحار.

وفي القرآن والسُّنة والسيرة والتاريخ والواقع شواهد لا تحصى بحمد الله، ومن قلّب وَجَدَ شَرْحَ صدره وقرّة عينه، وأمُّتُنا موعودةٌ من لَدُنْ ربِّها بالرفعة والسناء والتمكين إن بذلت أسباب ذلك، وعد الله ولا يخلف الله الميعاد، والواجب تصحيح المسيرة كلٌّ مع نفسه ثم مع من يليه.

٧ .التأكيد على أن الإسلام دين رحمة وعدل وسلام.

وأنّ الإسلام الذي يُظهرون الغَيرة له . وهم في حقيقتهم مُغِيرين عليه . ليس بدين وحشية وظلم وغدر وتعدٍّ لحدود الله تعالى.

٨ .اجتماعُ أهل العلم والدعوة والتربية، ونبذُ الفرقة والخصومة.

فالاجتماع عزٌّ ونجاح، والفرقة فشل وخيبة، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٩ .اقترابُ العلماء وطلبة العلم من الشباب واحتواؤهم والصبر عليهم.

سواء كان عبر البرامج الحوارية والفتاوى المباشرة والدروس الحانية السهلة التي تراعي فئتهم وعقولهم ومداركهم وعواطفهم وغير ذلك، حتى إذا نابهم شيء رجعوا لمَأرِزِ العلم وكهفه وكَنَفِه، لا مجاهيل الشبكة وأدعياء العلم والتديّن.

١٠ .كفّ الاستفزاز الإعلامي وغيره ومحاسبة كل من يقدح في مسلّمات الشريعة.

فمَن يقدح في دين الأمة ومسلمات شريعتها وينادي بتنحيتها ويجرح رموزها، فهو بعد كونه قد حارب الله تعالى ورسوله ﷺ وكتابه؛ فهو مهيجٌ كبير ومسعر خطير لجذوة الغَيرة والحماسة لدى فئامٍ ربّما بعضهم لم تضبطهم محكمات الشريعة ولم تلجمهم رؤية المآلات والعِبَر والتجارب، فإن رُمت برهانًا فانتظر أول جواب من لدن أولئك حين تسأله: ما تنقم منهم! لذا فمنع أولئك المستفِزّين ومحاسبتهم هو في حقيقته طاعة لله أولًا، ثم حفظٌ للناس من خروجِ حميّة بمسعر غضب بلا قيد.

١١ .تصميمُ ألعاب الكترونية تنافس وتضاهي الألعاب التي يدخل منها هؤلاء وغيرهم لقلوب وعقول فلذاتنا من الجنسين.

لا شك أنّ اللعب من اللهو، واللهو باطل، والمؤمنُ لا يخوض الباطل، قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ ما يلهو به الرجلُ المسلم باطلٌ، إلّا رميُه بقوسه،**

وتأديبُه فرسه، وملاعبته أهله، فإنّهن من الحق»[(١)]. فالمؤمن خُلِقَ لمعالي الأمور وليس لسفسافها، وخلق لجِدِّ الآخرة لا للهو الدنيا، ولكن إن ابتلي شبابنا بهذه الفتنة فلا أقلّ من أن ندفع المفسدةَ الكبرى باحتمال الصغرى، فتهيئةُ هذه الألعاب بجودة عالية منافِسَةٍ من مصدرٍ سليم وعقول نظيفة وقلوب مؤمنة لا مفرّ منه إن أردنا حفظهم من عاديات الملاحدة واليهود والنصارى والغلاة. فلنصمّم ألعاب أبنائنا وبناتنا ولنصنعها حتى تُغنيهم عن ذلك العفن والخطر المنهمر منها لأفكار وأخلاق الفتية والفتيات.

وهذه المهمة حقيقةٌ بالتطبيق العاجل من لدن تجار ومهندسين وشباب مبدعين، ورعاية من الدولة عبر الدعم والتسهيل والمتابعة والتسويق، وهي في المقدور إن ساعدت الإرادة والهمة بعد توفيق الله. وكذلك مراقبة نوعيةِ الألعاب الداخلة لأسواقنا . ولو عبر الشبكة . وتشكيلُ هيئة تنسيقية مشتركة بين الدول المعنيّة للاتفاق على محاسبة ومنع من يخرق بنود السقف العَقَدي أو الأخلاقي أو الأمني لشبابنا، أسوة بالهيئات التجارية المشابهة، وغني عن التذكير بأن هذه الهيئة أهم بكثير، واللهَ المستعان.

❀❀❀❀

---

(١) الترمذي (١٦٣٧) وقال: حسن صحيح. وصححه بنحوه الألباني في السلسلة (٣١٥) بزيادة: «وتعلم السباحة» وهي عند الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٨٩/ ٢) بسند جيد.

التاريخُ مضغوطًا، قراءةٌ للمشهد الكلّي، وعودةٌ للأمر من أوَّلِه

دعونا نعُد للمشهد الكلّي من أوّلِه، فالنظرُ للأمور كلّما كان أعمّ وأشمل؛ كانت النتيجة أقرب للصواب طردًا وعكسًا. وسنوغلُ سويًّا في التاريخ السحيق والزمن الغابر، فنبدأ من أوّلِ نقطةٍ وصَلَها العلمُ البشري على الإطلاق، بحسب العلم القليل الذي أوتيه البشر، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥] ثم ننطلقُ منها عائدين نطوي القرونَ تلو القرون باختصار واقتصار واقتضاب. علمًا بأنّ التاريخ الغابر السحيق محكومٌ بسحابةِ الغيب، التي لا يكشفها لنا سوى الوحي المنزل من خالق الكون وباريه لمن شاء من أنبيائه ورسله، وبما أن الأنبياء ـ عدا خاتمهم محمد صلى الله عليهم وسلم ـ قد زالت علومهم أو حُرّفت من الذاكرة البشرية، إما بانقراض العصور، وفناء الأجيال، وإما بالتبديل والتصرّف والتحريف؛ فلم يبق سوى الوحي المعصوم من خطأ أو نسيان، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ٦٧]. وقد بقي لنا الوحيُ بشقّيه القرآن والسنة.

وقد تكفّل الله سبحانه بحفظ وحيه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٨] والسنة من جنسِ الذِّكر، قال جل ذكره: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤] كما روى أبو داود من حديث المقدام بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا إنّي أُوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معه**»(١). فالسنة الصحيحة وحيٌّ محفوظ في الصدور والسطور

(١) أبو داود (٤٦٠٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٤٣).

كما القرآن العظيم. ويصلُ إلى حقّ يقينيةِ ذلك من ارتاض ميادين الصحاح والمسانيد والتخريج والعلل.

هذا وإنّ الحد الزماني والنقطة الابتدائية لبداية التاريخ المشهود، والمدى المحدود للمعرفة الأزلية للذاكرة الإنسانية هي ما رواه الإمام البخاري وغيره عن عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. وقبله حديث ابن عمرو الآتي في القدر. قال: إنّي عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم فقال: **«اقبلوا البُشرى يا بني تميم»** قالوا: بشّرتنا فأعطِنا، فدخل ناسٌ من أهل اليمن فقال: **«اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم»** قالوا: قبِلْنا، جئناك لنتفقّه في الدين، ولنسألك عن أوّلِ هذا الأمر، ما كان؟ قال: **«كانَ اللهُ ولم يكن شيء قبله، وكان عرشُه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كلَّ شيء»** ثم أتاني رجل فقال: يا عمران، أدرك ناقتك فقد ذهبت، فانطلقتُ أطلبها فإذا السراب ينقطع دونها، وايْمُ الله(١) لوددت أنّها قد ذهبت ولم أقُم(٢).

(١) قال ابن الأثير: «أيمُ اللهِ: من ألفاظ القسم، كقولك: لعمر الله وعهد الله، وفيها لغات كثيرة، وتفتح همزتها وتكسر، وهمزتها وصل، وقد تُقطع، وأهلُ الكوفة من النحاة يزعمون أنها جمع يمين، وغيرهم يقول: هي اسم موضوع للقسم». النهاية في غريب الأثر لابن الأثير (١ / ٢٠٧) فالأشهر أنّ همزتها وصل، فلا تنطق عند الوصل، ومن مشى على أنها قطع فله سلف، والأمرُ واسع.

(٢) البخاري: ٧٤١٨ (٩ / ١٢٤) وروي الحديث بلفظ: **«ولم يكن شيءٌ معه»**، وبلفظ: **«غيره»** والمجلس كان واحدًا، فلزم الترجيح. ولفظُ "القَبْل" ثبت في غير هذا الحديث، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه:
=

فأهلُ اليمن سألوا رسول الله ﷺ عن هذا العالَمِ المشهود بسماواته وأرضه الذي خلقه الله تعالى في ستة أيام، ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] لا عن جنس مخلوقات الله تعالى؛ فأجابهم ﷺ على قدر سؤالهم، وكما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «**كتب اللهُ مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشُهُ على الماء**»(١). فخلق الله هذا الكون السماوي الأرضي، ثم مرّتْ أحقاب طوال، اللهُ وحده يعلم ما جرى فيها من أمور وأحداث، ثم خلق آدم، فسُطِر من هناك تاريخنا.

أكرمَ اللهُ تبارك وتعالى عبده آدم بأن خلقه بيده من تراب. روي أنه من تراب كوكبنا الأرضي بقبضةٍ من أنحائه مما كان له الأثر في اختلاف أمزجة

=

«**اللّهم أنت الأوّل فليس قبلك شيء**»، واللفظان الآخران لم يثبت واحد منهما في موضع آخر فتبيّن أنهما رُويا بالمعنى، وأنّ المحفوظ لفظ «**قبله**» وانظر: الصفدية لشيخ الإسلام: (١/ ١٧، ٢/ ٢٢٤) ونقض التأسيس (١/ ٥٧٩) وشرح الطحاوية لابن أبي العز (٨٩-٩٢) ومسألة التسلسل والقول بحوادث لا أول لها له اتصال مباشر بهذا الحديث، وهي من أحلك المعضلات عند الفلاسفة الإسلاميين، حيث أنها تجرّ الخائض فيها لإلزامات ومحالات ومحارات إن لم يوفقه الله لكشفها، وقد قيّض لها العالم الرباني شيخ الإسلام ابن تيمية فحلَّ معضلتها، وكشف وجهها الصحيح بعد أن ألقى عليها المتهوِّكون شبههم وأشراكهم، فاستقام العقل الصريح مع النقل الصحيح. ومن أَمْثَلِ من كتب فيها من المعاصرين الشيخ الدكتور الحوالي في شرحه للطحاوية.

(١) مسلم (٨/ ٥١).

ذريته. ثم من طين، ثم صار الطين صلصالًا، ثم نفخ فيه من روحه، أي خلق له روحًا نفخها في جسده. ثم فضّله كذلك بتعليمه أسماء كل شيء، ثم أسجد له ملائكته تحيّة لآدم وطاعة لله، وقد ظهر حين ابتلاء الملائكة فسادُ إبليس. وله من اسمه نصيب أعاذنا الله جميعًا منه. فحسد وتكبّر، وأضمر العداوة، ثم أشهر التحدّي والاستكبار.

أسكنَ الله تعالى كريمَهُ آدمَ جنتَه، وخلق له من ضِلَعِهِ زوجًا يُؤنسه. فالمرءُ ذو حنين لشكيله، وميل لأنيسه وهو مدنيٌّ بطبعه ويستوحش من وحدته. فأزال ربُّه وحشة الانفراد بعشير مؤنس، وقد كتب سبحانه أن سيكون لهما ولذريتهما ملاحم طويلة جدًّا وشرسة وخالدة في الابتلاء والاختبار والجهاد والإيمان، والسقوط والرفعة، مع القرين الحسود الكفور الماكر الشيطان الرجيم.

فبدأ الامتحان وانطلق الاختبار بالنهي عن الأكل من الشجرة، وأمدّ اللهُ عبدَه بالعلم والحكمة والإيمان والصفاء والإرادة والملائكة المُثبّتة، وأمدّ عدوّه بالحيلة والمكر والاستخفاء والدهاء وطول العمر وكثرة الأتباع، فأعطى كلًّا آلته حتى يكتمل مشهد الصراع بين الحق والباطل، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

فأقسم الغادرُ أنّه ناصح مصلح: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] فصدّقاه غفلةً ونسيانًا، فوقع المحذور، وأكل الصالحُ والصالحة من الشجرة، والنفوسُ مولعةٌ بما نهيت عنه، فعوتبا فتابا وأنابا واعترفا بما

اقترفا، فالطينُ للخير رجّاعٌ، لكنّ النار دمار، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] ، فتنزّلت عليهما الرحمة والمغفرة، وتِيب عليهما، وارتفعا قدْرًا عن منزلتهما قبل الابتلاء.

ثم أُهبِطا لاستكمال مشهد الابتلاء والامتحان والصراع بين الحق والباطل والظلمات والنور، ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] ، ثم أُعطيا منشورَ التحذير والبيان لهما ولذريتهما من بعدهما: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢] ، ثم خَصّ ذريتهما بالنصح والبيان والتحذير، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] ، ذلك أنّ إبليس لما أيقن بالهلاك السرمدي والعقاب الأبدي؛ أراد لخبث معدنه واستحكام شرّه أن يجرّ معه ما استطاع من بني عدوه آدم، قائلًا بكل فجور لمن خلقه وسوّاه: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، ولم يقل: من فوقهم، لعلمه بمعيّة ربهم حفظًا ونصرًا إن تعلقوا بحبله الواصل لهم، ومن كان ربُّه معه فمعه الفئة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل، ومن آوى إليه فقد آوى إلى ركن شديد.

ثم استمرت مسيرة البشر مع عدوهم وذريته، فاستزلَّ أكثرَهم، وثبت على الحق أقلُّهم، وللحكيم الخبير حكمٌ كثيرة في خلق إبليس، وتسليطه على

بني آدم، فقام سوق الجنة والنار على ساق الابتلاء والامتحان والصبر والشكر والمجاهدة والعبادة.

ولا يُعلم بالتحديد وقت الإهباط الآدمي من الملكوت السماوي الأعلى، ولكن زمانه ليس بالبعيد جدًّا كما يقوله الجيولوجيون وعلماء المستحاثات، إذ مَدّوه لمئات الملايين من السنين. وحاولوا إثبات ذلك . وأنّى لهم . فسلّطوا آلاتهم على طبقات الأرض علّهم أن يجدوا بقايا إنسانٍ يتحدّث لهم رفاتُه عبر الكربون المشعّ مخبرًا لهم تاريخه وعمره. وبعضهم قد تسلّط عليه الجهلُ فأراد حفر الماضي الغابر عبر تسليط نظريات التطوّر والارتقاء الداروينية الملحدة المادية، فرجع بصره وعقله وعلمه خاسئًا حسيرًا. فالأمر قريب، والجنس الآدمي يعود لآدم وحواء مباشرة، ومنهما انتشرت ذريتهما في الأرض(١).

---

(١) وفي حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبة رسول الله ﷺ الطويلة وفيه قال: وجَعلنا نلتفتُ إلى الشمس. هل بقي من النهار شيء؟ فقال رسولُ الله ﷺ: **«ألا وإنّهُ لم يَبْقَ مِن الدنيا فيما مضى منها إلا كما بَقِيَ من يومكم هذا فيما مضى منه»**. أخرجه الترمذي (٢١٩١) وغيره، وقال حديث حسن صحيح. وضعفه الألباني عدا بعض فقراته. قال ابن رجب: ويشهد لذلك من الأحاديث الصحيحة: قول النبي ﷺ: **«بُعثتُ أنا والساعة كهاتين»**. رواه البخاري (٦/٢٠٦) ومسلم (٣/١١) (٨٦٧)، وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى. خرجاه في الصحيحين من حديث أنس، وخرجاه أيضًا بمعناه من حديث أبي هريرة وسهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم. فتح الباري لابن رجب (٣ / ١٤٦).

قلت: فإن صحّ الحديث فالنِّسبةُ الزمانية ـ والعلم عند الله ـ من (١٢) أو (٢٤) أو قريبًا

=

واستمرّ مسلسل الإغواء والمجاهدة والسقوط لحمأة الذنب من صيود إبليس وذريته، فمن قائمٍ تائب مرتفع على هواه، ومن قابع منهزم لجيوش الباطل، ولكنّ الذنب الأكبر لم يقع بعد وهو الشرك والكفر، وبقي الحال عشرة قرون ـ أي أجيال ـ حتى وقع المحظور العظيم، فتتابعت أرسالُ الهلكى على شبكات عدوِّهم الأزلي فِكرًا وشبهةً بالشرك والبدع، وضعفًا وشهوة بسائر الموبقات، فابتعث الرحيم الحكيم لهم عبده الصابرَ ورسوله الأوّل نوحًا عليه السلام، فكذبوه، فأغرقهم الجبار جل جلاله بالطوفان العظيم الذي أغرق كلّ نسمة حيّة على ظهر البسيطة، حتى إن الموج قد ارتفع فوق قمم الجبال ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢] ويُروى أنّ الماء علا على رؤوس الجبال قدر أربعين ذراعًا[(١)] فتخيّل الماء قد غطى الأرض، وارتفع على مستوى قمة إفرست أكثر من عشرة أمتار، فغدى كوكبنا بركة ماء كبيرة، ليس فيها أحياء سوى أهل السفينة، أو من شاء الله من الأسماك[(٢)].

=

من ذينك العددين، بدون بُعْدٍ عن هذا المحور الزمني لعمر البشرية، لذلك فإن قال أحد بتقريبها لخمسين ألف سنة أو شطر ذلك فربما لا يبعُد، وليس ذلك رجمًا بغيب، إنما قُصاراه أن يكون تلمّحًا وتلمّسًا لظواهر النصوص، وهو على كل حال من مُلَحِ العلم لا متينه، فلا يحسن الإيغال في بحثه دون المهمّات، ونحن مُتَعَبَّدُون بهذه الديانة الخاتمة، بتصوُّرِها الشامل للكون والخليقة والدنيا والآخرة.

(١) انظر تفسير البغوي، سورة هود، آية: (٤٢).

(٢) ولعل هذا يفسر لنا جانبًا من جوانب بقاء كثير من الأحياء البحرية على أشكالها السحيقة

=

وهبطت سفينةُ البشر برّ الأمان، وكتب الله البقاء لنسل نوح فقط. على الصحيح. فهو أبو البشرية الثاني، فيصحُّ أن يقال للبشر لغةً ونسبًا: النوحيين، قال جل شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] فعاش الناس في توحيد وإيمان، وتفرقوا في الأرض، حتى اجتالت الشياطين من قضى الله بخذلانه، ولا زال بنو آدم مع الحق والباطل تترًا، وأرسل الله لهم المرسلين منهم تترًا، وأكثرُهم كذَّبَ الرسلَ فحقَّ عليهم عقابُ الجبار، فحاقَ بهم عذابُه ورجزه، وما من أمّة من الأمم قط إلا وقد بعث الله لهم رسولًا، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وأقدمُ من عُرف من القرون الغابرة بعد الطوفان السومريون، وبحسَب كتب أهل الكتاب فزمانهم كان قبل نحو (٦٠٠٠ ق م) وكانوا في شمال العراق، ويقال: إنهم أول من شق القنوات الزراعية، وأنشأ السدود، ولهم بعض الصناعات البدائية، وإليهم تُنسب أول حروف الكتابة في التاريخ "الخط المسماري" ولعل هذا هو سبب تخليد اسمهم عبر العصور، ثم تفرقوا من هناك. على المشهور. فساحوا شرقًا وغربًا وجنوبًا، وبقي أكثرهم في العراق والشام. فبنوا حضارات تليدة متتابعة، كالعاديين والأنباط.

ثم خلف السومريين الأكديون (٣٠٠٠ ق م) بفرعيهم الآشوري

=

بعد الأحافير، كذلك بقاء الكبار جدًّا منها كالحوت الأزرق وغيره وكذلك وجود هياكل سمكية في قعر الصحاري القاحلة.

والكلداني الكنعاني ـ أهل بابل ـ في العراق، فبعث الله لهم أبا الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، وظهر الفينيقيون العرب في شرق وجنوب حوض البحر المتوسط، ومنهم الكنعانيون الفلسطينيون. وجاورهم فيما بعد أبناء عمومتهم من أسباط بني إسرائيل، الذين لا نعلم أمةً أرسل الله لهم الرسل مثلهم، وأشهرُهم موسى الكليم، وآخرهم عيسى المسيح عليهما الصلاة والسلام[١].

وتفرّق الناس في أرض الله شرقًا إلى أقاصي آسيا، وغربًا وجنوبًا، والذي يهمنا في هذا المقام تتبع الحضارات الناموسية التي هزّت الأرض بخيرِها أو شرّها.

كان الكنعانيون الساميون قد فارقوا حضارتهم السومرية إلى جزيرة العرب أولًا، ثم انتقل كثير منهم إلى حوض المتوسط الشرقي والجنوبي وربما بعض الغربي، وبقي بعضهم في حرّان. ومع هجرة الساميين إلى جزيرة العرب استوطن بعضهم جنوبها الغربي وبنوا حضارات مشهورة، كذلك فقد وصلوا للسواحل الأفريقية وتوغلوا إلى وسط إثيوبيا. أما الفينيقيون الساميون فإنهم انتقلوا من شرق جزيرة العرب إلى شرق حوض البحر المتوسط وجنوبه، وأسسوا حضارة عريقة وعظيمة، امتدت إلى جزر بعيدة في المحيط الأطلسي، بل وصلت تجارتهم لأمريكا الجنوبية فقد وجدت بضائعُهم مع حضارات القارة الأمريكية الجنوبية القديمة كالمايا وغيرها التي تحمل شعارات الفينقيين وبعض رسوم آلهتهم الوثنية. وهم مخترعو الأبجدية الأولى.

(١) وانظر: يا سائلًا عن بني إسرائيل. للمؤلف.

وعلى أنقاض الفينيقيين قامت حضارة جديدة غير ساميّة[1]، وهي حضارة الإغريق (اليونان) الذين خرّجوا الفلاسفة المشاهير كسقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم، وأسسوا المعابد الوثنية خاصة في أثينا وهي الحضارة الهيلينية، ومن أشهر قوادهم وحكامهم الإسكندر المقدوني. وهذه الحضارة تحديدًا هي الأم الحاضنة للفكر الغربي الحديث، فأصوله كلها راجعة إليها، وأفكارها مستقاة منها، ومتحاكمة إليها، حتى ليبراليتها الحديثة متشربة دمها ونخاعها.

وبما أنهم أمة فلا بد أن الله تعالى قد بعث فيهم رسلًا، ولا نعلم بالتحديد من رسلهم أو رسولهم، ولكن قد يكون طُوِيَ خبرُه بموته وزوال رسالته ومحوِ أثره، أو أنّه أحد مشاهيرهم وبُدّلَ دينه كما بُدِّل دين المسيح عليه السلام، فنسب له الشرك وهو منه براء. ولولا أن الله قصّ علينا خبر المسيح عليه السلام ما علمنا برسالته، ولِسقراط وصايا قيّمة وجهود إصلاحية، وقد

---

(١) علمًا بأنّ خبر ثلاثة الأبناء لنوح عليه السلام سام وحام ويافث مأخوذ عن التوراة الحالية، ومعلوم ما شابها من التبديل والتحريف والتغيير. وفي تقسيم شعوب الأرض على ضوئها نظر، فعِلْمُ السلالات على ضوء أنماط الشعوب وألوانهم وأشكالهم؛ يقتضي رجوعهم لأكثر من ثلاثة أصول، فشعوب شرق آسيا على سبيل المثال غير داخلة في سلالات الهندوأوروبية ولا السامية ولا الحامية، بل ترجع لأصل آخر، وقد يُردّ هذا بأن هناك أكثر من سلالة ونمط وشكل يرجعون إلى شخص واحد، فيكون قد تفرّع منه أكثر من سلالة بشرية حاليّة. وبكلّ حال فالخطب يسير، وسواء رجعوا إلى هؤلاء الثلاثة فقط أو يزيدون؛ فهم لا يخرجون عن أب واحد هو نوح، ثم إلى أبٍ واحد هو آدم عليهما السلام.

قتلوه، والمشهور عنه أنه مشرك وثني، والله أعلم بحقيقة الحال. وبالجملة؛ فقد كان لهذه الحضارة الهيلينية فلسفاتها وأدبياتها وتأملاتها، وللأسف فلم يصلنا منها سوى ثمراتها الفكرية الماديّة الملحدة.

ثم على أنقاض الإغريق قامت حضارة جديدة آتية من سهول أوروبا، وهي الحضارة الرومانية التي عُمّرت طويلًا، وهي حضارة عسكرٍ لا فكرٍ، واشتهرت بالطغيان والجبروت، كحال من سبقها من بعض الحضارات الكبرى، وكانوا يلقِّبون غيرَهم من الأجناس بالبرابرة تيهًا وعلوًّا في الأرض. وقد عُمّرت هذه الحضارة حتى أدركت المسيحَ عليه السلام؛ فآذته وقتلت أتباعه، فانتقم الله لهم بأن أدركها الرسولُ الخاتم محمد ﷺ فقرّعها وأتباعه حتى كانت نهايتها في مصر والشام والعراق وآسيا الصغرى على يد الأمة الفاتحة المجاهدة المسلمة، لكنها بقيت بعد ذلك طويلًا في شرق وجنوب وعمق أوروبا، وللأمة المسلمة معهم صولات وجولات عبر العصور، حتى يكون آخرها ملاحم آخر الزمان.

ولم يكن الرومان في الثقافة والفكر والتأمل كأسلافهم اليونان، لذلك فقد أخذوا ثقافتهم بكل ما فيها ولبسوها واعتنقوها، ولا عجب من أنهم كانوا يعيشون حيرة كبيرة، فعامّة الشعب وثنيون إبيقوريون، نسبة إلى الفيلسوف اليوناني إبيقور (٣٤١. ٢٧٠ ق م) الذي كان يصوّر بخيالاته آلهتهم السماوية الكثيرة المتشاكسة في غيبةٍ عنهم، ويصوّر الآلهة المزعومة مشغولة بصراعاتها عن البشر الذين لا يعنونها في شيء، ومن ذلك قوله: «إنّ جوبيتر يرسل

الصواعق على معبده، فهلّا سحق إبيقور الذي يُجدّف به»! وكان من مبادئ الديانة الرومانية التثليث (جوبيتر، مارس، كورنيوس) وكانوا يؤلهون الحاكم، وكان هذا يُعَدُّ تقليدًا هلنستيًّا(١).

ثم نشأت فلسفةٌ مضادة للفلسفة الإباحية الإبيقورية وهي الفلسفة الرواقية، والتي كان من أهم مبادئها الانقطاع عن الدنيا وإنكار الذات، ومن ثمراتها اليهودي شاؤول الطرطوسي الذي بدّل دين المسيح عليه السلام من الحنيفية والتوحيد إلى الوثنية والشرك، قد تلقّب وتسمّى بـ"بولس الرسول" وهو مؤسس النصرانية الحقيقي(٢). والأمم بأعمالها إلى ربها راحلة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) الهلنستية هي الإغريقية الحديثة.

(٢) وانظر (تاريخ العالم) هاملتون ٣/٥٨٩، (المشكلة الأخلاقية والفلاسفة) كرسون (٨٧). وقال الدكتور علي سامي النشار في كتابه (هيراقليطس فيلسوف التغيير): «ظهر الأثر الهيراقليطي واضحًا في فيلون السكندري (٢٠ ق.م. ٥٠م) (فيلسوف يهودي عاصر المسيح عليه السلام ويوحنا وبولس) فقد أخذ بفكرة اللوغوس كما وضعها هيراقليطس؛ ليثبت هذا الأخذ كيف سيطر هيراقليطس وأتباعه الرواقيين على القديس يوحنا وإنجيله الذي كتبه على ضوء آراء هيراقليطس، وابتدأ إنجيله بعبارة: «في البدء كانت الكلمة» أي اللوغوس» ا.هـ باختصار.

ويرى بعض الباحثين المحققين أنّ المذاهب الرواقية (أتباع الفيلسوف زينون الرواقي) هي تمهيد لإنجيل الكنيسة العامة. أي إنجيل يوحنا .. ونُشِرَ كتاب بالألمانية وقرّرَ أنَ الفلسفة الرواقية هي أصل المسيحية، وجعل هذه العبارة بنفسها عنوانًا لكتابه. هذا والفلسفة الرواقية إنّما هي ردّةُ فعل للفلسفة الإبيقورية الإباحية. ومن المشهور لدى الباحثين أن رسائل بولس. الملقب بالرسول. هي في لهجتها ومضمونها قريبة الشبه =

ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج: ١٧].

وشاء الله تعالى ألا تهتدي أمةُ الروم لنور الإنجيل العظيم، بل ابتلاهم الله بمن سطا عليه وحرّفه، فصار مُنَظِّرًا لديانة أوثان الرومان باسم المسيح عليه السلام!، لذا فقد دخل الرومان في الدين البولسي أفواجًا يتقدمهم قسطنطين الذي تعمّدَ بدينهم في أخريات حياته. فقامت الكنائس النصرانية على ذلك، وعلى حرب من تبقّى من الموحدين الحنفاء من أتباع المسيح عليه السلام، حتى لم تبق لهم باقية مشهورة. وتابعتهم شعوب أوروبا المغلوبة حينها كالجرمان والأنجلوساكسون والقوط وغيرهم على ذلك الضلال، كالأعمى يقود الأكمه، فهل له من خيار!

ثم شاء الحكيم الرحيم الخبير أن يقترب زمان النهاية للدنيا؛ فقرع الخافقين ببعث سيد الأولين والآخرين محمد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، فختم به الرسل وبكتابه الكتب. فقامت الحرب بين حزب الرحمن وحزب الشيطان على ساق، وعلم إبليس أن الأمر قد اقترب، فصال وجال في نفوس البشر، فسقط كثيرهم صرعى في ميدان النزال معه، وثبّت الله فئامًا

=

برسائل "سنكا" ومقالات "أبكتيتوس" وتعليل ذلك أن بولس قد نشأ في طرسوس، في وسطٍ شاعت فيه الأفكار الرواقية. وانظر كتاب: الفلسفة الرواقية، د. عثمان أمين، (٢٨٦ - ٢٩٣).

مخلصين صادقين، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤]، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فثارت الحروب الفكرية والجسدية بين الفئتين، والله يبتلي المؤمنين، ويصطفي الشهداء، ويملي للأعداء، ويخزيهم، ثم ولّى الروم لقارتهم العجوز، وأغلقوا عليهم الأبواب، وانكفؤوا على أنفسهم، إلا من جيوش يرسلونها لاستعادة أرض اللبن والخمير والعسل،. ورفع شعارات مهد المسيح. أما النور الهادي فهم عنه راغبون.

ثم تجلّلتهم القرون المظلمة. بحسَب تسميتهم لها. حتى شابهوا الحيوان البهيم في بعض أمورهم، ووصل انحطاط الإنسان فكرًا وخُلقًا إلى دركاتٍ من السفول والانحطاط والظلم والبغي والجهل والقذارة واحتقار الإنسان، حتى ربما باع الرجل زوجته مع بهائمه! وتسلّطت عليهم الكهنوتية الجاهلة، كالذئاب بمسوح الضأن، وكان كلّ من تلمّح نورًا قُمع وأُحرق بالنار، وأصَدَرَت الكنيسة ضدَّه صك الحرمان من الملكوت، أي من الجنة.

ومع احتكاكهم بحضارة الإسلام في الحروب الصليبية في المشرق، ثم المراكز العلمية الأندلسية في المغرب، وجزر البحر المتوسط من الجنوب، ثم دخول البلقان في الإسلام بفتوح العثمانيين. هناك كانت المواجهة المحتومة بين الدجل والظلام والكبت والقهر من لدن (الكنيسة والنبلاء والملوك) وبين الشعوب التي ملّت وكلّت ذلك التجهيل والظلم. وقد كانت بدايات تلك

التحولات الفكرية المتنفضة فيما يسمى بعصر النهضة. من القرن الرابع عشر إلى السابع عشر، أو قبل ذلك بقليل. فابتدأوا بالآداب الإنسانية الصرفة، دون نقد للحال الديني والسياسي، وترجموا آثار اليونان، وكتبوا أدبياتهم على ضوئها مع تجديدات لهم فيها، ومن رواد تلك المرحلة بترارك. أبو الحركة الإنسانية[١]. وشكسبير، ودانتي[٢]، ومعاصره الرسام جيوتو، وعاد الإغريق الجدد بالكوميديا الإلهية من جديد! وأقاموا الإبيقورية الملحدة الإباحية من رفاتها، فانتشر الانحلال على راحلة الأدب.

ثم قرعت طبول التغيير لديهم بالثورة اللوثرية، وهي حركات الإصلاح الديني التي أفرزت المذهب البروتستانتي الجديد[٣]، وأبرزُ روادُها مارتن لوثر، وزونجلي، وكالفن، وهزّ الفكر الأوروبي الهولندي سبينوزا بنقده الجريء كتابهم المقدّس المحرّف، ثم تحركت المياهُ الراكدة فكثرت بحوث مرحلة الفكر التجريبي كبحوث كوبرنيكوس، وجاليليو غاليلي، وإسحاق نيوتن، ثم قعّد لذلك النهج الأوروبي الجديد فرانسيس بيكون. وفي القرن

(١) معنى الإنسانية: أي ضد اللاهوتية.

(٢) إيطالي خبيث كتب الكوميديا الإلهية، وجعلها ثلاثة أقسام: الجحيم والمطهّر والفردوس، وقد سرق بعض أوصافها من المسلمين، ثم ازداد كفر المجرم حينما كتب في وصفه أنه رأى محمدًا ﷺ في الجحيم، عليه من الله ما يستحق، وصلى الله وسلم وبارك على سيد الأولين والآخرين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(٣) بسماته اليهودية الواضحة.

السابع عشر ظهر الإنجليزي الجَلْد جان لوك أبو الليبرالية الكلاسيكية.

واكتشفوا بعد قرون عديدة عقم المنطق الأرسطي، الذي قد نحره ابن تيمية قبل ذلك بقرون. ثم صُرِخَ في أوروبا بعنف بالصيحات المنادية بالحريّة والعقلانية والفردية وغيرها من التيارات التي يجمعها الكفر المطلق بالغيب، نكايةً بأذرع التلسط الثلاثية: الكنيسة والنبلاء والملوك، ولكل واحد من هذه الأذرع إفرازه المضاد؛ فأفرزت الكنيسة ضدها الوجودية الملحدة، وأفرزت طبقية النبلاء والسادة ضدها بشِقَّيْه الشيوعي والليبرالي، وأفرزت الملكية ضدها الديمقراطية.

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر التي سمّوها بعصور التنوير برزت مشاريعهم الفكرية على السطح، ومن رواد تلك المرحلة اليهودي الألماني الشهير نيتشه، صاحب المقولة الملحدة: «مات الإله»! . تعالى الله علوًّا كبيرًا . والتي صاغها عنه فيما بعد سارتر في مذهبه الوجودي الإلحادي بأساليب أدبية حتى نفذت لأفئدة الناس ونُسبت له، ثم سمّمهم اليهودي النمساوي فرويد بعقدتي أوديب وإليكترا، ومنهم المتقلّب الفرنسي فولتير، والفرنسيون بيلي، ولاندي، ومونتسكيو، والإنجليزي جون ستيوارت ملْ، وصاحب نظرية التطور الإنجليزي دارون، والنفعي الإنجليزي بنثام، وبيركلي، وهيوم، والألماني إيمانويل كانت، والأمريكي توماس بين، والإنجليزي الأمريكي بنجامين فرانكلين، ورئيس أمريكا جون آدمز، كذلك توماس جيفرسن، وقد سبقهم في القرن السابع عشر أبو الفلسفة الحديثة رينيه ديكارت صاحب

مذهب الشكّ، وأما إمام متأخريهم فهو الألماني هيجل. ثم جاء أبو الرأسمالية الحالية آدم سميث ففتح للبرجوازيين(١) باب أكل أموال الناس بالباطل بقوّة القانون وتضليل الفكر.

ثم فار غليان القِدْر الأوروبي الحائر بأفكار غاية ما تكون في التناقض، فكان أحدهم يعتنق اليوم ما كان يكفر به بالأمس، وكان يُقتل على مقصلة باريس من كان أمس يقتل خصوم الحرية عليها! فعاشوا حيرة واضطرابًا كأنهم شياهٌ هجّها الذئب في ليلة شاتية مطيرة، فهي تركض في عماء على غير هدى، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

وكثر ترديد الناس لشعارات الثورة الفرنسية، وهي التّنورُ الذي أنضج الفكر الأوروبي الحديث وسلّطه على النظم السابقة، ومن شعاراتهم: ثلاثية الماسون (حرية، إخاء، مساواة) والجُمَل الرشيقة الشهيرة: «دعه يعمل» في الاقتصاد، و«دعه يمرّ» في الحريات السياسية والأخلاقية والاجتماعية. وغذّاها اليهود لمكاسبهم منها في المال والسياسة، فأمسكوا بعدها بمفاصل الاقتصاد العالمي الربوي الجشع، وأجروا حيارى الناس خلفهم في تيارات جاهلية شديدة التناقض؛ فتارة يسارية ماركسية شيوعية، وتارة وجودية فردية ليبرالية، غير أن الخيط الناظم لها جميعًا هو الكفر بالله واليوم الآخر، وعبودية النفس وشهواتها.

ومع اختلاط ذلك كله ظهرت الليبرالية بصورتها الفاقعة (الكلاسيكيون

(١) أي التجار والأغنياء.

المحافظون) وهي في ظاهرها بادي الرأي مغرية للطبقات الكادحة المسكينة، والمستضعفين بكل ألوان الاستضعاف، ولكنها تخفي في باطنها وحشية لا تطاق، وبهيمية لا تُتصور، هذا إن طبّقت كما هي. وقد مرّت بمراحل متقلبة بين الكلاسيكية الصرفة، ثم بالكينزية الاجتماعية، ثم عادت أخيرًا إلى حالها الأول المتوحش.. وكلُّ إناء بالذي فيه ينضحُ.

وبعد تأملها نقول: إن الليبرالية هي: ضد العبودية لغير النفس وشهواتها. وبتقسيمها: هي علمانية في الفكر، رأسمالية في الاقتصاد، ديمقراطية في النظم والسياسة، وجودية في الحياة. كافرة بالله واليوم الآخر. ويا ويحَ من أعرض عن القرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وبالجملة؛ فقد عصفت بالغرب الصليبي. من موسكو لواشنطن مرورًا بأوروبا. عواصف فكرية ممتدة لقرون خلت، حتى استقر فلكُها في الليبرالية منذ توهّجها في القرن التاسع عشر والعشرين، ثم دخل القرن الميلادي الجديد وكان فيه المنعطف التاريخي الذي له ما بعده على كل المستويات والاتجاهات ألا وهو ما يسمّى بحادثة الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م[١] ولكن كم من سحرٍ انقلب على ساحِره، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٥- ١٧].

(١) بغض النظر عن حبكتها المخابراتية الصهيو صليبية بامتياز.

إنها الليبرالية الجديدة التي قال عنها المتأمرك فوكوياما. وما أكثر أشباهه الانهزاميين: «إنّ الحضارة الأمريكية الحالية هي النموذج الكامل للجنس البشري». لذلك فلا تعجب عزيزي حينما ترى كِبَرَ حرب الإسلام قد حملت رايته هذه الآثمة، التي جمعت المكيافيلية التبريرية، والبراجماتية النفعية، والإنسانية الوجودية الملحدة، والفردية الأنانية، والرأسمالية الجشعة، وحرب المؤمنين بالله واليوم الآخر، تلك هي الليبرالية التي بها يتغنّون، وإليها يظعنون، وبحمدها يسبحون، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

لقد طالت يدا القارة الأوروبية جوانب العالم بما سموه بحركة كشوفهم الجغرافية، فنزلت أساطيل هولندا الشرق الآسيوي وكثيرًا من جزر البحر الهندي والمحيط الأطلنطي، ثم تبعتها إنجلترا بإمبراطوريتها التي لم تكن تغيب عنها الشمس، ثم قامت الحرب العالمية الأولى بسبب تسيّد الفكرة الليبرالية الأوروبية النصرانية هرم السياسة والاقتصاد، فكانت النتيجة الدمار والخراب، ولكنهم كانوا حاضرين عند اقتسام أسلاب الرجل المريض(١) وغيره من ضعاف الدول في ذلك الحين، فبضّعّوا أشلاءه بمباضع سايكس بيكو، فاغتصبوها سرقةً واستخرابًا بما سمّوه استعمارًا، ولكن كانت الكُلفة شديدة بسبب إمدادات الجيوش، وضربات المجاهدين، فرحلوا بعد أن نصّبوا من يخلفهم تحت إشرافهم وطوعهم، فرحل المستعمر الأبيض بعد أن جاء بالمستعمر الأسمر كما قيل. ودرّبوا على أيديهم وفي بلادهم أجيالًا تحمل ثقافتهم

(١) وأُمتُنا تمرض ولا تموت، وتتعثر ولا تسقط، وتتألم ولا تنهزم.

وفكرهم وأخلاقهم بأسماء وسلالات إسلامية، عدا قلّة حاولت التفلّت من ذلك الحبل الغليظ، ثم ربطوا تلك الدول بسياسة المراكز والأطراف. ثم كان الحال إلى ما نراه اليوم، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١][(١)].

ومن المعالم البارزة في هذه المرحلة المتأخرة تلوّع الغرب بضربات المجاهدين، فصار الجهاد بعبعًا مرعبًا لهم في سائر العالم، وإن كانت مخابراتهم قد نجحت في تجنيد بعض عملائها فيهم، بل قد لا نبعد إن قلنا بتبنيها في الحقيقة لكثير مما يُنسب إليهم، وأنها قد نجحت في ضخ وحقن كثير من الصور والأفكار في ذهنية الرأي العام العالمي، إما بترديد الأمر، أو بتلوينه، أو بتكميم ضده، أو

---

(١) وننبه لأمرين مثيرين للريبة في وقت مناداتهم بدعم العصرانيين الإسلاميين، أو ما يسمّى بالإسلام الليبرالي: الأول: كتاب صدر قبل ربع قرن للأمريكي ليونارد بايندر بعنوان "الليبرالية الإسلامية" خلص فيه إلى توصية لموجهي السياسة الخارجية الأمريكية بدعم هذا التيار.

والثاني: تقرير مؤسسة راند، عن الإسلام الديمقراطي، وهو تقرير مشهور نشر عام ٢٠٠٣م يتلخص في توصية كتاب بايندر الآنف، ومؤدّاه أنّ الشعوب العربية قد وصلت لحالة قريبة من الانفجار، فلا بد من تنفيس لهم بديمقراطية شكلية تقرّب المعتدلين الإسلاميين دون الراديكاليين المتشددين ـ ويقصد بهم أهل السنة والجماعة ـ الذين سيتسيّدون المشهد إن لم يتدارك أولئك بدعم حقيقي، أما العلمانيون فدعْمُهم جهارًا يُفشل المشروع؛ لأن القبول غير حليف لهم عند شعوبهم. وقد نشرت مجلّة البيان اللندنية حلقات عن ذلك إبّان صدور التقرير.

بشراء المُطبّلين له.. إلى سائر تلك الخدع الإعلامية المخابراتية، مع وقوع بعض فصائل الجهاديين في أخطاء ومزالق لا تقبل بحال، وكان المستفيد الأول أرباب الكفر الغربي. ولكن كيدهم لا يعدوا كيد وليّهم الوسواس الخناس.

أتظنُّ أنك عندما أحرقتني ... ورقصتَ كالشيطان فوق رُفاتي
وتركتني للذارياتِ تذرُّني ... كُحلًا لعين الشمس في الفَلَواتِ
أتظنّ أنك قد طمست هويّتي ... ومحوت تاريخي ومُعتقداتي
عبثًا تُحاولُ لا فناءَ لِجَاهِدٍ ... أنا كالقيامة ذاتَ يومٍ آتٍ

شاهد الكلام: إنّ لدول المركز محاولات دؤوبة ووحي شيطاني لمنع خروج دولِ الأطراف عن دائرة خططهم ومكرهم، بالترغيب والترهيب بكافة صورهما، ويعتقدون أنّه لا بد لهم من إمساك خيوط الأمر قدر المستطاع عبر آليات ملوِّنةٍ وملوِّثةٍ لأفكار الأمة وبخاصة شبابها بألوان وخلفيات ومناهج ومشارب لا تمتُّ لدينهم الأصيل بصِلة، وجنّدوا لذلك جيوشًا إعلامية وخطوطًا أمامية، وما نراه من إلحاح بضرب مسلمات الديانة بمعاول الاستهزاء أو الفجور أو التسلّط فما هو إلا نموذج لذلك المكر العالمي من دول المركز والمكر المُركّز، وبخاصة مكتب واشنطن.. ولأمرٍ ما جَدَعَ قصيرٌ أنفه.

ثم إنّ الكثير ممن أحسن ظنه بالليبرالية بكافة أطيافها يعيش بحق أزمة فُصام، فالباطل الذي ثار عليه ثوار التنوير والنهضة في أوروبا ليس هنا، بل هنا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا كهنوت، ولا صكوك غفران وحرمان، ولا أسرار كنسية مقدسة، ولا عصمة لأحد دون

الأنبياء، ولا ردٌّ للعلوم التجريبية وغير ذلك مما ثار عليه أولئك مثل فولتير وديدرو وروسو ومن تبعهم فصاحوا صيحتهم الشهيرة: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس! فحرروا الباستيل، وحرروا قبله قلوبهم وعقولهم من احتكار الكهنة الكذبة.

ولكن الخشية من تطبيقاتٍ ظالمة، ونظرات للدين خاطئة، تؤخذ عليه وهو منها براء، ومِنْ غربةٍ بينَ الشباب للإسلام الأصيل النقيّ بخُلُقه الزّكيّ وتكامله التام وتطبيقه الفذّ، فيرجع البصر ويكرّ النظر لدعايات الحريات الغربية وهتافات الوجودية والفردية، وماهي إلا خمرة مسمومة لو كانوا يعلمون، فلا بد من الأخذ على أيديهم برفق وحكمة، فأكثرهم أُتي من جهله لا شهوته.

أما من عاند واستكبر وضرب مسلمات الديانة بكفر ونفاق، ورام طعن الأمة في أعزّ ما تملك من مسلمات دينها فلا بد من تحكيم شرع الله فيه، وإقامة حده فيه. وكما قال الأول: صبرتُ على بصقةٍ فتبعتها لطمةٌ ولو قطعت اليد ما امتدّت لوجهي.

كذلك فلا بد للأمة من هبّةٍ احتسابية مؤسسية منظمة، على كل الاتجاهات المادية والمعنوية، لرد صيال أولئك الزنادقة، عبر الوسائل المتاحة، وما أكثرها لو بحثنا وصدقنا مع الله تعالى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

❁❁❁❁

لمحةٌ في أصول لُغَةِ العرب، وهل كان خليلُ الرحمنَ عليه السلام عربيًّا؟

تنقسم اللغة العربية القديمة إلى قسمين: شرقية وهي الأكدية (البابلية والأشورية) وهي لغة عرب ما بين النهرين والهلال الخصيب، وغربية وهي تنقسم إلى قسمين: شمالي (الكنعانية والفينيقية) وهي ممتدة من شمال جزيرة العرب إلى حوض البحر المتوسط، ويتفرع عنها الموءابية والعبرية والآرامية، وجنوبي (عربي شمالي وعربي جنوبي) وهي ممتدة من وسط جزيرة العرب إلى جنوبها مع سواحل أفريقيا الشرقية والحبشة، وتمتد شمالًا حتى تدخل العراق.

وقد يستقيم لنا القول: إنّ اللغة العربية قد مرت بثلاث مراحل:

الأولى: هي العربية القديمة كالعاديّة والثموديّة والأكديّة والفينيقية. والمرحلة الثانية: هي العربية المتوسطة كالآشورية والبابلية والكنعانية وما تفرع عنها من عبرية وآرامية وجنوبية. أما المرحلة الثالثة: فهي مرحلة الكمال وهي العربية المُبينة الحديثة (الفصحى) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وإيضاحًا لذلك نقول: إنّ أقدم الحضارات المشهودة على ظهر الأرض هي الحضارة السومرية(١)، والسومريون يعودون ـ أو غالبهم ـ إلى الشعوب السامية المتفرعة من سام بن نوح عليه السلام، وإليهم تُنسب أقدم الكتابات

(١) ويُعتقد أنهم بقايا قوم نوح عليه السلام الذين نجوا من الطوفان.

البشرية وهي المسمارية كما أسلفنا[١] ثم تبعها اختراع الكتابة التصويرية[٢] ثم تبعتها الأبجدية الأولى[٣] على يد الفينيقيين العرب، ولا زال معمولًا بها حتى الآن. مع التنبيه إلى تعليمِ الله تعالى لآدم عليه السلام أسماء كل شيء، وقدرته على الخطاب، فالموضوع في الكتابة وليس النطق.

ثم نشأت على أنقاض الحضارة السومرية الحضارة الأكدية بشقيها الآشوري والبابلي، وما تفرع عنها من الكلدانيين[٤] كذلك الكنعانيين الساميين الذين فارقوا حضارتهم السومرية إلى جزيرة العرب أولًا، ثم انتقل كثير منهم إلى حوض المتوسط الشرقي والجنوبي وبعض الغربي، وبقي بعضهم في حرّان. وبالتحليل الجينوغرافي[٥] قامت به الجامعة الأمريكية في بيروت،

(١) وهي أنماط منحوتة على الحجر أو الطين أو المعادن.

(٢) أي نقش الصور ورسمها لتدوين المراد، كلغة المصريين القدماء.

(٣) أي كتابة الأحرف الصوتية اللسانية.

(٤) الذين بعث الله إليهم إبراهيم عليه السلام.

(٥) أي دراسة السلالات عن طريق الجينات الوراثية.

واعلم أنّ هناك مزالقُ تطبيقية في البصمة الوراثية D.N.A فإنّ من عيوب البشر ـ وهي من مزاياهم أحيانًا ـ؛ محبتهم للتجديد والابتكار، ومللهم من الرتابة والتكرار، فهي عيب إن جلبت السَّأم من أمر لا بدّ منه لصلاح الإنسان في دينه؛ كالذكر والصلاة واجتناب الحرام ونحوها، أو في دنياه؛ كفتوره وكَسَلِهِ في عمله وطلب رزقه ومصلحته ومن يعول، كما ملّت بنو إسرائيل المنّ والسّلوى للبقل والقثّاء. وقد راعى الشارع الحكيم ذلك؛ فنوّع العبادات من ناحية جنسها ونوعها وزمنها ومكانها وقدرها، =

=

وقسمها على القلب واللسان والجسد والمال، وجعل للجنّة أبوابًا ثمانية يُنادَى من اجتهد في عملٍ من بابه. ومتى أحسن الناس التعامل مع هذه الغريزة النفسانية؛ فإنها تنقلب – بإذن الله –دافعًا للعمل، ووقودًا للعزم، وحاديًا للهمّة، كمن نوّع أذكاره، أو جدّد طريقة صدقته، أو نوّع سبيل طلبه للعلم، أو التجارة، ونحو ذلك.

ويدخل الخلل من هذا الباب من جهة تداخل حبِّ التجديد أو التنويع أو التبديل فيما لم يأذن به الله لحفظ دين الناس أو دنياهم، ومنه تحتّم مصلحة بقاء ما كان على ما كان في بعض الأمور. وهذا بابٌ واسع في السياسة ووسائل الدعوة وغيرها، ولا تكفي هذه الحروف لبسطها، والمراد ذكرُ شاهدٍ بذلك؛ وهو ما يسمى بالفحص الجيني D.N.A أو تحليل البصمة الوراثية أو الحمض النووي، وكل هذا فرعٌ عن الهندسة الوراثية. وهذا العلم جديد بكليّته. ومع أنّ المُشتغلين به قد قطعوا شوطًا بعيدًا فيه، وثبتت لهم فيه أقدام، وصارت بعض نظرياته قطعيات؛ إلّا أنّ لكل جديد فورة وشِرَّةٌ، ولأهله صولة وعجلة، حريٌّ بأهل الإسلام منهم أن يتأملوا وقعَ أقدامهم في خوضه؛ حتى لا يزيغوا، وأن يتفقهوا في حدود الله فيه؛ حتى لا يَضلّوا ويُضلّوا، فما من أمرٍ في هذه الدنيا إلا ولله فيه علم وحكمة وحُكم. فلم يخلقنا سدى ولم يتركنا هملًا، ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، والأحكام التكليفية الخمسة داخلة في كل موضوع من مواضيع الدنيا بلا استثناء، فشريعة القرآن لا يخرج عنها شيء.

إنّ هذا العلم متعلّق بجهة إثبات الأصل النَّسَبي وإعادة الفرع له، سواء كان هذا الفرع شخصًا يُراد ردّه لسلالة آبائه وإن بَعُدوا جدًّا، أو كان المراد ردّ الفرع الأصغر – وهو الخلية البشرية، سواء أُخذت من دم أو شَعر أو لعاب ونحوه –فيعادُ هذا لأصله، وهو الشخص الواحد المعنيُّ به. وهذا نافع جدًّا في أدلّة إثبات الجرائم، وإقامة القرائن في الطب الشرعي ونحوه.

ولا بد هنا من استشعار أنّ أدلة البصمة الوراثية تكون ظنيّة لا قطعية من جهة احتمال =

=

تعرض التحليل لأخطاء بشرية أو مخبرية، كاختلاط العيّنات أو إبدالها سهوًا أو عمدًا وغير ذلك.

إذن فهذا العلم الجديد له جانبان: الأول: مباح بل ممدوح؛ وهو ما ساعد في إحقاق حقٍّ شرعي وإبطال باطل، فمن ذلك: مسائل الطب الشرعي والجنائي. كما أنّ الفحص الجيني يحلّ محل القيافة، بل هو أضبطُ منها. ومن المهمات بيان أنّ القيافة إنّما يُلجأ إليها لفرز حالةٍ فردية تنازع عليها أكثر من طرف، وليست لفرز حالات جماعية والكشف عن نسب قبائل بأسرها.

إذن فمجال جواز الاعتماد على البصمة الوراثية في مجال إثبات النسب محصور في حالات التنازع على مجهول النسب، سواء أكان بسبب انتفاء الأدلة أو تساويها، أم كان بسبب الاشتراك في وطء الشبهة ونحوه. كذلك في حالات الاشتباه في المواليد في المستشفيات أو مراكز رعاية الأطفال أو أطفال الأنابيب ونحو ذلك. كذلك حالات ضياع الأطفال واختلاطهم، وتعذّر معرفة أهلهم، أو وجود جثث لم يمكن التعرف على هويتها، أو بقصد التحقق من هويات أسرى الحروب والمفقودين ونحو ذلك. وبهذا صدرت فتوى المجمع الفقهي الإسلامي.

الثاني: ممنوعٌ؛ وهو ما يُنادي به بعض الناس من إبدال الطرائق النَّسَبِيَّة الشرعية به، فيرُدُّون النسب بإطلاق للماء وليس للفراش، ورسول الله ﷺ قد حسم المسألة بقوله: «**الولد للفراش**». (رواه البخاري (٦٨١٨)، ومسلم (١٤٥٨) فمتى كانت المرأة فراشًا للرجل؛ فأولادُها يُنسبون له شرعًا. لذلك لا يجوز الاعتماد على البصمة الوراثية في نفي النسب، كما لا يجوز تقديمها على اللعان، فالقرآن قد حسم المسألة في سورة النور. وتأمل حال ذلك البائس حينما أراد إلحاق ابنه العشريني معه في أمريكا، فاشترطت السفارة البصمة الوراثية؛ فتبيّن أنّه ليس من مائه، فحدثت بسببها كوارث لم ترقأ حتى اللحظة، فأترعوا كأسَهُ تعاسةً وصدرَهُ همًّا!

=

=

ومن جدير التنبيه: أنّ الشريعة تراعي كل قضية من جميع جوانبها بدون إغفال أو ميل، ومن ذلك أنّ إثبات النسب يُكتفى فيه بالاستفاضة وعدم نفي المنسوب إليه الولد، فهذه هي الجادة وهي الأصل، أما غيرها فهو الاستثناء، ومن أفراده الاشتباه والاحتياط. ومن ذلك احتياط رسول الله ﷺ في شأن ذلك المنسوب المتنازَع عليه، فبعد حكمِهِ بأنّ الولد للفراش نظَرَ لشبهه الشديد بالآخر فقال: «**واحتجبي منه يا سودة**». (رواه البخاري (٦٧٤٩)، ومسلم (١٤٥٧) وهذا من باب الاحتياط للطرفين، فالحُكم لنَسَبيّةٍ من وُلدَ على الفراش كان على الأصل، أما الحجاب فكان على الاحتياط، وكذا الحال من الاحتياط في الرضاع المشكوك في عدده، فيُحتاط له من الجهتين فلا زواج ولا محرمية.

ومهما يكن من أمر؛ فلا يجوز استخدام البصمة الوراثية بقصد التأكد من صحة الأنساب الثابتة شرعًا، وما يفعله بعض أهل الطيش باشتراط فحص البصمة له عواقب وخيمة ليست على الأفراد فقط بل على قبائل بأسرها، ولنوضح الصورة بمثال كاشف:

فعند أرباب البصمة؛ أنّ النسب العربي محصور في بضع نتائج لا يخرج عنها بموجب فحص عينات فردية عشوائية ليست استغراقية ولا أغلبية لا زمانًا ولا مكانًا، فإذا وُجد شخص في الهند أو بريطانيا يحمل ذلك الجين حكموا بعروبته رأسًا، حتى وإن كان لم يسمع بالعرب ولا لسانهم ولا موطنهم لا في حياته فحسب بل بعدة أجيال سابقة له! وهذه معضلة لن يستطيعوا الفكاك منها، لأنّ اللغة والموطن معتبران في الحكم، وتأمل عكس ذلك يظهر لك المراد، فلو أن إنسانًا أو جماعة نزحت لجزيرة العرب قبل أربعة آلاف سنة أو أكثر، ولم يخرجوا منها، وتكلّموا بلسانها وتطبّعوا وسادوا، ثم تبيّن أنّ حمضهم النووي مخالف للجين السائد؛ فهل يمكن بحال نفي عروبتهم؟!

ولا تعجب فقد نشر بعض الناس مثل هذه الألغام المدمّرة للنسيج المجتمعي، فالعرف

=

=

الصحيح السائد هو أنّ العربي: من كان من نسلٍ قد دَرَجَ في أرض العرب لبضعة أجيال، وتكلّم لغتهم، وتطبع بطبائعهم ويكفيه ذلك. أما ضده فهو الأعجمي ـ ولاحظ اعتبار اللغة من الإعجام والإعراب ـ. ومن فروع ذلك: انتساب الفخذ القبلي لجذمه، فما عدّه الناس وتعارفوا عليه واشتهر بينهم بلا نكير أنّ هذا البطن من تلك القبيلة؛ فهو المعتبر. فالشيوعُ والمُواضعة والاشتهار هي مأرِزُ قبول النسب وآخِيَّتُه، وليس الحمض النووي بحال.

وتأمل ما لو أنّ رجلًا قبل ألف سنة حالف قبيلةً، ثم انتسب إليها وسكن معها وأحفاد أحفاده ثم ظهر التحليل اليومَ مخالفًا! بل لو أنّ امرأةً ما قبل مئات السنين أدخلت على زوجها ما ليس منه ـ لشُبهة أو خطأ أو إكراه أو ذنب ـ ولحق به لأنّه ولد على فراشه شرعًا، ثم تناسلت أجيالٌ وبطون وقبائل من ذلك الإنسان، ثم أظهرت البصمة نفيَ أولئك، فما ذنبهم في أمرٍ قد حسمه الشرع بنسبتهم لأبيهم الشرعي دون صاحب البصمة! وبالجملة؛ فالشرع قد اكتفى بالاستفاضة والاشتهار بلا نكير، وحَكَمَ للفراش لا للبصمة. وحُكْمُهُمَا غيرُ متّفقين على الدوام فلينتبه، إذ مناط الشرع الفراش، ومناط البصمة الجينات.

لقد راعت الشريعة تكوينَ محضنٍ آمن صالح للإنسان ليقوم بتحقيق العبودية لربه – وهي غاية الخليقة – لذلك فقد تشنّفت للوئام بين الناس واجتماعهم، وتوسّعت في إثبات النسب وتسامحت فيه، فاكتفت بقبول الشهادة فيه على الاستفاضة، فلا يُطالب بدليل خارجي إذا كان هناك إقرار ما دام واقع الحال لا ينافيه، وعقدت الشريعة معاونات خاصة بين القرابات كتحمل العاقلة للدية والأمر بصلة الرحم ونحو ذلك، فالنسب وسيلة لا غاية، فهو وسيلة لإقامة العبودية بإحسان الاستخلاف الأرضي.

وحتى لا تختلط الأنساب؛ فقد حمت العرض، وشدّدت في الفاحشة، وطالبت بحفظ الأنساب. ولكلِّ شيء قدره الذي لا ينبغي الإيغال والتجاوز والتشديد فيه، فيكفي

=

تبيّن أن (٩٩٪) من شعوب شرق حوض البحر المتوسط وجنوبه يعودون إلى جين (J2) وهو نفس الجين الذي يحمله سكان جزيرة العرب.

والفينيقيون العرب هم أولُ من أبدع الأبجدية المعمول بها حاليًّا[(١)]، وعنهم أخذت اللغات الأخرى أبجدياتها، بل أخذوا حتى أشكال الكثير من

=

المؤمن أن يعلم مِن نسبه ما يصلُ به رحِمَهُ ثم لينته. وليحذر من التفاخر بنسبه، أو نبزِ الناس بأنسابهم، أو طعنهم فيها، فكلّ ذلك عفنٌ جاهلي. وليعلم أنّ إبليس هو أول مُفاخرٍ بأصله حينما قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾. وقد أعجبني جواب ذلك اللوذعي حينما سُئل عن أصله فقال: «من طين». وفي المقابل؛ فقد شدّد الشرع في الانتساب لغير الأب ـ ومن ذلك الانتساب لقبيلةٍ وهو يعلم أنّه ليس منها ـ فعند الشيخين عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنّه غير أبيه فالجنة عليه حرام»**. (رواه البخاري ٨/ ١٩٤ (٦٧٦٨)، ومسلم ١/ ٥٧ (٦٢) (١١٣).

(١) الأبجدية من أبجد: أُولى الكلمات الست: (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت) التي جمعت فيها حروف الهجاء بترتيبها عند الساميين، قبل أن يرتبها نصر بن عاصم الليثي الترتيب المعروف الآن، أما (ثخذ ضظغ) فحروفها من أبجدية اللغة العربية، وتسمى الروادف، وتستعمل الأبجدية في حساب الجُمَّل على الوضع التالي: أ ١ ب ٢ ج ٣ د ٤ ﻫ ٥ و٦ ز ٧ ح ٨ ط ٩ ي ١٠ ك ٢٠ ل ٣٠ م ٤٠ ن ٥٠ س ٦٠ ع ٧٠ ف ٨٠ ص ٩٠ ق ١٠٠ ر ٢٠٠ ش ٣٠٠ ت ٤٠٠ ث ٥٠٠ خ ٦٠٠ ذ ٧٠٠ ض ٨٠٠ ظ ٩٠٠ غ ١٠٠٠.

والمغاربة يخالفون في ترتيب الكلمات التي بعد كلمن؛ فيجعلونها صعفض قرست ثخذ ظغش. المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية (١ / ١) قلت: والمعتمدُ لدى كثير من المدارس الحديثة الترتيب الألفبائي (أ ب ت ث..) دون الأبجدي.

حروفها، ذلك أنّ الفينيقيين كانوا أمةَ تجارة وتواصل مع الأمم الأخرى، فاحتاجوا لتدوين كثير من أمورهم، فتّفتقت عبقريتهم عن تلك الأبجدية الفريدة. ومن أمثلة ما أخذته الأمم عنهم في أبجدياتها ما نراه في اللغة الإنجليزية الحالية، فإن كثيرًا من حروفها يتطابق شكلًا ونطقًا مع الحروف الفينيقية مثل (N.M.L.K.H.D.B.A.U.Y)، كما قد أخذوا حروفًا أخرى فينيقية وأبقوا على شكلها مع تغيير في نطقها مثل (X.W.R.Q.O) وقد ترك اللاتين والإنجليز بعض الحروف الفينيقية لثقل نطق حروفها عليهم، لكنها بقيت في اللغة الأم العربية حتى زماننا هذا، وذلك مثل (ح . خ . ص . ض) وغيرها.

وبعد تفرق الفينيقيين في المساحات الشاسعة تغيرت لهجاتهم حتى صارت لغات مستقلة كالعربية والعبرية الكنعانية والفينيقية المعروفة والآرامية، وهذه الأخيرة خرجت من رحمها عدة لغات أخر كالنبطية، لكن أشهرها السريانية. والمشهور أنّ السريانية هي لغة أبي الأنبياء خليلِ الرحمن إبراهيم عليه السلام، ولا زالت الكنيسة السريانية تحتفل بعيد نجاة إبراهيم عليه السلام من النار التي أوقدها له أعداؤه، وكان أول أمر إبراهيم عليه السلام في بابل التي كان مركزها وسط العراق[١] وعلى هذا فالآرامية[٢] هي فرع عن الكنعانية الفينيقية العربية القديمة.

---

(١) بقرب مدينة الحلّة حاليًّا.

(٢) التي يشتهر أنها لغة المسيح عليه السلام.

وعلى هذا فإنّ إبراهيم عليه السلام كان عربيًّا. بهذا الاعتبار. لأنّ لغته هي السريانية المتفرعة من الآرامية، وكان يتكلم مع زوجات ابنه إسماعيل عليه السلام في مكة ويفهمن كلامه وهن جُرْهُمِيّات عربيات(١)، ثم أخذت اللهجات تتمايز وتتطور مع نحت الزمن لها حتى صارت لغات مستقلة عن اللغة الأم العربية التي تطورت كثيرًا على لسان إسماعيل كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«أولُ من فُتِقَ لسانُه بالعربية المبيّنة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة»**(٢).

---

(١) أو أنه كان يتكلم أكثر من لغة ـ على القول النافي لعربيّته ـ.

(٢) الشيرازي في الألقاب عن علي، والزبير بن بكار في النسب، والطبراني في الأوائل، والحاكم في المستدرك، والديلمي عن ابن عباس (١/ ٣٠) (٤٨). وقد حسّنه ابن حجر في الفتح (٦/ ٤٠٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٨١)، والحديث متكلم في سنده من جهة أنّ مدارَهُ على مسمع بن عبد الملك، ولا يخلو من جهالة بحالِه. ومما يتعلّق بذلك ما رواه البخاري (٣٣٦٤) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال رسول الله ﷺ: **«فألفى ذلك أمّ إسماعيل وهي تحبّ الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهلُ أبيات منهم وشبّ الغلام وتعلّم العربية منهم»**. قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٤٠٣): «قوله: **«وتعلّم العربيّة منهم»** فيه إشعارٌ بأنّ لسان أمّه وأبيه لم يكن عربيًّا، وفيه تضعيفٌ لقول من روى أنّه أوّل من تكلم بالعربية، وقد وقع ذلك من حديث ابن عباس عند الحاكم في المستدرك بلفظ: **«أوّل من نطق بالعربية إسماعيل»** وروى الزبير بن بكار في النسب من حديث علي بإسناد حسن قال: **«أوّل من فتَقَ اللهُ لسانه بالعربية المبيّنة إسماعيل»**. وبهذا القيد يُجمع بين الخبرين، فتكون أوّليته في ذلك

=

ثم أخذت تلك اللغة في الرقي والتطور والسمو حتى بلغت المقام الرفيع والسقف الأعلى على الإطلاق في العهد القرشي، حيث اختارها الله تبارك

=

بحسب الزيادة في البيان لا الأوّلية المطلقة، فيكون بعد تعلّمه أصل العربية من جرهم؛ ألهمه الله العربية الفصيحة المبيّنة، فنطق بها. ويشهد لهذا ما حكاه ابن هشام عن الشرقي بن قطامي: أنّ عربية إسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان وبقايا حمير وجرهم. ويُحتمل أن تكون الأوّلية في الحديث مقيّدة بإسماعيل بالنسبة إلى بقية إخوته من ولد إبراهيم، فإسماعيل أولُ من نطق بالعربية من ولد إبراهيم» اهـ. قلت: ومال العيني للاحتمال الثاني، في عمدة القاري (١٥/٢٥٨).

وقال الزبيدي في تاج العروس (٣ / ٣٥٢) باختصار: «ويَعْرُبُ ابن قحطان أبو قبائل اليمن كلها، وقيل: إنه أوّل من تكلَّم بالعربيَّة، وبَنُوه العرَبُ العَارِبَة، قيل: وبه سُمّي العربُ عَرَبًا، ونقل شيخُنَا عن ابن دُرَيْد في الجمهرة: سُمِّيَ يَعْرُب بن قحطان؛ لأنّه أوّلُ من انعَدَل لِسَانُه عن السريانِيَّة إلى العربيّة. ولهم كلام طويل، الأَشهرُ منه القولان المذكوران، ووُفِّق بينهما بأنّ يَعْرُبَ أوّلُ من نَطَق بمَنْطق العَرَبيَّة، وإِسْمَاعيل هو أَوّلُ مَنْ نطق بالعَرَبيَّة الخَالصَة الحِجَازِيَّة التي أُنْزِلَ عَلَيْهَا القُرآنُ». اهـ.

قلت: وهذا هو المختار، ويُرجّحه القيد المذكور في الحديث: **«أولُ من فُتق الله لسانه بالعربية المُبّينة إسماعيل»** فهي عربيّة مبيّنة، أي فصيحة. وقد وصف الله القرآن بقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ فهو عربيّ بلسان العرب، مُبينٌ أي أنّه سقفها الأعلى من البيان والفصاحة، وبهذا القيد يمكن الجمع بين الخبرين، فيكون إسماعيل عليه السلام بعد تعلمه أصل اللغة من جرهم ـ لنشأته فيهم منذ صغره ـ ثمّ ألهمه الله العربية الفُصحى، ففتق لسانه بها فنطق بها. وقد جاءت آثارٌ تُفيدُ بأنّ اللغة العربية وحيٌ. والمشهور أنّ عربيّةَ إسماعيل أفصحُ من عربية يعرب وقحطان وجُرْهُم، واكتملت بتنزيل القرآن بحروفها. والله أعلم.

وتعالى ليكون القرآن بحروفها، فخلّدها القرآن الكريم فكانت سقفًا أعلى لا يُتجاوَز لأنها عربية مُبيّنَة (فصحى) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] لهذا فقد كانت قريش تفتخر ببيانها على بقية العرب العرباء قبل الإسلام، بل ربما وصفتهم بالعجمة مقارنة بلُغتها الفصحى، وقد أقرت لها العرب بذلك التميّز البياني وحكّمتها في كثير من أشعارها وبيانها.

ولك أن تقارن اللغة العربية الفصحى بأي لغة عالمية من شرق العالم لغربه؛ فسترى الفرق الشاسع والفارق المبين بينها وبينهن، سواء كان في عدد الكلمات حيث فاقت العربية الإنجليزية (٤٠٠٪) هذا عدا الاشتقاقات المختلفة والجذور الدلالية التصريفية، وسهولة التعريب، كذلك عدد المترادفات للمعنى المتقارب جدًّا حتى إن من لا يعرف العربية يظن أن تلك المترادفات تأتي لمعنى متطابق، ولكن في الحقيقة أنّ كل كلمة تؤدّي معنى مستقلًّا وإن كانت تخدم المعنى نفسه، ولكن على حسَبِ فصاحة المتكلم تتنوع خياراته ويصيب كبد المعنى برمي لفظه المطابق له. لذلك قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يحيط بلغة العرب إلا نبيّ».

إذن فاللغات السامية تفرّقت، وبقيت منها اللغة العربية العامّة بلغاتها المختلفة، إذ العربية القديمة فرع عن السامية، ولك أن تتصور أنّ اللغات الإفريقية الأمهرية والهروية والسواحلية أصولهن عربية، ويجتمعن مع العربية السائدة في تراكيب وتصاريف بعيدة الجذور الزمانية، حتى صارت لغات مخالفة للفصحى السائدة في الزمن الحاضر.

وهناك من الباحثين من ينازع في كون الآرامية والسريانية تعودان في أصولهما للعربية، بل يرجعونهما رأسًا للسامية القديمة، وهذا قول وجيه، والأمر في ذلك واسع، وليس بين أيدينا سواء في تاريخ الحضارات أو اللغات سند أو دليل قطعي يرجح أيًّا من تلك النظريات. والله سبحانه وتعالى قد أنعم على الإنسان بأن علمه البيان والإفصاح عمّا في خاطره، وسَرْدِ ما في خبايا عقله، وفارقَ بعقله ولسانه الحيوانات المعجمة التي لا تبوح بمكنوناتها إلا بصوت مجرّدٍ من حركات اللسان، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤].

❁❁❁❁

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾

الخيرُ كلُّ الخير والبركة والفلاح والهدى في طاعة رسول الله ﷺ، والشرُّ والشؤم والخسار والضلال في مخالفته، ولقد ذكر أهل السير أمثلة ناطقة ببركة طاعة رسول الله ﷺ، وشؤم مخالفته، منها ما حدّث به جابرُ بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنتُ رفيقَ عبد الله بن رواحة في غزوة المريسيع[(١)]، فأقبلْنا حتى انتهينا إلى وادي العقيق في وسَط الليل، فإذا الناس نازلون للمبيت. قلنا: فأين رسولُ الله ﷺ؟ قالوا: في مُقدّم الناس قد نام. فقال لي عبد الله بنُ رواحة: يا جابر، هل لك بنا في التقدّم والدخول على أهلنا؟ فقلت: يا أبا محمد، لا أحب أن أخالف الناس، لا أرى أحدًا تقدّم. قال ابن رواحة: والله ما نهانا رسول الله ﷺ عن تقدُّمٍ. قال جابر: أما أنا فلست ببارح[(٢)] قال: فودّعني

(١) وتسمى غزوة بني المصطلق في السنة السادسة، وقيل: الخامسة. فقد بلغ النبيَّ ﷺ أنّ بني المصطلق بزعامة الحارث بن أبي ضرار يعدّون العدة لحرب المسلمين، فندب رسول الله أصحابه للجهاد، وخرج بهم مسرعًا وكانوا سبعمئة مقاتل. وبلغ المسلمون ماءً لهم من ناحية قديد إلى الساحل يقال له المُريسيع، فالتقى الجمعان، ونصر الله المسلمين؛ فأسروا الرجال، وغنموا الأموال، وسبوا النساء، واستاقوا نَعَمهم وشاءهم. ثم تزوج النبي ﷺ جويرية بنت سيدهم الحارث، فقال الناس: أصهارُ رسول الله ﷺ؛ فأرسلوا ما بأيديهم. قالت عائشة: فلقد أعتق بتزويجه إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلمُ امرأةً أعظمُ بركة على قومها منها. وجاء الحارث بفداء ابنته إلى المدينة، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فأسلم، وأسلمت قبيلته.

(٢) وفي هذا بركة الحزم، وعدم التقدّم بين يدي رسول الله ﷺ.

وانطلق إلى المدينة، فأنظرُ إليه على ظهر الطريق ليس معه أحد، فطرق أهله بلحارثَ بنَ الخزرج، فإذا مصباحٌ في وسَط بيته، وإذا مع امرأته إنسان طويل(١) فظنّ أنه رجل، وسُقِطَ في يديه، وندم على تقدمه. وجعل يقول: الشيطانُ مع الغِرِّ! فاقتحم البيتَ رافعًا سيفه قد جرّده من غمده يريد أن يضربهما. ثم فكّر وادّكر(٢)، فغمزَ امرأته برجله، فاستيقظت فصاحت وهي تُوسِنُ(٣) فقال: أنا عبد الله، فمن هذا؟ قالت: فلانة ماشِطتي، سمعنا بمقدمكم فدعوتُها تمشِطُني فباتت عندي!

فبات، فلمّا أصبح خرج معترضًا لرسول الله ﷺ، فلقيه ببئر أبي عتبة، ورسولُ الله ﷺ يسير بين أبي بكر وبشير بن سعد، فالتفت رسول الله ﷺ إلى بشير فقال: «**يا أبا النعمان**» فقال: لبيك. قال: «**إنّ وجهَ عبدَ الله ليخبرك أنّه قد كره طروقَ أهله**»(٤). فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**خَبَرُكَ يا ابن رواحة؟**» فأخبره كيف كان تقدَّمَ، وما كان من ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تطرقوا النساء ليلًا**» قال جابر: فكان ذلك أولُ ما نهى عنه رسول الله ﷺ. قال جابر ـ وتأمل حكمته ـ: فلم أر مثلَ العسكر ولزومه والجماعة، لقد أقبلنا من خيبر، وكنا مررنا على وادي القُرى فانتهينا إلى

---

(١) أي نائمٌ قريبٌ منها.

(٢) وفي هذا فضيلةُ التأنّي والتثبت.

(٣) من الوسن وهو النعاس، أي قامت من نومها فجأة.

(٤) وفيه عظيمُ فراسةِ رسول الله ﷺ.

الجُرفِ[١] ليلًا، فنادى منادي رسول الله ﷺ: لا تطرقوا النساء ليلًا، قال جابر: فانطلق رجلان فعصيا رسول الله ﷺ، فرأيا جميعًا ما يكرهان![٢].

نعم، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ [النور: ٥٤] فالهدى بحذافيره والسعادةُ بتفاصيلها في اتباعه وطاعته، والشؤم والشر في مخالفته، وتأملّوا عقوبة جيش المسلمين بكسرهم في معركة أحد بسبب عصيان الرماة، ولربّما أُديلَ على الجيش بعصيان بعضه.

ومن رام الفلاح فليتعلّق بأهداب متابعة أهدى الناس، وأعلمهم وأنصحهم وأفصحهم وأخشاهم لله وأتقاهم، إنّه محمد بن عبد الله ﷺ، عبدُ الله ورسولُه وخيرتُه من خلقه، وأفضلُ الخلق على الإطلاق، وهو رسول الله إلى الناس كافة، وإلى جميع الثقلين الإنس والجنِّ. وهو سيّدُ المرسلين، وخاتمُ النبيين، فلا نبي بعده، قد شرح الله له صدره، ورفع له ذكره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، وهو صاحب المقام المحمود الذي قال الله تعالى فيه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٩] أي المقامَ الذي يقيمُه الله فيه للشفاعة للناس يوم القيامة ليريحهم ربهم من شدة الموقف، وهو مقام خاص به ﷺ دون غيره من النبيين.

وقد كرّر الله الأمر بطاعة الرسول واتّباعه في نحو أربعين موضعًا من

---

(١) موضعٌ قرب المدينة.

(٢) المغازي للواقدي (١ / ٤٤١-٤٤٢).

القرآن، فالنفوسُ أحوجُ إلى معرفة ما جاء به واتّباعه منها إلى الطعام والشراب، فإنّ الطعام والشراب إذا فات الحصول عليهما؛ مات الجسد الفاني، أمّا طاعة الرسول واتّباعه إذا فاتا؛ حصل العذاب والشقاء الدائم.

ومن اتّباعه وإجلاله تعظيمُ سنته ﷺ، واعتقادُ وجوب العمل بها، والذبّ عنها، لأنها وحي من الله تعالى. كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤] فلا يجوز التشكيكُ فيها، ولا التقليل من شأنها بالحال أو المقال. وقد كثر في هذا الزمان تطاولُ الجهالِ على سنة الرسول ﷺ، بل واستطالَ استهزاءُ السفهاءِ بها، وهذا من غربة الإسلام، والله المستعان، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

إنّ المَثَلَ البشري الأعلى لكلّ مُوفّق هو رسول الله ﷺ، إذ جعل الله له الكمال البشري في أجلى صوره، فيستحيل أن يُوجَدَ في سجلّه أدنى نقيصة أو أقل، وأخبر سبحانه وتعالى أنّ فيه القدوةَ الحسنة لأمته، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذه الآية الكريمة أصلٌ كبير في التأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله».

❁❁❁❁

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣٩١).

﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾

ما فائدة العقل إذا لم يُحَذِّرْ صاحبَه من مواطن هلكته، وينذره أسبابَ عَطَبِهِ، ويدلّهُ على طرق نجاته! ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٧٩].

الأنعامُ سورة عظيمة من القرآن العظيم، وجُلُّها في ترسيخ المعتقد الحنيف وبيان صفات الجليل الجميل سبحانه، وقد اشتملت من القوارع والزواجر ما فيه كفاية للمؤمنين. ومن قرأ صدرها بتدبُّرٍ؛ لم يملك قلبُهُ إلا أن يخفقَ فَرَقًا ورَهَبًا وإجلالًا ومحبة ورجاءً لله رب العالمين.

وقد بيّن الله في هذه السورة الجامعة سنةً كونيّةً جعَلَها ناموسًا للبشرية بعامّة، وهي تكشف البُعد القِيَمي لفضيلة الشكر مع توضيح عاقبة ضده من المَحْقِ والسَّحْقِ بعد الإمهال والاستدراج، وأنّ الرزايا الدنيوية هي في حقيقتِها تنبيهاتٌ للمؤمن كي يقشع عن قلبه غُبَار المعصية وقَتَرَ الخطيئة، ويرجع لطمأنينة الطاعة وسكينة الإيمان.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢] فكم نحن بحاجة مُلحَّة لمثل هذه الجرعات الإيمانية التي تحقن في قلب المؤمن حبّ التوبة، وعدم الركون للزائلة، والاعتبار بمن غَبَرَ، والاعتصام بمن إليه وحدهُ المفرّ، والضراعة إليه،

والانكسار بين يديه. فما أقرب العبد إلى رحمة ربه إذا ألقى لربه مقاليد أموره، وتبرأ من الحول والقوّة إلا به، وابتهل إليه ابتهال المضطر الملهوف، واعترف بذنبه اعتراف الموقن بهلكته إن لم يغفر له سيدُه، وخضع لربه خضوع العبد وخشع.

والبأساء هي الفقر وضيق العيش، أما الضراء فهي الأسقام والآلام، والتضرعُ هو الدعاء الملحّ مع الافتقار والانكسار. وتلك المحن عتاب لطيف لتثُوب الأمم لربها عن معصيته، فابتلاهم ربهم ـ وهو الرؤوف الرحيم بهم ـ بالشدة ليضرعوا إليه، فلمّا لم يفعلوا؛ ابتلاهم بالنعم، وهذا من المكر بهم. وهذا الاعتبار للفرد وللجماعة.

وقد يبتلي اللهُ عبدَه بمصيبة تردّه إليه، ومن ذلك أنّ جلاوزةَ النصيرية أرادوا إكراه رجلٍ على السجود لصورة طاغيتهم، فتأبّى بشدّة حتى مع العذاب الشديد، ولما سئل فيها بعد عن سبب إبائه مع كونه لم يُعرف بتديّن سابق؛ أجابهم: بأنّه لم يسجد لله قط، فاستحيى من الله أن تكون أول سجدة منه لغير الله، ومن حينها لزم الصلاة لله.

قد ينعمُ الله بالبلوى وإن عظُمتْ ويبتلي الله بعضَ القوم بالنعمِ

ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣] وهنا إغراء وتوبيخ، أي فهلّا إذِ ابتليناهم وامتحنّاهم بذلك؛ عادوا إلينا بالتوبة والندم والاعتراف. ولكن الحاصل أنّهم أصرّوا على تنكّب محجّة التوابين، وبدلًا من توبتهم ازدادوا جُرمًا

وكفرًا؛ فعوقبوا بالرّان والقسوة على قلوبهم، وأبعدُ القلوب عن الله هو القلب القاسي، ومن لم تليّنه مواعظ القرآن وتغيّر الأحوال فلينتظر المليّن الأعظم بنار تلظّى لا يصلاها إلا الأشقى، عياذًا بوجه الله تعالى. وإنّ من أشدّ العقوبات على الذنب أن يُبتلى المذنب بذنب آخر، فتجتمع عليه حتى تقسّيَ قلبه وتوبق مثواه. ويُزيّن الشيطان عملَه السيّء حتى إذا وافاه غدًا وحقّت الحقائق وذابت الشهوات وانقشعت غيوم الغفلات؛ تبرأ منه!

ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤- ٤٥] أي فلمّا تركوا الحق خلفهم وأعرضوا ابتلوا بفتح الدنيا ولذتها الزائفة ولحظتها الزائلة، فأصاب سكرُ الغفلة قلوبهم في مقتل، وفرحوا بسحابة صيف مارّة، وتباشروا بلعنةٍ في لباس نعمة؛ فأتاهم العذاب بغتة، فاصطلم نعيمهم، وسحق دنياهم، وألحقهم بنار أبَدِ الأبد فما أشقاهم!

والمُبلس هو اليائس من كل خير، وأشدُّ العذاب ما كان بغتة. فعلى الناصح لنفسه أن يسيء الظن بنفسه ويحسن الظن بربه. قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بغتَ القومَ أمرُ اللهِ، وما أخذ الله قطُّ قومًا إلا عند سلوتهم ونعمتهم وغِرَّتهم، فلا تغترّوا بالله». وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من وُسِّع عليه فلم يرَ أنّه يُمكر به فلا رأي له». وقال إسماعيل بن أبي رافع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنّى على الله المغفرة». ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ

حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤].

وقد ثنّى الله هذه الموعظة في سورتي الأعراف والمؤمنون قرعًا لقلب كل ناصح لنفسه مريدٍ سعادتها في عليين، ففي سورة المؤمنون قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦] وفي الأعراف: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤] فلم يضرعوا لربهم فأمهلهم وأملى لهم، ثم استدرجهم بإدرار الأرزاق عليهم ورفع بلاء الدنيا عنهم فقال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ [الأعراف: ٩٥] أي كثر عديدُهم، وزاد نفيرُهم، وانبسط نعيمهم؛ لكنّهم طغوا ولم يخضعوا، وكفروا ولم يشكروا، ﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: ٩٥] أي أنّ هذا فِعْلُ الأيام وما نحن إلا كغيرنا ممن سبق، فكانت سنةُ الله محيطةٌ بهم؛ فغدوا كأمس الدابر فجأة: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

ثم قال سبحانه بعد تحذير الناس من عذابه بياتًا أو ضحى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] أشهدُ أنهم خاسرون كل الخسار، عياذًا بالله من مكرِه واستدراجِه، وفي المسند[1] أن رسول الله ﷺ وبارك قال: «**إذا رأيتَ اللهَ يُعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحبّ؛ فإنما هو استدراج**» وقال الحسن: «المؤمنُ يعملُ بالطاعات وهو

(١) أحمد ١٤٥/٤ (١٧٤٤٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦١).

مشفق وجلٌ، والفاجرُ يعمل بالمعاصي وهو آمن». اللّٰهم عفوك وغفرانك ورحمتك.

وبعد: فهلّا نظر كلٌّ منا لنفسه ونَقَدَها نقد بصير، واستعان بالله في هدايتها لتكون مطمئنة للحق عِلمًا وعملًا، وأن يسعى بها لبحبوحة الجنة وفردوسها الأعلى، فالجنة تريد عملًا لا كسلًا وجِدًّا لا لعبًا، وهي يسيرة على من يسرها الله له، وليس بين ولي الله وبينها إلّا أن تخرج الروح من الجسد، مالم تُحبَس في كبيرة أو دَيْنٍ. وكلّ نعيم دونها غرور، وكل ساعة في رياضها سرور، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

❁❁❁❁

الوصايا

أعظمُ الوصايا هي وصية الله للأولين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] ولما استوصَى معاذٌ حبيبَه ﷺ أجابه بجوامعه الفريدة: «**اتّقِ الله حيثما كنت، وأتبعِ السّيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالقِ الناس بخلق حسن**»[(١)]. فهلّا استشعرنا هذه المعاني حقًّا!

❋ **ومن الوصايا:** العنايةُ التامّة والحراسة الدائمة لجناب تعظيم رب العالمين والخوف منه وخشيته، وتذكّر لقائه والوقوف بين يديه، وتدبر قوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥، ٧] فاستبشر خيرًا بربك، وظُنَّ به كلَّ خير، وافرح به بكل كيانك، وأحبّه من كل قلبك، وشوّق نفسك للقائه، واستحي منه حق الحياء، واعبده حقّ العبادة.

وفي ليلة من ليالي الشتاء الطويل كنتُ مع الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصحراء ومعنا أقارب وأصحاب، فأراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يعِظَنا؛ فتلى علينا آيةً واحدةً، كانت كافية لمن كان له قلب، وهي قول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا

---

(١) الترمذي (١٩٨٧) وقال: حديث حسن صحيح.

تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥]. فلم يفسرها ويشرحها ويعلق عليها، بل اكتفى بتلاوتها، واكتفينا بتدبرها وقرعِ أفئدتِنا بها.

واعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أنّ الموت ليس فكرة مخيفة لمن حسن تصوره واستقام عمله، وليس الشأن في موعد الرحيل، فكلنا راحل، إنما الشأن: ماذا بعد الرحيل! فضع يدك على فؤادك ثم اسأله: أي فؤادي، متى خَفْقَتُك الأخيرة! اللّهم اجعلها على الإيمان.

وما المـوت إلا رحلـةٌ غـير أنّهـا   من المنـزل الفـاني إلى المنـزلِ البـاقي

واعلم أن ذكر الموت لا يجلب الحزن بل يذهبه ويجلوه إن أُحسِن عرضُه فكرةً أو بيانًا، بيانُ ذلك؛ أنّ تذكُّرَ الموت يزهّد في الدنيا، فإذا نزل ضيف الزهادة في القلب تبخّرت هموم الدنيا وخرجت أحمالُها من دار القلب، فإن كان لفراق حبيب فالملتقى قريب للمؤمنين، وإن كان لمظلمة عليه فالحساب قريب، وإن كان لضيق ذات يده فالغِنَى كلّ الغنى في الجنة لأولياء الله، وإن كان لمخافة فالأمن هناك، وكلُّ الفلاح والفوز والتوفيق والسَّعد فيما هُنالك.. وهكذا. فالدنيا مهما استدارت شدّاتها فهي لا تستحق الحزن لأجلها لمن كان ينظر للآخرة بعين قلبه، والموت هو الحبل المُوصِل لنعيم الآخرة للمتقين، ومن الصحابة ـ كبلال وعمّار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ـ من كان يقول عند احتضاره أو قرب رحيله: «غدًا ألقى الأحبّة محمدًا وحزبه». ومنهم ـ كمعاذ وحذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ـ من كان يهتف للموت مُرحِّبًا عند مجيء رسله: «حبيبٌ جاء على فاقه».

ولما سأل سليمان بن عبد الملك أبا حازم: مالنا نكره الموت؟ فأجابه:

«لأنكم أخربتم آخرتكم وعمّرتم دنياكم، فكرهتم النُّقلة من العمران إلى الخراب». ومن جميل وصاياه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل أمر تكره الموت لأجله فاتركه، ثم لا يضرّك متى متّ».

والحياء من الله عز وجل باب عظيم للدخول عليه منه، ولقد قال عمر في وصف صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «نِعْمَ العبدُ صهيب لو لم يخَفِ الله لم يعصه»(١). أي أنّ محبته لله تعالى وحياءه منه كافيان لترك العصيان. ويكفي المؤمن تذكّر معيّةَ ربه سبحانه: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] ومن جعل بينه وبين الله بابٌ؛ دخل منه يومًا ما.

واحفظ عهدك وسترك مع الله تعالى واملأ قلبك من مهابته وإجلاله والحياء منه، قال أحمد بن عاصم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أُحبُّ ألا أموت حتى أعرف مولاي، وليس معرفته الإقرار به، ولكن المعرفة إذا عرفته استحييت منه». وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «من هتك ستره مع الله؛ هتك الله ستره مع الناس»، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

* **ومنها:** مداومةُ تفقّد إخلاص الوجه لله وحده لا شريك له، والحذر من حظوظ النفس الأمارة، فإن النفسَ قُلَّبٌ، وقل لمن لم يُخلص: لا تتعب. ويا نفسُ أخلصي تتخلّصي. ومن رأى إخلاصه؛ فإخلاصُه محتاج لإخلاص. وتذكّر: **«يا**

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٣١ / ٤٨٠) غريب الحديث لابن سلام (٣ / ٣٩٤).

أَبا هُريرة، أُولئك الثلاثة أَوَّلُ خَلقِ اللهِ تُسَعَّرُ بهم النار يوم القيامة»(١).

وما كان لله فلا تتردد فيه ابتداءً، ولا تتندّم عليه لاحقًا، فهو الذخر الباقي، وما سواه فللفناء. وتأمل قول المؤمنين حينما صنعوا المعروف: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] فحتى كلمة «شكرًا» لا ينتظرونها من مخلوق، دعك مما سواها من الجزاء، فأخلص تُفلح.

وجميلة هي وصيةُ عبّاد بن الخواص لأهل العلم والدعوة كما في مقدمة سنن الدارمي(٢): «ولا تَعيبوا البدعَ تزيّنًا بعيبها؛ فإنّ فساد أهلِ البدع ليس بزائدٍ في صلاحكم، ولا تعيبوها بغيًا على أهلها؛ فإنّ البغيَ من فساد أنفسكم، وليس ينبغي للمطبب أن يداوي المرضى بما يبرئهم ويُمرِضُه، فإنّه إذا مرض اشتغل بمرضه عن مداواتهم، ولكن ينبغي أن يلتمس لنفسه الصحة ليقوى على علاج المرضى، فليكن أمركم فيما تنكرون على إخوانكم نظرًا منكم لأنفسكم، ونصيحة منكم لربكم، وشفقة منكم على إخوانكم، وأن تكونوا مع ذلك بعيوب أنفسكم أعنى منكم بعيوب غيركم».

واحتياطًا لمنازل الدار الآخرة: ليكن للآخرة جزء ثمين منك، من قلبك وروحك ووقتك وجسدك ومالك، تتأكدُ وتستوثق أنّهُ لله، لله فقط لا لغيره، وهذا ما يسمّونه بالخبيئة الحسنة. إنها لعمر الله لمن المنجيات بإذنه. وكان

---

(١) البخاري (٤٢) ومسلم (٦/٤٧).

(٢) سنن الدارمي (١ / ٦٥).

علي بن الحسين يُبَخّلُ، فلما مات وجدوه يعول مئةَ بيت بالمدينة بالسر، ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]. وقال رجل للإمام أحمد: أوصني، فقال له: «انظر إلى أحبّ ما تريد أن يجاورك في قبرك فاعمل به». وكم بيننا من الأخفياء الأصفياء الأتقياء الأنقياء، أخفَوا أعمالهم استحياءً من سُبُحَات الجلال، وسترًا للحال بلطف المقال، أبى الله إلا نشرَ عَرْفِهم، لله هم.

وإن ابتداء الإخلاص ليس بالعسير في العادة، لكن الشأن في حراسته، فالقلبُ قُلَّبٌ والنيّة جموحٌ، ولها مئة وجه، والسعيد من أسلمها لوجه الله وحده. ولْتعلم أنّ التوحيد يوحّد أهله، ولا يفرّقهم سوى الخذلان. وتدبر قول الله عز وجل: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠] فقد تنشط النفس لترك الإثم الظاهر، ولكنها لا تنشط لترك الآثام الباطنة وحراسة القلب إلا مع الحياء من الله وخشيته ومراقبته. وتدبر قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمن: ٤٦] قال الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا لمن راقب الله في السر والعلانية، بعلمه ما عرض له من محرم؛ تركه من خشية الله، وما عمل من خير؛ أفضى به إلى الله، لا يحب أن يطّلع عليه أحد»(١). وكان الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢) يكتب حتى يكلّ، فيلقي القلم وينشد:

إذا كان هذا الدمعُ يجري صبابةً على غيرِ ليلى فهو دمعٌ مضيّعُ

---

(١) تفسير البغوي (٧ / ٤٥١).

(٢) ووردت كذلك عن النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن غفلة الصالحين؛ أن يتوسّع المرءُ في التحدّث بنعم الله عليه في عباداته الخفية، فيتنفّسُ الرياءَ برئة الغفلة، ويُزجيه عدوّه لحفرة العُجبِ. قال أبو الدرداء: «يا حبّذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يسبقون قيام الحمقى وصومهم! ولذرّةٌ من ذي يقين وبرّ وتقوى؛ أفضل من أمثال الجبال من عبادة المُغتَرّين». ومن نفائس شيخ الإسلام: «وكم من صاحبِ قلبٍ وجمعيّةٍ وحالٍ مع الله عز وجل، قد تحدّث بها وأخبر بها؛ فسلبه إيّاها الأغيار، لهذا يوصي الشيوخ بحفظ السرّ مع الله تعالى».. وصدرُكَ أوسعُ لسرّك.

❋ **ومنها:** الولاء والبراء، فقد وَهَنَ هذا الأصل الإيماني في قلوب كثير من أهل الإسلام في هذا العصر، فكُن وليًّا لله ولدينه ولحزبه المؤمنين بريئًا متبرئًا من الشيطان وأحزابه، والله تعالى يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. فلا بد من مراجعة هذا الأصل على الدوام، ففي زمان اختلاط المفاهيم واتساع الشُّبه وتطاحن الأفكار؛ يبقى الولاء والبراء معيارًا لصدق الإيمان. قال أبو الوفاء بن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أردتَ أن تعلم محلّ الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلى تزاحمهم على أبواب الجوامع، ولا تنظر إلى ضجيجهم في الموقف بـ«لبيك» ولكن انظر إلى مواطأتهم لأعداء الشريعة».

❋ **ومنها:** كُن من أهل الله وخاصّته أهلِ القرآن المبارك العظيم، فأنفسُ ما تصدقت به على نفسك أن تُعَوّدَها رياض القرآن حتى يختلط بدمك وعصبك وأنفاسك. وخيرًا نفعل إن أصغينا إلى مواعظ القرآن ونصائح الزمان، ففي كُرور الأيام عِبَرٌ، وفي تدبّر الأحداث على ضياء القرآن هدى ونور ورشد، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] قال ابن قدامة: «ويُكره أن يُؤخِّر ختمةَ القرآن أكثر من أربعين يومًا». وقال القرطبي: «والأربعين مدّة الضعفاء وأولي الأشغال». فالله المستعان يا أمة القرآن! فمتى عهدك بختم القرآن العظيم؟ وهل لك وردٌ منه كسلفك الصالح؟ ألا نخجل من تلك الشكوى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] وكان الصحابة يُعلُون قدر الناس على قدرِ حمْلِهم للقرآن، وقال الشافعي: «مَن حَفِظَ القرآنَ عَظُمَتْ قِيمَتُهُ».

وإذا أردت أن تتلذّذ بغروب شمس كل يوم؛ فاجعل لنفسك مع القرآن وردًا لا تخرمه ولا تتخلف عنه، فإن استطعت فاعمل بتحزيب السلف الأسبوعي، فقد كان وردهم كالتالي: ففي اليوم الأول ثلاث سور (البقرة وآل عمران والنساء) وفي الثاني خمس سور على نفس الترتيب، وفي الثالث سبع، وفي الرابع تسع، وفي الخامس إحدى عشرة، وفي السادس ثلاث عشرة، وفي السابع المُفصّل. فيختمون كل أسبوع(١)، وكثيرهم يختم كل عصر جمعة، وكان

(١) ويرمز بعض الفضلاء للتحزيب بجملة لطيفة هي (فمي بشوق) أي يشتاق الفم للتلاوة. ويرمز كل حرف لاسم السورة التي يبدأ بها الحزب:

=

طاووس رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا صلى عصر الجمعة استقبل القبلة ولم يكلم أحدًا حتى تغرب الشمس. والخير عادة، والنفسُ على ما طبّعتها عليه، نسأل الله الكريم من فضله.

فهناك جَنَّة لمن تفضل الله عليه تتقاصرُ دونها العبارات، وإذا لم يكن لك وردٌ يوميٌّ من القرآن؛ فلا تسلْ عن ضيق صدرك، وتنكّد عيشك ووحشة روحك، ذلك أن القرآن حياة. وكما أن الصحراء تُعْطِشُ الحيوان فهو يرد الماء يوميًّا ليحيا، فكذلك الزمان يُعطِشُ القلب فيحتاج أن يرد القرآن يوميًّا ليحيا. فكيف وِرْدُ قلبك لماء حياته! قال ذو النورين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم». وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ مَن كان قبلكم كانوا يرون القرآن رسائل من الله لهم، فكانوا يتدبرونه بالليل ويتفقدّونه بالنهار». أي يتهجّدون ويعملون به. وخرابٌ ذلك القلب الذي لا قرآن فيه، ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩].

وجميلةٌ هي الاستقامة الإيمانية إذا رافقها استقامة علمية وفكرية، والقرآن فيه كل ذلك لمن وفقه الله تعالى، قال الله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] فكلُّ داءٍ روحي أو علمي أو فكري أو نفسي أو جسدي فأصول الشفاء منه موجودة في القرآن العظيم، قال الله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا

=

ف: الفاتحة. م: المائدة. ي: يونس. ب: بني إسرائيل (الإسراء). ش: الشعراء. و: (والصافات). ق: ق.

هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. ومن جعل نَفيسَ وقتِهِ للقرآن؛ رأى البركة في سائر أموره. فمَرِّرْ معاني القرآن على قلبك، فنفعُهُ حقًّا حين يلامس فؤادك. واعلم أنّ هدايات القرآن ربّانية وأخبارهُ قطعية، فيستوي فيها الماضي والحاضر والمستقبل: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧] لقد كان الله تعالى هناك بعلمه وإحاطته وربوبيته، وأحكامه هي العافية للأفراد والأمم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ويا طالب العلم: لا تتشعبنّ بك سُبُلُ الطلب، فسيّدُ العلوم كلها هو القرآن العظيم حفظًا وتفسيرًا وتدبّرًا وعملًا ودعوة. وكلّ الطرق الصحيحة لطلب العلم تبدأ وتنتهي بالقرآن العظيم، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «من أراد العلم؛ فليثوّر القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين». وربُّ العزة والجلال يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وتدبّر: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ﴾ [العنكبوت: ٥١] بلى وعزتك. فالموفق المُريد نهضة أمته لا تتشعب به طرق النهوض بالأمة، بل يختصر طريق إصلاحها بالرجوع للينبوع التالد الأصيل القرآن المجيد. ومن ذلك أنّ كلّ أدوات مدافعة الجهل والنفاق والشرك والكفر والتغريب وغيرها من الشر موجودة بالتفصيل في القرآن العظيم، فعُد إليه وحرّك كنوزه وفُز بنفيس ذخائره، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وإن أردت أن تعرف حقيقة اليهود فقد بسطها الله تعالى لك في مئة وسبع آيات من البقرة (٤٠ . ١٤٦) فهي أُمّةٌ غريبةٌ أطوارُها، غليظةٌ أكبادُها، متينٌ

كفرُها. وفي البقرة فضيحة اليهود، وفي المائدة فضيحة النصارى، وفي التوبة فضيحة المنافقين. ثمّ في بقية سور القرآن مزيد للثلاث طوائف: الغضب والضلال والفسق، فإذا اجتنبت صفات اليهود وصفات النصارى وصفات المنافقين؛ فقد اجتنبت الشر كله. ولقد فصّل الله تعالى صفاتهم كي نجتنبها فنكون من الحنفاء المرضيين. ومن توضيح الواضحات أنّ عداء الرافضة واليهود والنصارى والمشركين لأهل الإسلام لا يزال ما بقي على الأرض مسلم، لكن معاملتهم تختلف بحسب الأحوال.

ومن حكمة المربي والعالِم أن يحرص على تلقين القرآن طلابَه ومُتَربّيه، فعلِّمْهُم القرآنَ والقرآنُ سيعلّمهم كل خير، ومن الموفّقين من يُذهل بعلوِّ همّته لحفظ القرآن، ومن أمثلة ذلك ما يرويه الشيخ فهد الحميّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن نفسه مع شيخة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنّه لما رحل إليه من بلدته الزلفي طلب إليه أن ينظمه في سلك طلابه، فسأله الشيخ: هل حفظت القرآن؟ قال: بعضًا منه، قال: احفظه كله ثم عُدْ إلي. قال عن نفسه: بعد ذلك ذهبت إلى مسجد ابن مفيريج وجلست فيه، وكان لي مسكنًا في الليل والنهار، ومكثتُ ستة أشهر حتى حفظت القرآن، ثم مكثت ستة أشهر أخرى أراجع وأثبّت الحفظ، حيث كنت أقرأ كل يوم من حفظي عن ظهر قلب خمسة عشر جزءًا، وأختم كل يومين ختمة مدة ستة أشهر. ثم بعدها ذهبت إلى الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأخبرتُه أنني أتممت حفظ القرآن، فقال لي: الآن يا فهد اقرأ كيفما شئت.

وقد حدثني جدّي محمد الدميجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ وكان آية في حفظ القرآن إذ كان يختمه في جلسة واحدة، وكانت له رحمه الله تعالى ختمتان كل يوم وليلة من رمضان ـ قال: ابتدأت الطلب بقراءة بعض الكتب على بعض شيوخي، فوقف عليّ شيخ ـ سمّاه ونسيته ـ فقال: يا ولدي؛ أتحفظ القرآن؟ قلت: لم أختمه. فجمع رؤوس أصابع يده ثم ضربني في صدري ضربة أوجعتني، وقال: لا تبدأ قبل القرآن بشيء. فوقعت نصيحته الصادقة في قلبي، فعمدت إلى حبل وعقدت فيه مئة عقدة، فكنت أراجع حزبي مئة مرة وأعُدُّ بها بتلك العقد، حتى ختمت القرآن الكريم عن ظهر قلب.

وإنّ كتــاب الله أوثــقُ شــافعٍ	وأغنــى غنــاء واهبًــا متفضّــلا
وخــيرُ جلــيس لا يُمَــلُّ حديثُــه	وتــرداده يــزداد فيــه تجمُّــلا
وحيــث الفتــى يرتــاعُ في ظلماتــه	مــن القــبر يلقــاه ســنًا مُــتهلِّلا
هنالــك يَهنِيــهِ مقــيلًا وروضــةً	ومــن أجلــه في ذروة العــز يجــتلَى
يناشـــد في إرضـــائه لحبيبـــه	وأجــدر بــه ســؤلًا إليــه مُوصّــلا

واعلم أنّ العقل البشري فيه عجيبةٌ، فإنك إن شُغفتَ بأمرٍ ووليت وجهك ونباهتك ووقتك إليه؛ نشط نشاطًا مُضاعفًا وأدهشك بقوّته وصفاءه، وهنيئًا لمن كان في الله ولله، ومن ذلك قول الشيخ الحميّن: «ابتدأتُ حفظ سورة الأعراف من بعد صلاة العصر وأتممتُ حفظها مع أذان المغرب، وكان في وقت الصيف حيث كان العصر طويلًا، ولم أكن أحفظ هذه السورة من قبل».

لقد ركّب الله فيك أيها الإنسان طاقات هائلة كامنة تنتظر منك تحديد أيّ هدف تريده، فكن واضح الهدف، حسن التخطيط لبلوغه، متحليًا بالجديّة والانضباط، مع ثقة بالله، وتوكل عليه، واستعانة به، ثم إرادة عازمة، ثم انطلق، فكل من وصل ليس لديه شيء زائد عنك. فآلة العلم وحدها ليست كافية، بل الصمصامة محتاجة لذراع عمرو:

وما تَنفَعُ الخَيلُ الكِرامُ وَلا القَنا إِذا لَم يَكُن فَوقَ الكِرامِ كِرامُ

واعلم أنها سنين ستطوى سريعًا من تحت قدميك، وسيترتب عليها مصير مستقبلك في حياتك، فأنت من تُفصِّلُ الثوب الذي ستلبسه غدًا بإذن الله. والحكيم الناصح هو من تنبّه لانحسار الحياة عنه شيئاً فشيئاً، فما هي إلا أيام . وإن طالت يسيرًا . حتى تطويَهُ كما طوت أسلافه، ولن يتبقى له منها سوى صالحات القُرَبِ.. فاللهم رحمتك وتوفيقك وغفرانك.

وما هي إلا ساعةٌ ثم ساعة ويوم إلى يومٍ وشهرٌ إلى شهرِ
مطايا يقرّبنَ الجديدَ إلى البلى ويُدنينَ أشلاءَ الصحيحِ إلى القبرِ

❋ **ومنها:** العنايةُ القصوى بتعظيم سنة رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه بالجَنَان واللسان والأركان، وعدمُ تقديمِ قول بشر عليها بالغًا قدره ما بلغ، والاعتذار لأهل العلم إن أخطأوا مع ترك متابعتهم، وعدم التشغيب عليهم أو الشماتة أو التنفير أو سوء الظن. واحذر مخالفة منهم أعلم منك ببداهة رأيك، وبخاصة إن تتابع كثير من العلماء على القول به، كأن يكون قول الجمهور مثلًا، فحرّر أقوالهم ومذاهبهم واستدلالهم، ولا تحفل بالغرائب

والطرائف والنوادر. واعلم أنّ مفتاحَ العلمِ الشَّغَفُ.

أصبرْ على مضضِ الإدلاجِ بالسَّحرِ وبـالرَّواحِ عـلى الحاجـات والبُكَـرِ
إنّي رأيـــتُ وفي الأيـــامِ تجربـــة للصـــبرِ عاقبـــةٌ محمـــودةُ الأثـــرِ
وقَــلّ مَــنْ جَــدّ في أمــرٍ يُطالبــه واستصـحب الصـبرَ إلا فـازَ بـالظّفَرِ

قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما طلب أحدٌ شيئًا بجدّ وصدق إلا ناله، فإن لم ينله كلّه نال بعضه». وقيل للبخاري: بم أدركت العلم؟ فقال: «بالمصباحِ، والجلوسِ إلى الصباح». وللموصلي:

عِنـدَ الصَّـبَاحِ يَحمَـدُ الْقَـوْمُ السُّـرَى وتَــنجَلِي عَــنهُم غَيَابَــاتُ الْكَــرَى

❋ **ومنها:** الافتقارُ التام لله تعالى، فعلى قدر افتقارك إليه يكون غناك به، واعلم أنه لا يوجد في الناس غنيٌّ متفرّد، بل كلهم فقراء إلى غِنَى مولاهم، فهم مفتقرون ضرورة تامّة دائمة إليه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]. ومِن أفرادِ توحيدِ العبادة: عبوديةُ الاحتياج والفاقة لله وحده. ومن استغنى بالله حقّ الاستغناء أغناه الله تمام الغنى. ففِرَّ مما سوى الله إلى الله، وكما قال السلف: كلّ أحد إذا خفته هربت منه إلا الله فإنك إذا خفته هربت إليه، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذاريات: ٥٠].

❋ **ومنها:** ادخل جنة الأنس بالله عز وجل، فمن ولجها لم يخرج منها، لأنها متصلة بجنة الآخرة، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ [الدخان: ٥٦].

إنّ الإقبالَ على الله تعالى، والإنابةَ إليه، والرضا به وعنه، وامتلاءَ القلب من محبته، واللَّهجَ بذكره، والفرحَ والسرورَ بمعرفته، ودوام ذكره، والسكون إليه، والطمأنينة إليه، ثوابٌ عاجل، وجَنَّةٌ حاضرة، فهو جنة الدنيا، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرّة عين المحبين، وعيشٌ لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة. وإنّ للأنسِ بالله ثمارًا حلوة، وينابيعَ عذبة، يتذوقها المؤمن بلسان قلبه، ويُشبعُ بها بطنَ روحه، فلا كانت الدنيا إذا لم يكن أُنسٌ بالله تعالى. قال أويسٌ القَرَني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما كنت أرى أنّ أحدًا يعرف ربه فيأنسَ بغيره». وقال بعض السلف: «مساكينُ أهلُ الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا ألذَّ ما فيها، قيل: ما ألذُّ ما فيها؟ قال: الأنسُ بالله، والتلذذُ بخطابه والوقوف بين يديه».

إنّ حلاوة الأنس بالله لا تحصل إلا بالاشتغالِ بذكره ودوامِ عبادته، والبعدِ عن القواطع والشواغلِ التي تُقسّي القلب وتحول بينه وبين التفكر في آلاء الله، والتذكرِ لنعمائه، وقد أخبر النبي ﷺ أنّ للإيمان حلاوةً وطعمًا، وأخبر أنّ عينَه تقرُّ بالعبادة ويرتاحُ بها بدنُه، فهو في الصلاة ينقطع عن الخلائق ويُقبل بقلبه وقالبه على ربه، ويلتذ بذكره ومناجاته، ويتقلّب بنعيم جميلٍ في أنواع العبادات من حال إلى حال، من روضة قرآن لبستان صلاة لحلاوة مناجاة إلى غير ذلك، يجد في كلٍّ منها الأُنس بالعبادة. قال قتادة: «من تفكر في خلق نفسه، ولِينِ مفاصله؛ عرف أنّما خُلق للعبادة».

فمن وسائل تحصيل الأنس بالله تعالى: الذكرُ الدائم، ورطوبةُ اللسان بذلك، ولهَجُهُ لربه بدعاء الثناء والمسألة، وصرفُ طاقات الجوارح في مراضي

ربّه الكريم الوهاب، بالصلاة بعد الصلاة، وبالقرآنِ تلاوة وتدبرًا، وبالصدقة، وبالصيام، وبما أطاق من الباقيات الصالحات، وتحصيل العلم النافع والعمل به. فوَلاية الله مهرُها عسفُ النفوس، و«**إن تصدُقِ الله يَصْدُقْكَ**»[١].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس أحدٌ أَحَبُّ إليه المدحُ من الله، من أجل ذلك مدح نفسه**»[٢].

واعلم أنّ الأنسَ بالله تعالى ذخيرةُ المؤمن عند احتدام الصعاب عليه، واعتراك المحن لديه، وتأمل سير الأنبياء والمرسلين والمصلحين، ومِن تيكَ المحن الشديدةَ محنةُ شيخ الإسلام ابنِ تيمية رَحِمَهُ اللهُ حينما تحزّبَ أعداؤه عليه، من علماءِ السوء وأمراءِ السوء في مصر والشام حتى حبس السنين الطويلة إلى أن مات في سجنه وهو في أتمّ سرور وأبهج حبور. وكان يقول: «إنّ في الدنيا جنةً من لم يدخلها؛ لم يدخل جنة الآخرة». ويقول: «ما يصنعُ أعدائي بي؟ أنا جنّتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة».

وفصّل الشيخ إبراهيم الغياني خبره لما أتاه السجّانون ليلًا لأخذِه لَمَظِنَّةِ الهَلَاك، قال إبراهيم: «فلما صلّينا المغرب بقي يدعو بدعاء الكرب، وأنزل الله عليه من النور والبهاء والحال شيئًا عظيمًا، وأشرتُ إلى المحبوسين، كأنَّ وجهه

---

(١) النسائي (٢٠٩١) وصححه الألباني. وللحديث قصة جميلة.

(٢) البخاري (٧٤٠١) ومسلم (٢٧٦٠).

شمعٌ يجلوه مثل العروس، حتى إذا راق الليل جاء نائب الوالي فقال: باسم الله. فبقوا يودّعونه ويبكون.. وركب على باب الحبس فقال له إنسان: يا سيدي هذا مقام الصبر. فقال: بل هذا مقام الحمد والشكر، والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيءٌ لو قُسِمَ على أهل الشام ومصر لفضل منهم. ولو أنّ معي في هذا الموضع ذهبًا وأنفقته ما أدّيت عُشْرَ هذه النعمة التي أنا فيها»(١).

ولما حُبس المرة السابعة والأخيرة التي فاضت فيها روحُه؛ قال في آخر أيامه ـ كما ذكر الحافظ ابن رجب ـ: «وقد فتح الله عليّ في هذا الحصن(٢) في هذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنّونها، وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»(٣) وكان يقول: «المحبوسُ من حُبس قلبُه عن ربّه، والمأسورُ من أسره هواه»، ولما دخل إلى القلعة، وصار داخل سورها نظر إليه وتلا: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] ثم إنه مُنع من الكتابة، ولم يُترك

(١) فصل في تكسير الأحجار، إبراهيم الغياني، عن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (١٤٨ـ ١٥٠) باختصار.

(٢) وقد حُبس فيه ويسمى القلعة، ولا زالت آثاره باقية عند الجامع الأموي في دمشق.

(٣) على أنّ العلماء حتى من خصومِهِ كانوا يتعجّبون من استحضاره وحسن استدلاله بالقرآن وغزارة ما يدليه به في المسائل.

عنده دواة ولا قلم ولا ورق، فأقبل على التلاوة والتهجد والمناجاة والذكر(١).

فلله مقامات قامها هذا الفذّ في دين الله، ولا زال أهل العلم حتى الساعة يصولون على المبطلين بأسنّةِ حُججه الباهرة المستنبطة من الوحي المنزل، رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأعلى نزله. قال ابن قتيبة: «كُتِبَ على باب سجنٍ: هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء، وتجربة الصديق، وشماتة الأعداء».

وتجلّدي للشامتين أُريهمُ أنّي لِشَدَّ الدهرِ لا أتضعضعُ

ورجع بنا الحديث العذب إلى الْأُنسِ بالله تعالى، قال يحيى بنُ معاذ: «إذا أحبّ القلبُ الخلوةَ؛ أوصله حبُّ الخلوة إلى الأنسِ بالله، ومن أَنِسَ بالله استوحش من غيره». وإنّ من أعظم وأجلِّ طرق تحصيل الأنس بالله تعالى؛ التعبدُ بأسماء الله وصفاته تدبُّرًا وتفهُّمًا وإحصاءً، وهذا هو أشرفُ العلوم على الإطلاق، فشَرَفُ كلِّ علم بمُتَعَلَّقِه، وهذا متعلّق بالله تبارك تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله. ومَن تدبرَ هذا العلم الشريف في القرآن والسنة وراض قلبه على مُدارسته وتفهّمه؛ أشرقت أنوارُ قلبه بكل خير. وهذا العلمُ من أعظم الأمور في لمّ شَعَثِ القلب وجمعيته على الله تعالى والأنس به سبحانه وبحمده، فتأمّلُ معيّتِه وقُرْبِه ومحبته وإنعامه ولطفه وجماله وألوهيته وكرمه وبرّه ورأفته وإحسانه ونحو ذلك يثمر الأنس به سبحانه.

---

(١) وقد ختم القرآن في بضعة أشهر إحدى وثمانين ختمة، في كل ثلاثة أيام ختمة، وكانت آخر آية قرأها خاتمة سورة القمر: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ﴾ نسأل الله الكريم من فضله وكرمه وإحسانه.

ولا يزال العبد في حاجة لمثل هذه حتى يُحصّلَ الأنسَ بربه تعالى، فيزهد عما سواه، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ في القلبِ وحشةٌ لا يُذهبها إلا الأنسُ بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وفيه فاقةٌ(١) لا يُذهبها إلا صدقُ اللجوء إليه، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تذهبْ تلك الفاقةُ أبدًا»(٢). وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة إلا نعيم الإيمان والمعرفة»(٣).

أما العزلة التامة عن الخلق فهي ليست من الإسلام في شيء إلا في أزمنةِ الفتن، وعند خوف المرء على دينه أو نفسه أو أهله، فرهبانيةُ الإسلام هي الجهاد في سبيل الله، أما من انفرد عن الخلق بالكلية دون سبب مشروع؛ فقد سلك هديًا ليس بهدي النبي ﷺ، بل هو هدي رهبان النصارى ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧] **«وخيرُ الهديِ هديُ محمد ﷺ»**(٤).

* **ومنها:** ابحث عن رسائل الشوقِ إلى الله تعالى في القرآن العظيم، وتعاهدها بقلبك وجوارحك؛ تكن من أهلها بإذن الله تعالى. فالشوقُ لله عز وجل مِنّةٌ من الله يمنحها الأبرارَ من عباده، فحسن الظن الراسخ لا يكون إلا بعلم بالله وعَمَلٍ صالح قدّمه بين يديه قُربانًا إليه.

---

(١) وهي غاية الفقر.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٦٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣).

(٤) مسلم (٨٦٧).

والشوقُ هو تَوَقان النفس إلى الشيء، فكلما أحبّت تحصيلَه؛ ازداد شوقُها إليه. والشوق قد يكون لمُتَعِ الحس، وقد يكون للروح، وقد يكون لهما معًا. وكلما كان الشيء أحب؛ كانت اللذة بنيله أعظم. وقد كان ابن تيمية يخرج أحيانًا إلى الصحراء يخلو عن الناس، فيتنفّس الصّعداء، ويتمثل ببيت قيس وينحو به نحوًا جميلًا جدًّا:

وأخرجُ من بين البيوت لعلّني ... أحدّثُ عنكَ النفسَ بالسّرِّ خاليا

قال الحسن: «لو علم العابدون بأنهم لا يرون ربهم في الآخرة؛ لذابت نفوسهم في الدنيا شوقًا إليه». فأعلى الشوق هو الشوقُ إلى لقاء الله تعالى. ومن دعاء النبي ﷺ: **«وأسألك لذّة النظرِ إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، من غير ضرّاء مضرة، ولا فتنة مضلّة»**[(١)] والجنة دار المحبين، وأُمنية المشتاقين، وموعد المؤمنين مع رب العالمين. ومن الشوق العذْبِ شوقُ المؤمنين لرسول الله ﷺ، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«مِن أشدِّ أمتي لي حُبًّا ناسٌ يكونون بعدي، يودُّ أحدُهم لو رآني بأهله وماله»**[(٢)]. وأبشر وابتهج، فالجنةُ لم ولن يُخلق فيها السأم والملل، ومهما امتدّ زمانها فنعيمها متجدد لا ينضب

---

(١) سنن النسائي الكبرى (١/ ٣٨٧) (١٢٢٩) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢/ ٦٢) (٢٤٩٧). فقد يشتاق المرء إلى لقاء ربه بسبب بلوَى أصابته أو فتنة ألمّت به، فجاء الدعاء مجرِّدًا الشوق من كل علائق سوى محض المحبة وعظيم الرجاء وحسن الظن برب العالمين.

(٢) أحمد (٢/٤١٧) ومسلم (٨/١٤٥).

وسرورها دائم لا يفنى.

وتأمل حال يوسف عليه السلام، فمع ابتلاءاته الكثيرة الشديدة لم يقل ﴿تَوَفَّنِي﴾ [يوسف: ١٠١] إنما قالها بعد تمام النعمة بالملك والعافية والأهل عليه، قال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] لقد قاده الشوقُ للقاءِ الله.

لــولا التعلُّــلُ بالرجــاءِ لَقُطِّعَــتْ نفْــسُ المحــبِّ صــبابةً وتشــوّقًا
ولقــد يكــادُ يــذوبُ منــه قلبُــهُ ممّــا يقــاسي حــسرةً وتحرُّقًــا

* **ومنها**: احرس قلبك من شيطان العشق، فإنّ القلبَ الخالي منزلٌ لدائه، فإن أدركت نفسك قبل تمكّنه؛ وإلا فالخوف أن يضيع من عمرك سنوات عديدة وأنت تعاني سكْراته وسَكَراته وغلوائه ومراراته، ويكفي من شؤمه أنه يبعدك عن حبيبك الحق بقدر ما يستولي من نياط قلبك وشعب روحك.

وإن كان قلبُك ليس في يدك، فتصرفك في يديك، ومتى ما أذلّكَ قلبك؛ فدُسْهُ بقدميك، ويا لَها من ركضةٍ إلى الملأ الأعلى.

فالعشق هو الحالةُ التي تجتمع فيها جميع أنواع الجنون واللا معقول، ورأى ابن عباس شابًّا يُهادَى بين رجلين لضعفه، قد عَشِقَ فاصفرَّ لونُهُ، وذَبُلَ جسدهُ، وشَخَصَ بَصَرُه، فما زال يستعيذ يومَهُ بالله من العشق.

نظرُ العيـونِ إلى العيـونِ هـو الـذي جعــلَ الهــلاكَ إلى الفــؤادِ ســبيلًا

مـا زالـت اللحظَـاتُ تغـزوا قلبَـهُ حتـــى تشـــحّط بيـــنهنَّ قتـــيلًا

وإنَّ خفق الفؤاد بالحُبّ المباحِ هو كالمِلْحِ بل كالسكّر؛ إن فُقِدَ كسدَتْ الحياةُ، وإن زاد تلِفَتْ. وقد يُبتلى المؤمن بحبّ يَذهبُ بشغاف قلبه، فعليه أن يُجاهده ليسلم من غائلته، ولو لم يكن منها إلا فوات نصيبه من محبة إله الحق، فالمحل واحدٌ، والمحبةُ متباينة.

ألمْ تَعْلَـــما أنَّ الملامَـــة نَفْعُهـــا قَليـلٌ إذا مـا الشّـيءُ وَلّى فَـأَدْبرا

والعشقُ عذابٌ لكنه عذبٌ، وجنونٌ لكنه جميلٌ، ومع ذلك فلا يُغبطُ عاشق، لأنّ قلبَه ليس له، ومشاعرُه تضطرم في غيرِ برٍّ، وخفقَاتُه تنبضُ في غير هُدَى، وهِمّته لا تتجاوز كيان إنسانٍ مثله، ولو لم يكن فيه إلا صرفُ قلبِ صاحبِه عن المحابِّ العظيمة الجليلة التي خُلق لأجلها لكفاه. والعاشق مسكين، محتاجٌ لصَدَقَةِ الشَّفقة، فهو من أشقى خلق الله طُرًّا.

ومـا في الأرضِ أشـقى مـن محـبٍّ وإن وجـدَ الهـوى حُلـوَ المـذاقِ
تـــراهُ باكيًـــا في كـــل حـــينٍ مخافـــة فُرقـــةٍ أو لاشـــتياقِ
فتســـخنُ عينُـــه عنـــد التلاقـــي وتســـخنُ عينُـــه عنـــد الفـــراقِ

وتذكّر أنّ الأنثى: هي أمُّك، هي أختك، هي بنتك، هي جارتك، هي زوجك، هي الأنثى التي ربما زعمتَ يومًا أنها حبيبتك. والأنثى: رُوح رقيقٌ؛ فأدنى خدشٍ يؤلمه، ونسمةٌ شذيّة؛ فأقلّ أذى يُتلفها، ووردةٌ غضّةٌ؛ فأهونُ مسٍّ يُذويها، وفؤادٌ خفّاقٌ؛ فأيسر حرْفٍ يُمِضُّه، فاستوصِ بها خيرًا رحمك مولاها.

ويا أيُّها الراحلُ للآخرة: تذكّرْ أنّ لِمحبّةِ الله ورسوله ودينه قد ضَعَنَتْ

ركائبُ الأبرار، وركضت خيل المقربين، فأدرِكْهم ما دمت قادرًا، قبل النومة الطويلة التي صحوتها انشقاق قبرك للحساب. وكلُّ شيءٍ يُحَبُّ لغيره إلا الله تعالى فيُحَبُّ لذاته. ومَن أحبَّ الله؛ أحبَّ كلَّ ما يُحبه الله. وتأمل حُبَّ أبي بكر وأبي طالب للنبي ﷺ، فكلاهما أحبّه جدًّا، ولكن الأوّل أحبه لله، والثاني أحبه لنفسه مع الله، فلما اختلفت الحقيقتان؛ اختلف المصيران.

إنّ قيمةُ الحب قيمةَ إنسانية عظيمة جدًّا، وفي أعمال القلوب هي المُقدَّمة حتى على الرجاء والخوف، وفي غايتها مع الخضوع تكون العبادة التي هي جوهر التوحيد. ومن الوصايا المهمة لكل مؤمن: الوصيةُ بمراجعة الأسباب العشرة الجالبة لمحبة الله تعالى، وقد ذكرها وفصّلها شمس الدين ابن القيم. وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من قرّت عينه بالله؛ قرّت به كل عين، ومن لم تقرّ عينه بالله؛ تقطّعت نفسُه على الدنيا حسرات». وقال شيخ الإسلام: «ما يُبتلى بالعشق أحدٌ إلا لنقصِ توحيده وإيمانه»(١). وقال أيضًا: «من أراد السعادة الأبدية؛ فليلزم عتبة العبودية». وفي النونية:

وعبـــادةُ الـــرحمنِ غايـــةُ حُبِّـــهِ ... مـــع ذُلِّ عابـــدِه همـــا قطبـــان
وعلـــيهما فَلَـــكُ العبـــادة دائـــرٌ ... مـــا دارَ حتـــى قامـــتِ القطبـــانِ

* **ومن الوصايا:** تفكّر في نعمة الهداية للحق، ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: ٣٢] فأنت كلّ يوم تدعو الله تعالى أن يهديك الصراط

---

(١) الفتاوى (١٠/ ١٣٥).

المستقيم في الفرائض سبع عشرة مرّة، لأنها الطريق الموصل لرضوان الله وجنته. والهداية تتضمن أمورًا ثلاثة: العلمُ بالصراط المستقيم، ثم التوفيقُ للعمل بذلك العلم، ثم التثبيتُ عليه حتى الرحيل. فاحمد الله الذي هداك حينما ضلّ غيرُك.

واعلم أنّ هناك أزمةٌ وجودية شديدة في الفكر المادي، فمن الناس من نضج عقله وهو لم يعرف ربه، ومنهم من يشيب فوداه في صحراء الإلحاد المطلق، أو وَحَل الشكّ المُطبق، أو جهالة اللاأدرية الفكرية، فلا شيء ثابت لديه ولا متغيّر، بل ولا شيء حقيقي، إنما هو عبارة عن حيرة تلُفّ روحَه وتكتم أنفاسه، ودون راحته وسكينته خَرْطُ القتاد.

فتخيل أنك لا تدري من أين أتيتَ، ولا تدري إلى أين تذهب! فاحمد لله على نعمة إعلامك بضرورات المعرفة وكمالات نعيمها، بحُسن التصوّر لبدء الخليقة المشهودة ونهاية العالم، وبما يُروي ضمأَ الروح بمعرفةِ ربها وخالقها، ويسقي عطشَ العقلِ بمعرفة كينونةِ دنياه ورؤية براهين آخرته، وبتوضيح وتسهيل طريق سعادة أبد الأبد الإسلام، بدليلَيْهِ القرآن والرسول ﷺ.

حالُ كثيرٍ من الحيارى في هذه الأرض من أهل الفكر المادي البعيد عن نور الوحي الرباني أنّ الواحد منهم لا يطيب مزاجه إلا بتغييبه عن واقعه، بسكرةِ شراب أو نشوةِ خيالٍ، إذ أنّ إفاقته بالرجوع للواقع الصادق المشعِّ ببراهين الفطرة واتساق العقل السليم مع حركة الكون العامة بامتدادها في الأطراف زمانًا ومكانًا؛ يصيبه بدهشة كئيبة، لا تطيقها نفسه النزاعة للعلوِّ

والاستكبار ضد كل ما يحول بينه وبين عبوديته لنفسه دون غيرها ولو كان رب العالمين، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١].

الفكرُ المادي المنكِر لكلّ ما وراء المادة والطبيعة يصطدم كلّ لحظة بجبال اليقين الحسية والعقلية، وأشدّ منها الروحية. ذلك أنّ الجاحد لهذه اليقينيات الغيبية لا ينفك عن الارتباط بها ومناداتها ومناغاتها والاستماع لها، بل والابتهال والدعاء والاستغاثة لمن وراءها عند الكروب والشدائد، حتى وهو يعبّ كأس الإنكار الظاهر، ويكرع في تكرار زيف مشاعره. وأكثرُ من رام تلمّس طريق الغيب؛ صرعه الجهلُ دون عتباته. إنّه السَّفَرُ الدؤوب للروح لإشباع حاجتها للإحساس بربوبية ربها وعبادته والأمن تحت كنفه.

إذ أنّ المفتاحَ الأوّل لعالَمِ الغيب . وأعني به العلم بأنّ للكون ربًّا معبودًا هو الله وحده . لم يؤتِهِ ربُّ الغيب والشهادة سبحانه إلا المُوفّقين من عباده. نعم، لقد نقش رسمه في الفطرة الأولى لكلّ إنسان، فإن ساعد على ذلك سُقيا رحمة؛ أزهرت وأثمرت النافع الجميل من علوم الوحي الشريف النقيّ، أمّا إن انتهبها قُطّاعُ طريق فلاح الأرواح إما بغيب مشوّه أو بشهادة ماديّة صمّاء؛ فإنّ السعادة حينها تعود شقاءً، والنعيم يرتدّ بؤسًا، والعلم ينقلبُ جهلًا. وللحكيم سبحانه في ذلك حكم يُحمدُ عليها لا يدرك البشر إلا بعض أطرافها بتوفيق الله من شاءه منهم.

هذا وللفكر المادي أزمةٌ ملازمة، فكلّ إنسان مهما تطرّف في فكره وإلحاده؛ لا بد أن يؤمن بقدرٍ مُشترك من علم الغيب، وأنّ هناك عوالم موجودة

غير محسوسة بحواسه الخمس، وإن اختلف الناس اختلافًا عظيمًا في الإقرار بأفرادها وتفاصيلها، قال الله تعالى في بيان إقرار ضمائر أشدّ الجاحدين بربوبيته سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقال في وصف حال المكذبين في الدنيا إذا شاهدوا ما كانوا ينكرونه ظاهرًا مع إقرارهم به في الباطن: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

ولا يعني هذا بحال أنّ كل من آمن بالغيب فهو على سبيل نجاة، بالطبع لا، فكلّ أمم الأوثان. بلا استثناء. هي مؤمنة بعوالم غيبية، لكنّها عوالم شوّهَها الجهل والتكذيب وبعدُهم عن آثار المرسلين، فلا صلاح للعالَم على التحقيق إلا بسَيرِه على قبس من هدي النبوة.

وكلّما تقدّم العلم التجريبي بفروعه الفلكي والتطبيقي والطبي والتشريحي وغيرها؛ فإنه يجد في نفسه ضرورة للسجود في محراب الإيمان، بأنَّ وراء هذا العالم المتناسق البديع خالقًا حكيمًا مدبّرًا رحيمًا، وعلى قدر تجرده لنداء المنطق وإلحاح الفطرة الأولى؛ يكون قربُه من الاستسلام لرب العالمين، وما أقرَبَهُ للإسلام حينها إن وُفّق لمن يأخذ بيده الحيرى ونفسه القلقة.

وهناك خيط فاصل بين الحقيقة والخرافة، بين العلم والأسطورة، ومن أبصر الخيط بنور الوحي؛ انتظم أمره واستقامت محجّته. فليس ببدعٍ من القول: إنّ كل إنسان لا بد أن يؤمن بقدْرٍ من الغيب يُلقي إليه أشلاءَ حيرته من سرِّ الوجود وعِلّة الخليقة، وما يلحق ذلك من تحميل ذلك الغيب أمورَه المحيّرة التي يُحسّ بإلحاحها عليه، وضغطِها الشديد على عقله ونفسه، كروحه

التي بين جنبيه مثلًا؛ فنفسُه العاقلةُ المتصرّفة في جسده هي أقربُ سرٍّ وأغمضه وأحلكه مع إحساسه الدائب بها، فكيف هذا! ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [غلإسراء: ٥٨] ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

لذا؛ فالعلمُ في كثير من أحيانه إنّما يكون بعد الإقرار بالجهل الإيجابي، أي الإقرار بالحقيقة مع التسليم بعدم معرفة التفاصيل، مع الاستسلام والتفويض لمن بيده مقاليد الأمور ومفاتيح حقائق العلوم، وهو الجهل البسيط الذي لا ينفك عنه إنسان مهما بلغ في مراتب العلوم، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء:٨٥] فحينئذٍ يعرف المرءُ قدْرَه، وأنّه لم يُعط من العلم إلا على قدر ما يحتاجه لإقامة العبودية لرب العالمين، ولاستخلافه في الأرض ليعمرها ثم يعبرها للدار الآخرة. لهذا فأساسُ الدين هو الإيمان بالغيب، وللإيمان بالغيب طرفان:

الأول: العلمُ واليقين والإقرار بحقائق ما أخبر عنه الوحي في القرآن والسنة من صفات الله تعالى والجنة والنار والبعث والملائكة والجن وغير ذلك من الغيوب المذكورة في الكتاب والسنة.

الثاني: الوقوفُ عند هذا الحدّ، وعدم الخوض في الكيفيّات بدون دليل وبرهان، فصفاتُ الله تعالى معلومة مثبتة مؤكَّدة، ولكن كيفياتها لا نعلمها ولا نخوض فيها، فالقول في الصفات كالقول في الذات يُحتذى فيه حذوه، ويُجرى فيه بمثاله، كذلك أمور الغيب التي جعل الله دونها سجفًا من الحُجُبِ التي أحالتها للغيب المطلق دون عالم الشهادة المحسوسة.

لذلك فأولُ وصفٍ في القرآن وصَفَ الله تعالى به عباده المؤمنين هو إيمانهم بالغيب، فقال سبحانه في أول سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٣] فلا إيمانَ لمن لا يؤمن بالغيب، بل كلّ أركان الإيمان الستة هي من أمور الغيب، وكفى بذلك تعظيمًا لهذا الجانب.

وبالجملة فمن أنكر الغيوب واستمسك في النزاع بالمحسوسات دون الغيبيات فهو مناقض لنفسه، مكذّب لفطرته، مناوئ لصادق إحساسه، وليس له عند الله من خلاق.

فيا صاحبي: اكتب بمداد سواد الليل على أديم بياض النهار منشورَ خلاصك، وأنّى ذلك إلا بالباقيات الصالحات، فاغتنم جمعيّتك قبل الشتات، وبقيّتك قبل الفوات.

❋ **ومن الوصايا:** كُن عالي الهمّة، سامق الهدف، بعيد الرؤية. فأيامُكَ الآن هي تاريخُك غدًا، فاكتب تاريخك بيدك؛ فقَدْرُ المرءِ هِمّتُه. واعلم أنّ ما عند الله خير وأبقى، وأعلى همة العقلاء الفردوس الأعلى بلا حساب ولا عذاب، قال عبد الغني المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أبلغُ ما سأل العبدُ ربَّه عزّ وجل ثلاثة أشياء: رضوان الله تعالى، والنظر إلى وجهه الكريم، والفردوس الأعلى»[(١)]. نسأل الله الكريم من فضله وجوده وإحسانه وكرمه.

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ٢٠).

قلت: ودعاء الله تعالى الفردوس الأعلى بلا حساب ينتظم هذا كله، نسأل الله الكريم من فضله العميم.

وإذا كانـــت النفـــوسُ كبـــارًا تَعِبَـــتْ في مُرادهـــا الأجســـامُ

وكان المحدث البرزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا قرأ حديثَ الذي وقصته ناقته وهو محرم فمات، وفيه: «**فإنه يُبعث يوم القيامة ملبّيًا**»[1]. بكى ورقّ قلبُه كثيرًا؛ فكانت خاتمتُه أن مات محرمًا سنة (٧٣٩)رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فهل في حياتك ما تحيا لأجله وتموت لأجله؟ وقل لي: ما هِمّتك، أقل لك من أنت. وسئل ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من أين لك هذا النشاط وقد جاوزت التسعين؟ فقال ذا الهمة الشابّة: «إذا كانت الروحُ تعمل؛ فإنّ الجوارح لا تكلّ».

لـــه همـــمٌ لا منتهـــى لكبارهـــا وهِمَّتـه الصُّـغرى أجـلُّ مـن الـدهرِ

ولقد كنتُ ولا أزال أردد: إرادة قويةٌ بذكاء متوسط؛ أفضلُ وأحسن وأثمر من عبقرية فذّة بإرادة ضعيفة. وذكاءٌ متوسط بخلق جميل وروح لطيف؛ خيرٌ وأنفع من ذكاء عالٍ بدونهما واحذر من ذكاء بلا زكاء. فالهمةَ الهمة يا مريد القمّة، والغنائمَ الغنائم أيها النائم.

وعــاجزُ الــرأيِ مضــياعٌ لفرصــتِهِ حتّـى إذا فـاتَ أمـرٌ عاتـبَ القَـدَرَا

واعلم أنَ الكفايةَ والطموحَ والمال والفراغ يصنعن فرْقًا هائلًا إذا اجتمعن بإذن الله. وإنّ الهَمَّ جزءٌ من الهِمّة، يُحرق صاحبه حتى يُنضجَ طموحَه بإذن ربه. ولقد ألقى النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلمةً كاويةً لكل ذي همّة عالية فقال

---

(١) البخاري (١٢٦٥) ومسلم (١٢٠٦).

بنصح وإشفاق: «وليس بعاقل من أمكنه درجة ورثة الأنبياء ثم فوّتها»[(١)]. فاجعل غاية هِمتك الفردوس الأعلى، ومن وصايا السلف: «من نافسك في الدين؛ فنافسه، ومن نافسك في الدنيا؛ فألقها في نحره».. لبيك إنّ العيش عيش الآخرة.

وواعجبًا لبعض البشر، كيف يلتفتون ويحتفون بتفاهات لا تستحق مجرد التّنبّه لوجودها.. فلا تكن منهم لك الله! بل كن لله، فتغدو الضميرُ الحيّ حين تتكلّم، والنهرُ الرقراق حينما تنصح، والكلمةُ الباسلة حينما تتفجّر، واليدُ المُثخِنةُ حينما تُجاهد، والمبدأُ الشاهق حينما تتقدّم، والفوزُ العظيم المبين حينما تُبعث.

وما العجزُ إلا أن تشاور عاجزًا ... وما الحزمُ إلا أن تهمَّ فتفعلا

واعلم أنّ العبادة هي روح العلم وحياته، فلا ينفع العلم بلا عمل، وقد استضاف الإمام أحمد أحدَ طلابه، فوضع عنده الماء بعد صلاة العشاء، ثم نام الإمام أحمد، فلما كان الفجر وَجَدَ الماء لم يتغيّر، فقال متأسفًا متعجّبًا: «طالبُ علمٍ لا يقوم الليل»!

* **ومن الوصايا:** استمتع بحياتك، فروحُك وديعة من الله في جسدك، فأنتَ وديعةٌ عندَكَ، فأعط الآخرة حقّها والدنيا حظها، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: ٧٧] وقال

(١) المجموع شرح المهذب (١ / ٣٧).

الحبيب ﷺ: **«إنَّ الله يُحبّ أن يَرَى أَثر نعمته على عبده»**[١]. ويبقى للنفس حقٌّ في سويعات يُخلي بينها وبين رغيبتها، ويُغضي عنها مع راحتها مع من تحب من طيّبي البشر.

واعلم أنّ الدنيا لا تطيب إلا بطاعة الله، وأنّ الآخرة لا تُنالُ إلا برحمته. نعم، لا تطيب الحياة إلا بالتقوى، فمهما انغمس المرء في لذائذها وتثنّى بين أعطافها، فسيبقى في صدره فراغٌ كبير وحشرجةٌ كاوية ووخزاتٌ مؤلمة لا يُذهبها سوى طمأنينتُه بصحّة مسارِ حياته، ويقينِه بقُربه من مولاه وشوقه للقياه.

فعليك بطاعة الله ثم استمتع بالزمان كيفما كان، ولا حلاوةَ للدنيا إلا بالإيمان، فعش يومك بسرور واستبشار، فإنّ يومك الآن هو مستقبلُك الذي كنت تنتظره بالأمس، وهو ماضيك الذي ستحنّ إليه غدًا، وتاريخُك الذي ترقمه بمواقفك. فإن ابتهج فؤادك يومًا فلا تقتلنَّ لحظته السعيدة بتصرّفٍ غبيّ، لا تفعل؛ فقد تكون الأخيرة.

واستمتع بيومك فهو لن يعود، وبصحبك فلن تجدهم دومًا، وبدينك فهو الخالد معك، وابتهج بأجملِ ماضيك، وتفاءل بمستقبلك، فدينك دين الفرح بالله وفضله.

ومن المؤسف أن تعلم أنّ الخيالَ غالبًا أجملُ من الواقع، ولكن فلتعلم أنّ

---

(١) الترمذي (٢٨١٩) وحسّنه.

الألمَ والشقاء كذلك، فكن حالمًا هناك وواقعيًا هنا، وما أهمّك فابدأ به. وتذكر أنّ العمر أقصر من أن نضيعه في لحظات لا تقودُ لبحبوحة الجنة، فتلك اللحظات أثمن من أن نهدرها في زحام السنين.

وأثناء العمل ارفع سقف المُنى؛ فهو وقود الإبداع، وبعد الإنجاز اخفض سقف التوقّع؛ حتى لا تنهار، كن كما أنت، فمن انتفخ انفقأ، ومن ضمر تلاشى.

واعلم أنّ كثرة استدعاء الماضي يورث في النفس كآبة وسوداوية، وكثرةُ التأمّل والانتظار للمستقبل يورثها قلقًا، وخيرٌ لك أن تعيش يومَكَ متفائلًا بالقادم مستحضرًا جميل الماضي. ومهما أحاطتك أنكادُ الدنيا فعليك أن تفُكَّ نفسك من غَلْقَتها لفساح الدنيا وبهجتها، ومهما حصل . ويحصل . فيبقى في الدنيا شيء يستحق الوقوف عند جماله.

ولا بأس عليك من جَمالِ خيال، فهو طريقٌ للمعرفة، وبوابةٌ لها، وسُكَّرٌ يُطيب مذاقها، وزنادٌ يقدح معدنها، وروح يطير بها. ولتكُن لديك . أيها الفاضل . خصوصيات وخبيئات جميلات لا يعلم بها سوى ربّ البريات، ولا تجعل نوافذك كلها مفتوحة على الناس.

وإنّ مِنْ أكثر ما يسبب لك القلق والتوتّر هو الأشياء غير المُنجزة بحياتك، فأنجزها، أو تخلّص منها. وابدأ بأهمّها ولو كان شاقًّا، لا أسهلها وإن كان مرغوبًا. فالقضايا العالقة، والملفات المفتوحة، والمشاريع المتعثّرة؛ تشوّشُ الفكر، وتُضيّق الصدر، وتشتّت العمل. وحلُّهَا في إنجازها أو إلغائها، فالكيُّ

والقطعُ خيرٌ من انتشار الآفة. وإدمانُ العادة السيئة . فاعلم . إنّما هو كَكُرَةِ الثلج، كلّما هربت منها لَحِقَتْكَ بشكل أكبر، لكن إن واجهتها بسيف إرادتك ودرع صدقك ومضاء إخلاصك، وأبدلتها بعادة حسنة طيبة؛ زالت للأبد بإذن الله.

* **ومن الوصايا:** لا تحزن، فالحزن شعور سلبيّ سوداوي مخالف للسرور والسعادة والاستبشار، وهو مفضٍ مع الاستمرار في سردابه للكآبة والقنوط وسوء الظن بالله تعالى وحسن تدبيره وعظيم حكمته ولطفه ورحمته وبره، فلا تقف عند أخطائك ولا تجلِد بها ذاتك، فلكلّ منّا أخطاؤه الغبيّة في الحياة.

وليكن شعارك دومًا حينما تضيق بك الدروب، وتتراكم عليك الخطوب، وتُمْنَى بفشلٍ وخيبة: لعل في الأمرِ خيرة، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. واعلم أنّ كثيرًا من الخِيرة مقرون بالكُرْه، ولم يَضِعْ مِنْ مالِكَ ما وَعَظك. والجنةُ دارُ اللذائذ، وكما قيل: يا فاكهةُ موعدي وإيّاكِ الجنة. وقال ابن عطاء السكندري: «منعُ اللهِ عطاءٌ، ولكن لا يفهم العطاء في المنع إلا صدِّيق».

وَهَـوَّنَ مـا أَلقَـى مـن الوَجـدِ أنَّنِـي   أُسَـاكِنُه في داره اليـومَ أوغَـدًا

والله تعالى يحب الخير لعباده، ويدلهم على طريق الفرح، فقال سبحانه: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨] ونهى عن الحزن في غير موضعه: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحج: ٨٨] ومن أجلِّ أعمال القلوب قاطبة: الفرحُ بالله تعالى. ولو كان للسعادة معيارٌ حسيّ؛ لصُعق أهل المال والجاه والسلطان

والصحة من افتقارهم لها إزاء غِنى الأتقياء بها، ولو علم الناس حقيقة السعادة ما ذهبوا بعيدًا، لأنها بين أيديهم لو كانوا يعقلون، إنّها في الفرح بالله تعالى، وطريقُها الإيمان والقرآن والاستقامة.

حتى مع عوارض اليأسِ لا تحزن؛ فلك أسوةٌ صالحة، فكم من مؤمنٍ حبيبٍ لله قد مات وحاجته في صدره لم يدركها في دنياه. وبما أنّ المؤمن بشرٌ مثل جنسه فلا يُنكر عليه الحزن العارض لفوات ملائم أو طروء مخالف لطبعه أو مضايقة روحه ونفسه، ولكن عليه أن يكون مَلِكَ نفسه وسيّد مشاعره وطبيب روحه؛ فيُرخي لمشاعره الزمام شيئًا بحيث لا يكبتها، كما لا يتركها بلا قيد ولا خطام. ويا أيها الحزينُ تَصَدَّق.

وسئل ابن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هَمٍّ لا يُعرف سببه؟ فقال: «هو ذنبٌ هممتَ به في سرِّك ولم تعملْه؛ فجُزيت همًّا به». فللذنوب عقوبات؛ السرُّ بالسرِّ، والعلانيةُ بالعلانية، والله المستعان.

وليستعمل المؤمنُ علمَهُ بالله وحسن ظنه به وعقله وفكره فيما بين يديه من دوافع حزنه وروافع بلائه وأسباب سلوانه، ولسانُ حال الشارد: لَكِ الله يا عذابات السنين، ويا جراحات الأنين، كم لك في الفؤاد من لوعةٍ تكوي نداءات الحنين. فيجيبُه نداءُ العقل بتلاوة منشور الفلاح للمتقين: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] وقول

العليم الرحيم: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]. قال أحد السلف: «تذكَّر أنَّ كلَّ نعمةٍ دون الجنةِ فانيةٌ، وكلَّ بلاءٍ دونَ النارِ عافية».

فإن كان الأمر لفوات دنيا؛ فليعلمْ أنّ الدنيا بحذافيرها لا تستحق على التحقيق حزنَ ساعة، لكن لضعفنا البشري المركّب وغفلتنا الآنيّة نسترسل فيما لا ينبغي للعاقل الاسترسال فيه. والزمن طبيب جيّد للأحزان.

وعن تجربة: فمن أجدى طرقِ المواساة غير المباشرة للمُصابِ والمكلوم؛ إشغالُه بأنْ يواسيَ مصيبةَ غيرِه ممن يحبهم، فينسى - مؤقتًا - مصيبته التي ستبرد قليلًا بالتقادم.. وإنَّ من الخطوب ما لا يداويه سوى موعود الآخرة!

تذكّرْتُ عصْراً قد مَضَى فتهافَتَتْ ... بناتُ الحشا وانهلّ مني المدامعُ
ونعلمُ أنّ المُلْكَ للهِ وحدهُ ... وَأنّ قَضَاءَ اللّهِ لا بُدّ وَاقِعُ

وأمّا إن كان الحزن للدِّين؛ فينظر: إن كان لذنبٍ أو فوات طاعة وقُربَه؛ فحزنه محمود، لكن عليه أن يجعل حزنه إيجابيًّا، بحيث يعوّض ما فاته، ويستدرك ما فرّط فيه بحسب وسعه وطاقته، ويستغفر لذنبه ويلح بدعاء ربه بقبول توبته والعفو عنه.

يا صاحبَ الهمِّ لا تنزعجْ ... فعمّا قليلٍ يكونُ الفرجْ
فما في سديمِ الدُّنا من ظلامٍ ... إلا ومنه يكونُ البلَجْ

وأمّا الحزنُ لِدين غيره؛ كتقصير الناس في طاعة الله، وانتشار المنكرات، وضعف حال المسلمين، وضعف تدينهم، وظلمهم من قبل أعداء الدين قتلًا وسجنًا وتشريدًا، ونحو ذلك من الحزن السلبي لغلبة الكفار المادية للمسلمين؛ فإنّه لا يصنع شيئًا، بل منهيٌّ عنه شرعًا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ [آل عمران: ١٧٦]. وقد يكون حزنُه محمودًا من جهة رحمته بهم، ولكن لا بدّ أن يكون حزنًا باعتدال، مع مزجه بالاحتساب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجاه المنكرات، وبالدعوة إلى سبيل الله تعالى والمجاهدة لأعداء دينه، وبالرضا بالقضاء لمصيبات الأمة ونقص أمنهم وأرزاقهم، مع بذله جهده وطاقته في سبيل رفع ما يمكن رفعه من حال الأمة، وكلٌّ ميسر لما خلق له.

وليعلم أن الجنة هي ميعاد المحبين من المؤمنين، وأنّ غمسةً فيها تُنسي شقاء الدنيا كلّه.

وثمّة بشارة لقلب كل مؤمن: وهي أنّه مهما كان مكانك وزمنك وضعفك وعجزك وفقرك وقِلّتك أمام انتفاش الباطل وأهله؛ فاعلم أنّهم لا يستطيعون سلْب الإيمان من صدرك. وهذه وربّي كافية في برد اليقين وثلج الطمأنينة، ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]. ومِن نافع وصاياهم: «عند القَدَرِ لا تجزع، وعند الأمرِ لا تعجز».

ومن حقوق الصحبة تخفيفُ الأحزان، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠]. وأمرُ المؤمن خيرٌ كلّه، والله تعالى يقول: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ

عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] أي ليس عليهم خوف من المستقبل، ولا حزن على الماضي.. وليس مع الله ضيعة.

فـإذا ابتُليـتَ بنكبـةٍ فاصـبرْ لهـا   اللهُ حسـبي وحـدَهُ وكفـاني

ويا صاحب الهم: أينك عن الملاذ؟ إنّه يقينك بالله وثقتك به، انطرح بكليّتك بين رحمته وكرمه، قال ابن مسعود: «الصبر شطرُ الإيمان، واليقين هو الإيمان كلّه». إلهي، أنا لك، وأنا إليك راجع.

تمـوتُ النفـوس بأوصـابها   ولم يـدرِ عُوّادُهـا مـا بهـا

ومـا أنصـفتْ مهجـةٌ تشـتكي   أذاهـا إلى غـيرِ أحبابهـا

فلكل مهموم، أو حزين، أو مريض، أو مُحطّم الفؤاد، أو متآكل الروح من فشله أو عثرته أو إحباطه: ثَمّ ربٌّ يراك، وإلهٌ يسمع نجواك، ويفرح بضراعتك، ويُقرّبك إذا تخلّى عنك الأقربون، ويذكُرك إن نسيك المحبون، ويرحمُك إذ قسا عليك الألدّون، ويرفعك ويرزقك ويشفيك ويسعدك، ويشرح صدرك وييسر أمرك. فأين أين أنت عن طرق بابه، واللياذِ بعظيم جنابه، والالتذاذِ بجميل خطابه، والانطراح في عبوديته ودعائه!؟ اشْكُ نفسَكَ والناسَ إليه، واحذر من أن تشكوه إليهم، فكيف تشكو من لا يأتي بالخير إلا هو!

وَإِذَا شَـكَوتَ إلى ابـنِ آدمَ إِنَّـمَا   تَشْـكُو الـرَّحِيمَ إلى الـذي لا يَـرْحَمُ

وعليك بجادّة الأنبياء: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]

والبثُّ هو الحزن الذي لا يُطاق.

والناس يقولون: لا تكبت همومك في صدرك، وبُثَّها لصديق يواسيك؛ لأنّ الصدر إذا نَفَثَ برأ، ولا بدَّ من شكوى إذا لم يكن صبرُ.

وأبثثتُ عَمرًا بعضَ ما في جَوَانحي ... وجَرَّعتُه من مُرِّ ما أتجرّعُ
ولا بدَّ من شكوى إلى ذي مروءةٍ ... يواسيكَ أو يُسلِيكَ أو يتوجَّع

وما علموا أنّ البث النافع هو الشكوى إلى من بيده مقاليد الأمور ومعاقد الأقدار. فيا نازفًا همَّهُ بدموعه، ومُرسلًا شجَنَه بأنينه، وشِكايته بزفراته؛ أبشر ببشرى الله لك: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فبُثَّ له وحده شجونك وأحزانك ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

ودرّب نفسك على أن يكون قلبك أقوى احتمالًا وأرحب مكانًا وأشدّ جلَدًا لأليم الواردات عليه، فإنْ ضاقت بك الأرضُ يومًا بما رحُبَتْ؛ فالجَأ لمن لا يخيب من دعاه، ولا يخسر من عامله، ولا ينهزم من توكل عليه، ولا يفتقر من اغتنى به. أمّا من لم يُطِق، ورأى صلاحه في ذلك؛ فلا بأس بشرط الأدب مع الله تعالى، بعدم التبرّم من أقداره.

إِذا لم أطِق صَبرًا رَجعتُ إلى الشكوى ... وناديتُ تحت الليل يا سامع النَّجوَى

وكيف ينفعنا الإيمانُ بمرِّ القضاء إذا لم تثبت على ثلجِ يقينِه وبرْدِ حُسنِ الظن بعاقبته قلوبُنا عند احتدام الكُرب! وتذكّرْ أنّ أعظم مُسَكّن في العالم هو

جُرعة من الرضا بمرّ القضاء. ولكل مصاب ومحزون ومهموم: سيكونُ هذا يومًا ما مجرد ذكرى من الماضي، فأَرْضِ ربَّكَ الآن؛ لتسعد بالذكرى غدًا، فالدنيا، كلّ الدنيا لا تساوي غمسةً في الجنة.

❋ **ومن الوصايا:** تسامحْ وتَغَافل. فمن طلب حقَّهُ جملةً؛ خَسِرَهُ جُمْلَةً. فلا بدّ من السماحة حيالَ أخذِ الحقّ وإعطائه. والمتأملُ يرى أنّ مِن أكبر أسباب الشقاق: استقصاءُ الحقوقِ، لأنّ هناك منطقةً صغيرة يسيرة بين الحَقّين، وكلٌّ يدّعيها، ولو سامح أحدُهما ببعض ما يراه له؛ بردتْ نارُ الخلافات وانفقأتْ عينُ العداوات والتأمت الشقوق بين أهل المروءات. وهذا عزيزٌ في النفس الإنسانية. قال الحسن: «ما استقصى كريمٌ قطّ، إنّ الكريم يتغافلُ عن تقصير أهله وصحبه، ولا يستقصي حقوقه عندهم»(١). وأبلغُ وأجلُّ من هذا قولُ رب العزة جل جلاله في وصف كامل الأخلاق ﷺ: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ﴾ [التحريم: ٣].

أعْـرِضْ عـن العَـوْراء إنْ أُسْـمِعتَها واقعـدْ كأنـكَ غافـلٌ لا تسـمعُ

ولا تُخرج من الناس أسوأَ ما فيهم فيظهر ما لا تريدُ ولا يريدون، فلا تتجسّس، ولا تُلحف في السؤال، ولا تُحقق سوء الظن، ولا تشترط اعترافًا تامًّا، ولا اعتذارًا كاملًا، فخُذ ما تيسّر ودَعْ ما اشتدَّ. ومن حِكم العرب: «إذا عزَّ أخوك فهُن»، فهي حكمة عربية سامية، فلا يكسر العلاقة كتشبُّثِ الطرفين

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للبرهان فوري (٢ / ٥٣٩) (٤٦٧٧).

بذيولِ العِزَّةِ، وعزّةُ النفسِ طيّبةٌ إن كانت في محابّ الله أو أفضت إلى ذلك، لكن تذكّر أنّها ما أهبطَ إبليس من الملكوت؛ لمّا رأى في الأمر غضاضة فأبى السجود لمن لا يُحِبّ. فكُن اللطيف منهما تكنِ الأعلى، وأخوك سوف يعود، وإلا فقد كُفيته، ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. **«وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»**(١).

واحرَصْ على حِفْظِ القُلُوبِ مِنَ الأَذَى   فرجوعُهـا بعـد التنـافر يصـعبُ

وليس من اللازم إن كانت لك وجهةُ نظرٍ مُخالفة أن تبديها وتناقش حيالها، فأكثرُ ضجيج المجالس إنما هي تفاهات وإن احمرّتْ لأجلها الحِدَقُ، لكن إن ترجّح لديك خيريّةُ المشاركة في نقاشٍ أو مناظرة؛ فامضِ بسكينةٍ ووقار وهدوء، فمن كان على الحق فليس بحاجة للصراخ، والطبلُ الفارغ أشدُّ ضجيجًا. وعليك بالصافي المستقرّ، ودعِ الكدرَ لأهل الكدر، واضرب من الأمور أكبادها، ولا تكن كحال: أوسَعْتُهُم سبًّا وأودَوا بالإبل.

ولا تقلق إن احتدّ مُحَاوِرُكَ في نقاشه، فهذه علامةُ بدايةِ قبوله لفكرتك عند أكثرهم، لأنّك هتكت حاجز الحُجج العقليّة لديه فظهرَ له عوارُها، فتدفعُ عزّةُ نفسه معرّةَ الرجوعِ بشيءٍ من لَجَجِ الغضب، فاهدأ وعليك بالسكينة، وامتصّ غضبه بحلمك ولينِ كلامك وصدق إشفاقك وعدمِ فَرَحِك بكَسْرِه، ولرُبّما يأتي يوم يَثبتُ معك حين تزول أقدام الأقربين. وتذكّر خبر سهيل بن

---

(١) البخاري (٢٦٣٧).

عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مكة لمّا كاد بعضهم أن يرتدّ على عقبيه مع المرتدّين؛ فقام للإسلام مقامًا مشهودًا مشكورًا، وهو الذي أراد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحديبية أن يخلع ثنيّته، ولكن أبى الشفيق الناصح صلوات الله وسلامه وبركاته عليه(١).

وأنت مع الناس بين حقّين: عليكَ فأدِّهِ ولا تؤخرْه، ولَكَ فلا تطلبه ولا تنتظرْهُ. واعلم أنّ تسعةُ أعشارِ العقل في التغافل، وكما أنّ الحلمَ سيدُ الأخلاق في البداية؛ فالعفو سيدها في النهاية. وكتب سلمان إلى أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير؛ أن يكثر علمُك ويعظم حلمُك». وقال الأحنف: «من لم يصبر على كلمةٍ؛ سمع كلمات». والجاهلُ في الأغلب محتاج لأحمق يستفزّه.

وهناك متلازمة عكسية مطّردة بين الغضب وقوّة العقل، فعلى قدر صعود مستوى الغضب يكون نزول قوة العقل وصفاء الذهن، حتى يبلغ الغضب بالعقل لمرحلة الجنون أو قريبًا منها. وقد قالت العرب: «الغضبُ شعبةٌ من الجنون». وفي الأغلب لا تأت العجلة في العقوبة لصاحبها بخير. وإنّ من الظلم أن يكون الانتقام أشدّ من الذنب. وقال بعض الحكماء: «اذكر عند قدرتك وغضبك قدرةَ الله عليك، وعند حكمك حكم الله فيك».

فلا تجعل سبعَ الغضب يفترسك، بل قيده بقيد الحلم، حتى إذا صفى

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٦٥) وابن هشام (١/٦٤٩).

ذهنك؛ انبثق لك شهابُ الحكمة وأشرقت في قلبك شمسُ البصيرة. فالغضب غريزةٌ جعلها الله في النفس سلاحًا يدفع عنها العاديات، فإن زاد عن حدّه؛ ارتدّ سلاحًا يفتكُ بصاحبه، كذلك الخوف سلاح فإن زاد؛ فَتَك، وعلى سبيلهما البقية.

فبالتغافل والسماحة والعفو والتناسي وحسن الظن قوامُ أسباب الوئام بين من دبّ بينهم داء الأمم. ولو أنّ كل أخوين تحاسبا على كل الأخطاء؛ ما بقيت بينهما أخوّة، فهلّا تغافلنا! وأكثرُ البشر يُحسنون تفصيل الملامة ويسيئون الظن والغفران، والعفوُ الكبير لا تطيقه سوى النفوس الكبيرة.

وإخـــوانٍ حســـبتهمُ دروعًـــا   فكانوهـــا ولكـــن للأعـــادي
وخلـــتهمُ ســـهامًا صـــائباتٍ   فكانوهـــا ولكـــن في فـــؤادي

قال شيخ الإسلام: «الناس عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام: ظالمٌ يأخذ فوق حقّه، ومقتصدٌ يأخذ بقدر حقّه، ومحسنٌ يعفو ويترك حقّه»(١). وصدق الفضل بن يحيى حينما قال: «الصبرُ على أخٍ تعتب عليه، خيرٌ من صديقٍ تستأنفُ مودّته». وفي قول تعالى في وصف أهل الإيمان: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] دليلٌ على أن الانتقام يقبحُ من الكرام. ورُبَّ عفوٍ أشدُّ من انتقامٍ. وقال النخعي في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]: «كانوا يكرهون أن يُستذلّوا، فإذا قدروا عفوا».

(١) قاعدة في الصبر لابن تيمية (٩٦).

ودومًا؛ تذكّر الأجمل، واستعدّ للأسوأ، وتفاءل بالأفضل. واعلم أنّ الذكاء نعمةٌ إذا أوصل صاحبه لمسالك حسن الظن، والعكس صحيح، إذ مسارب العقل لا نهاية لها، فهي ساشعة مدهشة، وهنيئًا لمن هداه الله سبيله.. ويالك من مستودعٍ للعجائب أيها الإنسان.

وتتألمُ الروح حينما يبصر العقلُ ما لا تطيقه النفس. وحينما يطمع القلبُ في شيء؛ فراحته تكون بالتملّك الكامل أو اليأس التام، أما قلقه زيادةً ونقصانًا فهو حينما يتردّد بين اليأس والرجاء. واليأس من الشيء راحة من عذاب الفكر فيه، وعلى سبيل العزاء لكل فقدٍ: اليأسُ راحة، والرضا بمُرِّ القضاء دواء، والحمدُ لله على كل حالٍ اكتفاء. ولأبي الطيب: هَوِّن عليكَ ولا تُولَع بإشفاق. ولابن ميّادة:

فلا صَرْمُهُ يبدو وفي اليأسِ راحةٌ ولا ودُّهُ يصفُو لنا فنكارمُه

وعليك ببسط العذر لإخوانك إن زلّت أقدامهم عن رعاية حقوقك، فإنّ الكريم من يُغَلِّبُ الثقةَ بصديقه على الشكِّ في تحقيقه. والتمس لإخوانك الأعذار، ولقّنهم الحجج، فإن اعتذروا فاعلم أنّ الاعتذار شيمةُ الكبار، وهو مُوجِبٌ عند الكرام للاغتفار. والاعتذارُ الصادق ينفعُ إن صادف نفسًا كريمة، وإن طال زمانه.

اقبلْ معاذيرَ من يأتيكَ معتذرًا إن برَّ عندكَ فيما قالَ أو فَجَرَا
فقد أطاعكَ من يُرضيكَ ظاهرُه وقد أجلّك من يَعصيكَ مُستترًا

فالاعتذارُ سموٌّ ونقاء وارتقاء، لكن لا تفعل ما يلجئك إليه ابتداءً، فإنّ

مَن كثُر تكرار اعتذاره؛ تزعزع عند الناس مقدارُه. ولا تخطئ جهرًا ثم تعتذرُ سرًّا. لا تفعل.

وإيّاك والنرجسية. ومعناها: افتتان المرء بنفسه. ومظاهرها: الغرور، والكبر، والتفاخر، والأنانية، والاستغلالية، وعدم تقبل النقد، وثقل الاعتذار. وإذا نظرت للناس فوجّه بصرَك ليرى أجملَ ما في نفوسهم، كي تسعدَ أولًا بمرآهم وقُرْبهم، ويسعدوا منك بإيجابيتك وتحفيزك، وتذكر أنَ للقمر وجهًا آخر. واعلم أنّ الشدائد مصانعُ الرجال، والفتنُ كَيرُ الألباب، والمؤمن حقًّا هو من يُبقي لحُسن الظنّ في إخوانه موقعًا.

* **ومن الوصايا:** اعلم أنك تقترب من الله بقدر طاعتك له. وتدبر الكلامَ المباشر: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ﴾ [الأعراف: ١٩] كذلك: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩] فاسم الإشارة مؤذنٌ بالقرب منه سبحانه. وبعدها، أتى الشيطان يوسوس بالقرب منهما ومن الشجرة: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٠]. وبعد أكلهما من الشجرة؛ صارت الشجرة محلًّا للخطيئة؛ فابتعدا عن الله نسبيًّا بقدر معصيتهما. وبعد الخطيئة تغيّر الحال، ولم يعُدِ القرب كما كان، فبدلًا من الكلام المباشر جاء النداء: ﴿وَنَادَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢] وفيه الإيذان بالبُعد. كذلك أشار للشجرة ـ محل الخطيئة ـ بقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] ولم يقل: هذه الشجرة. وبالجملة؛ فالقربُ من الله مضطرد مع طاعته. وتأمل: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]. ففي قانون البشر: لا تقترب كثيرًا حتى لا تبتعد كثيرًا، أما مع ربهم فبالعكس،

فاقترب بكلّيتك؛ بروحك، بقلبك، بعلمك.

❋ **ومن الوصايا:** أن تنتبه لخُدعة نفسية فهي شيطانية، وهي التي أخرجت أبوينا من الجنة، فلنحذر عاقبتها. إنّها رغبة الممنوع!

وزادَني كَلَفًا في الحبِّ أن مُنِعَتْ أَحبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنِعا

والمرءُ توّاقٌ إلى مالم ينل، وقالت العامة: كلّ ممنوع مرغوب. وقال ابن مفلح: «وليحذر العاقلُ إطلاق البصر، فإنّ العين ترى غير المقدور عليه على غير ما هو عليه»[1]. ومن مضحكات النفس البشرية أنها بطبيعتها تزهد في المحسوسات فور تحصيلها. ومتى اتّسعت القُدرة؛ نقصت الشهوة، وعلى قدر الحرمان تكون زيادتها. ورحم الله من حدب بوصيته:

يسرّ مقلته ما ضرّ مهجته لا مرحبًا بسرور عاد بالضررِ

❋ **ومن الوصايا:** كُن في غبراء الناس، واحرص على خمول الذكر، ولا تفرح بعلوّ الصِّيت، فالنفس إلى علوّ العاجلة نزّاعة، والسعيدُ هو من لم يُلق بالَهُ لثناء الناس وجاهِهِ لديهم. فإن ترجّحت لك منفعةُ الجلوس للناس ونفعهم فذاك، وإلا فاقنع بالسلامة. وقد ذكر الذهبي عن التابعي الجليل علقمة . وهو من أخصّ وأفضل أصحاب ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . أنه قيل له: هلَّا جلستَ في المسجد فتُسألَ وتُقرِئُ، فقال: «لا أُحِبُّ أن يطأَ الناسُ عقبي ويقولون: هذا علقمة».

---

(١) الفروع وتصحيح الفروع (٨ / ١٨١).

وكم من وليٍّ لله ووليّة، قد جهل الناس صحةَ سريرته وخفايا أعماله؛ تُرفع أعمالُه بالغداة والعشي، وتُفتح لدعوته أبواب السماء، وتستبشر بروحه الملائكة المقربون، وكم من مُوقد فتنة، مسودّ الوجه، مظلم الروح، غفل عنه الناس؛ ولم يغفل عنه رب الناس.

فلتكن يا صاحبي من عامّة الناس ظاهرًا؛ كي تستريح وتسلم، إلا بقدر الضرورة، فواهجُ الأضواء يذيب الإخلاص ذوبان الشمع بالنار، ويُنبِتُ أغصان شجرة الغفلة في الصدر، ويُشتِّتُ جمعيّة القلب على ربّه. والإخلاصُ عزيزٌ جدًّا، لذا قال سفيان: «لا أعتدّ بما ظهر من عملي».

ولا يعني هذا الانكفافُ عن نفع الناس بحُجّة الخشية من الرياء والتسميع، بل اسعَ لنفعهم وإسداء الخير لهم ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، فخيرُ الناس أنفعُهم للناس. ومع ذلك فحاول قدر طاقتك ألا تنظُرَ لقدْرِك عندهم مدحًا أو ذمًّا، رفعًا أو خفضًا، بل اعتبرهم . من هذه الحيثية . كأنهم لم يُخلقوا. فلا تنتظر منهم مدحًا، ولا تفرح بثناءٍ إلا ما كان بلا طلب منك وفي غير وجهك، لا فَرَحًا بهم؛ بل حسن ظن بالله أن أنطقَ الشهود لك لا عليك. ولا تركن لذلك؛ فإنك لا تدري في الحقيقة أهو عاجلُ بشرى أم مكر. فأحسنِ الظن بالله وأسيءِ الظنّ بنفسك، ومن شدّد حساب نفسه؛ زكّاها بإذن الله، والإخلاصُ إكسيرُ التوفيق بإذن الله.

ومن تجرّدَ للحق؛ بدأ بنفسه. ولما سُئل علي بن المديني عن أبيه قال: «اسألوا غيري». فقالوا: سألناك. فأطرق، ثم رفع رأسه وقال: «هذا الدِّين، أبي

ضعيف»[1]. يقصد ضعفه في رواية الحديث، رحمهما الله.

وكم ظُلم التجرّدُ للحق كالحسبة والدعوة والنصح والجهاد بلبوسه فوق حظوظ النفس الأمّارة، تارة بحب رئاسة، وأخرى بشفاء غيظ، وثالثة بطمع دنيا.. وهكذا، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا إله إلا الله، كم في النفوس من علل، وأغراض، وحظوظ، تمنع الأعمال أن تكون خالصة». فحِذارا يا قوم من أكل الدنيا بالدين، فالعلمُ والإيمان معراجٌ إلى جنات النعيم، وقد خاب من ولد آدم من استعجل بهما لعاعة، ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤] فمِلْعقةُ الدين تغرِفُ لصاحبها الذهب، لكنها مهرُ الجحيم، ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ومن لوازم طالب العلم تفقّد نيته على الدوام، فكلّ شيء لغير الله يزول، ولا يبقى إلا ما أريد به وجه الله تعالى. والعلمُ الخالص فضيلةٌ عُظمى، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العِلم لا يعدله شيء لِمَن صحّت نيّته».

إذا الحياة لغيرِ الله وجهتها ... فطولُها في صميمِ الأمرِ نقصانٌ
فدَربُها ضيعةٌ يُفضي لمهلكةٍ ... وزادُها جلمدٌ في شكلِ عِقيانِ
فعِشْ إذا شئتَ أو فلتمتْ كَمدًا ... فالموت والعيشُ بعد اليوم سيّانُ

واعلم أنّ طالب العلم مفتقرٌ إلى ثلاث: زكاءٌ وذكاءٌ وشغفٌ. فبتزكيةِ قلبه

---

(١) المجروحين لابن حبان (٢/١٥).

من أدران الخطايا ونجاسات الذنوب؛ يحُصّل غاية العلم وهي الخشية. وبذكائه الذاتي والمكتسب يجمع العلوم في قلبه ويُرتّبها في ذهنه، ويطبخها بهدوء في قِدْر عقله، حتى تنضج لتكونَ علمًا صالحًا للاعتقاد والعمل والتعليم. وبالشغفِ يدفع ملال الطلب، ويتزوّد به وقودًا للمسير وزادًا للتعلّم والمُدارسة، ويستروحُ به أسعدَ أوقاته، فللعلم والإيمان حلاوةٌ فريدة ومذاقٌ ليس من أذواق الدنيا، فيستحيلُ وصفها لمن لم يخالط شهدُها بشاشَةَ قلبِه وحُشاشةَ فؤاده، فمن لم يذق العسل؛ لا يعرف طعمه، وكما قيل: «من لم يرَ جمال يوسف؛ لم يدر ما الذي أبكى يعقوب».

ومن نفيس كلام الإمام الرباني ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب: «لا يجتمعُ الإخلاصُ في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس؛ إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت. فإذا حدّثتك نفسُك بطلب الإخلاص؛ فأقبل على الطمع أولًا؛ فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء؛ فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة. فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؛ سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهّل عليّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع؛ فيسهّله عليك علمك يقينًا أنه ليس من شيء يُطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه، لا يملكها غيرُه ولا يؤتي العبد منها شيئًا سواه. وأما الزهد في الثناء والمدح؛ فيُسهّله عليك علمُك أنه ليس أحد ينفع مدحُه ويُزين، ويضرّ ذمُّهُ ويُشينُ الا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إنّ

حمدي زينٌ، وذمّي شينٌ. فقال: «**ذلك اللهُ عزَّ وجل**»[١]. فازهد في مدح من لا يزينك مدحه وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كلّ الزين في مدحه وكلّ الشّين في ذمّه»[٢].

والعاقلُ حقًّا هو من كانت همّته رِضَى اللهِ عنه، وغاية خوفه سخطه، فتأمل حال ذلك الإنسان الذي يُسمّيهِ الله تعالى لجبريل ليخبره ببُغضه له! فينادي جبريلُ في أهل السماء بذلك، والآخر يسمّيه ليخبره بحبّه له! فقد روى مسلم[٣] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله إذا أحبَّ عبدًا دعا جبريلَ فقال: إنِّي أحبُّ فلانًا فأحِبَّه. قال: فيُحبُّه جبريلُ. ثمَّ يُنادي في السَّماءِ فيقولُ: إنَّ اللهَ يُحبُّ فلانًا فأحِبُّوه، فيُحبُّه أهلُ السَّماء. قال: ثمَّ يُوضعُ له القَبولُ في الأرضِ. وإذا أبغض عبدًا دعا جبريلَ فيقولُ: إنِّي أُبغِضُ فلانًا فأبغِضْه. قال: فيُبغضُه جبريلُ. ثمَّ يُنادي في أهلِ السَّماءِ: إنَّ اللهَ يُبغِضُ فلانًا فأبغِضوه، قال: فيُبغِضونه. ثمَّ تُوضعُ له البغضاءُ في الأرضِ**». فلا إله إلا الله، اللّهم اعف عنا وارحمنا وأحبِبنا، واكفنا شر أنفسنا، إله الحق.

واعلم أنّ التَّمادُحَ مثلبة، ومدحُ الرجل في وجهه بلا مسوّغ عيبٌ، وطلبُ المدح نقصٌ، ويزيدُ قبحًا إن كان من طالب علمٍ مادحًا أو ممدوحًا. وإنما يُشرع

---

(١) أحمد (١٥٩٩١) والترمذي (٣٢٦٧) وقال: حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣ / ١٠٧) (٢٦٠٥).

(٢) الفوائد (١٤٩).

(٣) مسلم (٢٦٣٧).

المدحُ في الوجه إن كان لمصلحة شرعية. وهو استثناء، وإلا فالأصل المنع، وعند الشيخين من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا ذكر عند النبي ﷺ فأثنى عليه رجلٌ خيرًا، فقال النبي ﷺ: «**ويحك! قطعتَ عنقَ صاحبك**»(١). وعن همام بن الحارث عن المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّ رجلًا جعل يمدح عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعمد المقدادُ فجثا على ركبتيه فجعل يحثو في وجهه الحصباء. فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم المدّاحين، فاحثوا في وجوههم التراب**»(٢). وقال العلامة عبد الكريم الخضير: «كان السلف ينهون عن التمادح، ومن مُدحَ بما ليس فيه في وجهه وسكت؛ فقد جرت سنة الله أن سيذمُّ بما ليس فيه، ومن مُدح في وجهه بما هو فيه؛ ذم في وجهه بما هو فيه». فعليك بسفينة الإخلاص إن رُمت الخلاص، ولن تقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين؛ كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤](٣).

وقال ﷺ: «**اسألوا الله العفو والعافية، فإن أحدًا لم يُعط بعد اليقين خيرًا**

---

(١) البخاري ٨/٢٢ (٦٠٦١)، ومسلم ٨/٢٢٧ (٣٠٠٠) (٦٥).

(٢) مسلم ٨/٢٢٨ (٣٠٠٢) (٦٩).

(٣) ينظر: الفوائد (١ / ١٤٩).

من العافية»[(١)]. ومواعظُ القرآن لا تنفع سوى أهل اليقين بلقاء الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

ولم أرَ في متع الدنيا كالعافية، ولم أرَ أجحدَ لتلك النعمة من أهلها، حتى إذا تقلّص عنهم بعضُها؛ عرفوا شأنها. فالعافيةُ حياةُ الدين والدنيا، واليقينُ هو جبل الإيمان الراسخ فيها. ومع اليقين يضمحلُّ الشحُّ، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] قال الحسن: «من أيقن بالخلَف؛ جاد بالعطيّة». ولما اختصم أصحاب الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حدِّ الزهد قال. وهذا من نفيس مقُولِه .: «الزاهدُ هو الذي لا يغلب الحرامُ صبرَه، ولا الحلالُ شكرَه». أما ابن تيمية فحدّ الزهد بقوله: «هو ترك ما لا ينفع في الآخرة».

والنفسُ راغبةٌ إذا رَغّبتها ... وإذا تُردُّ إلى قليل تقنعُ

فأكْرِم نفسَك عن كل ضَعةٍ ودنيّةٍ وإن ساقتك إليها رغائبك ونهَدَتْ إليها أشواقك، فإنَّ بذل الدين أو الشرف لأجلها خسارة العمر، وخُذ من دنياك ما تَهَيَّأ وتيسّر بسخاوة نفس وقناعة قلب، ولعلّ تسعة أعشار حزازات النفوس ستزول بغياب الطمع، فهنيئًا مريئًا لأغنياء القلوب. قال ابن الجوزي: «إنّ المفروحَ به هو المحزون عليه، غير أن عين الهوى عمياء، طائرُ الطمع يرى الحبّة لا الفخّ». وللإمام الشافعي:

---

(١) أحمد ٣/١٢٧(١٢٣١٦) والترمذي (٣٥١٢) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨١٢)

لـمّـا عفـوتُ ولم أحقـد عـلى أحـدٍ   أرحـتُ نـفسيَ مـن هـمِّ العـداواتِ

والرضا بالمكتوب لا ينفي صُنْعَ مستقبلٍ أجمل لك وللأجيال القادمة، فكن متوكّلًا لا متواكلًا، وعازمًا لا متوانيًا، وقد أهبطك الله للأرض لتعمرها بالعبادة وتعبرها بالصالحات وتتزوّد منها بُلغتَكَ لدارك في الآخرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. وسرُّ جمالِ الحياةِ البساطةُ، فالحياة سهلة وعيشها يسير إن رأيتها كذلك، لكنّها شديدة التعقيد إن تعاملت معها بتعقيد، والإكسير موجود لكنه السهل الممتنع: إنه القناعة.

إن كـان لا يُغنيـك مـا يكفيكـا   فكـلُّ مـا في الأرض لا يُغنيكـا

والتكلّف مُنغِّصٍ لطيب اللقيا، والمثاليّة قتّالةٌ للإبداع. وكم من بيتٍ عامرٍ إلا من أهله، وآخر مُقِلٌّ إلا من أُنْسِ سكانه ودفء أرواحهم وقرب قلوبهم لقلوبهم.

وإنّ العبرة ليست في مظاهر الدنيا وأقنعتها الجميلة، بل في حقائق القلوب ورغائبها الأصيلة، وبها تنتهي إليه غدًا برضا رب العالمين أو سخطه؛ فعلام الغفلة عن الأمر الكبير. والكثير من المظاهر الجميلة التي نراها في الناس تخفي تحتها بؤسا لا يطاق، ولكن الناس يخفون الأسى ويظهرون السعادة، فاحمد الله كثيرًا على العافية.

ولا عـارَ إن زالـتْ عـن الحُـرِّ نعمـةٌ   ولكـنَّ عـارًا أن يـزول التجمُّـلُ

ومن نعيمك غير المنظور: أنّ الله قد عزّ ماء وجهك فلم يُهرق للئيم، فما قطع عنق كريم كحاجته عند من لا يكرم وفادة سؤاله. وعلى سبيل الراحة؛ تجرّعِ القناعة.

لا تَحرَصَنْ فالحِرْصُ ليسَ بِزَائدٍ   في الرزق بل يُشقي الحريصَ ويُتعِبُ

وإنّ نابتك نائبة فاذكر فضل الله عليك ثلاثًا؛ إذ لم تكن في دينك، وكانت أهون من أختها، ورُزقت احتسابها عند الله، كما قال عمر[1]. وإنّ من شُكرِ النعمة؛ أن تحمدَ الله عليها وإن قلّت، مستشعرًا حرمان غيرك منها، فإن شكوت زوجك؛ فغيرك لا زوج له، وإن أتعبك ابنُك؛ فغيرك لا ابن له، وإن شكوت قلة مالك ودنوّ مرتبة عملك؛ فغيرك لا عمل له وقد كسرت ظهره الديون، وإن شكوت ضَعة نسبك؛ فغيرك لا نسب له ولا يعرف حتى والديه، وإن شكوت ظلم أحد؛ فاذكر من تقصفهم الطائرات والمدافع وهم بين قتيل وسجين ومشرد ومفقود ومُغتصبٌ في حريمه ومفتون في دينه، وإن شكوت ضعف صحتك؛ فتذكر من هم على الأسرة البيضاء ممن لا يُحرّك أيّ عضوٍ، أو يتجرع الكيماوي لدفع السرطان، أو يغسل كليتيه كل يومين، أو لا ينام لشدة الآلام، بل تذكّر من تحت الأرض قد اخترمتهم المنون، ولقطتهم المنايا، وحيل بينهم وبين العمل للآخرة، وتذكر ستر الله عليك وقد هُتك سترُ غيرك، وحرّيَتك في أرض الله وغيرك قد حُكم عليه بدفنِ عمره خلف الزنازين أو تحت الأقبية. فاحمد الله الذي لا يأتي الخير إلا من قبله، له الحمد في الأولى

(١) ورويت عن شريح القاضي.

والآخرة وله الحكم وإليه نرجع ونؤوب، سبحانه وبحمده.

واعلم أنّ الدنيا إن أقبلتْ فتنت، وإن أدبرت وعظت، وقد قال خالقُها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥] وقلّما تآخى اثنان فدخلت بينهما دنيا؛ إلا فرّقت بينهما شيئًا. وتأمل كيف تمكّن الرجيم من أبوينا بعد أن أسلما قيادهما للحرص: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ﴾ [الأعراف: ٢٢] فكن معتدلًا قنوعًا، لا هلعًا جزوعًا، ولتكن الدنيا في يدك لا قلبك.

تعالى الله يا سَلْمَ بن عمروٍ ... أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ
هَبِ الدنيا تُساق إليكَ عفوًا ... أليسَ مصيرُ ذلك للزوالِ

ولما سئل الإمام أحمد: هل يكون مع الرجل مئة ألف دينار وهو من الزاهدين؟ فقال: «نعم، إذا كانت في يده لا في قلبه». وإذا أردت أن تعرفَ هل الدنيا في قلبك أم في لا؛ فانظر حالك مع المشتبهات وقوعًا أو تورّعًا. وهل بالإمكانِ اجتماعُ الطموحِ بالقناعة؟ نعم، إن كان الطموحُ موصولًا بالدار الآخرة. وقد ذكروا أنّ النابغة الجعدي أنشد:

بلغنا السماءَ مَجدُنا وجُدُودُنا ... وإنّا لنَبْغِي فوقَ ذلك مَظْهَرَا

فقيل: إلى أين المظهر يا أبا ليلى؟ قال: الجنة، إن شاء الله.

❋ **ومن الوصايا:** احذر من أن تفرّ من التحزب إلى التحزب، ومن ذلك التحزب لشيخك ومذهبك بلا تحقيق، بل اعتصم بالوحي الذي لا يضل من

به استمسك، فالحقُّ معه حيث دار. ولا تكن ممن يتتبّعون الثغرات، ويفرحون بالسقطات، ويَفْجُرون عند الخصومات، ويفرّون من التحزب المذموم وفيه وقعوا ومنه كرعوا، ويزعمون أنهم على منهج السلف، شتّان!

ومن المهمات أن تتحفّظ في اختيار أشياخك، فاقتصر على من جمعوا العلم والورع، فعلمُك دينُك، قال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ هذا العلمَ دينٌ، فانظروا عمن تأخذون دينكم»(١). وقال الإمام الأوزاعي: «خُذْ دينك عمّن تثقُ به وترضى عنه»(٢).

* **ومنها:** التأكيدُ على ضرورة الاجتماع، وسدّ كل ذرائع النزاع والافتراق المذموم بالقول والعمل. وأولُ الاجتماع هو اجتماع القلوب على المحبة في الله والأخوّة في دينه. ومن وصاياه ﷺ: **«وكونوا عبادَ الله إخوانًا»**(٣). ويكفيك إيجابُ الله تعالى على نفسه الكريمة المقدسة بأن يُحبّ من أحبّ فيه، فيالها من كرامة ومنّة، قال رسول الله ﷺ: **«قال الله تعالى: وجبتْ محبّتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذِلين فيّ»**(٤). والأحاديث في فضل ذلك مستفيضةٌ مشهورة.

---

(١) العلل للحافظ ابن رجب (١/٣٥٥).
(٢) الجرح والتعديل ٢/٢٩.
(٣) مسلم ٨/١٠ (٢٥٦٤) (٣٢).
(٤) مالك في الموطأ (٢٧٤٤) وصححه النووي.

* **ومنها:** الالتفافُ حول العلماء الراسخين، والصدورُ عن أقوالهم، وعدمُ مزاحمتهم بمتعيلمة الأصاغر. وكلّما اتسع علم المرء؛ زاد احتماله لخلاف الناس، وكلّما استوعب أدلة المُخالفين؛ ازداد يقينًا بأنّ الحق غير محصور بإنسان خلا المرسلين. واعتبر ذلك بأنّ الراسخين هم مِنْ أقلّ منتسبة العلم خوضًا في الخلاف السائغ، أمّا المولعُ بالتشعيب والتشغيب والجدل والمراء فإنّه قد أُتِيَ من باب قلّة علمه، ونقص حكمته، وضعف نفسه، وضيق خُلُقه، وبُعدِ توفيقه. واعلم أنّ غالب من يخوض في هذه الأمور هم من مبتدئة أو متوسطة العلم، ولو سكت من لا يعلم لقلّ الجهل والجهالة.

وتأمل ما نقله الشوكاني في إرشاد الفحول[١] عن الإمام أحمد أنه قال لبعض أصحابه: «لا تحملِ الناس على مذهبك فيُحْرَجُوا، دعهم يترخّصوا بمذاهب الناس». وهذا في الخلاف السائغ لا الشاذ، والقاعدة: خذ لنفسك طاقتها في العزائم، وترخّصْ لها إن ترجّح لديك فضلُ رخصةٍ معيّنة، ولكن لا تُلزم الناس بها ما دام لهم رخصة، قال رسول الله ﷺ: **«إنّ الله يُحبّ أن تُؤتى رُخَصُه كما يكره أن تُؤتى معصيتُه»**[٢]. وفي رواية: **«كما يُحبُّ أن تُؤتى**

---

(١) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول (٢ / ٢٥٢) واقتصر ابن مفلح في الفروع وتصحيح الفروع (٣ / ١٥٢) على نقل قول الإمام أحمد: «لا تحمل الناس على مذهبك».

(٢) رواه أحمد (٢/١٠٨)، وابن خزيمة وصححه (٩٥٠) وابن حبان (٢٧٤٢).

عزائمه»[١].

وإنه لحسنٌ جدًّا أن يُولِي الشاب جودةَ سندَه العلمي عنايتَه اللائقة، فينتقي من أهل العلم في زمانه أمثلهم علمًا وورعًا قدر طاقته. وحسنٌ منه وله أن يستمع لأكثرَ من شيخ، ويَثني ركبتَه عند أكثر من عالِمٍ، ليصقلَ عقلَه بتعدد مواهبهم، وليرى خطأ أحدَهم على ضوء تأمل تقريرِ آخر. بلا حطّ قدرٍ، ولا تتبع زلة، لكنها سنّة التعليم.. قال المأمون: «لا شيء أطيبُ من النظر في عقول الرجال».

* **ومهمٌّ لطالب العلم:** أن يقتبس سَمْت شيخه المُعَزِّزِ للتواضع والرحمة والرفق والأناة ونحوها في نفسه، فصُحبةُ الشيخ حسنةٌ بذاتها، والطَّلَبُ في حلقة الشيخ خيرٌ من وراءِ وراءِ؛ كالكتب والصوتيات ونحوها، فهي - مع نفعها المؤكد - إلا أنها تُفوِّتُ ثلاث فوائد: التطبّع بسمْت الشيخ وكريم سجاياه، ومداواة الشيخ لآفات نفسِ الطالب، ودعاءه لتلميذه. والعلمُ رَحِمٌ بين أهله. ولكن هي بلا شك خيرٌ من عدمها، كما أنّها قد حازت لُبّ المطلوب وهو المادة العلمية، حتى وإن كان كاتبها قد رحل منذ مئات السنين. فالحمد لله كثيرًا على تسهيل التعلّم، فلم يبق في زماننا لطالب علم حجة في عدم مادة التحصيل.

والمقصود أنّ التتلمذ على شيخٍ بحضور دروسه وصحبته والأخذِ من

---

(١) رواه ابن حبان (٣٥٤) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٠٦٠).

سمته مفيدٌ جدًّا، ولكن ثمّ أمرٌ مخيّب، وهو أن تتحولَ الوسيلةُ لغاية، وينقلب الطريق هدفًا، وذلك حين يغلو التلميذ في تقمّص شخص شيخه فيما لا يَحْسُنُ به، كلكنةٍ أو لثغةٍ أو حركةٍ أو نظرةٍ غير مستحبة، ونحو ذلك. ومن عقابيل ذلك أن يستغرق الاقتداء بسمت الشيخ خارج المقبول، فتضيقُ نفسُه عند أدنى نقدٍ لشيخه ولو بحق وحجّة، مع تسليمه ـ نظريًا ـ بسلامة ذلك المبدأ. وقديمًا قيل: لا تنظر لعمل الفقيه، ولكن سلْهُ يصدقْك.

❋ ومن الفروع المحزنة لذلك ـ وبخاصة عند بعض مبتدئتهم ـ الإكثارُ من الكمّ المَشيخي على حساب الكيف التحصيلي. بيانُه بمثالِه: من يكثر الحضور لمشايخ متفرّقين تكثُّرًا وتزيّدًا على حساب العمق العلمي والجودة التحصيلية. ولك أن تستمع إلى بعض الشبيبة حين يتكلمون عن تقدير الطالب بكثرة أعداد من حضر لديهم ـ ولو مرة أو مرتان ـ ثم يتباهى بين لِدَاته وأقرانه حتى أصبح المشهدُ أشبه بدروشة. وفَرَّ من الموت وفي الموت وقع.

❋ **ومن الوصايا:** عند كلامك على الأقران ـ مهما كان حالهم وعلمهم ومقامهم ـ حاذر أن تلامس المقارنة بينهم، لأنّ هذا من شأنه أن يثير الحسد الكامن في قلوبهم. قال ابن تيمية: «الحسد مرض غالب، لا يخلص منه إلا القليل من الناس». ولقد صدق أبو الأسود الدؤلي إذ قال: «إذا أردتَّ أن تعظم فمُت». فالميّتُ تكبر محاسنه، وتُنسى معايبه، وتَدفنُ الرحمةُ به الحسدَ عليه. وبالتغافل عن الحُساد يستريح الفؤاد.

❋ **ومن الوصايا:** استشهد بآيات القرآن الكريم في غالب أحاديثك

ومحاوراتك حتى العادية منها، حتى يكون هدى القرآن بين عينيك مرشدًا لبصيرتك في عمايات الضلالات ومليّنًا لقلبك في زمن قسوة القلوب، ومنبهًا لعقلك في زحام الشبهات، فللقرآن سلطان على القلوب عجيب، والموفق من كان قرآنًا يتلى ويمشي على قدمين، ولا يخلو ثغره الطاهر من آيات تتلى آناء الليل وأطراف النهار.

❋ **ومن الوصايا:** احرص على الاستفادة من طلبة العلم في بلدك، فهم في الأغلب أكثر فراغًا وأقل انشغالًا ممن تُضربُ إليهم الآباط، ومتى ما وجدتَ من أحدهم قبولًا فاستمسك به ـ إن كان على السُّنة ـ ولا يزهدنّك فيه ضعف صيتٍ أو قلّة طلاب، فلعلّ هذا أدعى لنفعك وأقرب للأخذ بيدك، فالظّنّ أنه سيلتفت لك بباله ويخصّك بمزيد نصح، ولن يلهيه عنك مزاحمٌ، وكذلك لا تنس طلبة العلم من أُسرتك، فَأزهَدُ الناس في شيخ أهلُهُ، وربَّ ساكنٍ بجوار الكعبة لم يعرف قدرها. والمقصودُ: لا تفرّط في الممكن الذي بين يديك، بل اجعله من أوّلياتك في ارتقائك درَج العلم.

❋ **ومن الوصايا:** تمعّن في رسالة قليلة الكلام مليئة المعاني لعلها تروي ضمأً في صدرك العَجول، وكُلّنا كذلك: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وتشفي غلّة في جوانح نفسك السؤول، إنها رسالة (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) سطّرها يراع شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي مشهورة متداولة. كذلك تعرّف إلى نماذج تطبيقيّة من أدب العلماء السالفين والمعاصرين في الردود؛ كالشافعي وابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن إبراهيم وابن باز والعثيمين

وغيرهم، لترى الفجوة الكبيرة بين حالهم وحال كثير من متدثرة العلم بلا أدب. والله المستعان.

* وإنّ من المؤسف؛ إشغالُ الشباب الصغار عن طلب العلم وحفظ القرآن والسنة والتفقه فيهما وتزكية نفوسهم إلى الانكباب على الردود والقيل والقال ولجج الخصومات ونشر القالة بين الناس. لقد كان الطريق أمامهم نورًا ورحمة، ولكن كانوا قومًا عمين، فوا أسفًا!

فلا تفرح بالخصومة، فالحقُّ يضيعُ حينها لحظوظ النفوس. والمماراةُ حربٌ كلّ طَرَفَيهَا خاسرٌ، ولقد قال محاربٌ مُجرّب قديم: «إنّ أفضلَ طريق لكسب الحرب؛ هو تفاديها». وسألَ الإمامَ أحمد رجلٌ فقال: أكونُ في المجلس، فتُذكرُ فيه السُّنَّة لا يعرفها غيري، أفأتكلم بها؟ فقال: «أخبرْ بالسُّنة، ولا تُخاصِمْ عليها»، فعاد عليه بالقول؛ فقال: «ما أراكَ إلا رجلًا مُخاصِمًا»(١). وبنحو ذلك عن الإمام مالك رحمهما الله.

* **ومن الوصايا لطالب العلم**: احرص على جَودةِ علمك وإتقان فنّك ورسوخ قدمك في فقهه وحفظه، فاضبط المسائل بحُسْنِ تصوّرها أولًا، حتى تكون حدودُ المسائلِ الخارجة عنها المشابهة لها واضحة ممايزة لحدودها الداخلة فيها، دفعًا للالتباس والتخبط، كما أنّ ضبط ألفاظِ العلم مهم لطالب العلم، فكثيرٌ من الحروف المبثوثة لدى الناس لا تخلو من لبسٍ واشتباه، فإذا

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (١ / ٣٥٨).

ضَبطتَّ فقيّد واحفظ.

وبعد إحسانك تصوّرها؛ عليك بمعرفة أدلتها من القرآن والسنة وفتاوى الصحابة متنًا وإسنادًا، وما يتبعُ ذلك أحيانًا من الأقيسة الشرعية المنضبطة، ثم معرفة الخلاف وطرائق الترجيح. فجودةُ العلم إنما تظهرُ لصاحبها بعد إخلاص النية في تناوله، وطولِ الارتياض في طلبه، وترتيبِ التأصيل في تحصيله، وحسنِ المسلك في أخذه، والصبرِ عند تلَقّيه. ومن لا يتألّم لا يتعلّم.. وهل تزهرُ الأرض إلا إن بكى المطرُ.

* **ومن الوصايا:** ازهد في الرئاسة زُهدك في الميتة، فحبُّ الرئاسة من فروع حبِّ الدنيا، وهو آخرُ ما يسقط من رؤوس الصدّيقين، فترى الرجلَ من أزهد الناس في المال والمتاع، حتى إذا هزهزهُ منصبٌ أو رئاسةٌ؛ تهالك على تحصيله تهالُكَ الغريق بالخشبة، ونسيَ ما كان يُوعظُ به.. وسبيلُ الموت غايةُ كلِّ حيٍّ.

ولِحُب الرئاسة علامات، قال شيخ الإسلام: «وطالب الرئاسة . ولو بالباطل . ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلًا، وتُغضبه الكلمة التي فيها ذمّه وإن كانت حقًّا. والمؤمن ترضيه كلمةُ الحق له وعليه، وتغضبه كلمةُ الباطل له وعليه؛ لأنّ الله تعالى يُحِبُّ الحقّ والصدق والعدل، ويبغض الكذب والظلم»(١). وشتّان بين من وصفهم ربهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ

(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ٦٠٠).

مُحۡسِنِينَ ﴾ [الذاريات: ١٦] وبين: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴾ [الواقعة: ٤٥] والقبورُ مليئة بهؤلاء وأولئك، ونحن سِراعًا على الأثر.. ولكلِّ جيلٍ فِتَنُه.

ولا تفرح بالشهرة، فالأضواء مُحرقة، وقد كان السلف يغبطون المجتهد الخفي. وإنّ الزهد في الدنيا ليس محصورًا في المال فقط، إنّه أكثر من ذلك وأشدّ، وأهونُ الزهد هو الزهد في المال، ولكلِّ نفسٍ رُكنٌ تضعُف فيه، وبابٌ يولَجُ على حُرْمَتِها منه. وإبليسُ يشمّ القلبَ ويُدرك باب ضعفه الذي يلج منه، فاحذره. ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ ﴾ [فاطر: ٦] وكتبَ سفيان الثوري لأخٍ له: «واحذرْ حُبَّ المنزلة؛ فإنَّ الزّهادة فيها أشدُّ من الزهادة في الدنيا»(١). فازهد في الثناء، وازهد في الرئاسة، وازهد كذلك في المال، وفي كلِّ ما لا ينفعُ في الآخرة.

ومرَّ رجلٌ بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحًا وبقلًا، فقال له: يا عبد الله، أرضيتَ من الدنيا بهذا؟ فقال: «ألا أدلُّك على من رضيَ بشرٍّ من هذا»؟ قال: بلى، قال: «من رضيَ بالدنيا عوضًا عن الآخرة». وكان محمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُخرج خبزًا يابسًا فيبلُّه بالماء ويأكلُه بالملح ويقول: «من رضي من الدنيا بهذا؛ لم يحتج إلى أحد». وكان أبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ يومًا جالسًا في الناس فأتته امرأتُه فقالت له: أتجلس بين هؤلاء، واللهِ ما في البيت هفَّةٌ ولا سَفَّةٌ، فقال: «يا هذه، إنّ بين أيدينا عقبةً كئودًا لا ينجو منها إلا المُخِفّون»، فرجعت

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٨٧).

وهي راضية رحمهما الله. قال شيخ الإسلام: «إخراجُ فضولِ المال والاقتصار على الكفاية أفضلُ وأسلمُ وأفرغُ للقلب وأجمعُ للهمِّ وأنفعُ في الدنيا والآخرة»(١). قال رسول الله ﷺ: **«من كانت الدنيا همَّهُ؛ فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له، ومن كانت الآخرة نيّته؛ جمعَ الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»**(٢).

قُمْ في الدِّجَى واتلُ الكتاب ولا تنمْ ... إلا كنَومةِ حائرٍ ولْهانِ
فلربَّما تأتي المنيّةُ بغتةً ... فتُساقُ من فُرُشٍ إلى الأكفانِ
يا حبَّذَا عينانِ في غَسَقِ الدُّجَى ... من خشيةِ الرحمن باكيتانِ
أعرِضْ عن الدنيا الدنيئةِ زاهدًا ... فالزهدُ عند أولي النُّهى زُهدانِ
زهدٌ عن الدنيا وزهدٌ في الثناء ... طوبى لمن أمسى له الزُّهدانِ

* **ومن الوصايا:** دع ما لا يعنيك. فمن انشغل بعيوب نفسه وتحصيل مصالحها؛ اشتغل عن عيب غيره وتتبع أموره. قال طاووس بن كيسان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نِعْمَ صومعةُ الرجلِ بيته؛ يكف فيها سمعه وبصره».

إنّ عمر الإنسان للدنيا كعمرِ شهابٍ عابرٍ بالنسبة لعمره، وبعدَ فوات الأوان ستدرك أنّك قد أهدرت بلا طائلٍ أثمنَ ما لديك: وقتك. وتذكّر أنّ صلاحيةَ جسدك قرابةَ الستين سنة أو السبعين، وهو معرّض للتلف قبلها، ومُعتركُ المنايا من الستين إلى السبعين، فمن تجاوز السبعين فهو من القليل..

(١) الفتاوى (١١/ ١٠٨).
(٢) ابن ماجه (٢/ ٥٢٤ -٥٢٥) وصححه الألباني في السلسلة (٢/ ٦٧١).

ولو علمَتِ الوردةُ قِصرَ عمرها ما تبسّمَتْ.

فهـــنّ المنايـــا أيّ وادٍ ســـلكتُه   عليهـا طريقــي أو عــليّ طريقُهَـا

وفي العشرين بدايات نضج العقل حتى الأربعين مع طروء عوارض طيش. ومن الأربعين حتى الستين استحكام العقل والجسد، وغالبُ منجزات البشر قد نحتوها في خريطة الزمان وهم في هذه المرحلة التي تُعَد رأس الهرم الإنساني. وحقيقٌ بها بعد الستين أن يُسمّى العمر الجميل، إذِ اجتمع فيه الهدوء والسكينة والراحة والحكمة والزهد لمن سلم من آفات الروح. وإن كان هناك أمورٌ تُعكّرُ صفاء الروح وهدوء النفس في تلك المرحلة النفيسة من العمر، ولكن يمكن تلافيها بالرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا.. كفى الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيا.

دَعْ عَنكَ ما قَدْ فات في زَمَنِ الصِّبا   واذكـر ذنوبـكَ وابكهـا يـا مـذنبُ
واخـشَ مناقَشَـةَ الحِسَـابِ فإنَّـه   لا بـدّ يُحصى ـ مـا جنيـتَ ويُكتـبُ
لم يَنسَـهُ المَلِكـانِ حـين نَسِـيتَه   بَــل أَثبَتَــاهُ وَأَنــتَ لاهٍ تَلعَــبُ
والــروحُ فيــكَ وديعــةٌ أودِعْتَهـا   سـترُدُّها بـالرغم منـكَ وتُسـلبُ

فيا صاحب العشرين والثلاثين: اعلم أنّ أكثر أهلَ القبور من الشباب. ويا من طرقت الأربعين والخمسين: هلّا تنبّهت إلى أنّك في ثلث عمرك الأخير إن سرتَ كما رحل الأكثرون، ويُسارُ بك وإن لم تسِر، وتأمل طلائعَ مشيبك فهي رسل نضوج ثمرة العمر التي اقترب قِطافُها.

ويا أيها الكهل الستيني: أَعْذَرَ اللهُ إليكَ أنْ بلّغَكَ الستين فما عُذْرُك إليه!

فيا محطةَ الرحيل الأخير: أغلقي باب الإقلاع؛ فقد حان السفرُ للآخرة، وقد أنْجدَ من رأى حَضنًا، ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨]. قال ابن الجوزي: «أعجبُ خلائقِ الخلائق: محسنٌ في ليل شبابه، فلمّا لاح الفجرُ؛ فَجَر».

أضحتْ خَلاءً وأضحى أهلُها احْتَمَلوا　　أَخْنَى عليها الذي أَخْنَى على لُبَدِ

وكلّ ذنب. مهما تعلّقت نفسُك به. سيأتيك يومٌ وترحلُ عنه للأبد، إن لم يكن بتوبتك واختيارك؛ فبعجزك أو وفاتك، فاتركه الآن قبل ألا يتركك غدًا أمام الديّان. وعند دنو الرحيل؛ تُشرق حقائقُ الضمائر، فالزمخشري الذي قعّد لنفي الصفات الاختيارية عن الله تعالى، لمّا دنت وفاته؛ لم يرحل إلا وقد طبع الكاغد بماتع ابتهاله: يا من يرى مدّ البعوض جناحها.

وتفكّر طويلًا في آية طه فهي كافية في تعريةِ جسدِ الدنيا وكشفِ حقيقةِ زيفها: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]. وما بكت العرب على شيء كما بكت على الشباب، وقد بكاه الفضلاء والعقلاء والعلماء والعُبّاد.

شَيئَانِ لَوْ بَكَت الدُّمُوعَ عَلَيهِمَا　　عينَايَ حتى يُؤذِنَا بذَهَابِ
لم يَبلُغَا المِعشَارَ مِنْ حقَّيهِما　　فَقدُ الشَّبابِ وفُرقَةُ الأَحبابِ

فلماذا هذه اللوعة على مرحلة عمريّة مضت؟ الجواب: أنّ الصالحين يبكونها لأنها النشاط والقوة لصالح الأعمال، فالشابّ يتهجّد ما شاء من الليل، فيتّخذ الليل جَمَلًا يحمله لعِلّيّين، ولا يشتكي حكّةَ جِلْدِهِ وضعْفَ نفَسِهِ ووهنَ عظامِهِ، ويحفظ ما شاء من القرآن والأذكار والعلم فلا تخونه ذاكرته

بضعفه وتشويشه ونسيانه، ويصوم ما شاء ولا يشتكي ضعفه وظمأهُ وهزاله، ويضرب وجوه الكافرين بيده لا يشتكي عجزه وارتخاءه وزمانته، ويقرأ ما شاء من كتاب الله بقوةِ بصرٍ وصفاء ذهن واستظهارٍ للتدبر والتفكّر، وغير ذلك من العبادات التي يساعد على التلذُذ بها وقودُ الشبيبة. فتلذَّذ بطاعات مولاك قبل ذبول الجسد وانحناء الظهر وصياح نقيِّ العظام من أمراض الشيخوخة.

ونُحْتُ على الشبابِ بدمع عينِي فـمَا نَفَـعَ البُكـاءُ ولا النَّحِيـبُ
فَيَـا ليـتَ الشَّـبابَ يعـودُ يومًـا فـأُخبرهُ بـمَا فَعَـلَ المَشِـيبُ

أما من بكى عليه لضياع شهواته؛ فقد خاب وخسر، بل الأَولى أن يفرح بها مِنْ هذه الحيثيةِ؛ كي لا تشوّش عليه مسيره الذي اقتربت نهايته. وقد سئل شيخ كبير حكيم عن حالِه مع كِبَره فقال بفرح: «الحمد لله، ذهب الشبابُ وشرُّه، وأقبل المشيب وخيرُه، إن قمتُ؛ قلتُ: باسم الله، وإن قعدت؛ قلتُ: الحمد لله، فأنا أحبّ هذا الخير».

ولو عقلنا قيمة وقتنا ما أضعناه، إن مجموع دقائق اليوم والليلة (١٤٤٠) دقيقة، فكم للآخرة منها؟ كم لكتاب الله منها؟ كم لما ينفعك غدًا منها؟ أم نسيتَ أنك مجموعة أيام؟ وأنّ كلَّ ثانية تهدم من عمرك ثانية. قال القتيل الشاب: طَرَفةُ بنُ العبدِ:

أرى العـيشَ كنـزًا ناقصًـا كـلَّ ليلـةٍ ومـا تُـنقِصُ الأيـامُ والـدّهرُ يَنْفَـدِ

إنّ الحياة غالية جدًّا، ولا تُبذل إلا لما هو أغلى وأحب، والوقتُ هو

الأجزاء المُقيمة لهذه الحياة، فلا يُجاد به إلا لما هو أنفس، فيا هذا: وقتُك هو حياتك. ألم ترَ أن الزمن يمضي أسرع من أن نتأمله! هكذا هي الأعمار، فكلها أيام باقية دونها أيام، ونستكمل رزقنا في هذه الدنيا، ثم نرحل عنها إلى ربنا. ولقد قال السلف: «علامةُ المقتِ؛ إضاعة الوقت».

وقِيَادُ النفس كقياد الدابة، فإن حزمت معها وعودتها الجد اعتادت، وإن ارتخيت وتكاسلت فهي للفشل والخيبة مُنقادة، ولكن عليك بحزم حكيمٍ وهو بين الشدة المُتلفة والإرخاء المُهمل.

والنفس كالطفل إن تتركه شب على ... حبّ الرضاع وإن تفطمه ينفطمِ

وقِفْ قليلًا: هل أنت مستعدٌّ للرحيل، هل تعرف لماذا خُلقت، وماذا يُراد منك وبك، وكم بينك وبين الآخرة من وقت، ألا تعرف من قد سبقك ورحل عنك. هل رأيت وجه الموت بحادث أو مرض ونحوه ثم توارى عنك؟ اعلم أنها رسالة لك من الدار الآخرة، فاجعلها منك على ذُكْرٍ، وللحميد شاكرًا حامدًا مُحِبًّا، وتدبر قول رب العزة والجلال في شأن قول ذلك الإنسان وهو يرى جهنم تزفر أمامه: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] لتعلم أنّ حياتك الحقيقية إنما هي في الآخرة، أما الدنيا فسراب.

ما أنتَ إلا كزرعٍ عند خُضرتِهِ ... بكلّ شيء من الآفات مقصودُ
فإنْ سلمتَ من الآفات أجمعها ... فأنتَ عند كمال الأمرِ محصودُ

إنّ عالمك الحقيقي هو منزلتك عند الله تعالى، أما الدنيا فلن تتغيّر بعد موتك، بل ستستمرُّ كما كانت حتى اجتماعكم عند الخلّاق العظيم، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ

أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣] قال الحسن: «يومان وليلتان لم تسمع الخلائق بمثلهن قط: ليلةٌ تبيتُ مع أهل القبور ولم تبتْ ليلة قبلها، وليلةٌ صبيحتُها يوم القيامة». وتأمل ذلك النداء المشفق من عسكرِ الأموات:

كأنّك بالمضيّ إلى سبيلك ... وقد جدّ المُجهِز في رحيلك
ولم تحمل سوى كفن وقطنٍ ... إليهم من كثيرك أو قليلك
فسوف تجاور الموتى طويلًا ... فذرني من قصيرك أو طويلك

وكان السلف يقولون: الأرزاقُ تتنزّلُ في البكور، والأعمالُ تُرفع آخر النهار، والذنوب تُغفر في السَّحر. فلا تفوّت هذه الغنائم بغفلة أو نوم. وقد ذمَّ الله قومًا لخوضهم فيما لم يأذن به، فكان من ندمهم أن قالوا يوم القيامة: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥] فلا تكن منهم.

قال عمرو بن قيس الملائي: مرّ رجلٌ بلقمان والناس عنده، فقال له: ألستَ عبد بني فلان؟ قال: بلى، قال: الذي كنت ترعى عند جبل كذا وكذا؟ قال: بلى، فقال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: «صدق الحديث، وطول السكوت عما لا يعنيني»[(١)]. وقال مورّق العجلي: «أمرٌ أنا في طَلَبِهِ منذ كذا وكذا سنة، لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه أبدًا، قالوا: وما هو؟ قال: الكفّ عما لا يعنيني»[(٢)]. فالأمر يستحق المجاهدة. وعن الحسن قال: «مِن علامة إعراض

---

(١) جامع العلوم والحكم (١ / ١١٥).

(٢) جامع العلوم والحكم (١ / ١١٦).

الله تعالى عن العبد؛ أن يجعل شغله فيما لا يعنيه، خذلانًا من الله عز وجل»[١]. وقال سهل بن عبد الله التستري: «من تكلّم فيما لا يعنيه؛ حُرِمَ الصدق، ومن شغل جوارحه بغير ما أمره الله به حُرِم الورع»[٢]. وقال معروف: «كلام العبد فيما لا يعنيه؛ خذلانٌ من الله عز وجل»[٣].

فيا طالب العلم والعبادة: احذر قال وقيل، فهي مُذهبة لبركة العلم والعمل، وعليك بركائز العلم النافع، وأنوار العمل الصالح، واملأ وقتك وصدرك وروحك وعملك بالوحي العظيم. واحفظ لسانك عما لا يعنيك، فقد توفي رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ فقال رجل: أبشر بالجنة، فقال رسول الله ﷺ: **«أو لا تدري، فلعلّه تكلّم بما لا يعنيه، أو بخلّ بما لا يغنيه»**[٤]. وجِماعُ ذلك قول رسول الله ﷺ: **«مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه»**[٥]. فَحَسِّنْ إسلامك - رعاني الله وإياك - . ومن جميل ما قالوا: «تَمْضِيةُ وقتك بالسعي لإدخال نفسك الجنة، أولى بك من السعي لإثبات أنَّ غيرك سيدخل النار».

(١) جامع العلوم والحكم (١ / ١١٦).
(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٤/ ٢٦٩).
(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ١١٦).
(٤) الترمذي (٢٣١٦). وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٢٩٢): «روي معنى هذا الحديث من وجوه متعدّدة عن النبي ﷺ، وفي بعضها أنّه قُتل شهيدًا».
(٥) ابن ماجه (٣٩٧٦)، والترمذي (٢٣١٧) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣ / ٤٩) (٤٨٣٩).

لذا فمن المهمات: أن ينشغل طالب العلم بما ينفعه مما خُلق لتحقيقه وهو العبادة، وألّا يستغرق وقته فيما لا ينفع، حتى وإن نَزَعَتْ نفسُه إليه وحاولت تزيينه في عينيه، فلها مع العقل مسارب وحِيَل تُتِيهُهُ فيها أحيانًا، فلا يصحو إلا بعد مضي زمان من نفيس عمره.. فقد ذهبت ليلى فما أنت صانعُ!

ولكم سلبت شبكاتُ التواصل من أوقاتٍ لو صرفت في عمارة آخرة أو حراثة دنيا؛ لكانت ثمارها نافعة، ولكنّها فتنة الزمان وهي الثقب الأسود للأوقات. وأشدّ من ذلك السيلُ المغرق بالشبهات والشهوات في هذا العصر. وإنه لمن الغبن الشديد أن ترى عدوّك يشاركك في تربية ولدك رغمًا عنك، فقد دخل بقنواته وأفلامه وأفكاره لداخل غرف نومهم، والله المستعان.

ولك أن تعلم أن العمليّات الذهنية لطلب العلم كالحفظ والتفهّم والتأمل ونحوها يحتاج العقل فيها نَفْسًا صافية، غير مزدحمة المشاعر فرحًا أو ترحًا أو غيره، لذلك أرشد الله تعالى لناشئة الليل وقرآن الفجر، لأن الذهن فيهما أصفى ما يكون. فأين ذهنك في تلك الأوقات!

ومن ذلك الخذلان: الاشتغالُ ـ الزائدُ ـ بالسياسة وتتبّعها والحديث عنها، وتناولُ تفاصيلِ أحداثها مما صحّ وما لم يصح، والطيرانُ مع وكالات الأنباء ومراسلي الأخبار وناقلي الأحداث بعجرها وبجرها وصدقها وكذبها، فالنفسُ بطبعها متشنّفة لمعرفة أخبار الناس وماجرياتهم، ولكن العقل يلجمها بأنَّ أمامها عقبات كؤود لا بدّ لها من اجتيازها بقرابينِ الصالحات، وليس بتتبع قيل وقال ووُلد ومات.

وقد قال رسول الله ﷺ: **«إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»**(١) والسياسة من ألفها إلى يائها هي من قيل وقال.

فالاستغراقُ في تفاصيل السياسة، وتتبع أخبارها، مع العجز عن التثبّت، وعن التأثير الإيجابي؛ خطأ منهجي، وهذا الأمر - على نفعه - لا يستحقُّ البتَّةَ مزاحمتَهُ لأمور العبادة الكبرى، فإنّا لم نُخلق لدهاليز السياسة ووحلها، بل خلقنا لما هو أسمى. وفي تتبع مواضيع أحداث السياسة ونحوها يكفينا حديث النبي ﷺ: **«من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**(٢). ويدخل فيما لا يعنيه ما لا قدرة له على التأثير فيه.

وفي السياسة المعاصرة للدول غالبًا تظل الحقائق والتوجهات والمنطلقات والبواطن مغيّبة عن العامة، وجُلّ ما نراه من تحليلات إعلامية مبناها على ظنون وتسريبات موجهة. وفي السياسة والحرب لا تُصدّق ما تراه بعينك وتسمعه بأذنك، فأنت في زمن التدليس والخداع، والأرضُ مليئة بالكَذَبة. ولا تثق بأعداء ربك وإن لبسوا جلود الضأن، فغايةُ الذئب لا يراها الأعشى، ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ [النساء: ٨٩] فإيّاك ودجل الإعلام، فكلّ الإعلام مُسيّس، شعرَ الناس أم لم يشعروا، ورسائلُه المبطّنةُ أخطرُ من المباشرة، وقد علمنا مصبّه، ولكن السؤال الكبير: أين منبعه؟!

---

(١) مسلم (٣٢٤٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٧) وصححه الألباني. الروض النضير (٢٩٣ و٣٢١).

وثمّة فروق بين الجهل المطبق المَعِيب بمجريات السياسة العامة، وبين استغراق العمر في متابعة ومسابقة أخبارها وتحليلاتها. والخير في التوسّط بلا إفراط ولا تفريط. وتكفي المؤمن في معرفة أحداث السياسة المعاصرة: المجملاتُ والأخبار العامة من مصادرها النقية قدر المستطاع، ويستثنى من ذلك من كان له تأثيرٌ فيها؛ فيتتبّع لينفع.

وإنّ مما يزهّدك في السياسة علمُك أنّ أكثر المتصارعين في الميدان ومعهم جمهرة المتفرجين والمعلّقين والمصوّرين يتحركون ـ دون أن يشعروا ـ ضمن خطة مدير المباراة!

هذا ويعيب مواضيع السياسة المعاصرة أمران:

الأول: انتشارُ الكذب وإشاعته، واشتباه الباطل بالحق. وكيف لا يكون ذلك وخَمسُ وكالات أخبار غربية هي المسيطرة على قرابة ٩٠٪ من حركة الأخبار حول العالم، وبالطبع فهي توظّفها لمصالحها ولو على حساب الحقيقة. والمؤمن كيّسٌ فطن، وكما قال عمر: «لستُ بالخِبِّ ـ أي المخادع ـ ولا الخِبُّ يخدعني».

الثاني: تشعُّبُ الأخبار وكثرتها جدًّا بحيث تستغرق زمانًا طائلًا نفيسًا.

ومن الفروع الخطرة للانشغال الزائد بالسياسة: جرفُ الشباب لأمور لا تطيقها فهومهم ولا تحتملها علومُهم؛ كتكفيرِ الحكومات، ووصف الولاة بالطواغيت، وجندهم بجند الكفرة، وشعوبهم بالمرتدّين، ونحو تلك المهالك والبواقع التي هي داخلةٌ تحت نهيِ النبي ﷺ عن التكفير إلا بحقّه، وما هذا بسبيل الربّانيين.

ولو أنّ هؤلاء الشباب انشغلوا بما يُفيدهم في قابل أيامهم، وبما يبني حصون علمهم في مستقبل زمانهم؛ لسلموا بإذن الله من كدر الشقاق ووضَرِ الفُرقة ودخان الفتن. فالعلم حصن حصين لصاحبه في أزمنة الفتن، فكأيِّن من فتنةٍ تروق مرآها حماسات القلوب وبداهات العقول وفورات العواطف، حتى إذا انجلتْ؛ كشفت عن سوء عاقبة وبشاعة مآلٍ. وفي صحيح البخاري: باب الفتنة التي تموج كموج البحر: «وقال ابن عيينة عن خلف بن حوشب: كانوا[1] يستحبّون أن يتمثلوا بهذه الأبيات عند الفتن: قال امرؤ القيس:

الحربُ أوّلُ ما تكون فَتيَّة ... تسعى بزينتِها لكلِّ جَهُولِ
حتى إذا اشتعلتْ وشَبَّ ضِرَامها ... وَلَّتْ عجوزًا غيرَ ذاتِ حليلِ
شَمطاءُ يُنكَرُ لونُها وتغيَّرت ... مكروهةً للشمِّ والتقبيلِ»[2]

ولكم يحزّ في نفسي بشدة مرأى شباب في عمر الزهور وميعة الصبا، يتقحّمون أمور الأمة الكبار، التي لا يُصدر فيها إلا عن مجامع فقهية، فيفتون في المسائل العظام رعونة وجهلًا. فخيرٌ لك. يا أيها الموفّق. الانصرافُ عن هذه الفتن المدلهمة كافّة، والانشغال بالتحصيل النافع والعمل الصالح والعبادة

---

(١) أي: السلف.

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا في الفتن باب الفتنة التي تموج كموج البحر. (٩/ ٠) وقال الحافظ في الفتح (٥٣/١٣): «وصله البخاري في التاريخ الصغير عن عبد الله بن محمد المسندي، حدثنا سفيان بن عيينة. وقال أيضا: والمحفوظُ أنّ الأبيات المذكورة لعمرو بن معد يكرب الزبيدي، كما جزم به أبو العباس المبرد في الكامل».

الدائمة. ومن أُعجب بنفسه سقط لأنْفِهِ، وقد بَدَعَ الفرزدقُ بيتًا وحلف بالطلاق أنّ جريرًا لا ينقُضُه فقال:

فـإنّي أنـا المـوتُ الـذي هـو نـازلٌ بنفسِـكَ فـانظر كيـف أنـت محاولـه

فبلغ ذلك جريرًا فقال على البديهة: أنا أبو حَرْزَة طلقتِ امرأتُه:

أنا الدهرُ يُفني الموتَ والدهر خالدٌ فجئنِي بمثـلِ الـدهرِ شـيئًا يطاولُـه

وقد قصد بالدهر الزمان.

* **ومن الوصايا:** تواضع، فالتواضع في موضعه رفعةٌ وعزٌّ، والله تعالى قد جعل أكرم الناس أتقاهم، لا أنسبهم ولا أعلمهم ولا أكثرهم مالًا وولدًا وجاهًا، وتعظُم الرزية حين يكونُ المتفاخِرُ طالب علم! وتأمّل كيف كان الرجل يدخل على الرسول ﷺ وهو بين أصحابه فيسألهم: أيّكم محمد؟ لقد كان ﷺ مدرسةً متكاملة في كل خصال الخير. وقد كانت جواري الحيّ الصغيرات ينتهين بغنمهن إلى أبي بكر الصديق فيقول لهن بكل تواضع: «أتُحبِبْنَ أن أحلبَ لكنَّ حَلْبَ ابن عفراء»؟[(١)].

فحدّث نفسك على الدوام ألّا تظن أنها أفضل من أحد من المسلمين، فإن أبت فذكّرها الثلاث: أنّك لا تعلم باطِنَه؛ فقد يكون خيرًا من باطنك، ولا تعلمُ قَبولك عند ربك؛ فقد تكون أعمالك رُدّت، ولا تعلم خاتمته وخاتمتك. ويا أيها الفاني تواضع. واعلم أنك ترتفع وتسمو في قلوب الناس على قدر

---

(١) ابن سعد في الطبقات (٨/٣٦٤).

اتّضاعك العفويّ لهم، وتسقطُ من عيونهم وتتّضع في صدورهم على قدر ترفّعك عنهم وتكبّرك عليهم.

وإنّ لكل إنسان قصةَ حياة كاملة، قد تكون أعجب مما تتصوّر، وله أحاسيسه المُفعمة بألوان المشاعر مهما رأيت فراغ كينونته، وكلّ شَخص لدَيه قصة حُزنٍ بداخله، فرِفقًا بِمن تحبُون، ولا تحقرنّ من البشر أحدًا.

وتأمل مليّا أول قصة في التاريخ. واعلم أن بعض صورها يتكرر فيك وبك، فتدبر واستلهم العبر. إنها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وكن كأبيك الصالح لا عدوِّك الرجيم. وإن رأيت من أحدٍ ذنبًا تتعاظَمُهُ؛ فلا تحجُرَنَّ عنه رحمة الله وهدايته، فإنك لا تعلم خابيته ولا خاتمته، ولقد قال عامر بن ربيعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يومًا: «لا يُسلم الذي رأيتُ - أي عمر - حتى يُسلم حمار الخطاب!» فما هو إلا زمن ليس بالطويل؛ وإذ بعمر قد صار وزيرًا مُقرّبًا لرسول الله ﷺ، وعزًّا للإسلام، وغيظًا للشيطان وحزبه، وأميرًا للمؤمنين.

واعلم أنّه ليس من عادة الصدرِ الأوّل تصديرُ الأسماء بألقاب التفخيم كسموّه، ومعاليه، وفضيلته، ولا بحرف الدال والميم، ولا تقديم النسب على الاسم، بل كانوا أهل تواضع وبساطة وعفويّة. كما أنّه ليس من شرط العلم والثقافة نيل الشهادات العُرفيّة، فالرافعي والعقاد اللذان أسمعا آذان الدنيا شهادتُهما هي الابتدائية فقط، كما أنّ بعض كبار العلماء وفحول الفقهاء ونحارير العلم في هذا الزمان ليس لهم شهادة ولا منصب أصلًا، فلا تغترّ



بالزبد وانفذ للصَّريح.

لقد رفع الإسلامُ سلمانَ فارسٍ   وأذلّ الشركُ الشريفَ أبا لهب

هذا وإن الأصل في الفخر بالنسب هو المنع مهما كان شرفُهُ إلا في الحرب، وذلك لأمرين:

١ . عمومات النهي عن التفاخر بالحسب والنسب، ولا استثناء إلا بدليل.

٢ . أنّ شرف النسب لا يخلو من كونه نعمةً في الدنيا فيكون حاله كالمالِ والمتاع ونحوه؛ فلا يُشرع الفخر به، أو أن يكون نعمةً دينية كالإيمان والفقه؛ فالمنعُ من التفاخر به آكد.

ومهما يكن من أمر؛ فالمرءُ لا يوزن بماله ولا نسبه ولا لحمه، بل بدينه وعلمه وعقله وأدبه. قال شيخ الإسلام: «ليس في كتاب الله آيةٌ واحدةٌ يُمدح فيها أحدٌ بنسبه ولا يُذمُّ أحدٌ بنسبِه»(١).

وقال الرجيم يومًا مفتخرًا بأصله، متعاليًا على نبي كريم، خلَقَه الله بيده، ونفخ فيه من روحه: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢] فمَنْ تعَالى على الناس بنسبه؛ فشيخُهُ إبليس، ومن تعالى عليهم بماله؛ فشيخُه قارون، وعلمٌ لا يقرّب من الله؛ لا خير فيه. وخيرُ أصلٍ تنتسب إليه هو أصل الإسلام ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] فهو النّسبُ الذي يستحق الغبطة حقًّا.

---

(١) الفتاوى (٣٥/ ٢٣٠).

وتفكّر في العِندية في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣] وتأمل قوله ﷺ: **«أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»**(١). فحتى في مقام السيادة على جميع البشر؛ تبرّأ من الافتخار على أحدٍ منهم، فهو يتحدّثُ بنعمة الله لا يفتخر. وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «غلط من ألغى فضيلة الأنساب، وغلط من ظنّ أنها تفضيلٌ بتعيين الشخص، والحقُّ أنّها فضيلةُ جُملة، وفضيلةٌ لأجل المظنّة والسبب، أما فضيلة التقوى ففضيلة تعيين»(٢). ومثال ذلك في معادن الأرض لمن ينقبون عن الذهب، فنراهم يُركّزون البحث في بقاعٍ معيّنة أكثر من غيرها، لأنّه في الأغلب تكثر فيها عروق الذهب أكثر مما عداها، مع علمهم أنّه قد توجد في البقاع التي رغبوا عنها عروق أفضل وأجود مما ظنّوه في الأولى، فالمسألة مسألة غلبة ظنّ بوجود الصفات الحسنة في كذا وكذا، وقد لا توجد في الحقيقة، وقد توجد ناقصة، وقد يوجد في غيرها أفضل منها. ومن ذلك أنّ جنس المهاجرين أفضل من جنس الأنصار، ولكن يوجد من الأنصار كسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعبادة بن الصامت وعبّاد بن بشر وغيرهم أشخاص أفضل من كثير من المهاجرين، فعاد الأمر للمَظِنَّة والأغلبية، لا التعيين بالذات، وبكل حال:

إن يختلف ماءُ الوصالِ فماؤنا ... عذبٌ تحدّرَ من غمامٍ واحدِ

---

(١) أحمد (٣/٢) وابن ماجه (٤٣٠٨) والترمذي (٣١٤٨ و٣٦١٥) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٣٠٨).

(٢) درء التعارض (٤/٦٠٣).

أو يختلــف نســبٌ يؤلــفُ بيننــا ديـــنٌ أقمنـــاه مقـــام الوالـــدِ

ولا تهتم للون بشرتك في الدنيا، فمصيرها للدود، ولا لنسبك فهو للفناء، ولكن اهتم لبياض وجهك غدًا بين يدي ربك ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وإنما يُحمدُ المرء بما له تصرُّفٌ فيه؛ كخُلُقه الحسن، وعلمه النافع، وعمله المبرور، وسجاياه الكريمة، أما ما سواه فلا يعوَّل عليه. وعلى المؤمن أن يقنعَ بقدَرِ الله له مما ليس له حيلةٌ في كسبه ولا دفعه؛ كجنسه ولونه ونسبه وزمانه، ومن الضياع مدافعة ذلك. وعند عتبةِ الموت تذوبُ كل الفروق.

وإنّ جمالُ الصورة وعدمها ليس بمُكتَسب، فلا يُذمُّ المرء على أمرٍ لم يصنعه لنفسه، لكنّ الأخلاق مُكتسبة، فهي محل الحمد والذمّ. ولما سأل نبيلٌ فرنسي فولتيرَ عن نسبه ليضع من قدره أجابه: «يا هذا، نسبُكَ ينتهي بك، ونسبي يبدأ بي»! ومنه قول الأول:

إنّ الفتـــى مـــن يقـــول هـــا أنـــا ذا لـــيس الفتـــى مـــن يقـــول كـــان أبي

ومما يؤلم المؤمنَ أنَّ نبرةَ الازدراء للعنصر المختلف لا تزال سائدة لدى كثير من المسلمين، بل حتى بين المتدينين، فلا يزالُ بعض قومنا إذا ذكر العنصر المختلف بلونه أو نسبه أو شكله أو جنسيته أو إقليمه قال: ذاك البدوي، أو الحضري، أو القروي، أو العبد، أو طرش البحر، أو الشروق، أو صفر سبعة، أو الخضيري، أو الصانع، أو المتسعود، أو المتجنس وهكذا، وليس مراد

كثيرهم التوضيح بل نظرة الدون، وهذا التلوّث المعياري لا يسلم منه بلدٌ من بلاد الإسلام، لكنه يزداد في بلدٍ عن غيره بحسب نفخة الشيطان لأهله، وربُّ العزة يقول: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] فبئسًا لأوضار الجاهلية، وتعسًا لمروط الخيلاء!

أبِي الإســـلامُ لا أب لي سِـــواهُ ... وإن افتَخـــرُوا بقـــيسٍ أو تمـــيمِ

ولا بد للمؤمن من إسباغٍ خُلُقيّ وتوازنٍ عقلي إزاء الناس، وأن يعلم أن الخير فيهم منوط -فقط- بتقواهم، ومن التقوى حسنُ الخلق وطيبُ المعاملة وزكاء العمل وحسن السيرة ونقاء السريرة ولين الجناح وتواضع الجبين وطُهر الخبايا، وأنّ من فاق في التقوى فقد فاق.

فالأفضلية الحق هي الأفضلية في هذا الميزان الذي نصبه الرحمن: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فمن كان عند الله كريمًا فهو الكريم عند كل مؤمن، وهذا من محكّات الدين في صدور أهله، فالمؤمن لا يتردد في ذلك مهما تلوَّمت ألسنة الجاهلين، وتلوّنت أخلاق المُتعصّبين، وتصعّرّت خدود المتكبّرين! إذن فليست موازين الناس بأموالها ولا أحسابها ولا أنسابها ولا أبشارها، بل لا شيء سوى التقوى(١).

وإنّ من خيبات المفارقات أن أُناسًا يستعيبون العمل في بعض المهن - هي

---

(١) وقد رقمت في ذلك حروفًا في رسالة أسميتها: «كفاءة النسب وزيوف الجاهلية».

في ذاتها محتقرة ـ كالحجامة ونحوها أشدّ استعيابًا من أعمالٍ يأخذون عليها مالًا بدل شرف! حالهم كما قال شوقي: رُبّ قارض للأعراض وعرضه بين شقّي المقراض.

وَما حاجَتي بِالمالِ أَبغي وُفورَهُ إِذا لَم أَفِر عِرضي فَلا وَفَرَ الوَفرُ
وقالَ أُصَيحابي الفِرارُ أَوِ الرَدى فَقُلتُ هُما أَمرانِ أَحلاهُما مُرُّ
وَلَكِنَّني أَمضي لِما لا يُعيبُني وَحَسبُكَ مِن أَمرَينِ خَيرَهُما الأَسرُ

وأحسن أبو الطيب إذ قال:

يهون علينا ان تُصابَ جسومُنا وتَسلم أعراض لنا وعقولُ

والعِزَّة عن بصيرة حكمة وتوفيق، والتواضعُ عن علم وإرادة نبلٌ وشموخ، والشريف اذا ارتفع تواضع، والوضيع اذا ارتفع تكبّر، وميتةُ النقاء خير من حياة الدَّنس. وكما قال الإسبان: لا بأس إن كان جيبك فارغًا ما دامت قبعتك مرتفعة.

إذا المرءُ لم يَدنَسْ من اللؤمِ عرضُهُ فكلُّ رداء يرتديه جميلُ

ولست بصدد تحريم أو منع أو ذكرِ كراهية لمهنة أو عمل؛ لكنما المقصد تشريح الحقيقة عبر ميزان النظر، وتبيين الصورة بكل ما حواه الإطار، ذلك أنّ المقارنة الصادقة - حتى وإن طعنت نون الهدوء - تبقى هي العقار الناجع حتى وإن خاب أمل السامع من لينِ رفقِ الناصح، لأنّ الرفقَ زينٌ كلُّه، فإن كان وإلا فالكمال عزيز، والعبرة بالحقائق الناصعة الناصحة حتى وإن شاب

رونقَها جفافٌ ما عنه مناص.

والحرّ تكفيه الإشارة فيميّزُ ذهبَ الحروف عن نحاس الحُتوف. وسلامُ الله وصلاته وبركاته وإنعامه على أرفقِ روحٍ وألطفِ لسانٍ وأرقِّ حاشيةٍ وأحنِّ مهجةٍ وأصدق إحساس.

وعند طروءِ الحسبِ والسلالة الطيبة التي عُنيت بمعالي الأمور على قلب العاقل؛ فإنها تُثمرُ الهمَّة العالية، وسموَّ النفس عن سفساف الأمور، والبعدِ عن كلّ ما يشين، وتدفُّقُ في صدره التواضع الصادق. أمّا إن وردت قلب السفيه؛ فإنها تثمر الكبرَ، والغرور، والتّيه، والدوران حول ذواتٍ قد فَنَت، والفخرَ بما ليس له، والغفلةَ عما خُلِقَ له. ومَنْ تواضع ارتفع، ومن تعالى اتّضع، ولا يتواضع إلّا من كان واثقًا بنفسِهِ، ولا يتكبَّر إلا من كان عالمًا بنقصهِ.

لسنَا وإن كَرُمَتْ أوائلُنا ... يومًا على الأحساب نتّكلُ
نَبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعلُ مثلَ ما فعلوا

ومن فروع ذلك؛ كثرةُ الحديث وطول النقاش عند مسألة التفضيل والمساواة بين الذكر والأنثى، والذي ينتهي إليه فضلاء العقلاء: أنّ المسألة في جوهرها: تكاملٌ لا تفاضل.

نعم، جنس الذكر أفضل بنص القرآن ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، أما من حيث الأفراد فالأنثى التقيّة أفضل وأكرم ممن دونها في التقوى من الذكور مهما كثروا، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولكن لا ينبغي أن يكون هذا محور النقاش، بل المحور الصالح للحوار: كيف نصل لتكامل بين الجنسين بحيث يستغرق كل جنس فيما خُلق لأجله فيكمل حاجته بشقه الآخر، ولا يتجاوز حدّه فيما لم يؤذن له فيه، فيتعاونان ويتكاملان لإقامة عبودية الله تعالى في أرضه.

فالرجل له مقوّماته ومهامّه وتكاليفه التي هَيّأ الله جسده وروحه وعقله لاحتمالها كالقتال في سبيل الله وشهود الجمعة والجماعة والقوامة على الأهل بجلب القوت والرعاية والحيطة ونحو ذلك، والمرأة لها مقوّماتها ومهامّها وتكاليفها كحفظ البيت ورعاية الصغار وإعانة بنات جنسها ونحو ذلك، فيجتمعان في أصول التكاليف الشرعية التي جامعها عبودية الله تعالى، ويفترقان في بعض تفاصيل المهام الحياتيّة والعبادية، فللرجل مساره وللمرأة مسارها، وهذا المساران يجمعهما الطريق الأعظم وهو عبادة الله تعالى.

وخيرٌ لك ألّا ترى ذاتك. فكن في غبراء الناس، إن حضرتَ لم يأبهوا لك، وإن غبتَ لم يَفقدوك. واكسرْ صولةَ عُجبِك بتذكُّرِ ذنبك، وتَعاظُمَ نفسِك بنقصك وفنائك، وحِرصِك بحتم قضائك، وطولِ أملك باقترابك كلّ مرحلة من موعد رحيلك. واعبر الدنيا بالعبادة، ولا تعمرها بالغفلة. وأحسِنْ علاقتك بالحي القيوم، ثم الْتَحِف بقيّةَ عُمُرِك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أراد الله بعبده خيرًا؛ سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه، والإخبار بها من لسانه، وشغَلَهُ برؤية ذنبه، فلا يزال نُصبَ عينيه حتى يدخل الجنة». فمن التوفيقِ لكلّ ناصح لنفسه: أن يجعل نصب

عينيه دومًا ذنوبًا سالفة، وأن يستعظمها بلا قنوط، كسرًا لسورة الكبر في نفسه، وقرْعًا لصولة عبادته وتديّنه، وما أقرب التائب من ربه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فيا صاحبي: كن متواضعًا في غير خنوع، صادقًا في غير غفلة، شريفًا في غير تيه. واعلم أنّ علامة العظَمة: التواضع، وأمارة الجبن: البطش بالضعيف، وبرهان العقل: الاستعداد للقاء الله تعالى. والورع قيد التقوى، والتقوى جماع الخير. وإذا أردت تعلّم فنٍّ؛ فاعترف بجهلك به أوّلًا.

* **ومن الوصايا:** الْزَمْ جَبَلَ الوفاء، فهو الصفة التي تهشّ لها جميعُ الأفئدة على اختلاف المشارب والأديان. والوفاءُ مرآة صادقة على جمال باطن الوفيّ، وما أعزّ الأوفياء. وإذا أردتَّ رؤية الجمال الحقيقي للوفاء؛ فتأمل فقط قبح الخيانة.

وجرّبنا وجرّبَ أولُونا فلا شيءٌ أعزُّ من الوفاءِ

وإن وعدت فأنجز، ولا يكن رعدُكَ أكثر من ودْقِك، وأنْجَزَ حُرٌّ مَا وَعد، ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] فالمؤمن وفيٌّ بعهده وعَقْدِه وعِشْرَتِه، وحُسنُ العهد من الإيمان.

وإنّي لا أكاد أملك دمع عيني حين أطالع خبر إمام الأوفياء صلوات الله وبركاته عليه حين وَفَى للناقة في الحديبية جميلها، ولم يرض أن تُذمّ بما ليس فيها، فإنّها لما برَكَت به قال الناس: حَلْ حَلْ، فَأَلَحَّتْ، فقالوا: خلأتِ القصواءُ، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: **«ما خلأتِ القصواءُ، وما ذاكَ لها بِخُلُقٍ،**

ولكن حَبَسَها حابسُ الفيل»[(١)]. هنا الوفاء النادر منه ﷺ للصاحب حتى وإن كانت بهيمة عجماء، فكيف لمؤمن كريم! اللّٰهم صل وسلم وبارك عليه وآله.

لذلك لا غرابة في وفائه في إقرارِ السّدانة لبني شيبة، مع أنه غير ملزم به في أعراف العرب، فالمنتصر غير ملزم بسياسة المنهزم، ولكنه جَبَلُ الوفاء وشمسُه وقمرُه، فليس بمستغربٍ منه هذا الوفاء. قال السهيلي في سرد فتح مكة: «ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله اجْمَعْ لنا الحِجابة مع السقاية صلى الله عليك؛ فقال رسول ﷺ: **«أين عثمان بن طلحة؟»** فدُعي له فقال: **«هاكَ مفتاحُك يا عثمان، اليومُ يومُ بِرٍّ ووفاءٍ»**[(٢)]. وكلّ أيامه بِرٌّ ووفاء ﷺ، لكن قالها تأكيدًا على تعظيم حرمَة البيت الحرام.

وتأمل وفاءه ﷺ لذكرى حبيبته خديجة حين تزورُه أختُها هالةُ بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فيتذكّر بصوتِها صوتَ الفقيدة الراحلة، حتى تغار الصدّيقة من هذا الوفاء العزيز الجميل، بل وفاءه لصديقات خديجة حين كان يهدي لهن اللحم لأجل ذكراها، وتأمل تأثّره الشديد لما رأى قلادتها حينما أرادت ابنته زينب فداء زوجها بها.

ومواقف الوفاء الهائلة منه ﷺ لا يكاد الصدرُ يطيقُ تذكّرها كلّها مجتمعة

---

(١) البخاري (٣ / ١٩٣) (٢٧٣١) ومعنى خلأت: أي بركت وحَرَنَتْ بلا علّة.

(٢) الروض الأُنُف (٤ / ١٧١).

إلا بعد قوّةٍ ويقين، فوارِدُها شديدُ القوّة على المحلّ المُحبِّ لذلك الإنسان الكامل ﷺ، فالشعورُ بها وإمرارُ صورِها أمام عين القلب الوامقِ؛ يَحْطِمُه بأمواجِ حراراتِ الشوقِ واللهفة والحب والوفاء، فصلى الله وسلم وبارك على من كان للوفاء إمامًا وَفِيًّا.

سيبقى لكم في مُضمَرِ القلبِ والحَشا　　سريــرةَ حُــبٍّ يــوم تُـبلى الــسرائرُ

إنّ الوفاء خلقٌ أصيل وسجيّة كريمة لا يُوفّق إليها إلا ذو نفس طيبة ومَغْرَسٍ عذب، والوفاء من أخص صفات العربي الكريم، فالعرب إذا رأوا زهرَ العَرَار؛ اشتاقوا لنجد، وإذا رأوا الأراك؛ حنّوا لتهامة.

تمتّــعْ مــن شَــميمِ عَــرَارِ نجــدٍ　　فــما بعــد العشــيّةِ مــن عَــرَار

* **ومن الوصايا:** معرفةُ قدر النفس ونقصها وضعفها وعجزها وهواها. فاحذر - حرسك الله - العُجْبَ والتّيه، فمن الناس من لا يرون لغيرهم فضلًا، ولا يرعون له في الدين والعلم حرمة ورحِمًا، حتى وإن علا كعبه في الدين والعلم والفضل والسابقة، بل حتى لو كان من الربانيين الراسخين وممَّن شاب فوداه في رياض العلم والدعوة والخير. فنرى من بعض شرسي الأخلاق وقليلي الحياء - بل قد يكون ممّن تتلمذ على ذلك العَلَم الربّاني - من يقرع وجه الشيخ بأوحشِ القول وأنكى التّهم وأرذل القالات، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]. بعضهم كأنما عناه الخزاعيُّ دَعْبَل:

أَمّــا الهِجــاءُ فَــدَقَّ عِرضُــكَ دونَــهُ　　والمَــدحُ عَنــكَ كَــما عَلِمــتَ جَليــلُ
فَاذهَــب فَأَنــتَ طَليــقُ عِرضِــكَ إِنَّــهُ　　عِــرضٌ عَــزَزتَ بِــهِ وَأَنــتَ ذَليــلُ

❋ **ومن شريف الوصايا:** خَفِ اللهَ تعالى في الغيب، فذلك معيارُ التقوى، ودليلُ الصدق، وبرهان الإيمان. وهي بإذن الله من أعظم وسائل الثبات على دين الله حتى الممات، وضدُّها من أوسع أبواب الانتكاسات عياذًا بالله رب البريّات. وقد أثنى الله تعالى على من خافه بالغيب فقال: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ﴾ [المائدة: ٩٤] وقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨] وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] ومن خوّفك حتى تأمنَ خيرٌ لك ممن أمّنك حتى تخاف.

وإذا افتقــرتَ إلى الــذخائر لم تجــد ذُخــرًا يكــونُ كصــالحِ الأعــمالِ

ولنا وقفةٌ يسيرةٌ في مقارنةٍ بين أصحاب محمدٍ وأصحاب موسى عليهما الصلاة والسلام في خشية الله بالغيب، وفي الجهاد:

ففي حفظ الله بالغيب: مَكَرَ اليهودُ واحتالوا في السبت طمعًا في الصيد؛ فمسخهم الله قردة. ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]. أما الصحابة المرضيون فإنّهم حين أحرموا؛ تركوا الصيد وهو بين أيديهم وفي متناولهم. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ﴾ [المائدة: ٩٤]. قال مقاتل بن حيان: «أنزلت هذه الآية في عُمرة القضيّة الحديبية، وكان الوحشُ والطير والصيد يغشاهم في رحالهم، لم يروا مثله قطّ فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون، ليعلمَ الله من يخافه بالغيب، وليعلم من يطيعه في سره

وجهره»(١). أي ليظهر علمُه في الغيب في عالم الشهادة.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ١٩٣) وقد ذكر الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية خبرين فيهما عِبَرٌ تربوية عالية، فقد نقل بسنده عن ميمون بن مهران: «أنّ أعرابيًّا أتى أبا بكر قال: قتلت صيدًا وأنا محرم، فما ترى عليَّ من الجزاء؟ فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأبي بن كعب وهو جالس عنده: ما ترى فيها قال؟ فقال الأعرابي: أتيتُك وأنت خليفةُ رسول الله ﷺ أسألك، فإذا أنت تسأل غيرَك؟ فقال أبو بكر: وما تُنكر؟ يقول الله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمرٍ أمرناك به».

وهذا إسناد جيد، لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق، ومثله يُحتمل هاهنا. فبيّن له الصدّيقُ الحكمَ بِرِفْقٍ وتؤدة، لمّا رآه أعرابيًّا جاهلًا، وإنما دواء الجهل التعليم، فأمّا إذا كان المعترض منسوبًا إلى العلم، فقد ذكر ابن جرير بسنده عن قبيصة بن جابر قال: «خرجنا حُجّاجًا، فكنّا إذا صلّينا الغداة اقتدنا رواحلنا نتماشى نتحدّث، قال: فبينما نحن ذات غداة إذ سنح لنا ظبي، فرماه رجلٌ كان معنا – وعند ابن أبي حاتم: وهو مُحْرِمٌ – بحجرٍ فما أخطأ خُشَّاءَهُ – وهو العظم الدقيق العاري من الشعر الناتئ خلف الأذن – فركب رَدْعَهُ ميتًا – أي خرَّ لوجهه على دَمِهِ – قال: فعظّمنا عليه، فلما قدمنا مكة خرجتُ معه حتى أتينا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فقصّ عليه القصة قال: وإلى جنبه رجل كأن وجهه قلب فضة – أي سِوارٌ من فضة ويعني عبد الرحمن بن عوف – فالتفت عمرُ إلى صاحبه فكلمه قال: ثم أقبل على الرجل فقال: أعمدًا قتلته أم خطأ؟ قال الرجل: لقد تعمّدت رميه، وما أردتُّ قتله. فقال عمر: ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ، اعمد إلى شاة فاذبحها وتصدق بلحمها واسقِ إهابَها ـ أي تصدّق بجلدها لمن يدبغه ويستقي به، والإهاب هو الجلدُ قبل الدباغ ـ.

قال: فقمنا من عنده، فقلت لصاحبي: أيها الرجل، عظِّم شعائر الله، فما دَرَى أميرُ المؤمنين =

وعن أبي قتادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كنتُ يومًا جالسًا مع رجال من أصحاب النبي ﷺ في منزلٍ في طريق مكة، ورسولُ الله ﷺ أَمَامَنا، والقومُ مُحرمون وأنا غير مُحْرِم عام الحديبية، فأبصروا حمارًا وحشيًّا. وأنا مشغولٌ أخصفُ نعلي. فلم يؤذِنُوني(١)، وأحبّوا لو أنّي أبصرتُه. وفي رواية: فرأيتُ أصحابي يتراءون شيئًا. وفي رواية: يَضحكُ بعضُهم إلى بعض، فنظرتُ فإذا حمارٌ وحشيّ، فقمتُ إلى فرسي فأسرجتُه، ثم ركبتُ ونسيت السوط والرمح، فقلت لهم: ناولوني السوط والرمح، قالوا: والله لا نُعينك عليه، فغضبتُ فنزلتُ فأخذتها، ثم

=

ما يفتيك حتى سأل صاحبه: اعمد إلى ناقتك فانحرها، ففعل ذاك. قال قبيصة: ولا أذكر الآية من سورة المائدة: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ - وتأمل حماسةَ الشباب وطيشَ الإنكارِ بلا علم - قال: فبلغ عمر مقالتي، فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدِّرَّةُ. قال: فعلا صاحبي ضربًا بالدِّرّة، وجعل يقول: أقتلتَ في الحرم، وسفّهتَ الحُكْم؟ قال: ثم أقبل عليَّ فقلتُ: يا أمير المؤمنين، لا أُحلُّ لك اليوم شيئًا يحرم عليك منّي، - قال العلامة أحمد شاكر في هامش تحقيقه لتفسير الطبري (١٠ / ٢٥): يعني أنّه لما أقبل عليه عمرُ وعرف أنه ضاربه كما ضرب صاحبه؛ رَهَّبَ عمرَ وأخافه بقوله: إنّه لن يحلّه من ضرب بشرةٍ هي عليه حرام إلا بحقّها. فلذلك هاب عمر أن يضربه كما ضرب صاحبه. فانظر إلى ما طُبِعَ عليه أسلافنا من حريّة الطباع وما وَقَذَ الإسلامُ من عرامهم حتى كفّ عمر يده مخافة أن يصيب من أبشار المسلم حرامًا لا يحلّ له إلا بحقّه-.

قال عمر: يا قبيصة بن جابر، إنّي أراك شابَّ السن، فسيحَ الصدر، بيّنَ اللسان، وإنّ الشابَّ يكونُ فيه تسعةُ أخلاقٍ حسنة وخلقٌ سيءٌ، فيُفسدُ الخلقُ السيئُ الأخلاقَ الحسنةَ، فإيّاك وعثراتِ الشباب».

(١) أي لم ينبهوني ويخبروني عن الصيد.

ركبتُ فشددتُ على الحمار فعقرتُه، ثم جئتُ به وقد مات، فوقعوا فيه يأكلونه. ثم إنهم شكُّوا في أكلهم إياه وهم حُرُمٌ، فرُحنا، وخبأتُ لرسول الله ﷺ العضدَ معي، فأدرَكْنا رسولَ الله ﷺ، فسألناه عن ذلك فقال لهم: **«هل منكم أحدٌ أَمَرَهُ أن يحمل عليه، أو أشار إليه»؟** قالوا: لا، فقال: **«كلوا ما بقي من لحمه، إنّما هي طعمة أطعمكموها الله، هو حلالٌ، هل معكم منه شيء»؟** فقلت: نعم، فناولتُه العضدَ فأكَلها(١)، وهو محرم(٢).

أما في الجهاد في سبيل الله وحسن الأدب معه: فيكفينا ما حدّث به عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لقد شهدتُ من المقداد مشهدًا لَأن أكون أنا صاحبه أحبّ إلي مما عدل به: أتى رسولَ الله ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: والله يا رسول الله، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤] ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيتُ وجه رسول الله ﷺ يُشرقُ لذلك، وسرّه بذلك(٣).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ شاورَ حيث بلغه إقبالُ أبي سفيان، قال: فتكلّم أبو بكر؛ فأعرض عنه، ثم تكلم عمر؛ فأعرض

---

(١) أكل منها تأكيدًا لحلّها، وقطعًا لوارد التأويلات.

(٢) البخاري ٤ / ٢٩ (١٨٢٤) ومسلم ٢ / ٨٥٤ (٦٠ / ١١٩٦).

(٣) أحمد (١٣٢٩٦) ومسلم (٢٨٧٤).

عنه[١]، فقال سعد بن عبادة: إيّانا يريدُ رسولَ الله، والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نُخيضَها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا»[٢]. إنّهم أصحابه وكفى! اللّهم ارض عنا معهم يا كريم.

ولم يكن الله سبحانه ليختار لنبيه سوى صفوة أمته وخلاصتهم ممن سيحيطون به ويحملون رسالته ويصونون شريعته، فهم صحابته الذين مات وهو راضٍ عنهم واثقٌ بهم محبٌّ لهم. فلهم عند ربه مكارم خاصة بهم، لا يدانيهم لها أحدٌ من الأمة مهما علا كعب فضله، فقنطرتهم بعيدة المنال بل مستحيلة النوال؛ لأنّ سبب فضلهم قد انقطع عما بعدهم. ومن تأمّل سيرتهم؛ أيقن صدقيّة تفضيلهم، فلا كان ولا يكون مثلهم.

وعلى المسلمين أن يحذروا كسرَ باب الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فالطعنُ فيهم يتعدّى بالتضمّن للطعن في رسالتهم وهي الإسلام الخالص، وهذا من أهم

---

(١) لأنهما من المهاجرين، وهنا قد أراد الأنصارَ لأجل بيعة العقبة، فقد كانت بيعتهم له ﷺ أن ينصروه في المدينة، لذلك أراد أن يطمئن لسماحةِ نفوسهم بنصره خارجها. وقد فهم المغزى النبويَّ سيّدُ الخزرج سعد بن عبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقام وقال تلك المقالة العظيمة المشكورة، والله أعلم.
وحبُّ الأنصار إيمان، وبغضهم نفاق. وقد قال عمير بن وهب فيهم وفي المهاجرين لمّا أرسلته قريش؛ لينظر حال المسلمين ذلك اليوم: «ولكنّي قد رأيتُ يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع». قال حسان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:
وإنكَ لن تلقى منَ الناسِ معشرًا ... أعَــزَّ من الأنصَارِ عِزًّا وأفضَــلا

(٢) أحمد (١٣٧٠٣) ومسلم (١٧٧٩).

ملاحظ الدفاع عنهم. وجُملةُ ما رُوي مما يغضّ منهم؛ لا يخرج عن أن يكون مُختلَقًا، أو مزيدًا، أو منقوصًا، مع قليلٍ صحيح ينغمر في بحر فضلهم. فممّا يُؤسف له أن بعض المكثرين من الإخباريين فيهم تحاملٌ وكذب كأبي مخنف والواقدي وابن الكلبي وغيرهم.

ومن تأمّلَ طبيعة الطاعنين واللامزين وتدرّجهم في النيل من الصحابة؛ وجد أنّ القاعدة الابتدائية المضطردة له تبدأ بالقدح في كاتب الوحي معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. لذا فعِرضه هو البوابة التي تدخل منها عاديات الروافض وأشباههم. وقنطرةُ سب الصحابة هي استباحة عرض خال المؤمنين معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وعنهم. وتأمّل قول ابن المبارك رَحِمَهُٱللَّهُ: «معاويةُ عندنا محنة، فمن رأيناه ينظر إليه شزرًا؛ اتّهمناه على القوم». يعني الصحابة. وقال الربيع بن نافع الحلبي رَحِمَهُٱللَّهُ: «معاوية سترٌ لأصحاب محمد ﷺ، فإذا كُشف الرجل الستر؛ اجترأ على ما وراءه»[1].

---

(١) وفوق ذلك؛ فلِمعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مناقب خاصة، منها كتابته الوحي، ودعاء رسول الله ﷺ له، فعند الترمذي (٣٨٤٢) وحسنه، ورجاله ثقات، عن النبي ﷺ أنه قال لمعاوية: **«اللّٰهم اجعله هاديًا مهديًّا»** وأخرج الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٢٧) عن العرباض بن سارية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اللّٰهم علّمه الكتاب والحساب، وقِهِ العذاب»**. وأخرج البخاري (٢٩٢٤) من طريق أم حرام بنت ملحان رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أوّل جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا»** قالت أم حرام: قلت: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: **«أنت فيهم»** ثم قال النبي ﷺ: **«أوّل جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر** ـ أي القسطنطينية ـ **مغفورٌ لهم»** فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال:
=

=

«لا». ومعلوم أنّ معاوية هو قائد الجيش الأول، وابنه يزيد هو قائد التالي. قال ابن حجر معنى أوجبوا: أي فعلوا فِعلًا وجبت لهم به الجنة.

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لا تذكروا معاوية إلا بخير». وعن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال بعد رجوعه من صفّين: «أيّها الناس؛ لا تَكرهوا إمارة معاوية، فإنّكم لو فقدتموها؛ رأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها، كأنها الحنظل». وقيل لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية؛ فإنّه ما أوتر إلا بواحدة، قال: «إنّه فقيه». وسأل رجلٌ المعافى بن عمران فقال: يا أبا مسعود؛ أين عمر بن عبد العزيز من معاوية بن أبي سفيان! فغضب غضبًا شديدًا وقال: «لا يُقاس بأصحاب محمد ﷺ أحدٌ، معاويةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كاتبُه وصاحبُه وصهرُه وأمينُه على وحي الله عز وجل». وعن الأعمش أنّه ذُكر عنده عمر بن عبد العزيز وعدله، فقال: «فكيف لو أدركتم معاوية»! قالوا: يا أبا محمد؛ تعني في حلمه؟ قال: «لا والله، بل في عدله». وعن قتادة قال: «لو أصبحتم في مثل عمل معاوية؛ لقال أكثرُكم: هذا المهديّ». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «واتفق العلماء على أنّ معاوية أفضلُ ملوك هذه الأمة، فإنّ الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوّة، وهو أوّل الملوك، كان مُلْكُه مُلكًا ورحمة». مجموع الفتاوى (٤ / ٤٧٨) وقال: «فلم يكن من ملوك المسلمين خيرٌ من معاوية، ولا كان الناس في زمان ملك من الملوك خيرًا منهم في زمان معاوية». منهاج السنة النبوية (٦ / ١٤٣) وقال ابن خلدون: «إنّ دولة معاوية وأخباره؛ كان ينبغي أن تُلحق بدول الخلفاء الراشدين وأخبارهم، فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة».

إنّ معاوية من سادة الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، والصحابة مرضيون قد جاوزوا القنطرة، فلا بد إذن من النظر لما رُوي عنه بعدل وبنظرة شمولية كليّة، لا مجرد صور مجتزأة من سياقاتها، أو روايات مُفردةٍ من مجمل الأحداث المؤثّرة فيها. فما ورد مما شَجَرَ في فتنة الاقتتال له محاملُ يجدها سليمُ الطويّة على الأصحاب كلّهم، كتأخيرِ المبايعة

=

=

للاقتصاص من القتلة دون طلب الخلافة، ثم دخول أهل الفتنة بين الفريقين. ولله تعالى في ذلك حُكْم وحِكَم يُحمد عليها، ونحو ذلك مما أورده الأئمة من معاذير له ولأصحابه ترفَعُهُم فوق مستوى شبهات حبِّ السلطة ونحوها، إنّما هي أولويات رأوا تقديمها مع عدم علمهم بما سيترتب على ذلك من مآسي، فمعلومٌ أنّ ثَوَران وتسارع وتشابك الأحداث الكبار؛ تجعل حليم القوم حيرانًا، مع التسليم بأنّ أَوْلَى الطائفتين بالحق هو عليّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

كذلك ما ذُكِر من تولية ابنه يزيد لِمَا ظنّه يؤول لحفظ بيضة الأمة من التصدع ووحدتها من الانشقاق، بعدما رأى أنهارَ الدماء من قبل، هذا وقد نتّفق أو نختلف مع رؤيته، ولكن لا بد من أخذ هذه الغاية الجليلة في الاعتبار. فابنه يزيد ليس كما رواه الإخباريون واتهمه أعداؤه به من الفسق واللهو والفجور، فهو من جملة التابعين، وله سياسته وحزمه، لولا تساهله مع قتلة السبط الشهيد الحسين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وعدمُ اقتصاصه منهم، فقد اكتفى بسبهم ولعنهم، ولم يثبت أنه أمرَ بذلك، أو فرح به، أو أهان أهل الحسين، بل أكرمَهم، قال ابن الصلاح رحمه الله: «لم يصح عندنا أنّه أمرَ بقتله».

ومعلوم أنّ الوالي تبعٌ لمن ولّاه، مبتغٍ مرضاته في أفعاله إلا من خشي الله وراقبه وأخلص له، واعتبِرْ ذلك برجلٍ من سادة التابعين هو سعيد بن المسيب رَحِمَهُٱللَّهُ، فقد جَلَدُه والي المدينة من قِبلِ ابن الزبير ستين سوطًا، لأنّه تخلّف عن البيعة، فلمّا علم ابن الزبير بذلك؛ عَزَلَ واليه، وفي عهد عبد الملك جَلَدَهَ واليه من قبله ستين سوطًا أُخرى وسَجَنَه؛ لأنّه لم يبايع بولاية العهد لابنيه الوليد وسليمان، فلما علم عبد الملك؛ اكتفى بعتب رقيق! وكان ابن المسيب يقول: «اللهُ بيني وبين من ظلمني».

ورجع بنا القول ليزيد: ففعلُهُ بأهل الحرّة أشدُّ من تقصيره في الاقتصاص من قتلة الحسين، ووقعة الحرّة: هي الواقعة التي كانت بالمدينة في زمن يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين. وسببُها أنّ عبد الله بن حنظلة وغيره من أهل المدينة وفدوا إلى يزيد

=

=

فرأوا منه ما لا يصلح، فرجعوا إلى المدينة فخلعوه وبايعوا عبد الله بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وأرسل إليهم يزيدُ مسلمَ بن عقبة الذي سمّاه الناس بعدها مسرفَ بن عقبة، فأوقع بأهل المدينة وقعةً عظيمة، وقتل كثيرًا جدًّا من الناس، واختلف في أعدادهم. فقد ولّى يزيدُ على الجيش مسرف بن عقبة. وقد سأل مهنّا بن يحيى الشامي الإمامَ أحمد عن يزيد، فقال: «هو فَعَلَ بالمدينة ما فعل». قال: وما فعل؟ قال: «قتل أصحاب رسول الله ﷺ، وفعل». قال: وما فَعَل؟ قال: «نَهَبَهَا». والرواية هنا ثابتة إلى الإمام أحمد، ولكن التي لا تصحّ هي التي تومئ إلى تجويزِ الإمامِ للعنِ يزيد، وهي التي أخرجها أبو يعلى الفراء بإسناده إلى صالح بن أحمد بن حنبل، قال: قلت لأبي: إنّ قومًا يُنسبون إلى تولية يزيد، فقال: «يا بنيّ؛ وهل يتولّى يزيد أحدٌ يؤمن بالله»! فقلت: ولم لا تلعنه؟ فقال: «ومتى رأيتني ألعن شيئًا، ولم لا يُلعن من لعنه الله في كتابه! فقرأ قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣]» ا.هـ. قال شيخ الإسلام: «هذه الرواية التي ذُكرت عن أحمد منقطعة، ليست ثابتة عنه، ثم إنّ الآية لا تدلّ على لعنِ المعيّن».

فالثابتُ أنّ الجيشَ قد قتل ونهب المدينة النبوية، أمّا القول بأنّه استباحها باغتصاب النساء؛ فلم يثبت بسند صحيح، بل جُلُّ رواتها من الشيعة، أو المتهمين بالكذب، أو من الضعفاء، أو أنّها رويت بانقطاع. مع أنّ الاستباحة في حروب العرب هي استباحة المال، ولا يلزم منها استباحة النساء. وقد فنّد الدكتور عبد العزيز نور الروايات التي ذكرت استباحة الجيش للمدينة، وخلص لتضعيفها في كتابه: «أثرُ التشيّع على الروايات التاريخية في القرن الأول الهجري». وسئل الحافظ عبد الغني المقدسي عن يزيد بن معاوية فقال: «خلافته صحيحة، وقال بعض العلماء: بايعه ستّون من أصحاب النبي ﷺ، منهم ابن عمر. وأما محبته: فمن أحبّه فلا يُنكر عليه، ومن لم يحبّه فلا يلزمه ذلك، لأنّه ليس من الصحابة الذين صحبوا رسول الله ﷺ، فيلزم محبتهم إكرامًا لصحبتهم،

=

=

وليس ثمّ أمرٌ يمتازُ به عن غيره من خلفاء التابعين، كعبد الملك وبنيه، وإنما يُمنع من التعرّض للوقوع فيه؛ خوفًا من التسلّق إلى أبيه، وسدًّا لباب الفتنة». ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٣٤) ومع ذلك؛ فيبقى يزيدُ من جُملة المسلمين، ولعلّ مسرفًا قد أسرف في القتل بدون أمره، وقد لا يكون كذلك! وبكلّ حالٍ؛ فهو قائدُ الجيش الذي أخبر ﷺ فيهم أنّهم قد أوجبوا. فالعدلُ أن نَكِلَ أمره إلى الله، وقد أفضى إلى ما قدّم. ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

ويروي ابنُ كثير أنّ عبد الله بن مطيع مشى من المدينة هو وأصحابه إلى محمد بن الحنفية، فأرادوه على خلع يزيد؛ فأبى عليهم، فقال ابن مطيع: إنّ يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدّى حكم الكتاب. فقال محمد: «ما رأيتُ منه ما تذكرون، قد حضرتُه وأقمتُ عنده؛ فرأيتُه مواظبًا على الصلاة، متحرّيًا للخير، يسأل عن الفقه، ملازمًا للسنة». قالوا: ذلك كان منه تصنّعًا لك، فقال: «وما الذي خاف منّي أو رجا حتى يظهر إليّ الخشوع؟ ثُمَّ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك؛ فإنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم؛ فما يحلّ لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا». قالوا: إنّه عندنا لحقٌّ، وإن لم نكن رأيناه، فقال لهم: «أبى اللهُ ذلك على أهل الشهادة، ولستُ من أمركم في شيء».

وقال شيخ الإسلام: «افترق الناس في يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ثلاث فرق طرفان ووسط.. والقول الثالث: أنّه كان ملكًا من ملوك المسلمين، له حسنات وسيئات، ولم يولد إلا في خلافة عثمان، ولم يكن كافرًا، ولكن جرى بسببه ما جرى من مصرع الحسين وفعل ما فعل بأهل الحرة، ولم يكن صحابيًّا ولا من أولياء الله الصالحين. وهذا قول عامة أهل العقل والعلم والسنة والجماعة. ثم افترقوا ثلاث فرق: فرقة لعنته، وفرقة أحبّته، وفرقة لا تسبّه ولا تحبه، وهذا هو المنصوص عن الأمام أحمد، وعليه المقتصدون

=

=

من أصحابه وغيرهم من جميع المسلمين». مجموع الفتاوى (٤ / ٤٨١) وانظر: الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار د. الصلابي (٢ / ٣٣٢).

قلت: فأمير المؤمنين معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأى أنّه إن مات ولم يستخلف؛ فستعود الفتنة جذعة، وهذا ما لا يُطيقه قلب مؤمن، فاستشار أهلَ الشام، فاقترحوا أن يكون الخليفة من بعده من بني أمية، فرشّح ابنه يزيد، فأجابه أهل الشام ومصر وغيرهم، ثم أرسل إلى المدينة يستشيرها؛ فخالفه الحسين وابن الزبير وابن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، وكلّهم أفضل من ابنه، ولعلّه خاف الافتراق والاختلاف؛ فألزمهم بيعته، خاصّة وأنّ مع ابنه مزيّةُ الجند وطاعةُ أهل الشام والكثرةُ والخؤولةُ في بني كلب، فظنّ أنّ سيُحسم الأمر قبل التفاقم. قال ابن خلدون رحمه الله في مقدمته (٢٦٢/١ ، ٢٦٣): «والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه؛ إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد حينئذٍ من بني أميه، إذ بنو أمية يومئذٍ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنّه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهمّ عند الشارع، ولا يُظنّ بمعاوية غير هذا، فعدالتُه وصحبته مانعة سوى ذلك، وحضورُ أكابرِ الصحابة لذلك وسكوتهم عنه؛ دليلٌ على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق، فإنهم كلهم أجلّ من ذلك».

وبالجملة فمن انطلق من قلب سليم وفرح بوجود العذر؛ فسوف يجد لمعاوية أعذارًا فهو من جملة المجتهدين، ومن اجتهد بعدلٍ؛ كان بين الأجر والأجرين. وأمّا من بدأ بسريرة غشٍّ ودغل؛ فسوف يجد من المرويات المُرسلة ما يُطعم حقده، والله الموعد. ثم يأتينا اليوم مِنْ فَجَرة الفَسَقة من يحكم عليه بالنفاق والردة! ألا شُلَّ لسانُ من لَحِقَ الآل أو الأصحاب بسوء.

=

ولقد كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتمنّى أنه كان طيرًا يؤكل أو شجرة تعضد مع بشارته التامة بالجنة، وبنحو ذلك قال عثمان وطلحة وعائشة وهم بالجنة مبشّرون، ومن الناس من يمشي بين الناس آمنًا مكرَ الجبار كأنّما قد بُشّر بالجنة! فإنما يخاف المرء من الله ويخشاه على قدر علمه به، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] والخشيةُ خوف مع علم. وإنّ خوف المُبَشّرين بالجنة؛ إنما هو خوف الهيبة والجلال والخشية، لمعرفتهم عظمة الله وكبرياءه وإحاطته وغناه سبحانه، وليس كخوف القانطين. والجمهور على تغليب الخوف وقت العافية والنشاط، وعلى تقديم الرجاء حال المرض، مع الموازنة بينهما.

=

شاهد القول أمران: أحدهما: أنّ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بابٌ للصحابة، فمن رام كَسْره؛ استباح سبّهم ولو بعد حين. والثاني: أنّ من نظر لسيرته بعدل وسلامة سريرة؛ فسيجدُ له محامل حسنة في اجتهاداته التي قد يختلف معه فيها، فبابُ اجتهادِ أمثاله من الكبار واسع. وبخاصة في مسألتي قتال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وتولية ابنه يزيد من بعده. ولا شك أنّ الخطأ في العفو خيرٌ من الخطأ في العقوبة، فمظالمُ العباد شأنها عظيم، والله ناصر كل مظلوم، ومستوفٍ حقّه من ظالمه. وكم لدماءِ الموتى من لاعِق.

وإنّ كثيرًا من الفتن قد فتح بابها الإنكارُ على السلطان بالسلاح، والخروج عليه، ويسبق الخروجَ بالسلاح التهييجُ باللسان. وقال القاضي عياض بشأن خروج الحسين وأهل الحرة وابن الأشعث وغيرهم من السلف: «وقيل: إنّ هذا الخلاف كان أوّلًا، ثم حصل الإجماع على منع الخروج عليهم. والله أعلم». شرح النووي على مسلم (١٢/ ٤٦٩، ٤٧٠).

واحذر غدرات الخطايا الخفيّات، فعن ثوبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **«لأعلمنَّ أقوامًا مِن أمتي يأتون يوم القيامة بحسناتٍ أمثال جبال تهامة بيضًا؛ فيجعلُها اللهُ عزّ وجلّ هباءً منثورًا»**. قال ثوبان: يا رسول الله، صِفْهُمْ لنا، جَلِّهِمْ لنَا؛ ألّا نكوَن منهم ونحن لا نعلم. قال: **«أما إنّهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوامٌ إذا خلَوا بمحارم الله انتهكوها»**(١). ومن رام المكارم اجتنب المحارم. ومن درر الإمام الشافعي رَحِمَهُٱللَّهُ: «أعزّ الأشياء ثلاثة: الجودُ من قلّة، والورعُ في خلوة، وكلمةُ الحق عند من يُرجى أو يُخاف».

واجعل بينك وبين المحرمات حاجزًا مِنْ ترك المكروهات حِمًى لورعك وحفظًا لأمانتك، قال سهل بن عبد الله رَحِمَهُٱللَّهُ: «أعمالُ البرِّ يُطيقها البرُّ والفاجرُ، ولكن لا يصبر عن المعاصي إلا صدِّيق». وقال الحجاج بن يوسف: «الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه». والقاعدة المضطردة التي لم ولن تنخرم: من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه. وتأمل عَقْرَ سليمان عليه السلام خيله غضبًا لله إذ ألهته عن صلاة العصر؛ فعوّضه الشكور الحميد عنها بالريح: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

ولقد قال ﷺ: **«كلّ مُيَسَّرٌ لما خُلِق له»**(٢). فاحذر أن يكون تيسيرك لعمل أهل الشقاوة! ولا تأمن مكر الله تعالى، وتذكر صفات جلاله كما تتذكر

---

(١) سنن ابن ماجه (٤٢٤٥) وصححه الألباني في الصحيحة (٥٠٥).

(٢) البخاري (٨/١٥٣) ومسلم (٨/٤٨).

صفات جماله. وتدبر قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] فقد بُغتوا بعذاب ليس له مقدمات.

يـا راقـدَ الليـلِ مـسرورًا بأوّلِـهِ إنّ الحـوادثَ قـد يطـرُقنَ أسـحارًا

* **ومن جليلِ الوصايا:** التأكيدُ على العدل. فهو قيمة كليّة لا يجوز تهميشها تحت أي ذريعة على الإطلاق، حتى مع أعداء الله الكفرة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨] فبالعدلِ قامت السماوات والأرض، وما الميزان في يوم الحساب إلا لإقامته، والله عدلٌ يأمر بالعدل. واعلم أنّ المحبة والبغضاء أمران يصُدّان عن العدل في الأحكام، فتنبّه! والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ويقول: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ﴾ [المائدة: ٨] وأجملُ العدل هو ما استوى طرَفَاهُ مع الحبيب والبغيض. ولـمّا قيل لابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنّ فلانًا يزيدُ كلمة «وآله» في الصلاة والسلام على النبي ﷺ تشبّهًا بالشيعة، قال: «بل هذه السُّنة حتى وإنْ فَعَلَهَا مُبتدَعٌ».

هذا وإنّ بين النقد والتعيير فرقٌ تشمّه الروح وتلمسه الفطنة، فتفرّقُ بين الناقد الناصح والمعيّر الشامت، فأحسِنْ يا صاحبي مبدأ انطلاقك في ميدان النقد كأنك المنقود، وانصح لله بلا توبيخ ولا تعيير، ومَنْ نَصَحَ أخاه على ملإٍ؛ فقد عيّره. قال الفضيل: «المؤمن يستر وينصح، والفاجرُ يهتك ويعيّر». ومن جميل وصايا العلماء: «لا تنصحْ على شرط القبول».

والمؤمن يقبل النصيحة بكلّ حال، خاصة إن كانت صادقة، حتى ولو لم يُوفّق مُسديها للأسلوب اللطيف، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦] قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ومن ذلك أن يقال له: اتق الله، فيقول: انشغل بنفسك». وكان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إذا قيل له: اتق الله؛ سقطت دِرَّتُه - أي عصا التأديب - من يده، خوفًا من الله وفَرَقًا.

❋ **ومنها:** الورعُ. ومن أمور الورعِ التي بين أيدينا؛ الورعُ عن غيبة المؤمنين، فلا تستهن بغيبة المسلمين بحجة التحذير من مناهج وأشخاص غير سلفيين - زعموا - وولِّ وجهَكَ عمَّن يحتّجون بعمل ابن حنبل وسفيان، فأين الثرى من الثريّا! فلقد كان للسلف علمٌ وورعٌ وعدلٌ وحكمةٌ ورحمةٌ ورفقٌ، ولو صدق هؤلاء في اتّباعهم؛ لما شقّوا أعراض المسلمين بفِراهم وقالاتهم، فنزِّهْ عقلك عن نفايات الألسن.

وإنّ الكلام في الرجال إنّما هو للتام في علمه وورعه، أمّا حُجَجُهم الباردة فهي حفرةٌ لا تعفيهم من مساءلة المظالم يوم الحساب، وحديثُ المفلس معلوم، والغيرة للدين لا تكفي مالم تُضبط ببرهان. فألْجِم لسانك وقلمك عن أعراض عباد الله، فإنّ لكل باغ مصرع، ولكل ظالم ندامة، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

فأصبحَ لا يلومُ بما جناهُ ... منَ التَّفريطِ إنسانًا سِواهُ
أسرَّ ندامةَ الكُسَعيِّ لمَّا ... رأتْ عيناهُ ما صنعتْ يداهُ

فعليك بالورع في لسانك ويدك وبطنك وفَرْجِك وجوارحك، ولا تحفل بما لا ينفعك في مبعثك، وأولى عنه ما تخشى مغبتّه، ورُبّ لُعاعةِ دنيا؛ حجبتْ رضوان الله! ولو عُرِضَتْ عليك حسناتٌ نضيرَ مبلغ مالي، فهل ستشتريها، أو عُرِضَ عليك حملُ بعضِ أوزارك عنك مقابل مبلغ مالي، فهل ستقبل؟! هل تعلم أنّك تأخذ ذلك من الخلق إذا انتهكوا لك حقًّا؟ وأنّك تعطيهم ذلك إذا انتهكت لهم حقًّا، فغدًا يومُ الدينونة.

وكثيرٌ من سور القرآن العظيم تُختم بمواعظ عميقة ترقّق قسوة القلوب، فما ظنك بختام القرآن كله وهو قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] فما أعظمه من وداع، وما أجلّها من خاتمة، وهي آخر عهدٍ نزل من السماء، وآخر وصية لي ولك من الله العظيم، فتأملها وتدبرها وتفكّرْ فيها، فأنتَ المعنِيُّ بها.

❋ **ومنها:** البعدُ عن الانتقائية. فلا تكن انتقائيًّا فهي هوى خفيّ، وادخُل في المسألة بدون رأي سابق. إن كنت ذا علم. وإلا فاتبع من تثق في دينه وورعه وعلمه. فبعض الناس ينتقون من كلام أهل العلم المتقدّمين والمتأخرين ما يوافقهم، ويُعرضون صفحًا عما خالفهم، حتى لو كان من ذات الشيخ في ذات المسألة.

هذا وللانتقائية وجه آخر سيء. وكلاهما سيء. وهي الانتقائية من كلام الخصم ما يوافق تحقيق تهمته لا ما يدفع عنه سوءتها. وتذكّر قول المصطفى

ﷺ: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبّ لنفسه**»(١). وقوله: «**فمن أحبَّ أن يُزحزح عن النار ويدخل الجنة؛ فلتأتِهِ مَنِيَّتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يحبُّ أن يُؤتى إليه**»(٢).

* **ومنها:** الإصلاحُ. فاحرص على إصلاح ذات البين وجمعِ كلمة المسلمين، ولا تستصغر نفسك في ذلك، ولا تحقرنّ من المعروف شيئًا، وعسى أن تُلقيَ يومًا كلمة لم تحسِب لها حسابًا؛ ينفع الله بها العباد أحقابًا، وترتفعُ بها عند الكريم زلفى وقُرْبًا ورضا، فهلمّ للخير هلمّ. وتأمل عظَمة اللسان وخطره من قوله ﷺ: «**إنّ العبدَ ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالًا؛ يرفعه الله بها درجات، وإنّ العبدَ ليتكلّم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالًا؛ يهوي بها في جهنّم**»(٣). وقف طويلًا مع قوله: «**لا يُلقي لها بالًا**».

تَفـــرُّ مـــن الهجـــيرِ وتتّقِيـــهِ ... فهـــلّا عـــن جهـــنّمَ قـــد فررتـــا
ولســـتَ تُطيـــقُ أهونهـــا عـــذابًا ... ولـــو كنـــتَ الحديـــدَ بهـــا لـــذبتا
فلـــو بَكِـــتِ الـــدِّمَا عينـــاكَ خوفًـــا ... لـــذنبك لم أقُـــلْ لـــك قـــد أمِنْتـــا
ومـــن لـــك بالأمـــانِ وأنـــتَ عبـــدٌ ... أُمَـــرْتَ فـــما أئتمـــرتَ ولا أَطعتـــا

واحذر أن تساهم في تفريق المسلمين، وصدع وحدتهم، وتشتيت صفّهم،

(١) البخاري ١/١٠ (١٣) ومسلم ١/٤٩ (٤٥) (٧١).
(٢) مسلم ٦/١٨ (١٨٤٤) (٤٦).
(٣) البخاري ٨/١٢٥ (٦٤٧٨).

ولو بشطر كلمة، ولا تنس حقوق الإسلام فلها من الله طالبٌ.

❋ **ومنها:** كُن آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، فجمالُ العلم والعبادة الأمرُ بتقوى الله تعالى. وكن مبتدئًا بنفسك، مستنًّا بنبيك ﷺ، وعليك بالعلم قبل الإنكار، وبالحلم والرفق أثناءه، وبالصبر بعده، فمن أنكرَ فإنه سيؤذَى في الله، فهي سبيل المرسلين وأتباعهم الصادقين، لهذا أمر بالله بالصبر في هذا الموطن: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] فكن ـ رعاك الله ـ من البقيّة السابقين البررة: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [هود: ١١٦].

وقــد كـــانوا إذا عُـــدُّوا قلـــيلًا   فقــد صـــاروا أقـلّ مـــن القليـــلِ

وتزدادُ أهمية الدعوة إلى سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر العلم عند انتشار الفساد وتفشي الغفلة وغلبة المنكرات. وإنّ الناهي عن المنكر دافعه أمران: براءةُ ذمته، ورحمتُه بالناس، ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]. قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلّما أضيعت السنّة؛ كان فعلها ونشرها بين الناس أوكد؛ لئلّا تُترك وتموت». وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأيُّ دينٍ وأيّ خيرٍ فيمن يرى محارمَ الله تُنتهك، وحدودُه تُضاع، ودينُه يُترك، وسنُّة رسول الله ﷺ يُرغب عنها، وهو باردُ القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أنّ المتكلم بالباطل شيطان ناطق. وهل بليّة الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم؛ فلا مبالاة بما جرى على الدين، وخيارُهم المتحزِّنُ المتلمِّظُ، ولو نُوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو

ماله؛ بَذَلَ وتبذّل، وجدّ واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسْب وسعه! وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون؛ وهي موت القلوب، فإنّ القلب كلّما كانت حياته أتمّ؛ كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل»(١). وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا من هو من عسكرِ الرسول، أيحسنُ بك كلَّ يوم هزيمة! فيا أقدام الصبر احملي، فقد بقي القليل». وسئل الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أين تجد الراحة؟ فقال: «في سجدة بعد غفلة، وتوبة بعد ذنب».

وإنّ أعظم حافظ لنعم الله؛ شكره، قال تعالى في حراسة النعم بشكرها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] وقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] وأصحّاءُ العقول هم من لا يستنزلوا نقم الجبار بكفر نِعَمِهِ. فالشكر ـ كما قيل ـ قيدُ النعم الموجودة وصيدُ النعم المفقودة. والنعم إذا شُكرت قرّت، وإذا كُفرت فرّت. وقال ابن القيم: «الشكر هو خلاصةُ العبودية لله تعالى». ويا صاحِ لا تمُت على غفلة، فإنّ الأمر كما قيل: جنائز الغد تتنفس الآن!

وفي عصرِ فتن الشبهات والشهوات تزداد فاقتُنا للصبر، ولا صبر إلا من عند الله: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]. وأغلبُ الشبهات وليدةُ أرحام الشهوات. وفرضُ الوقت اصطفاف أهل الفضيلة فقد

(١) إعلام الموقعين (٢ / ١٧٧).

طغى أهل الرذيلة. وإنّ كثرةَ ضَرْبِ الآلَةِ الإفسادية الإعلامية على أصول وثوابت شرعية قد بدأ يُثمرُ العلقمَ المسموم في الجيل الجديد، بل وفي بعض الأكابر، فالآن حَمِيَ الوطيسُ وبدأَ فلّ الحديدِ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وشؤمُ ذنب الفرد عليه وحده مالم يجاهر عند من لم ينكروه فيعمّهم العذاب. أما ذنب الدول والجماعات فيعمّهم شؤمه، سنة الله ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]. وليس كلّ صمتٍ حكمة، فبعضه عيٌّ وعجز. وانتظارُ المعونة من الفاسدِ فسادٌ، فما بالك بمن يولّيه الإصلاح!

أترجو بالجرادِ صلاحَ أمرٍ ... وقد طُبعَ الجرادُ على الفسادِ

ومدافعةُ التغريب تكون بالقيام لله تعالى بدعوة المجتمع وتغذيته عبر أربعة محاور: الإيمان، والاحتساب، والوعي، والعفاف. واعلم أنّ جزاءَ الصبرِ الخالصِ الجنةُ الخالصةُ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤] وكما قيل: العملُ للدين قرينُ الانتماء إليه.

يهونُ علينا أن تُصابَ جُسُومنا ... وتسلم أعراضٌ لنا وعقولُ

وعلّموا أولادكم وأحبابكم القوةَ في كلِّ أمور الدين والدنيا، فالضعفُ ليس من الإسلام في شيء، ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣] و«**المؤمنُ القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير**»(١). وجاهدْ

(١) مسلم ٨/٥٦ (٢٦٦٤) (٣٤) قال النووي في شرح صحيح مسلم (٢٦٦٤): معناه في كل من القوي والضعيف خير، لاشتراكهما في الإيمان.

شيطانَ ولدك كما تجاهد شيطانَك، لا يغلبنّك على فلذة كبدك فيسرق ضوء هداه.

ومـــا نيـــلُ المطالـــبِ بـــالتمنّي ولكـــن تؤخـــذُ الـــدنيا غِلابـــا

❋ **ومنها**: الرحمةُ بالخلق. ومَن تأمّل سيرة رسول الله ﷺ؛ فسيرى أنّ صفة الرحمة لديه قد رسخت رسوخًا حتى كادت تعلو كل صفات كماله، فأجلّى صفاتُه وأظهرُ سجاياه الرحمة، ويكفيه قول ربه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فهو رحمة مهداة من الرحيم الرحمن.

فرحمتُه بالناس عظيمة مؤمنهم وكافرهم، كذلك هي رحمته بغير الناس من البهائم والطيور والسباع، كرحمته بجمل الأنصاري، وردّ فراخ القُبّرة لها، وغير ذلك كثيرٌ كثير. بل حتى الجمادات قد طالتها رحمتُه الوارفة؛ كجذع النخل الذي ضمّه واحتضنه لما حنّ في المسجد رحمةً به فما زال يُهدهِدُه حتى سكت بعد البكاء! إنّها رحمة مثيرة للدهشة حقًّا، فهي لا تغادره في كل أحواله بتاتًا، فلهُ من الرحمة غاية الكم والكيف الذي يستوعبه قلب بشر.

ومن كان مستنًّا به في سنّته؛ فليستنّ به في أخلاقه، فهي من سنّته، فالرحمة بالمخالفين هي من سنة سيد المرسلين ﷺ، وأهلُ السنة ينصرون الحق، ويرحمون الخلق، كما قاله شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهناك فرق شاسع وبونٌ هائلٌ بين من ينظر للمخالفين والعصاة نظر المشفق الحادب الرحيم مريد الخير والهداية لهم، وبين من ينظر لهم شزرًا بعين الغلّ والحقد والرغبة في التشفي بعذابهم والانتقام منهم، والاكتفاء بإقامة

الحجة عليهم دون الرغبة في هدايتهم. وسَلْ نفسك: أيّها خُلُق رسول الله ﷺ؟ فكن رحيمًا بنفسك؛ حتى ترحمها من عذاب الله، ورحيمًا بالخلق؛ حتى يرحمك الله، فالراحمون يرحمهم الرحمن. ولربّما ناحت الروحُ بأشجانها.

يُبكـي علينـا ولا نبكـي عـلى أحـدٍ   لــنحنُ أغلـظُ أكبـادًا مــن الإبـلِ

ولمّا انتفش أحدُ الناس بالغضب قال مخاطبًا بخشونة أحدَ الصالحين: والله لئن أسمعتني واحدة؛ لتسمعنّ مني عشرًا، فأجابه بسكينة وبشاشة: «فأنتَ والله لئن أسمعتني عشرًا، لا تسمع منّي واحدة». قلت: هنا افترقت عقولُ الناس وأحلامهم وهممهم.

وإنّ كثيرًا من المسلمين قد ظلموا إسلامهم وأساءوا لديانتهم عبر الممارسات المنافية لروحه العظيمة. فيا صاحبي؛ لتكن رقيقَ الحسّ مرهفًا لمشاعر الناس، مُحبّا لنفعهم وإسعادهم، وليكن حديثك لطيفًا يدفئ القلب بما فيه من وجدانٍ ومحبةٍ وإخلاص، وتأمّل جواب الحكيم لما سئُل: من أسعدُ الناسِ؟ فأجاب: من أسعدَ الناسَ.

ولئن كان في البشر ظالم؛ ففيهم مظلوم حقيق برحمتك وشفقتك وحنانك، وكما قيل: لم يبيَضّ رغيفُ الغني؛ حتى اسودّ عنق الفقير، ولم تذوِ ساقُ اليتيمِ؛ حتى عبَل بطن الشحيح! لك الله يا مؤمن: كُن للمساكين ملاذًا. ولقد زار وزير خارجية إحدى الدول الأفريقية قبر الداعية عبد الرحمن السميط في الكويت قائلًا: أنا أَحَدُ الأيتام الذين ربّاهم. رحمه الله رحمة واسعة سابغة.

❋ **ومنها:** والِدَيكَ والدَيْك، بِرَّهما بالإحسان إليهما وجميل التودّد لقلبيهما،

ولتكن أنت بطيبك وبرّك أول من يطرأ على قلبيهما حين يذكران الذرية البارّة الطيبة الصالحة، واعلم أنّ أكثر ما يثلج قلبيهما سعادةً هو صلاحُك واستقامتك.

فلكل ولد: ابتهج بوالديك قبل الذكرى، فلا عطر في الدنيا يضاهي ريح الوالدة، ولا عرَقٌ يسامي رأس الوالد، هكذا حدثتنا الأيام. قبّلْ رأس ويدَ والديك كلَّ يوم ساعةَ رؤيتك لهما، وادعُ لهما واطلب دعاءهما، واستمرّ على ذلك؛ وستَرى ألطاف البرّ تترَى على فؤادِك، وتلوّن بألوانِ السعادة حياتَك. وكُن سلوةَ خاطرِ والديك، وتفنّن في برّهما. قال ﷺ عن أويسٍ القَرَني: **«له والدةٌ هو بها برٌّ، لو أقسم على الله لأبره»**(١). فبِرُّه بأمه جعله مستجاب الدعوة.

وبرُّ الوالدين من أعظم أسباب الغفران، ففي المسند أنَّ رجلاً أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أصبتُ ذنبًا عظيمًا. أي من الكبائر. فهل لي من توبة؟ قالَ: **«هل لك مِن أمٍّ؟»** قالَ: لا، قال: **«فهل لك من خالةٍ؟»** قال: نعم، قال: **«فبِرَّها»**(٢). قلتُ: لأنّ الخالة هي بقيّة الأم.

وقال رجل لعمر: قتلتُ نفسًا. وهو أعظم ذنب بعد الشرك. قال: «أمُّك حيّةٌ»؟ قال: لا، قال: «فأبوك»؟ قال: نعم، قال: «فبِرَّه وأحسن إليه». ثم قال عمر: «لو كانت أمُّه حيَّةً فبرَّها وأحسنَ إليها؛ رجوتُ أنْ لا تَطعَمهُ النارُ أبدًا». وعن ابن عباس بمعناه أيضًا. وقال الإمام أحمد: «برُّ الوالدين كفارة للكبائر».

---

(١) مسلم ١٨٨/٧ (٢٥٤٢) (٢٢٣).

(٢) أحمد (١٣/٢) (٤٦٢٤) والترمذي (١٩٠٤) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢ / ٣٣١) (٢٥٠٤).

ألم تعلم أن برّ والديك أحبّ إلى الله من الجهاد، ففِي الصحيحينِ، عن ابن مسعود، أَنه قال: «قلت للنبيِّ ﷺ: أيُّ العَمَلِ أحبُّ إلى اللَّه؟ قال: «**الصَّلَاةُ على وقتِهَا**» قلت: ثُمّ أَيٌّ؟ قال: «**بِرُّ الوالدين**» قلت: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: «**الجهادُ**»[(١)]. وفي حديث آخر لم يذكرِ الوالدين، فقال العلماء لأنه لَيسَ لِكُلِّ أَحَدٍ والدَانِ. فاحمد الله الذي أعطاك ما حرم منه غيرَك. ألا ما أعظم حقَّ الوالدين. ويكفي أنّ الله تعالى قد قَرَنَ حَقّهما بحقِّه: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: ١٤] وقال رسول الله ﷺ: «**من أدركَ والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك؛ فابعدَهُ الله وأسحقه**»[(٢)]. وعند الشيخين: أَقبَلَ رجُلٌ إلى رسول اللَّهِ ﷺ فقال أُبَايِعُك على الهِجرَةِ والجهادِ؛ أبتغِي الأَجرَ مِن اللَّهِ تعالَى، قال: «**فَهَل من والدَيك أَحَدٌ حَيٌّ**»؟ قال: نعم بل كلَاهُمَا حَيٌّ. قَال: «**فتَبْتَغِي الْأَجرَ مِن اللَّهِ**»؟ قال: نعم. قال: «**فَارجِع إلى والِدَيك فَأَحسِن صُحبَتَهُمَا**». الله أكبر ولله الحمد. وقال: «**لا يَجزِي وَلَدٌ وَالِدَهُ إِلَّا أَن يجِدهُ مَملوكًا فَيَشتريَهُ فيُعتِقَهُ**»[(٣)]. وعند أحمدَ بسند صحيح أن رجلًا قال: إني جئت لأبايعُك وتركتُ أبويّ يبكيان قال: «**فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتَهما**»[(٤)].

---

(١) البخاري ٤/١٧ (٢٧٨٢)، ومسلم ١/٦٢ (٨٥) (١٣٧).

(٢) أحمد ٤/٣٤٤ (١٩٢٣٦) وصححه الألباني في السلسلة (٢ / ٤٢) (٥١٥).

(٣) البخاري ٤/٧١ (٣٠٠٤)، ومسلم ٨/٣ (٢٥٤٩) (٥) و(٦).

(٤) المسند (٢٦ / ٣٤٤) (٨٥٩١) وأبو داود (٢٥٢٨) وصححه الألباني في إرواء الغليل (٥ / ٢٠).

والعجب أنّ لهما حقًّا حتى وإن كانا مشركين، بل ولو دعيا ولدهما للشرك، قال سبحانه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: ١٥] فكيف إن كانا مؤمنَين حنيفَين. يا لله ألهذا الحدّ وصل أمرُ البِرّ. وتأمّل فقه محمدِ بن المُنكَدِرِ في قوله: «بِتُّ أَغمِزُ رِجلَيْ أُمِّي، وبَاتَ عَمِّي يُصلّي ليلَتَهُ، فما سَرَّنِي ليلَتَهُ بليلَتِي». وقيل للحسن: إني أتعلم القرآن، وإنّ أمي تنتظرني بالعشاء، قال الحسن: «عشاءٌ مع أمك تُقِرُّ به عينَها؛ أحبّ إليّ من حجّة تحجها تطوّعًا».

ولِمن رحل أحدُ والديه: ادعُ له، واستغفر له، وصِل أصحابه، وقد مرّ رجلٌ من الأعراب بابن عمر، فسلّم عليه عبدُ الله، وحمله على حمار كان يركبُه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه. فسُئل فقال: إنّ أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنّ أبرَّ البرِ؛ صلةُ الولدِ أهلَ وُدِّ أبيه بعد أن يُوَلِّي»** رواه مسلم(١). فبرُّهُما بابٌ للجنة، وعقوقُهما حفرةٌ إلى النار، قال ﷺ: **«ملعونٌ من عقَّ والديه»**(٢).

ولمن ثقُل عليه البر: كيف تَطلبُ الجَنَّةَ بزَعمك وهي تَحتَ أَقدامِ أُمّك، حَمَلَتْك في بَطنهَا تسعَةَ أَشهُرٍ كأَنَّها تسعُ حِجَجٍ، وكابدَتْ عندَ وَضعِك ما يُذِيبُ المُهَجَ، وأَرضَعَتك من ثَديهَا لَبَنًا، وأطارَتْ لأَجلك وَسَنًا، وغَسَلَتْ بِيَمِينِهَا

(١) مسلم ٦/٨ (٢٥٥٢) (١١).

(٢) الطبراني في المعجم الأوسط (٨ / ٢٣٤) (٨٤٩٧) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢ / ٣٣٤) (٢٤٢٠).

عَنك الأَذى، وآثَرَتك على نَفْسِهَا بِالغِذَاءِ، ولَو خُيِّرَتْ بَينَ حَيَاتِك وَمَوتِهَا لآثَرَتْ حَيَاتَك بِأَعلى صَوتِهَا.

هذا؛ وكم عَامَلْتهَا بِسُوءِ الخُلُقِ مِرارًا، فدعَتْ لَك بِالتَّوفيقِ سِرًّا وجِهارًا، فلمّا احتَاجَتْ عِند الْكِبَرِ إلَيك؛ جَعلتهَا مِن أهونِ الْأَشيَاءِ علَيك، وَقَدَّمْتَ عَليهَا أَهلَك وأَوْلَادَك في الإِحسانِ، وقابَلْت أيَادِيها بِالنّسيَانِ، وصَعُبَ لَدَيك أَمرُهَا وهُوَ يَسِيرٌ، وطَالَ عَلَيك عُمُرُهَا وَهُوَ قَصِيرٌ، وهجَرْتهَا وما لَهَا سِوَاك نَصِيرٌ. ألا تخشَ أن تُعَاقَبُ فِي دنيَاك بِعُقُوقِ البنات والبَنِين، وَتخزى فِي أُخراك بِالْبُعد عن رب العالمينَ، يا هذا تذكر الوعيد ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢](١). إياك وأقلّ العقوق لوالديك، فهو الخيانة العظمى لمن كانا سببًا في إيجادك بإذن الله. قال ابن العميد في مرض موته: «ما قتلني إلا جُرَعُ الغيظ التي تجرّعتها من ابني»! ألا ما أقبح العقوق، ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [البقرة: ٨٣].

لِأُمِّـك حَـقٌّ لَـوْ عَلِمْـت كَبِـيرُ ... كَثِـيرُك يَـا هَـذَا لَدَيْـهِ يَسِـيرُ
فَكَـمْ ليلـةٍ باتَـتْ بِثِقَلِـك تَشـتَكِي ... لهـا مِـنْ جَوَاهَـا أَنَّـةٌ وزفِـيرُ
وفي الوَضْعِ لـو تَـدرِي عليهَا مَشَقَّةٌ ... فَمِـنْ غُصَـصٍ مِنْهَـا الفـؤادُ يَطِـيرُ
فـآهٍ لِـذِي عقـلٍ ويَتّبِـعِ الهـوى ... وَآهٍ لِأعمَـى القَلْـبِ وهـوَ بَصِـيرُ
فـدُونَك فَارغَـب في عَمِيمِ دُعائِهَا ... فأَنْـتَ لِمَـا تَـدعُو إلَيـه فَقِـيرُ

---

(١) الكبائر للذهبي (٤٣).

لا تجعل والدَيكَ مستودعًا لأحزانك، فأخبرهما بما يسرّك لا ما ساءك، فحزنُهما عليك أضعافُ أضعافِ حزنِك على نفسك، فإحساس الوالدين تجاه الولد مضاعف، بل قد ينسى الولد مشكلته، لكنّها تبقى مغروزة في ذاكرة وصدر والديه، فلا تُضيّق صدرَيهما بهمومك الخاصة، بل أظهر لهما سرورَك مهما يكن حالك، وارحمها رحمك الله. لا تنسَ فضلهما، ولا تغفل عن جميلِ برّهما. واعلم أنّ الوالد أوسط أبواب الجنة؛ فخُذ أو دَع. وبرُّ الوالدين ليس في طاعتهما فقط، بل إنّ البرّ الحقيقي هو التفنُّن في إدخالِ السرور عليهما بأي شيء كان.

وتذكّر أنّ غيرك قد حُرم من نعيم لقياهما، بموت أو غربة أو غيرها، وودّ لو اشترى بسنةٍ من عمره جلوسًا معهما ساعة من ليل أو نهار. فاعرف - رعاك الله - قدر نعمة الله عليك بوالديك. وإني موصيك ببرِّهما برًّا خاصًّا لا يسبِقُكَ إليه سابق ولا يلحَقُكَ فيه لاحق. دلّلهما وأظهر لهما بصدقٍ حبَّك وشوقَك ولهفتك، ولتكن بَهجة لقلبيهما وسرورًا وسعادة وأمنًا وكفاية. لا تحزنهما بالانشغال عنهما بجوال أو غيره. أشركهما في كل دعوة صالحة، بل خصَّهما دونَك بدعَوات ملحّة خالصة، ولا تنس في كل سجود أن تضرع لربك: رب ارحمهما كما ربّياني صغيرًا. وثِق أنك مهما فعلت وأحببت؛ فلن تستطيعَ أن تصل لمستوى حبهما لك، فحب الوالد لولده هو من النوع الذي لا يقاس ولا يوزن لأنه لا حدّ له.

فبِرَّهما حيّين وميّتين، واستمتع بما تبقى منهما، فعُودُ الحياة الرطب يذبل

وينكسر برحيلها، وسيأتيك يومٌ ولم يبق من والديك لديك سوى الذكريات، ولن تعرف قدر والديك حتى يفارقانك، فافعل اليوم ما تريد أن تتذكّره غدًا. وإذا أردت أن تعرف قدر الوالدين فاسأل من فقدهما!

فمِنَ الناس مَنْ إذا دفنتَهُ؛ دفنتَ معهُ جزءًا غاليًا من فؤادك، لا يعودُ فتسعَد، ولا يبرأُ فتعيش، ولا يبلى فتَنْسَى، بل تُحِسُّ أنّ جُزءًا من قلبك لم يعد يخفق بنبض الحياة، ذاك أنّه قد دُفِن مع حبيبه تحت الثرى. اللّهم أبرد لواعج شوقنا بلقياهم في جنتك إله الحق.

وأيُّ حيـــاةٍ بعـــدَ أمٍّ فقـــدتُها كَـمَا يفْقِـدُ المَـرْءُ الـزُّلاَلَ عَـلَى الظَّـمَا
تَوَلَّـتْ فَـوَلَّى الصَّـبْرُ عَنِّـي وَعَـادَنِي غـرامٌ عليهـا شـفَّ جسـمي وأسـقما
وَلَمْ يَبـقَ إلاَّ ذُكْـرَةٌ تَبعَـثُ الأَسـى وطَيـفٌ يُـوَافِيني إذا الطَّـرْفُ هَوَّمَـا
وَكانــتْ لعينــي قــرةً ولمُهجتــي سرورًا فخابَ الطرفُ والقلبُ منهما
فَلَـولا اعتِقَـادِي بالقَضَـاءِ وحُكْمِـهِ لقطّعــتُ نــفسي لهفــةً وتنــدُّما

❋ **ومنها:** كن بارًّا واصلًا لا عاقًّا قاطعًا، فالعلم رحمةٌ لا تتنزّلُ على قُطّاع الأرحام، والجَنةُ رحمةٌ محرومٌ منها أولئك، والرحم والأمانة مرسلتان على جنْبَتِي الصراط، فمن قطع أو خان كُرْدِس، فكُن مرحومًا لا محرومًا، وطالبُ علمٍ يقطعُ الأرحام؛ لا خير فيه، والقاطعُ ملعونٌ. فعظّمْ شَجْنَةَ الرحمن، فمن وصلها؛ وصله الله، وما بالك بمن وصله الله العظيم!

إنّ شأن الرَّحِم جِدُّ عظيم، ولقد كان النضرُ بنُ الحارث العبدري شديدَ العداوة للإسلام، فقتله رسول الله ﷺ بعد بدر، فرثته ابنته قُتَيلة، ومما قالته:

يَــا راكِبًــا إنّ الأثيــلَ مظِنّــة | مُــنْ صُــبحِ خامسةٍ وأنـتَ مُوفّـقُ
أَمُحَمَّــدٌ يَــا خَــيْرَ ضَــنْءِ كَريمَــةٍ | فِي قومهـا، والفحـلُ فحـلٌ مُعـرِقُ
مَــا كَــانَ ضرَّكَ لَــوْ مَنَنْــتَ وربَّــمَا | مَــنَّ الفتَــى، وهُــوَ المَغيظُ المُحنَـقُ
فالنضْرُـ أقـربُ مَــنْ أسرْتَ قَرَابَــةً | وَأَحقُّهُــم إن كــان عِتــقٌ يُعتــقُ
ظَلَّــتْ سُــيُوفُ بنــي أبِيــهِ تنوشُــهُ | للهِ أَرحَــام هُنَــاكَ تُشــقَّقُ

فرُوِيَ أنّ رسول الله ﷺ رقَّ لها حتى دَمعت عيناهُ، وقال: «**يا أبا بكر، لو سمعتُ شعرها ما قتلتُ أباها**»(١). أي لقبِلَ شفاعتها فيه. نعم، فلا يهتزُّ لصدق المشاعر سوى معادن الأحرار، وسيدُهُم رسولُ الله ﷺ.

وتهُــزّني ذكــرى المــروءةِ والنــدى | بــين الشــمائل هــزّةَ المشــتاقِ

هناك في داخل النفس الإنسانية ثَمَّ رغبةٌ في الخصوصية، وتأمّل نفسك لو جلست في مكان عام، ثم جلس بقربك شخصٌ لا تعرفه حتى كاد أن يلزقَ بك، فما ستحسّ به هو رغبتُك في الابتعاد عنه قليلًا لتتنفس الخصوصية. وبما أن الإنسان لا مفرّ له من خُلطة البشر والاحتكاكِ بهم؛ فمن الطبيعي أن يكونَ

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (٤/٤٥٨) وهي مشهورة في السير من طرق مختلفة وبألفاظ متقاربة، وقال ابن الملقِّن في غاية المأمول: «لم تثبت لنا بإسنادٍ صحيحٍ. ومن العلماء من وجَّه هذا القول بأنّ كلامه ﷺ هذا ليس معناه الندم، لأنه لا يقول ولا يفعل إلا حقًّا، والحقّ لا يُنْدم على فعله، ولكن معناه: لو شَفَعت هذه المرأة عندي بهذا القول لقبلتُ شفاعتها ولا سيما الاستعطاف بالشعر، فإنّ مكارمَ الأخلاق تقتضي إجازةَ الشاعر وتبليغَه قصده». وانظر: شرح تنقيح الفصول (٣ / ١٥٩).

بينه وبين بعضهم نُفرةٌ ومشاحنة، وربّما قطيعة، لذلك شدّد الله الأمرَ في كتابه بوصل ما أمر به أن يُوصل؛ كحفظِ حقِّ الجار وصلة الرحم ونحوِ ذلك. ومن نفيس وصايا زينِ العابدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا بني لا تصحبنَّ قاطعَ رحم؛ فإنّي وجدته ملعونًا في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع». ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٢٢][(١)].

ولكلِّ من كانت بينه وبين رَحِمِه قطيعة: تذكّر ليالي الجُمَعِ، فقد قال رسول الهدى ﷺ: «**إنّ أعمالَ بني آدمَ تُعرضُ كلَّ خميسٍ ليلةَ الجمعة، فلا يقبلُ عملُ**

---

(١) ذكرها أبو نعيم في حلية الأولياء (٣ / ١٨٤) فساق سنده عن أبي جعفر الباقر محمد بن علي زين العابدين رحمهما الله قال: أوصاني أبي فقال: «لا تصحبنّ خمسة ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق. قلت: جعلت فداك يا أبت من هؤلاء الخمسة؟

قال: لا تصحبن فاسقًا فإنّه يبيعك بأكلة فما دونها، قلت: يا أبت وما دونها؟ قال: يطمع فيها ثم لا ينالها.

قلت: يا أبت ومن الثاني؟ قال: لا تصحبنّ البخيل، فإنّه يقطع بك في ماله أحوج ما كنتَ إليه.

قلت: يا أبت ومن الثالث؟ قال: لا تصحبنّ كذّابًا، فإنه بمنزلة السراب؛ يُبعد منك القريب ويقرب منك البعيد.

قلت: يا أبت ومن الرابع؟ قال: لا تصحبنّ أحمقًا، فإنه يريد أن ينفعك فيضرُّك.

قلت: يا أبت ومن الخامس؟ قال: لا تصحبنّ قاطعَ رحمٍ، فإنّي وجدتُه ملعونًا في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع».

قلت: وهذه من غُرر الوصايا، ولا غرو أن تخرج من الدوحة النبوية.

قاطعِ رحم»(١). لذا فانتبه ألّا تكون قاطعًا؛ فتُقطع! فمن وصل وُصِلَ، ومن قطعَ قُطع، قال ﷺ: **«خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُم قَامَتْ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: مَهْ؟ قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنْ الْقَطِيعَةِ. قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ. فَذَاكِ»**(٢). وقال ﷺ: **«لا يدخلُ الجنةَ قاطعُ رحمٍ»**(٣). وفي الصحيحين في حديث الصراط: **«وتُرسلُ الأمانةُ والرحمُ، فتقومان جَنْبَتَي الصراط يميناً وشمالاً»**(٤). أُخيّ: ألا تريدُ عمرًا طويلًا ورزقًا دارًّا؟ إنّ وصْلكَ لِرحمك مُؤدٍّ لذاك: **«من أحبّ أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره؛ فليصلْ رحمه»**(٥).

فإن قلتَ: كيف أصلُ رحمي وهم لا يستحقون؟ بل ولا سلامة منهم إلا بالبعد عنهم! قلتُ: بل الوصلُ يسير والأمر هيّنٌ بحمد الله، ولكن بشرط أن تفهم سرَّ سهولتِهِ، ألا وهو يقينُك أنكَ تتعاملُ مع الله لا معهم، وأنك تنتظر الأجر والرضا منه لا منهم، وتذكّر حديثين عن حبيبك ﷺ: ففي البخاري: **«لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنْ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا»**(٦).

(١) أحمد (٢ / ٤٨٤) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٣٨).
(٢) البخاري (٤٨٣٠).
(٣) البخاري (٥٩٨٤) ومسلم (٦٦١٢).
(٤) مسلم ١/١٢٩ (١٩٥) (٣٢٩).
(٥) البخاري ٣/٧٣ (٢٠٦٧) ومسلم ٨/٨ (٢٥٥٧) (٢١).
(٦) البخاري ٨/٧ (٥٩٩١).

وفي مسلم أنّ رجلًا قال: يا رسولَ الله، إنّ لي قرابةً أصلِهُم ويقطعونني، وأُحْسِن إليهم ويُسيئُون إليَّ، وأحلُم عنهم ويجهلون عليَّ؟ قال: «**لئن كنتَ كما قلتَ؛ فكأنما تُسِفُّهُم الملَّ، ـ وهو الرمادُ الحار ـ ولن يزالُ معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دُمتَ على ذلك**»(١). فهل تريد أجمل من هذا. فيا أخي: اجعل صلةَ أرحامك من صلبِ اهتماماتك وأولوياتك، واجعل لها نفيس وقتك، والأمر يسهُل بالتعوّد. وتذكّر أنّ الجنة تريد منك مهرًا من الصالحات، أم هل تريدُها مجّانًا!

ولا تخلط ـ حرسك الله ـ بين أمر الدنيا والآخرة في الخصومات، فمهما كان حجم الخصومة بينك وبين مسلم ـ ويزداد الأمر مع ذي رحم ـ فلا تسمح أن تصل الخصومة لدينكما، فالدنيا بمن عليها لا تساوي حسنة واحدة تضيعها من ميزانك. واعلم أنّ الصِّلَة من الدين، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١]. وإنّ من الحسنات الكبار المغفول عن مدى عظمتها في الإسلام؛ صلةُ الرحم بكل مراتب الصلة. والوصل حقّ الرحمن، والقطيعة حظّ الشيطان، فاختر لنفسك.

كِلانا غنيٌّ عن أخيه حياتَهُ ونحنُ إذا مِتْنَا أشدُّ تَغَانيا

وقد كان السلف يتخاصمون بل ويجلسون للخصومة بين يدي القضاء، ثم يخرجون متماسكة قلوبُهم قبل أيديهم، لأنّهم لا يرضون أن يصل الأمر

---

(١) مسلم ٨/٥ (٢٥٥١) (٩).

لأديانهم. وأدركتُ أقوامًا يخرجون من خصومتهم في المحكمة ثم يشربون القهوة عند أقربهم منزلًا، فلا هجر ولا حقد. بل ربما كان بينهم قتال وفتنة لكن صدورهم سليمة، ومن نعيم الجنة: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] فالمودة في الجنة والغل في النار.

وربّما تضطر أحيانًا للبعد عن مواطن تشويش جمعيتك على الله، أو تخشى على نفسك فسادًا في دين أو دنيا، فحينها يتوجّه شيءٌ من الاعتزال مع عدم القطيعة، قال المحدث الفقيه ابن عبد البر: «والذي عندي أنّ من خُشي من مجالسته ومكالمته الضرر في الدين أو في الدنيا، والزيادة في العداوة والبغضاء؛ فهجرانه والبعد عنه خير من قربه.. ورُبَّ صرْمٍ جميل خير من مخالطة مؤذية»(١).

وكثيرٌ من أسباب افتراق أهل السنة لا تستدعي العتب، فضلًا عن الهجر، بَلْه الافتراق. ولقد اختلف الصحابة على أمور كبار، وبقيت أخوّتهم لا تهزّها رياح الخلاف. وانظر كيف يختلف الكبار، فلقد كان بين خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا كلام، فذكر رجل خالدًا بسوء عند سعد فقال: «مَه! إنّ ما بيننا لم يبلغ ديننا». فالكبارُ وإن اختلفوا واختصموا لدُنيا؛ فهم لا يتقاطعون، بل يسلّمون ويتزاورن، أما الصغار فتقطعهم نفوسهم الصغار. والقومُ إخوانٌ وشتّى في الشِّيم. ولله معن بن أوس إذ أنشد:

وذي رحمٍ قلّمتُ أظفارَ ضغْنِه ... بحلميَ عنه وهو ليس له حلمُ

---

(١) الاستذكار (١٥٩/٢٦) (٣٩٠٢٤).

فـما زلـتُ في لـينٍ لـه وتعطّـفٍ　　عليـه كـما تحنـو عـلى الولـدِ الأمُّ

❋ **ومنها:** قيّد علمك وأفكارك وخواطرك، فالكتابة قيد صيد الخاطر، فهي تجمع شتات الأفكار وتحفظ نادر الفوائد، فالذاكرة خؤون والكتابة أمينة. وكثيرٌ من البشر ترد خواطرهم إضاءات فكرية عميقة وأحاسيس شاعرية جميلة، لكنها تذهب مع ريح النسيانِ العاتية، وخيرٌ لهم لو قيّدوها بقلم. وإنّ الكتاب كالإنسان، فالعاطفةُ روحُه، والأحكام دمه، والدلائل عقله، والأخبار أعضاؤه، فعلى قدر تمامها ونقصها تكون حياته.

العلــم صــيدٌ والكتابــةُ قيــدُهُ　　قيّــد صــيودك بالحبــال الواثقــة

وليكن نثرُكَ سلسًا متدفقًا، وأسلوبُك أخّاذًا طليًّا، ومشاعرُك طاهرةً صافية، وأفكارك قوية واضحة، ودلائلك صادقة مترابطة، حينها ستملك ناصية البيان، وتقود عنان الإقناع. ويكفيك من البيانِ السهلُ الممتنعُ، فلا تتقعّر ولا تتوحّش، بل أسْهِل برونق. فالفصاحة والبلاغة هما برزخُ كلامٍ جزْلٍ مبين، بين السوقي والهجين والمبتذل، وبين الوحشي الغريب المتقعّر.

❋ **ومن الوصايا:** عليك بمراعاة كرام الناس، واحترام أقدراهم وأسنانهم ومقاماتهم، وبخاصة إن وقعتَ منهم على زلّةٍ غير معتادة، فمن المروءات إقالة ذوي الهيئات العثرات، واجعل نفسك مكانهم عند الزلل، ولا تكن لئيمًا لا يَرى الناس شيئًا، فاللئام ـ كما قيل ـ يعيشون أوغادًا، ويموتون أوحادًا.

ومَــن يَتَتَبَّــعْ جاهــدًا كــلَّ عثــرةٍ　　يجدْهَا ولا يسلمْ له الدَّهر صاحبُ



❁ **ومن جليل الوصايا:** احرص بشدة على اختيار الرفقة الطيبة الصالحة، فإنهم من ذخائر القيامة وكنوز الحساب بإذن الله تعالى، وتأمل حال البائس في جهنم وهو يولول: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠- ١٠١] وتذكر حديث الشفاعة وكيف يناشد الأصحاب رب العالمين في أصحابهم، قال ﷺ في حديث الشفاعة: «**فما أنتم بأشدّ مناشدة في الحقّ قد تبيّن لكم من المؤمنين يومئذ للجبار، إذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم. فيقولون: ربّنا كانوا يصومون معنا، ويصلّون ويحجّون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم**»[1]. فاستمسك بأصحابك الصالحين فهم نور في الدنيا وذُخرٌ في الآخرة، وقد كان أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إنّي لأدعو لأربعين من إخواني في سجودي، أُسمّيهم بأسمائهم».

فعليك بحسن انتقاء أصحابك من أهل الديانة والورع والشهامة والمروءة وحب العلم والعمل والبرّ، الذين يعينونك إن عملت، ويذكّرونك إن غفلت، ويستغفرون لك إذا للآخرة رحلت، قال أيوب السختياني: «إذا بلغني موتُ أخٍ لي؛ فكأنّما سقط عضو مني».

لعمرك ما مال الفتى بذخيرةٍ ولكنّ إخوانَ الثِّقاتِ الذخائرُ

ومن خاف الله؛ لا تخَفْ شرّه. ولن تعرف قيمة صديقك حتى تتعثّر أو تسقط، فالعافية تجمع الجميع، والشدائد تُمايزهم.

---

(١) البخاري (٥٦/٦) ومسلم (١١٤/١).

جـــزى الله الشـــدائدَ كـــلَّ خـــيرٍ عرفـتُ بهـا عـدوِّي مـن صـديقي

ومن وصايا الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تواصلوا مع أصحابكم، فالصاحب الوفيّ مصباحُ مضيء، قد لا تُدرك نُوره إلا إذا أظلمت بك الدنيا».

ويحكون أنّ لبيدًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وهو المسلم الوحيد من أصحاب المُعلّقات. لم ينشد بعد إسلامه سوى هذا البيت البديع:

مـا عاتـب الحـرّ الكـريمَ كنفسِـهِ والمـرءُ يصـلحُه الجلـيسُ الصـالحُ

وليكُن أصحابُك أهلَ شيمةٍ ومروءة وكرامة ونبلٍ وتقى، ولمّا ذُكر الشّرفُ عند عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «كلُّ شَرَفٍ دونه لؤمٌ؛ فاللؤم أولى به، وكلّ لؤمٍ دونه شرفٌ؛ فالشرف أولى به» وهذا من فاخر المعاني وجميل المقاصد.

واعلم أنّ الصديقَ الأحمق كالطبيب الجاهل، يريد أن ينفعك فيضرّك. ولا أسوأُ ممّن استودعتَهُ سرًّا فأذاعه.

واعلم أنّ أفضلَ الحسبِ شرفُ الأخلاق، ولا بدّ للكاتب أو المقاتل من خصلتين: الشجاعة والشرف. فالأولى تحجز عنه الجبن، والثانية ترُدّه عن الجور على الضعفاء. فليكن أصحابك كذلك. ومن دُرر شوقي:

ومــن العقــولِ جــداولٌ وجلامــدٌ ومــن النفــوسِ حرائــرٌ وإمــاءُ

وصاحبْ خيارَ الناس واجتنب أراذلهم، ولا تغترّ بجمالٍ ظاهرٍ قد طوى قبحَ باطن، وليكن صاحبك ممن قيل فيه: لا يَضِلّ حتى يضل النجم، ولا يهاب

حتى يهاب السيل، وكان خيرَ ما يكون: حينَ لا تظنّ نفسٌ بنفس خيرًا. وجماعُ ذلك: التقيّ النقيّ المطبوع على كريم السجايا ونبيل الأخلاق.

وأَصْبَرُ من عُودٍ وأهدَى إذا سَرَى   من النجم في داجٍ من الأرض غيهبُ

وكن معتدلًا في خُلْطَة الناس، واجعل مسافةً كافيةً بينهم وبين مشاعرك؛ حتى لا تتحكمَ فيكَ أهويةُ العاطفة ورغائبُ الفؤادِ حبًّا وكُرهًا، فالاعتدال مطلبٌ، واهتمامُك الزائدُ بالناس قد يُفقدُك في يومٍ كرامتك. والحياء زينٌ كلّه، ولابن ميّادة:

بنفسي- وأهلي مَنْ إذا عَرَضُوا له   ببعضِ الأذى لم يدرِ كيف يُجيبُ
ولم يعتذرْ عُذرَ البَرِيءِ ولم يَزلْ   لهُ سكتةٌ حتّى يُقال مُريبُ

وتوسط في مشاعرك لا تفلت زمامها، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يكن حبُّكَ كَلَفًا، ولا بُغضُكَ تلفًا». فسئل عنها فقال: «إذا أحببتَ كَلِفْتَ كَلَفَ الصبي، وإذا أبغضتَ أحببت لصاحبك التلف».

وإن استبان لك سوادُ قلبِ مَن ظننتَه أبيضًا؛ فدعه يذهب بهدوء كيما يأخذ معه غطاء عينيك، وليكن سالف طيب معشرك وأيامُك الصادقة معه ثَمَنَ تركِكَ له.

ومتى ما عشتَ وقتًا طيبًا مع أحدٍ، ثم رأيتَ منه جفاءً وإساءة في حقّك بلا مبرّرٍ ولا عذرٍ سوى الملال أو النميمة؛ فلا تنسَ حُسن ماضيه معك، واعلم أنّ حُسن العهد من الإيمان، وهو سِمَةُ النبلاء الكرام. وانْسَلّ عنه، ثم اسحب عليه ثوب النسيان، فلو أرادك ما قَبِلَ فيكَ النمائم، ولا استروحَ في

عِرضك بغيبة، فدعه يذهب، فالدنيا أقلّ من وقوفك ساعة تحتمله، ولتكن ذكرى الصفاءِ عزاءً، ولتغتفرْ ما تسمعه.

وإذا جفـاكَ خليـلٌ كنـتَ تألَفُـهُ   فاطلب سواهُ فكلُّ الناس إخوانُ
وإن نَبَـتْ بـكَ أوطـانٌ نشـأتَ بهـا   فارحـل، فكـلُّ بـلاد الله أوطـانُ

واقترب ممن أحبّ قربك من الطيبين، فإن أحسستَ بثقلك عليه؛ فابتعد عنه بهدوء، ذاكرًا زمانه بخير وستر، فكريم النفسِ خفيفٌ على الروح قُرْبُه، سليمٌ من الأذى بُعْدُه. وقلّما يخطئ الحدْس إن أحسنت الإصغاء إليه، واحذر أن تنقل من تُحِب من الخوف عليك إلى الخوف منك. ولا تُعطِ أحدًا أكثر من قدره فيطغى، ولا أقلّ فيرحل.

واعلم أنّ صِدْقُ المودة ليس ببذل عذب الكلام، ولكن بصناعة مواقف تثبت صدقها. وإذا رسخت المحبة في القلب؛ ثبتت العلاقة أمام عواصف الخلاف، فالمودة الصادقة بحرٌ تغرقُ فيه كلُّ الأشياء غير الجميلة. وللقلبِ على القلبِ دليلٌ حين يلقاهُ.

فـإنْ كُنـتُ مـأكُولًا فكُـنْ خـيرَ آكـلٍ   وإلّا فـأَدركنِي ولـمَّـا أُمَـزَّقِ

وما أجمل من أن تُنعم على أحدٍ بخُصوصيةٍ التفاتية، وكان الرجل إذا نظر إليه رسولُ الله ﷺ؛ ظنّ أنه أحبّ الناس إليه، من تدفّق المشاعر عبر النظرات المبتسمة الحانية.

ولا تخجل من بوحٍ خلا من عيب، ولا تأنفْ من بثٍّ يُريح صدرَك إن لم تُطق احتماله، فالهروبُ من البكاءِ بكاءٌ، ويا لك من فصيحٍ أيُّها الصمتُ.

لكــنّما اللّوعــاتُ حــينَ أوارُهــا ... تجثوا عـلى القلـبِ القـويّ فيهمـدُ
تتهشّمُ الأضلاعُ من رَجْعِ الصّدَى ... مِـــنْ أنَّـــةٍ مكلومـــةٍ تـــتردَّدُ
يـا مُقلتـي مـا عـدتُ أقـوى صـابرًا ... جـــودي ببحـــرٍ زاخـــرٍ يتجـــدّدُ
بحـــرٌ خِضَـــمٌّ سُـــخِّنَتْ أمواجُـــهُ ... مِـنْ نـار كبـدي والضـلوعُ تُقَـدَّدُ

ومن أنكى معاول هدم العلاقات: المقارنات، وهي في الأغلب ظالمة، فالناس يظهرون أحسن ما لديهم، ويطوون المثالب فيما بينهم. ولا تكن ضجِرًا محبًّا لجلد المُحبّين، فثمّتَ عجيبةٌ إنسانية: وهي أنّ بعض النفوس لديها ميلٌ لمحبّة الإحساس بألمِ الظلم، فتستروح ألمَ المظلومية، ولربّما فرِحَتْ في باطنها بظلمهم لها كيما تعتب وتحزن! وفَرْقُها عن "متلازمة ستوكهولم". ويعنون بها تعاطف الضحية مع عدوِّها وظالمِها ∴ أنها هنا بمثابة حُبٍّ خفيّ للشعور بالمظلوميّة، وهي موجودة بكثرة عند من مرُّوا بمرحلةِ قهرٍ واستضعاف، فهم سريعو العتب بلا مبرر.

وجميلةٌ هي تلك النفوس التي لا تُنكر المعروف ولا تنسى خيرَ الصاحب مهما هاجت بينهما رياحُ الخلاف، ودبّت بينهما دوَابُّ الفراق. ولا بأس بعتبِ صديقٍ عند انسداد أوجه محاسن الظن، لأنه أبقى للمودة، لكن بقدر الحاجة عند الحاجة، وبلا إلحاح أو تحقيق أو تكرار أو تجريح.

أعاتِــبُ ذا المـــودّة مـــن صـــديقٍ ... إذا مـــا رابنـــي منـــه اجتنـــابُ
إذا ذهـــبَ العِتـــابُ فلـــيسَ وُدٌّ ... ويبقــى الــودّ مــا بقــي العتــابُ

ولا تبقى مع سوء الظنون للأخوّة بقيّة، فإن دخل سوء الظن أو فَقْدُ الثقة

مع الباب؛ خرجت المودّة مع النافذة، وعينُ البغضِ عوراءُ، وقد قيل:

إذا كـــان المحـــبُّ قليـــلَ حـــظّ ... فـــما حســـــناتُه إلا ذنـــــوبُ

ولقد اختصّ الله عز وجل بعض عبادة بخصلة جميلة نفيسة نادرة، وهي أنّهم يرون أفضل ما في الناس، ويعاملونهم بحسَب ذلك. فكن لطيفًا بشوشًا دمثًا، ولا بأس ببعض مزاح يزيل ثِقَلَ التكلّف وزَمَانَةَ الجِديّة، لكن لا يكن ديدنًا ولا مؤذيًا، والفكاهةُ في غير أوانها ضربٌ من الحماقة.

إذا لم يكـــن صـــفوُ الـــوِدَادِ طبيعـــةً ... فـــلا خـــيرَ في ودٍّ يجـــيء تكلُّفَـــا

وكن جوادًا سمحًا سخيًّا، باذلًا للمعروف، غيرَ منتظرٍ للشكر والثناء، واعلم أنّ الاعتذار مع الاقتدار طرَفٌ من البخل، وسادةُ الدنيا الأسخياء، وسادة الآخرة الأتقياء. وقالت العرب: الكرمُ يُقرّبُ للرجل أضدادَه، والبخلُ يكرّه فيه أولادَه.

وإن كثـــرت عيوبُـــكَ في البرايـــا ... وسَرّكَ أن يكـــون لهـــا غطـــاءُ
تســـتّرْ بالســـخاءِ فكـــلّ عيـــبٍ ... يُغطّيـــه كـــما قيـــل الســـخاءُ

واعلم أنّ الأصحابَ على ثلاثة أنحاء: منهم من يُقرّبك من الله بقوله وعمله وسَمْتِه؛ فاحرص عليهم حرصك على نور عينيك. ومنهم من يُبعدك عن الله ويُقسّي قلبك ويجلب غفلتك ويطيل أملك؛ ففرَّ منهم فرارك من الطاعون، فصُحبةُ السوء طاعون الأديان، وحقيقٌ بهم ضربُ غرائب النُّوق، وإبعادُهم خلفَ العَيّوق، وأغلقِ البابَ عن الذباب. ومنهم من صحبتهم تنفع معاشك ولا تخدش معادك، إنّما تحتاجهم لصالح دنياك، وهم لا ينفعون لآخرة

ولا يُبعدون عنها إلّا إن أكثرتَ خُلطتهم، وأولئك هم أهل البَطالة ودنوِّ الهمّة والزهادةِ في معالي أمور الآخرة، وهم أكثر الناس؛ فلتكن خلطتك بهم على قدر حاجتك، مع بذلِ الجهد لنفعهم في الدارين، مع الحذر الشديد من تآكلِ همّتك للدار الآخرة، فالصاحبُ ساحب، وللأخلاق مُدرِكٌ. وعند الله للأتقى مزيدُ.

فعليك بالأصحاب الجادّين دون البطالين، واعلم أن أعظم وصية في اختيار الأصحاب هي وصية الله تعالى إذ يقول: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. واعلم أنّ كثافةَ الأرواح أثقلُ من كثافة العقول. فأبعِد عن جنابك الكذابين ورِقَاقَ الديانة والمتملّقين، فأشدّ مهيجات الغثيان التملّق.

صـحِبتُكَ إذْ عينـي عليهـا غشـاوةٌ فلـمّا انجلـت قطّعـتُ نفسي ألومُهـا

وليكن سلامك لإخوانك لمنتهى استحقاقهم بدون نفاقهم، ومَنْ مدحكَ اليوم بما ليس فيك؛ سيذمّك غدًا بما ليس فيك، ذلك أنَ بضاعة الكذب واحدة.

وعليك بانتقاء أطايبِ الكلام وأَحَاسِنِ الحديث، ولتكن أطرافُ كلماتك للناس ليّنة هنيئة، واجتنب حادّها وخشِنها. وثمّةَ فرقٌ بين جُرأةِ الرأي وجرأة اللفظ، تجنّبِ الثانية قدر استطاعتك، فتجنُّبها هو اللباقة، ولا يعني هذا الغموضَ بحال، لكنّه لطف الكلام. واللباقة هي فنّ الحديث المتوسط بين

الصراحة والمجاملة، فإن جنح الحديث نحو المجاملة؛ فيُخشى من الكذب، وإن بالغ في الصراحة بدون لطفِ مجاملةٍ؛ فهي الوقاحةُ والصَّفَاقة. وقد قالوا وصدقوا: من كمُل عقلُه حسُن لفظُه.

واحفظ كلامك مِن خدشِ قلوب مَن صحبوك ومن أحبوك، ويا صاح؛ لا تهدم القصر الذي لك في صدر صاحبك بكلمةٍ لم تعبأ بها، لكنّها عاثت في مدينةِ قلبه أسى وحسرة، وشظّت روحَه بين شواطئ الدهشة والحيرة والندم.

واحرِصْ على حِفظِ القلوبِ من الأذى   فرجوعُهـا بعـد التنـافر يصـعبُ

وكما يُحمد الرجلُ على جميل إبداعه وإنشائه في كل أمره؛ فكذلك اختياره، فحُسْنُ الاختيار دليل على قوّة العقل وجمال الذوق ورهافة الحس. فليس الإبداع والإنشاء شرطًا للنباهة أو السمو العقلي، إنّما يكفيك أن تُحسن انتقاءك، فاختيارُ المرء قطعة من عقله كما قيل، فإن أمدّك الله بمنحةِ ذاتٍ فخيرٌ. فالانتقاء ـ إنشاءً أو نقلًا ـ مسبارُ الذوق ورونقُ الأدب وميزانُ العقل، قال زياد بن أبيه: «ما قرأتُ كتابَ رجلٍ قطّ؛ إلا عرفتُ عقلَه فيه». والعقلُ جوهرة فريدة، وكنزٌ مذخور، ونعمة مكفورة لدى أكثر الخلق. ويقال: إنّ الإنسان في العادة يموت ولم يستخدم سوى بعض عقله، فاشكر النعمةَ بحمدِ مُسدِيها.

وهل تساءلت يومًا: ما هو الجمال التام الكامل الذي كلّ ما سواه عدم؟ إنّه جمالُ الله تبارك وتعالى، فهو الجميلُ، ومن أسمائه الجميل، وما أُعطي أهلُ الجنة نعيمًا كرؤيةِ وجهه تبارك وتعالى.

وثلاثٌ إن وُفّقت لهنّ فأنت بخير: حُبُّ العلم، ودوامُ العبادة، وصالحُ

الأخلاق.

وليكن معدنك الأخلاقي أصيلًا، فمِنَ البشرِ مَن معدنه كالذهبِ، لا يصدأ مهما تقادم عهده، ولا تزيدُه الخطوبُ إلا لمعانًا وجمالًا ومضاءً. وكم نحن بحاجة في زمن الترف والعجلة إلى شيء من الوعي والتّعقُّل، فمن يريد ألا يخسر أي شيء؛ سيخسر كل شيء، وقيل: إذا لم يكن ما تُريدُ؛ فأرِد ما يكون.

وحافظ على طهارة قلبك من دَغَلِ سافِلِ الأخلاق، ولتعتنِ بذلك الطفل البريء بداخل صدرك، ولْتحْسِن رعايته، فإنّه على الفطرة والمكارم جُبِلَ. وانتقِ لحديثك أطايبَ الكَلِمِ لأطايب القلوب الضامئة، وليكن لسانُك عليها كأنثارِ وبلٍ على يبابٍ صادي.

واعلم أنّ أفضلَ القلوب قلبٌ طاهرٌ من الغِلّ، وأفضل الناس من لا ينساك لأنه يحبك في الله، وأفضلُ الأيام يومٌ يمرّ بك بلا ذنب، وأفضل إهداءٍ دعاءٌ يُرفع لك وأنت لا تعلم، ومن البشر من إذا ذكرته شهق قلبك شوقًا.

فمن النفوسِ نفوسٌ إنْ استقبلتْ روحَكَ ملأتها انشراحًا وبِشْرًا، ووجوهٌ إن تذكّرْتَ قسماتِها ارتمت ذاكرةُ الجمالِ خجلى على أهدابها، وأحاديث يجتني التذكار منها ما تمنّى، تلك زينة الدنيا. وبعض الوجوه يكفيك النظر لمُحيّاها لتسكن إلى قربها، طِيبَةً وضياء وبِشْرًا وإيمانًا، فإذا نظرتَ إليها ذكرت الله عز وجل.

في وجهــهِ شــافعٌ يمحُــو إســاءتَهُ   مِنَ القلوبِ وجيهٌ حيثُ ما شفعَا

ومنهم من تودّ أن يكون سعيدًا بعيدًا، فإن بُليت بهم فاغمس ضجرك وغيضك في بحر جمال حلمك وكريم سجاياك. وقال علقمة بن لبيد في وصيَّته لابنه: «يا بني، إن نزعتكَ إلى صحبة الرجال حاجة؛ فاصحبْ من إذا صحبتَهُ زانَك، وإن خدمته صانك، وإن أصابتك خصاصةٌ أعانك، وإن رأى منك حسنةً عدَّها، وإن بدت منك ثُلْمةٌ سدّها».

وإن امـرؤٌ أهـدي إليـك صـنيعةً ... مـن جاهِـهِ فكأنّهـا مـن مالِـهِ

* **ومنها:** لا تصحب شرّ الناس ذا الوجهين، فيأتيك بوجه ويُدبرُ بآخر، قال رسول الله ﷺ: **«تجدون شرَّ الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ، وهؤلاء بوجه»**[1]. ولو تدبرَ ذو الوجهين حاله مع اطلاع العليم الخبير عليه؛ لاستبصر شناعة حاله، قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

والكذب والغيبة فشلٌ وجبنٌ وآفةٌ مهما تأول المتأولون، خلا ما أباحه الشرع، وتأمل وصف الصحابة بالنفاق لمن خالف وجهيه حتى عند السلطان، فعن محمد بن زيد أنّ ناسًا قالوا لجَدِّه عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: إنّا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم. قال: «كنا

(١) البخاري ٤/٢١٦ (٣٤٩٣) ومسلم ٧/١٨١ (٢٥٢٦) (١٩٩).

نعدّ هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ»(١). والرجلُ حقًّا هو من كان وجهه واحدًا مهما تقلّبت أيامُه. قال حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إياك والتلوّن في دين الله، فإنّ دينَ الله واحد».

حـرامٌ عـلى أرماحِنَـا طعـنُ مُـدْبِرٍ وتندقُّ قُدْمًا في الصدورِ صدورُها
مُحرَّمـةٌ أعجـازُ خـيلي عـلى القَنَـا مُحَللـــةٌ لُبّاتُهـــا ونُحورُهـــا

* **ومنها**: اعتزالُ من تضرّكَ خلطته. فاحذر مصاحبة بعض النفوس التي لا تستطيع العيش والتنفس إلا في أجواء التفرّق والشقاق وانتشار الضغائن، فهي كدغاليب المستنقعات، يغذّيها الكدر، ويقتلها النقاء والصفاء، لا تصحبنّ أولئك فالمصاحبة ذريعة المُشاكلة. ومن خالط الناس وصبر على أذاهم لنفعهم فهو أفضل وأولى، أما من خاف على دينه وفي الناس كفاية عنه فالعزلة أحتم، والعافية لا يعدلها شيء. وليس أروحُ من أنفاسٍ لا تخالطها معصية.

واعلم أنّ شيطان الإنسِ أشدُّ فتكًا بالدين من شيطان الجن، وتأمّل تقديم ذكره في الشيطنة في عداوته الأنبياء وأتباعهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]. ومَنْ أطعمكَ دنياه ليطعم من دينك؛ فألقِ دنياه في وجهه، وانفُذ بعافيتك، فدِينك دَينك لا تثلمنّه، ورأس مالك هو الإيمان ولتحقيقه خُلقت.

وأوصى الإمام الشافعي تلميذه الربيع رحمهما الله تعالى فقال: «مَن أحب

(١) البخاري ٩/٨٩ (٧١٧٨).

أن يَفتح اللهُ قلبَه ويرزقه العلم؛ فعليه بالخلوة، وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب»(١).

والصاحبُ ساحبٌ إما للحق والهدى وإما للشر والردى، ومَن زعم أنه لا يتأثر بجليسه فهو مكابر أو مخدوع، فالطِّباع سَرَّاقةٌ، والنفس الإنسانية بطبعها مجبولة على التأثّرِ بالصحبة. ومن الأصحاب ذبابُ طمعٍ فلا تنخدع بهم ولا تحفل بقربهم.

وكـان بنـو عمّـي يقولـون مرحبًـا ... فلـمّا رأوني مُعْـدمًا مـات مرحـبُ

والمحبةُ النافعة هي ما كانت لله، وفي الله، وعلى طاعة الله، وفي مرضاته، وما سواها للزوال، بل للوبال. فليكُن ثوبُك نقيًّا من لوثات الهوى، وصحيفتُك بيضاء بطيب عملك. وتأمل فضيلة النقاء بتأمّلِ حالِ أبوينا عليهما السلام، فلمّا كان الأبوان نقيّين؛ ذكرَ الله تعالى كلامه لهما بصيغة القُرب: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩] ولكن بعد الذنب كان بصيغة النداء، إشعارًا بنوعِ بُعْد: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢٢] فالعَلْياءُ نقاءٌ. أما مع إبليس: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] لأنّ الملأ الأعلى لا يليق به متكبر، بل مكانه: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] فما تكبّر على الحق إلا لصغره وصَغاره، فاستحقّ البِعَاد لحالِكِ الظُّلَمِ وضيق الدركات.

* ومنها: الحكمةُ. فكن حكيمًا هادئًا لا طائشًا متسرّعًا، واحذر أمَّ الندامات:

---

(١) المجموع شرح المهذب (١ / ١٣) وبستان العارفين (١ / ١٨) وكلاهما للنووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

العجلة. وقد أخطأ العجولُ أو كاد، وأصاب المتأنّي أو كاد، وربّ عجلةٍ تُعقب ريثًا. وإن كان صدرُك يضيق عن احتمال النقد؛ فاقبض لسانك عن البيان سلفًا، فميدانُ الكلام واسعٌ لمن يعقلون، وكذلك لأضدادهم.

وإن أُعجبتَ برأيك فلا تستعجل قرارَك، وعليك بالتؤدة؛ فقلّما تروّى عاقلٌ فندِم، وكم من حكمةِ ذي رأيٍ تاهت في غَمَرَات العجلة، فهل مرّ عليك أنْ اتّهمتَ أحدًا وبنيتَ على ذلك أمرًا، ثم تبيّن ظلمُك بعد الفوات؟ حقًّا ما أمرّ ذلك.

وإذا تشاجرَ في فؤادك مرّةً ... أمرانِ فاعمد للأعفِّ الأجملِ
وإذا هممتَ بأمرِ سوءٍ فاتئدْ ... وإذا هممتَ بأمرِ خيرٍ فاعجلِ

واعلم أنّ استعجالَ الحلولِ لبعض المشاكل بالتنقيب والاستدعاء يزيدُ تفاقمها ويضري نارها، والزمنُ كفيلٌ بحلّها بهدوء، أو على الأقل ردمها بتراب التقادم والنسيان.

ولكلّ مؤلف وكاتب وشاعر وناثر وأديب: اكتب ما شئتَ، ثم اطوهِ زمنًا حتى يختمر نضجًا، ثم راجعه وصحّحه واحذف منه كثيرًا وأضف إليه قليلًا، ينجع المسعى بإذن المولى.

وفكّر في الموضوع وتأمله قبل البحث في موارده؛ حتى لا تجعل الآخرين يفكرون نيابة عنك، واقرأ الشخص قبل أن تقرأ عنه؛ حتى لا تظلمه بمنظار غيرك. ولا تستعجل أحكامك، ففي الدنيا وفي الناس وفي أنفسنا أشياء كنا نظن أننا نفهمها تمامًا، ثم يأتي زمانٌ يعلّمنا حقيقة جهلِنَا المُطبِق بها، والله المستعان.

وفي أمورك الكبار لا تعجل باتخاذِ قرارك، بل شاور الأقوياء الأمناء، ثم استخر رب الأرض والسماء، فكم من اختيار يُبنى عليه عمرٌ ومصيرٌ، وربَّ لحظةٍ انبثق منها زمانٌ مختلف. فإذا استبان لك طريقك، وأضاءت بصيرتك؛ فاعزم عزم الرجال واحزم أمرك حزم الكرام، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ثم بادِرْ على مَهْلٍ، ولا تندم على أمرٍ مضيت فيه بعد استخارتك علّام الغيوب، واعلم أنّ الخيرة قد يتأخّر إدراكُها، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكم رمتُ أمرًا خِرْتَ لي في انصرافِه ... وما زلتَ بي مِنِّي أبرَّ وأرحما

وإياكَ والتّردّد، فإنّه عيبٌ في الرجل، وخَوَرٌ في العزم، بل افعل ما يلزمك أن تفعله، وليكن بعد ذلك ما يكون!

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذا عزيمةٍ ... فإنّ فسادَ الرأيِ أن تتردّدا

وإنّ من أقوى مخلوقات الله: هِمّةُ الإنسان إن صاحبها عزمٌ وثباتٌ ويقين. فلا تقُل: هذا الأمرُ مستحيلٌ، بل يبقى دومًا هناك خيار. ولما سأل الجنرال الإيطالي جراتسياني عمرَ المختار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو عفونا عنك هل تعدني أن تترك حربنا؟ فأجابه مُقسمًا: «لن أتركَ حربَكم؛ حتى أطردكم أو أموتُ». فشنقه. ومعلومٌ مَنِ المنتصر، ففي الدنيا عُمَرُ لأنّه قد صار أيقونةَ مُدافعةٍ واستشهاد، وفي الآخرة: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار، الله مولانا ولا مولى لكم، فميزانُ النصر ليس موتُ إنسان، فلربما يكونُ بموته حياة أُمّة، وتأمّل

قصة الغلام في أصحاب الأخدود. وقد قيل: من كنتَ تحبُّ الحياة لأجله؛ فلا تستعظم الموت لأجله. فالثباتُ على الحق والإيمان هو النصر المؤكّد والفوز الحقيقي، وتأمل خبر جموع الشهداء المُحرّقين لأجل دينهم من أصحاب الأخدود، وكيف سماه الله الفوز الكبير، كذلك سحرة فرعون حين أسلموا ثبتوا، فكان هذا نصرهم.

وتدبّر قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾ [مريم: ٨١-٨٤]. فلا تعجل، فكلّ شيء بحساب ومقدار. وفي كلّ معركة. حسيّة كانت أو معنوية. يتبقى هناك خندقٌ أخير، يجتازه المنتصرُ ويُدفن فيه المهزوم، فهل حصّنت خندق إيمانك من عدوّك الرجيم!

واعلم أنّ اتِّباعَ العاطفة كثيرًا ما يعقبه الندمُ، فاتْبَعْ علمَك وعقلَك ففيهما الحكمة، أمّا قلبك فأخّره قليلًا، فعاطفتي الشهوةِ والغضبِ عمياوان، وناصحُ العقل خيرٌ من ناصح القلب.

وإنّ الاستغراق في التفكير والتأمّل؛ صقيعٌ عقلي، كما أنّ ركوبَ متنِ المشاعر بلا لجامٍ؛ حريقٌ نفسي، والحكمةُ في مزجهما بعناية ولطف. فالنفس تُملِي وتتمنّى، وتُزيّنُ وتُسوّل، وتُبدّل وتتأوّل، والعقلُ واعظٌ ناصحٌ عليمٌ مشفقٌ حكيمٌ، والقلب بينهما حرونٌ متقلب، حتى يطمئن في فردوس الإيمان. وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «رأسُ الحكمةِ مخافةُ الله». فمن خاف الله؛ خافَهُ كلُّ

عدو، واجتذبه كلُّ توفيق، واعلم أنّ مصيرك غدًا .بإذن الله.هو قرارُك اليوم.

إذا هبّـــتْ رياحُـــكَ فاغتنمهـــا ... فـــإنّ لكـــلّ خافقـــةٍ سُـــكونُ
وإن درّتْ نياقُـــكَ فاحتلبهـــا ... فـــما تـــدري الفصـــيلُ لمـــن يكـــونُ

وعليك عليك بوقودِ الآخرة، واعلم أنَّ الأملَ وقودُ الصابرين، والشوقَ وقودُ المحبين، والرجاءَ وقودُ العاملين، والخوفَ وقودُ الهاربين. وكلُّ شيءٍ تخافه ففرّ منه سوى الله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذاريات: ٥٠] وكلُّ شيء يُحَبُّ لغيره خلا الله؛ فإنه يُحَبُّ لذاته، وكلُّ فوزٍ زائلٌ حاشا الفوز بالجنة: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. ومهما كثُرتِ الحِكَم فلن تجد كهذه الثلاثية الربانية الفريدة: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وإنّ الموفق هو مَن وَرَدَ مناهلَ الحكمة من أفواه أهلها، وقَدَحَها من معادنها، وتأمّلْ وصية علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لصاحبه كُميل بن زياد النخعي، قال كُميل: أخذ بيدي علي بن أبي طالب فأخرجني إلى ناحية الجُبّانة، فلمّا أصحر تنفّس ثم قال: «يا كُميل، إنّ هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، احفظ عني ما أقول لك: الناسُ ثلاثة: عالمٌ ربّاني، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع أتباعُ كلِّ ناعقٍ، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركنٍ وثيق.

يا كُميل: العلمُ خيرٌ من المال، العلمُ يحرسك، وأنتَ تحرس المال، والعلمُ يزكو على العمل، والمالُ تنقصه النفقة.

يا كميل: محبةُ العالِمِ دِينٌ يُدانُ بها، العلم يُكسِبُ العالِمِ الطاعة لربه في حياته، وجميلَ الأحدوثةِ بعد وفاته، وصنيعةَ المال تزولُ بزواله، والعلمُ حاكِمٌ، والمالُ محكومٌ عليه.

يا كُميل: مات خُزّانُ الأموال وهم أحياء، والعلماءُ باقون ما بقي الدهر، أعيانُهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، هاه، إنّ هٰهنا. وأشار إلى صدره. عِلمًا لو أصبتُ له حَمَلَة(١). ثم قال: اللّٰهم بَلَى، أصبتُهُ لقِنًا غير مأمونٍ(٢) يستعملُ آلةَ الدِّينِ للدنيا، ويَستظهرُ بحجج الله على أوليائه، وبنِعَمِهِ على معاصيه، أو مُنقادًا لأهل الحق لا بصيرةَ له، يقتدحُ الشك في قلبه بأوّل عارضٍ من شُبهة(٣)، اللّٰهم لا ذا ولا ذاك، أو منهومًا باللذات سَلِسَ القيادِ للشهوات، أو مُغْرًى بجمعِ الأموال والإدخار وليسا من دعاة الدين، أقربُ شبهًا بهما الأنعام السائمة.

كذلك يموتُ العلمُ بموت حامِليه. ثم قال: اللّٰهم بَلَى، لا تخلُ الأرضُ من قائمٍ لله بحُجّة، إمّا ظاهرٌ مشهور، وإما خائفٌ مغمور، لئلّا تبطُلَ حُجَجُ الله وبيّناتُه، وكم وأين أولئك، أولئك هم الأقلّون عددًا، الأعظمون عند الله

---

(١) أي أنه يتشوّق أن يبث علمه في صدر طالب علمٍ يستحقّ أن يُبذل له العلم.

(٢) أي عنده فهم بلا ورع، وذكاء بلا زكاء.

(٣) أي عنده أمانة وورع، لكن بلا عقلٍ متين.

قدرًا، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هَجَمَ بهم العلمُ على حقيقةِ الأمر[١]، فباشروا روحَ اليقين، واستسهلوا ما استوعرَ منه المُترفون، وأنِسُوا بما استوحش منه الجاهلون، صحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلّقة بالنظر الأعلى»[٢].

* **ومنها:** الرفقُ في الشأن كله، وبخاصة في مسائل الدعوة إلى الله تعالى، وفي الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الله رفيقٌ يحبُّ الرفق في الأمر كلّه**»[٣]. فلم يستثنِ شيئًا من محبة الله للرفق فيه، وتأمل كيف وصف الله تعالى بالرفق، وقال: «**إنّ الله رفيقٌ يحبّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه**»[٤]. وقال: «**إنّ الرفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه**»[٥]. ولئن كان الحلمُ سيد الأخلاق؛ فالرفقُ تاجها، فالرفقَ الرفقَ معاشر الدعاة إلى سبيل الله.

---

(١) وهو غاية طلب العلم بعد رضوان الله تعالى.

(٢) كنز العمال (١٠ / ٢٦٢) (٢٩٣٩١) وإن كان في إسناده كلام، لكن معانيه حسنة جميلة. قال ابن القيم في إعلام الموقعين (٢ / ١٩٥): «وهو حديث مشهور عند أهل العلم، يُستغني عن الإسناد لشهرته عندهم». ونقل عن أبي بكر الخطيب في مفتاح دار السعادة أثناء شرحه له (١ / ١٢٣) قوله: «هذا حديث حسن من أحسن الأحاديث معنى وأشرفها لفظًا».

(٣) البخاري ٩/ ٢٠ (٦٩٢٧)، ومسلم ٧/ ٤ (٢١٦٥) (١٠).

(٤) مسلم ٨/ ٢٢ (٢٥٩٣) (٧٧).

(٥) مسلم ٨/ ٢٢ (٢٥٩٤) (٧٨).

لقد ألان رسول الهدى ﷺ الخطاب والأسلوب إلى رأس الكفر هرقل، ووصفه بعظيم الروم، ولا زال بعضُ القوم يصف إخوته من حَمَلَةِ القرآن بالبهائم والكلاب.. سبحانك ربي! وهذا شأنُ كثيرٍ من الردود والحوارات والمناظرات، فهي مرتعٌ خصيبٌ لسلطان الاستطالة، ووقودٌ جزْلٌ للقوّة الغضبيّة، أعاذنا الله جميعًا منها إلا بحقّها. فالخشونةُ في الخطاب على خلاف الأصل المحمديّ إلا على وجهه السائغ؛ كإنكارٍ على مكابرٍ، أو زجرٍ لِغَالٍ، ونحو ذلك مما جاءت به الشريعة، وأُولى درجاتِ حسنِ الخلق؛ البشاشة.

وهو الرفيقُ يُحبُّ أهلَ الرّفقِ بل ... يعطيهمُ بالرفقِ فوقَ أمانِ

ولا يعني هذا المنع من الشدة في حينها اللائق بها، فإن موسى عليه السلام الذي أمره الله تعالى بتليين الخطاب لفرعون بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] قد قال لفرعون بعدما رأى مكابرته وعناده وغليظ كفره: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] فالشدة في موضعها هي عين الحكمة. والله تعالى حينما شرع جدال أهل الكتاب قال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] فالظالم المعاند المستكبر منهم يُغلظ له الخطاب. وقال الله تعالى في شأن المنافقين: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨]. وبالجملة؛ فالأصل هو اللين أما الشدة فهي استثناء في موضعه، وقد تُبتلى يومًا بمن تسودّ نظرتك إليه حتى تظنّه أخبث من نطفة إبليس، فما هو إلا أن يغيب عن ناظريك زمنًا ثم يعود مُبهرًا لفؤادك طُهرًا

ونورًا وصفاءً وخيرًا حتى يذكّرك مرآه بطهر ونور الملائكة الكرام! فالقصد القصد في حبك وثنائك وفي بغضك وتعييبك، والله المستعان[١].

ولا تكن كثير المخالفة لمن حولك، فقلّما يبقى صديق مع معتادِ الخلاف. وادفن كثيرًا من آرائك وملاحظاتك ونقداتك غير الملحّة، فأكثرُ الصمتِ نافعٌ. ولا بدّ أن تعلمَ أنّ الناس غيرُ معنيّين بتعكّر مزاجك أو صفائه، لكنك معنيٌّ بما تقول وتفعل مهما كان حالك. ومن جميل وصايا السراج البلقيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الانتهاض لمجرد الاعتراض من جُملة الأمراض».

أي صاحبي: لا تكن من قومٍ ظنّوا الصفاقة شجاعة، والوقاحة بسالة، ولِّ وجهك عنهم؛ فالحياءُ خيرٌ كله. ويا طالب العلم: احذر أن تتّخذَ العلمَ بغيًا، فالعلم هدى ورحمة، لا عدوانًا وبغيًا واستطالةً بحق أو بغير حق، وما كان الرفق في شيء إلا زانه. وتذكّر أنّه ليس من سيما طالب العلم الناصح والداعية الصالح الرعونةُ والتشنج وضيق العطن والحدة والشدة في الخطاب. وفي مبالغةٍ هادفةٍ قال محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ انتشارَ الكفرِ في العالم، يحملُ نصفَ أوزاره متديّنون بغّضوا الناس في الدين بسوء صنيعهم وسوء كلامهم». قال ﷺ: **«السَّمتُ الحسنُ، والتؤدة، والاقتصاد، جزء من أربعة وعشرين جزءًا من النبوة»**[٢]. وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ

(١) وانظر: هل انتشر الإسلام بحدث السيف؟ للمؤلف.

(٢) أخرجه الترمذي وحسّنه، والمخلص في الفوائد المنتقاة (١٠ / ٧ / ١) بإسناد حسن. وانظر: صحيح الجامع (٣٠٠٧، ٣٥٨٦).

ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩] قال: السّمتُ الحسن(١).

وتأمل العقلَ الوافر للإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذ قال عنه يوسف الصدفي: «ما رأيتُ أعقلَ من الشافعي، لما اختلفتُ معه وخرجنا، أخذ بيدي وقال: ما يمنعُ إذا اختلفنا أن نكون إخوةً» وأهمِسُ لك: مَن عصى الله فيك؛ فلا تعصه فيه، ومَن أخرجك من السنة لهواه أو لجهله؛ فلا تخرجْه من السنة لأجل ذلك، بل احلم واعلم أنّك الأسعدُ باتّباع نبيك ﷺ بدفع السيئة بالحسنة. وافرح ببشارة ربك: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٥]. فالمشاعرُ لا تُقدَّمُ على الشعائر: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾ [المائدة: ٢]. وكن عند اشتداد الخصومات واجتماع أسباب الشرور كالنبهاني إذ يقول:

فَـما ليَّنَـتْ مِنَّـا قَنـاةً صَـليبَةً ... ولا ذَلَّلتنـا للتـي لـيسَ تَجْمُـلُ
ولكـن رَحَلْناهَـا نُفُوسًـا كَريمَـةً ... تُحَمَّـلُ مـالا يُسْـتَطاعُ فتحمِـلُ
وقَينـا بِحُسـنِ الصـبر منـا نُفُوسَـنَا ... فَصَحَّتْ لنا الأعرَاضُ والنّاسُ هُزَّل

❋ **ومن الوصايا:** لا تجعل مزاجك حاكمًا لمنهجك، كأن تكون غضوبًا أو عجولًا أو سيء الظن أو متشائمًا.. وإلا فما فائدة العلم إذا لم تتخلّق به وتتطبّع بآدابه وتلتزم بحدوده! وإنّ لدى غير قليل من طلبة العلم أزمةُ أخلاق، فيا

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٢ / ٢٨٦).

ليتَ العلماء والقدوات والمربين يولونها عناياتهم الفائقة.

وأكثرُ الأخطاء التي ندمنا عليها في مسيرة حياتنا مردّها للغضب، وخيرًا تفعلُ لنفسك ولغيرك لو تركتَ الجواب أثناء الانفعال، دَعِ المشاعرَ تبرد؛ حينَها ينقشعُ غيمُ الغضبِ عن جوهر الصواب. وصدّقني: إن سكتَّ وسكنتَ وقتَ الغضب والانفعال؛ فستسلمُ من نصف مشاكلك بإذن ربك. والغاضبُ لا عقل له، والضَّجِرُ لا حِلم له، والخائفُ لا فِكر له، والطامعُ لا صبر له، أي على التمام.

* **ومن التوصيات:** التأكيدُ على معاملة الخلق بما ظهر منهم، وردّ سرائرهم إلى العليم الخبير سبحانه، فإنّ الطعن في النيّات رقَّة في الدين ونقصٌ في العقل. فالسرائرُ علمها إلى علام الغيوب وحده، ودَعْ عنك سابلةَ من كان ديدنهم في أحكامهم طعن نيّات العباد، ومِن نقص العقل اتهام النيّة الخفيّة.

وفرقٌ بين هذا وبين الكلام في المآلاتِ التي منها الحذرُ المشروعُ من ذرائعِ المفسدين بقوالبِ الإصلاح، وهذا مقصدُ السلف بكلامهم في هذا الباب. وإنّ بين التوسّع في فتح الذرائع والتشدد في منعها برزخٌ انتهى إليه الموفّقون.

فنيّات البشر لهم وعليهم، ليست لك ولا عليك، وليسَ لك اتهام ضمائرِهم، ولا شق صدورهم والتنقيب عن نياتهم، فليس لك من ذلك سوى ظواهرهم، ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠]. وإنّما تظهر حقائقُ معادن البشر عند صهرها في تنّور معاملة الخلق، ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

وكلّ إنسان مُبتلى بغيرِهِ مِن البشر، سواء ارتفعوا عنه في الدين أو الدنيا أو اتّضعوا، فالابتلاء حاصل بالجميع على الجميع؛ ليبلو الله صبرنا وإيماننا. ومن قواعد الحياة: كن مطمئنًّا فلا ألم في الدنيا يدوم.

❋ **ومنها:** تذكّر أنّ الأصل في المسلم السلامة حتى يثبت العكس. فالمخذولُ من أعملَ في عباد الله قاعدة أسوأ المحامل، وقدّم سوء ظنونه، وركب قلائص بغيه لمراقد فِتَنِه. واعلم أنّ سوء الظن رائجٌ في سوقهم، فاغنم عافيتك واحذرْه، فإنّه سمٌّ للقلب ناقع، ووباء يفتك بطهارة صدرك ونقاء روحك وصفاء نفسك وسلامة دينك.

ولكم يعزّ عليَّ رؤيةُ بعضِ منتسبة السلفيّة يسيئون إليها بسوء فهومهم من حيث أرادوا الإصابة، وبقبح أخلاقهم من حيث أرادوا الإحسان. إنّ السلفية ليست مجرد اعتقاد بلا وعيٍ لمضمونه، بل هي سلامة اعتقادٍ يُثمرُ طيب السلوك، وصالح الأخلاق، وحسن العبادة، ولين المعاملة.

وكثيرٌ من سوء الظن بالناس ناجمٌ عن ضعف ثقة المرء بنفسه. وياللهِ! كم هدم سوءُ الظنِّ من بيوتٍ، وقطّع أواصرَ قلوبٍ، وأوحش بعد الأُنس الصدور، فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولـمّا مرض الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عاده بعض أصحابه فقال له: قوّى الله ضعفك. فقال الشافعي: «لو قوّى ضعفي لقتلني»! فقال: يا إمام، والله ما أردتُ إلا الخير، فقال: «أَعلمُ أنّك لو شتمتني ما أردت إلا الخير». ومرّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوم فنالوا منه فتمثل بأبيات كثيّر عزة:

هنيئًا مريئًا غير داء مخامرٍ ... لعزّةَ من أعراضنا ما استحلَّتِ

واعلم أنك إن قدَّمت سوء الظن؛ فستجد أمامَك الكثيرَ من موادّه، وإن قدّمتَ حُسنَ الظن؛ فالكثير كذلك، فعاد الأمر لنفسك؛ فاطبعها بما شئت.

وعَجَبًا لمن يتتبعُ أخطاءَ عبادَ الله بالمناقيش، ثم ينفخ فيها بسوء ظنونه حتى تكون في عينه وصدره كالجبل. يرى القذاة في عين صاحبه، ولا يرى الجذع المعترض في عينه! وإنّ سوء الظن إذا حضر؛ استضافته العيوبُ، وإن دخل حسنُ الظن؛ ازدانت بالعين المزايا، فكُن حسن الظن دومًا مع الحذر الكامن في الرِّيَبِ، وستتعجّلُ حينها عافيتك وتغنم بذلك سرورك.

ولا تكن متذمّرًا، فيبقى للحياة دومًا وجه بهيجٌ، لا يراه إلا من وثق بوجوده. وتدبر قول الملك العلام: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ [النور: ١٢] فهنا يتجلى مفهوم الجسد الواحد، فقد حضّ على حسن الظن بالمؤمنين لافتًا أنهم إنما يظنون بأنفسهم. فالإسلام يعزّز استشعار وحدة الذات مع تفرقها في الأفراد قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ١] فالذات واحدة لمن كان يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وقد سُئل أحد العلماء: من أسوأ الناس حالًا؟ فأجاب: «من لا يثق بأحدٍ لسوء ظنه، ولا يثق به أحدٌ لسوء فعله». وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لن ينتفع بعقله، حتى ينتفع بظنّه».

سأتركُ للظنِّ ما بعده ... ومن يكُ ذا ريبةٍ يستبِن
ولا تتبعِ الظنَّ إنَّ الظنون ... تُريكَ من الأمرِ ما لم يكُن

* **ومنها**: السترُ. فهو بابٌ عظيم من أبواب الدين غفل عنه بعض

الأخيار، فاجعل الأصلَ عندك الستر، أما الفضحُ فليس من سيما المؤمنين إلا بشرطه. فالله تعالى سِتِّيرٌ يحب الستر، فاستر اليوم إخوانك فإنك ـ لا محالة ـ محتاجٌ لسترك غدًا، «**ومن سَتَرَ مسلمًا؛ ستره الله في الدنيا والآخرة**»(١). واحذر السخرية، فلا تهزأ بأخيك؛ فيعافيه اللهُ ويبتليك، وإياك أن يصل بك المزاحُ للسخريةِ والأذى لعباد الله، فتدخل في وعيد الجبار تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]. واعلم أنّ دليلَ ضَعَةِ النفسِ الشماتةُ.

فقل للذي يُبدي الشماتةَ جاهلًا ... سيأتيك كأسٌ أنتَ لا بدَّ شاربُه

فعليك بالستر على المسلم والنصح له مالم يدعُ لضلاله، وعليك بحسن الخطاب في الحديث والابتداء بالمجملات والتلميحات، وليكن أسوتُك من قال الله تعالى عنه: ﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [التحريم: ٣] وما استقصى كريمٌ قط. والتعريضُ في الخطاب سنّة نبوية «**ما بال أقوام**»(٢)، وهو كافٍ في إيصال المطلوب. قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سرًّا». ولا زال بعض الطيّبين يصرُّ على ذكر الأسماء وتفاصيل أفعالهم بحجة: أنّه صريح، وهذه مغالطة، فالسُّنَّةَ السّنّةَ رعاك الله.

فلا تفرح بالمعصية، وذلك بان تنشرها مغتبطًا بالعلوّ على خصمك في صورة غاضب لله، وهذه من تلبيس إبليس. واعلم أنّ من يعمل ويبني فهو ـ في العادة ـ

---

(١) مسلم (٢٦٩٩).

(٢) البخاري ١/١٩١ (٧٥٠).

لا ينشغل بالكلام في عيوب غيره، لأنه مشغولٌ عنهم بتكميل نقصه وجبر عيبه. وكم من نِقاشٍ انقطع في الدنيا سيكتمل يوم الحساب! واحتمل .رعاك الله . أخطاءَ الناس في حقّك، فذلك من شرفك ومروءتك ونبلك وفروسيتك، قال أبو حامد: «من شكا من سوءِ خُلُقِ غيره؛ دلّ هذا على سوءِ خلقه؛ فإنّ مِن حُسنِ الخلق احتمال الأذى». ومما يُنسب للإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يُخاطبي السفيهُ بكلّ قبحٍ فأكرهُ أن أكونَ له مُجيبًا
يزيدُ سفاهةً فأزيدُ حِلمًا كعُودٍ زادهُ الإحراقُ طيبًا

* **ومنها:** الحرصُ على ألا تنشر عاهاتِ منتسبةِ السُّنة وتُشمت بها الأعداء، فلا تكن حمّالةَ حطبِ فُرقة في الأمة أو نفّاخة كَيرِ فِتَنِها، ولا تنقل جمر الشّقاق ورماد الإحن في أمتك من جهة إلى أخرى، ولا تكن كالذباب ينقل الأذى بين البشر، بل كن شريفًا عفيفًا ساميًا ورِعًا. واعلم أنّ كثيرًا مما أمامك من أسباب العداء ليس على ظاهره المتبادر إليك، بل هناك عللٌ نفسيّة من غَيْرَةٍ وحسدٍ، وأخرى ثارات شخصية، وثالثة مُخترقة من جهات لا تريد الخير لأهل السنة بعامة.. فارتفِعْ واسمُ بنفسك وبمن حولَك، واصعد عن القاعِ إنّ القاعَ موبوء. وقد قال حكيم: «ليكن حظُّ المؤمن منك ثلاث: إن لم تنفعه فلا تضرّه، وإن لم تُفرحه فلا تغمّه، وإن لم تمدحه فلا تذمّه».

وسوى الرومِ خلفَ ظهرك رومٌ فعلى أيّ جانبيك تميلُ

* **ومنها:** المحاسبةُ الصادقة للنفس. ومن ذلك الحرصُ على تنقية ثوب إيمانك من درن المعاصي، وقبل أن تثِبَ وثوبَ السباع على طريدة لسانك من

عرض أخيك؛ تذكّرْ معاصيك وذنوبك التي لولا جميلُ سترِ الله عليك؛ ما ردّ الناس عليك سلامًا. وما نحنُ في الحقيقةِ سوى كائناتٍ مليئةٍ بالعيوب، وتتزيّن بجميل ستر السِّتِّير سبحانه.. و«من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أوّلًا بحجر»(١).

وبالجملة؛ فلا بدّ من محاسبة النفس بدقّة وحزم وبصيرة وحكمة، وتجديدِ التوبة على الدوام، فالتوبةُ تجبُّ ما قبلها، والإسلام يهدم ما قبله. فلا بد للمؤمن من تجديد توبته وتعاهدها حتى يستحق خِلْعَةَ العبدِ التائب من الرب التوّاب جل وعلا، ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ومن فقه الأسماء الحسنى: أنّ اسمَ التّوابِ متضمّنٌ لأمرين: توفيقُ الله تعالى عبده للتوبة أوّلًا، ثم قبولها منه ثانيًا، فله الفضل في الأولى والآخرة وفي الأمر كله جل جلاله وتقدّست أسماؤه، كذلك يتضمن اسم الغفورِ أمران: السّتر والتجاوز، كما يتضمن اسم الحكيم أمران: الحِكمة والحُكم.

وإنّ تلك المعصية مهما تزيّنت لك، فلا بدّ أن تأتيك ساعة تتركها تائبًا أو عاجزًا، بسقم أو فقر أو عجز أو وفاة. اللّهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجَرْنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. والنفسُ. فاعلم. حَرُونٌ شرودٌ، تقوىَ عند المعصية وتضعف عن الطاعة، فلا بدّ لها من مجاهدة بالعلم والعقل

(١) منسوبة لعيسى عليه السلام. يوحنا (٨/٧).

والإرادة بعد الاستعانة لها بمولاها الذي بيده ناصيتها، حتى إذا اطمأنّت بالإيمان ساقتك هي لعليين، نسأل الله الكريم من فضله.

ومهما يكن حال إيمانك؛ لا تنس نصيبك من الليل. واعلم أنّ الاستغفار حافظُ خيرِ الدنيا، جلّابُ خيرِ الآخرة. وقيل للحسن: ألا يستحي أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه ثم يعود، ثم يستغفر ثم يعود، فقال: «ودّ الشيطانُ لو ظفر منكم بهذه». فالإيمانُ والاستغفارُ قرينان. قال شيخ الإسلام: «قوام الدين بالتوحيد والاستغفار، قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ٤٧] ». وقال أيضًا: «التهليلُ يمحو أصولَ الشرك، والاستغفار يمحو فروعه»[(١)]. وهلّا تأمل الأخيارُ قولَ ربهم: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ [البقرة: ٧٤] عن ذنبٍ طالَ به الزمان، أو زلّةٍ صغرت بين ثنايا طاعات، أو ركوبِ تأويلٍ زيّنته النفس الأمّارة، أو طاعة صادقة!

ولا تحرم نفسك ـ رحمك الله ـ من لحظاتِ صفاءٍ وهنيهات صدق، تُرمِّمُ ما تهاوى منها، وتجهزها لدار قرارها الأبدي بكل ما أوتيت من عزم وإرادة. وحرّك قلبك كثيرًا بترديد: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]. ويا أخا الإيمان: أنت بين ذنبين: ذنبٍ تذكره، وذنبٍ قد نسيتَه، فجدّد توبتك دومًا، وأكثر من الاستغفار بخشوع. قال ابن عون: «لا تثق بكثرة العمل؛ فإنك لا تدري أيُقبل منك أم لا، ولا تأمن ذنوبك؛ فإنَّك لا تدري كُفِّرَت

(١) الفتاوى (١١/٦٩٧).

عنك أم لا، إنّ عملك مُغَيَّب عنك كله».

ويا من كان له قلبٌ فانقلب، وحالٌ فاستحال: أَبْصِرْ ثم أَقْصِرْ ثم أَبْشِرْ بفتح الباب للتائبين المُدلِجين، فَلِجْه محسنًا ظنك بمن يحب التوابين، فالْحَقْ بركْبهم، وكُن في معيَّتهم، ولا تستوحش فلا زال في الصدر خير ما دام فيه نفَسٌ بين الحنايا يتردَّدُ، وتذكّر أيامك ولياليك التي كنت فيها قريبًا من ربك.

وأذكــرُ أيــام الحِمــى ثــم أنثنــي   علــى كَبِـدِي مـن خشـيةٍ أنْ تَصَـدَّعا

وفرقٌ بين الحب الصادق والحب الكامل، فكلّ المؤمنين يحبون الله حبًّا صادقًا، ولكن الشأن في كماله، فلو كمُل الحبّ؛ لاستقام القلب تمامًا. وطهارةُ القلب ذاتيّة، عصيّةٌ على التدنّس، وثمّة طهارة مكتسبة، فاعملْ كثيًرا كثيًرا لأجلها، فالأمر ـ وربّي ـ يستحق! فقد تدرك يومًا منزلة أنْ يحبّك الله تعالى، حينها لا تسل عن كل نعيم وبهجة وسعادة في انتظار قدومك عليه. ويا رب هل إلّا عليك المُعَوَّلُ.

وإنّ خاصيةَ الوقت والعمر أنّ ما مضى منه لا يعود. لكنّ اللطيف سبحانه فتح لعبده بابًا يستطيع أن يلج منه ليغيّر أثرَ السُّوءِ في ماضيه، إنّه باب التوبة! ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] فمن لم يكُ تائبًا فليس بمفلح.

❋ ومن المحاسبة النافعة؛ حراسةُ زاد الآخرة قبل الرحيل الأخير. وقد بكَى النَّخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندَ الموتِ وقال: «أنتظرُ رَسُولَ رَبي وما أدري أيُبَشِّرُني بالجنة أو النار». وقال عبد العزيز بن أبي رواد: دخلت على المغيرة بن حكيم

في مرضه الذي مات فيه، فقلت له: أوصني. فقال: «اعمل لهذا المضجع»![(١)].

وإذا حملــتَ إلى القبــورِ جنــازةً فــاعلمْ بأنّــك بعــدها محمــولُ

فيا صاحبي عليك بالعبادة، واعلم أنها أُمنيةُ الموتى، فبادر قبل أن تغادر. ولما رأى الحسن جنازة قال لمن معه: «أرأيتَكَ هذه هذا المحمول جنازةً لو عاد للدنيا فما هو فاعل»؟ فأجابه الرجل: ليطيعنّ الله حقًّا، فقال: «فإذا لم يكن هو، فكن أنت».

وكانــتْ في حياتِــكَ لي عُظــاتٌ فأنــتَ اليــوم أوعــظُ منــكَ حيًّــا

وحينما ترحل للآخرة يبكي الناسُ على فوات حظّهم منك، والقليلُ من يبكيك لنفسك، فاغنم أولئك القلّة، واعمل على أن ترحل بسلام لدار السلام بجوار السلام. ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥] وشيّع الحسن جنازةً فجلس على شفير القبر فقال: «إنّ أمرًا هذا آخره؛ لحقيقٌ أن يُزهد في أوله، وإن أمرًا هذا أوله؛ لحقيقٌ أن يُخاف آخره». وأوصى أحدُ المُحَدِّثين ابنه عند احتضاره بقراءة أحاديث الرخص ليُحسن الظن بربه، «**أنا عند ظن عبدي بي**»[(٢)].

فيا صاحبي: أوصي نفسي وإياك بالاهتمام الشديد بغذاء الروح، فغذاءُ الروح أهمّ وأخطر من غذاء الجسد، والروح تطيبُ وتخبث بحسَب غذائها

---

(١) المجالسة (٢/٢٩٦).

(٢) البخاري ١٤٧/٩ (٧٤٠٥) ومسلم ٩١/٨ (٢٦٧٥) (١).

كالجسد بل أشدّ. وأمرُ الروح عجيب، فحينًا يُرفرف بشفافيةٍ وسموٍ ونقاءٍ وطهرٍ حتى كأنما يرى الجنة، وأحيانا يتكثّف حتى يكون أصلد من الصّوان، ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥]. والسعيدُ من ولد آدم من أطعم روحَهُ الإيمان، وقلبَه ولسانَه الذكر والقرآن، وجوارحه صالح الأعمال. وحينما اشتكى أحدهم لشيخه أنّ في قلبه ذئبان يقتتلان، أحدهما أبيض طيّب والآخر أسود شرير، فأيّهما سيغلب؟ فأجابه الفقيه الحكيم: «سيغلب مَنْ كنت تُطعمه منهما».

ومن وجد نافذةً من قلبه إلى ربه فليصُنْها عن عاديات الشياطين، فقد تُغلق عليه حين تشتد فاقته لعصمة ربه، والموفق من هداه الله. وتأمل أيها الراحل حديث رسولِ الله وخليلِه وكليمِه ﷺ الذي قاله قبل موته بثلاثة أيام: **«لا يموتّن أحدُكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»**(١). تأمّله مليّا، ففيه من ذخائر انشراح الصدر وبحور إحسان الظن بالله ما لا يحصى، فهي وصيةُ المشفق المحبّ الراحل إلى مَن لم يأت الخير إلّا منه تبارك وتعالى. فليستْ لنا أعمالٌ تؤهّلنا لدخول الجنة، لكن لنا ربٌّ يستحقُّ أن نحسن الظن به بكل إحسان الظن، وهو عند ظنّ عبده به فليظن به ما شاء. فحسنُ الظن بالله هو مستودع السعادة، وإكسير التوفيق، وينبوع الانشراح. ومن اطمأنت نفسه بالقرب من ربها الآن؛ اطمئنت عند رحيلها إليه، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: ٢٧- ٢٨].

---

(١) مسلم ٨/١٦٥ (٢٨٧٧) (٨٢).

ولتنتبه ـ يا محب ـ لمسألةٍ في غاية الأهمية، وهي مسألة الحرص البالغ على زيادة منسوب الإيمان في القلب. فالإيمان ينقص ـ تلقائيًا ـ مع مضي الوقت، فليس مستواه ثابتًا، ولو كان كذلك لاقتربنا من أحوال الملائكة، فإن غلبتِ القبضةُ النفخةَ، فعاجِلْها بزاد. فإنْ لم يرفعِ المؤمنُ منسوبَ الإيمان في قلبه بتوالي الطاعات كيفًا وكمّا؛ فإنّه يُخْشَى على الفؤاد أن يُمسي جافًّا بلقعًا. والمرضُ يسبق الوفاة! وأعظمُ الخيبة ظنُّ المُبتلى في دِينه أنه مُعافى، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [الحشر: ١٩] ومن رحمته تنبيه قلوبهم بالمصائب: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢] ولكن الغافل لا عقل له.

وبعضُ الناس يظنَ أنّ المعصية المباشرة هي ما ينقص الإيمان فقط، وهذا خطأ ترتب عليه زهد بعض الصالحين في رفع مستوى إيمانهم عبر قنواته المعلومة المشروعة، وهي الطاعات تلو الطاعات، أي المرابطة في ثغور الفرائض والنوافل من قراءة وصلاة ودعاء وذكر وتفكّر وصدقة وبر وصِلةٍ وحسن خُلُقٍ وغير ذلك.. كما قال جلّ في علاه: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ [المدثر: ٣١].

وقد صار لسان حال بعض الأخيار: بما أني لم أقع في كبيرة، ولم أُصرّ على صغيرة؛ فإيماني جيّد وحالي مطَمْئِن! وكأنّه لم يعلم أنّ الغفلة تأكل هذا المخزون الإيماني في القلب. بل إنّ الانكبابَ على الشهوات المباحة، وكثرةِ ملابستها؛ هو مما يُخْلِقُ الإيمان في القلب ويُنقص منسوبه، فضلًا عن المعاصي، فضلًا عن الموبقات. ولولا ذلك لصافحتنا الملائكة في الطرقات. وهذه سنّة ربانية جعلها

الحكيم سبحانه من موارد ابتلاء عباده. قال عمر بن مرّة: قدم وفدٌ من أهل اليمن على أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فقرأ عليهم القرآن فبكوا، فقال أبو بكر: «هكذا كُنَّا حتى قست القلوب». وكان يقول: «طوبى لمن مات في نَأْنَأَةِ الإسلام». أي: بدءِ الإسلام، وقِلَّة عَدَدِه وعُدَدِه، وطراوة الدين، وصفوة القلوب من كَدِر الدنيا، لمّا كانَ أهلُه قلّةً مُستضعَفين. والله تعالى قد عاتب الصحابة في نحو هذا فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

فعلى الناصح لنفسه أن يراعيَ ذلك المخزون من الإيمان في قلبه، وأن يستمرّ ويداومَ على تغذيته باستمرار، فهو كالخزّان الذي ينزف الماء من أسفل، ولا حيلة في إغلاقه. فتردُّدُ النَّفَسِ في الصدر في هذه الدار هو ذلك الخرق اليسير في أسفله، فإنْ صاحَبَهُ توسُّعٌ في مباح، أو ركونٌ لمكروه، أو طولُ غفلة عن ذكر، أو ملابسةُ خطيئة؛ فتلك خروقٌ أخرى في جدار خزان الإيمان الكبير، وعلى قدر خطرها يكون نزْفُه. فخروقُ الخطايا يمكن سدّها بالتوبة الصادقة النصوح، أما ذلك الخرق الأول اليسير فلا حيلة في سدّه بسبب ثَقْلةِ الطين، وجذب الغريزة، وتحتّم مخالطة المادة. ولكن الحيلة تكمنُ في تعويضِ ما ذهب بمنسوبٍ جديدٍ من الإيمان، ومواردُهُ بحمد ربنا في متناول كلِّ مؤمن مهما كان حاله. وعلى قدرِ كيفية وكمّية إحسانِ الطاعة إخلاصًا واتّباعًا؛ يكون المنسوبُ أغزرَ وأصفى وأضوأ. والشأنُ فيمن يملأ ذلك المخزون حتى يفيض على أركانِ روحه، فتطمئنّ للقاء ربها، وتنتظر موعوده وأجله الذي أخفى

وقته، وحتّم وقوعه.

وتأمل الحكمَ السامية في فريضة الصلوات الخمس بديمومةٍ لا يقطعها إلا الرحيل الأخير، وما فيها من ذكرٍ وابتهالٍ وتعلّق، كذلكَ الخشوع في الصلاة، وما يترتب عليه من نعيمِ أنفُسٍ لا يصفها إلا من ذاقها من الموفّقين. وتفكّر في مشروعية الاعتكاف كلّ سنة، وما يصاحبه من جمعيّة قلب على الله. وتأمل قول نبينا ﷺ: **«إنّ الإيمانَ ليَخْلَقُ في جوفِ أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدّد الإيمان في قلوبكم»**[١].

ومما يلحق بذلك. وهو من أعظم تسويلات الشيطان. مَنْ سوّفَ التوبة إلى أن تقوى إرادته في المستقبل، حتى يستطيع كبح جماح نفسِه الأمّارة. وهذا مُستبعدٌ حصوله في العادة إلا بمحض اللطف الربّاني، لأنّ العزيمة القوية للتوبة، والحملة الصادقة للأوبة؛ لا تكون في القلب إلا بعد وصولِ الإيمان لدرجة عاليةٍ من شأنها حرق شهوة العصيان. فحالُ هذا كمن يستوقد من الماء، أو يمتح من النار.

أطلّتْ علينا منكَ يومًا سحابةٌ   أضاءتْ لنا برقًا وأبطَا رشاشُهَا
فلا غيمُها يجلُو فييأس طامعٌ   ولا غيثُها يَهمِي فيُروَى عِطَاشُهَا

ومِن الناس من قوَّتُه في جسده، ومنهم من قوّته في عقله، وخيرُهم من كانت قوّته في قلبه. وهاكَ وصية تختصرُ لك وصايا السَّيرِ إلى الله تعالى لابن

---

(١) رواه الحاكم (١ / ٤) ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

الفرخي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليكُن همّك مجموعًا فيما يُرضي ربك، فإن اعترض عليك شيء فتُبْ من وقتك». وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلّ يوم تحضر مجلس الذكر يقف لك الشيطان على الباب، فإذا خرجتَ كما دخلت قال: فديتُ من لا يُفلح. فيا صبيان التوبة: هِلالُكم خفيٌّ، فدوموا على المعاملة يصرْ بدرًا، ولا بد من ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ [محمد: ٣١]. دبّر دينك كما تدبّر دنياك، ولو علق بثوبك مسمارٌ رجعت إلى وراء لتخلّصه، فهذا مسمار الإصرار قد نشب بقلبك، فلو عُدتَ إلى الندم خطوتين لتخلّصت. يا مقهورًا بغلبة النفس، صُلْ عليها بسوط العزم، فإنّها إن عرفت جِدّك؛ استأسَرت لك. امنعها ملذوذَ مباحها؛ ليقع الصلح على ترك الحرام». وما أجمل ما كتبه الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله: «كأنّك بالدنيا ولم تكن، وبالآخرة ولم تزل، والسلام».

نعم، فذِكْرُ الموت كفيلٌ بإذابة أعتى الشهوات. وقال ابن مطيع:

أنا الذي فررتُ يوم الحرّة والشيخُ لا يفرُّ إلا مرّة

ولا بأس بالكرّة بعد الفرّة

وبالجملة: فالإصرارُ على الذنب - أيًّا كان - ينقص مخزون الإيمان الذي بدَورِه يُذيب الشهوة ويحرقها، لذا فإن ضعُفْتَ عن الإقلاع الفوري عن الخطيئة، فلا تترك التزوّدَ من الطاعات ونوافل القربات بحجّة أنك لستَ أهلٌ لها لإصرارك، بل أمدّ الخزّان بالإيمانيات، حتى وإن كنت مقيمًا على الذنب، ومن أعظم الإيمانيات؛ تلاوة القران بتدبر، والضراعة بين يدي مولاك، حتى إذا وصل منسوب الإيمان لمستوىً معيَّنٍ؛ كفاك مؤنة ضعفك، وأحرق شهوة

العصيان، فدخلتِ التوبة من أوسع أبوابها. وإذا ضايقتْكَ الخطايا فزاحِمْها بالطاعات. وقلوبُ الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة. ومِنْ وصْفهم لتلاوة الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانت قراءة الفضيل: حزينة، بطيئة، شهيّة، مُترسّلة، كأنَما يخاطب إنسانًا». اللّٰهم تب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

وليس مستغرب وقوعُ المؤمن في الذنب، فكلنا بشر ذوو خطأ وضعف ومعصية، إنما الغرابة في الإصرار بعد الانتباه، أو المكابرة بعد التذكير، أو التساهل بعد التلوّثِ بنَجَسِ الخطيئةِ. وتذكّر أنّ كلّ قبيحٍ يتلاشى مع التعوّد، حتى قبح المعصية!

قال ابن الجوزي: «كان لَبّانٌ يخلط اللبن بالماء، فجاء سيلٌ فذهب بالغنم، فجعل يبكي ويقول: اجتمعت تلك القطرات فصارت سيلًا. ولسان الجزاء يناديه: يداك أوكتا وفُوكَ نفخ». والمؤمن الموفّق إذا لدغت قلبَه الخطيئةُ وصعب عليه الخروج من حفرتها؛ فإنّه يقنت لربه ويلحّ ويضرع، ويجعل هذا الأمر بين عينيه صبحًا ومساء؛ حتى ينجو ويفلح. وسئل سعيد بن جبير: من أعبد الناس؟ فقال: «رجلٌ اقترف ذنبًا، فكلما ذكر ذنبه، احتقر عمله وانكسر لربه». والتوبة هي العلاج الناجع لمن يخشى ذكر الموت: قال أحد السلف: «كلّ شيء تخاف الموت لأجله فاتركه، ثم لا يضرك متى مت». وحين يتأمل المرءُ تفاصيلَ عيوبه بكافة اتجاهاتها؛ فإنّه يصاب بالإحباط والفشل، لكن ثمّةَ شيء خارج عنه ينشرح صدره جدًّا عند ذكره؛ إنّه حسنُ ظنه بالله تعالى. ودليل حُسنِ الظنّ صدقُ المحاسبة وإحسانُ العبادة.

ويا صاحبي، أقم الصلاة في قلبك قبل جوارحك، ثم اهتف لنفسك عند كل بريق طمع أو شهوة حرام أو غائلة غضب: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وإنّ كثيرًا من تصرفات الناس مرتبطةٌ مباشرة بمدى حضور ويقين الإيمان بالبعث بعد الموت، لذلك من المفيد جدًّا استحضاره دومًا، قال ربنا: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. ومهرُ الجنةِ العملُ الصالح لا الأماني المُفلسة، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ [النساء: ١٢٣] وقال: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فقال: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل: تتمنّون.

* **وإياكَ والوسواس،** فلا تستهن ببداياته بل ازجرها بالاستعاذة، واخطمها بالانشغال عنه وعدم التفكير به، واستعن بحسن الظن بالله تعالى. قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سببُ الوسوسة: خَبَلٌ بالعقلِ أو جهلٌ بالشرعِ»(١). وإنّ مِن أعظم ما تُدفع به الوساوس في الإيمانيات: العلمُ بأنّ الله تعالى قد تجاوز لهذه الأمة ما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم.

ومِن أعظم ما تدفع به وساوس العبادات: العلمُ بأنّ الطهارات والعبادات مبنيّة على غلبة الظن لا اليقين بحمد الله تعالى. وكثرةُ ذكرِ الله مجرّبةٌ في دفع جميع أنواع الوساوس.

---

(١) الإحياء (١/٢٤٩).

وإنّ من التنطّع والغلو: الوسوسةُ بتتبّع احتمالات دخولِ مانعٍ على حلِّ الطيبات، لذلك قيل: «لا يُتصوّر يقينٌ تامٌّ بالحِلِّ؛ إلا لمطرٍ نازلٍ من السماء متلقّى باليد»! ولا تكن ـ حرسك الله ـ ممّن يُسيطر عليهم هاجسُ الشك في تعامل الناس معه، فأكثر من يشقى بالشّكوكي هم أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه، فالشكّ داءٌ عضال، ودواؤه المحاسبة الحازمة للنفس الأمارة.

* **ومنها:** تركُ الالتفاتِ للذين يصدّون عن سبيل الله ـ ولو بحسن نيّة منهم ـ ما دام هذا خُلُقٌ لهم، الذين يتعلقون لإثبات باطلهم بأوهى من خيوط العنكبوت، كمن ينادي بإغلاق حِلَق تعليم وتحفيظ القرآن لأنّ معلّمًا في مكان ما قيل إنه قد فعل وفعل.. وهذه الشبهة إظهارُها كافٍ لإبطالها.

* **ومنها:** العنايةُ بفقه الأولويات والتوازنات وقواعد المصالح والمفاسد من التقديم والتأخير والتحصيل والاحتمال والدفع والرفع على ضوء المُحكمات الشرعيّة.

* **ومنها:** العملُ بقاعدة: لا إنكار في مسائل الاختلاف السائغ(١). ولو أنّ أهلَ الشَّغَب العلميّ والدعوي عُنوا بهذه القاعدة وتقيدوا بها؛ لكفوا الأمة شرَّ الفُرقة وشماتة الأعداء. فبعضهم لسانُه مقراضُ أعراضِ الغافلين والغافلات من المؤمنين والمؤمنات، ولو تدبّر الحالَ بعقل من ينظر للأمر من آخر مرحلة من

---

(١) قد تردك بعض المعاني فيها تكرار، لكنه تكرار تنوّع لا تكرار ألفاظ، وله فوائد أعظمها التأكيد والتوضيح، والطارفُ يُذكّر بالتليد، وهذا نهجٌ قرآني كريم، وقد قال الفقهاء:

كرّر العلم يا جميل المُحيَّا   وتدبّره فالمُكرَّر أحلى

حياته؛ لتغيّرت مفاهيمه وأخلاقه وأعماله، والموفّق من وفقه الله.

وفي الوقت الذي علا فيه الكبارُ وسموا عن خلافاتهم لرصّ الصفّ؛ نرى ضعافَ نفوسٍ همُّهم نخرُ جدارِ الأمةِ بغُثاءٍ وسَفَهٍ وكذب. واللهُ تعالى قد تعبّد الإنسان بفهمه لا بفهم غيره، ولو نظرت لردود الناس بعضهم على بعض، في دائرة لا تنتهي من الشحناء والبغضاء والبغي والمِراء؛ لوجدتَّ أنّ غالب تلك القضايا المُفرِّقة هي من الأمور التي يسوغ الخلاف فيها. وفي الصحيح: «**أنا زعيمٌ ببيت في رَبَضِ الجنة؛ لمن ترك المراء وإن كان محقًّا**»[(١)]. والزعيم هو الضامن. وتدبر قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

ومن رأى خلاف الصواب الذي يعتقده فعليه بيانه، فالمؤمنون نَصَحَةٌ والمنافقون غَشَشَة، لكن بدون تخوينٍ ولا تبديعٍ ولا تفسيقٍ وتحزيبٍ وسوءِ ظنٍ ورميِ أعراضِ عباد الله بالتُّهم جزافًا ظلمًا وعدوانًا. أما الفرحُ بحبس المسلمين وأذاهم وقتلهم على أيدي أعداء الله؛ فهو نفاق، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠]. وإنّ مِن إهانة العلم؛ نثرُه بين الأقدام في اللهو وفي الخصام، فلا تبذل علمَك لمن لا يرفع به رأسه، ولا لِمن أراد رِفعة نفسه، قال يحيى بن أكثم: «إنّ من إهانة العلم أن تجاريَ فيه كلَّ من جاراك».

* **ومنها:** العناية بعمارة الروح بالإيمان، واستفراغ الزمان في مرضاة

---

(١) أبو داود (٤٨٠٠) بسند صحيح.

الرحمن، والسير الحثيث الحازم الجادّ، وتركُ بنيّاتِ الطريق لأهلها. فنظَرُ المؤمن أبعدُ مدًى من عُمُرِه. واعلم أنّ المواقف محكّ معادن الرجال، والخلواتُ محكّ حقائقِ الإيمان، والصلواتُ محكّ المتلذذِ بالضراعة والقرآن، والدنيا محكّ الراغب في الرضوان، ومن كان مع الله؛ فلا يخاف الضيعة ولا يخشى الخذلان. ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

❋ **ومنها:** قلّل طعامك ما استطعت، فالبطنة تُذهب الفطنة، وتقوّي الشهوة، وقال ﷺ: «**إنّ المؤمن يأكل في مِعًى واحدٍ، وإنّ الكافر يأكلُ في سبعة أمعاء**»(١). وقال لقمان لابنه: «يا بني إذا امتلأت المعدة؛ نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة». وقال أبو حامد الغزالي: «سببُ هلاك الناس: حرصُهم على الدنيا، وسببُ حرصهم عليها: البطن والفرج، وسببُ شهوة الفرج: شهوة البطن. وفي تقليلِ الأكل ما يحسم هذه الشرور».

❋ **ويا صاحبي:** دع الرغوة وانفذ للصريح، ودع الشعار وافهم الحقيقة، واترك اللّبَّ واكشف الثمرة، فقد صرّح الحقُّ عن محضِه، وبيّنَ الصبحُ لذي عينين. واعلم أنّ الولعَ بالردود عيبٌ منهجي في طريق الطلب، وظلمةٌ في مسيرة الروح، وقسوةٌ في حياة القلب، وعثرةٌ في سلوك الصالحين، ويُستثنى من ذلك ما لا بد منه من لدن أهله.. ويكفيك من شرٍّ سماعه.

❋ **وكذلك:** لا تحملنّ قضيّة كلام الناس مالا تحتمل، والناس لن ترضيهم مهما فعلت، رضاهم غاية لم يدركها بشر، وكما قال أحد الظرفاء لمن ضاق

---

(١) البخاري (٥٣٩٧) مسلم (٢٠٦٠) (١٨٢).

صدره من كلام الناس فيه: «إنّ الناس إذا صادفوا نملةً يضع أحدهم أصبعه كي تُغيّر مسارها، أتتوقعُ أن يتركوك أنت في حالك»! فيا صاحبي أَرعِهِم أذنًا صماء وعينًا عمياء، وصُدّ ببالك عنهم، فمالك ولهم.

ولما قام رجلٌ فقال: يا رسول الله، إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ، وذَمِّي شَيْنٌ، قال النبي ﷺ: **«ذاكَ الله عزّ وجل»**[1]. فكفى بحمد الله وثنائه على عبده مدحًا وثناء، جعلنا الله جميعًا منهم. وقالت أُمّنا الصدّيقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ»[2] وليكن شعارك ودثارك مع إلهك:

فليتـــكَ تحلـــو والحيـــاة مريـــرةٌ ... وليتـكَ تـرضى والأنـام غضـابُ
وليـت الـذي بيني وبينـك عـامرٌ ... وبينـــي وبـــين العـــالمين خـــرابُ
إذا طـاب منـك الـودُّ فالكـلُّ هـيّنٌ ... وكـلُّ الـذي فـوقَ الـترابِ تـرابُ

وكم قتل الخوفُ من كلام الناس من إبداع، وكم أمات من همّة، وكم دفن من جميل. وتعجبني كلمة قالها غازي القصيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لست مغرورًا ولكني أعرف مواهبي». إنّ الخوف من المخلوق قُمقمُ مَهُونة خلْفُه العِزّة، وصندوقُ وحشة من ورائه الأُنس، وسجنُ عبودية خارجُهُ الحرية، فاكسر بخوفك من الله خوفَك مما سواه.

وعلى قدر تحقيق التوحيد؛ يضمحلُّ الخوف من الخلق. ولما اشتكى أحد

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٦٧) وقال حسن صحيح.
(٢) سنن الترمذي (٢٤١٤). وصححه الألباني.

أصحاب الإمام أحمد أنه يخاف السلطان أجابه: «لو حقّقت لم تخف أحدًا». أي لو حققت التوحيد؛ لم تَخَفْ غير الله. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بالتوحيد يقوى العبد ويستغني، ومن سرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكَّل على الله»(١). وكتب بعض السلف إلى أخ له: «أما بعد؛ فإن كان الله معك فمَن تخاف؟ وإن كان عليك فمن ترجو؟ والسلام». نعم، فإن الله تعالى يقول: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦] فكل شيء غير الله لا تخف منه كي يتحقق توحيدك وتصلح أمورك وتنال الأمن التام في الدنيا والآخرة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

* **ومن الوصايا:** لا تجعل رأيك هو دينُ الله، بل ولا رأي شيخك إن لم يكن دليله صحيحًا صريحًا جامعًا مانعًا خال من المعارض الراجح أو المُكافئ. فالعبرةُ فقط بما جاء عن الله ورسوله، فعليه مدارُ عقد الإيمان وعهد الشريعة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

فالحق المطلق يدور مع الوحي بشقيه الكتاب والسنة، أما غيرهما فيلحقه نقص البشر غير المنفكّ عنهم، مالم يُجمع السلف على أمر، لأنّ رسول الله ﷺ قد ذكر أنّ الحقّ لا يخرج عن إجماعهم، قال ﷺ: «**سألتُ الله عز وجل ألا**

(١) مجموع الفتاوى (١ / ٥٥).

يجمع أمتي على ضلالة؛ فأعطانيها»(١).

ومن فروع ذلك: أنّ قولَ واحد أو اثنين من السلف في مسألة ما؛ لا يجعلُ هذا القولَ هو منهج السلف إن كان ثَمّ مخالفٌ له. وما أكثر المسائل التي يستشهد فيها بعضُ الناس بقول واحد من السلف، وقد عَلِمَ مخالفةَ بعض معاصريه له فيها، ثم يُعلن أنها قول السلف، وأنّ من قال بخلافها؛ فقد خرج عن منهجهم وابتدع وأحدث! فيا صاحبي، وسّع أفقك، ولينشرح صدرك لغيرك، واعلم أنّ الأمور لا تؤخذ بهذه الطريقة الضيّقة والتحجير الضائع، وكُن حُرًّا، لا مِمّن يُقرعُ بالعصا.

* **ومنها:** الثقةُ الراسخة بالوحي المُنزّل، فالهدى كل الهدى في الوحي، ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠] ومن لم يثق في الوحي ثقةً مطلقةً؛ فلا ترجُه.

* **ومنها:** العناية بالنظر المقاصِديِّ للشرع المطهّر، وهذا علمٌ شريف حقيقٌ بالتأمل والطلب والمدارسة.

* **ومنها:** العناية بالوسطيّة في الأمور، فخيرُ الأمور أوساطُها، وقال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «خيرُ الناس هذا النّمَط الأوسط، يلحق بهم التالي، ويرجع إليهم الغالي»(٢). ويتبع ذلك: التكاملُ والتوازن. فكن متوازنًا متكاملًا لا جافيًا ولا

---

(١) أحمد (٢٧٢٢٤) وصححه الأرنؤوط.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٣ / ٢٨٢) (٣٥٦٣٩).

غاليًا، فلا تغْلُ -مثلًا- في مسألة حقوق ولي الأمر والسمع والطاعة، ولا تتنطّع في مخالفته والتأليب عليه، فلكلِّ أصلٍ قدرُه. واحرص على الاستمساك بالسُّنة المحضة في عصر الفتن المدلهمة، فثمةَ منهجٌ ينتهي لمذهب الخوارج في التكفير، ويقابله منهج إرجائي في العمل والمآل. والسعيدُ من جُنّبَ الفتن. وما من عملٍ إلا وللشيطان منه حظّان لا يبالي بأيّهما ظفر؛ تخذيلٌ عن طاعة فيقع العبد في التقصير، أو تنطّع فيها فيركب قلائص الغلو. وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

ومن التوازن الرشيد: الفرحُ بالخير من كل مسلم، وكلّما زاد خير المسلم ونفعه للناس؛ فلتزِد جُرعةَ فرحك له، وأظهرْ سرورك واحتفاءك. واعلم أنّ البشارة الحقيقية هي بشارة: ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠]. فاجعل -رعاك الله- أجملَ الأمور في عينيك، وأحلاها في صدرك، وأبقاها أثراً عليك في آخرتك: عِلمًا تفيده، وضالًّا ترشده، وملهوفًا تغيثه، وبابًا من الخير تفتحه، ومحبّة لنشر الخير ونفع الناس على يديك ويدي غيرك، فغاية القلب الطيّب والروح الطاهرة؛ سرور الناس وإسعادهم، وإسداء الخير لهم، فاعمل ولا تملّ، فالحركات برَكات.

وأعظمُ الهدايا؛ الوصايا النافعة، قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما تصدّقَ عبدٌ بصدقةٍ أفضلَ من موعظةٍ يعظُ بها إخوانًا له مؤمنين، فيتفرّقون وقد نفعهم الله بها».

إنّ من حقوق الإسلام: الفرحُ بداعٍ إلى الله اشتهر في الناس فضله ونفعه وسلامته، حتى وإن كان طرحُه أو مواضيعه ليست هي الأهم، فنفرحُ ونشيدُ به لأنّه قد تكلّم واجتهد فيما يحسنه، وقيمةُ كلّ امرئ ما يحسنه، وحاجاتُ الأرواح

لا تنتهي. وجزى الله خيرًا كلّ من نفع الناس ودعاهم للخير والشرع، ومهما كثر الدعاة وتوالت جهودهم؛ ففي الأمة حاجة بل ضرورة إلى المزيد، ومِنَ الناس من خلقهم الله غِيَاثًا للناس ورحمة، فيا ورثة الأنبياء أمّتكم أمّتكم.

❋ **ومن الوسطيةِ:** وسطيةُ التقوى بين الغلوّ والجفاء. فمِن سنن الله تعالى في خليقته أن نوّع المدارك، وفضّل في المنائح، ورفع بعض الناس على بعض في أديانهم وعقولهم وأخلاقهم وأرزاقهم، وبثّهم في هذه الدار امتحانًا وابتلاءً. كلٌّ منهم يحرث أيامَه بأعمالِه، ويستبقُ أجلَه مع أنفاسه، حتى إذا بلغ المدى الأخير؛ عادت وديعةُ الروح لصاحبها، ورجعت لخالقها. فإذا أذنَ الله للحساب؛ ابتعث الأجساد وأقام الأشهاد، وجمع الأولين والآخرين.. حينها يكون تأويلُ الكتاب: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]. وحينها يكونُ الافتراق العظيم في المصير على قدر الافتراق اليوم في التديّن، كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤-١٦].

فبما أنّ الأمر بهذا الخطر؛ فقد وجب على كل ناصح لنفسه أن يُراجع صادقًا مسيرته، ويُسارع لإصلاح سريرته، ويحاسب نفسه قبل الفوات؛ كي يستعتب في دار المهلة ويؤوب قبل ألا تحين مناص، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ

بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥١- ٥٢] ، ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ١٢ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ١٣ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٢. ١٥].

يُذَكِّرُني حامِيمَ والرُّمحُ شاجرٌ فهَلّا تلا حامِيمَ قبلَ التقدُّمِ

* **ومن فروع تلك المحاسبة:** أن لا يكتفي بإحسان النية دون إحسان الاتّباع، فرُكنا قبول العمل: الإخلاص والاتّباع. ولا يكفي شرطٌ عن مُكَمّله، فلا بد من تحقيق الشهادة الأولى بتجريد النية وإخلاص العمل وتوجيه الوجه للواحد الأحد لا شريك له، ثم بتحقيق الشهادة الثانية بإحسان الائتساء بمن لَهَجَ له بالشهادة بالرسالة صلوات الله عليه وسلامه وبركاته، وهو القائل. بأبي هو وأمي ونفسي وولدي. فيما رواه الشيخان: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ**»(١). أي مردود غير مقبول، وكفى به عن الإحداث زاجرًا. فقل لمن لم يُخلص: لا تتعب! وقل لمن لم يتّبع لا تجْهَد، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وشرْعُ الإسلام وسطٌ بين الشرائع، قد جمع الله فيه كلّ كمالاتها، وجعله خاتمًا لها ناسخًا، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] وأمةُ محمد ﷺ وسطٌ بين الأمم، عُدولًا خيارًا شهداء على الناس، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وما من أمرٍ لله إلا وللنفس فيه إفراط أو

(١) البخاري ٣/٢٤١ (٢٦٩٧)، ومسلم ٥/١٣٢ (١٧١٨) (١٧) و(١٨).

تفريط، ومِن رحمة الله أن جعل منارَ الدين واضحًا جليًّا، وسنةَ رسوله ﷺ محفوظة نقيّة ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١] فمن رام الفلاح فليبدأ من هنا، لا غلو ولا جفاء. فابعث نفسك على العمل، واجتهد ولا تقصّر، ثم قف حيث وقف القوم، فلا خير في التقصير ولا خير في الغلوّ.

❋ **ومنها:** صدقُ الاتّباعِ. فلا تكن مرجئًا مع السلاطين خارجيًّا مع الدعاة، ولو بالسلوك والعمل. ولا تكن مداهنًا للجمهور باغيًا على الولاة. بل حقِّقْ شَهادَتيك.

❋ **ومنها:** قصرُ الأمل، فمن طال أملُه ساء عملُه، ولا تزالُ تَنْعَى ميتًا حتى تكونَه، ومن أراد أن ينظر إلى حال الدنيا بعد رحيله؛ فلينظر إليها الآن بعد رحيل غيره. وتذكّر من كان معك فوق الأرض بالأمس صار اليوم تحتها، ولربّما هذا التراب الذي تمشي فوقه قد كان جسدًا لمن كان يهرول في الدنيا كأنما هو من الخالدين!

سِرْ إنِ اسْـطَعتَ في الهَـوَاءِ رُوَيـدًا لا اختيـالًا عَـلى رُفَـاتِ العبـادِ
رُبَّ لَحـدٍ قَـد صَـارَ لَحـدًا مِـرارًا ضَـاحِكٍ مِـنْ تَـزَاحُمِ الأضـدادِ

ولو كُشف لك ما بقي من أَجَلِك؛ لزهدت فيما بقي من أَمِلك. والفطنُ الحازم هو من يعرف قدر ما أمامه ويفقه ما بين يديه، ولا ينشغل بالفاني على الباقي، ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣]. وتأمل مراحل الإنسان ونباته: بذرةُ ماء، ثم ولادةُ وَرَقة، ثم برعم طفولة، ثم زهرة شباب، ثم شِدّةُ غصن الكهولة، ثم اصفرار المشيب، ثم كسر حطامه بالموت.

ومُشَـــــيِّدٌ دارًا ليســـــكن دارَهُ سَـــكَنَ القبـــورَ وداره لم تُســـكَنِ

وتأمل لحظةً تُغْنيك: ماذا لو علمتَ الآن سنةَ رحيلك عن الدنيا، ولو كان بعد سنين، ماذا سيتغير فيك؟! تأملها جيدًا وسترى الأثر.

وهل تعلم أنّ الدنيا ستستمرُّ بكل صخبها بعد رحيلك الحزينِ عنها، سيتذكرُك أحباؤك زمنًا ثم ينسونك، سيستوي عندك الليل والنهار، فخذ زادك منها الآن. وكلّهم زائلون، وكلهم مغادرون، وكلهم فانون، إلا أنت يا الله.

فهل تخيّلت يومًا ذلك الزمان الذي ينسى فيه الجميع قبرَك، حتى معالم جَدَثِكَ قد اختفت، إذ خَفَقَتْها رياح السنين، رحماك يا رب فلا وحشة على من كنت أنيسُه.

يـا صـاحبي إن جُـزتَ قـبرِيَ هـائمًا فانصـحْ لنفسـكَ واعتـبر بتجـاربي

قال واعظ الإسلام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأيُّ موعظةِ أبلغُ من أن ترى ديار الأقران، وقبور المحبوبين، فتعلمَ أنّك بعد أيام مثلهم، ثم لا يقع انتباه حتى ينتبه الغير بك». ألا وإنّ حبّ الدنيا مغروزٌ في نفوس البشر، ومُزيَّنٌ لهم، ولا يلامون على ذلك، فليس حبّها بعيب ولا ذنب، ولكن يكون كذلك إذا طغى على حب الآخرة، أو ألهى عنها، أو قسّى القلب. وليس للمؤمن أن يكون بحالٍ غيرِ حالِ العبودية حتى يلقى ربه، ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وتدبّر - حرسك الله - سوءَ حال الكافر عند قيامته؛ حتى تزهد في متاعه الفاني، ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ

إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] اللّٰهم رحمتك.

❋ **ومنها**: العنايةُ بالأعمال الصالحة والقُرب المرضيّة. فالانحرافُ عن السنة حتى بمعاصي الشهوات هو خروج عن السنة، إنما شدّد السلف في البدع؛ لأنها تؤولُ إلى التبديل، وليس مقصودُهم الاستهانة بمعاصي القلب والجوارح، فكلّ معصية تثلم في التوحيد ثلمةً بقدرها. والتوحيد عبودية، وأنّها تضمحلّ العبودية بمخالفات العبد، وتزيد وتقوى بطاعته، فمن الذنوب ما يقذف العبد خارج دائرة الإسلام، ومنها دون ذلك، فينطمس من أنوار العبودية على ذلك الاجترام، وتضيء شمسُها بصالح الأعمال، قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أخبروا فلانًا أنه قد أحبط جهاده مع رسول الله ﷺ» لأنها رأته تساهل في معاملة ترى أنها من أبواب الربا، والربا حرب لله، وحرب الله يهدم الحرب لله.

❋ **ومنها**: العنايةُ الدائمة والحراسة اليقِظة لأعمال القلوب، فهي محلّ نظر الله تعالى، فلا بد من الاهتمام الشديد والمراعاة التامّة لأعمال القلوب، فالكثير من القلوب موحش بلقع!

❋ **ومنها**: العنايةُ بتزيين النفس باطنًا وظاهرًا بالأخلاق الجميلة والصفات الحسنة، وهي من أثقل الصالحات غدًا في الموازين، وفي الأدب المفرد[١] أنّ رسول الله ﷺ قال: **«أكثرُ ما يُدخلُ الجنة تقوى الله وحسن الخلق»** وقال

(١) (١ / ١٠٨) وحسنه الألباني.

ناصحًا مبيّنًا: «**ما من شيء في الميزان أثقلُ من حسن الخلق**»[(١)]. وقال مُظهرًا حبّه للمتخلقين بجميل سجاياه وكريم صفاته: «**إنّ من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة؛ أحاسنُكم أخلاقًا**»[(٢)]. وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يا سعد بني وهيب، إنّ الله إذا أحبّ عبدًا حبّبّهُ إلى خلقه، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أنّ مالَك عند الله مثل الذي لله عندك»[(٣)].

وإنّما الأخلاق بالتخلّق حتى وإن كان الطبع راسخًا، فمع الاستعانة بالله، ودعائه، والمجاهدة للنفس، وطولِ المدى؛ يسهُل الأمر بإذن الله. ولا شكّ أنّ الأمر يستحقّ فبادر أيها الخَلوق. واعتَد طريق الخير؛ يكن لك طبعًا وراحة وسِمةً وجبلّة. قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تعوّدوا الخير، فإن الخير عادة».

وإذا تَساوت في القَبيح فِعالنا ... فَمنِ التَّقيُّ وأَيُّنا الزِّنديقُ

ومن محاسن النفس الإنسانية وزنُ ساعتها البيولوجية، ومن ذلك أنّها إذا عُوِّدتْ الاستيقاظ في ساعة معيّنة لبضعة أيام؛ فإنها تستيقظُ لاحقًا بالتدريج في نفس التوقيت بلا منبه. وقيل: يومُك مثلُ جَمَلِكَ، إن أمسكتَ أوَّلَه تبِعَك آخرُه.

هذا ولابد أن يُربّى الناشئة منذ بداية تتلمذهم على أصول أخلاق الإسلام، فالأخلاقُ جزءٌ كبير من المنهج النبوي، ومن قصّرَ فيها؛ ففيه نقص

---

(١) صححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٧٠).

(٢) صححه الألباني في صحيح الترمذي (١٦٤٢).

(٣) البيان والتبيين (١ / ١٤٢).

من تلك الجهة بقدر نقصه، فليستعن بالله في هدايته لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا هو. فكن ـ وفقك الله ـ دمثَ الأخلاق، رقيقَ الحاشية، سهلَ العريكة، بهيَّ الابتسام، طلْقَ المُحيَّا، ليِّن الخطاب، وقد قالت العرْبَاء: من لانت كلمتُه وجبت محبتُه، وما تَشاتمَ اثنانِ إلا غَلَبَ ألأَمَهُما.

وكُن كما أنت على سجيّتك وطبيعتك وعفويتك بلا تكلّف، وعش سهلًا حنونًا فهي سنّة نبينا ﷺ، أمّا تصنّعُ الرزانة في العلاقة بالناس الأقربين؛ فحقيقتُه وضعُ جدران عالية بين المُتَرَزِّنِ وبينهم بقدر ذلك التصنّع النّكِد، وليس المقصود إخلال المروءة بل دفع التعالي، وخيرُ الأمور أوساطُها. ولا تدّعي زيادة علمٍ أو تقى أو ذكاء أو مال، وإيّاك وتصنّع المثالية.

وروّح عن نفسك حينًا، وقد قال معاوية لعمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ما اللذة؟ قال: «طرحُ المروءة». وقال المأمون: «ما بقيت لي لذّةٌ إلا وجودُ أخٍ أضعُ بيني وبينه مؤنة التحفّظ». وقال مالك بن دينار: «أثقلُ إخواني عليّ من يتكلّف لي وأتحفّظ منه، وأخفّهم على قلبي من أكون معه كما أكون لوحدي». وقال الشافعي: «ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته». وسُئِلَ ابن عمر رضي الله عنهما: هل كان الصحابة يضحكون؟ قال: «نعم، والإيمانُ في قلوبهم مثل الجبال». وقال بكر بن عبد الله: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يتمازحون، حتى يتبادحون بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق؛ كانوا هم الرجال».

❋ **ومنها:** الصبر والمصابرة والمرابطة في ذات الله، فاصبر وتصبّر وصبِّر، واهتف لنفسك وإخوتك بقول ربكم: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:

١٢٧] وقوله: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] وتدبر سورة العصر، فالإسلام دين الصابرين. وأرِ اللهَ تعالى منك ما يُرضيه؛ حتى يعطيك ما يرضيك. فأيُّ دينٍ كهذا الكمال والجمال، وأيّ مستودعٍ للصبر والأمل كهذا سعة وعظمة وسموًّا. وليس كلّ صبرٍ مستحقٌّ للثواب، فالصبر على الطاعة وعن العصيان وعلى البلوى مفتقرٌ إلى إخلاصه لوجه الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ [الرعد: ٢٢].

وخلِّ الهُوَيْنَى للضعيفِ ولا تكنْ نؤومًا فإنّ الحُرَّ ليس بنائمِ

* **ومنها:** العنايةُ بالفضاء الالكتروني، فقد بثَّ في الأمة نوازع فرقة لم تكن قبله لسرعة وصول المعلومة الملغومة لجماعات لا تُحصى من الناس، فيتلقّفها من قلّ حظّه من الفقه والحكمة. ومن الجيّد إنشاء مواقع ومنتديات وتطبيقات تنشر ثقافة الاجتماع المحمود ونبذ الافتراق المذموم. وإن كان لا بد من الحذر الشديد من اختراقها، ومتابعة ذلك، خاصة مع وسائل التواصل التي تمكّن بعض المؤسسات من صنع جدار منيع بجيش افتراضي مزيّف، ومسلّح بأقذع الألفاظ وأحطّ التهم، وإيقاد نار التشرذم، وبثّ بذور التفرّق بين أهل الصف الواحد. علمًا بأنَ هذا الطرف أو ذاك هو منهج في نسيجٍ مجتمعيّ مترامي، يسهل اختراقه تحت أيّ مسمّى وبأيّة ذريعة، فإن أردنا حراسته؛ فلا بدّ من التأكيد والتواصي بمهمات علاقة المسلم بأخيه ولو خالفه، كالتّثبت والعدل والرفق ونحوه، أما ترك الحال بهذه الفوضى؛ فهي نكسة دعوية ومأساة سلفية بكل المقاييس. والرجال مواقف، والتاريخ لا ينسى، والديان لا يموت، ﴿وَلَا

تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٦] ومن أفقه الفقه: احتمال أدنى المفسدتين لدفع أشدهما. ومقصدي هو التنبيه لنشر ثقافة الحوار البناء لا النقاش الهدام، والله المستعان.

❋ **ومنها:** العفاف، فهو ضرورة الزمان، وحقيقٌ بكل مؤمن الحرص الشديد على غرس شجرته في قلبه، وإعلاء جدران بنيانه في قلبه، خاصةً في زماننا زمانِ الشهوات والشبهات. إنّ العفاف تاجُ أخلاق المؤمنين، وشمسُ صفات المتقين، وقد أجمعت أمم الأرض على استحسانه، ورفعت صاحبه للمقامات العالية، ذلك أنّه لا يكون إلا لشريفِ النفس سامي الخُلق، مأمون الجوانب الغادرة. ولقد أثنى الله تعالى على أهله، وجلّلهم بحفظه ومعونته، ووعدهم أجزل العطايا وأكبر الهبات؛ لأنهم تساموا بنقاء أرواحهم وحسن تدينهم عن كل ما يشوب ذلك النقاء، أو يخدش جناب الإيمان.

وإنّه لخُلُقٌ قلبي قبل أن يكون ظاهرًا، فالقلبُ العامر بمحبة الله تعالى، والحياء منه، وحسن الرجاء فيه، وعظم الخوف منه، وتمام التوكل عليه؛ لا بد أن يثمر ذلك فيه صحيحَ العفاف وصريحَ الشَّرف. فالعفافُ عملُ قلبٍ؛ لأنه حَرَكةُ القلب للصلاح والمباح، وكفّه وسكونه عن الحرام، فهو عملٌ من هذه الحيثية، وهو كذلك ثمرةٌ من ثمار أعمال القلوب الزاكية، وظهورُه في الثمرة أجلى من العمل. وحَدُّ العفاف: كفُّ النفس عما لا ينبغي لها. وعلى قدر تحقيقه؛ يقترب صاحبه من كماله في نفسه، ورفعته عند ربه.

هذا والعفة أنواع عديدة، وجماعُها الكف عن الحرام، والاستيحاش منه، والازورار بعيدًا عن ذرائعه. وهي منقسمه على الجوارح، وأصولها ثلاثة: عفةُ

الفرج، وعفة اللسان، وعفة البطن، والبقية متفرعة عنها؛ كالعفة في المال والرئاسة والمدح والتكاثر، ونحو ذلك. وإذا ضبط المرءُ عفتَه في أنواع العفة الثلاث؛ فقد انتظمت له سائرها، وتيسّرت له عواقبها، ويكون حينها قد لبس ثوب العفاف النقيِّ الناصع الجميل، وهي على النحو التالي:

أولًا: العفة عما في أيدي الناس: وهي أن يعفَّ عما في أيدي الناس، سواء ببصره أو سمعه أو لسانه، أو حتى فكره، وأن يقنع برزق الله له، فهو أحكم وأعلم وأرحم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الحجر: ٨٨] وكذلك بأن يترك مسألتهم، فعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يكفل لي ألا يسأل الناس شيئًا؛ وأتكفَّل له بالجنة**». فقال ثوبان: أنا. فكان لا يسأل أحدًا شيئًا(١).

ثانيًا: كفُّ اللسان عن الأعراض: فيجبُ على المسلم كفّ لسانه عن أعراض الناس، وألّا يقول إلّا طيبًا، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**المسلمُ من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»(٢). ويتبعُ اللسانَ القلمُ والكتابة، فالقلم هو اللسان الثاني، ويلحق به الكفّ عن الدماء والازورار عن تخوّضها بلا برهان شريعة، ويتبعه كذلك لحْظُ العين أو حركة اليد أو غيرهما بازدراء أو همزٍ أو لمزٍ، أو أيّةِ أذيّةٍ لأحدٍ كان. حتى لو كان كافرًا أو بهيمة أو طيرًا. لم يأذن بها الله عز وجل.

---

(١) أبو داود (١٦٤٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٦٤٣).

(٢) البخاري (١٠).

ثالثًا: عفة الفرج عمّا حرّم الله تعالى: وهي أن يعفَّ فرجه عن المحرمات والفواحش. وقد اشتدّتْ الحاجة في هذا الزمان للتذكير به، والتنويه بشأن أهله، والتحذير من تدنيسه، والله المستعان. والفرج الحرام حفرةٌ إلى الجحيم، وأكثرُ أهل النار إنّما دخلوا منها ومِن اللسان، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناسَ الجنة؟ فقال: «**تقوى الله وحسنُ الخلق**»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار. فقال: «**الفم والفرج**»[1].

وإنّ عمق الإحساس بالجمال قد يسبب أحيانًا فسادَ الأخلاق. لذا فتدعيمُ ركائز الفضيلة في نفوس أولئك القوم أولى، وأعني بهم أهل الفنون شعرًا وقصة ورواية وتصويرًا وتشكيلًا وغِنَاء ونحوهم.

ويتبعُ عفافَ الفرج عفافُ رُسله، كالسمع والبصر والكلام وغيرها. ويكفي في خُبث المعصية مسمّاها، لأنّها جرأة على مخالفة الجبار جل جلاله، ونوعُ كفرٍ لنِعِمِه التي لا تعدّ ولا تحصى، فكيف نعصي من لا قوام لنا إلا به!

إنّ العفاف برهانُ التقوى، ودليل الاستقامة. والدنيا بأسرها امتحانُ صبرٍ، واختبارُ صدق، فمن عفّ وكفّ وصبر لله على الاستقامة؛ فهو المؤمن حقًّا والفاضل صدقًا.

أَرَى فاجرًا يُدعى جليدًا لظُلمِهِ ولو كلِّف التَّقوى لكلَّت مضاربُه

(١) أحمد (٢/ ٤٧٢، ٢/ ٢٩١) قال محقق جامع الأصول (١١/ ٦٩٤): رواه ابن حبان في صحيحه، وهو حديث صحيح بشواهده. وابن ماجه (٤٢٤٦).

وعّفًـا يُســمَّى عــاجزًا لِعفافِــه ولـولا التُّقـى مـا أعجزتْـهُ مذاهبُـه

والعفافُ ضرورةُ الزمان، لأنّا نعيش زمانًا عاصفًا بكلّ المقاييس، فأبوابُ الشهوات المحرمة مُشرعة على القلوب الضعيفة، بلا رقيب إلا من لدن علام الغيوب. بل قد تسلطت الشهوات على الشبهات حتى استبطنتها خفية، فصارت الشبهات سلّمًا لبلوغ حظوظ النفس الأمارة بالسوء والفحشاء. ففي الأموال ـ على سبيل المثال ـ ضَعُفَ وازعُ الخوف من الربا، بسبب اشتباه معاملات الحلال بالحرام، وساعدَ على ذلك فتاوى لمتفقّهة التيسير ـ زعموا ـ الذين يسوّغون للناس أبوابًا ما كان الشيطان يحلم بها في الزمن الأول، فابتدعوا للعامة معاملات تدور هي والربا على رحى واحدة، وتصدر من نبعٍ سوء واحد وترجع لآخيّة واحدة، قد يقتربُ بعضُها حتى يكون ربًا صريحًا، أو يتأخر قليلًا بحسَب حقيقته، لكنّه لا يخرج من المشتبه المذموم حتى ولو بدون شبهة ربا كبيع ما لا يملك والبيع قبل الحيازة أو معاملات التدليس أو الميسر وغير ذلك. ولا يعني هذا التعميم بحال، لا بأوصاف ولا بأشخاص، فثمّ علماء أهل فضل وورع، وثمّ معاملات أحدثها الناس لا لبس فيها ولا اشتباه، إنما القصد تنبيه النبيه.

وتأمل الورعَ الدقيق للسلف، فعن عاصم بن كليب الجرمي، قال: حدثني أبي، قال: «حاصرنا توج، وعلينا رجلٌ من بني سليم يقال له: مجاشع بن مسعود، قال: فلمّا أن افتتحناها، وعليَّ قميصٌ خَلِقٌ؛ انطلقتُ إلى قتيلٍ من القتلى الذين قتلنا من العجم، فأخذتُ قميص بعض أولئك القتلى وعليه الدماء، فغسلته بين أحجار، ودلكته حتى أنقيته، ولبسته ودخلت

القرية، فأخذتُ إبرةً وخيوطًا، فخطت قميصي. فقام مجاشع فقال: يا أيها الناس، لا تغُلُّوا شيئًا، من غلَّ شيئًا جاء به يوم القيامة، ولو كان مِخْيَطًا. فانطلقتُ إلى ذلك القميص فنزعتُه، وانطلقتُ إلى قميصي فجعلت أفتُقُهُ، حتى والله يا بنيّ جعلتُ أخرِقُ قميصي توقِّيًا على الخيط أن ينقطع[1]، فانطلقتُ بالخيوط والإبرة والقميص الذي كنت أخذته من المقاسم فألقيتُه فيها. ثم ما ذَهَبْتُ من الدنيا حتى رأيتهم يغلّون الأوساق، فإذا قلتُ: أيُّ شيء هذا، قالوا: نصيبُنا من الفيء أكثر من هذا»[2].

فمن جعل بينه وبين المشتبهات حاجزًا؛ لم يقع في المحرمات، والمؤمن يحرُس دينه بورعه، فيحرسُ الفرائضَ بالرواتب، فإنّه إن حافظ على الرواتب؛ لم يُقصّر في الفرائض، ويحرس الرواتب بكثرة النوافل المطلقة، فإنّه يشقّ على الشيطان أن يدرك رواتبه بتركٍ لأنّ دونها النوافل المطلقة، وهكذا الحال في المحرمات والمكروهات وتَرَفِ المباحات.

وفي الأنكحة؛ اخترع الشيطان للناس طرقًا قذف زُخْرَفَها في قلوب بعضهم، فروّجوها حتى اشتبه السِّفَاحُ الذميم بالنكاح الشريف. وحتى لو خالفه في بعض صوره وشروطه، لكنه باقٍ في قبيلِ المشتبهات. ومن ذلك ما

(١) ذكر قميصين، الأول: المغلول وقد ردّه، والثاني: مملوك له سابقًا لكن فيه شقوق وفتوق رفأها بخيوط من الغنيمة فاجتهد على نزع الخيط كما هو حتى لا ينقطع ولو أدّى ذلك لشق قميصه حفظًا للخيط. رحمه الله تعالى.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، ترقيم عوامة (٣٨٩١٢) (١٥ / ٢٤٧).

يُسمى بالنكاح السياحي أو المسفار، فيتزوج الرجل المرأة وفي نيته طلاقها، وفي عُرف أهل تلك المرأة أن الرجل سيطلّق بعد أيام أو أسابيع، لذلك يقلّلون المهر ولا يشترطون ما يشترطونه حال النكاح المشروع، وربّما احتالت عليه المرأة فهربت منه سريعًا، بل ربما تزوجته وهي في ذمّة غيره، عياذًا بالله تعالى. والفقهاء يقولون: «المعروف عرفًا كالمشروط شرطًا» ونحو تلك الأنكحة المترددة بين التحريم والاشتباه، قال ﷺ: **«إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام...»** الحديث(١). فإذا استمرأ العبدُ المشتبه والمكروه؛ سهل عليه خوض الحرام الصريح، إذ ثوبُ الإيمان يتقلّص عن المؤمن شيئًا فشيئًا مع كثرة اختلاط المشتبهات والمكروهات في قلبه، وينقص حتى لا يُطيق مدافعة الباطل ولا مجاهدة الأمّارة، وقال ﷺ: **«دع ما يُريبك إلى ما لا يريبك»**(٢). والمعصوم من عصمه الله.

حتى في أمور السلطان جرت ببعضهم كلاليب شُبَهٍ ارتضعت لَبَانَ الشهوات، فصار دينُ بعضهم شهوةُ سلطانه بلسان حاله، فأشبهوا إمامية الرفض وطُرُقية الخرافة. وفي أمور الرئاسات وسباع الغضب وأدخنة اللهو وقَتَارَ الغفلة ما لا يكاد يُحصى تنظيرًا وتطبيقًا. لذا، كانت قيمة العفاف عزيزة جدًّا في هذا الزمان.

إنّ العفيفَ سيّد نفسه، غيرُ مستعبَدٍ لهواه وطمعه، بل قد علّق ناصية

---

(١) مسلم (٢٩٩٦).

(٢) أحمد (١/٢٠٠) والترمذي (٢/١٣) وصححه الألباني في الإرواء (٧/١٥٥).

عبادته على وفق شرع ربه، كلّما هبت على نفسه عواصفُ الشهوات؛ ثبت به العفاف الراسخ في قلبه كالجبل الأشمّ، يسمو ببصيرته صُعُدًا في مراقي الفلاح، يتنسّمُ وحيَ ربه؛ فيتسنّم سبيلَ رضوانه. قلبُه العامرُ بالغِنى بربه كفاه عفافًا عمّا سواه، كان في بداية أمره يجاهد نفسه الأمارة، حتى رقّاها لتكونَ لوّامة، فما زال بها حتى اطمأنّت وسكنت وابتهجت واغتنت، وأيقنت أن الغِنى ـ كلّ الغنى ـ في الاستعفاف عما لا يحل؛ فكانت من المفلحين.

حينها التفت بقلبه العفيف إلى ما خلّفه من حطام وبهرج، ثم أشاحَ عنه عازمًا على لزوم ذلك المنهج، وأيّ منهج! إنه سبيل الله وصراطه ودينه ورضوانه. يقرأُ قول ربه الحاضّ على لزوم طريق العفة بكل أنواعها في البطن والفرج والمال والجوارح، وهو يرى تكرار الأمر به في الشريعة: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠] فغضُ البصر يسبقه غضُ القلب عن خطرات الحرام، فيثمرُ حفظَ الفرج وصيانته.

وكنتَ متى أرسلتَ طرْفَكَ رائدًا لقلبِك يومًا أتعبتكَ المناظرُ
رأيتَ الذي لا كلَّهُ أنتَ قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنتَ صابرُ

قال الله تبارك وتعالى آمرًا أمرًا حاسمًا جازمًا قاطعًا لكل تسويل باطل وتسويغ ذريعته: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣] فعليهم العفاف، ولهم من الله لهم الغنى.

والفقرُ ليس بعذر في الخطيئة: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢] وقد

تكفّل الله تعالى لأهل العفاف بالغنى والمعونة، فقد بشرنا ﷺ بوعد الله تعالى للمتعففين، وهو الوعد الذي أحقّه على نفسه كرمًا وامتنانًا، وهو لا يخلف الميعاد، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ حقٌّ على الله عونهم: المجاهدُ في سبيل الله، والمكاتبُ الذي يريد الأداء، والناكحُ الذي يريدُ العفاف**»(١).

وتأمّل حال النبيِّ الصِّدّيقِ الذي رمى أشدّ شهوةٍ في الدنيا . شهوة النساء . خلف ظهره صارخًا في وجه الهوى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣] فعافاه مولاه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤] حفظه ربه بالعفاف لإخلاصه ونقائه وصدق توحيده؛ فصرف حفرة الغفلة وسرداب الخطيئة عنه عليه السلام.

لقد كانت العفة محورًا من محاور دعوة نبيّنا العفيف الكريم صلوات ربي وسلامه وبركاته عليه، فلقد كان العفاف حاضرًا في حياته بفعله قبل قوله، فقد كان العفيف الكامل في زمنٍ لم يكن يُستنكر فيه طمع الهوى الظَّلوم، فقد كان هو الصادق الأمين، والأمينُ هو المُستأمَن على كلّ ما يُخشى عليه تلفُ الاستطالة من دمٍ أو عرض أو مال.

ولقد كان العفاف من الأصول الأولى للإسلام، فقد كان الأمر به واضحًا صريحًا من البداية، فقد ذكره أبو سفيان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لهرقل حينما سأله عن أوامر

---

(١) أحمد (٧٤١٦) والترمذي وحسّنه (١٦٥٥) وجوّد إسناده ابن باز في حاشية بلوغ المرام (٧٦٥).

رسول الله ﷺ، ففي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في شأن كلام هرقل لأبي سفيان ومن معه من رجالات قريش، وفيه: «ويأمرنا بالصلاة، والصدقة، والعفاف..»(١).

والعفيف غني بقناعته، وطيب نفسه، وانشراح صدره، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أربعٌ إذا كنَّ فيك؛ فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظُ أمانة، وصدقُ حديث، وحسنُ خليقة، وعفّة في طُعْمَة»**(٢). لقد كان العفيف الأكبر صلوات الله وسلامه وبركاته عليه يعلي قيمة العفة، ويُثنى على الناس بها، إذْ كان العفاف من معايير الإيمان لديه. وتأمل حديث عياض بن حمار المجاشعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أوصاف أهل الجنة وأهل النار، وكيف كان العفافُ ظاهرًا جليًّا معتبَرًا، ويكأنَّهُ الميزانُ لغيره من الخصال، فحدَّثَ أنّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: **«ألا إنّ ربي أمرني أن أُعلّمكم ما جهلتم مما علّمني يومي هذا»**. وقال: **«وأهلُ الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفّق، ورجلٌ رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيفٌ ذو عيال»**(٣).

وحتى عند أعنفِ أمرٍ وهو القتل؛ فعفافُ المؤمن حاضرٌ هنالك، فلا

---

(١) البخاري، الفتح ٦ (٢٩٤١) واللفظ له. ومسلم (١٧٧٣).

(٢) أحمد (٢/ ١٧٧) (٦٦٦١) واللفظ له وقال الشيخ أحمد شاكر (١٠/ ١٣٩): إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٠١) (٨٨٦).

(٣) مسلم (٢٨٦٥).

يتعدّى ولا يُمثّل، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أعفّ الناس قِتْلَةً: أهلُ الإيمان»**(١). ومن أدعيته صلوات الله وسلامه وبركاته عليه لربه تعالى: **«اللّٰهم إنّي أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»**(٢). والعفيفُ موعودٌ على لسان نبيه ﷺ بالجنة، فعن سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن رسول الله ﷺ قال: **«مَن يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه؛ أضمن له الجنة»**(٣).

واعلم أنّ من أعظم أسباب العفاف؛ صدقُ الدعاء، والثقة بالعطاء، وحسن الظن بمن هو أرحم بنا من أنفسنا، والعطاء أحبّ إليه من المنع، ويفرحُ إن دُعي وسُئل واستُعين واستُغيث واستُنصِر واستُغنِي. وأكرِم بهذه البشارة النبوية للمتعففين، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«عُرض عليّ أولُ ثلاثة يدخلون الجنة: شهيدٌ، وعفيفٌ متعفّفٌ، وعبدٌ أحسن عبادة الله، ونصح لمواليه»**(٤). فتأمل كيف وصفه بالعفاف والتّعفّف، ذلك أنّ النفس مهما كانت سامية عن الدنايا؛ فإنّه لا يزال يعرض لها ما يكاد يصرفها

---

(١) أبو داود (٢٦٦٦) واللفظ له. وأحمد (١/ ٣٩٣) (٣٧٢٧) وقال شاكر: إسناده صحيح (٥/ ٢٧٥).

(٢) مسلم من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ (٢٧٢١).

(٣) البخاري (٦٤٧٤).

(٤) الترمذي (١٦٤٢) وقال: حديث حسن واللفظ له. أحمد (٢/ ٤٢٥) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده حسن (١٨/ ١٣٧).

عن استقامتها، فكان العبدُ في حاجة دائمة للمجاهدة بالتّعفف، وفيه معنى استمرارية المجاهدة بالتعفف.

إنّ العفاف خلق يسمو بالنفس جدًّا، ويرفعها وينزهها عن الإهانة والمذلة حتى مع ضيق ذات اليد، ولا بدّ للعفيف من قناعةٍ تُبرِدُ لواعجَ حاجته، وتُشبع نهمة فاقته. فصُن وجهك عن التّأكّل به فماؤه عزيز، فإن كانت لك حاجة ملحّةٌ لدى صاحبك؛ فألمحْ إليها في الأولى، ثم صرّح في الثانية، ثم كرّر التصريح في الثالثة ـ إن رأيت ذلك ـ، فإن كانت؛ وإلا أغلِقِ الباب للأبد، فماءُ الوجه ماءُ الروح، ولله أبي الحسن النعيمي إذ يقول(١):

إذا أظمَأَتــــكَ أكُـــفُّ اللئــــامِ كَفتــكَ القناعَـــةُ شِـــبْعًا ورِيًّــا
فكُـــنْ رَجُـــلًا رِجْلُـــهُ في الثَّـــرَى وهَامَـــــةُ هِمَّتِـــــهِ في الثُّرَيَّـــــا
أبِيًّـــــا لنَائِـــــلِ ذي ثـــــروةٍ تـــرَاهُ بـــما في يَدَيـــه أبِيَّـــا
فـــإنّ إرَاقَـــةَ مـــاءِ الحَيَـــاة دُونَ إراقَـــةِ مـــاءِ المُحَيَّـــا

هذا ويتأكدُ العفاف جدًّا ـ بمعناه العام ـ في أزمنةِ المجاعات أو الفتن التي يختلط فيها الحق بالباطل ويستطيل البشر في الدماء والأموال والأعراض، وثمَّ حديثٌ عزيز جدًّا، حريٌّ بنشره وإشهاره، فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ركب رسول الله ﷺ حمارًا وأردفني خلفه وقال: «**يا أبا ذر، أرأيتَ إن أصاب الناس جوعٌ شديدٌ، لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟**» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**تعفّف**». قال: «**يا أبا ذر، أرأيتَ إن أصاب الناس موتٌ**

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٧ / ٤٤٧).

شديد يكون البيت[١] **فيه بالعبد كيف تصنع؟»**. قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **«اصبر»**. قال: **«يا أباذر، أرأيتَ إن قَتَل الناس بعضُهم بعضًا حتى تغرق حجارة الزيت**[٢] **كيف تصنع؟»**. قال: الله ورسوله أعلم. قال: **«اقعد في بيتك، وأغلق عليك بابَك»**. قال: فإن لم أُترَك؟ قال: **«فائتِ من أنت منهم**[٣] **فكن فيهم»**. قال: فآخذُ سلاحي؟ قال: **«إذًا تشاركهم فيما هم فيه! ولكن إن خشيت أن يروعكَ شعاع السيف**[٤] **فألقِ طَرَفَ ردائك على وجهك حتى يبوء بإثمه وإثمك»**[٥].

إذن فمِن العفاف ما يكون في الدماء، وهو أعظم العفاف، والله المستعان.

---

(١) أي القبر.

(٢) حجارة الزيت: موضع بالمدينة في الحرة، سمّى بها لسواد الحجارة ولمعانها حتى كأنها طُليت بالزيت، والمراد: أنّ الدم يعلو حجارة الزيت ويسترها لكثرة القتلى. وهذه إشارة إلى وقعة الحرة التي كانت زمن يزيد.

(٣) أي: أهلك وعشيرتك ممن كان على عفافك وورعك.

(٤) أي: إن غلب ضوء السيف وبريقه عينك ونفسك وخشيت أن تقاتل؛ فغطّ وجهك حتى يقتلك، فتكون ابن آدم المقتول لا القاتل. وهذا خاصّ في أزمنة الفتن، أما في غيرها فالمدافعة هي السنة، لما رواه مسلم ١/٨٧ (١٤٠) (٢٢٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: **«فلا تعطه مالك»** قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: **«قاتله»** قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: **«فأنت شهيد»** قال: أرأيت إن قتلتُه؟ قال: **«هو في النار»**.

(٥) أبو داود (٤٢٦١) وصححه الألباني (٣/ ٨٠٣) وابن ماجه (٣٩٥٨) والحاكم (٤/ ٤٢٤) وأحمد (٥/ ١٤٩، ١٦٣) واللفظ له.

وهاتِكَ لفتةً عظيمة جميلة في شأن العفاف: وهي أنّ المرءَ في سَيرِه لإعفاف نفسه ومن يعُولُ؛ فهو مكتوبٌ من أهل سبيلِ الله، فعن كعب بن عجرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: مرَّ على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَدِه ونشاطه. فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟[1] فقال رسول الله ﷺ: «**إن كان خرج يسعى على ولده[2] صغارًا[3]؛ فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين؛ فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفّها؛ فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة؛ فهو في سبيل الشيطان[4]**»[5].

هذا، والعفافُ الخالص لله عز وجل من أكبر أسباب كشفِ الكربات

---

(١) قالوا هذا لمحبتهم الجهاد في سبيل الله، وضنّهم بأشدّاء الرجال إلّا يتوانوا عن تلك المواقف التي يُعزّوا بها دين الله، فأرشدهم ﷺ بلطفه المعهود إلى أن فضلَ الله واسع، وأنّ سبيله يشمل من كان ساعيًا في شأن عفافه وعفاف عياله.

(٢) الولد يشمل الذكر والأنثى، وفي التنزيل: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾.

(٣) يتبعُ الصغار من كان في حكمهم؛ لمرضه، أو إعاقته ونحو ذلك، وخصّهم بالذكر إخراجًا للأقوياء من الأولاد؛ حتى لا يتواكلوا ويكونوا عالة يقتاتون على جهد غيرهم وقد أغناهم الله بالقوة.

(٤) فالاعتبار أنما هو بالنيات.

(٥) رواه الطبراني في الكبير (١٩/ ١٢٩) وقال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٣/ ٦٣). وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٢٨).

بإذن الله تعالى، وتأمّل حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار. وفيه: «**فإن كنتَ تعلمُ أنّي فعلتُ ذلك من خشيتك ففرج عنا؛ ففرّج الله عنهم، فخرجوا**»(١). وعفيفُ البطن موعود بالفلاح، ولفظُ الفلاح هو أشملُ لفظٍ لخيري الدنيا والآخرة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم، ورُزِق كفافًا، وقنّعه الله بما آتاه**»(٢). فسِرُّ العفاف إذن هو القناعة!

هـي القناعـةُ فالزمهـا تعِـشْ ملِكًـا ... لـو لم يكـن منـكَ إلا راحـةُ البـدنِ
وانظـر لمـن مَلَـكَ الـدنيا بأجمعهـا ... هل راحَ منها بغير القطنِ والكفنِ

وقال الحسن البصري: «لا يزالُ الرجل كريمًا على الناس حتى يطمع في دينارهم، فإذا فعل ذلك؛ استخفوا به، وكرهوا حديثه، وأبغضوه». قلت: تصديقُ ذلك في حديث أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دُلّني على عملٍ إذا عملته؛ أحبني الله، وأحبني الناس، فقال: «**ازهد في الدنيا يحبّك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**»(٣). ذلك أنّ المال عزيزٌ بأيدي أصحابه، ولا يهون عليهم أخذه من أيديهم، بل إنهم ليصولون دونه صيال السباع الضواري، ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠] فكما أنّه يهمّهم ويسوقهم تحصيله، فكذلك يؤرّقهم

---

(١) البخاري (٣٤٦٥).

(٢) مسلم (١٠٥٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) والحاكم (٤/٣١٣) وحسنه النووي في الرياض.

ويرُوقهم حفظه، فالشّح مغروز في نفوس البشر، فمن أراد مزاحمتهم عليه؛ قَلَوه وأبغضوه، إلا من سَخَتْ نفسه منهم لأمرٍ خارجٍ عن ذلك؛ كزهد أو غياثٍ أو تحبّبٍ أو صدقة ونحو تلك الرغائب. فأقلُّ الناس أهلُ القناعة، وأقلُّ قليلِهم أهلُ الزَّهادة.

إذا مـــا كنـــتَ ذا قلـــبٍ قنـــوعٍ　　　فأنـــتَ ومالـــكُ الـــدنيا ســـواءُ

واعلم أنّ فتنة النساء أشدُّ من فتنة المال عند بعضهم، والعكس صحيح لدى آخرين، وكلّ امرئ قد رُكِّبَ فيه ضعفٌ وميل بحُكم بشريّته، فيستحكمُ في جهةٍ دون الأخرى، وقد حذّر رسول الله ﷺ أمّته من الفتنتين، فقال في شأن النساء: «**ما تركتُ بعدي فتنةً هي أضرّ على الرجال من النساء**»(١). وقال في فتنةِ المال: «**لكلِّ أمة فتنة، وفتنةُ أمتي المال**»(٢).

فلدى بعض الناس ميل غريزي للنساء أكثر بكثير من ميله لجمع المال، ولدى آخرين طمعٌ وجشع وشُحٌّ وهلع للمال مع زهده في أمر النساء، والشيطانُ يشمُّ قلبَ عدوّه وابنِ عدوه آدم، فحيثما وجد ضعفًا ولج منه، سواء من هذين البابين أو من سواهما كحب الرئاسة أو محبة الظلم أو غير لك. وقد جمعهما حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الدنيا**

(١) البخاري ١١/٧ (٥٠٩٦) ومسلم ٨٩/٨ (٢٧٤٠) (٩٧).

(٢) الترمذي (٢٣٣٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٤٨).

حلوةٌ خَضِرةٌ[١] **وإنّ الله مستخلفُكُم فيها، فناظرٌ كيف تعملون، فاتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء، فإنّ أول فتنة بني إسرائيل في النساء»**[٢]. ففتنةُ المال من أوّليات فتنة الدنيا للعالمين.

وإنّ لك ثوبَ إيمانٍ ناصعِ البياض فلا تلوّثه بسواد الخطايا، والعفافُ نَزْهٌ فخطوةُ الخيانة تلوّثُ أميالًا من العفاف. وأسأل ربك العفاف في أمرك كله، ومن الأدعية المأثورة: «**اللّٰهم إني أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى»**[٣]. ومنها: «**اللّٰهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك»**[٤]. فألحّ على ربك أن يحفظك بالعفاف في شأنك كله.

❋ **ومنها:** الاعتصام بالملك العلّام. فإنّ الاعتصام بالله عصمة من الهلكة، ووقاية من الخلل، وأمانٌ من الخذلان، وسلامة من عثرات الطريق.

وجوهرُ الاعتصام: صدقُ الاعتماد، وتجريد التعلق، وتمام الثقة، ورسوخ اليقين. فمن اعتصم بماله قلّ، ومن اعتصم بعقله ضلّ، ومن اعتصم بجاهه ذلّ، ومن اعتصم بالله عز وجل فلا قلّ ولا ضل ولا ذل، بل إلى ذرى المُنى يقينًا قد وصل.

---

(١) خَضِرَة: غضَّة ناعِمَة طريَّة نضِرة كالثمرة الطيبة.

(٢) مسلم (٧١٢٤).

(٣) مسلم ٨/٨١ (٢٧٢١).

(٤) الترمذي (٣٥٦٣) وحسنه الألباني في السلسلة (٢٦٦).

وجاء رجلٌ لابن الطَّلاية وقال: سلْ لي فلانًا في كذا وكذا، فقال: «قم معي فصلّ ركعتين، واسأل الله تعالى، فإني لا أترك بابًا مفتوحًا، وأقصد بابًا مغلقًا»(١).

تقولُ سَلِ المعروفَ يحيىَ بنَ أكثمٍ ... فقلتُ سليه ربَّ يحيى بنَ أكثما

ذلك أنّ الاعتصام بالله هو ركن التوفيق، فالمرءُ في كل أطواره وأزمانه متردد بين جلب الخير وثباته ونمائه، أو دفع الضر أو رفعه، ليس له حول وطول على الحقيقة البتة، إنما غاية جهده اتخاذ الأسباب المأمور بها من لدن المسبِّب الخالق البارئ، فهو لا شيء إلا بمعونة إلهه وسيده ومولاه.

يا من يُرجى للشدائدِ كلِّها ... يا من إليه المُشتكى والمَفزَعُ

وهذه الأسباب لا تستقل بحدوث تأثيراتها، بل لا بدّ من صرف موانعها، ولا يكون شيء من ذلك إلا بمشيئة رب العالمين، فعاد الأمر كما ابتدأ لمن بيده مقاليد الأمور وتصاريف الأشياء، فمَن رام التوفيق؛ فليلذ بذلك الركن، وليعتصم بمن لا يأتي بالخير ولا يدفع الشر سواه. قال الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من عرف الناس استراح» أي أنّهم لا ينفعون ولا يضرون.

والمعتصم بالله حقًّا في تحصيل إيمانه فغايته الجليلة ليس وراءها مرمى، كيف لا، وهو بالله يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشي! فلا يقومُ لقوّته قوة، ولا يتخلّف عن معيته توفيق. فالأمرُ كلُّهُ راجعٌ لتوفيق الله لعبده أو خذلانه،

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٩).

كما قيل: «وحّد قسّ بن ساعدة وما رأى رسول الله ﷺ، وكفر ابن أُبيّ وقد صّلى القبلتين»!

ومتى أحسن العبد الاعتصام بربه؛ انتظمت له سائرُ أعماله، وتيسرت له، وانشرح صدره بها، فإن الله شكور حميد. «فإنّ في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبدًا، وفيه شَعَثٌ لا يلمّه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له وعبادته وحده، فهو دائمًا يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذ يباشر روح الحياة ويذوق طعمها، ويصيرُ له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خُلق الخلق، ولأجله خلقت الجنة والنار، وله أرسلت الرسل ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاؤه إلا نفسُ وجودِه؛ لكفى به جزاء، وكفى بفوته حسرة وعقوبة»(١). قال الله جل ذكره موصيًا عباده بالاعتصام بحبله المتين الواصل إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران ١٠٢- ١٠٣] فالاعتصام وصيته سبحانه للمؤمنين به. وقال جل وعلا في بيان ألّا معصوم من كّل كريهةٍ إلا من عصمه برحمته: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود ٤٣].

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (١ / ٧١).

فاشـدد يـديكَ بحبـلِ الله معتصـمًا ... فإنّــه الــركنُ إن خانتــكَ أركــانُ

وأوصى الحريصُ الشفيق صلوات الله وسلامه وبركاته عليه بتحقيق الاعتصام بالله، وبيّن طرق تحصيله، فعن سفيان بن عبد الله الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله: حدثني بأمر أعتصم به، قال: «**قل ربي اللهُ، ثم استقم**». قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «**هذا**»(١). وأخبر ﷺ أنّ صِمَامَ أمانِ المؤمن اعتصامُه بكتاب ربه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال . في حديث الحج الطويل .: «**وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به؛ كتاب الله**»(٢).

❁❁❁❁

---

(١) الترمذي (٢٥٢٢) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٧٢)، وصححه الألباني، صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٠٨).

(٢) مسلم (١٢١٨).

كَفَاكَ حيرةً وتردّدًا

كثيرٌ من الشباب يعيش في حيرة من أمره ويقول: إنّ الأمورَ قد التبستْ عليَّ، ولا أدري أين الجادة النبوية حتى أضمن السلامة.

فأقول لكل من ضربته الحيرة: أيْ أخي الصالح، إنّ الحكمة عند الالتباس تقتضي التوقف تمامًا حتى لا تقع في الإلباس، وتكرعَ في حقوق الناس، لذلك فعُدْ بالأمر من أوّله، واترك هذه المناهج كلّها، واعتصم بالقرآن والسنة ففيهما مقنعٌ عن كلام الناس وجدالهم ومرائهم. وأول الانحراف: الخللُ في مصدر التلقي.

واعلم أنك متى انطرحت بين يدي مولاك، وضرعت إليه بكفِّ فقيرٍ كسيرِ قلبٍ، وردّدتَ بصدقٍ وإلحاح: «**اللّٰهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السماوات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، أنتَ تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون؛ اهدني لِمَا اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»(١)، وأخذتَ بأسباب الهدى؛ من الاعتصام بالله، ثم بما أوحاه من القرآن والسنة، ثم انشغلتَ بما أجمعَ عليه أهل العلم من العلوم التي لم يتفرّق فيها هؤلاء، فأكببتَ على حفظ كتاب الله وتفهّمه وتفسيره، وحفظ ما استطعت من سنة نبيك ﷺ، وقرأتَ عليها ما تيسر من شروح أهل السنة، وثنيت ركبتيك عند دروس من وثقت بعلمه

---

(١) مسلم (١/ ٧٧٠).

وورعه، وثنيت خناصرك على كتب أهل الدعوة الإصلاحية ومن سبقهم من كتب الأئمة كشيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وابن رجب وابن عبد الهادي والذهبي ونحوهم ومن سبقهم من الأئمة الأعلام كمالك والشافعي وأحمد والمروزي والدارمي وابن أبي عاصم وابن بطة وابن منده والخلال والآجُرّي واللالكائي وأبي عبيد القاسم بن سلام وابن عبد البر ونحوهم، ومَن سبقهم ولحقهم من أهل السنة. وكنت ذا حظّ من عبادة ظاهرة وباطنة، وكانت لك خبيئةٌ من عملٍ صالح لم يطّلع عليه سوى علام الغيوب، واجتنبت ظاهر الإثم وباطنة؛ فأنا ضمين لك -بإذن الله- بتوفيقٍ وفلاحٍ. فالله تعالى لا يضيع أولياءه، ولا يردّ سائله متى بذل أسباب الإجابة ولو بعد حين، ولَتذوقنَّ حلاوة الإيمان، وانفساح الصدر، وانشراح النفس، وراحة البال، وهنأة العيش، والسلامةَ من قيل وقال، وردَّ فلانٌ وكتبَ فلان، وانظروا فضيحةَ فلان، وانشروا كلام فلانٍ في فلان... إلى آخر ذلك الغثاء الذي لا يصفو منه بعد التحقيق الا القليل مما قد كُفيته بردود الراسخين، دون الشاغبين المتفيهقين.

وبعدُ فيا أخي الكريم: حيَّتْكَ الورودُ الناطقة بحمدِ من سكب فيها الجمال، وضوّع منها الشَّذى، وأخرج منها الثمر؛ إني -يا محبّ- قد نصحتُ لك، مع علمي بنقصي وجهلي وذنبي وتقصيري، فلا أُزكّي نفسي، فإني موقنٌ بقصورها وتقصيرها وذنوبها وجهلها، لكنها المحبة والإخاء. وما ذكرتُه مما حذّرتك منه؛ فمن بابِ اتّقاء الشرِّ قبل نزوله، ورفعِه بعد وقوعه، شفقةً ورحمةً ونُصحًا ومحبة، وليست من باب: إنّ الشفيق بسوء ظنّ مولَعُ. وما قصدتُ بهذه الحروف الهدمَ والنقد، بل البناء والحفظ، وما التوفيق إلا بالله العلي

العظيم، وما الحالُ إلا كما قال عمر بن ذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اللهُ المستعان على ألسنةٍ تصفُ، وقلوبٍ تعرفُ، وأعمالٍ تخلف».

فـلا تأخـذْ بتقصـيري وسـهوي وخُـذْ بوصـيّتي لـك إن رشـدتّا

سائلًا ربّي أن يستغرسني والقارئ في طاعته، وأن يجعلنا من أهل خشيته في الغيب والشهادة، ومن أهل كلمة الحق عند الغضب والرضا، وممن لا تأخذهم في الحق لومةُ لائمٍ، ولا قدحُ قادحٍ، ولا مدحُ مادح، ولا لغير الحق رَغَبًا ورَهَبًا ورجاء ومحبة.

نحاربُ من عادَى من الناسِ كلِّهم جميعًا وإن كـان الحبيـبَ المُصـافيا
ونعلـمُ أنّ اللهَ لا ربّ غـيرهُ وأنّ كِتَـابَ اللَّهِ أصْـبَحَ هادِيـا

❀❀❀❀

الخاتمة

على المؤمن أن يتحقّق من سلامة مقصده، ومن صحّة منهجه، فإن تمّ له ذلك؛ فليتوكل على من بيده مقاليد الأمور، وأزِمَّة النواصي، ولْيعلم أنّهُ مبتلى بأذى من لدن صادقين جهلة، أو خبثاء سفلة، فطريقُ الأنبياء كذلك.

فإن نَهَى عن شقّ عصا الطاعة لذي سلطان مسلمٍ، وأمرَ بنبذِ أسبابِ الفرقة؛ رُميَ بأنّه من فئة كذا، وإن أمرَ بالمعروف ونهى عن المنكر وعلّم القرانَ واحتسب الدعوة إلى الله؛ نُبز بأنه منتمٍ لفصيلِ كذا، وإن دعا إلى التذكير بشعيرةِ الجهاد في سبيل الله، ودعمِ المجاهدين والمرابطين ممن صحّ منهجهم، وسلِمُوا من الغلوّ؛ فسيُرمى بالتكفير والخروج، وإن تعاهد الناس بالمواعظ والرقائق وحسن الأخلاق؛ وُصم بأنه من جماعة كذا، ونحو ذلك مما تلفظُه الألسُن، ويحفظه الكرام الكاتبون.

وليس هذا بجديد، فمن سبق من أهل السنة لمّا أمر بتعظيم شأن التوحيد والسنة؛ رُميَ بتهمة الوهّابية، ولما دعا لتقديم مذهب السلف في الإيمان والأسماء والصفات والقدر؛ رمي بالتّيميّة، فإن شدّد في الاحتشام والأمرِ بالفضيلة؛ قيل: حنبلي، وهكذا الحال.. صراعٌ ومداولةٌ بين الحق والباطل، إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، ويأتي أمرُ الله وينفذ حكمه الموافق لحكمته، وتستبين سبيل المجرمين والمدّعين والمرجفين، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ

ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وهذا أوان الخاتمة أسألُ الله حسنَها، فللكلامِ غايةٌ، ولنشاط القارئ نهاية، عائذًا بربي من الهذر والرياء والإملال، سائله سبحانه العفو والغفران.

ومضةٌ قبل الرحيل: كلُّ أمرٍ تلجلجَ في صدركَ، وتردّدتَ فيه؛ فأَغمِضْ عينيك، ثمّ تخيّل مقامك بين يدي الله تعالى غدًا، فمتى كنتَ كذلك؛ فستعرفُ حينها ما ينبغي عليك فعله، إذْ قد زالتْ عن عينيك غشاوةُ الهوى. وختامًا:

أقولُ وقولوا معي يا أباةُ ... بِصوتٍ يطولُ أعالي القِممْ
إذا الدِّينُ أضحى ينادي رجالًا ... فلا خيرَ فينا إذا لم نقُمْ

إلهي، كم عودتني لطفك ورحمتك وإحسانك، أجبتَ الدعاء، وأسديتَ الرزق، ورفعتَ البأس، وسترتَ العيب. أنا عبدُك الآثمُ الآبقُ، وأنتَ ربي الكريم الرحيم. وانتهى الأمر بحمدك يا رب كما ابتدأ بحمدك. وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه ما سَجَتِ الغواسقُ، وهَمَتِ الغَوادِقُ، ودامتِ الخلائق، وعددَ أنفاسِ أهلِ الجنة.

ثبت المصادر والمراجع

١- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية لابن بطة، مجموعة من المشايخ، طبعة دار الراية.
٢- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، مصطفى ديب البغاء، دار ابن كثير.
٣- اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية، سامي بن محمد بن جار الله، دار عالم الفوائد.
٤- آداب حملة القرآن للنووي، محمد شادي، دار المنهاج.
٥- الاستذكار لابن عبد البر، دار إحياء التراث العربي.
٦- الاستقامة لابن تيمية، محمد رشاد سالم، دار الفضيلة.
٧- الأسماء والصفات للبيهقي، محمد محب الدين، مكتب التوعية الإسلامية.
٨- أصول مذهب الإمام أحمد، عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة.
٩- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم، بتخريج الألباني، دار ابن الجوزي.
١٠- اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، د. ناصر العقل، دار الفضيلة.
١١- الإمامة العظمى. عبد الله الدميجي. دار الوطن.
١٢- الإنجاز في ترجمة الإمام عبد العزيز بن باز، عبد الرحم الرحمة، دار الهجرة.
١٣- الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وآثارها في حياة الأمة. علي بن بخيت الزهراني، دار الرسالة.

١٤- الإيمان لابن تيمية، الألباني، المكتب الإسلامي.
١٥- الإيمان لابن أبي شيبة، الألباني، المكتب الإسلامي.
١٦- الإيمان بالقضاء والقدر، محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة.
١٧- البداية والنهاية، التركي، دار هجر.
١٨- البيان والتبيين للجاحظ، المكتبة العصرية.
١٩- تاريخ الأمم والملوك للطبري، محمد صبحي حلاق، دار ابن كثير.
٢٠- التاريخ الإسلامي، بشار عواد، دار الغرب الإسلامي.
٢١- تحفة الأحوذي، علي محمد معوض وعادل أحمد، دار إحياء التراث العربي.
٢٢- التحفة المهدية، فالح آل مهدي، دار الوطن.
٢٣- التدمرية، محمد عودة، دار العبيكان.
٢٤- تفسير ابن كثير، السلامة، دار طيبة.
٢٥- تفسير ابن رجب، طارق عوض الله، دار العاصمة.
٢٦- تفسير أضواء البيان للشنقيطي، دار عالم الفوائد بإشراف بكر أبو زيد.
٢٧- تفسير البغوي، عثمان ضميرية وآخرون، دار طيبة.
٢٨- تفسير التابعين، محمد الخضيري، دار الوطن.
٢٩- تفسير زاد المسير لابن الجوزي، المكتب الإسلامي.
٣٠- تفسير السعدي، دار ابن الجوزي.
٣١- تفسير السيوطي، التركي، دار هجر.
٣٢- تفسير الشوكاني، عبدالرحمن العميرة، دار الوفاء.
٣٣- تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، التركي، مؤسسة الرسالة.
٣٤- التوحيد لابن خزيمة، الشهوان، مكتبة الرشد.

٣٥- التوحيد لابن منده، علي الفقهي، دار الفرقان.

٣٦- التمهيد لابن عبد البر، أسامة بن إبراهيم، الفاروق الحديثة.

٣٧- توضيح مقاصد العقيدة الواسطية، عبد الرحمن بن ناصر البراك، دار التدمرية.

٣٨- تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبدالله آل الشيخ، زهير الشاويش، المكتب الإسلامي .

٣٩- حاشية ابن باز على بلوغ المرام، دار الامتياز للنشر.

٤٠- حاشية الدروس المهمة لابن باز، أحمد الطويان، دار طويق.

٤١- جامع البيان للطبري، دار الأعلام ودار ابن حزم.

٤٢- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي.

٤٣- جامع العلوم والحكم، طارق عوض الله، دار ابن الجوزي.

٤٤- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الطحان، مكتبة المعارف.

٤٥- الجامع لاختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية الفقهية، أحمد موافي، دار ابن الجوزي.

٤٦- الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، محمد عزير شمس وعلي العمران، دار عالم الفوائد.

٤٧- جامع المسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية، محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد.

٤٨- الجامع لشعب الإيمان للبيهقي، عبد العلي عبد الحميد، مكتبة الرشد.

٤٩- جلاء الأفهام لابن القيم، مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي.

٥٠- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية، علي حسن ناصر

وعبدالعزيز العسكر وحمدان الحمدان، دار طيبة.
٥١- الحكم بغير ما أنزل الله. عبد الرحمن المحمود، دار طيبة.
٥٢- الحموية، حمد عبد المحسن التويجري، دار الصميعي.
٥٣- الحياة الآخرة، غالب عواجي، المكتبة العصرية الذهبية.
٥٤- درء تعارض العقل والنقل، إياد عبد اللطيف إبراهيم القيسي، مكتبة الرشد.
٥٥- الدرر السنية، بإشراف دار القاسم.
٥٦- الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد، دغش العجمي، دار غراس.
٥٧- الرد على الجهمية للدرامي، بدر عبد الله البدر، الدار السلفية.
٥٨- دعاوى المناوئين، عبد الله صالح الغصن، دار ابن الجوزي.
٥٩- روضة الطالبين للنووي، زهير الشاويش، المكتب الإسلامي.
٦٠- رياض الصالحين للنووي، المكتب الإسلامي.
٦١- السلسبيل في معرفة الدليل، صالح البليهي، مكتبة المعارف.
٦٢- السلسلة الصحيحة والضعيفة للألباني، المكتب الإسلامي.
٦٣- سلم الوصول لحافظ الحكمي، عبد الله بن فيصل الراجحي، مكتبة الراجحي.
٦٤- السنة لابن أبي عاصم، الألباني، المكتب الإسلامي.
٦٥- السنة للخلال، عطية الزهراني، دار الراية.
٦٦- سنن الدراقطني، مؤسسة الرسالة.
٦٧- السنن الكبرى للبيهقي، التركي، دار عالم الكتب.
٦٨- سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي، تحقيق مكتب تحقيق التراث الإسلامي، دار المعرفة.
٦٩- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية، علي العمران، دار

عالم الفوائد.

٧٠- سير أعلام النبلاء للذهبي، مؤسسة الرسالة.

٧١- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لللالكائي، أحمد سعد حمدان الغامدي، دار طيبة.

٧٢- شرح بلوغ المرام، البسام، المكتبة الأسدية.

٧٣- شرح الرسالة التدمرية لابن تيمية، عبد الرحمن بن ناصر البراك، كنوز إشبيليا.

٧٤- شرح سنن ابن ماجه، أحمد أبي العينين، مكتبة ابن عباس.

٧٥- شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، عبدالله التركي وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة.

٧٦- شرح القصيدة التائية لابن تيمية، محمد الحمد، دار ابن خزيمة.

٧٧- شرح الأربعين النووية لابن عثيمين، دار الثريا.

٧٨- شرح العقيدة السفّارينية، العثيمين. مدار الوطن.

٧٩- الشريعة للآجري، عبد الله الدميجي، مدار الوطن.

٨٠- الشرح الممتع للعثيمين، مؤسسة آسام ودار ابن الجوزي.

٨١- الصحاح للجوهري، دار إحياء التراث العربي.

٨٢- صحيح البخاري، الطبعة الأميرية، محمد زهير الناصر.

٨٣- صحيح الجامع الصغير وزيادته، الألباني، المكتب الإسلامي.

٨٤- صحيح ابن حبان، دار التأصيل.

٨٥- صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة العربية، إبراهيم الدميجي، دار الفردوس.

٨٦- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم، علي الدخيل الله، دار

العاصمة.
٨٧- ضعيف الجامع الصغير وزيادته، الألباني، المكتب الإسلامي.
٨٨- العبودية لابن تيمية، علي حسن علي، دار الأصالة.
٨٩- العقود الدرية لابن عبد الهادي، علي العمران، دار عالم الفوائد.
٩٠- العقيدة الواسطية لابن تيمية، دغش بن شبيب العجمي، مكتبة أهل الأثر بالكويت.
٩١- عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية بيروت.
٩٢- فكر التنصير في مسرحيات شكسبير، عدنان محمد وزان، دار إشبيليا.
٩٣- الفتاوى الكبرى لابن تيمية، دار الكتب العلمية.
٩٤- فتاوى ابن تيمية، طبعة مجمع الملك فهد.
٩٥- فتاوى اللجنة الدائمة، دار المؤيد.
٩٦- فتاوى ابن باز، أصداء المجتمع.
٩٧- فتاوى ابن عثيمين، دار الثريا.
٩٨- فتح الباري لابن حجر، نظر الفريابي، دار طيبة.
٩٩- فتح الباري لابن رجب، طارق عوض الله، ابن الجوزي.
١٠٠- فتح العلي الأعلى بشرح القواعد المثلى لابن عثيمين، عبيد الجابري. مكتبة الفرقان.
١٠١- فتح المجيد لعبد الرحمن بن حسن، وليد الفريان، دار المؤيد.
١٠٢- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، عبد الرحمن يحيى، دار المنهاج.
١٠٣- الفوائد الجلية من دروس ابن باز العلمية، دار طيبة.
١٠٤- الفتوى الحموية لابن تيمية، حمد عبد المحسن التويجري، دار الصميعي.

١٠٥- القاموس المحيط للفيروزآبادي، بيت الأفكار الدولية.
١٠٦- قرة عيون الموحدين لعبد الرحمن بن حسن، وليد الفريان، دار عالم الفوائد.
١٠٧- قصة الحضارة، ول ديورانت، دار الجيل.
١٠٨- القضاء والقدر، عبد الرحم المحمود، دار الوطن.
١٠٩- قضايا عقدية معاصرة، ناصر العقل، دار الفضيلة.
١١٠- الكافي لابن قدامة، دار الكتاب العربي.
١١١- الكافية الشافية لابن القيم، تحقيق علي الحلبي، دار ابن الجوزي.
١١٢- الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الصادر.
١١٣- كتاب الفروع لابن مفلح المقدسي، دار الرسالة ودار المؤيد.
١١٤- لسان العرب لابن منظور، دار الحديث، القاهرة.
١١٥- لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي، دار ابن كثير.
١١٦- محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إبراهيم الدميجي، دار الفضيلة.
١١٧- المجموع للنووي، مكتبة الإرشاد.
١١٨- مجموع آثار ابن تيمية، بإشراف بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد.
١١٩- مجموع آثار ابن القيم، بإشراف بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد.
١٢٠- مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي، الفاروق الحديثة.
١٢١- مجموعة الرسائل العقدية لمحمد عبد الظاهر أبي السمح، عبد الله الدميجي، دار الفضيلة.
١٢٢- مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية، دار ابن رجب.
١٢٣- مسائل الإمام أحمد برواية ابنه صالح، طارق عوض الله، مدار الوطن.
١٢٤- مسائل حرب الكرماني عن الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه، الوليد

الفريان، دار ابن الأثير.
١٢٥- مسائل الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه برواية إسحاق الكوسج، خالد محمود ووئام الحوشي وجمعة فتحي، دار الهجرة.
١٢٦- مسند الإمام أحمد، شعيب الأرناؤوط وجماعة، مؤسسة الرسالة.
١٢٧- مصباح الظلام لعبد اللطيف آل الشيخ، عبد العزيز الزير آل حمد، وزارة الشؤون الإسلامية.
١٢٨- مصنف ابن أبي شيبة، الشثري، دار إشبيليا.
١٢٩- معارج القبول لشرح سلم الوصول لحافظ الحكمي، محمد صبحي حلاق، دار ابن الجوزي.
١٣٠- معجم تهذيب اللغة لأبي منصور لأزهري، دار المعرفة.
١٣١- منار السبيل لإبراهيم بن ضويان، زهير الشاويش، المكتب الإسلامي.
١٣٢- المنح الشافيات بشرح مفردات الإمام أحمد، منصور البهوتي. كنوز إشبيليا.
١٣٣- منهاج السنة النبوية، محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
١٣٤- المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي، دار المعرفة.
١٣٥- الموطأ لمالك بن أنس، المكتبة الثقافية بيروت.
١٣٦- النبوات، ابن تيمية، دار الكتاب العربي.
١٣٧- نزهة الفضلاء لمحمد الشريف، الأندلس الخضراء.
١٣٨- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سالم النشار، دار المعارف.
١٣٩- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم، دار عالم الفوائد.
١٤٠- وقد يجمع الله الشتيتين، إبراهيم الدميجي، دار المفردات.

١٤١- الولاء والبراء في الإسلام، محمد سعيد القحطاني، دار طيبة.

١٤٢- ويكون الدين كله لله، إبراهيم الدميجي، دار الفضيلة.

